المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد الخامس عشر
ربيع الآخر ١٤٣١هـ

- محمد بن عبدالدائم البرماوي (٧٦٣هـ-٨٣١هـ) حياته واختياراته النحوية
  د. ناصر بن محمد كريري
- الشبه اللفظي عند النحويين "دراسة نظرية تطبيقية"
  د. عبدالرحمن بن عبدالعزيز المقبل
- من أسرار النظم في سورة القمر
  د. فائزة بنت سالم صالح أحمد
- المقامات العشر" لعبدالرحيم العباسي"
  د. حسن بن أحمد النعمي
- صورة المعوق في الشعر السعودي "دراسة في المضمون والشكل"
  د. عبدالله بن عبدالرحمن الحيدري

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research

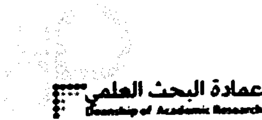
www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

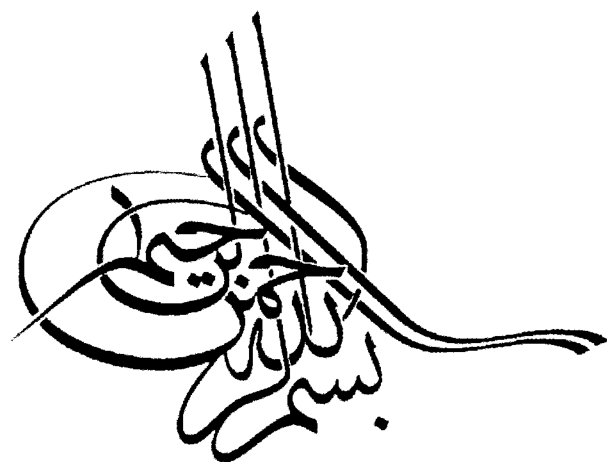
العدد الخامس عشر

ربيع الآخر ١٤٣١هـ



www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

رقم الإيداع: ٣٥٦٣ / ١٤٢٩ بتاريخ ١٩ / ٠٦ / ١٤٢٩هـ
الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٤١٩٨ ـ ١٦٥٨


بسم الله الرحمن الرحيم



أعضاء هيئة التحرير

قواعد النشر

مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم العربية) دورية علمية محكمة، تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. وتُعنى بنشر البحوث العلمية وفق الضوابط الآتية :

أولاً : يشترط في البحث ليقبل للنشر في المجلة :

١- أن يتسم بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه .

٢- أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة في مجاله .

٣- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج .

٤- أن يتسم بالسلامة اللغوية .

٥- ألا يكون قد سبق نشره .

٦- ألا يكون مستلاً من بحث أو رسالة أو كتاب، سواء أكان ذلك للباحث نفسه، أو لغيره .

ثانياً : يشترط عند تقديم البحث :

١- أن يقدم الباحث طلباً بنشره، مشفوعاً بسيرته الذاتية (مختصرة) وإقراراً يتضمن امتلاك الباحث لحقوق الملكية الفكرية للبحث كاملاً، والتزاماً بعدم نشر البحث إلا بعد موافقة خطية من هيئة التحرير .

٢- ألا تزيد صفحات البحث عن (٥٠) صفحة مقاس (A ٤) .

٣- أن يكون بنط المتن (١٧) Traditional Arabic، والهوامش بنط (١٣) وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرد) .

٤- يقدم الباحث ثلاث نسخ مطبوعة من البحث، مع ملخص باللغتين العربية والإنجليزية، لا تزيد كلماته عن مائتي كلمة أو صفحة واحدة ..

ثالثاً: التوثيق :

١- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة .

٢- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث .

٣ - توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط المحقق في مكانها المناسب .

٤ - ترفق جميع الصور والرسومات المتعلقة بالبحث، على أن تكون واضحة جلية .

رابعاً : عند ورود أسماء الأعلام في متن البحث أو الدراسة تذكر سنة الوفاة بالتاريخ الهجري إذا كان العَلَم متوفى .

خامساً : عند ورود الأعلام الأجنبية في متن البحث أو الدراسة فإنها تكتب بحروف عربية وتوضع بين قوسين بحروف لاتينية، مع الاكتفاء بذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة .

سادساً : تُحكَّم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين من المحكمين على الأقل.

سابعاً : تُعاد البحوث معدلة، على أسطوانة مدمجة CD أو ترسل على البريد الإلكتروني للمجلة .

ثامناً : لا تعاد البحوث إلى أصحابها، عند عدم قبولها للنشر .

تاسعاً : يُعطى الباحث خمس نسخ من المجلة، وعشر مستلات من بحثه .

عنوان المجلة :

جميع المراسلات باسم عميد البحث العلمي

الرياض ١١٤٣٢- ص ب ٥٧٠١

هاتف : ٢٥٨٢٢٣٠ - ناسوخ (فاكس) ٢٥٩٠٢٦١

www. imamu.edu.sa

E.mail: journal@imamu.edu.sa

المحتويات

محمد بن عبدالدائم البرماوي (٧٦٣هـ-٨٣١هـ) حياته واختياراته النحوية ١٣

د. ناصر بن محمد كريري

الشبه اللفظي عند النحويين "دراسة نظرية تطبيقية" ٨٣

د. عبدالرحمن بن عبدالعزيز المقبل

من أسرار النظم في سورة القمر ١٥٥

د. فائزة بنت سالم صالح أحمد

المقامات العشر" لعبدالرحيم العباسي" ٢٠٥

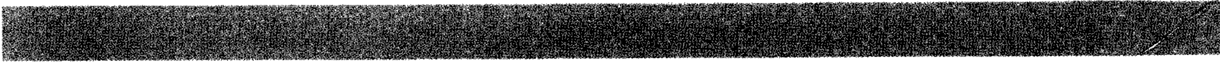
د. حسن بن أحمد النعمي

صورة المعوق في الشعر السعودي "دراسة في المضمون والشكل" ٣٢٩

د. عبدالله بن عبدالرحمن الحيدري

محمد بن عبدالدائم البرماوي (٧٦٣هـ - ٨٣١هـ)
حياته واختياراته النحوية

د. ناصر بن محمد كريري
قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



محمد بن عبدالدائم البرماوي (٧٦٣هـ - ٨٣١هـ)
حياته واختياراته النحوية

د. ناصر بن محمد كريري
قسم النحو والصرف وفقه اللغة
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يسلّط هذا البحث الضوء على عَلَم من أعلام اللغة والفقه والأصول والحديث ، وهو : شمس الدين محمد بن عبدالدائم البِرماوي المولود سنة (٧٦٣هـ) والمتوفى سنة (٨٣١هـ) قرأ على كبار علماء عصره أمثال الزركشي وابن القارئ وابن الملقّن وابن جماعة وزين الدين العراقي وغيرهم ، وعنه أخذ خلق كثيرون في مصر ودمشق ومكة المكرمة وبيت المقدس وهناك انتقل إلى رحمة ربّه ، وترك لنا ثروة علمية في النحو والفقه والأصول والحديث ، منها : شرح اللمحة البدرية ، وشرح الصدور بشرح زوائد الشذور ، وشرح صحيح البخاري ، والفوائد السنيّة في شرح الألفية في أصول الفقه ، وغيرها. خصصت المبحث الأول للحديث عن حياة البِرماوي : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ، ومولده ونشأته وتنقلاته ، وشيوخه ، وتلاميذه ، ومنزلته العلمية ، ووفاته ، وآثاره. وتكلمت في المبحث الثاني على اختياراته النحوية من خلال إحدى وعشرين مسألة نحوية كان للبِرماوي فيها رأي مدعمًا بالدليل والتعليل. لعلّ هذه الدراسة تفي بشيء ممّا يستحقه هذا العالم الذي لم ينل حقّه من البحث والدراسة ، فتكشف عن حياته ، وتجلي شخصيته النحوية.

المقدمة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، أما بعد :

فلا يخفى على كلّ ذي لبّ وبصيرة ما للغة العربية من مكانة بين اللغات ، ومالها من قدسيّة ومنزلة في الإسلام ، بها نزل القرآن الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وإن من أجلّ العلوم بعد العلم بكتاب الله ، وسنة نبيّه – صلى الله عليه وسلّم – ما كان موصلاً لفهم الكتاب والسنة ، والسبيل لفهمهما معرفة علم العربية ، وإن من أهم علوم العربية التي عني بها المسلمون علم النحو .

لقد حفل تاريخ النحو في كل مصر من الأمصار بنخبة من العلماء الذين قدموا للدراسات النحوية واللغوية خدمات تذكر فتشكر ، وأسهموا في ذلك إسهاماً سجله لهم التاريخ ،ودلّ عليه ما خلفوه لنا من علم جم ، وجهد ضخم ، ومصنفات مأثورة ، وآراء مبثوثة ، فلم يألوا جهداً في ذلك ، فجزاهم الله خيراً على ما قدموا .

وقد نال كثير من النحويين نصيبا من العناية والدراسة من خلال البحوث العلمية أو الرسائل الجامعية ، وإلى جانب أولئك بقي عدد آخر من النحويين لم ينالوا حقهم من الدراسة والبحث ، ولم يكشف النقاب بعدُ عن جهودهم وآرائهم وتتبع أخبارهم .

ومن هؤلاء العلماء الأعلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الدائم البِرْماوي النحوي الأصولي الفقيه المحدّث .

ومن أجل ذلك كان هذا البحث الموسوم بـ " محمد بن عبد الدائم البِرْماوي (٧٦٣ هـ – ٨٣١ هـ) حياته واختياراته النحوية " .

الذي قمت فيه باستجلاء حياة البِرْماوي واختياراته النحوية .

وجعلته في مبحثين :

المبحث الأول : البِرْماوي (٧٦٣ هـ – ٨٣١ هـ) .

تناولت فيه : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ، ومولده ، ونشأته وتنقلاته ، وشيوخه ، وتلاميذه ومنزلته العلمية ، ووفاته ، وآثاره .

المبحث الثاني : اختياراته النحوية .

عرضت فيه إحدى وعشرين مسألة نحوية ، جمعتها من كتابي البرماوي : شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ، وشرح اللمحة البدرية ، مرتبة وفق أبواب الألفية ، وجعلت لكل مسألة عنواناً مناسباً لمضمونها ، وناقشت آراء النحويين فيها ، مبيّنا موقف البِرْماوي منها مرجِّحًا ما بدا لي ، راجيا أن أكون قد وفّقت في الكشف عن شخصية البِرْماوي وتجليتها وإماطة اللثام عنها ، وتبيين اختياراته النحوية.

وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت ، وإليه أنيب .

* * *

المبحث الأول : البِرْماوي (٧٦٣ هـ - ٨٣١ هـ):

١- اسمه ونسبه وكنيته ولقبه[١] :

هو محمد بن عبد الدائم بن موسى بن عبد الدائم بن فارس بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النُّعيمي، العسقلاني الأصل، البِرْماوي القاهري الشافعي.

كنيته أبو عبد الله، ولقبه شمس الدين، وقد غلب عليه حتى عرف بالشمس البِرْماوي.

سمّى ابن حجر[٢] جدّه عيسى بدل موسى، وأشار السخاوي[٣] إلى أن هذا سهو من شيخه يعني ابن حجر.

ودعي الشمس البِرْماوي بالنُّعيمي – بضم النون – نسبة إلى نُعيم بن عبد الله المجمر[٤] مولى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والعسقلاني نسبة إلى مدينة عسقلان على ساحل بلاد الشام، والبِرْماوي – بكسر الباء الموحدة – نسبة إلى بِرْمة إحدى قرى محافظة الغربية بمصر[٥].

٢- مولده :

ولد شمس الدين البِرْماوي في منتصف ذي القعدة سنة ثلاث وستين وسبع مئة(٧٦٣هـ) وهذا متفق عليه بين جميع من ترجم له.

٣- نشأته وتنقلاته :

نشأ البِرْماوي في بيت علم وأدب، فأبوه زين الدين عبد الدائم كان مؤدّبا لأطفال البلدة (بِرْمة) مسقط رأس شمس الدين البِرْماوي، يعلم الأطفال القراءة والكتابة وعلوم الدين والعربية، وقد قدّر للبِرْماوي أن يحظى بنعمة العلم في ظل رعاية أبيه، فحفظ على يديه القرآن الكريم، وبعضا من كتب الفقه والحديث والعربية[٦].

---

(١) مصادر الترجمة : طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٤/١٠١، وإنباء الغمر ٣/٤١٤، والضوء اللامع ٧/٢٨٠. وحسن المحاضرة ١/٤٣٩، والأنس الجليل ٢/١١٢، وشذرات الذهب ٧/١٩٧، والبدر الطالع ٢/١٨١، وكشف الظنون ١٥٧، ٥٤٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ١١٧٠، ١٥٦١، ١٨٨١، ١٩٢٣، وإيضاح المكنون ٦١٧، ٦١٨، وهدية العارفين ٢/١٨٦، والأعلام ٦/١٨٨، ومعجم المؤلفين ١٠/١٣٢، والفتح المبين في طبقات الأصوليين ٣/٢٩.

(٢) إنباء الغمر ٣/٤١٤.

(٣) الضوء اللامع ٧/٢٨٠.

(٤) الضوء اللامع ٧/٢٨٠.

(٥) معجم البلدان ١/٤٠٣.

(٦) انظر : الضوء اللامع ٧/٢٨١.

ثم أقبل على حلقات العلم بالقاهرة فأخذ عن نخبة من علماء عصره، أذكر منهم:

عبد الرحمن بن علي بن القارئ (ت٧٧٦هـ) وإبراهيم بن إسحاق الآمدي(ت٧٧٨هـ) وإبراهيم بن أحمد التنوخي (ت ٨٠٠ هـ) وبرهان الدين الأبناسي (ت ٨٠٢ هـ) وابن الملقن (ت ٨٠٤ هـ) والسراج البلقيني (ت ٨٠٥هـ)وزين الدين العراقي (ت ٨٠٦ هـ).

ولازم بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) وحرر بعض تصانيفه[١].

وبقي البِرْماوي مكبًا على الطلب، حتى ضاقت به الحال واشتد به الفقر، واغتمّ لذلك، فعمل في خدمة بدر الدين محمد بن أبي البقاء (ت ٨٠٣ هـ) وناب عنه في الحكم، ثم ناب عن ابن البلقيني (ت ٨٢٤ هـ) وكان قاضيا جليل القدر، وناب أيضا عن القاضي تقي الدين محمد بن عبد الواحد الأخنائي (ت ٨٣٠ هـ) ثم أعرض عن ذلك بعد حسن الحال، وأقبل على العلم والتدريس والتصنيف، وكان للطلبة به نفع[٢].

ذكر السخاوي: أن البرماوي كان " في كل سنة يقسم كتابا من المختصرات، فيأتي على آخره، ويعمل وليمة "[٣].

وظل كذلك حتى استدعاه نجم الدين عمر بن حجي (ت ٨٣٠ هـ)[٤] إلى دمشق، وذلك في جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وثمان مئة (٨٢١ هـ)[٥].

الرحلة إلى دمشق:

كانت تربط نجم الدين عمر بن حجي بالبِرْماوي صداقة قديمة تعود إلى أيام الدراسة، فقد لازما بدر الدين الزركشي في القاهرة، فتوجّه البِرْماوي إلى دمشق إجابة لدعوة صديقه، فالتقى نجم الدين، ونزل عنده، فأكرمه، وأحسن مثواه، واستنابه في الحكم وفي الخطابة في جامع دمشق، ثم ولي إفتاء دار العدل عوضا عن الشهاب الغزي الذي توفي سنة (٨٢٢هـ) ثم أسند إليه التدريس في الرواحية والأمينية، وعكف عليه الطلبة وكان مما أقرأه كتاب (التنبيه) في فقه الشافعية للشيرازي (ت٤٧٦هـ) و (الحاوي) في الفروع لنجم الدين القزويني (ت ٦٦٥ هـ) و (المنهاج) للنووي (ت٦٧٦هـ)[٦].

---

(١) انظر: إنباء الغمر ٣/ ٤١٤، والبدر الطالع ٢/ ١٨١.

(٢) انظر: إنباء الغمر ٣/ ٤١٤، والضوء اللامع ٧/ ٢٨١.

(٣) الضوء اللامع ٧/ ٢٨١.

(٤) انظر: شذرات الذهب ٧/ ١٩٣.

(٥) انظر: الضوء اللامع ٧/ ٢٨١.

(٦) انظر: إنباء الغمر ٣/ ٤١٤، والضوء اللامع ٧/ ٢٨١، والبدر الطالع ٢/ ١٨١.

الرجوع إلى القاهرة :

في أثناء وجود البرماوي في دمشق توفي ابنه محمد ، فأسف عليه ، وكره الإقامة بدمشق[1]، فعاد إلى القاهرة ،وكان ذلك في رجب سنة ست وعشرين وثماني مئة(٨٢٦هـ) فتصدّى للإفتاء والتدريس والتصنيف ، وأسندت إليه مشيخة المدرسة الفخرية ودرس الفقه بالمؤيدية ، والتفسير بالمنصورية[2] .

السفر إلى مكة المكرمة ومجاورة بيت الله الحرام :

في سنة ثمان وعشرين وثماني مئة (٨٢٨ هـ) قصد البِرْماوي مكة المكرمة حاجاً ، وبعد أداء الفريضة مكث فيها مجاوراً سنة ، ينشر العلم ، وانتفع به طلبة العلم ، وفيها شرح صحيح البخاري ، ثم عاد إلى القاهرة سنة ثلاثين وثماني مئة (٨٣٠ هـ)[3] .

–الذهاب إلى بيت المقدس :

بعد رجوعه من مكة إلى القاهرة استدعاه نجم الدين عمر بن حجي إلى بيت المقدس للتدريس في المدرسة الصلاحية ، وتولي نظرها بعد وفاة شمس الدين الهروي (٨٣٠ هـ) فباشرها نحو سنة ، مع ملازمة الضعف له بسبب القرحة[4] .

٤– شيوخه :

تلقى البِرْماوي عن عدد غير قليل من العلماء فسمع منهم ، وأخذ عنهم وقرأ عليهم ، ومن هؤلاء :

– ابن القارئ (ت ٧٧٦ هـ)[5] :

عبد الرحمن بن علي بن محمد بن هارون المعروف بابن القارئ ولد سنة (٦٩٤ هـ) وقدم حلب سنة (٧٤٨ هـ) ومات في أواخر سنة (٧٧٦ هـ) .

قال ابن حجر : " وسمع من إبراهيم بن إسحاق الآمدي ، ومن عبد الرحمن بن علي القارئ ، وغيرهما "[6] .

---

(١) انظر : إنباء الغمر ٣/٤١٤ ، ٤١٥ .

(٢) انظر : الضوء اللامع ٧/٢٨١ .

(٣) انظر : الأنس الجليل ٢/١١٢ .

(٤) انظر : إنباء الغمر ٣/٤١٥ ، وشذرات الذهب ٧/١٩٧ .

(٥) انظر : الدرر الكامنة ٢/٤٤٥ .

(٦) إنباء الغمر ٣/٤١٤ .

- إبراهيم بن إسحاق الآمدي (ت ٧٧٨ هـ)[١] :

إبراهيم بن إسحاق بن يحيى بن إسماعيل الآمدي ، ولد بدمشق سنة (٦٩٥هـ) وسمع من ابن المشرف ، ومات في ربيع الأول سنة (٧٧٨ هـ) .

قال السخاوي : " وسمع الحديث على إبراهيم بن إسحاق الآمدي "[٢]

- بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ)[٣] :

محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ولد سنة (٧٤٥ هـ) أخذ عن جمال الدين الأسنوي وسراج الدين البلقيني ، له البحر المحيط في الأصول ، وشرح جمع الجوامع ، توفي في رجب سنة (٧٩٤ هـ) .

قال ابن حجر في ترجمة البرماوي : " ولازم الشيخ بدر الدين الزركشي "[٤] .

- إبراهيم التنوخي (ت ٨٠٠ هـ)[٥] :

إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد المؤمن التنوخي البعلي بلغ عدد شيوخه نحو ست مئة بالسماع والإجازة ، توفي سنة (٨٠٠هـ) وممن قرأ عليه ابن حجر والبرماوي وغيرهما .

- إبراهيم الأبناسي (ت ٨٠٢ هـ)[٦] :

إبراهيم بن موسى بن أيوب الأبناسي ، ولد سنة (٧٢٥ هـ) وأخذ عن جمال الدين الأسنوي وغيره ، توفي في المحرم سنة (٨٠٢ هـ) .

- ابن الملقن (ت ٨٠٢ هـ)[٧] :

عمر بن علي بن أحمد سراج الدين أبو حفص الأنصاري الأندلسي المصري المعروف بابن الملقن . ولد سنة (٧٢٣ هـ) وتوفي سنة (٨٠٤ هـ) .

قال السخاوي "وأخذ – أيضا – عن الأبناسي وابن الملقن والعراقي وغيرهم "[٨] .

---

(١) انظر : الدرر الكامنة ١٨/١ .

(٢) الضوء اللامع ٧ ٢٨١ .

(٣) انظر : طبقات الشافعية ٣ /١٦٧ ، وشذرات الذهب ٦ /٢٣٥ .

(٤) إنباء الغمر ٣ /٤١٤ .

(٥) انظر : الدرر الكامنة ١١/١ .

(٦) انظر : حسن المحاضرة ٤٣٧/١ .

(٧) انظر : إنباء الغمر ٥ /٤١ ، البدر الطالع ٥٠٨/١ .

(٨) الضوء اللامع ٧ /٢٨١ .

- سراج الدين البُلقيني (ت ٨٠٥ هـ)[١] :

عمر بن رسلان بن نصير بن صالح سراج الدين البلقيني ، الفقيه المحدّث المفسّر، الأصولي ولد سنة (٧٢٤ هـ) وتوفي سنة (٨٠٥ هـ) أخذ عن تقي الدين السبكي وغيره .

يقول ابن حجر في ترجمة البِرماوي : " وحضر دروس الشيخ سراج الدين البلقيني ، وقرأ عليه غالبها ، وقد سمعت بقراءته على الشيخ مختصر المزني "[٢] .

- زين الدين العراقي (٨٠٦ هـ)[٣] :

عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن أبو الفضل زين الدين العراقي الأصل ، نزيل القاهرة ، أخذ عن برهان الدين الرشيدي ، والسمين ، وعلاء الدين التركماني ، وعنه أخذ ابن حجر وشمس الدين البرماوي توفي سنة (٨٠٦ هـ) .

- عز الدين بن جماعة (ت ٨١٩ هـ)[٤] :

عز الدين محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن جماعة ، فقيه أصولي محدّث أديب نحوي لغوي ، ولد سنة (٧٤٩ هـ) وتوفي سنة (٨١٩ هـ) له شرح جمع الجوامع ، وحاشية على العضد .

٥- تلاميذه :

تتلمذ على الشيخ شمس الدين البرماوي خلق كثير في القاهرة ودمشق ومكة المكرمة والقدس وفي كلّ مكان نزل به يقول الشوكاني : " توجّه إلى دمشق ، وأقرأ الطلبة هنالك ، ودرّس في مدارس ، ثم عاد إلى القاهرة ، وتصدّى للإفتاء والتدريس والتصنيف ، وانتفع به الناس ، وطار صيته ، وصار طلبته رؤساء في حياته ، ثم حجّ وجاور ، ونشر العلم هنالك ، وتوجّه إلى القدس ، فدرس في بعض مدارسها ، وكان إماما في الفقه وأصوله والعربية وغير ذلك "[٥] .

ومن تلاميذه :

- تاج الدين الغرابيلي (ت ٨٣٥ هـ)[٦] :

---

(١) انظر : طبقات الشافعية ٤ / ٣٦ ، وحسن المحاضرة ١/ ٣٥٩ .

(٢) إنباء الغمر ٣ / ٤١٤ .

(٣) انظر : الضوء اللامع ٤/ ١٧١ ، وحسن المحاضرة ١/ ٣٦٠ .

(٤) انظر : طبقات الشافعية ٤ / ٤٩ ، وشذرات الذهب ٧ / ١٣٩ .

(٥) البدر الطالع ٢/ ١٨١ .

(٦) انظر : الضوء اللامع ٩ / ٣٠٦ ، الأنس الجليل ٢ / ١٧٠ .

محمد بن محمد بن علي تاج الدين الغرابيلي القاهري الكركي المقدسي ، نشأ وتعلم بالكرك ، ثم تحول به والده إلى بيت المقدس ، ولازم ممن لازم من العلماء شمس الدين البرماوي ، فأخذ عنه الفقه وأصوله والحديث والنحو ، توفي سنة (٨٣٥ هـ) .

– ابن حجي (ت ٨٥٠ هـ)[١] :

محمد بن عمر بن حجي ، ولد سنة (٨١٢ هـ) أخذ عن أبيه وعن شمس الدين البرماوي ، وكان أبوه قد دعا البرماوي إلى دمشق فأجابه في سنة (٨٢١ هـ) كما تقدم ذكره .

– عبد الكريم القلقشندي (ت ٨٥٥ هـ)[٢] :

ولد سنة (٨٠٨ هـ) ببيت المقدس ، ونشأ فيه وتعلّم ، وأخذ عن أبيه وشمس الدين البرماوي توفي سنة (٨٥٥ هـ) .

– جلال الدين المحلي (ت ٨٦٤ هـ)[٣] :

محمد بن أحمد بن محمد جلال الدين المحلي ، ولد بمصر سنة (٧٩١ هـ) أخذ الفقه والأصول والعربية عن شمس الدين البرماوي ، توفي سنة (٨٦٤ هـ) .

– جمال الدين بن جماعة (ت ٨٦٥ هـ)[٤] :

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن جماعة الكناني الحموي المقدسي نشأ ببيت المقدس ، وتلقى تعليمه فيه ، وأخذ عن علمائه ، ثم توجه إلى القاهرة ، وأخذ عن أشهر العلماء هناك ومنهم شمس الدين البرماوي ، ولما صار البرماوي شيخاً للمدرسة الصلاحية فوّض جمال الدين بالتدريس فيها توفي سنة (٨٦٥ هـ) وكانت ولادته سنة (٧٨٠هـ) .

– التقي بن فهد (ت ٨٧١ هـ)[٥] :

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن فهد الهاشمي العلوي المكي ، أخذ عن كثير من العلماء منهم ابن حجر والبرماوي ، برع في الحديث وفاق أقرانه .

– المناوي (ت ٨٧٢ هـ)[٦] :

---

(١) انظر : الضوء اللامع ٨/ ٢٤٢ .

(٢) انظر : الأنس الجليل ٢/ ١٨٤ .

(٣) انظر : حسن المحاضرة ١/ ٤٤٣ ، والبدر الطالع ٢/ ١١٥ .

(٤) انظر : الضوء اللامع ٥/ ٥١ ، والأنس الجليل ٢/ ١١٢ ، ١١٥ .

(٥) انظر : البدر الطالع ٢/ ٢٥٩ .

(٦) انظر : الضوء اللامع ٤/ ٢٢٠ .

عبد العزيز بن عبد الواحد بن عبد الله المناوي ، حضر دروس شمس الدين البرماوي ، وحفظ العمدة والتنبيه والمنهاج وألفية ابن مالك ، وتصدى للإفتاء والإقراء حتى انتفع به كثيرون .

– الرملي (ت ٨٧٧ هـ)[١] :

شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن الرملي الشافعي المعروف بأبي الأسباط ، درس عليه العربية ، توفي سنة (٨٧٧ هـ) وكان مولده سنة (٨٠٥ هـ) .

– العبادي (ت ٨٨٥ هـ)[٢] :

عمر بن حسين بن أحمد أبو حفص العبادي ، ولد سنة (٨٠٤ هـ) حفظ القرآن الكريم ، ثم حفظ العمدة ، وقدم القاهرة وحفظ بها المنهاج وجمع الجوامع وألفية ابن مالك والتسهيل ولامية الأفعال ، أخذ عن شمس الدين البرماوي الفقه واشتدت ملازمته له ،وترافق مع المناوي في تقسيم مختصر المزني عليه .

٦– منزلته العلمية :

أثنى على شمس الدين البرماوي نفرٌ من أهل العلم وأصحاب التراجم ، ممن عاصروه ، أو جاء بعده ، ومن ذلك :

قال عنه تاج الغرابيلي وكان معاصراً له ، وأخذ عنه : " هو أحد الأئمة الأجلاء، والبحر الذي لا تكدره الدِّلاء ، فريد دهره ، ووحيد عصره ، ما رأيت أقعد منه بفنون العلم ، مع ما كان عليه من التواضع والخير "[٣] .

ووصفه ابن حجر بقوله : " كان حسن الخط ، كثير المحفوظ قويّ الهمة في شغل الطلبة ، حسن التودد ، لطيف الأخلاق "[٤] .

ويقول عنه السخاوي : " كان إماماً علامة في الفقه وأصوله والعربية وغيرها ، مع حسن الخط .... والتلاوة والوقار والتواضع وقلّة الكلام ، ذا شيبة نيرة ، وهمة علية في شغل الطلبة وتفريغ نفسه لهم "[٥] .

---

(١) انظر الأنس الجليل ٢/١٩٤.

(٢) انظر : الضوء اللامع ٦/٨١ .

(٣) انظر : شذرات الذهب ٧/١٩٧.

(٤) إنباء الغمر ٣/٤١٤ .

(٥) الضوء اللامع ٧/٢٨١.

٧– وفاته :

قضى شمس الدين البرماوي في القدس قرابة سنة يقرئ ويصنّف ، فانتفع بعلمه خلق كثير ، ولم يزل قائما في المدرسة الصلاحية برغم الضعف الذي لحقه بسبب القرحة .[1]

يقول القاضي مجير الدين الحنبلي : " وكان يقول في مرضه : عندما عشنا متنا ؛ فإنه كان فقيراً ، فلما استقر في هذه الوظيفة ، وحصل له سعة رزق ، أدركته المنيّة ، ودفن بمقبرة (ماملا) عند الشيخ أبي عبد الله القرشي "[2] .

وقد توفي – رحمه الله – في يوم الخميس الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وثماني مئة (٨٣١ هـ)[3] .

٨– آثاره :

ترك شمس الدين البرماوي – رحمه الله – مجموعة من التصانيف منها ما هو تأليف ، ومنها ما هو شرح وتعليق وتلخيص ، وفيها أراجيز منظومة ؛ تسهيلاً لحفظها على طلبة العلم ، بعضها في الحديث النبوي ، والفقه وأصوله ، وبعضها في التاريخ ، والنحو والصرف والعروض ، وسأذكر ما ألفيته منها :

– أولاً : في الحديث النبوي :

١– اللامع الصبيح في شرح الجامع الصحيح[4]

هو شرح للجامع الصحيح للبخاري (ت ٢٥٦ هـ) يقول عنه حاجي خليفة : " هو شرح حسن في أربعة أجزاء ، ذكر فيه أنه جمع بين شرح الكرماني باقتصار ، وبين التنقيح للزركشي بإيضاح وتنبيه ، ومن أصوله – أيضا – مقدمة فتح الباري ، ولم يبيض إلا بعد موته "[5] .

٢– ثلاثيات البخاري (نظم)[6] :

ثلاثيات البخاري أحاديث متصلة بالرسول – صلى الله عليه وسلم – بثلاثة رواة ، وتنحصر في صحيح البخاري في اثنين وعشرين حديثا ، وقد نظم شمس الدين البرماوي ذلك .

---

(١) انظر : شذرات الذهب ٧ / ١٩٧.

(٢) الأنس الجليل ٢ / ١١٢.

(٣) البدر الطالع ٢ / ١٨١.

(٤) توجد نسخة منه بقسم المخطوطات بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام ٤٦٣٢ / خ .

(٥) كشف الظنون ٥٤٧ .

(٦) الأنس الجليل ٢ / ١١٢. وهدية العارفين ٢ / ١٨٦.

٣- شرح ثلاثيات البخاري[1] .

- **ثانيا : في الفقه وأصوله :**

٤- النبذة الزكية في القواعد الأصلية[2] :

هي مقدمة فقهية جمعها خالية عن الخلاف والدليل ثم نظمها ألفية ، وشرحها أيضا .

٥- ألفية في أصول الفقه (نظم)[3] :

يقول ابن العماد : " نظم ألفية في أصول الفقه ، لم يسبق إلى مثل وضعها "[4] .

٦- الفوائد السنية في شرح الألفية في أصول الفقه[5] :

استمد أصول هذا الشرح من البحر المحيط في أصول الفقه لشيخه بدر الدين الزركشي كما قال السخاوي[6] .

وقال ابن العماد عن ألفيته في أصول الفقه " وشرحها شرحاً حافلاً نحو مجلدين ، وكان يقول : أكثر هذا الكتاب هو جملة ما حصلت في طول عمري "[7] .

٧- شرح خطبة المنهاج للنووي[8] .

٨- منهج الرائض بضوابط في الفرائض (نظم)[9] .

٩- شرح منهج الرائض في الفرائض[10] .

١٠- جمع العُدّة لفهم العمدة (شرح العمدة)[11] .

---

(١) ذكره الزركلي في الأعلام ٦/١٨٨ ، ١٨٩ وأشار إلى وجوده مخطوطاً .

(٢) كشف الظنون ١٩٢٣ .

(٣) حسن المحاضرة ١/٤٣٩ ، والأنس الجليل ٢/١١٢ .

(٤) شذرات الذهب ٧/١٩٧ .

(٥) الأعلام ٦/١٨٩ . وتوجد منه نسخة خطية في مكتبة الأزهر رقمها ٣٢٤٩١٩ ، وحقق في رسائل علمية : رسالة (ماجستير) في جامعة الأزهر ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنات) للطالبة / أماني محمد ، و رسالة (ماجستير) في جامعة الجنان في لبنان للطالب / توفيق عامر ، ورسالة (دكتوراه) في جامعة أم القرى للطالب / خالد بكر (من أول الكتاب إلى بداية مباحث العموم والخصوص) ، ورسالة (دكتوراه) في جامعة الإمام للطالب / حسن المرزوقي (من مباحث العموم والخصوص إلى آخر الكتاب) .

(٦) الضوء اللامع ٧/٢٨٢ .

(٧) شذرات الذهب ٧/١٩٧ .

(٨) هدية العارفين ٢/١٨٦ . ومعجم المؤلفين ١٠/١٣٢ .

(٩) كشف الظنون ١٨٨١ . وبر وكلمان ٢/١١٣ ، وفهرس الظاهرية ٤/٢ .

(١٠) كشف الظنون ١٨٨١ ، وهدية العارفين ٢/١٨٦ .

(١١) الأنس الجليل ٢/١١٢ .

العمدة كتاب في فروع الشافعية لأبي بكر محمد بن أحمد الشاشي (ت ٥٠٧ هـ).

شرحه كثيرون منهم البرماوي ، وقد اعتمد في شرحه على شرح شيخه ابن الملقن[١] .

١١- منظومة في أسماء رجال العمدة ، وشرحها[٢] .

١٢- شرح البهجة الوردية[٣] :

البهجة الوردية منظومة فقهية في فروع الشافعية تقع في خمسة آلاف بيت نظمها ابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ)[٤] .

١٣- تلخيص المهمات للأسنوي[٥] .

١٤- تلخيص التوشيح لتاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت ٧٧١ هـ)[٦] .

١٥- تلخيص قوت القلوب لأبي طالب محمد بن علي العجمي ثم المكي(ت ٣٨٦ هـ)[٧]

- ثالثا : في التاريخ :

١٦- أسماء أجداد النبي صلى الله عليه وسلم[٨] .

١٧- مختصر السيرة النبوية على صاحبها أفضل التحية[٩] .

١٨- حاشية على مختصر السيرة النبوية[١٠] .

١٩- الزهر البسام فيما حوته عمدة الأحكام من الأنام (نظم)[١١] :

أرجوزة في التاريخ ، ابتدأ فيها بالنبيّ - صلى الله عليه وسلم - وثنّى بخلفائه الأربعة ، وجعل الباقي من أسماء الرجال مرتبا على حروف المعجم .

٢٠- سَرْح النهر بشرح الزهر[١٢] .

---

(١) الضوء اللامع ٧/ ٢٨٢ .

(٢) إنباء الغمر ٣/ ٤١٤ ، والأنس والجليل ٢/ ١١٢ ، والضوء اللامع ٧/ ٢٨٢ .

(٣) البدر الطالع ٢/ ١٨١ .

(٤) كشف الظنون ٢٥٩ ، ٦٢٧ .

(٥) الضوء اللامع ٧/ ٢٨٢ ، وشذرات الذهب ٧/ ١٩٧ .

(٦) شذرات الذهب ٧/ ١٩٧ .

(٧) هدية العارفين ٢/ ١٨٦ ، وإيضاح المكنون ٦١٧ .

(٨) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ٢/ ٦١٠ برقم ٣٨٥٥ .

(٩) هدية العارفين ٢/ ١٨٦ .

(١٠) الضوء اللامع ٧/ ٢٨٢ .

(١١) كشف الظنون ٩٥٨ .

(١٢) كشف الظنون ٩٥٩ ، وهدية العارفين ٢/ ١٨٦ ، وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية رقمها ١٢٣٣ .

- رابعا : في النحو والصرف والعروض :

٢١- شرح اللمحة البدرية في علم العربية[1] :

اللمحة البدرية مختصر في النحو لأبي حيان (ت ٧٤٥ هـ) .

٢٢- شرح الصدور بشرح زوائد الشذور[2] :

استدرك شمس الدين البرماوي على ابن هشام (ت ٧٦١ هـ) في (شذور الذهب) متناً وشرحاً .

٢٣- شرح لامية الأفعال[3] :

لامية الأفعال لابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) وهي منظومة على روي اللام والبحر البسيط ، تقع في أربعة عشر بيتا في أبنية الأفعال .

٢٤- المقدمة الشافية في علمي العروض والقافية[4] :

هذه هي آثار شمس الدين البرماوي التي تيسّر لي إثباتها من خلال كتب التراجم وغيرها من المظان التي عدت إليها ، وهي تدلّ على سعة أفقه ، وغزارة علمه ، وقد تفرقت كتبه و تصانيفه شذر مذر كما يقول السخاوي[5] .

* * *

(١) طبع سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م بتحقيق الدكتور عبد الحميد الوكيل .

(٢) طبع سنة ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م دار الطباعة المحمدية بالقاهرة بتحقيق الدكتور / محمد حسن عثمان .

(٣) الضوء اللامع ٧ / ٢٨٢ ، والبدر الطالع ٢ /١٨١ ، وحقق رسالة (ماجستير) في جامعة الأزهر للطالب / عادل سرور ، ورسالة (ماجستير) في جامعة محمد الخامس بالمغرب للطالب / مصطفى لعميم .

(٤) الأعلام ٦ /١٨٩ ، ومنه نسخة بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام (ف ٢٢٤١) مصورة عن الظاهرية (٣٨٥٥) .

(٥) الضوء اللامع ٧ /٢٨٢ .

المبحث الثاني : اختياراته النحوية :

١- تقسيم الكلام إلى : خبر وطلب وإنشاء .

اختلفت كلمة العلماء في تقسيم الكلام ، فمنهم من جعل القسمة ثنائية خبراً وإنشاء. ومنهم من جعلها ثلاثية فزاد عليهما الطلب وهذا هو اختيار البرماوي ، ومنهم من زاد على ذلك[١] والقولان الأولان هما المشهوران في المسألة .

القول الأول :

ذهب جماعة من العلماء إلى أن الكلام قسمان : خبر وإنشاء[٢] واختار هذا القول أبو حيان (ت ٧٤٥ هـ) في أحد قوليه[٣] ، وابن هشام[٤] (ت ٧٦١ هـ) والسيوطي[٥] (ت ٩١١ هـ) .

يقول أبو حيان : " وتقسيمها – أي الجملة – إلى خبر وإنشاء هو التقسيم الصحيح "[٦] .

ووجه الانحصار فيهما أن الكلام يشتمل على نسبة تامة بين طرفيه : المسند والمسند إليه كـ (محمد) و (مسافر) فإن كان لتلك النسبة خارج بحيث يحتمل الكلام الصدق والكذب فهو الخبر نحو : حضر خالد ، وعليّ غائب .

وإن لم يكن لنسبته خارج كذلك فهو الإنشاء كالأمر والنهي ونحوهما .

وقسّم البلاغيون الإنشاء قسمين : إنشاء طلبي وهو ما يستلزم مطلوبا ليس حاصلاً وقت الطلب كالأمر والنهي والنداء والاستفهام والعرض والتحضيض والتمني والترجي .

وإنشاء غير طلبي وهو ما لا يستلزم مطلوبا ليس حاصلا وقت الطلب كأفعال المدح والذم والتعجب وصيغ العقود والفسوخ[٧] .

وبهذا يتبيّن أن الطلب من أقسام الإنشاء[٨] .

---

(١) انظر : الارتشاف ٤١٢/١ ، شرح اللمحة لابن هشام ٢٣٣/١ ، الهمع ١٢/١ .

وقد أوصل بعضهم هذه الأقسام إلى ستة عشر قسما ، قال السيوطي : " والتحقيق انحصاره في القسمين الأولين ، ورجوع بقية المذكورات إليهما "

(٢) انظر : التذييل والتكميل ٣٢/١ ، الفوائد الضائية ١٧٥/١ ، شروح التلخيص ١٦٣/١ ، التصريح ٢٢/١ .

(٣) التذييل والتكميل ٧/٣ ، والارتشاف ٤١١/١ .

(٤) شرح اللمحة ٢٣٢/١ ، شرح شذور الذهب ٣٢ .

(٥) الهمع ١٢/١ .

(٦) التذييل والتكميل ٧/٣ .

(٧) انظر : الأساليب الإنشائية في النحو العربي ١٣ .

(٨) شرح شذور الذهب ٣٢ .

وأسقط ابن مالك[1] (ت ٦٧٢ هـ) الإنشاء رأسا، وقسّم الكلام إلى :

خبر وطلب ، فأدخل صيغ العقود ونحوها في الخبر ؛ لأنها في الأصل أخبار نقلت إلى معانيها الإنشائية[2] يقول ابن مالك في (الكافية الشافية)[3] :

قول مفيد : طلبا أو خبرا   هو الكلام ك (استمعْ) و (سترى)

واعترضه ابن هشام فقال : " وهذا التقسيم ليس بشيء "[4] .

وتعقّب البرماويُّ ابنَ هشام في اعتراضه، وذكر وجها حسنا حمل عليه صنيع ابن مالك يقول البرماوي : " فإن قلت : فمن قال – كابن مالك في (الكافية) – إنه خبر وطلب، هل هو ليس بشيء كما قال الشيخ ؟

قلت : بلى له وجه، وذلك أن الإنشاء عند من ثلّث القسمة ليس هو من وضع اللغة، إنما هو أمر أثبته الشرع فسمّوه إنشاء، فرقا بين ما نقل عنه، وبين ما نقل إليه، فلفظ (بعتك كذا) و (أنت طالق) و (أشهد بكذا) إخبارات لغة جعلها الشارع أسبابا لأحكامها المرتبة عليها بشروطها فنقلت من الخبر إلى الإنشاء "[5] .

ويعنّ لي أمر آخر يبدو من خلاله أن تقسيم ابن مالك الكلام إلى خبر وطلب لا يخرج عن التقسيم السابق ؛ وذلك أن الطلب أغلب أنواع الإنشاء ، فسمّي الإنشاء به تغليبا ، والتغليب باب واسع في العربية، نظير تسميتهم باب كاد وأخواتها (أفعال المقاربة) مع أن بعض أفعال الباب لا دلالة فيه على معنى المقاربة .

أو سمّي به من باب تسمية الكل باسم الجزء على حدّ تسميتهم الكلام كلمة ، والله أعلم .

القول الثاني :

ذهب طائفة من العلماء إلى أن الكلام ثلاثة أقسام : خبر وطلب وإنشاء .

ذلك أن الكلام إن احتمل الصدق والكذب لذاته فهو الخبر، وإلاّ فإمّا أن يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه أو يقترنا، والأول هو الطلب والثاني الإنشاء[6] .

---

(١) شرح الكافية الشافية ١/١٥٧، ١٥٨.

(٢) انظر : مفتاح العلوم ٣٤٤ .

(٣) شرح الكافية الشافية ١/١٥٧، ١٥٨.

(٤) شرح اللمحة ١/٢٣٢ .

(٥) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٦٠ .

(٦) انظر : شرح اللمحة لابن هشام ١/٢٣٢ .

وهذا التقسيم اختاره عبد الملك الجويني الشافعي[1] يعرف بإمام الحرمين أحد علماء الأصول (ت ٤٧٨ هـ) والسهيلي[2] (ت ٥٨٣ هـ) وهو ظاهر كلام ابن مالك في (التسهيل وشرحه)[3] في حدّ الموصول الاسمي : " وهو من الأسماء ما افتقر أبداً إلى عائد أو خلفه وجملة صريحة أو مؤولة غير طلبية ولا إنشائية "[4] .

فاشتمل هذا على الطلب والإنشاء منطوقا ، والخبر مفهوما .

وهو اختيار أبي حيان[5] في قوله الآخر ، يقول أبو حيان في كتابه (غاية الإحسان)[6] :

" وأقسامه : طلب وخبر وإنشاء " وقال في الشرح[7] : " قسم النحويون الكلام إلى عدّة أقسام أختار منها هذا ، ودليل حصرها في الثلاثة أن النسبة الإسنادية إمّا أن يتحد قيامها بالذهن وزمان إفادتها ، أولا ، إن اتحد فهو الإنشاء ، وإن لم يتحد فإمّا أن يكون على جهة الاقتضاء أولا ، إن كانت فهي الطلب ، سواء أكان اقتضاء وجود أم اقتضاء عدم ، وإنْ لا فهي الخبر . " .

وهذا التقسيم ظاهر كلام ابن هشام في (أوضح المسالك)[8] ، وأخذ به في (شذور الذهب)[9] ثم تراجع عنه في (شرحه) فقال بعد أن قسّم الكلام إلى : خبر وطلب وإنشاء " وهذا التقسيم تبعت فيه بعضهم ، والتحقيق خلافه ، وأن الكلام ينقسم إلى : خبر وإنشاء فقط ، وأن الطلب من أقسام الإنشاء "[10] .

واختار البرماوي[11] تقسيم الكلام إلى : خبر وطلب وإنشاء ، وهو الوجه عندي .

وقد أيّد البرماوي اختياره هذا بثلاثة أمور :

---

(١) البرهان في أصول الفقه ١٩٨/١ .

(٢) نتائج الفكر ٦٢ .

(٣) التسهيل ٣٣ وشرحه ١٨٦/١، ١٨٧ .

(٤) التسهيل ٣٣ .

(٥) اللمحة مع شرحها للبرماوي ١٧ – ١٩، النكت الحسان في شرح غاية الإحسان ٣٤ .

(٦) غاية الإحسان : ٥٨ .

(٧) النكت الحسان في شرح غاية الإحسان ٣٤ .

(٨) أوضح المسالك ١٦٤/١ .

(٩) شرح شذور الذهب ٣١ .

(١٠) شرح شذور الذهب ٣٢ .

(١١) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٥٧ وما بعدها، وشرح اللمحة للبرماوي ١٧ وما بعدها .

أولها : أن هذا التقسيم هو ظاهر ما في (التسهيل وشرحه) و(أوضح المسالك) .

ثانيها : ثبوت مغايرة الطلب للإنشاء .

ثالثها : أنه لا مشاحة في الاصطلاح .

يقول البرماوي : " تقسيمه إلى الأقسام الثلاثة هو قضية كلام (التسهيل وشرحه)[1] في (باب الموصول) حيث قال في تعريف الموصول : " جملة صريحة أو مؤولة غير طلبية ولا إنشائية " .

وجرى على ذلك المصنف في (توضيحه)[2] في الكلام على الصلة حيث قال : " وشرطها أن تكون خبرية " ثم قال : " لا إنشائية كـ (بعتكه) ولا طلبية كـ (اضربْه ، ولا تضربْه) انتهى .

ويظهر ترجيح هذا - إن شاء الله - وذلك أن اختلاف العلماء في هذه التقسيمات هل المرجع فيه إلى مجرد الاصطلاح ؟ أو إلى المعنى واختلاف الحقائق ؟ بحيث لا تدخل حقيقة قسم تحت آخر .

فإن كان الأول فلا مشاحة في الاصطلاح ، لكن تكثير الأقسام وإفرادها بأسماء أفيد من تقليلها ، من حيث إنه لا يحوج بعد ذكر المطلوب باسمه إلى قرينه أصلا .

وإن كان الثاني فالقائل بتثليث القسمة على الوجه السابق قد ميّز بين الطلب والإنشاء ، بأن الإنشاء لا خارج له ، بل معناه مقارن للفظه في الزمن ، وبأنه لا اقتضاء فيه ، والطلب له خارج ، وفيه اقتضاء ، أمّا اقتضاؤه فواضح ، وأما كونه خارجا ؛ فلأن النسبة التي بها صار كلاما - وهي النسبة الواقعة بين جزئيه - لا بدّ لها من زمن تقع فيه إذا وجدت ، وزمنها المستقبل ؛ لأنها مطلوبة ، والمطلوب غير حاصل ، ولأجل ذلك قال ابن مالك في (تسهيله)[3] في فعل الأمر " والأمر مستقبل أبدا " وعلل ذلك في (شرحه)[4] " بأنه يطلب به حصول ما لم يحصل فلزم استقباله " وهذا معنى شامل للجملة الطلبية مطلقا أمراً أو نهيا أو استفهاما .

وإذا ثبت أن له خارجاً ثبت تغايره مع الإنشاء لتنافيهما في ذلك "[5] والله أعلم .

---

(١) التسهيل ٣٣ وشرحه ١/١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) أوضح المسالك ١/١٦٤ .

(٣) التسهيل ٤ .

(٤) شرح التسهيل ١/١٧ بتصرف يسير .

(٥) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٥٧ - ٥٩ .

٢- ألفاظ العقود أسماء جموع .

ألحق بالجمع المذكر السالم في إعرابه كلمات ليست على شرطه[١] من تلك الكلمات ألفاظ العقود الثمانية وهي العشرون إلى التسعين ، وقد وردت كلّها في التنزيل[٢].

واختلف النحويون في حقيقتها على قولين :

يرى جمهور النحويين أن ألفاظ العقود أسماء جموع ؛ لأنه ليس لها واحد من لفظها .

ومن القائلين بذلك الدينوري[٣] (ت ٤٩٠ هـ) والحيدرة اليمني[٤] (ت ٥٩٩هـ) وابن مالك[٥] وأبو حيان[٦] وابن هشام[٧] والسيوطي[٨] .

ويرى بعض النحويين[٩] أنها جموع ، جمعت هذا الجمع عوضا من عدم تأنيث مفرداتها بالتاء حين عُدّ بها المؤنث .

ولم أجد من النحويين – فيما أعلم – عزا هذا القول إلى أحد بعينه وإنما يرد في كتبهم بلا نسبة نحو (زعم بعضهم) و (قال بعضهم) وقد أورده ابن مالك في (شرح التسهيل) وضعّفه يقول ابن مالك : " وقال بعضهم : ثلاثون وأخواته جموع على سبيل التعويض كما ذكر في أرض ؛ لأن تاء التأنيث من مفرداتها سقطت حين عُدّ بها المؤنث ولم يكن من حقها أن تسقط ، فجمعت هذا الجمع تعويضا ، .... وهذا قول ضعيف ؛ لأن ذلك لو كان مقصوداً لم يكن واحد من هذه الأسماء مخصوصا بمقدار ، ولا يعهد ذلك في شيء من الجموع قياسية كانت أو شاذة "[١٠] .

واختار البرماوي[١١] رأي الجمهور وهو أن ألفاظ العقود أسماء جموع، يقول البرماوي : " أما

---

(١) وهو كونه علما أو صفة لمذكر عاقل خال من تاء التأنيث وله واحد من لفظه ومعناه .

(٢) التصريح ٧٢/١ .

(٣) ثمار الصناعة : ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٤) كشف المشكل في النحو ١٩١ .

(٥) شرح التسهيل ٨٣/١ .

(٦) التذييل والتكميل ٣٢٢/١ .

(٧) أوضح المسالك ٤٨/١ . شرح شذور الذهب ٥٦ ، الجامع الصغير ١٢ .

(٨) الهمع ٤٦/١ .

(٩) انظر : شرح التسهيل ٨٣/١ ، التذييل والتكميل ٣٢٢/١ ، الهمع ٤٦/١ .

(١٠) شرح التسهيل ٨٣/١ .

(١١) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٦٨ .

عشرون وبابه فالمراد به العقود الثمانية إلى التسعين ، وهي أسماء جموع على الأصح ، لا جموع على سبيل التعويض كما قرره بعضهم موجّها له بشيء ضعيف "[١].

ويترجح عندي ما اختاره البرماوي وفاقا للجمهور لما يأتي :

١- دلالة هذه الألفاظ على عدد معيّن ومقدار مخصوص وذلك لا يُعهد في الجموع قياسية كانت أو شاذة[٢].

٢- أنه لو كانت عشرون جمع عشرة ، وثلاثون جمع ثلاثة للزم صدق ثلاثين على تسعة ؛ لأن أقل الجمع ثلاثة ، و (تسعة) ثلاثة مقادير الثلاثة ، أي : أن ثلاثة وثلاثة وثلاثة مجموعها بالحساب تسعة ، ولو جمعناها جمع مذكر سالما لقلنا في جمعها (ثلاثون) وهو خطأ ؛ إذ دلالته حسابيا غير دلالة تسعة المراد من جمع هذا العدد ، أعني ثلاثة .

وكذلك لزم إطلاق عشرين على ثلاثين إذا قلنا إن عشرين جمع عشرة ، والجمع يجب إطلاقه على ثلاثة مقادير الواحد ، أي : أن عشرة وعشرة وعشرة مجموعها بالحساب ثلاثون ، ولو جمعنا جمع مذكر سالما لقلنا (عشرون) وهو خطأ ؛ إذ دلالته حسابيا غير دلالة ثلاثين المرادة من جمع هذا العدد ، وإذا كان اللازم باطلا فالملزوم مثله[٣].

٣- يقول الحيدرة اليمني : " فأما قولهم : عشرون وتسعون فإنه ليس بجمع عند المحققين بدليل كسر العين من عشرين وفتحها من عشرة ، والجمع المسلّم ما يسلم فيه نظم الواحد وبناؤه[٤] ".

٤- ويقول الشريف عمر بن إبراهيم الكوفي أحد شراح اللمع (ت ٥٣٩ هـ) في حديثه عن عشرين وأخواته : " ليس بجمع في الحقيقة ، بدليل وقوعه على التأنيث كوقوعه على التذكير ، ولو كان جمعا حقيقيا لتميّز المذكر من المؤنث كسائر الجموع "[٥].

وبهذا استبان أن ألفاظ العقود ليست بجموع ، وإنما هي أسماء جموع لا واحد لها من لفظها .

---

(١) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٦٨ .

(٢) انظر : شرح التسهيل ٨٣/١ ، الهمع ٤٦/١ .

(٣) انظر : حاشية الصبان على شرح الأشموني ١٢٣/١ ، وحاشية الخضري على شرح ابن عقيل ٤٣/١ .

(٤) كشف المشكل في النحو : ١٩١ .

(٥) البيان في شرح اللمع ٥٤٤ .

٣- مراتب المشار إليه.

للنحويين في مراتب المشار إليه مذهبان :

الأول : ذهب أكثر النحويين[١] إلى أن مراتب المشار إليه ثلاث : قريبة ومتوسطة وبعيدة فالمجرد من أسماء الإشارة للقريبة (ذا) وذو الكاف للمتوسطة (ذاك) وما فيه الكاف واللام للبعيدة (ذلك) ونسبه الرضي[٢] (ت ٦٨٦ هـ) وابن عقيل[٣] (ت ٧٦٩ هـ) إلى جمهور النحويين ، واختاره الحيدرة[٤] والجزولي[٥] (ت ٦٠٥ هـ) وابن يعيش[٦] (ت ٦٤٣ هـ) وابن عصفور[٧] (ت ٦٦٩ هـ) وأبو حيان[٨] وابن هشام في أحد قوليه[٩] وجعل أصحاب هذا القول تشديد النون في (ذانّك و تانّك) عوضا عن اللام ، فهو دليل على البعد .

الثاني : وذهب جماعة من النحويين[١٠] إلى أن مراتب المشار إليه اثنتان : قريبة وبعيدة ولا ثالث لهما .

وهذا هو الظاهر من كلام سيبويه[١١] (ت ١٨٠ هـ) والمبرد[١٢] (ت ٢٨٥ هـ) وصححه ابن مالك[١٣] ، وجعله الظاهر من كلام المتقدمين ودلّل على صحته بخمسة أمور منها : أن المشار إليه شبيه بالمنادى ، والنحويون مجمعون[١٤] على أن المنادى ليس له إلاّ مرتبتان ، فليقتصر في المشار إليه على مرتبتين إلحاقا للنظير بالنظير .

وأن الفراء (ت ٢٠٧ هـ) نقل أن بني تميم ليس من لغتهم استعمال اللام مع الكاف ، والحجازيين ليس من لغتهم استعمال الكاف بلا لام ، فلزم من هذا أن اسم الإشارة على

---

(١) انظر : الارتشاف ٥٠٦/١ ، توضيح المقاصد ١٩٣/١، المساعد ١٨٥/١، الهمع ٧٦/١ .

(٢) شرح الكافية ٣٣/٢ .

(٣) شرح الألفية ٦٩/١ .

(٤) كشف المشكل ١٤٤.

(٥) المقدمة الجزولية ٦٨ .

(٦) شرح المفصل ١٣٥/٣.

(٧) شرح الجمل ٢٠١/١ .

(٨) اللمحة ٥٥ ، النكت الحسان في شرح غاية الإحسان ٤٤ ، الارتشاف ٥٠٥/١ ، التذييل والتكميل ١٨٤/١.

(٩) شرح اللمحة لابن هشام ٣٠٧/١ .

(١٠) انظر : البسيط ٣٠٨/١ ، شرح الكافية ٣٤/٢ ، شرح الألفية لابن الناظم ٧٨ .

(١١) الكتاب ٧٨/٢ .

(١٢) المقتضب ٢٧٧/٤، ٢٧٨.

(١٣) شرح التسهيل ٢٤٢/١.

(١٤) قال السيوطي : ودعوى الإجماع مردودة ، الهمع ٧٦/١ ، ٧٧ .

اللغتين ليس له إلا مرتبتان .

وأنه لو كانت مراتب المشار إليه ثلاثا لم يكتف في التثنية والجمع بلفظين .

وتبع ابنَ مالك في هذه المسألة ابنُه بدر الدين[1] (ت ٦٨٦ هـ) وابنُ هشام في قوله الآخر[2] والسيوطي[3] والصبان[4] (ت ١٢٠٦هـ) .

واختار البرماوي هذا القول ، ذكر ذلك في (شرح اللمحة)[5] مخالفا صاحب المتن أبا حيان .

يقول البرماوي في شرح عبارة أبي حيان : " والمبهم ذا ، وذاك ، وذلك "[6] .

" المراد بالمبهم أسماء الإشارة ، والإشارة إما أن تكون لواحد أو لاثنين أو لجماعة ، وكل من الثلاثة إما لمذكر أو لمؤنث ، وكل من الستة إما لقريب أو بعيد أو متوسط على رأي ، وقد يفهم من عبارة المصنف هنا اختياره ، وإن كان الأصح خلافه "[7] .

والراجح عندي أن مراتب المشار إليه محصورة في مرتبتين : قريبة وبعيدة ، وهو ما اختاره البرماوي تبعا لابن مالك ومن وافقه ؛ للحجج التي ذكرها ابن مالك وأقواها – كما قال المرادي[8] (ت ٧٤٩ هـ) – أن ترك اللام لغة تميم ، والإتيان بها لغة أهل الحجاز ، فلو كانت المراتب ثلاثا كما عليه الجمهور للزم أن التميميين لا يشيرون إلى البعيد ، والحجازيين لا يشيرون إلى المتوسط ، فليس للمشار إليه غير مرتبتين .

أن اختيار البرماوي هو الظاهر من كلام المتقدمين كسيبويه والمبرد كما مرّ .

أن المحققين من النحويين كالزمخشري[9](ت ٥٣٨ هـ) وابن الحاجب[10](ت ٦٤٦ هـ) أوردوا مذهب الجمهور بصيغة (قيل) أو (يقال) فلعلّهم لما رأوا أن القول به يحتاج إلى دليل

---

(١) شرح الألفية لابن الناظم ٧٨ .

(٢) أوضح المسالك ١/١٢٤، شرح شذور الذهب ١٤٠، الجامع الصغير ٢٦ .

(٣) الهمع ١/٧٥ .

(٤) حاشية الصبان على شرح الأشموني ١/٢٠٤ .

(٥) شرح اللمحة للبرماوي ٥٦ .

(٦) اللمحة ٥٥ .

(٧) شرح اللمحة ٥٥، ٥٦ .

(٨) توضيح المقاصد ١/١٩٣.

(٩) المفصل ١٧٢.

(١٠) الكافية ١٥٠.

لم يأخذوه مذهبا، ولم يقطعوا به[1].

وأما قول أصحاب المذهب الأول إنّ تشديد النون في المثنى عوض عن لام (ذلك) فردّه ابن مالك بقوله : " ولا التفات إلى قول من قال : إن تشديد نون (ذانّك) دليل على البعد، وتخفيفها دليل على القرب؛ لأنه قد سبق الإعلام بأن التشديد عوض مما حذف من الواحد، ولأنه يستعمل مع التجريد من الكاف كما يستعمل مع التلبّس بها "[2].

ونقل الرضي[3] عن علم الدين اللورقي الأندلسي (ت ٦٦١ هـ) أنه لا فرق عند اللغويين بين (ذانِك) بالتخفيف و (ذانّك) بالتشديد، بل هما لغتان بمعنى واحد.

وقال ابن الناظم عن التفريق بينهما " إنه تحكّم لا دليل عليه "[4].

٤- أل في (الآن) زائدة لازمة.

الغالب في (أل) الحرفية أن تكون للتعريف، فإذا دخلت على اسم مستغن عنها بتعريفه فلا تكون فيه للتعريف؛ إذ لا يجتمع في اسم تعريفان، وإنما هي زائدة.

ومن أجل ذلك حكم بزيادتها في : (اليسع) و (الحارث) و (اللات) و (الذي) وفروعه، و (أل) الزائدة إما أن تكون لازمة أو غير لازمة.

وللنحويين في الألف واللام الداخلة على لفظة (الآن) التي هي ظرف للحاضر من الزمان قولان :

ذهب ابن عصفور[5] إلى أنها حرف تعريف، فقولك : جئتك الآن بمعنى : هذا الوقت الحاضر، فهي فيه لتعريف العهد الحضوري، وعلى هذا لا تكون زائدة.

واختار هذا القول ابن يعيش[6] والصبان[7]، ونسبه أبو حيان إلى أصحابه يعني الأندلسيين قال : " وهي في (الآن) عند أصحابنا للحضور، لا زائدة "[8].

وذهب جمهور النحويين إلى أن (أل) في الآن زائدة لازمة.

---

(١) انظر شرح الكافية للرضي ٢/ ٣٢.

(٢) شرح التسهيل ١/ ٢٤٣.

(٣) شرح الكافية ٢/ ٣٤.

(٤) شرح الألفية ٧٨.

(٥) شرح الجمل ١/ ١١١.

(٦) شرح المفصل ٤/ ١٠٤.

(٧) حاشية الصبان على شرح الأشموني ١/ ٢٦٤.

(٨) الارتشاف ١/ ٥١٧، والتذييل والتكميل ٣/ ٢٣٩.

ومعنى كونها زائدة أي : لا تفيد تعريفا ، ولازمة أي : لم يعهد حذفها ؛ لكونها قارنت الكلمة عند الوضع[1]. فهي غير صالحة للسقوط .

وتعريف (الآن) إمّا بتضمنه معنى الإشارة ، أي : أنه تعرّف بحضور مسمّاه كما تعرفت أسماء الإشارة ، هو رأي الزجاج[2] وأكثر النحويين .

أو بتضمنه لام الحضور وهو رأي أبي علي الفارسي[3] (ت ٣٧٧ هـ)

قال الخضري (ت ١٢٨٧ هـ) : " وفيه غرابة حيث ألغي اللفظ الموجود ، وضمن معنى غيره من جنسه "[4]

ومهما يكن من أمر فـ (أل) في كلتا الحالتين لا تكون معرّفة ؛ لأنه لا يجتمع في اسم تعريفان ، فلم يبق إلاّ أن تكون زائدة لازمة .

وممّن صرح بزيادة (أل) في (الآن) وفاقا للزجاج وأبي علي الفارسي ابن جني[5] (ت ٣٩٢ هـ) وابن مالك[6] ، والمالقي[7] (ت ٧٠٢ هـ) والمرادي[8] وابن هشام[9] والسيوطي[10] .

يقول الناظم :

وقد تزاد لازما كاللات   والآن والذين ثم اللات

واختار البرماوي الحكم بزيادة (أل) في (الآن) واصفا إيّاه بالأصح ، وزاد ذلك تأكيداً بأن أشار إلى الرأي المقابل بصيغة التمريض (قيل) وفي ذلك دلالة على تضعيفه .

يقول البرماوي : " وأمّا (الآن) فمثال لما بني على الفتح ، وهو ظرف للزمن الحاضر ، والألف واللام فيه زائدة لازمة على الأصح ، وقيل : عهدية حضورية "[11] .

تضمن هذا النص حكمين في الآن ، كلاهما مشهور عند النحويين ؛ بناؤها على الفتح نحو

---

(١) انظر : حاشية الدسوقي على المغني ١/٥٣ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/١٥٣.

(٣) انظر : سر صناعة الإعراب ١/٣٥١ .

(٤) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ١/٨٥ .

(٥) سر صناعة الإعراب ١/٣٥٠ وما بعدها .

(٦) شرح التسهيل ١/٢٦١ ، شرح الكافية الشافية ١/٣٣٠ .

(٧) رصف المباني ١٦٤.

(٨) الجنى الداني ١٩٧.

(٩) أوضح المسالك ١/١٦٢، المغني ٧٣ .

(١٠) الهمع ١/٨٠ .

(١١) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٩٢ .

قوله تعالى ﴿ فَٱلۡـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ ﴾[1] وقول العرب : من الآنَ إلى غد ، حكاه سيبويه[2] .

وزيادة (أل) وهو الأرجح والأولى عندي ؛ لأنه مذهب أكثر النحويين ، وهو المشهور في كتبهم .

ودليل زيادتها لزومها ، وهذا دليل قوي ؛ لأنه لم يعرف – بعد استقراء كلامهم – أن التي للتعريف وردت لازمة ، بخلاف الزائدة[3] .

وفي كلام ابن هشام[4] إشارة إلى أن (الآن) اسم إشارة للزمان حقيقة ، كما أن (هنا) اسم إشارة للمكان حقيقة[5] فتكون (أل) – حينئذ – زائدة لازمة ، وليست للتعريف ؛ لأن أسماء الإشارة معارف بالحضور ، ولا يجتمع في اسم معرّفان .

ويظهر لي وجه آخر تكون (أل) فيه زائدة لازمة ، وهو أن تعريف (الآن) بالعلمية ، إذ هي جنس للزمان الحاضر[6] و (أل) زائدة لازمة ، وليست للتعريف ، بناء على القاعدة السابقة ، عدم اجتماع معرّفين في اسم ، والله أعلم .

٥– اللام بعد (إنْ) المكسورة الخفيفة لام الابتداء .

تخفف (إن) عند البصريين[7] ، فيغلب إهمالها ، ويبطل اختصاصها بالاسم نحو ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾[8] و ﴿ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴾[9] .

وتقول : إن عليٌّ لمنطلق .

وتعمل قليلا استصحابا للأصل قال سيبويه : " حدثنا من نثق به ، أنه سمع من العرب من يقول : إنْ عمراً لمنطلق "[10]

وإذا خفّفت (إن) وأهملت وعدمت القرينة الدالة على الإثبات لزمت اللام بعدها مخافة اللبس بـ (إن) النافية ، فتفيد اللام مع إفادتها توكيد النسبة الفرق بين (إن) المخففة من

---

(١) سورة البقرة : ١٨٧.

(٢) الكتاب ٢/٤٠٠ .

(٣) انظر : شرح المفصل ١٠٤/٤، المغني ٧٣ .

(٤) أوضح المسالك ١٦٢/١.

(٥) انظر : حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ٨٥/١ .

(٦) انظر حاشية الصبان على شرح الأشموني ٢٦٤/١ .

(٧) انظر : شرح المفصل ٧٢/٨ ، شرح التسهيل ٣٣/٢ ، شرح الصدور بشرح زائد الشذور للبرماوي ١٣٣.

(٨) سورة يس : ٣٢ .

(٩) سورة الأعراف : ١٠٢.

(١٠) الكتاب ١٤٠/٢.

الثقيلة و (إن) النافية .

يقول سيبويه : " واعلم أنهم يقولون : إنْ زيد لذاهبٌ ، وإنْ عمرٌو لخيرٌ منك ، لما خفّفها جعلها بمنزلة (ما) التي تنفي بها "[1] .

وتسمّى هذه اللام الفارقة ؛ لتفريقها بين النافية والمخففة ، وتسمّى لام الإيجاب ، ولام الفصل[2] .

فإن دلّ دليل على قصد الإثبات فلا تلزم اللام بعدها ؛ لعدم الحاجة إليها كقوله :

أنا ابنُ أباةِ الضَّيمِ من آلِ مالكٍ وإنْ مالكٌ كانتْ كِرامَ المعادنِ[3]

فلو قال : وإن مالك كانت لكرام المعادن جاز ، لكنه استغنى عن اللام ؛ لأن تمدّح الشاعر وافتخاره قرينة لا يصلح معها أن تكون (إن) في البيت نافية .

واختلف النحويون في حقيقة هذه اللام الواقعة بعد (إن) المخففة هل هي لام الابتداء ؟ أو لام غيرها اجتلبت للفرق بين (إن) المخففة و (إن) النافية ؟ .

ذهب سيبويه[4] إلى أن اللام التالية (إن) المخففة هي لام الابتداء التي كانت مع إنّ المشددة ، أفادت مع التوكيد الفرق بين الإثبات والنفي .

واختار هذا القول الأخفش (ت ٢١٥ هـ) والأخفش الصغير (ت ٣١٥ هـ) وابن الأخضر (ت ٥١٤ هـ) وابن مالك[5] ، وهو ظاهر كلام البرماوي[6] .

وذهب أبو علي الفارسي[7] وابن جني[8] وابن أبي العافية (ت ٥٠٩ هـ) وابن أبي الربيع[9] (ت ٦٨٨ هـ) إلى أنها لام أخرى غير لام الابتداء ، اجتلبت لإظهار الفرق بين المخففة والنافية .

---

(١) الكتاب ٢/ ١٣٩.

(٢) انظر : المقتضب ٢/ ٣٦٣ ، شرح المفصل ٩/ ٢٦ .

(٣) البيت للطرماح بن حكيم . انظر : ديوانه : ٥١٢ ، وشرح التسهيل ٢/ ٣٤ ، الارتشاف ٢/ ١٥٠ ، الدرر ١/ ١١٨.

(٤) الكتاب ٤/ ٢٣٣ .

(٥) انظر : شرح التسهيل ٢/ ٣٦ ، والارتشاف ٢/ ١٤٩ ، ٤٢٥ ، والمساعد ١/ ٣٣٧ ، وتعليق الفرائد ٤/ ٦٢ ، الهمع ١/ ١٤٢.

(٦) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور : ١٣٥ وما بعدها .

(٧) البغداديات ١٧٦ ، ٣٨١ .

(٨) انظر : المغني ٣٠٦ ، تعليق الفرائد ٤/ ٦٢ .

(٩) الملخص ٢٣٨ .

واحتجوا بعمل الفعل الذي قبلها في ما بعدها نحو ﴿ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾[1] وما بعد لام الابتداء لا ينتصب بما قبلها ؛ لأنها تعلق الفعل الذي قبلها عن العمل في ما بعدها .

وذهب الكوفيون إلى أن (إنْ) بمعنى (ما) النافية واللام بمعنى (إلاّ) ، فـ (إنّ) لا تخفف عندهم أصلاً[2] .

والصحيح عندي أن اللام الواقعة بعد (إن) المخففة من الثقيلة هي لام الابتداء الداخلة على خبر (إنّ) المشددة وفاقا لسيبويه والأكثرين[3] وظاهر كلام البرماوي[4] ؛ لأن هذا القول أيسر الأقوال في هذه المسألة .

يدل على ذلك دخول اللام مع الإعمال وإن لم يكن ثمّ لبس نحو : إنْ محمداً لقائم[5] وقول العرب : إنْ عمراً لمنطلق، حكاه سيبويه كما تقدم .

وقول الكوفيين إن اللام بمعنى (إلاّ) دعوى لا دليل عليها كما قال ابن مالك[6] .

"وإنما جاز أن يكون مصحوب ما بعد المخففة معمولا لما قبلها من الأفعال ..... لأنه لما بطل عمل (إن) بالتخفيف وقصد بقاؤها توكيداً على وجه لا لبس فيه استحقت ما يميزها من النافية ، فكان الأولى بذلك اللام التي كانت تصحب حال التشديد ، فسلك بها مع التخفيف ما كان لها مع التشديد ، من التأخر في اللفظ ، والتقدم في النية ، فلم يمنع إعمال ما قبلها في ما بعدها ، كما لم يمنع مع التشديد لأن النية بها التقديم ، وبما تقدم عليها التأخير[7] ".

وثمرة الخلاف السابق تظهر عند دخول علمت وأخواتها على (إنْ) نحو : علمت إنْ زيد لناجح[8] .

فعلى قول سيبويه وتابعيه إنها لام الابتداء يجب كسر الهمزة ، وتعليق العامل باللام عن العمل في لفظ الجملة .

---

(١) سورة الأعراف ١٠٢.

(٢) انظر : شرح المفصل ٨/ ٧٢ ، شرح التسهيل ٢/ ٣٤ ، المغني ٣٠٦ ، شرح الصدور بشرح زوائد الشذور للبرماوي ١٣٤.

(٣) المغني ٣٠٥ .

(٤) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٣٥ وما بعدها .

(٥) انظر : شرح المفصل ٨/ ٧٢ .

(٦) شرح التسهيل ٢/ ٣٥ .

(٧) شرح التسهيل ٢/ ٣٦ .

(٨) انظر : الارتشاف ٢/ ١٤٩، ٤٢٥ ، تعليق الفرائد ٤/ ٦٢ .

وعلى القول الثاني وهو قول الفارسي ومن وافقه تفتح الهمزة ، لطلب العامل لها ، ولا معلق ؛ لأن الفارقة ليست من المعلقات[1] .

وهنا تساؤل مفاده إذا فتحت الهمزة فلا تلتبس بالنافية ، فما الحاجة للام الفارقة حينئذ ؟.

أشار البرماوي في حديثه عن هذه المسألة إلى ذلك كله فقال :

" يظهر أثر الخلاف في مسألة جرت بين ابن أبي العافية وابن الأخضر ، وهي ما في الحديث الصحيح في البخاري[2] وغيره[3] من حديث أسماء مرفوعا " إنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبا من فتنة الدجال ، فيقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول : هو محمد رسول الله ، جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبناه ، واتبعناه ، هو محمد ثلاثا ، فيقال : نم صالحا قد علمنا إن كنت لموقنا به "[4] .

فمن جعلها لام الابتداء في " إن كنت لموقنا " كسر (إنْ) وهو جواب ابن الأخضر ، ومن جعلها لاما أخرى فتح وهو جواب ابن أبي العافية .

قلت[5] : لقائل أن يقول : إذا فتحت (إن) فلا تلتبس بـ (إن) النافية ، فلا حاجة للام فارقة ، اللهم إلاّ أن يقال إن الذي لم يجعلها لام ابتداء يقول : إنها لام اجتلبت للتأكيد مطلقا ، فإن كان التباين تمّ بـ (إن) النافية حصل الفرق بها ، وإلا كانت لمجرد التوكيد فيسهل الأمر والله أعلم "[6]

٦- اسم (أنْ) المخففة لا يلزم أن يكون ضمير شأن .

تحفف (أن) فيبقى عملها ، ولا تلغى ، ويجب - حينئذ - كون اسمها ضميراً محذوفا ، وكون خبرها جملة ، نحو قوله تعالى ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[7] وقوله ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾[8] .

ومحل الخلاف في هذه المسألة في الضمير الواقع اسما لـ (أنْ) المخففة من الثقيلة، هل

---

(١) انظر : حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ١/١٣٨ .

(٢) صحيح البخاري ١/٢٥٠ (كتاب الجمعة) رقم الحديث (٩٢٢) .

(٣) صحيح مسلم ٢/٦٢٢ (كتاب الكسوف) رقم الحديث (٩٠٥)

(٤) في الصحيحين " قد نعلم إن كنت لتؤمن " والاستشهاد به متحقق .

(٥) القائل البرماوي .

(٦) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٧) سورة يونس : ١٠ .

(٨) سورة المزمل : ٢٠ .

يتعيّن كونه ضمير شأن أو لا ؟ قولان :

اختار جماعة من النحويين منهم ابن يعيش[1] وابن الحاجب[2] والرضي[3] والمالقي[4] القول الأول، ولذلك قيدوا الضمير الواقع اسما لـ (أنْ) المخففة بكونه ضمير الشأن .

وعزاه أبو حيان[5] إلى بعض أصحابه .

يقول المالقي : " أنِ الخفيفة يكون اسمها أبداً ضمير أمر وشأن ، تقول : علمت أنْ زيدٌ قائمٌ ، وتقول : علمت أنْ سيقوم أو أن قد تقوم أو أن سوف تقوم .... والتقدير في ذلك كلّه أن الأمر أو الشأن "[6] .

وذهب ابن مالك[7] وأبو حيان[8] والمرادي[9] وابن هشام[10] إلى أنّ الضمير الواقع اسما لـ (أنْ) المخففة لا يتعيّن أن يكون ضمير شأن .

واختار البرماوي هذا القول . يقول البرماوي في كلامه على (أنْ) المخففة : " وإذا كان اسمها ضميراً مستتراً ، فهل يلزم أن يكون ضمير الشأن أو لا ؟ الأصح الثاني ، فقد قال سيبويه[11] في قوله تعالى : ﴿ أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ﴾[12] التقدير : أنك "[13] .

فقد جعل إمام الصناعة سيبويه اسم (أنْ) المخففة في الآية ضمير المخاطب .

وفي نحو : قد علمت أنْ لا يقولُ ذاك ، وقد تيقنتُ أنْ لا تفعلُ ذاك قال سيبويه : " كأنه قال : أنّه لا يقول وأنّك لا تفعلُ "[14] .

---

(1) شرح المفصل ٨/ ٧٢ .

(2) الكافية ٢٢٤ .

(3) شرح الكافية ٢/ ٣٥٩ .

(4) رصف المباني ١٩٥ .

(5) الارتشاف ٢/١٥١ .

(6) رصف المباني ١٩٥، ١٩٦ .

(7) شرح التسهيل ٢/ ٤١ .

(8) الارتشاف ٢/١٥١ .

(9) الجنى الداني ٢١٨ .

(10) المغني ٤٧ ، ٤٠٤ ، ٦٣٨ . أوضح المسالك ١/ ٣٧٠ .

(11) الكتاب ٣/ ١٦٣ .

(12) سورة الصافات : ١٠٤، ١٠٥ .

(13) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور : ١٤٠ .

(14) الكتاب ٣/ ١٦٥ .

فاسم (أن) في الأول ضمير الغائب ، وفي الثاني ضمير المخاطب.

يقول ابن مالك : " ولا يلزم كونه ضمير الشأن كما زعم بعضهم بل إذا أمكن عوده على حاضر أو غائب معلوم فهو أولى "[1].

فدلّ ذلك على أن جعل اسم (أنْ) ضمير الشأن – دائما – ضعيف .

ويقرر ابن هشام بعد ذكره مخالفة ضمير الشأن للقياس من عدّة أوجه " أنه لا ينبغي الحمل عليه إذا أمكن غيره "[2].

ومن ثم ضعّف قول كثير من النحويين إن اسم (أنْ) المفتوحة المخففة ضمير شأن ، كما ضعّف قول الزمخشري[3] في قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ ﴾[4] إن اسم (إنّ) ضمير الشأن ، والأولى كونه ضمير الشيطان[5].

٧– إهمال (لكن) المخففة .

ذهب جمهور النحويين[6] إلى أن (لكنّ) إذا خفّفت أهملت ؛ لزوال اختصاصها بالدخول على الأسماء .

وخالف في ذلك يونس (ت ١٨٣هـ) والأخفش[7] فأجازا إعمالها مخففة .

واختار البرماوي مذهب الجمهور ، يقول البرماوي : " فأما (لكن) فإذا خفّفت وجب إلغاؤها فلا تعمل شيئا ، بل تكون من الحروف العواطف ... وأجاز يونس والأخفش إعمالها قياسا ، بل حكي عن يونس أنه حكاه عن العرب ، قيل : وهي رواية لا تعرف "[8].

وعندي أن اختيار البرماوي تبعا للجمهور أرجح ؛ لقوة دليلهم ، فقد زال بعد التخفيف اختصاص (لكن) الموجب للإعمال ، فهي بعد التخفيف تدخل على الأسماء والأفعال[9] .

---

(١) شرح التسهيل ٤١/٢ .

(٢) المغني ٦٣٧ .

(٣) الكشاف ٧٥/٢ .

(٤) سورة الأعراف : ٢٧ .

(٥) المغني : ٦٣٨ .

(٦) انظر : الكتاب ١١٦/٣ ، معاني القرآن للفراء ١٦٤/١ ، المفصل ٣٥٨ ، شرح المفصل ٨٠/٨ ، شرح التسهيل ٣٢/٢ ، شرح الكافية ٣٦٠/٢ ، الارتشاف ١٥١/٢ ، المغني ٣٨٥ .

(٧) انظر : شرح التسهيل ٣٨/٢ ، الجنى الداني ٥٨٦ ، الارتشاف ١٥١/٢ .

(٨) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور : ١٣٣ .

(٩) انظر : شرح الجمل ٤٣٦/١ ، رصف المباني ٢٧٧ .

نحو قوله تعالى ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[1] وقوله ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2].

وكذلك زال شبهها بالفعل بعد التخفيف فبطل عملها[3].

وأقوى الحجج عدم سماع إعمالها مخففة[4]، وما حكي عن يونس من أنه حكاه عن العرب شاذ، فضلاً عن عدم ثبوته.

قال ابن يعيش: "ولا نعلمها أعملت مخففة"[5].

وقال الرضي "لا أعرف له شاهداً"[6] أي: على عملها بعد التخفيف.

ولذلك قال البرماوي: "وهي رواية لا تعرف".

٨- حركة بناء اسم (لا) النافية للجنس المجموع بالألف والتاء.

(لا) النافية للجنس وتسمّى (لا) التبرئة تعمل عمل (إنّ) واسمها إذا كان مفرداً - أي غير مضاف ولا شبيه به - بني على ما ينصب به لو كان معربا، لتضمنه معنى (مِن) الاستغراقية، أو لتركيبه مع (لا) تركيب خمسة عشر[7].

ومن أنواع اسم (لا) المفرد ما جمع بالألف والتاء المزيدتين نحو: مسلمات، وقانتات اختلف النحويون في الحركة التي يبنى عليها، ولهم في ذلك آراء أربعة:

١- البناء على الكسر.

مثل: لا طالباتِ غائبات، وهذا هو المشهور عن أكثر النحويين[8]، وهو الجاري على القاعدة المشهورة "اسم (لا) المفرد يبنى على ما ينصب به".

---

(١) سورة النساء ١٦٢.

(٢) سورة البقرة ٥٧.

(٣) انظر: شرح التسهيل ٣٨/٢.

(٤) قال ابن مالك: "لم يسمع من العرب إعمالها مع التخفيف" شرح التسهيل ٣٨/٢.

(٥) شرح المفصل ٨٠/٨.

(٦) شرح الكافية ٣٦٠/٢.

(٧) انظر: الكتاب ٢٧٤/٢، اللباب في علل البناء والإعراب ٢٢٨/١، شرح المفصل ١٠١/٢، المغني ٣١٣، تعليق الفرائد ٩٤/٤.

(٨) انظر: الارتشاف ١٦٥/٢، شرح الكافية للرضي ٢٥٦/١، التصريح ٢٣٩/١، الهمع ١٤٦/١، حاشية الدسوقي على المغني ٢٤٨/١.

٢- البناء على الفتح .

وإليه ذهب المازني[١] (ت ٢٤٩ هـ) والفارسي[٢] وابن عصفور[٣] ووجهة هذا الرأي أن الحركة هنا حركة الاسم المركب مع (لا) وحركة المبني المركب الفتحة للتخفيف .

قال ابن جني : " ولم يجز أصحابنا فتح هذه التاء في الجماعة إلا شيئا قاسه أبو عثمان ، فقال : أقول : لا مسلماتَ لك بفتح التاء ، قال : لأن الفتحة الآن ليست لـ (مسلمات) وحدها وإنما هي لها ولـ (لا) قبلها "[٤] .

قال خالد الأزهري (ت ٩٠٥ هـ) : " وهو حسن في القياس "[٥] .

٣- البناء على الكسر مع التنوين .

نظراً إلى أن التنوين للمقابلة لا للتمكين فلا ينافي البناء ، ونسب هذا القول إلى ابن الدهان (ت ٥٦٩ هـ) وابن خروف (ت ٦٠٩ هـ)[٦] .

قال الرضي : " وهو منقوض بنحو : يا مسلمات ، مجرداً عن التنوين اتفاقا "[٧] .

٤- جواز البناء على الكسر أو الفتح وهو الأرجح .

وهذا الرأي يجيز الوجهين : الأول والثاني معا ، ولا يوجب أحدهما ، ورجح الفتح - وإن كان القياس وجوب الكسر - لأنه الحركة التي يستحقها المركب كما قال ابن هشام[٨] ، وذلك أن التركيب مظنّة ثقل المركب فاحتاج أن يبني على أخف الحركات تخفيفا كما اختير في خمسة عشر .

جزم بهذا القول ابن مالك[٩] وأبو حيان[١٠] وابن هشام[١١] وخالد الأزهري[١٢] والسيوطي[١٣] .

---

(١) انظر : الخصائص ٣/٣٠٥ ، الارتشاف ٢/١٦٥، الهمع ١/١٤٦.

(٢) انظر : الارتشاف ٢/١٦٥، شرح الكافية للرضي ١/٢٥٦ ، الهمع ١/١٤٦.

(٣) المقرب ١/١٩٠.

(٤) الخصائص ٣/٣٠٥ .

(٥) التصريح ١/٢٣٩ .

(٦) انظر : الارتشاف ٢/١٦٥، الهمع ١/١٤٦.

(٧) شرح الكافية ١/٢٥٦ .

(٨) المغني ٣١٤ .

(٩) التسهيل ٦٧ ، وشرحه ٢/٥٥ .

(١٠) الارتشاف ٢/١٦٥.

(١١) المغني ٣١٤ .

(١٢) التصريح ١/٢٣٩ .

(١٣) الهمع ١/١٤٦.

وهو اختيار البرماوي[1] في المسألة ، إذ جاء في حديثه عن الحالة التي يبنى فيها اسم (لا) على نائب الفتح ، يعني الياء في المثنى وجمع المذكر ، والكسر في جمع المؤنث ومنه نحو : لا قائمات قوله : " إن هذا ليس حتما ، بل يجوز أن يبنى على الفتح ،بل هو الأرجح ، ويروى بالوجهين قول سلامة بن جندل :

إنّ الشبابَ الذي مجدٌ عواقبُه فيه نَلَذُّ ولا لذّاتَ للشّيب[2]

وفي ذلك ردّ على من عيّن الكسر ، أو عيّن الفتح كابن عصفور ، أو كسر مع التنوين كابن خروف "[3]

ومثل بيت سلامة بن جندل قول الشاعر :

لا سابغاتِ ولا جَأْوَاءَ باسلةً تَقِي المنونَ لدى استيفاءِ آجالِ[4]

يروى (سابغات) بالفتح والكسر .

وإذا كان مرجع القواعد النحوية هو ما سمع عن العرب فإن هذا الرأي هو أرجح الآراء في هذه المسألة عندي .

يقول أبو حيان : " والصحيح جواز الفتح والكسر من غير تنوين ، و به ورد السماع ، ولو عملوا بالسماع ما اختلفوا "[5] .

ومن ثمرة هذا القول الرد على من زعم أن حركة اسم (لا) المفرد حركة إعراب ؛ إذ لو كان معرباً لوجب فيه الكسر ؛ لأن الجمع بالألف والتاء ينصب بالكسرة ، والسماع لا يؤيده ، بل روى به وبالفتح ، بل الفتح أولى وأشهر وأرجح ، فدلّ ذلك على أن الفتحة فتحة بناء لا إعراب[6] ، والله أعلم .

٩- مكرّر اسم (لا) المفرد الموصوف بمفرد .

يقول البرماوي : " وحقيقة المسألة أنه إذا كرر اسم (لا) المفرد ، ولم يُفصل ووصف

---

(١) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) انظر : ديوان سلامة بن جندل : ٩٣ ، وشرح التسهيل ٢/ ٥٥ ، والمساعد ١/ ٣٤٠ ، والدرر ١/ ١٢٧ ، والخزانة ٢/ ٨٥ .

(٣) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٨٤ ، ٨٥ .

(٤) لا يعرف قائله وهو في : شرح التسهيل ٢/ ٥٥ ، وشرح القطر ١٦٧ ، والهمع ١/ ١٤٦ ، والدرر ١/ ١٢٧ .

(٥) الارتشاف ٢/ ١٦٥ .

(٦) انظر : حاشية الدسوقي على المغني ١/ ٢٤٨ .

بمفرد غير مفصول نحو: لا ماءَ ماء بارداً في الدار "[1].

هذه صورة المسألة كما صوّرها البرماوي ومثّل لها.

وقد اتفق النحويون على أن مكرر اسم (لا) في المثال المذكور - وهو (ماء) الثاني - تجوز فيه الأوجه الثلاثة[2] الجائزة في النعت المفرد نحو: لا رجل ظريف في الدار، وهي:

١- البناء على الفتح نحو: لا ماءَ ماءَ بارداً في الدار قيل: لتركيبه مع الأول تركيب الموصوف والصفة، أو أن النعت من تمام المنعوت فاستحق (ماء) الثاني البناء لذلك وإن فصل عن (لا)[3].

٢- النصب حملا على محمل اسم (لا) تقول: لا ماءَ ماءً باردًا لنا.

٣- الرفع مراعاة لمحمل (لا) واسمها فإنهما في محل رفع بالابتداء عند سيبويه[4]، تقول: لا ماءَ ماءٌ باردٌ لنا[5].

فلا خلاف بين النحويين - إذاً - في حكم مكرر اسم (لا) وأنه يأخذ حكم النعت فيجوز بناؤه على الفتح ونصبه ورفعه، وإنما الخلاف بينهم في نوع الاسم المكرر هل هو نعت أو توكيد لفظي أو بدل ؟.

صريح كلام سيبويه أنه نعت. يقول: " وإن كررت الاسم فصار وصفا فأنت فيه بالخيار، إن شئت نونت وإن شئت لم تنون، وذلك قولك: لا ماءَ ماءً باردًا، ولا ماءَ ماءَ باردًا "[6].

وجزم به ابن يعيش[7] وابن هشام فعدّه في (أوضح المسالك)[8] من أمثلة النعت.

وأجاز ابن الحاجب[9] كونه توكيدًا أو بدلا.

وأجاز الدماميني (ت ٨٢٧ هـ) كونه صفة أو توكيدًا لفظيا.

يقول الدماميني في إعراب مكرر اسم (لا) في هذه المسألة: " وفيه وجهان: أحدهما:

---

(١) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٨٦.

(٢) انظر: التصريح ١/٢٤٣.

(٣) انظر: شرح الكافية للرضي ١/٢٦٢، والمساعد ١/٣٥٠، وتعليق الفرائد ٤/١٢٥.

(٤) الكتاب ٢/٢٧٥.

(٥) انظر: اللباب في علل البناء والإعراب ١/٢٣٤، ٢٣٥.

(٦) الكتاب ٢/٢٨٩.

(٧) شرح المفصل ٢/١٠٩.

(٨) أوضح المسالك ٢/٢٣.

(٩) الإيضاح في شرح المفصل ١/٢٣٣.

أنه صفة ؛ لأن هذه النكرة موطئة للنعت ، وإذا وصف الاسم جاز أنه يوصف به .

الثاني : أنه توكيد لفظي "[1] .

والمختار عند البرماوي أن مكرر اسم (لا) نعت ، وخطّأ قول من قال إنه توكيد للأول أو بدل منه .

يقول البرماوي : " فـ (ماء) الثاني صفة لاسم (لا) لأن الاسم الجامد إذا وصف صح أن يقع صفة ، والصفة فيها ثلاثة أوجه فيكون هذا من أمثلة الصفة ، والقول إنه توكيد خطأ ؛ لأنه إن كان من التوكيد المعنوي فهو بألفاظ مخصوصة كالنفس والعين ، وإن كان من التوكيد اللفظي فليس معناه بعد أن وصف معنى الذي قبله ، بل بغير معناه ، ولا يقال – أيضا – إنه بدل؛ لأن لفظه لفظ الأول ، ولو كان قد وصف "[2] .

وتخطئة البرماوي إعرابه توكيدًا مبنيّة على جعل (باردًا) صفة لـ (ماء) الثاني ؛ لأن اسم (لا) يكون مطلقا ؛ والمكرر مقيد بالوصف ، وأمّا على القول إن (باردًا) وصف ثان للأول فلا يرد اعتراضه حينئذ .

وقد أشار البرماوي إلى ذلك الاحتمال فقال : " قلت ويحتمل أن يجعل (باردًا) صفة لـ (ماء) الأول فلا مانع – حينئذ – أن يكون (ماء) الثاني توكيدًا للأول "[3] .

وعجب أن يجيز البرماوي إعراب مكرر اسم (لا) توكيدًا لفظيا إذا كان (باردًا) وصفا للأول ، ولا يجيز مثل ذلك إذا كان (باردًا) صفة للثاني ، ولا فرق بين الأمرين .

وعلى كلّ حال فإن الحكم الإعرابي لا يختلف في مكرر اسم (لا) باختلاف نوعه ، سواء أكان توكيدًا أم نعتا ، ففيه الأوجه الثلاثة التي تقدمت : بناؤه على الفتح ، ورفعه ، ونصبه ولكن اعتباره توكيدًا لفظيا – في نظري – أوضح وأقوى والله أعلم .

١٠– تأنيث الفعل المسند لضمير المؤنث .

يكاد النحويون[4] يجمعون على وجوب تأنيث الفعل إذا أسند لضمير المؤنث نحو : النجوم ظهرت ، والشمس طلعت[5] وإنما أوجبوا تأنيث الفعل مع الضمير ؛ لأن تأنيث الضمير الفاعل

---

(١) تعليق الفرائد ٤ /١٢٥، ١٢٦ .

(٢) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٨٧ .

(٤) انظر : الكتاب ٢ /٤٥ ، والخصائص ٢ /٤١١ ، والأمالي الشجرية ١ /١٥٨ و ٢ /١٦٢ ، وشرح المفصل ٥ /٩٤ ، والمقرب ١ /٣٠٣ ، وأوضح المسالك ٢ /٩٧ .

(٥) اقتصرت على مثال مجازي التأنيث ، لأنه يدل على وجوب ذلك مع حقيقي التأنيث بالأولى .

خفي ، فألحقوا في الفعل علامة لتدل على تأنيث المسند إليه فإذا قيل : الشمس يطلع ، توهم أن الفاعل منتظر أي : ضوؤها[1] .

والبرماوي[2] لم يخرج عمّا أجمعوا عليه .

وخرق ابن كيسان[3] (ت ٢٩٩ هـ) هذا الإجماع فأجاز ترك التاء في ما أسند لضمير المؤنث .

وقد أورد البرماوي مذهبه ودليله وأجاب عنه يقول البرماوي : " أقول : مذهب ابن كيسان أنه يجوز ترك التاء في ما أسند لضمير المؤنث ، واستدل بقول عامر بن جوين الطائي :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها   ولا أَرْضَ أَبْقَلَ إبقَالَها[4]

والجواب عنه – كما قال المصنف – أن هذا ضرورة "[5] .

حيث لم يقل : أبقلت .

ومثله في الإسناد لضمير المؤنث مع ترك التاء قول الأعشى :

فَإمّا تَرَيْنِي وَلِي لِمَّةٌ   فإنّ الحوادثَ أوْدَى بِها[6]

ولم يقل : أودت .

وقول زياد الأعجم :

إنّ السماحةَ والمروءةَ ضُمِّنا   قبرًا بِمَرْوَ على الطريقِ الواضحِ[7]

والقياس : ضمِّنتا .

فتجريد الفعل من علامة التأنيث في هذه الأبيات ضرورة شعرية عند الجمهور ، وابن كيسان لا يرى أن ذلك ضرورة فأجاز في الفعل التأنيث والتذكير .

يقول البرماوي : " وقال ابن كيسان في البيت الأول كان يمكن الشاعر أن يقول : أبقلت

---

(١) انظر : التصريح ١/ ٢٧٧ .

(٢) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٠٣ – ١٠٦ ، شرح اللمحة ٢١٣ .

(٣) انظر : المغني ٨٦٠ ، الهمع ٢/ ١٧١ .

(٤) البيت في : الكتاب ٢/ ٤٢ ، والخصائص ٢/ ٤١١ ، والأمالي الشجرية ١/ ١٥٨ و ١٦١ ، وشرح أبيات المغني ٨/ ١٧ .

(٥) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٦) ديوان الأعشى ٢٢١ ، وهو في الكتاب ٢/ ٤٦ ، وشرح التسهيل ٢/ ١١٢ ، وتعليق الفرائد ٢/ ٣١ و ٤/ ٢٢٨ وشرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٠٥ .

(٧) شعر زياد الأعجم ٥٤ ، والإنصاف ٢/ ٧٦٣ ، شرح الشذور ١٦٩ ، تعليق الفرائد ٤/ ٢٢٨ ، شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٠٤ ، الخزانة ٤/ ١٩٢ .

ابقالها ، بإثبات التاء ، وإسقاط الهمزة .

وردّ[1] عليه بأن من العرب من لا يجيز في الهمزة إلا التحقيق ، فمن أين لنا أن هذا الشاعر يجيز النقل والحذف ؟ "[2] .

وتعقب البرماوي هذا الرد بقوله :

" قلت : وفيه نظر ، فقد حكى الأعلم في (شرح أبيات سيبويه)[3] أنه روي : أبقلتِ ابقالها ، بتخفيف الهمزة ، قال : ولا ضرورة فيه على هذا ، إذ هذا دليل على أن قائله يجيز النقل ، قال : وعلى رواية تحقيق الهمزة إنما هو لتأويل الأرض بالمكان فلا ضرورة انتهى "[4] وعلّق البرماوي على تأويل الأعلم الشنتمري (ت ٤٧٦ هـ) الأرض المؤنث بالمكان المذكر بقوله : " وهو جواب حسن ، لولا قوله : إبقالها ، بالتأنيث "[5] .

قلتُ : وإنما قيل " إبقالها " بالتأنيث مراعاة للفظ .

والصحيح عندي أن تأنيث الفعل في هذه المسألة واجب ، وأمّا الشواهد المسموعة التي جاءت مخالفة للقاعدة فقد أجيب عنها بأحد أمرين :

١- أنه ضرورة ، وهذا جواب الجمهور .

٢- أنه مؤول بمذكر ، فأولت الأرض بالمكان أو الموضع ، والحوادث بالحدثان ، والسماحة والمروءة بالكرم والشرف ، فيكون الضمير المستتر ضمير مذكر لا مؤنث فيمتنع لحاق التاء. وهذا التأويل ذكره الأعلم الشنتمري وغيره[6] .

ويتضح لي مما تقدم أن مذهب ابن كيسان في هذه المسألة مبني على رأيه في تفسير الضرورة بما لا مندوحة للشاعر عنه .

وهو مردود بأن ما من ضرورة إلا ويمكن إزالتها بنظم تركيب آخر ، وإنما معنى الضرورة عندهم أنها من التراكيب الواقعة في الشعر المختصة به ، ولا تقع في النثر في كلامهم ، ولأن الشاعر لا يلزمه تخيّل جميع العبارات التي يمكن أداء المقصود بها ، فربما لا تحضره

---

(١) انظر : المغني ٨٦٠ .

(٢) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣) تحصيل عين الذهب ١/٢٤٠ .

(٤) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٠٦ .

(٥) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٠٦ .

(٦) انظر : تحصيل عين الذهب ١/٢٤٠ ، شرح التسهيل ٢/١١٢ ، شرح الكافية ٢/١٧٠ .

وقت النظم إلا عبارة واحدة فيكتفي بها ، ولأنه لو فتح هذا الباب لاتسع الخرق .

فالصحيح أن الضرورة هي مالا يجوز إلاّ في الشعر[1] سواء أكان للشاعر عنه مندوحة أم لم تكن ، والله أعلم .

١١– حذف فعل الفاعل أو نائبه جوازًا أو وجوبا .

تحدث البرماوي عن الأحكام التي يشترك فيها الفاعل والنائب عنه ، وذكر منها :

حذف رافع الفاعل والنائب عنه ؛ للدلالة عليه فقال : " وهذا الحذف على ضربين : جائز وواجب "[2] .

ثم مثل لمسألتين من مسائل الحذف إحداهما للحذف الجائز والأخرى للحذف الواجب ، واقتصر عليهما ؛ لأن الحذف في كلتا المسألتين مما يكثر ويطرد .

فيكثر حذف الفعل جوازًا في جواب الاستفهام[3] يقول البرماوي : " فالجائز نحو قولك : زيدٌ ، في جواب من قال : مَن قام ؟ أو من ضُرِبَ ؟ أي : قام زيد ، أو ضُرِب زيد ، لكن الأحسن أن يقال في جواب هل قام أحد ؟ أو هل ضُرِبَ أحد ؟ لأن جواب مَن قام ؟ الأولى فيه تقدير اسم أي : القائم زيد ، أو نحو ذلك ؛ ليطابق الجواب السؤال ؛ لأن السؤال بجملة اسمية فيكون الجواب كذلك ، وحينئذ لا يكون المذكور فاعلاً "[4] .

والذي استحسنه البرماوي تبع فيه ابن مالك ، إذ يقول : " وحقّ الجواب أن يشاكل ما هو له جواب ، فإن كانت جملة الاستفهام مؤخرًا فيها الفعل فحق الجواب به من جهة القياس أن يؤخر فيه الفعل لتتشاكل الجملتان "[5] .

فإذا قيل " زيد " في جواب من قال : مَنْ قام ؟ هل الأولى في تقدير المحذوف أن نقول : زيد قام كما ذكر البرماوي للمشاكلة بين جملة الاستفهام وجملة الجواب ، أو يقال : قام زيد ، فيكون من حذف الفعل .

وبعبارة أخرى هل المذكور في الجواب (زيد) مبتدأ حذف خبره ، أوفاعل حذف فعله؟ .

الأولى عندي خلاف ما رآه البرماوي ، فتقدير : قام زيد أولى من : زيد قام ، وإن كانت

---

(١) انظر تعليق الفرائد ٢/٢١٨ ، التصريح ١/١٤٢ ، الخزانة ١/١٥ .

(٢) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٠٠ .

(٣) انظر : المغني ٨٢٧ .

(٤) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٠٠ .

(٥) شرح التسهيل ٢/١٢٠ .

القاعدة أنه إذا دار الأمر بين كون المحذوف فعلاً والباقي فاعلاً ، وكونه مبتدأ والباقي خبرًا فالثاني أولى ؛ لأن المبتدأ عين الخبر ، فالحذف فيه كلا حذف ، بخلاف الفعل فإنه غير الفاعل ، وذلك لاعتضاد التقدير الأول بمواضع تشبهه ، ومواضع أتت على طريقته[1] كقوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2] وقوله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[3] وقوله ﴿ ... قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ﴾[4] وقوله ﴿... قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[5] وأما قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا .... ﴾[6] في جواب ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ .... ﴾[7] ففيه سر بلاغي هو القصد إلى إفادة القصر ، هكذا حققه السيد الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ) في شرح المفتاح[8] والله أعلم .

ثم انتقل البرماوي بعد ذلك إلى الحديث عن الحذف الواجب ، ويطرد[9] حذف الفعل مفسَّرًا ، وضابطه : أن يلي الاسم ما يختص بالفعل كأدوات الشرط وبعد الاسم ما يفسِّر المحذوف إذ لابدّ للمحذوف وجوبا من لفظ هو كالبدل منه مفسِّر له نحو قوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ... ﴾[10] فـ (استجارك) مفسّر للمحذوف أي : إن استجارك أحد استجارك ، ولا يجوز إظهار هذا المحذوف ؛ لئلا يجتمع المفسِّر والمفسَّر .

والبرماوي في هذه المسألة اختار مذهب جمهور البصريين[11] في اختصاص أدوات الشرط بالدخول على الأفعال ؛ ولذلك قدّر فعلا عاملا في الاسم الواقع بعد الأداة ، وهو الصحيح .

وسأكتفي بنقل كلام البرماوي في هذه المسألة لوضوحه مقتصرًا على توثيق ما تضمنه

---

(١) انظر : المغني ٨٠٦ – ٨٠٨ .
(٢) سورة الزخرف ٩ .
(٣) سورة الزخرف ٨٧ .
(٤) سورة يس ٧٨ ، ٧٩ .
(٥) سورة التحريم ٣ .
(٦) سورة الأنعام ٦٤ .
(٧) سورة الأنعام ٦٣ .
(٨) المصباح في شرح المفتاح ٥٨ /ب .
(٩) انظر : المغني ٨٢٧ .
(١٠) سورة التوبة ٦ .
(١١) انظر : الكتاب ٢٦٣/١ ، والمقتضب ٧٢/٢ ، الإنصاف ٦١٥/٢ .

من آراء، وتخريج ما ذكر من الشواهد.

يقول البرماوي: " وأمّا الواجب ففي نحو قوله تعالى ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾[1] ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾[2] التقدير: إذا انشقت السماء، ومُدّت الأرض؛ لأن أدوات الشرط لا يليها إلا الجمل الفعلية على الأرجح، وهو مذهب سيبويه[3]، وقد ضعف ما نقل عنه غير ذلك. كما نقل عنه السهيلي أنه يجيز وقوع المبتدأ بعده [يعني الظرف إذا] على رواية[4] .... ولكن قال ابن مالك في (شرح التسهيل)[5]: لا يجيز سيبويه غير تقدير الفعل.

وأجاز الأخفش[6] جعل المرفوع بعدها مبتدأ سواء كان الخبر اسما أم فعلا، ووافقه ابن مالك في (التسهيل)[7] وقال في شرحه: " وبقوله أقول "[8] مستدلا بقوله:

إذا باهليٌّ تحته حَنْظَلِيَّةٌ   له ولدٌ منها فذاك المُذَرّعُ[9]

ولا حجّة فيه؛ لأن الفعل يقدر من جنس عامل الظرف أي: إذا وجد، أو نحو ذلك.

وإنما كان الحذف في هذا النوع واجبا؛ لأن ما بعد الاسم مفسر للمحذوف على طريق البدل منه فلا يجمع بينهما "[10].

ووجه استدلال ابن مالك ببيت الفرزدق أنه لم يل الاسم المرفوع الواقع بعد (إذا) فعل يصلح للتفسير، ولا يفعل ذلك بما هو مختص بالفعل[11].

وردّ البرماوي ذلك، موجّها البيت بما يتفق ومذهبه.

---

(1) سورة الانشقاق ١.

(2) سورة الانشقاق ٣.

(3) الكتاب ١/١٠٧، و ٢٦٣.

(4) انظر: الجنى الداني ٣٦٨.

(5) شرح التسهيل ٢/٢١٣.

(6) انظر: الأمالي الشجرية ١/٣٣٢، وشح التسهيل ٢/٢١٣، والارتشاف ٢/٢٣٩، والجنى الداني ٣٦٨، والمغني ١٢٧.

(7) التسهيل ٩٤.

(8) شرح التسهيل ٢/٢١٣.

(9) البيت للفرزدق، ديوانه ٢/٥١٤، الجنى الداني ٣٦٨، وشرح التسهيل ٢/٢١٣، والمغني ١٢٧، وشرح أبياته ٢/٢١٦، الدرر ١/١٧٤.

(10) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٠٠ – ١٠٢.

(11) شرح التسهيل ٢/٢١٣.

١٢- توجيه نصب (خيرًا) في قوله تعالى ﴿ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾[١].

اختلف في توجيه نصب (خيرًا) في الآية الكريمة على أربعة أقوال :

القول الأول : مفعول به منصوب بفعل محذوف وجوبا والتقدير : انتهوا وائتوا خيرًا لكم ، وهذا قول الخليل (ت ١٧٥هـ) وسيبويه[٢].

القول الثاني : خبر (يكن) المحذوفة مع اسمها ، والتقدير : انتهوا يكن الانتهاءُ خيرًا لكم ، وهو قول الكسائي[٣] (ت ١٨٩هـ) وأبي عبيدة[٤] (ت ٢٠٩ هـ) .

القول الثالث : صفة لمصدر محذوف ، والتقدير : انتهوا انتهاءً خيرًا لكم ، وهو قول الفراء[٥].

القول الرابع : حال ، وعزاه مكي القيسي (ت ٤٣٧ هـ) إلى بعض الكوفيين ، قال :

" وحكي عن بعض الكوفيين أن نصبه على الحال ، وهو بعيد "[٦].

والمختار عند البرماوي[٧] القول الأول قول سيبويه والخليل ؛ وذلك لتقديمه له ، ومن منهجه تقديم الرأي الذي يختاره على غيره ، ولتضعيفه الأقوال الأخرى ، وهو الراجح عندي كذلك لسلامته من الاعتراضات ، ولمناسبته للمعنى ، ولأن فيه حذف ناصب المفعول به ، وهو مما كثر في كلامهم ، والحمل على الكثير أولى ، ووجب حذف ناصب المفعول به في الآية لأنه مما جرى مجرى الأمثال في كثرة الاستعمال ، وحسن الاختصار ، فأعطي حكمها في عدم التغيير[٨].

يقول البرماوي في حديثه عن الصور التي حذف عامل المفعول به فيها وجوبا : " ومنها ما سمع من أمثلة العرب ونحوها من المفعولات محذوف العامل ، فإن العامل يمتنع ذكره ؛ لأن

---

(١) سورة النساء ١٧١.

(٢) الكتاب ٢٨٢/١، ٢٨٣.

(٣) انظر : الأمالي الشجرية ٩٩/٢، وشرح المفصل ٢٧/٢، وشرح التسهيل ١٥٩/٢، والارتشاف ٢٧٩/٢، والمساعد ٤٤١/١ .

(٤) مجاز القران ١٤٣/١.

(٥) معاني القرآن ٢٩٥/١، ٢٩٦ .

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢١٤/١ .

(٧) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١١٨ .

(٨) انظر : أوضح المسالك ١٦٤/٢.

الأمثال لا تغيّر ، وكذلك ما أشبهها ، مثل ما جاء في المثل قولهم : الكلابَ على البقر[1] أي : أرسل الكلاب على البقر ... ومثال شبه المثل : انته خيرًا لك ، أي : انته وائت خيرًا قال سبحانه وتعالى ﴿ انتهوا خيرًا لكم ﴾ .

قال الخليل وسيبويه : إنه منصوب بفعل محذوف واجب الإضمار ، أي ائتوا خيرًا لكم ، فإنه لما صرفهم عمّا أمرهم بالانتهاء عنه أمرهم بالانتقال إلى غيره مما هو خير لهم .

وقال الفراء : إنه نعت لمصدر محذوف ، أي : فآمنوا إيمانا خيرًا لكم .

وردّ بأنه يلزم أن يكون من الإيمان أو من الانتهاء عن الكفر ما ليس بخير ...

وقال الكسائي وأبو عبيدة : هو منصوب على أنه خبر (كان) مضمرة تقديره : يكن الإيمان أو الانتهاء خيرًا لكم .

وردّ بأن (كان) لا تحذف مع اسمها ويبقى خبرها إلاّ فيما لا بدّ منه .

وفيه ضعف آخر وهو أن (يكن) المقدرة – حينئذ – إنما هي جواب شرط مقدر ، أي : إن تؤمنوا أو إن تنتهوا يكن خيرًا لكم ، فلم يبق إلا معمول الجواب ...

ونقل مكي في الآية عن بعض الكوفيين واستبعده أن (خيرًا) منصوب على الحال ، وكذا نقله أبو البقاء[2] من غير أن يعزوه "[3] .

١٣– نيابة اسم الإشارة عن المصدر .

مما ينوب عن المصدر في الانتصاب على المفعول المطلق اسم الإشارة المشار به إلى المصدر ؛ لدلالته عليه ، كأن يقول شخص : اصبرْ صبرًا جميلا ، فتقول : صبرتُ ذلك ، أو صبرتُ ذلك الصبر ، سواء أكان اسم الإشارة متبوعا بالمصدر أم لم يكن ، هذا مذهب سيبويه[4] والجمهور[5] فـ (ذلك) في المثالين السابقين مفعول مطلق نائب عن المصدر ، يقول سيبويه : " وأمّا ظننت ذاك ، فإنما جاز السكوت عليه ؛ لأنك قد تقول (ظننت) فتقتصر

---

(١) يضرب المثل عند تحريش بعض القوم على بعض من غير مبالاة ، يروى برفع (الكلاب) على الابتداء ، وبنصبه على تقدير : أرسل الكلابَ . انظر : مجمع الأمثال ٣ / ٢٢ .

(٢) التبيان ١/ ٤١١ .

(٣) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١١٧ – ١٢٠ .

(٤) الكتاب ١/ ٤٠ .

(٥) انظر : شرح الكافية ١/ ١١٦ ، والارتشاف ٢ / ٢٠٤ ، شرح ابن عقيل ١/ ١٨٨ ، والمساعد ١ / ١٦٩ ، وتعليق الفرائد ٥ / ٨٩ ، والتصريح ١/ ٣٢٧ ، وحاشية الصبان على شرح الأشموني ٢ / ١٦٦ .

كما نقول (ذهبت) ثم تعمل (ذهبت) في الذهاب ، فـ (ذاك) ههنا هو الظن ، كأنك قلت : ظننت ذاك الظنّ ... ويدلك على أنه الظن أنك لو قلت : خلت زيدًا ، وأرى زيدًا لم يجز "[1] .

واشترط ابن مالك في اسم الإشارة إذا ناب مناب المصدر أن يكون متبوعا بالمصدر ، قال ابن مالك : " ولا بدّ من جعل المصدر تابعا لاسم الإشارة المقصود به المصدرية "[2] . واختار البرماوي مذهب سيبويه وجمهور النحويين وردّ رأي ابن مالك في المسألة بما حكاه سيبويه عن العرب يقول البرماوي : " أقول : ما بمعنى المصدر مثله في الانتصاب على المفعول المطلق، فمن ذلك ... الإشارة إليه كـ (ضربت ذلك الضربَ) و (ظننت ذلك) وهذا من أمثلة سيبويه ردًا على مَن قيّده[3] بلزوم وصف اسم الإشارة بالمصدر ، كما في المثال الأول "[4] .

ويترجح عندي اختيار البرماوي وفاقا لسيبويه وجمهور النحويين ؛ إذ سمع من كلام العرب : ظننت ذلك ، يشيرون به إلى الظن ، ولم يذكروا بعده المصدر تابعا له ، فدلّ ذلك على عدم وجوب جعل المصدر وصفا لاسم الإشارة إذا أقيم مقامه ، كما يرى ابن مالك الذي اشترط أن يلي اسم الإشارة مصدر الفعل الوارد في الجملة.

يقول أبو حيان : " وزعم ابن مالك أن اسم الإشارة إذا أشير به إلى المصدر لا بدّ له من وصفه بالمصدر ، وهو مخالف لما ذهب إليه سيبويه والجمهور "[5] .

١٤- حكم تقديم المفعول معه على عامله .

يكاد النحويون يجمعون على امتناع تقديم المفعول معه على العامل فيه[6] ، بل قد صرّح بعضهم كابن مالك[7] وأبي حيان[8] وخالد الأزهري[9] والسيوطي[10] والأشموني[11] (ت ٩٢٩ هـ)

---

(١) الكتاب ١/٤٠ .

(٢) شرح التسهيل ٢/١٨١.

(٣) يعني ابن مالك .

(٤) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٢١، ١٢٢.

(٥) الارتشاف ٢/٢٠٤ .

(٦) انظر : الخصائص ٢/٣٨٣ ، وكشف المشكل ١/٤٥٧ ، واللباب ١/٢٨٢ ، وشرح المفصل ٢/٤٨ ، وشرح الجمل ٢/٤٥٤ ، والملخص ١/٣٨١ .

(٧) التسهيل ٩٩ ، وشرحه ٢/٢٥٢ .

(٨) الارتشاف ٢/٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٩) التصريح ١/٣٤٤ .

(١٠) الهمع ١/٢٢٠ .

(١١) شرح الأشموني ٢/٢٠١ .

بأنه لا يجوز تقديمه على عامله باتفاق النحويين .

وفيما قالوا نظر ، فقد أجاز الرضي تقديم المفعول معه على العامل فيه بشرط أن يتأخر المفعول معه على المصاحب ، فيجوز عند الرضي نحو : الماءُ والخشبةَ استوى .

يقول الرضي : " وأنا لا أرى منعا من تقدم المفعول معه على عامله إذا تأخر عن المصاحب ، لأن ذلك مع واو العطف – الذي هو الأصل – جائز نحو : زيدًا وعمرًا لقيت "[1] فيجوز كذلك هنا مراعاة للأصل .

وجعل الرضي من ذلك قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : " وأنا وإيّاه في لحاف "[2] فـ (إيّاه) مفعول معه تقدم على عامله الجار والمجرور (في لحاف)[3] .

وقول الراعي النميري :

أزمانَ قومي والجماعةَ كالذي لَزِمَ الرّحالةَ أنْ تميلَ مَمِيلا[4]

فـ (الجماعة) مفعول معه تقدم على عامله الجار والمجرور (كالذي)[5] .

واختار البرماوي مذهب الجمهور ، فاقتصر عليه ، ولم يعبأ بخلاف الرضي في هذه المسألة، فهو يعدّ خرقا لما أجمعوا عليه .

يقول البرماوي : " من أحكام المفعول معه أنه لا يتقدم على ناصبه ... فلا تقول : والنيلَ سرت "[6] .

ويترجح عندي اختيار البرماوي وفاقا لجمهور النحويين فلا يجوز ألبتة تقديم المفعول معه على العامل فيه ، لأن هذه الواو شبيهة بهمزة التعدية ، فتلزم محلا واحدًا[7] .

ولا حجة للرضي في قول عائشة رضي الله عنها ، وبيت الراعي المذكورين آنفا ؛ لأن العامل في المفعول معه فيهما (كان) مقدرة[8] .

---

(١) شرح الكافية ١/ ١٩٨.

(٢) مصنف ابن أبي شيبه ٦/ ٣٨٩ بلفظ " أتاه الوحي وأنا وإيّاه في لحاف واحد " .

(٣) شرح الكافية ١/ ١٩٨.

(٤) ديوان الراعي ٢٣٤ ، والكتاب ١/ ٣٠٥ ، وشرح التسهيل ٢/ ٢٥٩ ، وشرح الكافية ١/ ١٩٨ ، وتعليق الفرائد ٥/ ٢٧٥.

(٥) شرح الكافية ١/ ١٩٨.

(٦) شرح اللمحة ١٤٣.

(٧) انظر : شرح التسهيل ٢/ ٢٥٣.

(٨) انظر : المساعد ١/ ٥٤٣ ، وتعليق الفرائد ٥/ ٢٧٥ .

يقول سيبويه : " كأنه قال : أزمان كان قومي والجماعة ، فحملوه على (كان) لأنها تقع في هذا الموضع كثيرا "[1] .

ويقول ابن مالك في تقدير عامل المفعول معه في قول عائشة رضي الله عنها : "كأنها قالت : وكنت وإياه في لحاف "[2] .

وقد أنكر غير واحد[3] إعمال الجار والمجرور في المفعول معه مطلقا تقدم أو تأخر .

١٥- الأوجه الجائزة في نحو : هذا خاتم حديد .

يقول البرماوي : " أقول : إذا كانت الإضافة على معنى (مِنْ) نحو : خاتمُ حديدٍ ، وبابُ ساجٍ، وجُبّةُ خزٍّ، جاز لك مع الإضافة وجهان آخران :

أحدهما : نصب الجزء الثاني مع تنوين الأول ، فتقول : عندي خاتمٌ حديدًا ، ونصبه - حينئذ - عند المبرد[4] وجماعة على التمييز ، واختاره في (التسهيل)[5] .

وقال سيبويه[6] : نصبه على الحال.

وقد ذكر المصنف المسألة في (باب التمييز)[7] وشرحها هناك مقتصرًا على التمييز ؛ لأنه الراجح عند المتأخرين ....

والوجه الثاني : أن ترفعه ، إما صفة بتأويله بمشتق أي : خاتم مصنوع من حديد وإما بدلا ، أو بيانا .....

فإن قيل : فما الأرجح من هذه الأوجه الثلاثة ؟ قلتُ : المصرح به في (التسهيل)[8] وغيره أن الأرجح الإضافة . "[9] .

يتبين من خلال هذا النص أن النحويين يجيزون في هذا التركيب وما أشبه ثلاثة أوجه :

الأول : الإضافة ، تقول : عندي خاتمُ حديدٍ ، وسوارُ ذهبٍ ، وهذا بابُ خشبٍ ، ولي ثوبُ

---

(١) الكتاب ١/١٥٤.

(٢) شرح التسهيل ٢/٢٥٩.

(٣) انظر : شرح التسهيل ٢/٢٦٢ ، ٢٦٣ ، والمساعد ١/٥٤٠ ، والتصريح ١/٣٤٣ .

(٤) المقتضب ٣/٢٧٢ .

(٥) التسهيل ١١٤ وشرحه ٢/٣٨٢ .

(٦) الكتاب ١/٣٩٦ .

(٧) شرح شذور الذهب : ٢٥٦ .

(٨) التسهيل ١١٤، وشرحه ٢/٣٨٢ .

(٩) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٤٧ - ١٤٩.

صوفٍ .

والإضافة في هذه التراكيب بمعنى (مِن) من إضافة الشيء إلى جنسه ، وضابط هذا النوع من الإضافة أن يكون المضاف بعض المضاف إليه ، وصالحا للإخبار به عنه ، وإطلاق اسمه عليه، فالخاتم في المثال بعض جنس الحديد ، ويصح أن تقول : الخاتم حديد[1] .

وهذا الوجه هو الأكثر والأرجح ؛ لأنه لا يحوج إلى تأويل ، ولما فيه من التخفيف بترك التنوين ، وصرّح البرماوي باختياره وفاقا لابن مالك وغيره[2] .

الثاني : النصب ، تقول : عندي خاتمٌ حديدًا ، واختلف في توجيهه .

فذهب سيبويه[3] إلى أن نصبه على الحال ، واختاره ابن هشام الخضراوي[4](ت٦٤٦هـ) لأن المنصوب ليس واقعا بعد مقدار ولا شبهه .

وقال المبرد هو منصوب على التمييز " فليس للحال هاهنا موضع بيّن ، ولا أرى نصب هذا إلا على التبيين ، لأن التبيين إنما هو بالأسماء ، فهذا الذي أراه "[5] .

وقصر ابن عصفور[6] توجيه النصب على التمييز ، وهو الراجح عند ابن مالك[7]والمتأخرين كما ذكر البرماوي في كلامه المتقدم .

ورجح نصب الاسم على التمييز ؛ لجموده ، ولزومه ، وتنكير ما قبله ، والأصل في الحال الاشتقاق والانتقال ، والأصل في صاحبها التعريف ، ولحسن ظهور (مِنْ) معه تقول : عندي خاتمٌ من حديد[8] .

الثالث : الإتباع تقول : هذا خاتمٌ حديدٌ[9] ، وهو إما نعت أو عطف بيان أو بدل ، وضعّف النعت ؛ لأن التابع جامد جمودًا محضا ، فلا يحسن كونه نعتا كما لا يحسن كونه حالاً[10] .

---

(١) انظر : المقرب ٢٠٩ ، وأوضح المسالك ٧٨/٣ .

(٢) انظر : الكافية ١٠٧ ، التسهيل ١١٤ ، وشرحه ٣٨٢/٢ ، المساعد ٦٠/٢ ، تعليق الفرائد ٣١٤/٦ ، الهمع ٢٥٠/١ ، حاشية الصبان ٢٩٢/٢ .

(٣) الكتاب ٣٩٦/١ .

(٤) انظر : المساعد ٦٠/٢ .

(٥) المقتضب ٢٧٢/٣ .

(٦) المقرب ٢١٠ .

(٧) التسهيل ١١٤ ، وشرحه ٣٨٢/٢ .

(٨) انظر : حاشية ياسين على التصريح ٣٩٦/١ .

(٩) انظر : المقرب ٢١٠ .

(١٠) انظر : التصريح ٣٩٦/١ .

يقول المبرد : " ولا تقول على النعت : هذا خاتم حديدٌ إلاّ مستكرها ، إلا أن تريد البدل ، وذلك لأن حديدًا وفضّة وما أشبه ذلك جواهر ، فلا ينعت بها ، لأن النعت تحليه ، وإنما يكون هذا نعتا مستكرها إذا أردت التمثيل "[١] .

والراجح عندي من هذه الأوجه الثلاثة في هذه المسألة الإضافة وهو اختيار البرماوي تبعا للجمهور " لأن الحال يحوج إلى التأويل بمشتق ... والتمييز باب ضعيف ؛ لكونه في خامس رتبة من الفعل ؛ لأن النصب فيه على التشبيه بأفعل مِن ، وأفعل مِن مشبه بالصفة المشبهة ، وهي مشبهة باسم الفاعل ، وهو بالفعل ، فلا يحسن إلا عند تعذر الإضافة "[٢] .

ونصبه على التمييز أرجح من نصبه على الحال ؛ لقوة الأدلة المذكورة آنفا ، وهي : جمود الاسم ، ولزومه ، وتنكير صاحبه ، وحسن ظهور (مِنْ) معه .

وأما الإتباع فهو أقلّ الأوجه كما ذكر الصبان[٣] .

١٦- بناء الزمن المبهم المضاف إلى فعل مبني أرجح من إعرابه .

ذكر ابن هشام في (شرح شذور الذهب)[٤] من أنواع ما لزم البناء على الفتح : الزمن المبهم المضاف لجملة نحو : الحين والوقت والساعة والزمان.

وقال : " إن هذا النوع من أسماء الزمان تجوز إضافته إلى الجملة ، ويجوز لك فيه – حينئذ – الإعراب والبناء على الفتح ... " ويترجح البناء " إذا كان المضاف إليه جملة فعلية فعلها مبني كقوله :

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا وقلتُ ألمَّا أصحُ والشيبُ وازعُ[٥]

يروى (على حينِ) بالخفض على الإعراب ، و (على حينَ) بالفتح على البناء ، وهو الأرجح ، لكونه مضافا إلى مبني وهو (عاتبت)[٦] .

قال البرماوي في شرحه : " أقول : لما قال وإعرابه مرجوح قبل الفعل المبني شمل ذلك

---

(١) المقتضب ٢٧٢/٣ .

(٢) الهمع ٢٥٠/١ .

(٣) حاشية الصبان ٣٥٧/٢ .

(٤) شرح شذور الذهب : ٧٨ .

(٥) البيت للنابغة الذبياني ، ديوانه ٧٩ ، المفصل ١٥٤ ، وشرح المفصل ٨١/٣ ، شرح التسهيل ٢٥٥/٣ ، الارتشاف ٥٢٢/٢ ، أوضح المسالك ١١٩/٣ ، المساعد ٣٥٤/٢ ، الدرر ١٨٧/١ .

(٦) شرح شذور الذهب ٧٩ .

الفعل الماضي ، والمضارع المبني . و (يستصبين) في هذا البيت مضارع مبني ؛ لاتصال نون الإناث به نحو : يقمن ويخرجن .

ومن ثمّ عيب على ابن مالك قوله في (الكافية) :

وقبلَ فعلِ ماضٍ البِنا رَجَحْ[1] ....

فإنه لا يتقيد بالماضي ، ولهذا قال في (ألفيته)[2]

.... واخترْ بِنا متلوّ فعلٍ بنُيا

فشمل النوعين وهو الصواب "[3] .

قلت : أشار البرماوي إلى شاهد في المسألة غير الذي أورده ابن هشام في (شرح شذور الذهب) وقد تقدم ما فيه ، وأمّا الذي أشار إليه البرماوي في كلامه فهو قول الشاعر :

لأجْتَذِبَنْ منهنّ قلبي تحلُّما على حينَ يَسْتَصْبِينَ كُلَّ حَلِيمِ[4]

يروى (على حينِ) بالكسر على الإعراب ، وبالفتح على البناء وهو الراجح .

فالشاهد في البيتين (على حين) ورجح البناء ؛ لأن الظرف أضيف إلى جملة فعلية فعلها مبني وهو ماض في البيت الأول الذي أورده ابن هشام وهو بيت النابغة ، ومضارع مبني لاتصال نون النسوة به في البيت الثاني الذي أشار إليه البرماوي في كلامه .

واختيار البرماوي ترجيح البناء في هذه المسألة موافق لما هو مجمع عليه تعليلا واستدلالاً[5] .

وبيان ذلك أن ظرف الزمان المبهم إذا لزمت إضافته إلى الجملة لزم بناؤه نحو : إذ وإذا وحيث ، لمشابهته الحرف في الافتقار المتأصل إلى الجملة .

وإذا لم تلزم إضافته إلى الجمل جاز فيه وجهان :

الإعراب ؛ نظرًا إلى ما هو الأصل في الأسماء .

والبناء على الفتح ؛ حملا على إذ وإذا ، واعتدادًا بالافتقار العارض إلى الجملة .

---

(١) شرح الكافية الشافية ٢/٩٤١ .

(٢) ألفية ابن مالك ٣٣ .

(٣) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٨٣ .

(٤) لم أعرف قائله ، وهو في شرح التسهيل ٣/٢٥٥ ، الارتشاف ٢/٥٢٢ . أوضح المسالك ٣/١٢١ ، المساعد ٢/٣٥٥ ،الدرر ١/١٨٧ .

(٥) انظر : التسهيل ١٥٨ ، وشرحه ٣/٢٥٥ ، الهمع ١/١٦ ، ٢١٨ .

ورجح البناء للتناسب ؛ حيث أضيف الظرف إلى مبني[1] .

قال الزمخشري : " وسبب بناء الاسم إضافته إلى ما لا تمكن له بوجه قريب أو بعيد "[2] .

قال ابن يعيش : " لأن الظرف مبهم أضيف إلى غير متمكن فاكتسى منه البناء ؛ لأن المضاف يكتسي من المضاف إليه كثيرًا من أحكامه "[3] .

ولا فرق في الفعل المبني في صدر الجملة سواء أكان ماضيا أم مضارعا عرض له البناء ، ومن أجل ذلك أُخذ على ابن مالك – كما ذكر البرماوي[4] – قوله في (الكافية) :

وقبل فعل ماض البنا رجح　　　　والعكس قبل غيره أيضا وضح

إذ قصر ذلك الحكم في النظم على صورة واحدة وهي فيما إذا ولي الظرف جملة فعلية فعلها ماض ، مع انطباق ذلك الحكم مع المضارع المبني كما مرّ آنفا .

ولهذا صوّب البرماوي قول ابن مالك في (الألفية) :

وابن أو اعرب ما ك (إذ) قد أجريا　　　　واختر بنا متلو فعل بنيا

لشمول قوله (متلو فعل بنيا) الماضي والمضارع المبني .

وأشار ابن مالك في (شرح الكافية الشافية) إلى انطباق ذلك وجريانه إذا أضيف الظرف المبهم إلى جملة فعلية صدرت بمضارع مبني .

يقول ابن مالك : " وحكم بعض المتأخرين للمضاف إلى (يفعلْنَ) ونحوه بما يحكم لمتلوّ الماضي ، فيختار البناء في نحو : من حينَ ينطلقْنَ ، كما يختاره في نحو : من حينَ قام ؛ لوجود البناء في المضارع كما هو موجود في الماضي "[5] .

وربما لضيق النظم لم يذكره فيه ، فذكره في شرحه نقلا عن بعض المتأخرين ، وسكوته دليل على موافقة له .

وقد صرح برجحان بناء الظرف المبهم المضاف إلى جملة مصدرة بفعل مبني ماضيا كان أو مضارعا في (التسهيل وشرحه)[6] وفي (الألفية)[7] .

---

(١) أوضح المسالك ٣ / ١١٩ .

(٢) المفصل ١٥٢ .

(٣) شرح المفصل ٣/ ٨١ .

(٤) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ٨٣ .

(٥) شرح الكافية الشافية ٢ /٩٤٣ .

(٦) التسهيل ١٥٨ ، وشرح التسهيل ٣ / ٢٥٥ .

(٧) ألفية ابن مالك ٣٣ .

وتعقّب الخضري ابن عقيل بمثل ذلك حيث قال ابن عقيل في شرح بيت الناظم :

.... واخترينا متلو فعل بنيا

" المختار فيما أضيف إلى جملة فعلية صدرت بماض البناء "[1].

قال الخضري : " الأولى مبني كعبارة المصنف لشموله المضارع مع إحدى النونين "[2].

١٧- إعمال المصدر المحدود بالتاء شاذ.

من شروط إعمال المصدر العدمية ألاّ يكون محدودًا ، أي : مقترنا بالتاء التي تدل على الوحدة كـ (ضَرْبَة) على زنة (فَعْلَة) فلا يجوز : ساءني ضَرْبَتُك زيدًا .

قال ابن مالك : " ولا يعمل المحدود ، وهو المردود إلى فَعْلَة قصدًا للتوحيد والدلالة على المرة ؛ لأنه غيّر عن الصيغة التي اشتق منها الفعل ، فلا يقال : عرفت ضربتك زيدًا ونحو ذلك ، فإن روي مثله عمن يوثق بعربيته حكم بشذوذه ولم يقس عليه "[3].

وإيّاه اختار البرماوي إذ يقول[4] : " وأما اشتراط كونه غير محدود فلأن الفعل لما كان يصدق على القليل والكثير ، وكان المصدر محمولا عليه ، روعي في ذلك ألا يبعد عن قاعدة الفعل بوحدة أو تثنية أو جمع ...

فأمّا ما سمع من عمل المصدر المحدود بالتاء فمحمول على الشذوذ كقوله :

يُحابِي به الجَلْدُ الذي هو حازِمٌ بِضَرْبَةِ كفّيهِ المَلا نَفْسَ راكِبِ "[5]

فأعمل (ضَرْبَة) وهو مصدر محدود ، فأضافه إلى الفاعل (كفيه) ونصب به المفعول وهو (الملا) وهذا شاذ .

ولا أعلم في هذا خلافا بين النحويين ، فهم يشترطون لإعمال المصدر عمل فعله بقاءه على صيغته الأصلية التي اشتق منها الفعل ، فلزم من ذلك ألا يعمل إذا غيّر لفظه بردّه إلى فَعْلَة قصدًا للتوحيد[6].

---

(١) شرح ابن عقيل ٢/ ١٠.

(٢) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ٢/ ١٠.

(٣) شرح التسهيل ٣/ ١٠٨.

(٤) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٥١، ١٥٢.

(٥) البيت لذي الرمة في ديوانه ٣/ ١٨٤٦، وشرح التسهيل ٣/ ١٠٨، المساعد ٢/ ٢٢٨، شرح الأشموني ٢/ ٤٣٢ ومعناه : أن هذا المسافر عدل عن الوضوء وتيمّم ، وسقى بذلك الماء راكبًا معه كاد يموت فأحيا نفسه. حاشية ياسين على التصريح ٢/ ٦٣.

(٦) انظر : شرح التسهيل ٣/ ١٠٦.

أما إذا بني المصدر على فَعْلَة أصلاً نحو: رحمة ورغبة ورهبة عمل، كقوله:

فلولا رجاءُ النصرِ منك وَرَهْبَةٌ عِقابَكَ قد كانوا لنا كالمواردِ[1]

فأعمل (رهبة) في (عقابك) لأن التاء في المصدر ليست للوحدة، بل هو مصدر مبني على فعلة، وإنما يدل مثل هذا على الوحدة بالوصف كرهبة واحدة، فهو كالعاري من التاء في صحة العمل.

ويفهم من كلام البرماوي الذي تقدم ذكره أنه لا يجيز إعمال المصدر المجموع، لأن جمعه يخرجه عن صيغته الأصلية التي هي أصل الفعل، وهذا معنى قوله إن " الفعل لما كان يصدق على القليل والكثير، وكان المصدر محمولا عليه، روعي في ذلك ألا يبعد عن قاعدة الفعل بوحدة أو تثنية أو جمع "[2].

والبرماوي تبع في ذلك ابن سيده[3] (ت ٤٥٨ هـ) والزمخشري[4] وأبا حيان[5].

وأجاز بعض النحويين إعمال المصدر مجموعا وهو اختيار ابن هشام اللخمي[6] (ت ٥٧٧ هـ) وابن عصفور[7] وابن مالك في (شرح التسهيل)[8].

ومن شواهده قول الشاعر:

قَدْ جَرَّبُوهُ فما زادتْ تجارِبُهم أبا قدامةَ إلا المجدَ والفَنَعا[9]

وهذا شاذ عند من اشترط في إعمال المصدر أن يكون مفردًا[10].

قال ابن مالك في (الكافية الشافية):

ورُبَّ محدودٍ ومجموعٍ عَمِلْ وبسماعٍ لا قِياسٍ قد قُبِلْ[11]

---

(١) لم أعرف قائلة، وهو في شرح المفصل ٦/ ٦١، وشرح التسهيل ٣/ ١٠٨، وحاشية ياسين ٢/ ٦٣.
(٢) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٥١.
(٣) انظر: الارتشاف ٣/ ١٧٤.
(٤) المفصل ٢٧٦.
(٥) الارتشاف ٣/ ١٧٤.
(٦) انظر: الارتشاف ٣/ ١٧٣.
(٧) المقرب ١/ ١٣١.
(٨) شرح التسهيل ٣/ ١٠٦ – ١٠٨.
(٩) البيت للأعشى في ديوانه ١٠٩، وشرح التسهيل ٣/ ١٠٧، وشرج الكافية الشافية ٢/ ١٠١٦، وشرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٥١، وشرح الأشموني ٢/ ٤٣٣. الفَنَع: الكرم والفضل.
(١٠) انظر: شرح الأشموني مع حاشية الصبان ٢/ ٤٣٣.
(١١) شرح الكافية الشافية ٢/ ١٠١١، ١٠١٤ – ١٠١٦.

فحكم عليه بالقلة والسماع ، ولا يقاس على ما يسمع ، وإياه أختار.

١٨- توكيد الحرف توكيدًا لفظيا .

التوكيد اللفظي : إعادة اللفظ الأول بعينه ، أو بمرادفه ، تقوية وتقريرًا في السمع ؛ إما لخوف نسيان أو عدم إصغاء ، أو نحو ذلك ، ويكون في الاسم والفعل والحرف والجملة[١] .

وإذا احتيج إلى توكيد الحرف توكيدًا لفظيا فلا يخلو إما أن يكون الحرف المؤكَّد جوابا أو لا .

فإذا كان الحرف المراد توكيده جوابيا مثل (نعم ولا) أعيد لفظه أو مرادفه تقول : نعم نعم ، أو نعم أجل .

قال الشاعر :

لا لا أَبُوحُ بِحُبِّ بَثْنَةَ إنّها   أخَذَتْ عليّ مواثقًا وعُهُودا[٢]

وقال آخر :

وقُلْنَ على الفِرْدَوسِ أوّلَ مَشْرَبٍ   أجَلْ جَيْرِ إن كانت أُبِيحَتْ دَعَاثِرُه[٣]

ولا يشترط في توكيده ما اشترط في الحرف غير الجوابي – كما سيأتي – من إعادة ما به اتصل ، وذلك أنه قائم مقام جملة[٤] .

هذا قول النحويين[٥] في المسألة ولا أعلم في ذلك خلافا .

غير أنّ البرماوي يرى أن توكيد الحرف الجوابي بمرادفه أولى من إعادة لفظه ، وهذا لم يقل به سابق ولا لاحق فيما وقفت عليه .

يقول البرماوي : " فأمّا حروف الجواب كـ (نعم) و (بلى) فلا يشترط فيها ذلك ، إلاّ أن الأولى أن يؤكد الحرف بمرادفه نحو : نعم أجل ، أو أجل نعم "[٦].

---

(١) انظر : التسهيل ١٦٦ ، وشرحه ٣/٣٠١ ، و شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٥٩ .

(٢) البيت لجميل بثينة ، ديوانه ٧٩ ، التصريح ٢/١٢٩ ، والخزانة ٢/٣٥٣ ، والدرر ٢/١٥٩ .

(٣) البيت لمضرّس بن ربعي الأسدي ، شرح المفصل ٨/١٢٢ ، وشرح أبيات المغني ٣/٥٩ ، والخزانة ٤/٢٣٥ ، والدرر ٢/١٥٩ . الفردوس : اسم مكان قرب اليمامة ، دعاثره : جمع دعثور وهو الحوض المتهدّم .

(٤) انظر : شرح التسهيل ٣/٣٠٣ .

(٥) انظر : شرح التسهيل ٣/٣٠٣ ، والارتشاف ٢/٦١٧ ، وأوضح المسالك ٣/٣٠٢ ، والمساعد ٢/٣٩٨ وشرح الأشموني ٣/١٢٢ .

(٦) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٦٢ .

وإذا كان الحرف المراد توكيده غير جوابي وجب عند جمهور النحويين[1] أن يعاد معه ما اتصل به أولاً نحو: إنّ زيدًا إنّ زيدًا جالس، أو مرادفه وهو ضميره نحو: إن زيدًا إنه جالسٌ.

وجعلوا[2] إعادة ضمير المؤكَّد أولى من إعادة لفظه، لأجل عدم التكرير صورة، ولأن إعادته ظاهرًا ربّما توهم أن الثاني غير الأول، ولموافقته ما جاء به التنزيل، وكفى به دليلا، قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3] فإن (في) الثانية توكيد للأولى، وأعيد معها ضمير الرحمة.

وعدّ ابن مالك[4] الفصل بين الحرفين المؤكَّد والمؤكِّد قائما مقام إعادة ما اتصل به وجعل منه قول الشاعر:

ليت وهل ينفع شيئا ليت ... ليت شبابا بوع فاشتريت[5]

فأكد (ليت) بـ (ليت) وفصل بينهما بـ (وهل ينفع شيئا ليت)[6].

وأجاز الزمخشري[7] وابن هشام الخضراوي[8] توكيد الحرف غير الجوابي بإعادته وحده نحو: إنّ إنّ زيدًا منطلق.

قال ابن مالك: " وقد أشار الزمخشري في (المفصل)[9] إلى توكيد الحرف الذي ليس من حروف الجواب بإعادته وحده ... وقوله مردود؛ لعدم إمام يسند إليه، وسماع يعول عليه، ولا حجة في قول الشاعر:

إنّ إنّ الكريمَ يحلُمُ ما لم ... يَرَيَنْ مَنْ أجارَهُ قد ضِيما[10]

---

(١) انظر: الأصول في النحو ٢/١٩، ٢٠، وشرح التسهيل ٣/٣٠٣، والارتشاف ٢/٦١٧، وأوضح المسالك ٣/٣٠٣، والمساعد ٢/٣٩٨.

(٢) انظر: حاشية ياسين على التصريح ٢/١٢٩.

(٣) سورة آل عمران ١٠٧.

(٤) شرح التسهيل ٣/٣٠٤.

(٥) البيت لرؤبة بن العجاج، ملحقات الديوان ١٧١، وشرح التسهيل ٣/٣٠٤، والمساعد ٢/٣٩٨، وشرح أبيات المغني ٦/٢١٩، والدرر ١/٢٠٦.

(٦) شرح التسهيل ٣/٣٠٤.

(٧) المفصل ١٣٨.

(٨) انظر: الارتشاف ٢/٦١٧، والمساعد ٢/٣٩٨.

(٩) المفصل ١٣٨.

(١٠) البيت لا يعرف قائله، وهو في شرح التسهيل ٣/٣٠٣، وشرح الأشموني ٣/١٢١، والتصريح ٢/١٣٠، والدرر ٢/١٦٠.

فإنه من الضرورات "[1].

واختار البرماوي مذهب الجمهور فاشترط في الحرف غير الجوابي أن يعاد مع التوكيد ما اتصل بالمؤكَّد، فإن ورد بدونه فشاذ.

يقول البرماوي[2]: " ولا يعاد حرف من غير حروف الجواب إلا بإعادة ما اتصل به نحو: إنّ زيدًا إن زيدًا قائم، أو بمرادفه نحو: إنّ زيدًا إنه قائم؛ لأنه كالجزء من مصحوبه .... وربما أعيد الحرف غير الجوابي بدون ما اتصل به شذوذًا، كقوله:

فلا واللهِ لا يُلْفَى لما بي ... ولا لِلِما بِهِمْ أبدًا دَواءُ[3] ".

حيث أكد الشاعر اللام الجارة توكيدًا لفظيا، وهي حرف غير مجاب به، فأعادها بلفظها من غير أن يفصل بين الحرفين، وهذا عند البرماوي شاذ وفاقا لمذهب الجمهور، وعند الزمخشري وابن هشام الخضراوي جائز كما تقدم.

١٩- مطابقه عطف البيان متبوعه.

يوافق عطف البيان متبوعة في الإفراد وضديه (التثنية والجمع) وفي أوجه الإعراب الثلاثة (الرفع والنصب والجر) وفي التذكير والتأنيث، وفي التعريف والتنكير[4].

والبرماوي لم يخرج عمّا قرره جمهور النحويين[5] في ذا الباب، يبدو ذلك من خلال ردّه قول الزمخشري[6] إن (مقام إبراهيم) عطف بيان على (آيات) في قوله تعالى ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[7] لأنه يلزم منه مخالفة عطف البيان متبوعة في التعريف والتنكير.

يقول البرماوي: " فلا يجوز أن يكون (مقام إبراهيم) عطف بيان من (آيات) خلافا لما قاله الزمخشري؛ لأن شرطه التطابق في التعريف والتنكير، و (آيات) نكرة، و (مقام) معرفة.

---

(١) شرح التسهيل ٣/٣٠٣، ٣٠٤.

(٢) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٦٢.

(٣) البيت لمسلم بن معبد الوالبي. شرح التسهيل ٣/٣٠٤، والمساعد ٢/٣٩٨، وشرح الأشموني ٣/١٢٢، وشرح أبيات المغني ٤/١٤٣، والدرر ٢/١٦١.

(٤) انظر: شرح شذور الذهب ٤٣٦، وشرح الأشموني ٣/١٢٦.

(٥) انظر: شرح التسهيل ٣/٣٢٦، والارتشاف ٢/٦٠٥، وأوضح المسالك ٣/٣١٠، والمساعد ٢/٤٢٤، والهمع ٢/١٢١، وشرح الأشموني ٣/١٢٦.

(٦) الكشاف ١/٤٠٧.

(٧) سورة آل عمران: ٩٧.

وقال الشيخ في (التوضيح)[1] : إن الزمخشري مخالف في ذلك لإجماعهم "[2] .

والبرماوي تبع ابن مالك[3] وأبا حيان[4] وابن هشام[5] في ردّ قول الزمخشري ، يقول ابن مالك عنه : " وقوله في هذا مخالف لإجماع البصريين والكوفيين فلا يلتفت إليه "[6] .

وغير خافٍ ضعف قول الزمخشري من أكثر من وجه ، فالتابع لا يخالف المتبوع في التعريف والتنكير فحسب ، بل المخالفة في ثلاثة أوجه : في التعريف والتنكير ، وفي الإفراد وضديه ، وفي التذكير والتأنيث[7] .

وقد أحسن ابن هشام به الظن في موضع من (المغني)[8] حين أجاب عن قول الزمخشري إن (مقام إبراهيم) عطف بيان على (آيات بينات) مع اتفاق النحويين على أن البيان والمبيَّن لا يتخالفان تعريفا وتنكيرا بأن الزمخشري قد يكون عبّر عن البدل بعطف البيان ؛ لتآخيهما .

والوجه أن يكون (مقام إبراهيم) مبتدأ حذف خبره ، أي : من الآيات مقام إبراهيم[9] ، أو يكون خبرًا لمبتدأ محذوف ، والتقدير : بعضها مقام إبراهيم[10] .

قيل : أو بدل من (آيات)[11] .

٢٠- (إذْما) اسم شرط .

من أدوات الشرط الجازمة (إذْما) وللنحويين فيها قولان :

القول الأول : ذهب سيبويه[12] وتبعه جمهور النحويين[13] إلى أنها حرف شرط بمنزلة (إنْ) .

---

(١) أوضح المسالك ٣/ ٣١٠ .

(٢) شرح الصدور بشرح زوائد الشذور ١٦٤، ١٦٥ .

(٣) شرح التسهيل ٣/ ٣٢٦ .

(٤) الارتشاف ٢/ ٦٠٥ .

(٥) أوضح المسالك ٣/ ٣١٠ .

(٦) شرح التسهيل ٣/ ٣٢٦ .

(٧) انظر : حاشية الصبان ٣/ ١٢٦ .

(٨) المغني ٧٤٨ .

(٩) انظر : معاني القرآن للأخفش ١/ ٤١٥ ، والبيان في غريب إعراب القرآن ١/ ٢١٣ ، وحاشية الصبان ٣/ ١٢٦ .

(١٠) انظر : التصريح ٢/ ١٣٢ .

(١١) انظر : البيان في غريب إعراب القرآن ١/ ٢١٣ ، وحاشية الدسوقي على المغني ٢/ ٢٠٩ .

(١٢) الكتاب ٣/ ٥٦ .

(١٣) انظر : المقتضب ٢/ ٤٥ ، والمقرب ١/ ٢٧٣ ، وشرح الكافية الشافية ٢/ ١٦٢٣ ، ورصف المباني ١٤٩ ، والجنى الداني ١٩١ .

القول الثاني : ذهب ابن السراج[1] (ت ٣١٦ هـ) وأبو علي الفارسي[2] وابن جني[3] وابن يعيش[4] إلى أنها اسم شرط ، فهي باقية على ظرفيتها بعد دخول (ما) .

واختار البرماوي القول الثاني وهو أن (إذْما) اسم شرط .

وهذا مفهوم كلامه في شرح عبارة أبي حيان : " وتجزم فعلين إنْ ، وإذْما ، وما ، ومهما وأيّ ، ومتى ، وأيّان ، وأين ، وأنّى ، وحيثما "[5] .

قال البرماوي : " هذا هو القسم الثاني من الجوازم ، وهو ما يجزم فعلين ، وذكرها المصنف إحدى عشرة كلمة ، وهي أدوات الشرط ، منها ما هو حرف : واحد وهو (إنْ) المكسورة الخفيفة ، والباقي أسماء ضمّنت معنى (إنْ) في دلالتها على الشرطية "[6] .

فعدّ (إذْما) من الأسماء .

والقائلون باسميتها يرون أن دخول (ما) على (إذْ) لا يخرجها عن الاسمية وإن تغيّر الزمن فيها إلى المستقبل ، لأن الشرط لا يقع إلا مستقبلا ، والشيء يجوز أن يحصل له بسبب التركيب حكم لا يكون حالة الإفراد[7] .

وما اختاره البرماوي مرجوح ؛ لأن القول الأول وهو مذهب سيبويه وجمهور النحويين هو الراجح فيها ؛ لأن (إذْ) قبل دخول (ما) تقبل بعض علامات الاسم كالتنوين والإضافة ، وتدخل على الاسم والفعل ، وتدل على المضي ، وليس فيها معنى الشرط وهو تعليق حصول شيء بحصول شيء آخر ، فلما ركبت مع (ما) بطل فيها هذا كلّه ، ولم يجز فيها شيء مما كان جائزًا فيها قبل التركيب ، فدلّ هذا على أنها قد انتقلت من الاسمية إلى الحرفية ، وصارت بمنزلة (إنْ) الشرطية .

يقول ابن مالك : " وأمّا بعد التركيب فمدلولها المجمع عليه معنى المجازاة وهو من معاني الحروف ، ومن ادّعى أن لها مدلولاً آخر زائدًا على ذلك فلاحجة له ، وهي مع ذلك غير قابلة

---

(١) الأصول في النحو ٢/ ١٥٩ .

(٢) الإيضاح ٣٢١ .

(٣) اللمع ١٢٣ .

(٤) شرح المفصل ٧/ ٤٢ .

(٥) اللمحة ١٩٩ .

(٦) شرح اللمحة ١٩٩ . ٢٠٠ .

(٧) انظر : شرح ألفية ابن معط لابن القوّاس ١/ ٣٢٦ .

لشيء من العلامات التي كانت قابلة لها قبل التركيب ، فوجب انتفاء اسميتها ، وثبوت حرفيتها كما ذهب إليه سيبويه "[١] .

٢١- صرف العلم الأعجمي الثلاثي ساكن الوسط .

تمنع العلمية مع العجمة الاسم من الصرف نحو : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فلا ينوّن ولا يجر بالكسرة تقول : سلّمت على إبراهيمَ .

وإذا كان العلم الأعجمي ثلاثيا ساكن الوسط نحو : نوح وهود ولوط وجب صرفه عند سيبويه[٢] وجمهور النحويين[٣] .

يقول سيبويه : " وأمّا نوح وهود ولوط فتنصرف على كل حال ؛ لخفتها "[٤] .

وذهب جماعة من النحويين منهم عيسى بن عمر[٥] (ت ١٤٩ هـ) والزمخشري[٦] والحيدرة اليمني[٧] إلى جواز صرفه وعدم صرفه ؛ قياسا على المؤنث الثلاثي الساكن الوسط نحو : هند ودعد .

واختار البرماوي القول الأول وهو وجوب صرف العلم الأعجمي الثلاثي الساكن الوسط وفاقا لسيبويه وجمهور النحويين ، حيث اقتصر عليه في الذكر ، وضرب عن الرأي المقابل صفحا .

يقول البرماوي : " يستثنى من اجتماع العلمية والعجمة كل ثلاثي ساكن الوسط نحو : نوح ولوط وهود وشبهها ، فإنها وإن كانت أعلاما أعجمية لكنها يجب صرفها لخفتها تقول : مررت بنوحٍ وبلوطٍ وبهودٍ ، بالكسر والتنوين لأنها مصروفة والله أعلم "[٨] .

وما اختاره البرماوي وفاقا لمذهب سيبويه وجماهير النحويين هو الراجح عندي ، لأسباب منها :

---

(١) شرح الكافية الشافية ٣/١٦٢٢ وما بعدها .

(٢) الكتاب ٣/٢٣٥ .

(٣) انظر : المقتضب ٣/٣٥٣ ، وما ينصرف وما لا ينصرف ٦١ ، والأصول ٢/٩٢ ، وشرح الكافية الشافية ٣/١٤٦٩ ، وأوضح المسالك ٤/١٢٥ .

(٤) الكتاب ٣/٢٣٥ .

(٥) انظر : الارتشاف ١/٤٣٩ ، والنكت الحسان ١٥٧ .

(٦) المفصل ٢٨ ، ٢٩ .

(٧) كشف المشكل ٤٢٨ .

(٨) شرح اللمحة ٢١٢ .

١- أنه لم يسمع في كلام العرب منع العلم الأعجمي الثلاثي الساكن الوسط من الصرف ، ولم يرد في كلامهم إلا مصروفا[1] ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ... ﴾[2] وقوله ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ ... ﴾[3] وقوله ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[4].

٢- أن جواز منعه من الصرف عند القائلين به إنما هو قياس على المؤنث الثلاثي الساكن الوسط ، وهذا فاسد ؛ لأن النقل مقدم على العقل ، ولم يسمع منع الصرف في الأعجمي الثلاثي في كلام فصيح أو غير فصيح[5] ! . لأن العجمة سبب ضعيف مقدر ، والتأنيث سبب قوي محقق ، ولهذا أمكن اعتبار التأنيث مع سكون الوسط بخلاف العجمة[6] .

٣- أن الأعجمي الثلاثي الساكن الوسط يشاكل الأسماء العربية في أوزانها ، فخفّ بذلك ، فألغيت عجميته ، واستحق مساواة ما وازنه مما لا عجمة فيه[7] .

٤- أن القول بوجوب صرفه هو مذهب جمهور النحويين ، وهم قد أوجبوا صرف الثلاثي المتحرك الوسط لخفته ؛ فمن الأولى وجوب صرف الساكن الوسط ؛ لأنه أخف من المتحرك[8] ، والله أعلم .

* * *

(١) انظر : شرح المفصل ١/٧٠، ٧١ ، وشرح جمل الزجاجي ٢/٢٠٨ ، وشرح الكافية الشافية ٣/١٤٦٩ ، وشرح الكافية للرضي ١/٥٣ .

(٢) سورة آل عمران ٣٣ .

(٣) سورة التوبة ٧٠ .

(٤) سورة هود ٥٠ .

(٥) انظر : شرح الكافية للرضي ١/٥٤ .

(٦) انظر : شرح الكافية للرضي ١/٥٤ ، وحاشية ياسين على التصريح ٢/٢١٩ .

(٧) انظر : شرح عمدة الحافظ ٨٥٧ ، ٨٥٨ .

(٨) شرح الكافية للرضي ١/٥٣ ، ٥٤ .

الخاتمة :

الحمد لله الذي بحمده تبدأ الصالحات وتتم ، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد المبعوث إلى خير الأمم.

سلّط هذا البحث الضوء على علم من أعلام اللغة والفقه والأصول والحديث ، هو : شمس الدين محمد بن عبدالدائم البِرماوي المولود سنة (٧٦٣هـ) والمتوفى سنة (٨٣١هـ).

قرأ على كبار علماء عصره أمثال الزركشي وابن القارئ وابن الملقّن وابن جماعة وزين الدين العراقي وغيرهم ، وعنه أخذ خلق كثيرون في مصر ودمشق ومكة المكرمة وبيت المقدس وهناك انتقل إلى رحمة ربّه ، وترك لنا ثروة علمية في النحو والفقه والأصول والحديث.

خصصت المبحث الأول للحديث عن حياة البِرماوي : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ، ومولده ونشأته وتنقلاته ، وشيوخه ، وتلاميذه ، ومنزلته العلمية ، ووفاته ، وآثاره.

وتكلمت في المبحث الثاني على اختياراته النحوية من خلال إحدى وعشرين مسألة نحوية كان للبِرماوي فيها رأي مدعمًا بالدليل والتعليل ، وهو في الغالب يختار مذهب البصريين وألفاظه في اختياراته صريحة غالبًا كقوله : (ويترجح عندي ، والأصح ، وهو الصواب، والأرجح) ونحو ذلك.

يعتدّ بسيبويه ، وينعته بـ (إمام الصنعة) ويجلّ ابن هشام ، ويلقبه بـ (الشيخ) ويعوّل على كتبه وكتب ابن مالك كثيرًا.

وختامًا : لعلّ هذه الدراسة تفي بشيء ممّا يستحقه هذا العالم الذي لم ينل حقّه من البحث والدراسة ، فتكشف عن حياته ، وتجلي شخصيته النحوية ، وتفتح للباحثين وطلبة الدراسات العليا بابًا ، والله أسأل التوفيق والتسديد في القول والعمل.

* * *

ثبت المصادر والمراجع :

١- **ارتشاف الضرب من لسان العرب** لأبي حيان، تحقيق وتعليق د/ مصطفى النماس مطبعة المدني بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٢- **الأساليب الإنشائية في النحو العربي** تأليف عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت ١٤١٠هـ، الطبعة الثانية.

٣- **الأصول في النحو** لابن السراج، تحقيق د/ عبد الحسين الفتيلي، مؤسسة الرسالة في بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٤- **الأعلام** للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.

٥- **ألفية ابن مالك**، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٦- **الأمالي الشجرية** لابن الشجري، دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت.

٧- **إنباء الغمر بأنباء العمر** لابن حجر، تحقيق د/ حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر ١٣٩٢هـ.

٨- **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** تأليف القاضي مجير الدين الحنبلي، مكتبة المحتسب بالأردن ١٩٧٣م.

٩- **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين** لأبي البركات الأنباري تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، الطبعة الرابعة ١٣٨٠هـ.

١٠- **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك** لابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ومطبعة السعادة، الطبعة الخامسة ١٣٨٦هـ.

١١- **الإيضاح في شرح المفصل** لابن الحاجب، تحقيق د/ موسى علوان، مطبعة العاني ببغداد ١٩٨٢م.

١٢- **الإيضاح العضدي** لأبي علي الفارسي، تحقيق د/ حسن شاذلي فرهود، مطبعة دار التأليف بمصر، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ.

١٣- **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون** لإسماعيل باشا، مكتبة المثنّى ببغداد.

١٤- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** للشوكاني، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ.

١٥- **البرهان في أصول الفقه** لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني، تحقيق د/ عبد العظيم الذيب مطابع الدوحة الحديثة، الناشر إدارة الشؤون الدينية بقطر، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

١٦- **البسيط في شرح جمل الزجاجي** لابن أبي الربيع، تحقيق د/ عياد الثبيتي، دار الغرب

الإسلامي ببيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
١٧- **البيان في شرح اللمع** للشريف عمر بن إبراهيم الكوفي، تحقيق د/ علاء الدين حموية، دار عمار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
١٨- **البيان في غريب إعراب القرآن** للأنباري، تحقيق د/ طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ.
١٩- **تاريخ الأدب العربي**، كارل بروكلمان.
٢٠- **التبيان في إعراب القرآن** للعكبري، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٩٦هـ.
٢١- **تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب** للأعلم الشنتمري المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٦هـ.
٢٢- **التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل** لأبي حيان، تحقيق د/ حسن هنداوي، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
٢٣- **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد** لابن مالك، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٨هـ.
٢٤- **التصريح على التوضيح** لخالد الأزهري، دار الفكر.
٢٥- **تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد** للدماميني، تحقيق د/ محمد المفدى، مطابع الفرزدق التجارية، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
٢٦- **توضيح المقاصد شرح ألفية ابن مالك** للمرادي، تحقيق د/ عبد الرحمن سليمان مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثانية ١٩٧٩هـ.
٢٧- **ثمار الصناعة في علم العربية** للدينوري، تحقيق د/ محمد الفاضل، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام ١٤١١هـ.
٢٨- **الجامع الصغير في النحو** لابن هشام، تحقيق د/ أحمد الهرميل، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٠٠هـ.
٢٩- **الجنى الداني في حروف المعاني** للمرادي، تحقيق د/ فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
٣٠- **حاشية الخضري على شرح ابن عقيل**، دار إحياء الكتب العربية بمصر، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٣١- **حاشية الدسوقي على المغني**، ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد حنفي، مصر.

٣٢- حاشية الصبان على شرح الأشموني، ضبطه وصححه وخرّج شواهده إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ببيروت الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
٣٣- حاشية ياسين على التصريح، دار الفكر.
٣٤- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الأولى ١٩٦٧م، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
٣٥- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي، دار صادر ببيروت، الطبعة الأولى.
٣٦- الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر ببيروت، الطبعة الثانية.
٣٧ - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر، تحقيق محمد سيد جاد الحق، مصر ١٩٦٦م.
٣٨- الدرر اللوامع على همع الهوامع للشنقيطي، دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.
٣٩- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، تحقيق د/ محمد محمد حسين، المطبعة النموذجية بالإسكندرية ١٩٥٠م.
٤٠- ديوان جميل بثينة، جمع وتحقيق حسين نصار، دار مصر للطباعة، الطبعة الثانية ١٩٦٧م.
٤١- ديوان ذي الرمة تحقيق د/ عبد القدوس أبو صالح، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٢هـ.
٤٢- ديوان الراعي النميري، جمعه وحققه راينهرت ١٤٠١هـ، بيروت.
٤٣- ديوان رؤبة بن العجاج، تصحيح وليم بن الورد، دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٩.
٤٤- ديوان سلامة بن جندل، تحقيق د/ فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ.
٤٥- ديوان الطرماح، تحقيق د/ عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم بدمشق ١٣٨٨هـ.
٤٦- ديوان الفرزدق، دار صادر ببيروت.
٤٧- ديوان النابغة الذبياني، صنعة ابن السكيت، تحقيق د/ شكري فيصل، دار الفكر.
٤٨- رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي، تحقيق د/ أحمد محمد الخراط، دار

القلم بدمشق الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ

٤٩- **سر صناعة الإعراب** لابن جني ، تحقيق د / حسن هنداوي ، دار القلم بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

٥٠- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** لابن العماد الحنبلي ، مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥١هـ .

٥١- **شرح أبيات المغني** ، صنعة عبد القادر البغدادي ، تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد يوسف دقاق ، دار المأمون للتراث بدمشق ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ .

٥٢- **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك** (مع حاشية الصبان) .

٥٣- **شرح الألفية** لابن عقيل (مع حاشية الخضري) .

٥٤- **شرح ألفية ابن معط** لابن القواس ، تحقيق د / علي موسى الشوملي ، مطابع الفرزدق التجارية ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ، مكتبة الخريجي .

٥٥- **شرح الألفية** لابن الناظم ، تحقيق د / عبد الحميد السيد ، دار الجيل ببيروت .

٥٦- **شرح التسهيل** لابن مالك ، تحقيق د / عبد الرحمن السيد و د / محمد المختون ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

٥٧- **شرح الجمل** لابن عصفور ، تحقيق د / صاحب أبو جناح ، دار الكتب للطباعة والنشر ١٤٠٢هـ .

٥٨- **شرح شذور الذهب** لابن هشام ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الحادية عشرة ١٣٨٨هـ دار الاتحاد العربي للطباعة .

٥٩- **شرح الصدور بشرح زوائد الشذور** للبرماوي ، تحقيق د / محمد حسن عثمان ، دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .

٦٠- **شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ** لابن مالك ، تحقيق عدنان الدوري ، مطبعة العاني ببغداد ١٣٩٧هـ .

٦١- **شرح قطر الندى وبل الصدى** لابن هشام ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الحادية عشرة ١٣٨٣هـ .

٦٢- **شرح الكافية الشافية** لابن مالك ، تحقيق د / عبد المنعم هريدي ، دار المأمون للتراث الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى .

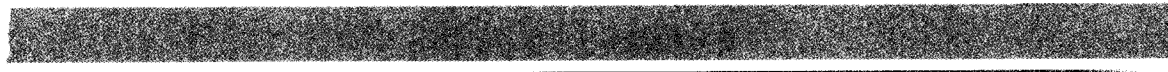
٦٣- **شرح الكافية** للرضي ، دار الكتب العربية ببيروت ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع بمكة المكرمة .

٦٤- شرح لمحة أبي حيان للفاضل البرماوي تحقيق د/ عبد الحميد الوكيل، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
٦٥- شرح اللمحة البدرية لابن هشام، تحقيق د/ هادي نهر، مطبعة الجامعة المستنصرية ببغداد ١٣٩٧هـ.
٦٦- شرح المفصل لابن يعيش، عالم الكتب ببيروت، ومكتبة المتنبي بالقاهرة.
٦٧- شروح التخليص، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر.
٦٨- شعر زياد الأعجم، جمع وتحقيق حسين بكار، دار المسيرة الطبعة الأولى ١٩٨٣هـ.
٦٩- صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١١هـ طبعة محققة على عدّة نسخ، وعلى نسخ فتح الباري التي حقق أصولها الشيخ ابن باز.
٧٠- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
٧١- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
٧٢- طبقات الشافعية لابن القاضي شهبة، تعليق وترتيب د/ الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
٧٣- غاية الإحسان في علم اللسان لأبي حيان، تحقيق د/ الحسيني القهوجي.
٧٤- الفتح المبين في طبقات الأصوليين للمراغي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ.
٧٥- فهرس دار الكتب المصرية، مصر ١٣٤٢-١٣٦١هـ.
٧٦- فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٧م، ١٩٧٣م.
٧٧- فهرس المخطوطات بجامعة الإمام، إعداد د/ علي البواب، الطبعة الأولى١٤٠٧هـ.
٧٨- فهرس المكتبة الأزهرية حتى سنة ١٣١٩هـ.
٧٩- الفوائد الضيائية للجامي، تحقيق د/ أسامة الرفاعي، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ببغداد ١٤٠٣هـ.
٨٠- الكافية لابن الحاجب، تحقيق د/ طارق نجم عبد الله، دار الوفاء للنشر والتوزيع بجدة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
٨١- الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتاب، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.
٨٢- الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي ببيروت ١٣٦٦هـ.

٨٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، استانبول ١٣٥١هـ.
٨٤- كشف المشكل في النحو للحيدرة اليمني، تحقيق د/ هادي عطية الهلالي دار عمار للنشر والتوزيع بالأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
٨٥- اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري تحقيق غازي طليمات وعبد الإله نبهان، دار الفكر بدمشق، ودار الفكر المعاصر ببيروت، الطبعة الأولى١٤١٦هـ من مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي.
٨٦- اللمحة البدرية لأبي حيان (مع شرحها للبرماوي).
٨٧- اللمع في العربية لابن جني، تحقيق فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت.
٨٨- ما ينصرف ومالا ينصرف للزجاج، تحقيق د/ هدى قراعة، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
٨٩- مجاز القرآن لأبي عبيدة، تحقيق د/ محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الفكر، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ.
٩٠- مجمع الأمثال للميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٣٩٨هـ.
٩١- المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل، تحقيق وتعليق د/ محمد كامل بركات، دار الفكر بدمشق ١٤٠٠ هـ، منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى.
٩٢- مشكل إعراب القرآن لمكي القيسي، تحقيق ياسين السوّاس، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤هـ.
٩٣- المصباح في شرح المفتاح للسيد الشريف الجرجاني، نسخة مخطوطة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية رقمها (٢٣٧٧).
٩٤- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
٩٥- معاني القرآن للأخفش، تحقيق د/ عبد الأمير الورد، عالم الكتب ببيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٩٦- معاني القرآن للفراء، تحقيق محمد النجار وأحمد نجاتي، عالم الكتب الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.
٩٧- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق د/ عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ .
٩٨- **معجم البلدان** لياقوت الحموي، دار صادر ١٤٠٤هـ .
٩٩- **معجم المؤلفين**، لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت .
١٠٠- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** لابن هشام، تحقيق د/ مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، راجعه سعيد الأفغاني، دار الفكر للطباعة ببيروت الطبعة الخامسة ١٩٧٩م.
١٠١- **مفتاح العلوم** للسكاكي، ضبطه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .
١٠٢- **المفصل في علم العربية** للزمخشري، دار الجيل ببيروت، الطبعة الثانية .
١٠٣- **المقتضب** للمبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، مطابع الأهرام التجارية ١٣٩٩هـ لجنة إحياء التراث الإسلامي .
١٠٤- **المقدمة الجزولية في النحو**، تحقيق د/ شعبان عبد الوهاب، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، القاهرة .
١٠٥- **المقرب** لابن عصفور، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري، مطبعة العاني ببغداد، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ .
١٠٦- **الملخص في ضبط قوانين العربية** لابن أبي الربيع، تحقيق د/ علي سلطان الحكمي الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .
١٠٧- **نتائج الفكر في النحو** للسهيلي، تحقيق د/ محمد البنا، دار الاعتصام ١٤٠٤هـ .
١٠٨- **النكت الحسان في شرح غاية الإحسان** لأبي حيان، تحقيق د/ عبد الحسين الفتلي مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .
١٠٩- **هدية العارفين** لإسماعيل باشا البغدادي، منشورات مكتبة المثنى ببغداد، ووكالة المعارف الجليلة باستانبول ١٩٥٥م .
١١٠- **همع الهوامع شرح جمع الجوامع** للسيوطي، تصحيح محمد النعساني، دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت .

* * *



الشبه اللفظي عند النحويين

دراسة نظرية تطبيقية

د. عبدالرحمن بن عبدالعزيز المقبل
قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



الشبه اللفظي عند النحويين
دراسة نظرية تطبيقية

د. عبدالرحمن بن عبدالعزيز المقبل
قسم النحو والصرف وفقه اللغة
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

تعد ظاهرة قياس الشبه من أبرز الظواهر النحوية، فقد كان لها دور كبير في تفسير المسائل الخارجة عن القواعد المطردة، وإلحاق هذه المسائل بالأصول، لذا شملت جوانب الدرس النحوي، فلا يكاد يخلو منها باب أو فصل، وهذا البحث يناقش نوعاً من أنواع هذه الظاهرة وهو قياس الشبه اللفظي، لأن الشيء قد يعطى حكم ما أشبهه في معناه، أو في لفظه، أو فيهما. وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في قسمين، خصص أولهما لتحديد مفهوم الشبه اللفظي، وبيان دوافعه، وموقف النحويين منه. وخصص الآخر لإظهار الجانب التطبيقي منه.



مُقَدِّمَة :

الحمد لله الذي تواترت ألسنة الذاكرين بذكره وتمجيده، وتواطأت قلوب المحبين على حبه وتعظيمه وتوحيده، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فلا يخفى على كل ذي لُبٍّ أهمية القياس في تثبيت قواعد اللغة وتطبيقها، فالواقع اللغوي يشهد بأهمية القياس لكونه معيارًا من معايير القبول والرفض، والحكم على الظاهرة بالصواب أو الخطأ. ومن ثَمَّ فإن النحاة كانوا بواسطته يستطيعون إلحاق ما يشاءون من النصوص بالمادة اللغوية الموروثة؛ اعتمادًا على ما يجدونه من شبه بين هذه النصوص والموروث من المادة اللغوية، فإذا أعجزهم وجود شبهٍ راحوا يفترضون وجوده ويفرضونه فرضًا، حتى لو أسلمهم ذلك إلى التمحل والتكلف، وحاولوا تسويغ ذلك بأنَّه ضرورة لإثراء اللغة، وتنمية قدراتها في مواجهة الحاجات المتغيرة والمتجددة للمجتمع.

وهذا البحث يتناول نوعًا من أنواع قياس الشبه وهو الشبه اللفظي، لأنَّ الشيء قد يعطى حكم ما أشبهه في معناه، أو في لفظه، أو فيهما، وقد رأيت أن أدرس هذا النوع من قياس الشبه لأنَّ الدراسات السابقة التي وقفت عليها أغفلت جوانب مهمة في دراسة هذا الموضوع؛ لأنها اقتصرت في دراستها على مسائل قليلة، ولم يحاول أصحابها تتبع هذه الظاهرة في كتب النحو مع كثرة وجودها في كلام العرب، واكتفوا بما ذكره الأنباري في لمع الأدلة، والسيوطي في الاقتراح، وابن هشام في المغني.

ولعل من أبرز تلك الدراسات دراسة الدكتور عبد الفتاح البجة الموسومة بـ"ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية"، حيث عقد فصلاً لظاهرة الحمل على الشبه، تحدث فيه عن أنواع الشبه، وكان حديثه عنها مجملاً يحتاج إلى شيء من التفصيل، واقتصر في التمثيل لها على مسائل يسيرة لا يمكن الاعتماد عليها في دراسة هذه الظاهرة.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في قسمين، خُصِّص أولهما للدراسة النظرية، وخُصِّص الآخر للجانب التطبيقي منه.

أما القسم الأول فدرست فيه موضوع الشبه اللفظي دراسة نظرية من خلال ثلاثة مباحث موجَزة، هي:

المبحث الأوّل: تَحَدِيدُ مَفْهُومِ الشَّبَهِ اللَّفْظِيّ.

المبحث الثاني: دَوَافِعُ الشَّبَهِ اللَّفْظِيّ.

المبحث الثالث: مَوقِفُ النَّحْوِيينَ مِنَ الشَّبَهِ اللَّفْظِيّ.

أما القسم الثاني – وهو التطبيقي – فاخترت له من المسائل أوضحها، وصنفتها حسب ترتيب ابن مالك لها في ألفيته، وقد خرّجت شواهدها، وناقشتها في ضوء آراء العلماء مبينًا الراجح منها.

ثم أرْدَفت ذلك بخاتمة مختصرة ذكرت فيها أهم نتائج البحث.

أسأل الله أن يجعل أعمالنا صالحةً، ولوجهه خالصةً، وله أولاً وآخرًا الحمدُ كُلُّه، والشكرُ كُلُّه.

* * *

القسمُ الأولُ: الدِّرَاسَةُ النَّظَرِيَّةُ:

المَبْحَثُ الأوَّلُ: تَحَدِيدُ مَفْهُومِ الشَّبَهِ اللَّفْظِيِّ:

تحديد مفهوم الشبه اللفظي يستلزم الوقوف على مفهوم كلمتي "الشبه" و"اللفظي" في اللغة والاصطلاح؛ لأنَّ تعريفه متوقفٌ على تعريف هاتين الكلمتين.

أوَّلاً: تَعْرِيفُ "الشَّبَهِ" لُغةً واصْطلاحاً:

الشَّبه في اللغة: المِثْلُ. يُقال: أشْبَهَ الشيءُ الشيءُ، أي: ماثله، وَشَبَّهَهُ إيَّاه وبه تشبيهًا، أي: مَثَّلَهُ. والجمع أشباه [١].

وعلى هذا فالشبه والمِثْلُ بمعنى واحدٍ. وقيل: معناهما مختلفٌ عند الإطلاق، فَمِثلُ الشيء ما ساواه من كل وجْهٍ في ذاتِهِ وصفاتِهِ، وشَبَهُ الشيء وشبيهه ما كان بينهما قدرٌ مشتركٌ من الأوصاف، كثلاثة من أربعة، أو خمسة من سبعة. وإطلاقُ كلٍّ واحدٍ منهما على الآخر من قبيل المجاز بالنظر إلى ما بينهما من الأوصاف المشتركة [٢].

وفي الاصطلاح هو حمل الشيء على الشيء بضرب من الشبه غير العلّة التي عُلّق عليها الحكم في الأصل [٣].

ثَانياً: تَعْرِيفُ "اللَّفْظِي" لُغةً واصْطلاحاً:

اللفظي نسبة إلى اللفظ، واللفظ في اللغة مصدر بمعنى: الرَّمي. يقال: لفظت الشيء أَلْفِظُهُ لَفْظًا رميته [٤]. ثم نُقل في عرف النحويين إلى الملفوظ، كالخَلْق بمعنى المخلوق[٥]، وكان قياسه أن يشمل كل مطروح، كما أن الخلق يشمل كل مخلوق، إلا أنَّ النحويين خصَّوه بما يطرحه اللسان من الصوت المشتمل على بعض الحروف [٦]، فهو في اصطلاحهم: الصوت المشتمل على بعض الحروف تحقيقًا أو تقديرًا [٧].

ثَالِثاً: تَعْرِيفُ "الشَّبَهِ اللَّفْظِيِّ":

من خلال ما تقدم نستطيع أن نقول في تحديد مفهوم الشبه اللفظي: هو حمل الشيء على الشيء بضربٍ من الشبه اللفظي غير العلّة التي عُلّقَ عليها الحكم في الأصل.

---

(١) انظر: اللسان (١٣/ ٥٠٣) "شبه".

(٢) انظر: شرح مختصر الروضة للطوفي (٣/ ٤٢٤-٤٢٥)، الجواب الصحيح (٣/ ٤٤٤).

(٣) انظر: الخصائص (١/ ٢١٣)، لمع الأدلة ص١٠٧، الاقتراح في أصول النحو ص٢٩١.

(٤) انظر: اللسان (٧/ ٤٦١) "لفظ".

(٥) انظر: شرح الرضي (١/ ٣)، الفوائد الضيائية (١/ ١٦٦).

(٦) انظر: تنقيح الأزهرية ص٥.

(٧) انظر: أوضح المسالك (١/ ١١)، شرح الحدود النحوية ص٢٤٦.

المَبْحَثُ الثَّاني: دَوَافِعُ الشَّبَهِ اللَّفْظِيِّ:

أشار ابن جني في خصائصه إلى الغرض من حمل لفظ على آخر لمجرد الشبه اللفظي، حيث قال: "وسبب هذه الحمول والإضافات والإلحاقات كثرة هذه اللغة وسعتها، وغلبة حاجة أهلها إلى التصرف فيها، والتَّرَكُّح في أثنائها لما يلابسونه ويكثرون استعماله من الكلام المنثور، والشعر الموزون، والخُطَب والسُّجوع، ولقوّة إحساسهم في كلّ شيء شيئًا، وتخيّلهم مالا يكاد يَشعر به مَنْ لم يألف مذاهبهم " [1].

ولعل من أهم أسباب حمل اللفظ على غيره هو طلب التخفيف، ولاسيما إذا كثر استعماله؛ لأنَّهم لما كثر استعمالهم إيَّاه أشد تغييرًا [2]، كحذفهم ألف "ما" الموصولة المجرورة بحرف حملاً على الاستفهامية [3]، قال الأخفش: "وزعم أبو زيد أن كثيرًا من العرب يقولون: "سلْ عمَّ شئت"، كأنَّهم حذفوا لكثرة استعمالهم إيَّاه " [4].

ومن التخفيف حذفهم عجز المركب في النسب تشبيهًا بتاء التأنيث [5]، قال الرضي: " اعلم أنَّ جميع المركبات يُنسَبُ إلى صدرها، سواء كانت جملة محكيّة كتأبَّط شرًا، أو غير جملة، وسواء كان الثاني في الجملة متضمنًا للحرف كخمسة عشر وبَيْتَ بَيْتَ، أولا كبعلبك .... وإنما حذف من جميع المركبات أحد الجزءين في النسب كراهة استثقال زيادة حرف النسب مع ثقله على ما هو ثقيل بسبب التركيب " [6].

ومن التخفيف –أيضًا– إمالة ألف "لكن"تشبيهًا لألفها بألف فَاعِل [7]، وذلك بناء على مذهب الفراء [7]؛ لأنَّ الغرض من الإمالة تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التناسب، أي: تناسب الأصوات وصيرورتها على نمط واحد؛ فإنك إذا قلت: عابد، كان لفظك بالفتحة والألف تصعدًا واستعلاء، وبالكسرة انحدارًا وتسفلاً، فيكون في الصوت بعض

---

(١) الخصائص (١/ ٢١٥).

(٢) انظر: سر صناعة الإعراب ص٥٤٣.

(٣) انظر: الدر المصون (١/ ٣٠٤).

(٤) توضيح المقاصد ص١٤٨٥.

(٥) انظر: الإيضاح في شرح المفصل (١/ ٦٠٢)، المساعد (٣/ ١٧)، تمهيد القواعد (٨/ ٣٩٩٣–٣٩٩٤)، المقاصد الشافية (٧/ ٥١٦–٥١٧).

(٦) شرح الشافية (٢/ ٧١–٧٢).

(٧) انظر: التذييل والتكميل (٦/ ٢٤٨ب)، الارتشاف ص٥٣٨، الهمع (٣/ ٣٨٥).

اختلاف، فإذا أملت الألف قربت من الياء، وامتزج بالفتحة طرفٌ من الكسرة، فتقارب الكسرة الواقعة بعد الألف، وتصير الأصوات على نمط واحد [1].

قال ابن الجزري: " وأما فائدة الإمالة فهي سهولة اللفظ، وذلك أنَّ اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع، فلهذا أمال من أمال، وأما من فتح فإنَّه راعى كون الفتح أمتن أو الأصل " [2].

ومن ذلك –أيضًا– ضم واو "لو" للتخلص من التقاء الساكنين، قال أبو حيان: " وقرأ الأعمش وزيد بن علي ﴿ لوُ ٱسۡتَطَعۡنَا ﴾ [3] بضم الواو [4]، فرَّ [5] من ثقل الكسرة على الواو، وشبَّهها [6] بواوِ الجمع عند تحريكها لالتقاء الساكنين " [7].

وقد يكون الغرض من الشبه اللفظي موافقة الأصل، كما في مسألة كسر واو الجمع لالتقاء الساكنين تشبيهًا لها بواوِ "لو"، قال أبو البقاء العُكبري: " قوله تعالى:﴿ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾ [8] فيها خمسة أوجه: ضم الواو، وهو الوجه، وفتحها طلبًا للخفة .... وبالكسر على أصل التقاء الساكنين، وتشبيهًا لها بالواو الأصلية، نحو:﴿ لوِ ٱسۡتَطَعۡنَا ﴾ [3]، كما شبهت هذه الواو بواو الضمير " [9].

ومن موافقة الأصل –أيضًا– كسر نُون التوكيد بعد ألف الاثنين تشبيهًا لها بنون التثنية، قال أبو البقاء العُكبري: " وإنّما كُسرت بعد الألف تشبيهًا بِنُونِ "تضربانِ" وهو الأصل في التحريك لالتقاء الساكنين " [10].

وقد يكون الغرض منه إقامة الوزن، فيُحكم عليه حينئذٍ بالضرورة، كما في قول الراجز:

---

(1) انظر: حاشية الصبان (٤ / ٢٢٠).

(2) النشر (٢ / ٣٥).

(3) سورة التوبة، من الآية (٤٢).

(4) انظر: المحتسب (١/ ٢٩٢)، البحر المحيط (٥ / ٤٧)، الدر المصون (٣ / ٤٦٧).

(5) كذا في البحر المحيط (٥ / ٤٧)، ولعل الصواب "فَرًّا". انظر: الدر المصون (٣ / ٤٦٧).

(6) كذا في البحر المحيط (٥ / ٤٧)، ولعل الصواب "وشَبَّهاها". انظر: الدر المصون (٣ / ٤٦٧).

(7) البحر المحيط (٥ / ٤٧).

(8) سورة البقرة، من الآية (١٦).

(9) إعراب القراءات الشواذ (١/ ١٢٥–١٢٦).

(10) اللباب (٢ / ٧٠).

كُلِّفَ مِنْ عَنَائِهِ وَشِقْوَتِهْ

بِنْتَ ثَمَانِي عَشْرَةٍ مِنْ حِجَّتِهْ[1]

حيث أضاف نيف العشرة إليها تشبيهًا لها بالمضاف والمضاف إليه حقيقةً، قال أبو حيان: " قال بعض أصحابنا: .... إن صحَّ البيت الذي أنشدوه فضرورة مشبهة بقولهم: "كَفَّةَ كَفَّةَ"، فإنَّهم قالوا: "كَفَّة كَفَّةٍ" بالإضافة، فشبه به "ثماني عشرة" تشبيهًا لفظيًا؛ إذ الإضافة في "ثماني عشرة" لا معنى لها، وفي "كَفَّةَ كَفَّةَ" لها معنى، أي: كفة منه لكفة مني "[2].

وربما لجأ الشاعر إلى الشبه اللفظي دون ضرورة تدعو إليه، وإنَّما غرضه من ذلك إتمام الوزن، كإثبات ألف "ما" الاستفهامية المجرورة في بيت حَسَّان:

عَلَى مَا قَامَ يَشْتِمُنِي لَئِيمٌ   كخنزيرٍ تَمَرَّغَ في رَمَادِ[3]

وبيت كعب بن مالك:

أَنَّا قَتَلْنَا بِقَتْلانَا سَرَاتَكُمُ   أَهْلَ اللِّوَاءِ فَفِيمَا يَكْثُرُ القِيْلُ[4]

فإنَّه ليس هناك ضرورةٌ تدعو إلى إثبات الألف في البيتين؛ لأنَّ حذفها لا يكسر الشعر؛ إذ الوزن مع حذف الألف في كلٍ منهما مستقيمٌ، غاية الأمر يكون في بيت حَسَّان العَقْلُ، وفي الآخر الخبن، وفي كل منهما زِحافٌ مغتفر، وإنَّما إثباتها أكمل في الوزن من حذفها[5].

* * *

---

(١) أنشدهما الفراء عن أبي ثَرْوان العُكْلِي. وأنشدهما الجاحظ عن الدَّلهم بن شهاب عن نُفيع بن طارق. ونسبهما خالد الأزهري إلى نُفيع بن طارق. انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٤)، الحيوان (٦/ ٤٦٣)، التصريح (٤/ ٤٩٠)، الخزانة (٦/ ٤٣٢)، الدرر (٦/ ١٩٧).

(٢) التذييل والتكميل (٣/ ١٢٤أ).

(٣) من الوافر، ورواية الديوان: "ففيم تقول"، ولا شاهد فيه على هذه الرواية. انظر: ديوانه (١/ ٢٥٨)، المحتسب (٢/ ٣٤٧)، الأزهية ص٨٦، المصباح لما اعتم من شواهد الإيضاح ص٥٩٩.

(٤) من البسيط، ورواية الديوان: "ففيم يكثر"، ولا شاهد فيه على هذه الرواية. انظر: ديوانه ص٨٣، الخزانة (٦/ ١٠٥)، شرح أبيات المغني (٥/ ٢٢٣).

(٥) انظر: المقاصد الشافية (٨/ ٩٦)، الخزانة (٦/ ١٠١).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: مَوقِفُ النَّحْويينَ مِنَ الشَّبَهِ اللَّفْظِيِّ:

يجدر بنا في حديثنا عن الشبه اللفظي أن نُبَيّنَ موقفَ النحويين منه ولاسيما مع كثرة وروده في كلام العرب [1]، فقد أشار إليه سيبويه في مواقع متفرقة من كتابه، من ذلك قوله: " وقد قال قومٌ من العرب تُرْضَى عربيَّتُهم: هذا الضاربُ الرجلِ، شبّهوه بالحَسَنِ الوجهِ، وإن كان ليس مثلَه في المعنى ولا في أحواله إلاّ أنّه اسمٌ، وقد يَجُرُّ كما يجر ويَنْصِبُ أيضًا كما يَنْصِبُ "[2].

وقوله: " وقد يقول بعض العرب: ارمْ في الوقف، واغْزْ، واخْشْ، حدَّثنا بذلك عيسى بن عمر، ويونس، وهذه اللغةُ أقلُّ اللغتين، جعلوا آخِرَ الكلمة حيث وصلوا إلى التكلّم بها بمنزلة الأواخر التي تُحَرّك ممّا لم يُحذف منه شيءٌ؛ لأنَّ من كلامهم أن يشبهوا الشيء بالشيءِ وإنْ لم يكن مثله في جميع ما هو فيه "[3].

وأفرد ابن جني له بابًا في خصائصه تحت عنوان "بابٌ في حملِ الشيءِ على الشيءِ من غير الوجه الذي أعْطَى الأوّلَ ذلك الحُكْمَ" قال فيه: " اعلم أن هذا باب طريقه الشَّبَه اللفظيّ، وذلك كقولنا في الإضافة إلى ما فيه همزة التأنيث بالواو، وذلك نحو: حَمْراويّ، وصفراويّ، وعُشراويّ. وإنما قُلِبت الهمزة فيه ولم تُقَرّ بحالها؛ لئلا تقع علامةُ التأنيث حَشْوًا، فمضَى هذا على هذا لا يختلف، ثم إنَّهم قالوا في الإضافة إلى عِلْباء عِلْباويّ وإلى حِرْباء حِرْباويّ، فأبدلوا هذه الهمزة وإن لم تكن للتأنيث، لكنها لمَّا شابهت همزة حمراء وبابها بالزيادة حملوا عليها همزة علباء، ونحن نعلم أن همزة حمراء لم تُقلب في حمراويّ لكونها زائدة فتُشَبَّهَ بها همزةُ علباء من حيث كانت زائدة مثلها لكن لمّا اتّفقتا في الزيادة حُملت همزةُ علباء على همزة حمراء .... لكن هذه أشباهٌ لفظيّة يُحمل أحدها على ما قبله تشبُّثًا به وتصوراً له، وإليه وإلى نحوه أومأ سيبويه بقوله: "وليس شيءٌ يضطَرُّون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجهًا"[4] [5].

وتَنَبَّهَ ابن هشام إلى هذا النوع من التشبيه فأشار إليه في الباب الثامن من كتابه "المُغْنِي"

---

(1) انظر: سر الصناعة ص٣٣٧، ٣٤٠، الخصائص (١/ ٢١٥).

(٢) الكتاب (١/ ١٨٢).

(٣) الكتاب (٤/ ١٥٩). وانظر: (٣/ ٢٧٨، ٦٤٦)، (٤/ ٩٣).

(٤) الكتاب (١/ ٣٢).

(٥) الخصائص (١/٢١٣– ٢١٤).

بقوله: "قد يعطى الشيء حكم ما أشبهه في معناه أو في لفظه أو فيهما .... والثاني –وهو ما أعطي حكم الشيء المُشْبِه له في لفظه دون معناه– له صُورٌ كثيرةٌ أيضًا"[1]. ثم أخذ في ذكر بعض هذه الصور.

وقياس الشبه بوجهٍ عامٍّ قياسٌ صحيحٌ عند الأنباري يجوز التمثل به في أوجه الوجهين كقياس العلة؛ "لأنَّ قياس العلة إنما جاز التمسك به؛ لأنَّه يوجب غلبة الظن، وهذا القياس يوجب غلبة الظن فجاز التمسك به؛ ولأنَّ مشابهة الفرع للأصل تقتضي أن يكون حكمه مثل حكمه، ولو لم يدل على جواز التمسك به إلا أن الصحابة تمسكوا به في المسائل الظنية، ولم ينكر ذلك منهم مُنكِر، ولا غيّره مُغيِّر، لكَان ذلك كافيًا"[2].

بل إن الدكتور مهدي المخزومي يرى أنَّ قياس الشبه أولى بالاتباع والتطبيق من قياس العلة، وذلك لأنَّه خالٍ من التأويلات والفلسفة والتطبيقات النظرية، يقول: "إنَّ القياس الذي يجب أن يتبع في دراسة اللغة والنحو هو القياس القائم على أساس من المشابهة، ومحاكاة المسموع، والمعروف من كلام العرب وأساليبهم، كما كان الخليل بن أحمد يفعل، وكما كان الفراء يفعل أيضًا في تناولهما مسائل النحو، وقياسهما ما لم يعرف على ما عرف مما سمعاه من العرب في اتصالهم بالعرب الموثوق بفصاحتهم"[3].

وهو يرى أن النحو ينبغي أن ييسر على الناشئة وأن تستبعد منه هذه العلل المعقدة –على حدّ قوله– وأنَّ من الواجب أن يعنى المتخصصون فيه بدراسته في صورته القديمة أيام الخليل والفراء وذلك بطرح نظرية العلل القائمة على الوضع المنطقي الذي يصر النحاة على اتباعه، وذلك بربط ظاهرة لغوية بظاهرة لغوية أخرى لوجود نوع من التشابه بينهما، ولا بأس عنده من تسمية مثل هذا الربط قياسًا.

وأرى أن هذا الرأي للدكتور المخزومي نابعٌ من شدة ميله للمذهب الكوفي الذي يقوم أساسًا على احترام كل ما جاء عن العرب والقياس عليه بلا اكْتراثٍ بالقلة والكثرة، والبعد عن اتباع التأويلات والتعليلات البعيدة[4].

---

(١) مغني اللبيب (٦/ ٦٤٤، ٦٢٧).

(٢) لمع الأدلة ص١٠٩.

(٣) في النحو العربي نَقْدٌ وتوجيه ص٢٢.

(٤) انظر: المدارس النحوية ص١٥٩، المذاهب النحوية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص٤١.

ويفهم من كلام النحويين أنَّ الشبه اللفظي على نوعين: تشبيه قريب، وتشبيه بعيد [1].

فالقريب ما كان موافقًا للمألوف والمعروف من كلام العرب، ومنه منع الاسم الموازن للفعل من الصرف. قال ابن جني: " وعلى هذا ما مُنِع الصرف من الأسماء للشبه اللفظيّ، نحو: أحمر، وأصفر، وأصرم، وأحمد، وتألَب، وتَنْضُب علَمين؛ لِمَا في ذلك من شَبَه لفظ الفعل، فحذفوا التنوين من الاسم لمشابهته ما لا حِصَّة له في التنوين " [2].

ومنه -أيضًا- ترك تنوين "حاشا" الاسمية تشبيهًا لها بـ"حاشا" الحرفية، فقد ذهب جماعة منهم ابن مالك [3] إلى أنَّ "حاشا" في قوله تعالى:﴿ وَقُلْنَ حَشَ لِلَّهِ ﴾[4] اسم منصوب انتصاب المصدر الواقع بدلاً من اللفظ بالفعل، وتُرِكَ تنوينه تشبيهًا له بـ"حاشا" الحرفية.

أمَّا التشبيه البعيد فهو ما كان خارجًا عن المألوف والمعروف من كلامهم. وقد رَدَّ النحويون هذا النوع من التشبيه؛ لأنَّه ضربٌ من ضروب التكلف والتعسف[5]، فلا يُعوَّل عليه ولا يلتفت إليه، وحكموا عليه بالشذوذ والغلط وأنَّه لا يقع منهم إلا على جهة التوهم[6].

ومنه همز "معايش" ونحوه مما مدته أصلية في المفرد تشبيهًا لها بالزائدة، فهمزوها كما همزوا الياء في صحيفة فقالوا: صحائف[7]. قال الرضي: " وهي – أعني مصائب ومنائر ومعائش – بالهمز شاذة " [8].

وقال المازني: " فأما قراءة من قرأ من أهل المدينة ﴿ معائش ﴾[9] بالهمز[10] فهي خطأ، فلا يلتفت إليها، وإنَّما أخذت عن نافع بن أبي نُعيم، ولم يكن يدري ما العربية، وله أحرفٌ

---

(1) انظر: المنصف (٢/ ١٥٥)، التبيان في إعراب القرآن ص٥٥٨، شرح الشافية للرضي (١/ ٣٠)، التذييل والتكميل (١/ ٣٣٢)، الجنى الداني ص٤٨٧.

(2) الخصائص (١/ ٢١٥).

(3) انظر: شرح التسهيل (٢/ ٣٠٨-٣٠٩).

(4) سورة يوسف، من الآية (٣١).

(5) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٤٢-٤٣)، شرح الملوكي ص٣٨٠، الخزانة (٤/ ١٧٨).

(6) انظر: المقتضب (١/ ١٢٣)؛ البغداديات ص٢٨٠-٢٨١، المنصف (٢/ ١٥٥)، شرح المفصل لابن يعيش (٦/ ١٢)، شرح الشافية للرضي (١/ ٢٩)، المقاصد الشافية (٧/ ٥١٠).

(7) انظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٣٧٣)، المنصف (١/ ٣٠٩-٣١٠)، الكشاف (٢/ ٤٢٥)، التبيان في إعراب القرآن ص٥٥٨، شرح الشافية للرضي (٣/ ١٣٤)، الدر المصون (٣/ ٢٣٨).

(8) شرح الشافية للرضي (٣/ ١٣٤).

(9) سورة الأعراف، من الآية (١٠).

(10) انظر القراءة في: السبعة في القراءات ص٢٧٨، إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١١٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٧١).

يقرؤها لحنًا نحوًا من هذا "[1].

وقال أبو حيان: " فأما قراءة الحسن ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشياطُون﴾ [2] فإنّه شَبَّهَ زيادتي التكسير في "الشياطين" بزيادتي الجمع المسلّم، فنقلها من إعراب الحركات إلى إعراب الحروف، وهو من التشبيه البعيد الذي يقع نحوه منهم على جهة التوهم، وهو شبيه بما حكى س[3] عنهم من همز مصائب ومعائش ونحوه »[4].

قال ابن جني: " قال أبو عبيدة: وكان رؤبة يهمز "سِيَةَ القوس"[5]، وسائر العرب لا يهمزها، وإنّما يجوز مثل هذا الغلط عندهم لما يستهويهم من الشبه؛ لأنّهم ليست لهم قياساتٌ يستعصمون بها وإنما يخلدون إلى طبائعهم، فمن أجل ذلك قرأ الحسن البصري – رحمه الله-:﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطُون﴾[6]؛ لأنّه توهَّمَ أنّه جمعُ التصحيح نحو "الزيدون" وليس منه "[7].

ومنه ما خُصّ بالضرورة الشّعرية، كقول الشاعر:

وَرَجِّ الفتى للخَيْرِ ما إنْ رأيْتَه على السِّنِّ خيرًا لا يَزالُ يَزِيدُ[8]

حيث زاد "إنْ" بعد "ما" المصدرية وليست بنافية؛ تشبيهًا لها بـ"ما" النافية[9]، والمعنى: ورجّ الفتى للْخَيْرِ مدَّةَ رُؤْيتِكَ إيَّاهُ لا يزالُ يزيد خيرًا على السِّنّ[10]. وزيادتها بعد "ما" المصدرية مخصوصةٌ بالضرورة[11].

---

(١) المنصف (١/ ٣٠٧).

(٢) سورة الشعراء، من الآية (٢٢١). وانظر القراءة في: المحتسب (٢/ ١٣٣)، تفسير الثعلبي (١/ ٢٤٣)، الدر المصون (٥/ ٢٩١).

(٣) انظر: الكتاب (٤/ ٣٥٦).

(٤) التذييل والتكميل (١/ ٣٣١-٣٣٢).

(٥) انظر: إصلاح المنطق ص١٥٨.

(٦) سورة الشعراء، الآية (٢١٠).

(٧) المنصف (١/ ٣١٠-٣١١).

(٨) من الطويل، للمَعْلُوط بن بَدَل القُرَيعِي. انظر: شرح الكتاب للسيرافي (٥/ ١٨٨ب)، اللسان (١٣/ ٣٥) "أنن"، التصريح (١/ ٦٠٩-٦١٠)، شرح أبيات المغني (١/ ١١١-١١٤).

(٩) انظر: الحلبيات ص٢٦٨-٢٦٩، الخصائص (١/ ١١٠)، شرح التسهيل (١/ ٣٧١).

(١٠) انظر: الخزانة (٨/ ٤٤٣).

(١١) انظر: ضرائر الشعر ص٦١.

وقول الشاعر:

يُرَجِّي المرءُ مَا إنْ لا يَراهُ وَيَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الخُطُوبُ[1]

أراد: يُرَجِّي المرءُ مَا لا يَراه، فزاد "إنْ" بعد "ما" الموصولة لشبهها في اللفظ بـ"ما" النافية. وهو مخصوص بالضرورة[2].

هذا وبعض الشبه أقوى من بعض، فألف التكثير -مثلاً- أقوى شبهًا بألف التأنيث من ألف الإلحاق، لذا كانت أولى بالمنع من الصرف من ألف الإلحاق، فإذا سُمِّي بما فيه ألف التكثير منع الصرف، نحو: "قبعثرى"، وذلك لشبه ألف التكثير بألف التأنيث المقصورة من جهة أنَّها غير منقلبة مع زيادتها آخرًا ولا تدخل عليها تاء التأنيث كما أنَّ ألف التأنيث كذلك[3].

وتختلف قوة أثر المشبه به في المشبه تبعًا لنوع المشبه به، وكذلك قوة الشبه، فالأثر الذي يكتسبه الاسم من شبهه بالحرف -مثلاً- أقوى من الأثر الذي يكتسبه من شبهه بالفعل، فإن شبَهه بالحرف يخرجه عن أصله من الإعراب إلى البناء، أما شبَهه بالفعل فيمنعه من الصرف، ولا يقوى على إخراجه عن أصله من الإعراب[4].

كما أنَّ الشبه إذا قوي أوجب الحكم وإذا ضعف لم يوجب، فليس كل شبه بين شيئين يوجب لأحدهما حكمًا هو في الأصل للآخر، فكلما كان الشبه أخص كان أقوى، وكلما كان أعمَّ كان أضعف، فالشبه الأعم كشبه الفعل بالاسم من جهة أنَّه يدل على معنى، فهذا لا يوجب له حكمًا؛ لأنَّه عام في كل اسم وفعل، وليس كذلك الشبه من جهة أنَّه ثانٍ باجتماع السببين فيه، لأن هذا يختص نوعًا من الأسماء دون سائرها، فهو خاص مقرب الاسم من الفعل[5].

والمشبه لا يقوى قوة المشبه به، " ألا ترى أنَّ ألف الإلحاق قد أشبهت ألف التأنيث، فَمُنِعَ صرف ما هي فيه، لكن لمَّا لم يَقْوَ قوةَ ألف التأنيث لم يمنع إلا في المعرفة "[6].

---

(1) من الوافر، اخْتُلِفَ في قائله على قولين، أحدهما: أنه جابر بن رَألان الطائي. والثاني: أنه إياس بن الأرتِّ. ويُروى "ما لا أنْ يُلاقي"، ولا شاهد فيه على هذه الرواية، انظر: نوادر أبي زيد ص٢٦٤، المفضل في شرح المفصل (باب الحروف) ص٢٤٤، شرح الرضي (٢/ ٨٤٠)، شرح شواهد المغني ص٨٥، شرح أبيات المغني (١/ ١٠٧)، الخزانة (٨/ ٤٤٠-٤٤٥).

(2) انظر: ضرائر الشعر ص٦٢، الارتشاف ص٢٣٩٣.

(3) انظر: التذييل والتكميل (٥/ ٥٢أ)، تمهيد القواعد ص٣٩٩٣.

(4) انظر: المقاصد الشافية (١/ ٧٣، ٧٤).

(5) انظر: شرح المفصل لابن يعيش (١/ ٥٨).

(6) المقاصد الشافية (٥/ ٦١٢).

ونَقَلَ الأخفش أنّ بعض العرب يصرف "سراويل" في حال التنكير إذا جعله اسمًا مفردًا [1]، فخالف في عموم منع صرفه، فهو لا يمنعه من الصرف إلا إذا كان معرفة، وذلك حملاً على موازنه في العربية كدنانير ومصابيح، وإن كان موازنه يُمنع من الصرف في النكرة والمعرفة، وكأنّ المخالف رأى أنّ المشبه لا يقوى قوة المشبه به، فلم يمنع صرفه إلا في المعرفة [2].

والشبه المعنوي عند النحويين أقوى من الشبه اللفظي، قال ابن جني: " باب في مقاييس العربية، وهي ضربان: أحدهما معنوي والآخر لفظي، وهذان الضربان وإن عمًّا وفَشَوَا في هذه اللغة فإنّ أقواهما وأوسعهما هو القياس المعنوي، ألا ترى أن الأسباب المانعة من الصرف تسعة: واحد منها لفظي وهو شبه الفعل لفظًا، نحو: أحمد، ويَرْمَع ... والثمانية الباقية كلها معنويّة،كالتعريف، والوصف، والعدل، والتأنيث، وغير ذلك. فهذا دليل " [3].

ولأجل ذلك ضَعَّفَ ابن الحاجب لغة من يضيف صدر المركّب المزجي إلى عجزه، قال: " وأما "معدي كرب" وبابه ففيه لغتان على ما ذكر، أما اللغة الفصيحة فهي إعراب الثاني وجعل الأول كالجزء، ويكون غير منصرف، وعلته واضحة وهي أنَّهما لفظان مُزِجا وصُيِّرا واحدًا دالاً على معنى فألحق بالمفردات من كلامهم .... فهو أشبه بالمفردات من حيث المعنى، إذْ مدلولُهُ مفردٌ كما أنّ مدلول المفردات مفردٌ. واللغة الثانية أن تضيف الأوّل إلى الثاني، وعِلّتُها أنَّهم شبهوه بالمضاف والمضاف إليه تشبيهًا لفظيًا من جهة أنَّهما اسمان ذُكِرَ أحدهما عقيب الآخر، وهو ضعيف من وجهين: أحدهما: أنّ ما ذكروه تشبيه لفظي، وما ذكر في تلك اللغة تشبيه معنوي، واعتبار المعنى أقوى .... " [4].

ويرى ابن جني أن الشبه اللفظي إذا تأملته لم تجده عاريًا من اشتمال المعنى عليه، فـ"إنْ" –مثلاً– في قول الشاعر:

ورجّ الفتى للْخَيْرِ ما إنْ رأيْتَه على السِّنّ خيراً لا يَزالُ يَزِيدُ [5]

إنَّما دخلت على "ما" – وإن كانت "ما" هنا مصدرية ظرفية– لشبهها لفظًا بـ"ما" النافية

---

(١) انظر: الارتشاف ص٨٥٥، توضيح المقاصد ص١٢٠١.

(٢) انظر: المقاصد الشافية (٥ / ٦١٢).

(٣) الخصائص (١/ ١٠٩).

(٤) الإيضاح في شرح المفصل (١/ ٥٢٢).

(٥) سبق تخريجه.

التي تؤكّد بـ"إنْ"، " وشبه اللفظ بينهما يُصيِّر "ما" المصدرية إلى أنَّها كأنَّها "ما" التي معناها النفي، أفلا ترى أنك لو لم تجذب إحداهما إلى أنَّها كأنَّها بمعنى الأخرى لم يجز لك إلحاق"إنْ" بها "[1].

* * *

---

(١) الخصائص (١/ ١١٠).

القِسْمُ الثّاني: الدِّرَاسَةُ التَّطْبِيقيَّةُ:

١. تَرْكُ تَنْوِين "حَاشَا" الاسـمية:

ذهب جماعةٌ منهم ابن مالك [١] وابن هشام [٢] وابن عقيل [٣] إلى أنَّ "حاشا" في قوله تعالى:﴿ وقلن حاش لله ﴾ [٤] اسم منصوب انتصاب المصدر الواقع بدلاً من اللفظ بالفعل، وترك تنوينه تشبيهًا له بـ"حاشا" الحرفية.

وذهب الزمخشري إلى أنَّه تُرِكَ تنوينه مراعاة لأصله الذي هو الحرفية [٥].

ويرى ابن الحاجب أنَّه مبنيٌّ، وهو اسم فعل بمعنى: بريء [٦].

ويرى السمين الحلبي أنَّه في الأصل اسم منصوب، لكنهم أبدلوا التنوين ألفًا كما يبدلونه في الوقف، ثم إنَّهم أجروا الوصل مجرى الوقف كما فعلوا ذلك في مواضع كثيرة [٧].

وذهب ابن جني إلى أنَّه فِعْلٌ [٨]. ونُقِلَ هذا المذهب عن المبرد والكوفيين [٩]. وظاهر كلام الفراء في "معاني القرآن"[١٠]، والمبرد في الانتصار [١١] أنَّه اسم هنا.

وحجة من يرى أنَّه فِعْل تصرفهم فيه بالحذف حيث قالوا: حَاشَ، وحشا، وإدخالهم إيَّاه على الحرف [١٢].

والذي أميل إليه أنَّه اسم مرادفٌ للتنزيه منصوب انتصاب المصدر الواقع بدلاً من اللفظ بالفعل، بدليل قراءة ابن مسعود: ﴿حاش الله ﴾ بالإضافة [١٣]، وقراءة أبي السَّمَّال: ﴿حاشاً للهِ﴾ بالتنوين [١٤]، وتُرِك تنوينه في قراءة الجماعة تشبيهًا له بـ"حاشا" الحرفية.

---

(١) انظر: شرح التسهيل (٢/ ٣٠٨-٣٠٩).

(٢) انظر: مغني اللبيب (٢/ ٢٥٢-٢٥٦)، (٦/ ٦٥٢-٦٥٣).

(٣) انظر: المساعد (١/ ٥٨٥).

(٤) سورة يوسف، من الآية (٣١).

(٥) انظر: الكشاف (٣/ ٢٨٠).

(٦) انظر: الإيضاح في شرح المفصل (٢/ ١٥٩)، تعليق الفرائد (٦/ ١١١-١١٢).

(٧) انظر: الدر المصون (٤/ ١٧٧).

(٨) انظر: المحتسب (١/ ٣٤٢).

(٩) انظر: شرح التسهيل (٢/ ٣٠٨)، شرح الرضي (١/ ٧٧٥)، الارتشاف ص١٥٣٥، مغني اللبيب (٢/ ٢٥٢).

(١٠) انظر: (٢/ ٤٢).

(١١) انظر: ص١٧٠.

(١٢) انظر: الانتصار ص١٧٠، مغني اللبيب (٢/ ٢٥٢-٢٥٣)، شرح الأشموني (٢/ ٢٧٨).

(١٣) انظر: مختصر في شواذ القرآن ص٦٣، الكشاف (٣/ ٢٧٩)، الدر المصون (٤/ ١٧٦).

(١٤) انظر: مختصر في شواذ القرآن ص٦٣، الفريد في إعراب القرآن (٣/ ٥٨)، إبراز المعاني ص٥٣٤.

أمَّا مَا ذَهَبَ إليه الزمخشري من أنَّه تُرِكَ تنوينهُ مراعاةً لأصله الذي هو الحرف، فيقتضي أنَّه نُقِل من الحرفية إلى الاسمية، وليس ذلك إلا في جانب الأعلام [1].

وأما ما ذهب إليه ابن الحاجب من أنَّه مبني وهو اسم فعل، فلعل الذي حمله على ذلك هو أنَّه رآه مبنيًا، وهذا باعث غير قوي، إذ من الممكن أن يكون مبنيًا لمشابهته لـ"حاشا" الحرفية [2].

وأما من يرى أنَّه فِعْل لتصرفهم فيه بالحذف، ولإدخالهم إياه على الحرف، فهذان الدليلان ينافيان الحرفية، ولا يثبتان الفعلية [3].

٢. بِناءُ "عَنْ" الاسميَّة:

مذهب البصريين أنَّ "عَنْ" تستعمل اسمًا [4]، كقول قطري بن الفجاءة:

فَلَقَدْ أَرَاني للرِّماحِ دَرِيئَة   مِن عَنْ يميني مَرَّةً وأمَامي [5]

والصحيح حينئذٍ أنَّها مبنية، لوجود ما يقتضي البناء وهو مشابهة "عن" الحرفية، وبه جزم ابن الحاجب [6] وغيره [7].

وقيل: علة بنائها كونها موضوعة على حرفين فأشبهت الحروف وضعًا [8].

وقيل: هي مبنيةٌ لوجهين [9]:

أحدهما: أنَّها تضمنت معنى الحرف لما فيها من معنى المجاوزة.

والثاني: افتقارها إلى ما تفتقر إليه "عن" من الفعل قبلها والاسم بعدها.

ونقل أبو حيان عن بعض شيوخه أنَّها معربةٌ [10]. وهذا القول ضعيف، لأنَّه لا وجه للقول بإعرابها مع التزام سكونها [11].

---

(١) انظر: الدر المصون (٤ / ١٧٧).

(٢) انظر: تعليق الفرائد (٦ / ١١٢).

(٣) انظر: مغني اللبيب (٢ / ٢٥٣)، شرح الأشموني (٢/ ٢٧٨).

(٤) انظر: الكتاب (١/ ٤٢٠) (٤ / ٢٢٨)، الارتشاف ص١٧٢٢، منهج السالك ص٢٣٢.

(٥) من الكامل، وهو في: ديوان الخوارج ص١٧١، حماسة أبي تمام (١/ ٨٧)، أمالي ابن الشجري (٢/ ٥٣٧–٥٨٤).

(٦) انظر: الإيضاح في شرح المفصل (٢/ ١٥٦).

(٧) انظر: شرح التسهيل (٢/ ٣٠٩)، شرح الرضي (٢/ ١٢٢٠)، جواهر الأدب ص٤٠٣–٤٠٤، المساعد (١/ ٥٨٥)، حاشية الصبان (٢/ ٢٢٦).

(٨) انظر: منهج السالك ص٢٥٤.

(٩) انظر: المتبع ص٣٧٤–٣٧٥.

(١٠) انظر: الارتشاف ص١٧٣٤، وانظر: الهمع (٢/ ٣٨١)، حاشية الصبان (٢/ ٢٢٦).

(١١) انظر: حاشية الصبان (٢/ ٢٢٦).

وذهب الفراء ومن تبعه من الكوفيين إلى أنّها باقية على حرفيتها [1].

٣. بِناءُ "عَلَى" الاسميَّة:

ذهب جماعة من النحويين إلى أنّ "على" إذا استعملت اسمًا بدخول "مِنْ" عليها فإنّها تكون مبنية لمشابهتها الحرفية [2]، كقول مزاحم العقيلي:

غَدَتْ مِنْ عليهِ بعدَمَا تَمَّ ظِمْؤُها تَصِلُّ وعَنْ قَيْضٍ بِزَيْزَاءَ مَجْهَلِ [3]

وقيل: هي معربة؛ لأنّ الأصل في الأسماء الإعراب [4].

وذهب جماعة منهم ابن الطراوة وابن طاهر وابن خروف إلى أنّها اسم – دائماً– معرب[5].

وذهب الفراء ومن وافقه من الكوفيين إلى أنّها باقية على حرفيتها ولم تنتقل إلى الاسمية [6].

والذي أراه أنّها اسم إذا دخل عليها حرف الجر؛ لأن حروف الجر مختصة بالأسماء، وهي مبنية حينئذٍ لوجود ما يقتضي البناء وهو مشابهة "على" الحرفية، والدليل على صحة ذلك هو بناء "عن" و"مذ" و"منذ" إذا وقعت أسماء، فتحمل "على" عليها طردًا للباب [7].

٤. إجراء "شياطين" مجرى جمع المذكر السالم:

قرأ الحسن والأعمش: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطُون﴾ [8] بالواو وفتح النون [9]، تشبيهًا لزيادتي التكسير فيه بزيادتي الجمع السالم، فَنُقِلَ من الإعراب بالحركات إلى الإعراب بالحروف [10].

وَرَدَّ هذه القراءة جمع كثير من النحويين، قال الفراء: " كأنّه من غلط الشيخ –يريد:

---

(١) انظر: التذييل والتكميل (٤/ ١٠أ) منهج السالك ص٢٣٢و٢٥٥، توضيح المقاصد ص٧٦٦.

(٢) انظر: الإيضاح في شرح المفصل (٢/ ١٥٦)، شرح الرضي (٢/ ١٢٢٠)، جواهر الأدب ص٤٦٢، الدر المصون (٤/ ١٧٧).

(٣) من الطويل، وقد ورد منسوباً إليه في: الأزهية ص١٩٤، شرح شواهد الإيضاح ص٢٣٠، شرح المفصل لابن يعيش (٨/ ٣٨)، الدرر (٤/ ١٨٧–١٩٠).

(٤) انظر: الارتشاف ص١٧٣٢، الجنى الداني ص٤٧٥، المساعد (٢/ ٢٦٩).

(٥) انظر: الارتشاف ص١٧٣٢، الجنى الداني ص٤٧٥، المساعد (٢/ ٢٦٩).

(٦) انظر: توضيح المقاصد ص٧٦٦، الخزانة (١٠/ ١٤٨)، شرح أبيات المغني (٣/ ٢٦٦).

(٧) انظر: الإيضاح في شرح المفصل (٢/ ١٥٦)، الهمع (٢/ ٣٥٧).

(٨) سورة الشعراء، الآية (٢١٠).

(٩) انظر: المحتسب (٢/ ١٣٣)، تفسير الثعلبي (١/ ٢٤٣)، الدر المصون (٥/ ٢٩١).

(١٠) انظر: التذييل والتكميل (١/ ٣٣٢)، الهمع (١/ ١٥٧).

الحسن- ظن أنَّه بمنزلة المسلمين والمسلمون "[1].

وقال النحاس: "هو غلط عند جميع النحويين "[2].

وقال المهدوي: "هو غير جائز في العربية "[3].

وقال أبو حيان: "هو من التشبيه البعيد الذي يقع نحوه منهم على جهة التوهم "[4].

وقد أثبت هذه القراءة جماعة من أهل العلم ودفعوا عنها الغلط، وأجابوا عنها، فقد حكى النضر بن شميل عن يونس بن حبيب أنَّه سمع أعرابيًا يقول: " دخَلْتُ بساتين من ورائها بَسَاتُون "[5].

وخرَّجَها بعضهم على أنَّه جمع "شيَّاط" بالتشديد، مثال مبالغة، مثل: ضرَّاب وقَتَّال، على أن يكون مشتقًا من شَاطَ يشيط، أي: احترق، ثم جمع جمع مذكر سالماً مع تخفيف الياء، فوزنه "فَعَالُون" مخففًا من "فَعَّالِين" بتشديد العين، ويدل على ذلك أنَّهم قرءوا بتشديد الياء [6].

ووجهها آخرون بأنَّ آخره لما كان يشبه "يبرين" و"فلسطين" أُجْرِي إعرابه تارة على النون وتارة بالحرف، كما قالوا: هذه يبرينُ وفلسطينُ، ويَبْرُونَ وفلسْطُونَ [7].

والذي أراه أنَّه لا يمكن أنْ يقال: إنَّ هذه القراءة غلط من الحسن والأعمش؛ لأنَّهما من نقلة القرآن، وهم من العلم ونقل القرآن بمكان، مع أنا نعلم أنَّهما لم يقرآ به إلاّ وقد سمعا فيه، وإنما تكون من التشبيه البعيد الذي لا يمكن أن يقاس عليه ولا يلتفت إليه.

٥. إضافة صدر المركب المزجي إلى عجزه:

حكى سيبويه أنَّ من العرب من يضيف صدر المركب المزجي إلى عجزه إن كان مختومًا بغير "ويه" فيقول: جاء معدي كربٍ [8]. ووجه الإضافة أنَّهم شبهوه بالمضاف والمضاف إليه تشبيهًا لفظيًا، من جهة أنَّهما اسمان ذُكِرَ أحدهما عَقيب الآخر [9].

---

(١) معاني القرآن (٢/ ٢٨٥).

(٢) إعراب القرآن (٣/ ١٩٤).

(٣) تفسير القرطبي (١٣/ ١٤٢).

(٤) التذييل (١/ ٣٣٢).

(٥) انظر: البحر المحيط (٧/ ٤٣).

(٦) انظر: إعراب القراءات الشواذ (١/ ١٩١)، الدر المصون (٥/ ٢٩٢).

(٧) انظر: الكشاف (٤/ ٤١٨-٤١٩)، البحر المحيط (٧/ ٤٣).

(٨) انظر: الكتاب (٣/ ٢٩٦).

(٩) انظر: الإيضاح في شرح المفصل (١/ ٥٢٢)، شرح الرضي (٢/ ٣٥٢)، الإقليد ص١٠٠٣، المقاليد (٢٧٩أ).

قال ابن الحاجب: وهو ضعيفٌ من وجهين:

أحدهما: أنَّ ما ذكروه تشبيهٌ لفظي، وما ذكر في اللغة الفصيحة وهو إعراب آخر الاسمين بإعراب المفرد تشبيهٌ معنوي؛ لأنَّ مدلوله كمدلول المفرد، واعتبار التشبيه المعنوي أقوى من اعتبار التشبيه اللفظي.

والآخر: هو أنَّهم بقّوا ياء "معدي" ساكنًا في النصب، فقالوا: رأيت معديْ كربٍ، فلو كان جاريًا مجرى المضاف حقيقةً لوجب انتصابه كما وجب انتصاب المضاف في نحو قوله تعالى: ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾[1]، فلما أوجبوا التسكين دلَّ على اعتبار الامتزاج دون اعتبار الإضافة [2].

٦. رفع المبتدأ ونصب الخبر بـ"كان" وأخواتها:

إذا دخلت الأفعال الناقصة على المبتدأ والخبر فإنَّها تعمل فيهما؛ تشبيهًا لها بالأفعال الحقيقية، فترفع المبتدأ تشبيهًا له بالفاعل، وتنصب الخبر تشبيهًا له بالمفعول [3].

قال ابن السراج: " فهذا تشبيه لفظي، وكثيرًا ما يعملون الشيء عمل الشيء إذا أشبهه في اللفظ وإن لم يكن مثله في المعنى .... فقد بان شبه "كان" وأخواتها بالفعل إذ كنت تقول: كان يكون، وأصبح يصبح .... "[4].

٧. زيادة "إنْ" بعد "ما" المصدرية الظرفية:

قد تزاد "إنْ" بعد "ما" المصدرية الظرفية لشبهها في اللفظ بـ"ما" النافية [5]، كقول المَعْلُوط بن بَدَل القُرَيعِي:

وَرَجِّ الفتى لِلْخَيْرِ ما إنْ رأيْتَهُ على السِّنِّ خيرًا لا يَزالُ يَزِيدُ [6]

فزاد "إنْ" بعد "ما" المصدرية وليست بنافية؛ تشبيهاً لها بـ"ما" النافية، والمعنى: ورجِّ الفتى لِلْخَيْرِ مدَّة رُؤْيتِكَ إيَّاهُ لا يزالُ يزيد خيرًا على السِّنِّ [7]. وزيادتها بعد "ما" المصدرية مخصوصة

---

(١) سورة الأحقاف، من الآية (٣١).

(٢) انظر: الإيضاح (١/ ٥٢٢).

(٣) انظر: الأصول (١/ ٨٢)، علل النحو للورّاق ص٢٤٥، شرح عيون الإعراب ص٩٤، أسرار العربية ص٨٨، الكافي (٣/ ٧٤٤-٧٤٥)، شرح الكافية لابن القواس ص٥٦٢.

(٤) الأصول (١/ ٨٢).

(٥) انظر: الحلبيات ص٢٦٨-٢٦٩، البغداديات ص٢٨٠، الخصائص (١/ ١١٠)، شرح التسهيل (١/ ٣٧١)، اللسان (١٣/ ٣٥) "أنن"، مغني اللبيب (٦/ ٦٤٥).

(٦) سبق تخريجه.

(٧) انظر: الخزانة (٨/ ٤٤٣).

بالضرورة [١].

وظاهر كلام السيرافي [٢] والهروي [٣] والسخاوي [٤] جواز ذلك في الكلام.

قال السيرافي: " وقد تدخل "إنْ" المكسورة على "ما" إذا استعملت اسمًا في معنى الحين،

وذلك أنَّك تقول: انتظرني ما جلس القاضي، تريد: زمان جلوسه، كأنَّه قال: انتظرني جلوس القاضي، أي: حين جلوسه، ويجوز أن تدخل على هذا "إنْ" فتقول: انتظرني ما إن جلس القاضي، قال الشاعر المَعْلُوط بن بَدَل القُرَيعِي .... " [٥].

وذكر الدماميني أنَّ "إنْ" في هذا البيت يحتمل أن تكون شرطية، و"ما" زائدة داخلة على الجملة الفعلية [٦].

وضُعِّف كلامه بأنَّ الزائد يجب أن يكون المتأخر؛ لأنَّه مستغنى عنه دون المتقدم؛ لأنَّه جاء في مركزه من الصدارة؛ ولأنَّ الزائد مؤكِّد، ورتبة المؤكِّد مؤخّر عن رتبة المؤكَّد، فإن تأخرت "إنْ" عن "ما" حُكِم بزيادتها وتأكيدها لـ"ما" كما في البيت الشاهد [٧].

والذي أراه حمل زيادتها بعد "ما" المصدرية التوقيتية على الضرورة؛ لأنَّه لم يسمع ذلك إلا في هذا البيت.

٨. زيادة "إنْ" بعد "ما" الموصولة:

قد تزاد "إنْ" بعد "ما" الموصولة لشبهها في اللفظ بـ"ما" النافية [٨]، كقوله:

يُرَجِّي المرءُ مَا إنْ لا يَراهُ وَيَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الخُطُوبُ [٩]

أراد: يُرَجِّي المرءُ مَا لا يَراه، فزاد "إنْ" بعد "ما" وهي اسم موصول لشبهها في اللفظ بـ"ما"

---

(١) انظر: ضرائر الشعر ص٦١.

(٢) انظر: شرح الكتاب (٥/ ١٨٨أ–١٨٨ب).

(٣) انظر: الأزهية ص٩٦.

(٤) انظر: المفضل (باب الحروف) ص٢٧٦.

(٥) شرح الكتاب (٥/ ١٨٨أ–١٨٨ب).

(٦) انظر: الحاشية الهندية (١/ ١٤ب).

(٧) انظر: شرح أبيات المغني (١/ ١١٤).

(٨) انظر: الحلبيات ص٢٦٨–٢٦٩، البغداديات ص٢٨١، الإغفال (٢/ ٢١٥)، ضرائر الشعر ص٦٢، شرح التسهيل (١/ ٣٧١)، المساعد (١/ ٣٤٢).

(٩) سبق تخريجه.

النافية. وهو مخصوص بالضرورة [١].

وخَرَّج عليه بعضهم [٢] قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّكُمْ فِيهِ ﴾ [٣]. والصحيح أنَّ "إنْ" هنا نافية وليست زائدة، والمعنى: مكناهم في الذي ما مكناكم فيه من القوة وسعة الأرزاق[٤]، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [٥]، وقوله: ﴿ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[٦]، وقوله: ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾[٧].

٩. دخول لام الابتداء بعد "إنّ" التي بمعنى "نَعَمْ":

قرأ ابن عامر والمدنيون والكوفيون إلا عاصمًا:﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ [٨] بتشديد نون "إنَّ"، ورفع "هَٰذَٰن" [٩]. وقد توسع النحاة في الجواب عن هذه القراءة بما ليس هذا موضعه[١٠]. وما يهمنا هو قول بعضهم: إنَّ "إنَّ" هنا بمعنى "نَعَمْ"[١١]، و"هَٰذَٰن" مبتدأ، و"لَسَٰحِرَٰن" خبره. فقد اعترض عليه بأنَّ لام الابتداء لا تدخل على خبر المبتدأ إلاّ إذا كان مؤكدًا بـ"إنَّ" المكسورة [١٢]. وأجيب عنه بأنّها دخلت بعد "إنَّ" هذه لشبهها في اللفظ بـ"إنَّ" المؤكدة [١٣].

---

(١) انظر: ضرائر الشعر ص٦٢، الارتشاف ص٢٣٩٣.

(٢) انظر: الكشاف (٥/ ٥٠٧–٥٠٨)، البيان في غريب إعراب القرآن (٢/ ٣٧٢)، التبيان في إعراب القرآن ص١١٥٨.

(٣) سورة الأحقاف، من الآية (٢٦).

(٤) انظر: الكشاف (٥/ ٥٠٨)، مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٥)، الفريد في إعراب القرآن المجيد (٤/ ٢٩٩)، البحر المحيط (٨/ ٦٥)، الدر المصون (٦/ ١٤٢).

(٥) سورة الروم، من الآية (٩).

(٦) سورة غافر، من الآية (٨٢).

(٧) سورة مريم، من الآية (٧٤).

(٨) سورة طه، من الآية (٦٣).

(٩) انظر: السبعة ص٤١٩، التذكرة في القراءات ص٥٣٤، الاختيار ص٥٤٢.

(١٠) انظر هذه الأجوبة في: إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٤٤–٤٧)، البحر المحيط (٦/ ٢٣٨)، الدر المصون (٥/ ٣٥–٣٦).

(١١) هذا قول المبرد والزَّجّاج والأخفش الصغير. انظر: معاني القرآن وإعرابه (٣/ ٣٦٣)، إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٤٤)، البحر المحيط (٦/ ٢٣٨).

(١٢) انظر: كشف المشكلات (٢/ ٩٧)، البيان في غريب إعراب القرآن (٢/ ١٤٥)، التبيان في إعراب القرآن ص٨٩٥.

(١٣) انظر: مغني اللبيب (١/ ٢٤١) (٦/ ٦٤٨)، روح المعاني (٦/ ٥٣٤).

وقيل: إنَّ هذه اللام زائدة وليست للابتداء [١]. وضعِّف هذا القول بأنَّ زيادة اللام في الخبر خاصَّةٌ بالشعر [٢].

وقيل: إنَّها داخلة على مبتدأ محذوف، وتقدير الكلام: لهما ساحران [٣]. وضعِّف بأن الجمع بين لام التوكيد وحذف المبتدأ كالجمع بين المتنافيين [٤].

وأقرب هذه الأجوبة عندي إلى الصواب هو الأوَّل [٥]؛ لأن الشبه اللفظي إذا تأملته لم تجده عاريًا من اشتمال المعنى عليه كما ذكر ابن جني، وهذا -في نظري- قد يكون مسوغًا لدخول اللام على خبر المبتدأ في هذه الآية بناءً على القول السابق، وإن كان الراجح عندي في تخريج هذه القراءة أنَّها جاءت على لغة بعض العرب من إجراء المثنى بالألف دائمًا [٦].

١٠. دخول لام الابتداء على "ما" النافية:

قد تدخل لام الابتداء على "ما" النافية حملاً لها في اللفظ على "ما" الموصولة [٧]، كقول النابغة الذبياني:

لَمَا أَغْفَلْتُ شُكْرَكَ فَانْتَصِحْنِي فَكَيْفَ ومِنْ عَطَائِكَ جُلُّ مَالي [٨]

فهذا محمول في اللفظ على نحو قولك: لمَا تَصْنَعُهُ حَسَنٌ، أي: للَّذي تصنعه حسنٌ [٩].
وقد صرَّح أبو علي الفارسي بشذوذ ذلك [١٠]. والأجود أن تجعل اللام في البيت زائدةً [١١].

١١. بناء النكرة مع "لا" الزائدة:

قد تُبنى النكرة مع "لا" الزائدة تشبيهًا لها بـ"لا" النافية للجنس [١٢]، كقول الفرزدق:

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) انظر: التبيان ص٨٩٥، الدر المصون (٥/ ٣٥)، مغني اللبيب (١/ ٢٤٢).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٣/ ٣٦٣)، إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٤٦).

(٤) انظر: الإغفال (٢/ ٤٠٩).

(٥) انظر: الخصائص (١/ ١١٠).

(٦) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٤٥)، شرح الهداية (٢/ ٤١٧)، اللسان (١٣/ ٣١) "أنن".

(٧) انظر: الأصول (١/ ٤٣٥)، الحلبيات ص٢٦٨، البغداديات ص٢٨١، سر الصناعة ص٣٧٧، شرح الجمل لابن الضائع (٢/ ١١٥)، رصف المباني ص٢٤٣، مغني اللبيب (٦/ ٦٤٥-٦٤٦).

(٨) من الوافر، وهو في ديوانه. ويروى: "وَمَا أَغْفَلْتُ"، ولا شاهد فيه على هذه الرواية. انظر: ديوانه ص١٤٧، الوساطة بين المتنبي وخصومه ص١٩٠، شرح ديوان المتنبي للواحدي ص٥٧٧، تذكرة النحاة ص٦٢٥.

(٩) انظر: مغني اللبيب (٦/ ٦٤٦).

(١٠) انظر: البغداديات ص٢٨١.

(١١) انظر: معاني الحروف المنسوب للرماني ص١٤١-١٤٢، شرح أبيات المغني (٨/ ٥٦).

(١٢) انظر: شرح التسهيل (٢/ ٥٩) (٣/ ٣٨)، شرح الرضي (١/ ٨١٩)، المساعد (١/ ٣٤٢)، تمهيد القواعد (٣/ ١٤١٠)، الهمع (١/ ٤٧٠).

لَوْلَمْ تَكُنْ غَطَفَانُ لاَ ذُنُوبَ لهاَ إِذَنْ لَلاَمَ ذَوُو أَحْسَابِهَا عُمَرَا [1]

فبنى"ذنوب" على الفتح مع أن "لا" -هنا- زائدة وليست نافية، وذلك شاذٌّ عند أهل العربية [2].

ووجه كونها زائدةً " أن المعنى المستفاد منها مستفادٌ من "لو"؛ لأن "لو" شرطها ممتنعٌ، والفرض أنَّه منفيٌّ بـ"لم" وامتناع النفي إثبات، فَدلَّ على إثبات الذنوب لغطفان، لا نفيها عنها، وإذا ثبتت الذنوب امتنع اللوم؛ لأنَّ جواب "لو" إذا كان مثبتًا في نفسه يكون منفيًا بعد دخول "لو" "[3].

١٢. استعمال "قَطُّ" بعد "ما" المصدرية:

تختص "قَطُّ" بالنفي، نحو: ما رأيته قَطُّ [4].وقد جاءت غير مسبوقة بنفي في قول حارثة جابن وَهْبٍ الخزاعي ﷺ: (صلى بنا النبي ﷺ ونحن أَكْثَرُ مَا كُنَّا قَطُّ وَآمَنُهُ بِمِنًى ركعتين)[5].

فقيل: الذي جوَّزه مراعاة لفظة "ما" في قوله: (ما كُنَّا قَطُّ) وإن كانت غير نافية [6].

وقيل: إنَّ "قَطُّ" في هذا الحديث متعلقٌ بمحذوف منفيٍّ، أي: وما كنا أكثر من ذلك قَطُّ [7].

وذهب ابن مالك إلى جواز استعمالها بدون نفي، واستدل على ذلك بما ورد في هذا الحديث [8]، وقال: " وهو مما خفي على كثير من النحويين؛ لأن المعهود استعمالها لاستغراق الزمان الماضي بعد نفي، نحو: ما فعلت ذلك قط، وقد جاءت في هذا الحديث دون نفي، وله نظائر "[9].

والذي أراه جواز استعمالها غير مسبوقة بنفي بقلة؛ لأنَّ له شواهد من السنة النبوية، كحديث أبي موسى الأشعري ﷺ: (فَأَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ رَأَيْتُهُ

---

(١) من البسيط، وهو في: ديوانه (١/ ٢٣٠)، تفسير الطبري (٤/ ٤٤٤-٤٤٥)، خزانة الأدب (٤/ ٣٠)، موارد البصائر ص٥١٢.

(٢) انظر: شرح اللمحة البدرية (٢/ ٥٨)، شرح الأشموني (٢/ ٧)، خزانة الأدب (٤/ ٣٠)، الدرر (٢/ ٢٢٧)

(٣) التصريح (٢/ ١٠٧-١٠٨).

(٤) انظر: حروف المعاني ص٣٥-٣٦، المفصل ص٢١٦، الهمع (٢/ ١٥٨).

(٥) رواه بهذا اللفظ البخاري في صحيحه (٢/ ٥٩٧) ح(١٥٧٣). ورواه الطيالسي في مسنده ص١٧٤ ح(١٢٤٠) بلفظ: (ونحن أكثر ما كنا وآمنه)، ولا شاهد فيه على هذه الرواية.

(٦) انظر: مغني اللبيب (٦/ ٦٥٤)، الخزانة (٧/ ١٢٦).

(٧) انظر: فتح الباري (١/ ٣٥) (٢/ ٥٦٤)، عمدة القاري (٩/ ٢٩٩)، مرقاة المفاتيح (٨/ ٤٤٩).

(٨) انظر: شرح التسهيل (٢/ ٢٢١)، شواهد التوضيح ص٢٤٨.

(٩) شواهد التوضيح ص٢٤٨.

قَطُّ يَفْعَلُهُ)[١]، وحديث المسيح الدجال: (فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا)[٢]، وحديث ابن عمر رضي الله عنهما: (إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ)[٣]، وحديث عقبة بن عامر ﷺ: (فَيَثُورُ مِنْ مَجْلِسِي أَطْيَبُ رِيحٍ شَمَّهَا أَحَدٌ قَطُّ حَتَى آتِيَ رَبِي)[٤]، وحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رَائِحَةٍ وَجَدَهَا أَحَدٌ قَطُّ بِأَنْفِهِ)[٥].

١٣. حذفُ فاعل صيغة التعجب "أفْعِلْ":

ذهب بعضهم إلى أنَّ فاعل صيغة التعجب "أفْعِلْ" مضمرٌ فيه وإن كان بمعنى الفعل الماضي حملاً له في اللفظ على صورة الأمر في نحو: أُمْرُرْ بزيدٍ [٦].

ومذهب كثيرٍ من النحويين [٧] أنَّ فاعله المجرور بالباء الزائدة، وزيادتها لازمةٌ إصلاحًا للفظ؛ لأنَّ "أفْعِلْ" أمراً لا يكون فاعله إلا ضميرًا مستترًا، فالمجرور مرفوع المحل، ولا ضمير في "أفْعِلْ"، والهمزة للصيرورة، فأصل "أَحْسِنْ بزيدٍ": أَحْسَنَ زيدٌ، أي: صار ذا حُسنٍ، كقولهم: أبقلت الأرض، أي: صارت ذات بقلٍ.

وقد ضُعِّفَ هذا المذهب والذي قبله بأوجه، منها [٨]:

١- أنَّ استعمال الأمر بمعنى الماضي مما لم يعهد، والمعهود عكسه، نحو: اتَّقَى امرؤٌ ربَّه.

٢- أنَّ استعمال "أفْعَلَ" بمعنى: صار قليل، ولو كان منه لجاز: ألْحِمْ بزيدٍ، وأشْحِمْ بزيدٍ.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٣٦٠) ح(١٠١٠).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٦٣) ح(٢٩٤٢)، وأبو داود في سننه (٤/ ١١٨) ح(٤٣٢٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٣٨٩) ح(٩٥٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٣٥) ح(٧٣٤)، والمعجم الأوسط (٥/ ١٥٠) ح(٤٩١٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٩).

(٤) رواه بهذا اللفظ الدارمي في سننه (٢/ ٤٢١) ح(٢٨٠٤)، ورواه الطبراني بدون "قَطُّ" في المعجم الكبير (١٧/ ٣٢٠) ح(٨٨٧).

(٥) رواه بهذا اللفظ عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٦٦) ح(٦٧٠٢)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٢٨) بلفظ:

(كأطيب رائحة مسك وجدها أحدكم بأنفه).

(٦) انظر: مغني اللبيب (٦/ ٦٤٧).

(٧) انظر: الأصول (١/ ١٠١)، البغداديات ص١٦٥-١٦٦، شرح اللمع للثمانيني ص٦٨٩، المقتصد ص٣٧٦، أسرار العربية ص٨١-٨٢، المتبع ص٥٤١، شرح الإيضاح للعكبري ص٤٨٠، وص٤٨٧-٤٨٩، شرح ألفية ابن معطٍ لابن القواس ص٩٥٨-٩٥٩، الجنى الداني ص٤٧.

(٨) انظر: الإيضاح في شرح المفصل (٢/ ١١٠)، شرح الرضي (٢/ ١٠٩٧)، التصريح (٣/ ٣٧٤).

٣- أنَّ زيادة الباء في الفاعل قليلة، والمطّرد زيادتها في المفعول.

وذهب جماعة منهم الفراء [١]، وابن كيسان [٢]، والزجاج [٣]، والزمخشري [٤] إلى أنَّ "أفْعِلْ" أمرٌ حقيقةً، والهمزة للنقل، والمجرور في محل نصب على المفعولية، والفاعل ضميرٌ مستتر في "أفْعِلْ"، واختلفوا في مرجع الضمير، فقيل: الضمير للمصدر الدال عليه الفعل، كأنَّه قيل: يا حُسْنُ أحْسِنْ بزيدٍ، أي: الْزَمْه ودُمْ به، وقيل: الضمير للمخاطب، كأنَّه قيل: أحسن يا مخاطب به، أي: احكم بحسنه.

وضُعِّف هذا المذهب بأوجه، منها [٥]:

١- أنَّه لو كان أمرًا لم يكن الناطق به متعجبًا، كما لا يكون الآمر بالحلف ونحوه حالفًا، ولا خلاف في كونه متعجبًا.

٢- أنَّه لو كان أمرًا لزم إبراز ضميره.

٣- أنَّه لو كان أمرًا لوجب له من الإعلال ما وجب لـ"أَقِمْ" و"أَبِنْ".

٤- أنَّه لو كان مسندًا إلى ضمير المصدر لقيل: أسهلي في قولهم: أسهل به، لأنَّ المصدر السهولة.

٥- أنَّه لو كان مسندًا إلى ضمير المخاطب لم يَلِه ضمير المخاطب في نحو: أحْسِنْ بك.

والراجح عندي ما ذهب إليه كثيرٌ من النحويين من أنَّه أمرٌ في اللفظ خبرٌ في المعنى، وأنَّ فاعله المجرور بالباء الزائدة، لأنَّ الكلام إذا كان مستقلاً بنفسه كان أولى مما يفتقر إلى إضمار [٦].

أمَّا قولهم: " إن استعمال الأمر بمعنى الماضي مما لم يعهد " فمردودٌ بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ [٧]، فقد قيل: إنَّ قوله: ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ لفظه لفظ الأمر، ومعناه الماضي، والمعنى: مدَّ له الرحمن [٨].

---

(١) انظر: التسهيل ص١٣٠، شرح التسهيل (٣/ ٣٣)، شرح الرضي (٢/ ١٠٩٧)، الارتشاف ص٢٠٦٧.

(٢) انظر: الإفصاح لابن الطراوة ص٤٥، التذييل والتكميل (٣/ ١٧٩أ)، التصريح (٣/ ٣٧٣).

(٣) انظر: المتبع ص٥٤١، اللباب (١/ ٢٠٣)، شرح المفصل (٧/ ١٤٨)، المساعد (٢/ ١٤٩،١٥٠-١٥١).

(٤) انظر: المفصل ص٣٦٧.

(٥) انظر: شرح التسهيل (٣/ ٣٣-٣٤)، توضيح المقاصد ص٨٨٨، التصريح (٣/ ٣٧٥)، الهمع (٣/ ٣٨-٣٩).

(٦) انظر: أسرار العربية ص٨٢.

(٧) انظر: سورة مريم، من الآية (٧٥).

(٨) انظر: الكشاف (٤/ ٤٨)، كشف المشكلات (٢/ ٨٣)، الفريد في إعراب القرآن (٣/ ٤١٤).

ومن ذلك -أيضًا- قوله عليه السلام: (مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)[1]، أي: تبوأ مقعده من النار [2].

ومنه -أيضًا- قوله ﷺ: (إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ)[3]، أي: من لم يستح صنع ما شاء [4].

أما قولهم: " إنَّ استعمال "أَفْعَلَ" بمعنى: صار قليل، ولو كان منه لجاز: أَلْحِمْ بِزيدٍ "

فالجواب عنه: أنَّا لا نُسلِّم أنَّ "أَفْعَلَ" بمعنى: صار قليل، فكثرة ذلك لا تخفى على المتتبع [5].

أمَّا قولنا: "أَلْحِمْ بزيدٍ" فعلى معنى التعجب جائز لا محذور منه، وعلى معنى آخر لا يجوز [6].

نعم ما ذكر من قلّة زيادة الباء في الفاعل مما لا كلام فيه، لكن زيادتها -هنا- في الفاعل لأمرٍ لازم وهو التفريق بين لفظ الأمر الذي للتعجب ولفظ الأمر الذي لا يراد به التعجب [7].

١٤. بناء "أي" في الاختصاص:

ذكر ابن هشام في المغني [8] أنَّ "أيًا" في الاختصاص حقُّها النصب، لكنها بُنيت على الضم تشبيهًا لها في اللفظ بـ"أي" في النداء وإن انتفى موجب البناء.

قال سيبويه: قولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، جرى على صورة النداء ولا نداء [9].

وقيل: وجه بنائها على الضم استصحاب حالها في النداء بأن نقلت بحالها عن النداء واستعملت في غيره [10].

وذهب الأخفش إلى أنَّ "أيًا"- هنا- منادى، قال: ولا ينكر أن ينادي الإنسان نفسه، ألا ترى إلى قول عمر ﷺ: "كل الناس أفقه منك يا عمر" [11]. قال: وهذا أولى من أن تخرج "أي" عن بابها [12].

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه (١/ ٤٣٤)، ومسلم في صحيحه (١/ ١٠)، وأحمد في مسنده (١/ ٧٨).

(٢) انظر: تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٦٠)، معجم ابن الأعرابي (٢/ ٣٢٨)، تهذيب اللغة (٢/ ٢٥) "صنع".

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٢٢٦٨)، وأحمد في مسنده (٤/١٢١)، والشهاب في مسنده (٢/ ١٨٧).

(٤) انظر: غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٢٥٧)، المحصول للرازي (٢/٥١)، المغني لابن قدامة (١٠/ ١٧٠).

(٥) انظر: شرح الشافية للرضي (١/ ٨٨)، روح المعاني (٦/ ٢٤٢).

(٦) انظر: روح المعاني (٦/ ٢٤٢).

(٧) انظر: المقتصد (١/ ٣٧٧)، أسرار العربية ص٨١، شرح المفصل لابن يعيش (٧/ ١٤٨).

(٨) انظر (٦/ ٦٤٨-٦٤٩).

(٩) انظر: الكتاب (٢/ ١٧٠).

(١٠) انظر: حاشية الصبان (٣/ ١٨٧).

(١١) انظر هذا القول في: العقد الفريد (٨/ ٧٣)، تمهيد الأوائل ص٥٠١، كشف الخفاء (١/ ٤٦٦).

(١٢) انظر: التذييل والتكميل (٤/ ٢٣٩ب)، توضيح المقاصد ص١١٥١، الهمع (٢/ ٢٣).

وردَّ بأنَّ بقية الباب لا يمكن فيه تقدير الحرف، نحو: نحن العرب، وبك الله [1].

وذهب السيرافي إلى أنَّ "أيًّا" في الاختصاص معرب، وهو خبر لمبتدأٍ محذوف، أو مبتدأ والخبر محذوف [2]. ولا شك أنَّ مثل هذا لا معوَّل عليه لما فيه من التكلف.

ومذهب الجمهور أنَّه مبني على الضم في محل نصبٍ بفعل الاختصاص محذوفًا [3].

١٥. توكيدِ الفعلِ المضارعِ بالنونِ بعد "لا" النافية:

قد يُؤكّد الفعل المضارع بالنون بعد "لا" النافية حملاً لها في اللفظ على "لا" الناهية [4]، نحو: أعجبني رجلٌ لا يَقُومَنَّ غدًا. وحمل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً** ﴾ [5]، وقول الشاعر:

فَرِشْني بخيرٍ لا أكونَنْ ومِدْحَتي كنَاحِتِ يَوْمًا صَخْرةٍ بعَسِيلِ [6]

وقول النمر بن تَوْلب:

فلا الجارَةُ الدُّنْيا بها تَلْحَيَنَّها ولا الضَّيفُ فيها إنْ أناخَ مُحَوَّلُ [7]

وقول الآخر:

فلا ذَا نعيمٍ يُتْرَكَنْ لِنَعيمِهِ وإنْ قَالَ قَرِّطْني وَخُذْ رِشْوَةً أبَى

ولا ذَا بَئيسٍ يُتْرَكَنْ لِبُؤْسِهِ فَيَنْفَعُهُ شَكْوٌ إليْهِ إنِ اشْتَكَى [8].

ومذهب الجمهور عدم جواز ذلك [9]. وأجازه ابن جني [10]. ووافقه جماعة من النحويين

---

(١) انظر: التذييل والتكميل (٤/ ٢٣٩ب)، الهمع (٢/ ٢٣).

(٢) انظر: شرح الكتاب (٣/ ٦١أ).

(٣) انظر: الارتشاف ص٢٢٤٧، توضيح المقاصد ص١١٥١،التصريح (٤/ ١٢٤).

(٤) انظر: شرح التسهيل (٣/ ٢١٠)، شرح الكافية الشافية ص١٤٠٣، مغني اللبيب (٣/ ٣٢٦) (٦/ ٦٤٦-٦٤٧).

(٥) انظر: سورة الأنفال، من الآية (٢٥).

(٦) من الطويل، لم أقف على قائله، ويروى "لا أكون"، ولا شاهد فيه على هذه الرواية. انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٨٠)، الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٢٥٠)، شرح عمدة الحافظ ص٣٢٨، اللسان (١١/ ٤٤٧) "عسل".

(٧) من الطويل، وهو في: ديوانه ص٩٢، وشرح التسهيل (٣/ ٢١٠)، وشرح شواهد المغني ص٦٢٨.

(٨) من الطويل، وردا في: الأغاني (١٠/ ٢٠١)، ومعجم البلدان (٢/ ٥٠٦) منسوبين إلى حنظلة الطائي برواية أخرى، وهي:

فلا ذا غِنى يرجئن عن فضل ماله وإن قال أخّرني وخذ رِشوةً أبى

ولا عن فقير يأتخرن لفقره فتنفعه الشكوى إليهنّ إن شكا

والرواية الأولى في: التذييل والتكميل (٥/ ٣٤ب)، البحر المحيط (٤/ ٤٧٧)، الدر المصون (٣/ ٤١١).

(٩) انظر: البحر المحيط (٤/ ٤٧٧)، الدر المصون (٣/ ٤١١).

(١٠) انظر: اللمع ص٢٦١. وانظر: الارتشاف ص٦٥٧، توضيح المقاصد ص١١٧٧، المساعد (٢/ ٦٨٨).

منهم الثمانيني [1]، وابن مالك [2]، وابنه بدر الدين [3]، وابن عقيل [4]. وحجة هؤلاء الشواهد السابقة [5].

وقد تأوَّل المانعون الآية فقالوا: "لا" ناهية، والجملة محكية بقولٍ محذوف هو صفة "فتنة".

وقيل: "لا" ناهية –أيضًا– وتمَّ الكلام عند قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً ﴾، ثم ابتدأ نهيَ الظلمة عن التعرض للظلم فتصيبهم الفتنة خاصة. فأخرج النهي عن إسناده للفتنة، فهو نهي محوَّل كما قالوا: لا أرَينَّك ههنا.

وقيل: " لَّا تُصِيبَنَّ " هو على معنى الدعاء. وقيل: هو جواب قسمٍ محذوف، والجملة القسمية صفة لـ " فِتۡنَةً "، أي: فتنة والله لا تصيبن. وقيل غير ذلك [6].

أما الشواهد الشعرية فحمولها على الضرورة [7].

والذي أراه جواز توكيده بالنون؛ لأمور:

أحدهما: وروده في القرآن الكريم وفيما ذكرنا من الشواهد، ومنه –أيضًا– قول النابغة الذبياني:

لا أعْرِفَنَّكَ مُعْرِضًا لِرِمَاحِنَا ... في جُفِّ تَغْلِبَ وَارِدِي الأمْرَارِ [8]

وقول الأُقيشر:

لا أشْرَبَنْ أبَدًا رَاحًا مُسَارَقَةً ... إلا مَعَ الغُرِّ أبْنَاءِ البَطَارِيقِ [9]

الثاني: سلامة رأي المجيزين من التقدير في الآية مع موافقته لظاهرها، والقرآن يجب أن يُحمل على ظاهره إلا أن تقوم حجة تصرفه عن ذلك.

الثالث: أنَّه إذا جاز أنْ يُؤكّد المنفي بـ"لا" مع انفصاله في قول النّمر بن تَوْلب: " فلا الجَارَةُ الدُّنيا بها تَلْحَيَنَّها "، وقول الآخر: " فلا ذَا نعيمٍ يُترَكَنْ لنَعِيمِهِ ". وقوله: " ولا ذَا بَئِيسٍ يُتْرَكَنْ

---

(1) انظر: شرح اللمع ص٨٩٠.

(2) انظر: شرح التسهيل (٣ / ٢١٠)، شرح الكافية الشافية ص١٤٠٣–١٤٠٤.

(3) انظر: شرح الألفية له ص٦٢٤.

(4) انظر: شرح الألفية له (٢ / ٦٥٦).

(5) انظر: شرح الكافية الشافية ص١٤٠٣–١٤٠٤، شرح الرضي، (٢ / ١٤٤٣)، التذييل والتكميل (٥ / ٣٤أ–٣٤ب).

(6) انظر: البحر المحيط (٤ / ٤٧٧–٤٧٨)، توضيح المقاصد ص١١٧٧، شرح الأشموني (٣ / ٤٠٧–٤٠٨).

(7) انظر: الارتشاف ص٦٥٧، الدر المصون (٣ / ٤١١)، المساعد (٢ / ٦٦٨)، الهمع (٢ / ٥١٢).

(8) من الكامل، وهو في: ديوانه ص١٠٠، وجمهرة اللغة (١ / ٩٠) "جفف"، ولسان العرب (٥ / ١٧١) "مرر"، والخزانة (٦ / ٣١٣).

(9) من البسيط، ويروى "لا تَشْرَبَن" ولا شاهد فيه على هذه الرواية. انظر: ديوانه ص٦٠، الأغاني(١١ / ٢٧٧)، الحُلل في شرح أبيات الجمل ص١٥٩، الحماسة البصرية (٢ / ٧٥).

لِبُؤْسِهِ". فأن يؤكد المنفي غير المفصول أحقّ وأولى [1].

١٦. توكيد "أفْعِل" في التعجب بالنون:

قد تلحق نون التوكيد "أفْعِل" في التعجب وإن كان بمعنى الماضي حملاً له على فعل الأمر [2]، كقول الشاعر:

ومُسْتَخْلِفٍ مِنْ بَعْدِ غَضْيا صُرَيْمَةً   فَأَحْرِ بِهِ مِنْ طُولِ فَقْرٍ وأَحْرِيَا [3]

أراد: وأحرين، فأبدل النون الخفيفة ألفًا للوقف [4].

وقد صرّح ابن مالك [5] وأبو حيان [6] وابن هشام [7] وغيرهم [8] بشذوذ ذلك؛ لأنّ "أفْعِل" في التعجب بمعنى الماضي، والنون تخلص مدخولها للاستقبال، وذلك يُنافي المضيّ [9].

هذا عند من يرى أن "أفْعِل" صورته أمرٌ ومعناه الماضي [10]. أما من يرى أنّه أمر في اللفظ والمعنى [11] فلا إشكال في جواز ذلك عنده.

والراجح عندي القول الأوّل؛ لسلامته مما يرد على الثاني من الإشكالات [12]، ومنها:

١- أنّه لو كان أمرًا حقيقة لكان فيه ضمير المأمور، فكان يلزم تثنيته وجمعه وتأنيثه على حسب أحوال المخاطبين.

٢- أنّه لو كان أمرًا حقيقة لجاز أنْ يجاب بالفاء وأن يجزم جوابه.

٣- أنّه لو كان الناطق به آمرًا بالتعجب لم يكن متعجبًا، كما لا يكون الآمر بالحلف والنداء والتشبيه حالفًا ولا مناديًا ولا مشبّهًا، ولا خلاف في كون الناطق بـ"أفْعِل" المذكور متعجبًا.

---

(١) انظر: شرح الكافية الشافية ص١٤٠٤، البحر المحيط (٤/ ٤٧٧)، الدر المصون (٣/ ٤١١).

(٢) انظر: شرح التسهيل (٣/ ٣٨)، شرح الكافية الشافية ص١٤١١، شرح الأشموني (٣/ ٤١٢).

(٣) من الطويل، لم أقف على قائله، وهو في: تهذيب اللغة (٨/ ١٤٧) "غضا"، المخصص (٧/ ١٣١)، الدرر (٥/ ١٥٩).

(٤) انظر: شرح الكافية الشافية ص١٤١١، شرح أبيات المغني (٦/ ٣٩)، الدرر (٥/ ١٥٩).

(٥) انظر: شرح الكافية الشافية ص١٤١١.

(٦) انظر: الارتشاف ص٦٥٣، التذييل والتكميل (٥/ ٣٣أ).

(٧) انظر: مغني اللبيب (٤/ ٢٦٠).

(٨) انظر: المساعد (٢/ ٦٦٦)، الهمع (٢/ ٥١٢-٥١٣)، شرح الأشموني (٣/ ٤١٢).

(٩) انظر: مغني اللبيب (٤/ ٢٦٠)، التصريح (٤/ ١٧٩)، حاشية الصبان (٣/ ٢١٣).

(١٠) هذا مذهب الجمهور. انظر: الأصول (١/ ١٠١)، البغداديات ص١٦٥-١٦٦، شرح اللمع للثمانيني ص٦٨٩، المقتصد ص٣٧٦، أسرار العربية ص٨١-٨٢، المتبع ص٥٤١، شرح الإيضاح للعكبري ص٤٨٠، شرح ألفية ابن معط لابن القواس ص٩٥٨.

(١١) حُكِي هذا المذهب عن الفراء والأخفش وابن كيسان والزجاج وغيرهم. انظر: الإفصاح لابن الطراوة ص٤٥، اللباب (١/ ٢٠٣)، شرح المقدمة الكافية ص٩٢٩، شرح التسهيل (٣/ ٣٣)، الارتشاف ص٢٠٦٧.

(١٢) انظر: أسرار العربية ص٨١، المتبع ص٥٤١، اللباب (١/ ٢٠٣)، شرح التسهيل (٣/ ٣٣-٣٤)، شرح الألفية لابن القواس ص٩٦٠، التصريح (٣/ ٢٧٥)، الهمع (٢/ ٣٨-٣٩).

٤– أنَّه يليه ضمير المخاطب، نحو: أحْسِنْ بِكَ، ولا يجوز ذلك في الأمر لما فيه من إعمال فعلٍ واحدٍ في ضميري فاعل ومفعول لمسمى واحد.

٥– أنَّه لو كان أمرًا لوجب له من الإعلال إذا كانت عينه ياء أو واوًا ما وجب لـ"أَبِنْ" و"أَقِمْ" ونحوهما.

١٧. كسر نون التوكيد بعد ألف الاثنين:

إذا وقعت نون التوكيد بعد ألف الاثنين فإنَّه يجب كسرها [١]، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢]، وإنما كسرت تشبيهًا لها بنون التثنية في زيادتها آخرًا بعد ألفٍ زائدة [٣]، فأشبهت نون الاثنين في نحو: تضربان، وكذا النون في الاسم المثنى نحو: الزيدانِ.

١٨. منع "أشياء" من الصرف:

وردت كلمة "أشياء" ممنوعة من الصرف في قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [٤].

ومذهب الكسائي [٥] أنَّها منعت من الصرف تشبيهًا لها بما آخره ألف تأنيث ممدودة، نحو: صحراء وحمراء؛ لأنَّ وزنها عنده "أفعال".

ووجه شبهها بحمراء ونحوه أنه يقال في جمعها: أشَاوَى وأشْيَاوات، كما يقال في جمع صحراء وحمراء: صحارى وصحراوات وحمراوات [٦].

ورُدَّ بأنَّه قد جمع هذا الجمع ما يماثلها ولم يمنع من الصرف، قال الفراء: " قالت العرب: هذا من أبناوات سعد، وأُعِيذك بأسماوات الله، وواحدها أسماء وأبناء تجري، فلو منعت أشياء الجَرْي لجمعهم إياها أشياوات لم أجر أسماء ولا أبناء؛ لأنهما جُمِعتا أسماوات

---

(١) انظر: المقتضب (٣/ ٢٣)، التسهيل ص٢١٦، التصريح (٤/ ١٩٨).

(٢) سورة يونس، من الآية (٨٩).

(٣) انظر: المقتضب (٣/ ٢٣)، الأصول (٢/ ٢٠١)، اللباب (٢/ ٧٠)، شرح المقدمة الكافية ص١٠١٥، شرح الكافية الشافية (٣/ ١٤١٧)، شرح الرضي (٢/ ١٤٤٠)، تمهيد القواعد (٨/ ٣٩٤١)، المقاصد الشافية (٥/ ٥٦٦)، التصريح (٤/ ١٩٨).

(٤) سورة المائدة، من الآية (١٠١).

(٥) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٤٢)، المنصف (٢/ ٩٥–٩٦)، شرح الملوكي ص٣٧٨، الدر المصون (٢/ ٦١٧).

(٦) انظر مصادر الحاشية السابقة.

وأبناوات "[1].

وقيل: ترك صرفه لكثرة الاستعمال [2].

قال العكبري: " وهذا بعيدٌ جداً، لأن كثرة الاستعمال لا توجب منع الصرف عند الجميع "[3].

وقيل: منع من الصرف في الآية السابقة كراهة توالي مقطعين متماثلين، إذ لو صُرف لقيل: عن أشياءٍ إنْ، ولا يخفى ما فيه من تكرار المقطع "إنْ"[4].

ورُدَّ ببعض الآيات القرآنية التي تكرر فيها المقطع "إنْ" ولم يكن ذلك سبباً للمنع من الصرف [5]، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾ [6]، وقوله سبحانه: ﴿ وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [7].

وإنما قال: إنَّ وزنه "أفعال"؛ لأنه جمع "شيء"، و"شيء" على وزن "فَعْل"، و"فَعْل" إذا كان معتل العين فإنه يجمع على "أفعال"، نحو: بيت وأبيات وسيف وأسياف [8].

ورُدَّ بأنه لو كان الأمر على ما زعم لوجب أن تكون منصرفة كأسماء وأبناء وأعباء [9].

وذهب البصريون [10]، والفراء [11] من الكوفيين إلى أنَّها منعت من الصرف لكونها مختومة بألف التأنيث الممدودة.

ووزنها عند جمهور البصريين "لَفْعَاء"[12]، وأصلها: شيئاء -بهمزتين- على وزن "فَعْلاء"،

---

(1) معاني القرآن (1/ 321).

(2) انظر: اللباب في علل البناء والإعراب (2/ 367).

(3) اللباب (2/ 367).

(4) انظر: أثر القراءات القرآنية في تطوّر الدرس النحوي ص154.

(5) انظر: أقوال العلماء في صرف "أشياء" ص89، مجلة جامعة الملك سعود، م13، الآداب (1).

(6) سورة يس، من الآية (15).

(7) سورة الملك، من الآية (9).

(8) انظر: الإنصاف ص814، المسألة (118).

(9) انظر: الإنصاف ص819، الممتع ص513-514، الدر المصون (2/ 617).

(10) انظر: المنصف (2/ 94-95)، شرح الملوكي ص276-277، شرح الشافية للرضي (1/ 28-30)، الدر المصون (2/ 615، 616).

(11) انظر: معاني القرآن (1/ 321).

(12) انظر: العين (6/ 296-297) "شيء"، الكتاب (4/ 380-381)، معاني القرآن وإعرابه (2/ 212)، الإنصاف ص813.

فاستَثقلوا اجتماع همزتين بينهما حاجزٌ غير حصين، فقلبوا بتقديم الهمزة التي هي اللام على الفاء وهي الشين، فقالوا: أشياء [١]. وقالوا: " إذا كانوا قد قلبوا من غير أن يكون فيه خفة، فقالوا: "أَيِسَ" في "يَئس"، و"بِئْرٌ مَعِيْقَةٌ" في "عَمِيقة" .... وما أشبه ذلك مما لايؤدي إلى التخفيف، فكيف فيما يؤدي إليه؟! فلهذا قلنا: وزنها "لَفْعَاء" "[٢].

وهي عندهم اسم جمع وليست بجمع تكسير؛ بدليل أنهم جمعوها على: أشَاوَى وأشْياوات، كما قالوا في جمع صحراء: صحارى وصحراوات [٣].

واعترض عليه بأنَّ القلب خلاف الأصل، وأنه لم يرد إلا ضرورة أو في قليل من الكلام [٤].
أما الزعم بأنَّها اسم جمع لا جمع تكسير فأمر ينقضه وجود مفرد هو"شــيء"، فإن لم تكن "أشياء" جمع تكسير لـ"شيء" فما جمع التكسير لها؟! [٥].

ووزنها عند الفراء [٦] والأخفش [٧] "أفْعَاء"، حذفوا الهمزة التي هي لام استثقالاً لاجتماع همزتين بينهما ألف، وكان الأصل: "أشيئاء". ويخالف الفراءُ أبا الحسن في مفرد "أشياء"، فمذهب الفراء أنَّ مفرده "شَيِّئ" على وزن "فَيْعَل"، فخفف كما خفف "هيِّن" و"لَيِّن" في قولهم: هَيْن ولَيْن، إلا أن شيئًا ألزم التخفيف، ولما كان أصله "فَيْعِل" جمعوه على "أفعلاء"، كهَيِّن وأهْوِناء ولِيِّن وألْيِنَاء. ومذهب الأخفش أنَّ واحده "شيء" بالتخفيف، وجُمع "فَعْل" على "أفْعلاء" كما جُمع على "فُعَلاء" في: سَمْح وسُمَحَاء، وفُعلاء نظير أفْعِلاء [٨].

وضُعِّف مذهبهما من أوجه:

أحدهما: القول بأنَّ "شيئًا" أصله "شَيِّئ" مجرد دعوى لا دليل عليها، ثم لو كان الأمر كما زعم لجاء ذلك في شيء من كلامهم [٩].

---

(١) انظر: الإنصاف ص٨١٤، شرح الشافية للرضي (١/ ٢٩).
(٢) الإنصاف ص٨١٥.
(٣) انظر: الإنصاف ص٨١٦، ٨١٨، شرح الملوكي ص٣٧٨.
(٤) انظر: الدر المصون (٢/ ٦١٥).
(٥) انظر: أقوال العلماء في صرف "أشياء" ص٧٣، مجلة جامعة الملك سعود، م١٣، الآداب (١).
(٦) انظر: معاني القرآن (١/ ٣٢١). وانظر: المنصف (٢/ ٩٦)، المناهج الكافية ص١٤٦.
(٧) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٢١٢)، أمالي ابن الشجري (٢/ ٢٠٥)، التبيان في إعراب القرآن ص٤٦٣.
(٨) انظر: أمالي ابن الشجري (٢/ ٢٠٥)، البيان في غريب إعراب القرآن (١/ ٣٠٦)، الممتع ص٥١٣، شرح ألفية ابن معطٍ ص١٢٤٣.
(٩) انظر: المنصف (٢/ ٩٦-٩٧)، الإنصاف ص٨١٨، شرح الملوكي ص٣٨٠.

الثاني: أنَّ "أفْعِلاء" لا يكون جمعًا لـ"فَعْل" ولا لـ"فَيْعِل". فأما قولهم: "هَيِّن وأهوناء" فشاذٌّ لايقاس عليه، ولا حجة للأخفش فيما ذكر من أنَّ "أفْعِلاء" أخت "فُعَلاء"، فكما جمعوا "سَمْحًا" -وهو فَعْلٌ- على "سُمَحاء"، فكذلك جمعوا "شيئًا" -وهو فَعْلٌ- على "أفْعِلاء"، لأنَّ فَعْلاً لا يكسر على "أفْعِلاء"، وإنَّما يكسر على فُعُول وفِعَال، نحو: فُلُوس وكِعَاب. وأمَّا جمع "سَمْح" على "سُمَحاء" فشاذٌّ لا يقاس عليه مثله، فكيف نظيره؟! [1].

الثالث: مما يدل على أنه ليس بـ"أفْعِلاء" قول العرب في تصغيره: أُشَيَّاء، و"أفْعِلاء" لا يجوز تصغيره على لفظه، وإنما ينبغي أن يُردَّ إلى واحده ويجمع بالألف والتاء [2].

الرابع: أنه لو كان في الأصل "أفعلاء" فإنه ينبغي ألا يجمع على "فَعَالى"، لأنَّه ليس في كلام العرب "أفعلاء" جمع على "فَعَالى" فلما جاز جمعه على "فَعَالى" دلَّ على عدم صحة ما ذهبا إليه [3].

هذه أشهر الأقوال في هذه المسألة [4]، ولا يخلو جميعها من التكلف، قال أبو حاتم: "أشياء" أفعال، مثل: "أنباء"، وكان يجب أن تنصرف إلا أنَّها سمعت عن العرب غير مصروفة فاحتال لها النحويون باحتيالات لا تصح "[5]. ولعل أقربها إلى الصواب ما ذهب إليه الكسائي، لأنَّه أقلها تعسفًا، فليس فيه إلا الشبه اللفظي، فالحمل عليه - في رأيي- أولى من الحمل على القلب أو الحذف، لأنَّهم قد اعتبروا في باب ما لا ينصرف الشبه اللفظي في أكثر من مسألة [6].

١٩. منع الاسم الموازن للفعل من الصرف:

يُمنع الاسم الموازن للفعل من الصرف مراعاة للشبه اللفظي بينه وبين الفعل في

---

(١) انظر: شرح التصريف للثمانيني ص٤٠٢، الإنصاف ص٨١٨، الممتع ص٥١٥.

(٢) انظر: المنصف (٢/ ١٠٠-١٠١)، شرح الشافية للرضي (١/ ٣٠)، المناهج الكافية ص١٤٧.

(٣) انظر: الإنصاف ص٨١٨، المناهج الكافية ص١٤٧.

(٤) انظر هذه المسألة بالتفصيل في: المنصف (٢/ ٩٤-١٠١)، الإنصاف ص٨١٢-٨٢٠ المسألة (١١٨)، شرح الملوكي ص٣٧٦-٣٨٠، الممتع ص٥١٣-٥١٦، الدر المصون (٢/ ٦١٥-٦١٨)، مسائل الخلاف النحوية والتصريفية ص١٣١٩-١٣٣١، أقوال العلماء في صرف "أشياء"، مجلة جامعة الملك سعود، م١٣، الآداب (١) ١٤٢١هـ ص٦٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٤٢-٤٣).

(٦) انظر: الخصائص (١/ ٢١٥)، شرح الكافية الشافية ص١٤٩٥، الدر المصون (٢/ ٦١٧)، الهمع (١/ ١٠٨).

الوزن[1]، والوزن المانع من الصرف هو المختص بالفعل أو الذي الفعل به أولى؛ لكونه غالبًا فيه، أو لكونه مبدوءًا بزيادة تدل على معنى في الفعل ولا تدل على معنى في الاسم [2].

أما الوزن المختص فلا يتصور منعه إلا مع العلمية، وأمَّا الوزن الأولى بالفعل فيمنع تارة مع العلمية وتارة مع الوصفية [3].

ويشترط لمنع الوصف الموازن للفعل من الصرف أصالة الوصفية، وعدم قبول مؤنثه تاء التأنيث ، نحو: أحمر، وأصفر، وأسود [4]. أما العلم الموازن للفعل فيشترط لمنعه من الصرف أن يكون وزنه لازمًا باقيًا في اللفظ على حالته الأصلية غير مخالف لطريقة الفعل ، نحو: أحمد، ويزيد[5].

٢٠. منع "سراويل" من الصرف:

ذهب سيبويه [6] إلى أنَّ "سراويل" اسمٌ مفردٌ أعجمي، لا ينصرف في نكرةٍ ولا معرفةٍ، حملاً على موازنه من العربي، كـ"دنانير" و"مصابيح". وذلك أن بناء "مفاعل" و"مفاعيل" لا يكونان في كلام العرب إلا لجمعٍ أو منقولٍ من جمعٍ، فَحَقٌّ ماوازنهما أنْ يُمنعَ الصرف وإنْ فقدت منه الجمعية إذا تَمَّ شبهه بهما [7].

ومن النحويين مَن ذهب إلى أنَّه منقولٌ عن جمع "سِرْوَالة" بمعنى قطعة خرقةٍ، مسمى به المفرد الجنسي [8]، وينشد:

عَلَيهِ مِنَ اللُّؤْمِ سِرْوَالةٌ فَلَيْسَ يَرِقُّ لِمُسْتَعْطِفِ [9]

وذكر الأخفش أنه سمع من العرب "سِرْوَالة"[10]. وقال أبو حاتم: من العرب مَن يقول:

---

(١) انظر: الخصائص (١/ ٢١٥).

(٢) انظر: تمهيد القواعد (٨/ ٣٩٧٨-٣٩٧٩، ٣٩٨١)، التصريح (٤/ ٢٢٢، ٢٤٦-٢٤٨)، الهمع (١/ ١٠٤).

(٣) انظر: المساعد (٣/ ١١-١٢)، تمهيد القواعد (٨/ ٣٩٧٨).

(٤) انظر: التسهيل ص٢١٨، شرح الألفية لابن الناظم ص٦٣٨، شرح شذور الذهب ص٥٨٦.

(٥) انظر: التصريح (٤/ ٢٤٩).

(٦) انظر: الكتاب (٣/ ٢٢٩). وانظر: تمهيد القواعد ص٣٩٧٢-٣٩٧٣، الهمع (١/ ٨٨).

(٧) انظر: توضيح المقاصد ص١٢٠٠، شرح الأشموني (٣/ ٤٤٨).

(٨) انظر: المقتضب (٣/ ٣٤٥-٣٤٦)، التبيان في شرح الديوان (١/ ٢٢٧)، التصريح (٤/ ٢١٦)، شرح الأشموني (٣/ ٤٤٩).

(٩) من المتقارب، لم أقف على قائله، وهو في: المحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٤٧٢) "سرل"، لسان العرب (١١/ ٣٣٤) "سرل"، الخزانة (١/ ٢٣٣)، الدرر (١/ ٨٨).

(١٠) انظر: الارتشاف ص٨٥٥، توضيح المقاصد ص١٢٠٢، التصريح (٤/ ٢١٧).

"سِرْوال"[1].

وضُعِّف هذا المذهب بما يأتي:

١- كيف تكون "سِرْوَالة" بمعنى قطعة خرقةٍ مع الحكم بأنها واحدة السراويل[2].

٢- لا حجة في البيت؛ لأنه مصنوع، وقيل: قائله مجهول [3].

٣- البيت هجو، ولا مبالغة في الهجو بأنَّ عليه من اللؤم قطعة، إنَّما المرادُ أنَّه تام التردي باللؤم، كما أن السراويل تمام اللبس، إنما "سِرْوَالة" لغة في "سراويل"[4].

٤- لو كان جمعًا مسمًّى به المفرد لاستلزم ذلك نقل الجمع إلى اسم الجنس، وهو منتفٍ؛ لأن الثابت إنما هو نقل الجمع إلى العلم كما في "مدائن"[5].

٢١. منع صرف المركَّب المزجي:

يُمنع المركَّب المزجي من الصرف مع العلمية؛ لشبهه بما خُتِمَ بتاء التأنيث، نحو: "حمزة".

ووجه الشبه بينهما أنّ الاسم الثاني في المركَّب يحذف في الترخيم كما تُحذف التاء، وأنَّه يُصغَّر صدره كما يُصغَّر ما هي فيه، ويفتح آخر الاسم الأول كما يفتح ما قبلها، وأنَّ الثاني لا يُلْحِقُ بشيءٍ من الأبنية، كما أنَّ التاء كذلك، فلا تُلحق بنات الثلاثة ببنات الأربعة، ولا الأربعة بالخمسة [6].

وشبَّهه الشاطبي بالأعجمي أيضًا؛ لأن التركيب صيَّر المركَّب قليلاً في كلامهم، غيرَ جارٍ على أَبْنِيَتهم المعتادة، فأشبه الأعجمي كـ"إبراهيم" و"إسماعيل"[7].

٢٢. منع صرف ﴿ حمٓ ۝ ﴾[8]:

قرأ عيسى بن عمر: ﴿ حمَ ۝ ﴾ بفتح الميم [9]. ووجِّهَ بأنه منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ، أي: اقرأ

---

(١) انظر مصادر الحاشية السابقة.

(٢) انظر: الخزانة (١/ ٢٣٣-٢٣٤)، الدرر (٢/ ٨٨).

(٣) انظر مصادر الحاشية السابقة.

(٤) انظر: شرح السيرافي (٤/ ١٩٧أ)، شرح ابن يعيش (١/ ٦٤)، تمهيد القواعد ص٣٩٧٣.

(٥) انظر: شرح الرضي (١/ ١٦١)، توضيح المقاصد ص١٢٠٢، شرح الأشموني (٣/ ٤٥٠).

(٦) انظر: الكتاب (٢/ ٢٦٧-٢٦٨)، شرح الإيضاح للعُكبري ص١٦٢٠، التذييل والتكميل (٥/ ٥٢ب)، المساعد (٣/ ١٧)، تمهيد القواعد (٨/ ٣٩٩٣-٣٩٩٤)، الهمع (١/ ١٠٩).

(٧) انظر: المقاصد الشافية (٥/ ٦٢٠).

(٨) سورة غافر، آية (١).

(٩) انظر القراءة في: إعراب القرآن للنحاس (٤/ ٢٥)، إعراب القراءات لابن خالويه (٢/ ٢٦٠)، مشكل إعراب القرآن (٢/ ٢٦٣).

حَمَ [1].ومُنع من الصرف تشبيهًا له بنحو: "هابيل" و"قابيل" في الوزن [2]، وعدم لحاق الألف واللام [3]؛ لأنه ليس في العربية وزن "فاعيل"[4]. هذا إنْ قيل: إنَّه اسم من أسماء الله تعالى أو اسم للقرآن [5]. فإنْ جُعِلَ اسمًا للسورة فإنه يُمنع من الصرف للعلمية والتأنيث [6].

وقيل: إنَّ حركتَه حركةُ بناءٍ لالتقاء الساكنين كـ"أينَ" و"كَيْفَ"، واختير الفتح لكونه أخف الحركات [7].

٢٣. منع صرف العلم المختوم بألف الإلحاق المقصورة:

ألف الإلحاق المقصورة تَمنعُ من الصرف مع العلمية؛ لشبهها بألف التأنيث من وجهين[8]:

أحدهما: أنها زائدة ليست مبدلةً من شيءٍ، كنظيرتها من ألف التأنيث.

الثاني: أنَّها تقع في مثالٍ صالحٍ لألف التأنيث، نحو: "عَلْقَى"، فهو على مثال "سَكْرَى"، و"عِزْهَى" على وزن "ذِكْرَى".

٢٤. منع صرف العلَم المختوم بألف التكثير:

ما فيه ألف التكثير إذا سُمِّي به منع الصرف، نحو: "قَبَعْثَرى"؛ لشبه ألف التكثير بألف التأنيث المقصورة من حيث إنها زائدة في الآخِرِ غير منقلبة، ولا تدخل عليها تاء التأنيث، كما أنَّ ألف التأنيث كذلك [9].

٢٥. الجزم بـ"مَنْ" الموصولة:

قرأ قُنْبل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِي وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [10] بإثبات الياء في"

---

(١) انظر مصادر الحاشية السابقة.

(٢) انظر: الكتاب (٣/ ٢٥٧)، المخصص (١٧/ ٣٧)، الكشاف (٥/ ٣٢٧)، الفريد في إعراب القرآن المجيد (٤/ ٢٠٤).

(٣) انظر: شرح الكافية الشافية ص١٤٩٥، شرح الألفية لابن الناظم ص٦٥٤.

(٤) انظر: المخصص (١٧/ ٣٧)، البحر المحيط (٧/ ٤٣٠)، الدر المصون (٦/ ٢٧).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٢٧٤-٢٧٥)، تفسير السمرقندي (٣/ ١٨٩)، تفسير الثعلبي (١/ ١٣٦)، النكت والعيون (٢/ ٤٢٠).

(٦) انظر: مشكل إعراب القرآن (٢/ ٢٦٣)، مفاتيح الغيب (٢٧/ ٢٣)، الفريد (٤/ ٢٠٤).

(٧) انظر: الكشاف (٥/ ٣٢٧)، البحر المحيط (٧/ ٤٢٩)، الدرالمصون (٦/ ٢٧).

(٨) انظر: شرح الكافية الشافية ص١٤٩٤-١٤٩٥، توضيح المقاصد ص١٢١٤-١٢١٥، المساعد (٣/ ١٦)، تمهيد القواعد ص٣٩٩٢، التصريح (٤/ ٢٥٤)، الهمع (١/ ١٠٨).

(٩) انظر: التذييل والتكميل (٥/ ٥٢ب)، تمهيد القواعد ص٣٩٩٣، الهمع (١/ ١٠٨-١٠٩).

(١٠) سورة يوسف، من الآية (٩٠).

يَتَّقِي" وصلاً ووقفًا [1]، فقيل: إنه جعل "مَنْ" موصولة، فالفعل على هذا مرفوعٌ، وجزم "وَيَصْبِرْ" مراعاةً للشبه اللفظي بين "مَنْ" الموصولة والشرطية [2].

وقيل: حذف الضمة من "وَيَصْبِرْ" لئلا تتوالى الحركات، وإن كان ذلك من كلمتين [3].

وقيل: إنه نوى الوقف عليه وأجرى الوصل مجرى الوقف [4].

وذهب بعضهم إلى أنَّ "مَنْ" في الآية شرطية، و"يَتَّقِي" مجزوم على لغة مَن يُجري الفعل المعتل مجرى الصحيح، فيقول: "لم يأتي زيدٌ" [5].

وقيل: إنه أشبع كسرة القاف فنشأت الياء [6].

والأحسن من هذه الأقوال أن يكون "يَتَّقِي" مجزومًا على لغة بعض العرب وإنْ كانت قليلة؛ لأن رؤساء النحويين قد نقلوا هذه اللغة [7].

٢٦. إضافة نيف العشرة إليها:

حُكِيَ عن الكوفيين جواز إضافة نيف العشرة إليها [8]؛ تشبيهًا لهما بالمضاف والمضاف إليه حقيقة [9]، واستدلوا على ذلك بقول الشاعر:

كُلِّفَ مِنْ عَنَائِهِ وَشِقْوَتِهْ
بِنْتَ ثَمَانِي عَشْرَةٍ مِنْ حِجَّتِهْ [10]

وظاهر كلام الفراء في "معاني القرآن" [11] جواز ذلك في الشعر. هذا إنْ لم تُضف العشرة إلى شيءٍ آخر، فإن أُضيفت فظاهر كلامه جواز ذلك في النثر [12].

---

(١) انظر القراءة في: السبعة ص٣٥١، التيسير ص١٣١، الإقناع ص٦٧٤.

(٢) انظر: الدر المصون (٤/ ٢١٢).

(٣) انظر: التبيان في إعراب القرآن ص٧٤٤، البحر المحيط (٥/ ٣٣٨).

(٤) انظر المصدرين السابقين.

(٥) انظر: الحجة في القراءات السبع ص١٩٨، الفريد في إعراب القرآن المجيد (٣/ ٩٧)، إبراز المعاني ص٣١٣.

(٦) انظر المصادر السابقة.

(٧) انظر: البحر المحيط (٥/ ٣٣٨).

(٨) انظر: الإنصاف ص٣٠٩ المسألة (٤٢)، التبيين ص٤٣٢ المسألة (٧٥)، شرح الجُمل لابن عصفور (٢/ ٣٣)، النكت الحسان ص١٦٨، أوضح المسالك (٤/ ٢٥٩)، المساعد (٢/ ٧٨).

(٩) انظر: شرح الرضي (٢/ ٢٥٩).

(١٠) من الرجز، سبق تخريجهما.

(١١) انظر: (٢/ ٣٤).

(١٢) انظر: معاني القرآن (٢/ ٣٣-٣٤).

ومذهب البصريين عدم جواز ذلك [1]؛ لأن الاسمين هنا قد جُعلا بمنزلة اسمٍ واحد، فإذا أضفت النيف إلى العشرة فكأنك أضفت الاسم الواحد بعضَه إلى بعض، وهذا لا يجوز [2].

وقد أجاب البصريون ومَن وافقهم عن البيت بأنه لا يُعرف قائله [3]، وإنْ عُرف قائله فإنه يقال: إنَّما صرفه لضرورة الشعر، وردَّه إلى الجر لأنه جعل "ثماني عشرة" بمنزلة اسمٍ واحد، وأضاف إليه "بنت"، وهم إذا صرفوا الاسم للضرورة ردُّوه إلى أصله [4].

والذي أراه عدم جواز إضافة النيف إلى العشرة؛ لأنه مركَّب، والتركيب يُنافي الإضافة؛ لأن التركيب أنْ يُجعل الاسمان اسمًا واحدًا، فيدلان على مسمًّى واحد، بخلاف الإضافة، فإنَّ المضاف يدل على مسمًّى، والمضاف إليه يدلُّ على مسمّى آخَر؛ لذا امتنعت إضافة النيف إلى العشرة؛ لاستحالة المعنى [5]، ولأنَّه لا معنى لهذه الإضافة؛ لأن الإضافة المحضة إما أنْ تكون على معنى اللام أو معنى "من"، ولا يُتصوَّر معنى ذلك في النيف؛ لأنه ليس للعشرة ولا منها، بل هو زيادةٌ عليها [6].

٢٧. حذف الألف والنون من "خُراسان" في النسب:

قالوا في النسب إلى "خُراسان": خُراسِيّ [7]، شبهوا الألف والنون في آخره بزيادتي التثنية فحذفوهما لذلك [8].

والقياس أنْ يُقال: "خُرَاسَانِيٌّ" [9]، كما يُقال في النسب إلى "نَبْهان" و"أَصْبَهان": "نَبْهانيّ" و"أَصْبَهانيّ".

٢٨. قلب الهمزة الأصلية واوًا في النسب:

إنْ كانت همزة الاسم الممدود أصلية فالمشهور أن تسلم من القلب عند النسبة إليه، فيُقال في "قُرَّاء": "قُرَّائي"، لكن حكي "قُرَّاوي" [10]. قال ابن جني: " شبَّهوا همزتَه بهمزة

---

(١) انظر: المخصص (٤/ ٩٢)، الإنصاف ص٣٠٩.

(٢) انظر: الإنصاف ص٣١٠.

(٣) انظر: المخصص (٤/ ٩٢)، الإنصاف ص٣١٠، التبيين ص٤٣٣.

(٤) انظر: الإنصاف ص٣١٠-٣١١، ائتلاف النصرة ص٤٣.

(٥) انظر: الإنصاف ص٣١٢، ائتلاف النصرة ص٤٣.

(٦) انظر: التذييل والتكميل (٣/ ١٢٤أ)، الهمع (٣/ ٢٢٠).

(٧) انظر: العين (٤/ ١٩٥) "خرس"، الكتاب (٣/ ٣٣٦)، شرح الشافية للرضي (٢/ ٨٣).

(٨) انظر: شرح ابن يعيش (٦/ ١٢)، المقاصد الشافية (٧/ ٥٩٩).

(٩) انظر: الكتاب (٣/ ٣٣٦)، الممتع ص٦٧٧، الإقليد ص١٢٥٩.

(١٠) انظر: الكتاب (٣/ ٣٥١-٣٥٢)، المقتضب (٣/ ١٤٩)، التسهيل ص٢٦١، التصريح (٥/ ٢٠٦).

"كساء" من حيث كانت أصلاً غير زائدة، كما أن همزة "كساء" غير زائدة"[1].

٢٩. قلب همزة الإلحاق واوًا في النسب:

يجوز في الاسم المختوم بهمزة الإلحاق عند النسبة إليه تصحيحُ الهمزة وقلبها واوًا، والقلب أرجح [2]، نحو: "علباوي" و"علبائي"، وإنما جاز قلبُها واوًا تشبيهًا لها بهمزة التأنيث في الصورة والزيادة [3].

٣٠. قلب الهمزة المنقلبة عن حرفٍ أصلي واوًا في النسب:

إن كان الاسمُ الممدود مختومًا بهمزة بدلٍ من أصل فيجوز عند النسبة إليه تصحيحُ الهمزة

وقلبُها واوًا، والتصحيح هو الغالب [4]، نحو: كسائي وكساوي، وجاز قلبُ همزته واوًا حملاً على همزة "علباء"؛ لشبهها بها في الصورة ومقابلة الأصل [5].

٣١. حذف عجز المركب الإسنادي في النسب:

إذا نُسِبَ إلى المركب الإسنادي فإنه يحذف عجزه تشبيهًا له بتاء التأنيث [6]، فيقال في النسب إلى "تَأَبَّطَ شَرًّا": تَأَبَّطِي. ووجه الشبه أنَّ آخر الاسم الأول في المركب الإسنادي يُبنى على الفتح كما يُبنى على الفتح ما قبل تاء التأنيث، نحو: حمزَة، لذا وجب أن يَجْرِي مجرى ما فيه تاء التأنيث في النسب إلى الصدر بعد حذف التاء [7].

وشبهه أبو حيان بالمركب المزجي، قال: " وكان يقتضي القياس أنَّ الجملة لا ينسب إليها كما أنها لا تثنى ولا تجمع ولا تعرب ولا تضاف ولا تصغر، وإنما جاز النسب إلى الصدر

---

(١) الخصائص (١/ ٢١٤). وانظر: علل النحو لأبي الحسن الوراق ص٥٤٠-٥٤١، شرح المفصل لابن يعيش (٥/ ١٥٦)، شرح الشافية لركن الدين الإستراباذي ص٣٩٦، المقاصد الشافية (٧/ ٥١٠).

(٢) انظر: المقتضب (٣/ ١٤٩)، علل النحو لأبي لحسن الوراق ص٥٤٠، شرح الشافية للرضي (٢/ ٥٥-٥٦)، المقاصد الشافية (٧/ ٥٠٨).

(٣) انظر: الخصائص (١/ ٢١٤)، المقتصد في شرح التكملة (١/ ٢١١)، شرح المفصل لابن يعيش (٥/ ١٥٦)، شرح الشافية لركن الدين الإستراباذي ص٣٩٦، المقاصد الشافية (٧/ ٥١٠).

(٤) انظر: المقتصد في شرح التكملة ص٢١١، البيان في شرح اللمع ص٦٣٠، الإقليد ص١٢٣٧.

(٥) انظر: الخصائص (١/ ٢١٤)، شرح المفصل لابن يعيش (٥/ ١٥٦)، المقاصد الشافية (٧/ ٥١٠).

(٦) انظر: الإيضاح في شرح المفصل (١/ ٦٠٢)، الصفوة الصفية (٢/ ٤٧٨)، التصريح (٥/ ٢٠٧)، الهمع (٣/ ٣٥٦)، المناهج الكافية ص٢٥٣.

(٧) انظر: التبصرة والتذكرة ص٦٠٢.

منها تشبيهًا لها بالمركب تركيب المزج "[١].

وشبهه الشاطبي بالمضاف؛ لأنه عاملٌ فيما بعده، كما أن المضاف عاملٌ فيما بعده [٢].

٣٢. حذف عجز المركب المزجي في النسب:

إذا أُريدَ النسب إلى المركب المزجي فإنه يحذف عجزه ويُنسب إلى صدره، فيقال في النسب إلى "بعلبك": بَعْلِيٌّ. وإنما حذف عجزه تشبيهًا له بتاء التأنيث، هذا عند الخليل [٣].

قال الشاطبي: " ووجه التشبيه أن كل واحد منهما -أعني من العجز والتاء- ليست الكلمة مبنية عليه، ألا ترى أنه لا يتوالى في اسم واحد أربع متحركات، وتتوالى مع التاء كشجرة، ومع العجز كشَغَرَ بَغَرَ، وأيضًا فلا يكون اسمٌ على أكثر من سبعة أحرف ويكون ثمانية بتاء التأنيث كاشهيبابة، وكذلك بالعجز، نحو: أيادي سبا، فلما كانا على هذا النحو حذف العجز كما حذفت التاء "[٤].

وشبّهه سيبويه بالمضاف والمضاف إليه، حيث كان من شيئين ضُمَّ أحدهما إلى الآخر، وليس بزيادة في الأول، كما أنَّ المضاف إليه ليس بزيادة في الأول المضاف [٥].

٣٣. ضم هاء السكت:

حق هاء السكت أن تكون ساكنة؛ لأنها موضوعة للوقف، والوقف مقتضاه السكون [٦].

وقد ورد ضمها في قول عروة بن حزام العذري:

يا مَرْحَبَاهُ بِحِمَارِ عَفْراءْ [٧]

وقول مجنون ليلى:

فقُلْتُ أيا رَبَّاهُ أوَّلُ سُؤْلَتي ... لِنَفْسِيَ لَيْلَى ثمَّ أنْتَ حَسِيبُها [٨]

---

(١) التذييل والتكميل (٥/ ٢٥١أ).

(٢) انظر: المقاصد الشافية (٧/ ٥١٥).

(٣) انظر: الكتاب (٣/ ٣٧٤).

(٤) المقاصد الشافية (٧/ ٥١٦-٥١٧). وانظر: اللباب (١/ ٥١٨)، المساعد (٣/ ١٧)، تمهيد القواعد (٨/ ٣٩٩٣-٣٩٩٤)، الهمع (١/ ١٠٩).

(٥) انظر: الكتاب (٣/ ٣٧٤).

(٦) انظر: شرح ابن يعيش (٩/ ٤٦)، الإقليد ص١٨٧٧، شرح لباب الإعراب ص٦٤٦.

(٧) من الرجز، وقد ورد منسوبًا إليه في: شرح ابن يعيش (٩/ ٤٦)، الخزانة (١١/ ٤٥٨). وبلا نسبة في: إصلاح المنطق ص٩٢، الحلل ص٨٤ و٢٢٧، شرح أبيات المفصل والمتوسط ص٦٣٧.

(٨) من الطويل، وراوية الديوان: "وناديت يا رحمن"، ولا شاهد فيه على هذه الرواية. انظر: ديوانه ص٦٧، الشعر والشعراء ص٣٨٢، الزاهر (١/ ٦)، الدرر (٦/ ٢٤٩-٢٥٠).

فقيل: هو من إجراء الوصل مجرى الوقف مع تشبيه هاء السكت بهاء الضمير [١].

وظاهر كلام الفراء في معاني القرآن [٢] جواز ذلك. وعزا بعض النحويين الجواز إلى الكوفيين [٣]. ومذهب البصريين عدم جواز ذلك إلا في الضرورة [٤]. وهو عند الزمخشري[٥] والإسفراييني[٦] لَحْنٌ.

وورود تحريكها بالضم -أيضًا- تشبيهًا لها بهاء الضمير في: ياهناهُ وأخواته عند من يرى أنّها هاء السكت [٧]، كقول امرئ القيس:

وَقَدْ رَابَنِي قَوْلُهَا يَا هَنَا ... هُ وَيْحَكَ أَلْحَقْتَ شَرًّا بِشَرْ [٨]

قال ابن مالك: " ومنه: يا هناهِ -بالكسر والضم- والأصل السكون؛ لأنها هاء السكت، لكنها أجري الوصل بها وبأشباهها مجرى الوقف في الثبوت، فحركت لسكونها في الأصل وسكون ما قبلها، فمن حركها بالضم شبهها بهاء الضمير، ومن حركها بالكسر فعلى أصل التقاء الساكنين" [٩].

٣٣. إبدال هاء السكت تاء:

قال أبو وَجْزَةَ السَّعْدِي:

العَاطِفُوْنَةَ حِيْنَ مَا مِنْ عَاطِفٍ ... والمُطْعِمُوْنَ زَمَانَ أَيْنَ المُطْعِمُ؟ [١٠]

ذكر أبو علي الفارسي [١١] وابن جني [١٢] أنه أراد: "العاطفونهْ" بهاء السكت لبيان حركة النون، ثم أثبتها وأبدلها تاء تشبيهًا لها بتاء التأنيث [١٣]، وفتحت كما فتحت التاء في "رُبَّتَ"

---

(١) انظر: المفصل ص٤٦٢، شرح الرضي (٢/ ١٤٥٩)، التصريح (٤/ ٨٩).

(٢) انظر: (٢/ ٤٢٢).

(٣) انظر: شرح الجمل لابن عصفور (٢/ ١٣٠)، شرح الرضي (٢/ ٥٠٢).

(٤) انظر: الارتشاف ص٢٢٢٠، الخزانة (١١/ ٤٥٧)، موارد البصائر ص١٢٤.

(٥) انظر: المفصل ٤٦١.

(٦) انظر: لباب الإعراب ص٤٧٣.

(٧) انظر: المنصف (٣/ ١٤٢)، الارتشاف ٢٢٠٩-٢٢١٠، المساعد (٢/ ٥٢٣-٥٢٤).

(٨) من المتقارب وهو في: ديوانه ص١٦٠، سر الصناعة ص٦٦و٥٦٠، اللباب (٢/ ٣٤٤)، شرح ابن يعيش (١٠/ ٤٣).

(٩) شرح التسهيل (٣/ ٤٠٨).

(١٠) من الكامل، وقد جاء منسوبًا إليه في: إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٤٥٢)، الأزهية ص٢٦٤، المخصص (١٦/ ١١٩)، الإنصاف ص١٠٨، اللسان (٢/ ٨٧) "ليت".

(١١) انظر: المسائل المنثورة ص١١٣-١١٤، البصريات (١/ ٦٠٥-٦٠٦).

(١٢) انظر: سر الصناعة ص١٦٢-١٦٦.

(١٣) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٤٥٣)، الجنى الداني ص٤٨٧.

و"ثَمَّتَ"، ولا يخفى ما في هذا القول من التعسف.

وذكر ابن مالك أنَّه أراد: همر العاطفون حين لات حين ما من عاطف، فحذف "حين" مع "لا"[1].

وضُعِّفَ بأنَّه تخريجٌ لا يُتَعَقَّلُ؛ لأنَّه يكون المعنى: هم العاطفون وقتَ ليس الحينُ حينَ ليسَ ثَمَّ عَاطَفٍ[2]. وضُعِّف -أيضًا- بأنَّ فيه حذف الحرف الناسخ وبقاء معموله، وبأنَّ فيه إجحافًا بحذف شيئين[3].

وذهب أبو عبيد[4] وابن الطراوة[5] إلى أنَّ التاء زائدة على لفظ "الحين".

قال الرضي: " وفيه ضعف؛ لعدم شهرة "تحين" في اللغات واشتهار "لات حين"، وأيضًا فإنهم يقولون: لات أوان، ولات هنا، ولا يقال: تأوان، ولا: تهنا "[6].

والذي أراه أنَّ تخريج هذا البيت على زيادة التاء أسهل وأقل كلفة من غيره؛ لأنه قد سمع زيادتها مع لفظ "الحين" و"الآن"[7] وإن كانت زيادتها هنا غير مطردة.

٣٤. إثبات ألف "ما" الاستفهامية المجرورة:

قد تحمل "ما" الاستفهامية المجرورة على الخبرية فتثبت ألفها، وهذا لمجرد الشبه اللفظي[8]،كقراءة بعضهم[9]: ﴿ عَمَّا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[10]. وخرَّج عليه بعضهم[11] قوله-تعالى-: ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى ﴾[12]، وقوله -سبحانه-: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ

---

(١) انظر: شرح التسهيل (١/ ٣٧٨).

(٢) انظر: التذييل والتكميل (٤/ ٢٩٧)، تمهيد القواعد (٣/ ١٢٢٩).

(٣) انظر: تعليق الفرائد (٣/ ٢٦١).

(٤) انظر: غريب الحديث (٤/ ٢٥٠-٢٥١)، وانظر: الإنصاف ص١٠٨، شرح الرضي (١/ ٨٦٩)، اللسان (٢/ ٨٧) "ليت".

(٥) انظر: الجنى الداني ص٤٨٦، مغني اللبيب (٣/ ٣٥٨)، التصريح (١/ ٦٦٠)، الهمع (١/ ٣٩٩).

(٦) شرح الكافية (١/ ٨٦٩).

(٧) انظر: سر الصناعة ص١٦٦، المخصص (١٦/ ١١٩)، الإنصاف ص١٠٨، الممتع (١/ ٢٧٣).

(٨) انظر: الدر المصون (١/ ٣٠٤).

(٩) هي قراءة عبدالله بن مسعود وأبيٍّ وعكرمة وعيسى بن عمر. انظر: المحتسب (٢/ ٣٤٧)، الكشاف (٦/ ٢٩٣)، البحر المحيط (٨/ ٤٠٢).

(١٠) سورة النبأ، الآية (١).

(١١) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٧٤)، الكشاف (٢/ ٤٢٩)، الفريد في إعراب القرآن المجيد (٢/ ٢٧٧).

(١٢) سورة يس، الآيتان (٢٦)و(٢٧).

﴿لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1]. ومنه -أيضًا- قول حسان:

عَلَى مَا قَامَ يَشْتِمُنِي لَئِيمٌ   كخنزيرٍ تَمَرَّغَ في رَمَادِ[2]

وقول كعب بن مالك:

أَنَّا قَتَلْنَا بِقَتْلانَا سَرَاتَكُمُ   أَهْلَ اللِّوَاءِ فَفِيمَا يَكْثُرُ القِيلُ[3]

وفي إثبات ألفها إذا كانت مجرورة خلاف، فذهب جماعة منهم ابن هشام[4] والسيوطي[5] والأشموني[6] إلى عدم جواز إثباتها. ونَقَلَ السمين الحلبي هذا المذهب عن البصريين[7]. وذهب بعضهم إلى أنَّ إثباتها خاصٌ بالشعر[8].

وقد عُلِّل وجوب الحذف بأمورٍ، منها:

١- أنَّهم حذفوا ألفها للفرق بينها وبين "ما" الخبرية، ولم يعكسوا فيحذفوا في الخبرية ويثبتوا في الاستفهامية؛ لأن ألف الاستفهامية متطرفة لفظًا وتقديرًا، بخلاف ألف الخبرية، فإنَّها ليست بمتطرفة تقديرًا؛ لأنَّها في حشو الصلة والشرط[9].

٢- أنَّهم حذفوها تخفيفًا لكثرة الاستعمال[10].

٣- أنَّهم حذفوها للإيهام أنّ الاستفهامَ غيرُ منحطٍّ عن رتبة الصدر[11].

وذهب الفراء[12] والزجاج[13] وعبد القاهر الجرجاني[14] والفالي[15] إلى أنَّ إثباتها جائزٌ.

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٦).

(٢) سبق تخريجه في ص٥.

(٣) سبق تخريجه في ص٥.

(٤) انظر: أوضح المسالك (٤/ ٣٤٩)، المغني (٤/ ١٩).

(٥) انظر: الهمع (٣/ ٤٢٠).

(٦) انظر: شرح الأشموني لألفية ابن مالك (٤/ ٣٦٩).

(٧) انظر: الدر المصون (٥/ ٤٨٠).

(٨) انظر: التكملة ص٢١٦، مشكل إعراب القرآن (٢/ ٤٤٩)، البيان في غريب إعراب القرآن (٢/ ٢٩٣)، شرح المفصل (٤/ ٩).

(٩) انظر: شرح المفصل (٤/ ٩)، مغني اللبيب (٤/ ٢٠)، التصريح (٥/ ٢٦٧).

(١٠) انظر: إيضاح شواهد الإيضاح (١/ ٣٢٨)، المساعد (٤/ ٢٠١).

(١١) انظر: التخمير (٢/ ٢٠٩).

(١٢) انظر: معاني القرآن (٢/ ٢٩٢، ٣٧٤).

(١٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٤/ ٢٨٣).

(١٤) انظر: المقتصد في شرح التكملة ص٨٨.

(١٥) انظر: شرح لباب الإعراب ص١٢٩.

وحجة هؤلاء السماع ومنه الشواهد السابقة.

وقيل: إنَّ إثباتها لغة لبعض العرب [١].

قال البغدادي: " وإذا ثبت أنَّ هذا لغة لبعض العرب لم يكن إثبات الألف نادرًا ولا ضرورة " [٢].

وفرَّقَ الشاطبي بين المجرورة بالحرف والمجرورة بالاسم، فذكر أنَّ حذف ألفها واجب إذا جُرَّت بالحرف، أما المجرورة بالاسم فليس حذف الألف بلازم منها، بل يجوز أن تقول: مجيء ما جئت؟[٣]. وهو ظاهر كلام سيبويه [٤].

قال الشاطبي: " وإنما كان الحذف هنا غير لازم، ولازمًا في المجرور بحرف؛ لأن الحرف لا يستقل بنفسه دون أن يتصل بغيره، فصار مع "ما" كالشيء الواحد، فصار اعتماد "ما" على ما اتصلت به من ذلك الحرف ثابتًا، فلزم فيها الحذف للفرق المذكور، وأما الاسم إذا كان هو الجار فليس بمفتقرٍ إلى ما بعده افتقار الحرف، بل هو مستقلٌ بنفسه، فلم يكن لـ"ما" معه ذلك الاتصال، لكن شبهوه بالحرف فحذفوا معه كما حذفوا مع الحرف، والمشبه لا يقوى قوة المشبّه به، فلم يكن هذا الحذف لازمًا مع الاسم كما لزم مع الحرف؛ لئلا يتساوى المشبه والمشبه به " [٥].

والذي أراه عدم جواز إثباتها؛ لأن السماع لا يعضده، فالحذف هو المعروف في الكلام، أما قراءة بعضهم: ﴿ عَمَّا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فمن النادر الذي يُلتفت إليه ولا يعرج عليه [٦].

أما قوله -تعالى-:﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى ﴾ ، وقوله -سبحانه-:﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾،فلا حجة لهم فيهما؛ لأن "ما" فيهما مصدرية وليست استفهامية [٧]، ولئن سلمنا أنها استفهامية فإن ذلك يؤدي إلى حمل القراءة المتواترة على القليل، وذلك لا يجوز [٨]؛ لأن المشهور حذف ألفها طلبًا للتخفيف، فهو لفظٌ كثير التداول على اللسان.

---

(١) انظر: أمالي ابن الشجري (٢/ ٥٤٦)، الارتشاف ص٢٤٩، المساعد (٤/ ٢٠١)، الهمع (٣/ ٤٢٠).

(٢) الخزانة (٦/ ١٠٠).

(٣) انظر: المقاصد الشافية (٨/ ٩٦).

(٤) انظر: الكتاب (٤/ ١٦٥).

(٥) المقاصد الشافية (٨/ ٩٦-٩٧).

(٦) انظر: مغني اللبيب (٤/ ٢١).

(٧) انظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد (٢/ ٣١٦)، البحر المحيط (٧/ ٣١٦)، الدر المصون (٣/ ٢٤١).

(٨) انظر: مغني اللبيب (٤/ ٢٣).

ولا حجة لهم -أيضًا- في البيتين؛ لأن رواية الديوان: "ففيم تقول يشتمني"[1]، و"ففيم يكثر"[2]، ولا شاهد فيهما بناء على هاتين الروايتين.

٣٥. حذف ألف "ما" الموصولة المجرورة بحرف:

حكى أبو زيد أنَّ كثيرًا من العرب يقولون: سَلْ عَمَّ شِئْتَ [3]، بحذف ألف "ما" الموصولة حملاً على الاستفهامية. قال السمين الحلبي: " وهذا لمجرد الشَّبَهِ اللفظي "[4]. ولا يحذف ألفها إلا مع "شئت" خاصةً [5].

قال أبو حيان: " وهذا شاذٌّ عندي " [6]. وقال البغدادي: " والمشهور أنَّ ألفها يثبت مطلقًا، سواء استعملت مع شئت أم غيرها "[7].

والذي أراه جواز حذف ألفها إن كانت موصولة بـ"شئت" وإن كان الإثبات هو الأكثر؛ لأمور:

أحدهما: أنَّ الحذف لغة كثير من العرب كما ذكر أبو زيد [8].

الثاني: أنَّ الذي دعاهم إلى الحذف كثرة الاستعمال، فحذفوا الألف منه طلبًا للتخفيف، وهو مسوغ كافٍ لجواز ذلك؛ لأنهم لما كثر استعمالهم إيَّاه أشَدُّ تغييرًا كما ذكر ابن جني [9].

الثالث: ورود شواهد تدل على جواز ذلك، كحديث عمرو بن عبسة ﷺ: " .... قال: فَسَلْ عَمَّ شئت، قلت: أي الليل أسمع .... " [10]، وحديث معاذ بن جبل ﷺ: ".... فقال نبي الله ﷺ: سلني عَمَّ شئت .... " [11]، وحديث عدي بن حاتم ﷺ: " ....فقال: امر الدم بم شئت واذكر

---

(١) انظر: ديوان حسان (١/ ٢٥٨).

(٢) انظر: ديوان كعب ص٨٣.

(٣) انظر: الارتشاف ص١٠٣٠، توضيح المقاصد ص١٤٨٥، الهمع (٣/ ٤٢١)، شرح الأشموني (٤/ ٣٧٠).

(٤) الدر المصون (١/ ٣٠٤).

(٥) انظر: أدب الكاتب ص٢٣٤، الإنصاف ص٥٧٤.

(٦) الارتشاف ص١٠٣٠.

(٧) الخزانة (٦/ ١٠٢).

(٨) انظر: توضيح المقاصد ص١٤٨٥، الهمع (٣/ ٤٢١)، شرح الأشموني (٤/ ٣٧٠).

(٩) انظر: سر الصناعة ص٥٤٣.

(١٠) المستدرك على الصحيحين، كتاب الطهارة (١/ ٢٦٩) ح(٥٨٤).

(١١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٥/ ٢٤٥) ح(٢٢١٧٥).

اسم الله عز وجل"[1].

٣٦. كسر واو الجمع لالتقاء الساكنين:

إذا كان أول الساكنين واو الجمع فالمختار ضمها [2]، كقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ [3]، وقرأ يحيى بن يَعْمَر وابن أبي إسحاق: ﴿ اِشۡتَرَوِاْ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾ بكسر الواو[4] تشبيهًا لها بواو "لو" [5].

٣٧. ضم واو "لو" للتخلص من التقاء الساكنين:

إذا كان أوّل الساكنين واو "لو" فالمختار كسرها؛ لأنه الأصل [6]، كقراءة الجمهور [7] ﴿ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ ﴾ [8]. وقرأ الأعمش وزيد بن علي بضم الواو[9]، فقيل: كأنّهم فرّوا من ثقل الكسرة على الواو فشبهوها بواو الجمع في "اخشوا الرجل" ونحوه، حيث كانت ساكنة مفتوحًا ما قبلها [10].

٣٨. إمالة ألف "لكن":

ذهب الفراء إلى جواز إمالة ألف "لكن" تشبيهًا لألفها بألف فاعل [11].

والصحيح عدم جواز ذلك، وهو مذهب الجمهور [12]؛ لأنه لم تسمع فيها الإمالة [13]، ولأن

---

(١) المستدرك على الصحيحين، كتاب الذبائح (٤/ ٢٦٧) ح(٧٦٠٠).

(٢) انظر: الإيضاح في شرح المفصل (٢/ ٣٦١-٣٦١)، شرح الكافية الشافية ص٢٠١٠، تمهيد القواعد (٩/ ٤٦٦٨)، الهمع (٣/ ٣٧٥).

(٣) سورة البقرة، من الآية (١٦).

(٤) انظر القراءة في: إعراب القرآن للنحاس (١/ ١٩٢)، تفسير الثعلبي (١/ ١٥٩)، المحرر الوجيز (١/ ١٣٠)، تفسير القرطبي (١/ ٢١٠).

(٥) انظر: المحتسب (١/ ٥٥،٢٩٢)، شرح ابن يعيش (٩/ ١٢٥)، الفريد في إعراب القرآن المجيد (٢/ ٤٧٢-٤٧٣)، شرح الشافية للرضي (٢/ ٢٤٣)، الدر المصون (٣/ ٤٦٧).

(٦) انظر: شرح ابن يعيش (٩/ ١٢٥)، الإيضاح في شرح المفصل (٢/ ٣٦٢)، شرح الكافية الشافية ص٢٠١٠، شرح الشافية للرضي (٢/ ٢٤٣)، الهمع (٣/ ٣٧٥).

(٧) انظر: التبيان في إعراب القرآن ص٦٤٥، الفريد في إعراب القرآن المجيد (٢/ ٤٧٢).

(٨) سورة التوبة، من الآية (٤٢).

(٩) سبق تخريج .

(١٠) انظر: الكتاب (٤/ ١٥٥)، الكشاف (٣/ ٤٨)، البحر المحيط (٥/ ٤٧)، الدر المصون (٣/ ٤٦٧).

(١١) انظر: التذييل والتكميل (٦/ ٢٤٨ب)، الارتشاف ص٥٣٨، الهمع (٣/ ٣٨٥).

(١٢) انظر: الارتشاف ص٥٣٨.

(١٣) انظر: التذييل والتكميل (٦/ ٢٤٨ب).

الإمالة نوعٌ من أنواع التصرف في الكلمة، فإن الألف تصير كالمقلوبة إلى الياء، والقلب تَصَرُّفٌ، والتصرف غير داخل في الحروف [١]. وما أميل منها فإن ذلك فيها على طريقة الشذوذ، فلا يتعدى مَوْرِد السماع [٢].

٣٩. إمالة الفتحة قبل هاء السكت:

ذهب ثعلب وابن الأنباري إلى جواز إمالة الفتحة قبل هاء السكت[٣]،نحو:﴿ مَالِيَهْ ﴾[٤]. وبه قرأ أبو مزاحم الخاقاني في قراءة الكسائي [٥]. قال أبو الحسن بن الباذش: " ووجه إمالة ما قبل هاء السكت الشَّبه اللفظي الذي بينها وبين هاء التأنيث "[٦].

قال الداني: " وقد بلغني أن قومًا من أهل الأداء منهم أبو مزاحم الخاقاني وغيره كانوا يجرونها مجرى هاء التأنيث في الإمالة في مذهب الكسائي، وذلك عند أهل الأداء غلطٌ فاحش، وخطأ بَيِّن "[٧].

والصحيح المنع؛ لأنَّ سبب إمالة الفتحة قبل هاء التأنيث هو شبهها بألف التأنيث المقصورة لاشتراكهما في معنى التأنيث [٨]، وهاء السكت لا تأنيث فيها؛ ولأن فائدة هاء السكت بيان الفتحة التي قبلها [٩]، ففي إمالتها مخالفة للحكمة التي من أجلها اجتلبت هاء السكت.

٤٠. همز "معايش" ونحوه ممَّا مدته أصليةٌ في المفرد:

إذا وقعت الواو والياء بعد ألف جمع يُشاكل "مفاعل" فالوجه تصحيحهما إن كانتا مَدَّتين غير زائدتين في المفرد، نحو: معايش ومصاوب ومعاون [١٠]. وعلى ذلك قراءة

---

(١) انظر: التخمير (٤/ ٢١٣-٢١٤)، شرح المفصل لابن يعيش (٩/ ٦٥)، المقاصد الشافية (٨/ ٢٠٠).

(٢) انظر: التذييل والتكميل (٦/ ٢٤٨ب)، الهمع (٣/ ٣٨٥).

(٣) انظر: التذييل والتكميل (٦/ ٢٤٨ب)، توضيح المقاصد ص١٠٥٦، المقاصد الشافية (٨/ ٢١٤)، الهمع (٣/ ٣٨٣).

(٤) سورة الحاقة، من الآية (٢٨).

(٥) انظر: الإقناع (١/ ٣١٩)، إبراز المعاني ص٢٤٢، التصريح (٥/ ٣٠٠).

(٦) الإقناع (١/ ٣٢٠).

(٧) أحكام الفتح والإمالة (١٣٨أ).

(٨) انظر: المقاصد الشافية (٨/ ٢١٤)، الكفاية ٣٦٧-٣٦٨، المناهج الكافية ص٤٢٧-٤٢٨.

(٩) انظر: اللباب (٢/ ٢٠٨)، رصف المباني ص٣٩٩، الجنى الداني ص١٥٢.

(١٠) انظر: الكتاب (٤/ ٣٥٦)، المنصف (١/ ٣٠٦)، الشافية ص٩٩، التسهيل ص٣٠١، المقاصد الشافية (٩/ ٣٣-٣٤).

الجمهور: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَيِشَ﴾[1][2].

وقرأ الأعرج وزيد بن علي والأعمش وخارجة عن نافع ﴿مَعَائِشَ﴾ بالهمز[3]. وقالت العرب: مصائب في جمع مصيبة[4]. ووجه ذلك أنّهم شبهوا الياء الأصلية فيهما بالزائدة فهمزوها كما همزوا الياء في صحيفة فقالوا: صحائف[5]. وليس بالقياس[6].

قال المازني: " فأما قراءة من قرأ من أهل المدينة ﴿مَعَائِشَ﴾ بالهمز فهي خطأ، فلا يلتفت إليها، وإنّما أُخذت عن نافع بن أبي نُعَيْمٍ، ولم يكن يدري ما العربية، وله أحرف يقرؤها لحناً نحوًا من هذا "[7].

وقال المبرد: " فأما قراءة من قرأ ﴿مَعَائِشَ﴾ فهمز فإنّه غلط، وإنما هذه القراءة منسوبة إلى نافع بن أبي نعيم، ولم يكن له علم بالعربية "[8].

وقال الزجاج: " وجميع النحويين البصريين يزعمون أنَّ همزها خطأ "[9].

وقال أبو جعفر النحاس: " والهمز لحنٌ لا يجوز "[10].

ولا شك أن هذا الإبدال شاذٌّ، لكن الحكم على القراءة بأنها غلط من القراء غير مسلم، لأنَها قراءة متواترة منقولة عن جماعة من القرّاء الثقات المشهود لهم بالفصاحة والضبط والإتقان والحفظ[11]. ولذلك دافع أبو حيان عن هذه القراءة، وشنَّع على نحاة البصرة في تخطئتهم لها، فقال: " ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة "[12]. وقال: " وكثير من هؤلاء

---

(١) انظر: السبعة في القراءات ص٢٧٨، المحرَّر الوجيز (٣/ ٥١٨)، البحر المحيط (٤/ ٢١٧).

(٢) سورة الأعراف، من الآية (١٠).

(٣) انظر: السبعة في القراءات ص٢٧٨، إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١١٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٧١)، الدر المصون (٣/ ٢٣٨).

(٤) انظر: الكتاب (٤/ ٣٥٦)، اللباب (٢/ ٤١١)، الفريد في إعراب القرآن المجيد (٢/ ٣٧٤).

(٥) انظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٣٧٣)، المنصف (١/ ٣٠٩-٣١٠)، مشكل إعراب القرآن (١/ ٣٠٦)، الكشاف (٢/ ٤٢٥)، التبيان في إعراب القرآن ص٥٥٨، شرح الشافية للرضي (٣/ ١٣٤)، الدر المصون (٣/ ٢٣٨).

(٦) انظر: شرح الشافية للرضي (٣/ ١٣٤)، البحر المحيط (٤/ ٢٧١)، المساعد (٤/ ٩٧)، المقاصد الشافية (٩/ ٣٤-٣٥).

(٧) التصريف للمازني بشرح ابن جني (١/ ٣٠٧).

(٨) المقتضب (١/ ١٢٣).

(٩) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٢٠).

(١٠) إعراب القرآن (٢/ ١١٥).

(١١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٧١)، الدر المصون (٣/ ٢٣٨)، الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٠٧).

(١٢) البحر المحيط (٤/ ٢٧١).

النحاة يسيئون الظنّ بالقراء ولا يجوز لهم ذلك "[1]. واستدل على صحة القراءة بنقل الفراء عن العرب أنّهم ربّما يهمزون هذا وشبهه[2].

٤١. إدغام المتقاربين:

إذا تقارب الحرفان في المخرج أو في صفة تقوم مقامه أو فيهما جميعًا فإنه قد يدغم أحدهما في الآخر، وذلك بعد قلب أحدهما إلى الآخر ليصيرا من جنسٍ واحدٍ؛ لأنه لا يتحقّق الإدغام إلا بذلك[3]، كإدغام الدال في السين في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾[4] فإنّ الدال تقارب السين في المخرج، فقلبوها سينًا، وأدغموها في السين فقالوا: "يكاسّنا برقه"[5].

وفي قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[6] لما كانت اللام تقارب التاء في المخرج قلبوا اللام تاء وأدغموها في التاء[7].

ولما كانت الباء تقارب الفاء في المخرج لأنهما من الشفة قلبوها فاء وأدغموها في الفاء في قوله سبحانه: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ﴾[8].

* * *

---

(١)البحر المحيط (٤/ ٢٧٢).

(٢)البحر المحيط (٤/ ٢٧١). وانظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٣٧٣).

(٣) انظر: المفصل ص٥٤٨، الشافية ص١٢١و١٢٥، الممتع ص٦٦٣، مغني اللبيب (٦/ ٦٥٤)، الكفاية في النحو ص٣٢٨.

(٤) سورة النور، من الآية (٤٣).

(٥) انظر: التذكرة في القراءات (١/ ١١٩)، الاختيار في القراءات العشر (١/ ١٨٩)، الكنز في القراءات العشر (١/ ٢١١).

(٦) سورة الحاقة، الآية (٨).

(٧) انظر: التذكرة في القراءات (١/ ١٠٩،٢٣٣)، الإقناع (١/ ٢٤٢)، الاختيار (١/ ١٧٣).

(٨) سورة الإسراء، من الآية (٦٣). وانظر القراءة في: الإقناع (١/ ٢٦٢)، الاختيار (١/ ١٧٤)، إيضاح الرموز ص١٨٨.

الخاتمة:

في نهاية البحث يحسن بنا أن نسجل أهم النتائج التي خلصنا إليها، وهي:

١- الشبه في النحو على ثلاثة أنواع: شبه في اللفظ، وشبه في المعنى، وشبه في اللفظ والمعنى.

٢- باب الشبه اللفظي واسع في العربية، فهو موجود في كلام العرب بكثرة.

٣- الشبه اللفظي: هو حمل الفرع على الأصل بضرب من الشبه اللفظي غير العلّة التي عُلِّق عليها الحكم في الأصل.

٤- الشبه اللفظي على قسمين: تشبيه قريب، وتشبيه بعيد. فالقريب ما كان موافقاً للمألوف والمعروف من كلام العرب. وهو مقيس عند النحويين. أمَّا البعيد فنقيضه، وهو مردود عندهم؛ لأنَّه ضربٌ من ضروب التكلف والتعسف، فلا يعوّل عليه ولا يلتفت إليه.

٥- التشبيه البعيد لا يقع من العرب إلا على جهة التوهم؛ ولذلك حكم النحويون عليه بالشذوذ والغلط وأنَّه لا يقع منهم إلا على جهة الضرورة.

٦- الدافع الأساسي لحمل لفظٍ على آخر لمجرد الشبه اللفظي هو طلب التخفيف، ولاسيما إذا كثر استعماله؛ لأنَّهم لما كثر استعمالهم إيَّاه أشد تغييراً.

٧- الشبه إذا قوي أوجب الحكم، وإذا ضعف لم يوجب، فليس كل شبه بين شيئين يوجب لأحدهما حكماً هو في الأصل للآخر، فكلما كان الشبه أخص كان أقوى، وكلما كان أعم كان أضعف.

٨- بعض الشبه أقوى من بعض، فألف التكثير -مثلاً- أقوى شبهاً بألف التأنيث من ألف الإلحاق، لذا كانت أولى بالمنع من الصرف من ألف الإلحاق.

٩- الشبه المعنوي أقوى من الشبه اللفظي عند النحويين، فاعتبار المعنى عندهم أقوى من اعتبار اللفظ.

١٠- هناك آثار كبيرة مترتبة على الشبه اللفظي، وهي منحصرة في الغالب في: الزيادة، والنقص، والإبدال، والإعمال، والبناء، والإمالة.

١١- هذا النوع من القياس أقرب أنواع القياس النحوي إلى القياس الاستعمالي وإن لم يكن منه تماماً، والذي يقوم على موازنة كلمات بكلمات، أو صيغ بصيغ، أو

استعمال باستعمال رغبةً في التوسع اللغوي، وحرصًا على اطراد الظواهر اللغوية.

تلك الثمار مجملة. واللهَ أسألُ خاتمة مقرونة بغنيمة، وعافية مفضية إلى كرامة، ومعونة تكفي مؤونة، وهداية تنفي ضلالة.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- كتاب ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة، لعبد اللطيف بن أبي بكر الشرجي الزبيدي، تحقيق: د. طارق الجنابي، دار عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع للإمام الشاطبي، تأليف: الإمام عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة الدمشقي، تحقيق وتقديم وضبط: إبراهيم عطوه عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق سعيد المندوب، دار الفكر بلبنان، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، لعفيف دمشقية، معهد الإنماء العربي ببيروت، ط١، ١٩٧٨م.
- أحكام الفتح والإمالة، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، مصورة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تحت رقم (١٠٦٧١/ف) عن نسخة الجامعة الإسلامية تحت رقم (٥٥/م).
- الاختيار في القراءات العشر، تأليف: الإمام أبي محمد عبدالله بن علي الحنبلي البغدادي المعروف بسبط الخياط، دراسة وتحقيق: د. عبد العزيز بن ناصر السبر ١٤١٧هـ.
- أدب الكاتب، لابن قتيبة، حققه وعلق على حواشيه ووضع فهارسه: د. محمد أحمد الدّالي، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. رجب عثمان محمد، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- كتاب الأزهية في علم الحروف، تأليف: علي بن محمد الهروي، تحقيق: عبد المعين الملوحي، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨٢م.
- أسرار العربية، لأبي البركات عبدالرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- إصلاح المنطق، لابن السكيت، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر.

- **الأصول في النحو**، لابن السراج، تحقيق: د. عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- **إعراب القراءات السبع وعللها**، لابن خالويه، تحقيق: د. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- **إعراب القراءات الشواذ**، لأبي البقاء العكبري، تحقيق: محمد السيد أحمد عزوز، عالم الكتب ببيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- **إعراب القرآن**، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب ببيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- **الأغاني**، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، دار الكتب المصرية، ط١، ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م.
- **الإغفال**، لأبي علي الفارسي، تحقيق وتعليق: د. عبد الله بن عمر الحاج إبراهيم، من منشورات المجمع الثقافي بالإمارات العربية المتحدة.
- **الإفصاح ببعض ما جاء من الخطأ في الإيضاح**، لأبي الحسين بن الطراوة السبئي المالقي، تقديم وتحقيق: د. عياد بن عيد الثبيتي، الناشر دار التراث بمكة المكرمة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- **الاقتراح في أصول النحو وجدله**، للسيوطي، تحقيق: د. محمود فجال، مطبعة الثغر، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- **الإقليد شرح المفصل**، تأليف: تاج الدين أحمد بن محمود الجندي، تحقيق ودراسة: د. محمود أحمد علي أبوكته الدراويش، من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- **كتاب الإقناع في القراءات السبع**، تأليف: أبي جعفر أحمد بن علي الأنصاري، ابن الباذش، حققه: د. عبدالمجيد قطامش، ط١، ١٤٠٣هـ دار الفكر بدمشق، من مطبوعات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.
- **أمالي ابن الشجري**، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- **الانتصار لسيبويه على المبرد**، لأبي العباس أحمد بن محمد بن ولّاد التميمي، تحقيق: د. زهير عبدالمحسن سلطان، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البركات الأنباري، تعليق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط ٤، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م.
- الأنموذج في النحو، للزمخشري، تحقيق: د. حسني عبدالجليل يوسف، القاهرة ١٩٩٠م.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري، علق عليه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ببيروت، ط ٥، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة، لشمس الدين محمد بن خليل القباقبي، دراسة وتحقيق: د. أحمد خالد شكري، دار عمار للنشر والتوزيع بعَمان، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- إيضاح شواهد الإيضاح، لأبي علي الحسن بن عبدالله القيسي، تحقيق: د. محمد بن حمود الدعجاني، دار الغرب الإسلامي ببيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- الإيضاح في شرح المفصل، لابن الحاجب، تحقيق: د.موسى بناي العليلي، مطبعة العاني ببغداد ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، من مطبوعات وزارة الأوقاف العراقية.
- بحر العلوم في تفسير القرآن، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر ببيروت.
- البغداديات = المسائل المشكلة لأبي علي الفارسي.
- كتاب البيان في شرح اللمع لابن جني، إملاء الشريف عمر بن إبراهيم الكوفي، دراسة وتحقيق: د. علاء الدين حمويّة، دار عمار بعمّان، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات الأنباري، تحقيق: د. طه عبدالحميد طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- التبصرة والتذكرة، للصيمري، تحقيق: د. فتحي أحمد مصطفى علي الدين، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، من مطبوعات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.
- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، تحقيق: علي البجاوي، دار الجيل ببيروت، ط ٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- التبيان في شرح الديوان، المنسوب لأبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه: مصطفى السقا وآخران، دار المعرفة ببيروت.
- التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البقاء العكبري، تحقيق:

د. عبدالرحمن العثيمين، دار الغرب الإسلامي ببيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

- **التخمير** = شرح المفصل في صنعة الإعراب.

- **كتاب التذكرة في القراءات**، تأليف: الشيخ أبي الحسن طاهر بن عبدالمنعم بن غلبون، تحقيق: د. عبدالفتاح بحيري إبراهيم، الناشر الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- **التذييل والتكميل**، لأبي حيان الأندلسي، مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم (٦٠١٦).

- **التذييل والتكميل في كتاب التسهيل**، ألفه: أبوحيان الأندلسي، ج١-٢-٣، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم بدمشق، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد**، لابن مالك، حققه: محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- **التصريح بمضمون التوضيح**، للشيخ خالد زين العابدين بن عبدالله الأزهري، دراسة وتحقيق: د. عبدالفتاح بحيري إبراهيم، الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

- **تعظيم قدر الصلاة**، لأبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، تحقيق: د. عبد الرحمن الفريوائي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.

- **تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد**، للدماميني، تحقيق: د. محمد بن عبدالرحمن المفدى، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- **تفسير البحر المحيط**، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

- **تفسير الثعلبي** = الكشف والبيان عن تفسير القرآن.

- **تفسير السمرقندي** = بحر العلوم في تفسير القرآن

- **تفسير الطبري** = جامع البيان عن تأويل آي القرآن.

- **تفسير القرطبي** = الجامع لأحكام القرآن.

- **كتاب التكملة**، لأبي علي الفارسي، تحقيق ودراسة: د. كاظم بحر المرجان، عالم الكتب ببيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

- **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**، لمحمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق : عماد الدين أحمد حيدر،

مؤسسة الكتب الثقافية بلبنان، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- **تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد**، لمحب الدين محمد بن يوسف بن أحمد المعروف بناظر الجيش، دراسة وتحقيق جماعة، دار السلام بمصر، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- **تنقيح الأزهرية**، لمحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر ببيروت، ط١٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
- **تهذيب اللغة**، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- **توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك**، للمرادي، شرح وتحقيق: د. عبدالرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي بالقاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- **كتاب التيسير في القراءات السبع**، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، عني بتصحيحه: أوتو برتزل، لجمعية المستشرقين الألمانية، عني بنشره مكتبة الجعفري بطهران، مطبعة الدولة باستانبول ١٩٣٠هـ.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله التركي، دار هجر بمصر، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، دار القلم، ط٣، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- **الجنى الداني في حروف المعاني**، صنعة الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: د. فخر الدين قباوه، والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، لابن تيمية، تحقيق: علي سيد صبح المدني، مطبعة المدني بالقاهرة.
- **جواهر الأدب في معرفة كلام العرب**، لعلاء الدين علي بن محمد الإربلي، تحقيق: د. حامد أحمد نيل، طبعة القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- **حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**، ومعه شرح الشواهد للعيني، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي.
- **الحاشية الهندية للدماميني على متن المغني لابن هشام**، ج١، مصورة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تحت رقم (٩١٦٨/ف) عن نسخة مكتبات القدس.
- **الحجة في القراءات السبع**، المنسوب لابن خالويه، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم،

عالم الكتب بالقاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- **كتاب حروف المعاني**، صنفه: أبوالقاسم الزجاجي، حققه: د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ودار الأمل، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- **الحلبيات** = المسائل الحلبيات.
- **كتاب الحلل في شرح أبيات الجمل**، لابن السيد البطليوسي، تحقيق: د. مصطفى إمام، مطبعة الدار المصرية، ط١، ١٩٧٩م.
- **الحماسة**، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- **الحماسة البصرية**، تأليف: صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- **الحيوان**، للجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، دار الكتاب العربي ببيروت، ط٣، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.
- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تأليف: عبدالقادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبدالسلام هارون، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- **الخصائص**، لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي ببيروت، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- **الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العلوم العربية**، تأليف: أحمد بن الأمين الشنقيطي، تحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، تأليف: أبي العباس أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- **ديوان الأقيشر الأسدي**، جمعه وحققه: د. خليل الدويهي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- **ديوان امرئ القيس**، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨م.
- **ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**، حققه وعلق عليه: د. وليد عرفات، دار صادر ببيروت،

١٩٧٤م.
- ديوان الخوارج، جمعه وحققه: د. نايف معروف، دار المسيرة ببيروت،ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ديوان الفرزدق، دار صادر ببيروت.
- ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق وشرح: مجيد طراد، دار صادر ببيروت،ط١، ١٩٩٧م.
- ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق: عبدالستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة.
- ديوان النابغة الذبياني، شرح وتعليق: د. حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمالقي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة الألوسي البغدادي، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية ببيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الزاهر في معاني كلمات الناس، تأليف: أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: د. حاتم بن صالح الضّامن، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- كتاب السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق: د. شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف بمصر.
- سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم بدمشق، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- سنن الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر.
- الشافية في علم التصريف، تأليف: جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر الدويني النحوي المعروف بابن الحاجب، دراسة وتحقيق: حسن أحمد العثمان، قامت بطباعته وإخراجه دار البشائر الإسلامية ببيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- شرح أبيات مغني اللبيب، صنفه: عبدالقادر البغدادي، حققه: عبدالعزيز رباح، وأحمد يوسف دقاق، دار المأمون بدمشق، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٨م.
- شرح أبيات المفصل والمتوسط، شرح: السيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني،

دراسة وتحقيق: د. عبدالحميد جاسم محمد الفياض الكبيسي، دار البشائر الإسلامية ببيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

- **شرح الأشموني لألفية ابن مالك المسمى "منهج السالك إلى ألفية ابن مالك"**، تحقيق: د. عبدالحميد السيد محمد عبدالحميد، الناشر المكتبة الأزهرية للتراث والثقافة.
- **شرح ألفية ابن مالك**، لابن الناظم، حققه: د. عبدالحميد السيد محمد عبدالحميد، دار الجيل ببيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- **شرح ألفية ابن معطٍ**، تأليف: عبدالعزيز بن جمعة بن قواس الموصلي، تحقيق: د. علي موسى الشوملي، الناشر مكتبة الخريجي بالرياض، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **شرح إيضاح أبي علي الفارسي**، لأبي البقاء العكبري، دراسة وتحقيق: عبدالرحمن بن عبدالله الحميدي، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- **شرح التسهيل لابن مالك**، تحقيق: د. عبدالرحمن السيد، ود. محمد بدوي المختون، مطبعة هجر، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- **شرح التصريف**، تأليف: عمر بن ثابت الثمانيني، تحقيق: د. إبراهيم بن سليمان البعيمي، مكتبة الرشد بالرياض، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- **شرح جمل الزجاجي**، لابن عصفور، تحقيق: د. صاحب أبوجناح، من مطبوعات وزارة الأوقاف العراقية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- **شرح جمل الزجاجي**، لابن الضائع الإشبيلي، القسم الأول تحقيق ودراسة: يحيى علوان حسن البلداوي، والقسم الثاني تحقيق ودراسة: نادي حسين عبد الجواد، رسالتا دكتوراه مقدمتان إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.
- **شرح الحدود النحوية**، تأليف: جمال الدين عبدالله بن أحمد الفاكهي، تحقيق: د. صالح ابن حسين العايد، من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- **شرح الرضي لكافية ابن الحاجب**: القسم الأول: دراسة وتحقيق: د. حسن بن محمد الحفظي، والقسم الثاني: دراسة وتحقيق: د. يحيى بشير مصري، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- **شرح شافية ابن الحاجب**، لرضي الدين محمد بن الحسن الإستراباذي، حققه: محمد نور

الحسن ورفيقاه، دار الكتب العلمية ببيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- كتاب شرح شافية ابن الحاجب، لأبي الفضائل ركن الدين الحسن الإستراباذي، تحقيق: د. عبدالمقصود محمد عبدالمقصود، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لابن هشام الأنصاري، تعليق: عبدالغني الدقر، الدار المتحدة بدمشق، ومؤسسة الرسالة ببيروت، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م
- شرح شواهد الإيضاح لأبي علي الفارسي، تأليف: عبدالله بن بري، تحقيق: د. عيد مصطفى درويش، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية بالقاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- شرح شواهد المغني، للسيوطي، مذيل بتصحيحات وتعليقات الشيخ محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي، من منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، علق عليه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار العلوم الحديثة ببيروت.
- شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ، لابن مالك، تحقيق: عدنان الدوري، من مطبوعات وزارة الأوقاف العراقية، مطبعة المدني ببغداد، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- شرح عيون الإعراب، تأليف الإمام أبي حسن علي بن فضال المجاشعي، حققه: د. عبدالفتاح سليم، دار المعارف، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- شرح كافية ابن الحاجب، للشيخ عبدالعزيز بن جمعة الموصلي، دراسة وتحقيق: د. علي الشوملي، دار الكندي، ودار الأمل، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- شرح الكافية الشافية، لابن مالك، حققه: د. عبدالمنعم هريدي، دار المأمون للتراث، من مطبوعات مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- شرح كتاب سيبويه، لأبي سعيد السيرافي، مصورة مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى برقم (١٩٦-٢٠٠) عن نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم (١٣٧نحو).
- شرح لباب الإعراب، لقطب الدين الفالي، محمد بن مسعود بن محمود السيرافي، تحقيق ودراسة: عوض أحمد سالم، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- شرح اللمحة البدرية في علم العربية، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: د. صلاح رواي، دار

حسان للطباعة بالقاهرة، ط٢.
- **شرح اللمع**، للثمانيني، دراسة وتحقيق: فتحي علي حسانين علي، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.
- **شرح المفصل**، لابن يعيش، الناشر عالم الكتب ببيروت، ومكتبة المثنى بالقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة محمد منير سنة ١٩٢٨م.
- **شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير**، لصدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، دار الغرب الإسلامي ببيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- **شرح المقدمة الكافية في علم الإعراب**، لابن الحاجب، تحقيق: جمال عبدالعاطي مخيمر أحمد، الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز بمكة المكرمة، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- **شرح الملوكي في التصريف**، صنعة: ابن يعيش، تحقيق: د. فخرالدين قباوة، المكتبة العربية بحلب، ط١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- **شرح الهداية**، لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي، تحقيق: د. حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد بالرياض، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- **شعر النمر بن تولب**، صنعة: د. نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف ببغداد.
- **الشعر والشعراء**، تأليف: أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، قدم له: الشيخ حسن تميم، راجعه وأعد فهارسه: الشيخ محمد عبدالمنعم العريان، دار إحياء العلوم ببيروت، ط٥، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- **شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح "صحيح البخاري"**، تأليف: جمال الدين بن مالك الأندلسي، تحقيق: د. طه محسن، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٤١٣هـ.
- **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ببيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- **صحيح مسلم بن الحجاج القشيري**، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، مصورة عن الطبعة الأولى سنة ١٣٧٥هـ/١٩٩٥م.
- **الصفوة الصفية في شرح الدرة الألفية**، لتقي الدين إبراهيم بن الحسين المعروف بالنيلي، تحقيق: د. محسن بن سالم العميري، جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ.

- **ضرائر الشعر**، لابن عصفور، تحقيق: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس ببيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- **العقد الفريد**، لأبي عمر أحمد بن محمد عبد ربه الأندلسي، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر.
- **علل النحو**، لأبي الحسن محمد بن عبدالله الورّاق، تحقيق ودراسة: د. محمود جاسم الدرويش، مكتبة الرشد بالرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، لبدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي ببيروت.
- **كتاب العين**، للخليل بن أحمد الفرهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- **غريب الحديث**، لأبي عبيد القاسم بن سالم الهروي، طبع تحت مراقبة: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي ببيروت، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- **غريب الحديث**، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: د. عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة ببيروت، ١٣٧٩هـ.
- **الفريد في إعراب القرآن المجيد**، للمنتجب حسين بن أبي العز الهمذاني، تحقيق: د. فهمي حسن النمر، و د. فؤاد علي مخيمر، دار الثقافة بالدوحة، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- **الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب**، لنور الدين عبدالرحمن بن أحمد الجامي، تحقيق: د. أسامة الرفاعي، من مطبوعات وزارة الأوقاف العراقية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- **في النحو العربي نقد وتوجيه**، للدكتور مهدي المخزومي، المكتبة العصرية ببيروت، ط١، ١٩٦٤م.
- **الكافي في الإفصاح عن مسائل كتاب الإيضاح**، لابن أبي الربيع السبتي الأندلسي، تحقيق: د. فيصل الحفيان، مكتبة الرشد بالرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل ببيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، للزمخشري،

تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، الناشر مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

- **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، للمفسر المحدِّث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.
- **كشف المشكلات وإيضاح المعضلات في إعراب القرآن وعلل القراءات**، لنورالدين أبي الحسن علي بن الحسين الباقولي الملقب بـ"جامع العلوم النحوي"، دراسة وتحقيق: د. عبدالقادر عبدالرحمن السِّعدي، دار عمار، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- **الكفاية في النحو**، لمحمد بن عبد الله بن محمود، تحقيق ودراسة: إسحاق الجعبري، دار ابن حزم ببيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.
- **الكنز في القراءات العشر**، لعبد الله بن عبد المؤمن الواسطي، دراسة وتحقيق: د. خالد أحمد المشهداني، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- **لباب الإعراب**، لمؤلفه تاج الدين محمد بن محمد بن أحمد الإسفراييني، تحقيق: بهاءالدين عبدالوهاب عبدالرحمن، دار الرفاعي بالرياض، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- **اللباب في علل البناء والإعراب**، لأبي البقاء العكبري، حقق الجزء الأول: غازي مختار طليمات، وحقق الجزء الثاني: د. عبدالإله نبهان، دار الفكر المعاصر ببيروت، ودار الفكر بدمشق، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر ببيروت.
- **لمع الأدلة**، تأليف: أبي البركات الأنباري، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية بدمشق، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م، مطبوع مع "الإغراب في جدل الإعراب".
- **اللمع في العربية**، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: حامد المؤمن، دار عالم الكتب ببيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **المتبع في شرح اللمع**، لأبي البقاء العكبري، تحقيق: د. عبدالحميد الزَوِيّ، منشورات جامعة قاريونس، ط١، ١٩٩٤م.

- **مجلة جامعة الملك سعود**، المجلد (١٣)، الآداب (١)، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان بالقاهرة، دار الكتاب العربي ببيروت، ١٤٠٧هـ.
- **المجيد في إعراب القرآن المجيد**، لإبراهيم محمد الصفاقسي، تحقيق: موسى محمد زنين، منشورات كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، ط١.
- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، لابن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف ورفيقيه، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق جماعة، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، ط٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- **المحصول في علم أصول الفقه**، لفخر الدين الرازي، تحقيق: طه العلواني، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة**، لأبي الحسن علي بن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع**، لابن خالويه، عني بنشره: ج. برجشتراسر، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٣٤م.
- **المخصص**، لابن سيده، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي ببيروت.
- **المدارس النحوية**، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بالقاهرة، ط٦، ١٩٨٩م.
- **المذاهب النحوية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة**، للدكتور مصطفى عبدالعزيز السنجرجي، المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، لعلي بن سلطان القاري، تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- **المسائل البصريات**، لأبي علي الفارسي، تحقيق: د. محمد الشاطر أحمد، مطبعة المدني بالقاهرة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **المسائل الحلبيات**، لأبي علي الفارسي، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم بدمشق، ودار

المنارة ببيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- **مسائل الخلاف النحوية والتصريفية في كتاب الأصول لابن السراج**، توثيق ودراسة: د. إبراهيم بن صالح الحندود، مؤسسة عبد الحفيظ البساط ببيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- **المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات**، لأبي علي الفارسي، تحقيق: صلاح الدين السنكاوي، مطبعة العاني ببغداد، من مطبوعات وزارة الأوقاف العراقية.
- **المسائل المنثورة**، لأبي علي الفارسي، تحقيق: د. شريف عبدالكريم النجار، دار عمَّار بعمَّان، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
- **المساعد على تسهيل الفوائد**، لابن عقيل، تحقيق: د. محمد كامل بركات، من مطبوعات مركز البحث العلمي بمكة المكرمة.
- **المستدرك على الصحيحين**، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ببيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، مؤسسة قرطبة بالقاهرة.
- **مسند أبي داود الطيالسي**، سليمان بن داود الفارسي البصري الطيالسي، دار المعرفة ببيروت.
- **مسند الشهاب**، محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- **كتاب مشكل إعراب القرآن**، تأليف: مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: ياسين محمد السوَّاس، دار المأمون للتراث بدمشق، ط٢.
- **المصباح لما اعتم من شواهد الإيضاح**، تأليف: أبي الحجاج يوسف بن يبقى بن يسعون، دراسة وتحقيق: د. محمد بن حمود الدعجاني، دار النشر الدولي بالرياض، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- **مصنف عبدالرزاق**، لأبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي ببيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.
- **معاني القرآن**، للفراء، عالم الكتب ببيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- **معاني القرآن وإعرابه**، لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي، دار الحديث بالقاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

- **المعجم**، لأبي سعيد أحمد بن محمد الأعرابي، دار النشر.
- **المعجم الأوسط**، لأبي القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين بالقاهرة، ١٤١٥هـ.
- **معجم البلدان**، للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- **المعجم الصغير**، لأبي القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي ببيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **المعجم الكبير**، لأبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة الزهراء بالموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
- **المغني**، لابن قدامة، دار الفكر ببيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية ببيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- **مفاتيح الغيب**، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- **المفصل في صنعة الإعراب**، للزمخشري، وبذيله كتاب المفضل في شرح أبيات المفصل للسيد محمد بدر الدين أبي فراس النعساني الحلبي، قدم له وبوبه: د. علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال ببيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- **المفضل في شرح المفصل** (باب الحروف)، لعلم الدين علي بن محمد السخاوي، تحقيق: د. يوسف الحشكي، من منشورات وزارة الثقافة الإردنية، ٢٠٠٢م.
- **المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية "شرح ألفية ابن مالك"**، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق جماعة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- **المقاليد**، لشرف الدين محمد بن دهقان بن أبي بكر بن علي النسفي الكبندي، مصورة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تحت رقم (١٥٠٩ف) عن نسخة الظاهرية تحت رقم (١٨١٢).
- **كتاب المقتصد في شرح الإيضاح**، لعبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: د. كاظم المرجان، من

منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ١٩٨٢م.
- **المقتصد في شرح التكملة**، لعبد القاهر الجرجاني، دراسة وتحقيق: أحمد بن عبد الله الدويش، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١١هـ-١٤١٢هـ.
- كتاب **المقتضب** للمبرد، تحقيق: محمد عبدالخالق عضيمة، من منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- **الممتع في التصريف**، لابن عصفور الأشبيلي، تحقيق: د. فخر الدين قباوه، دار المعرفة ببيروت، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- **المناهج الكافية في شرح الشافية**، للشيخ زكريا بن محمد الأنصاري، دراسة وتحقيق: د. رزان يحيى خدام، من منشورات مجلة الحكمة ببريطانيا، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- **المنصف شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جني لكتاب التصريف للإمام أبي عثمان المازني**، تحقيق: لجنة من الأستاذين إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، وزارة المعارف العمومية، إدارة إحياء التراث القديم، ط١، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.
- **منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك**، لأبي حيان النحوي الأندلسي، تحقيق: سدني كليزر، ينوهافن، جمعية الأمريكان الشرقية ١٩٤٧م.
- **موارد البصائر لفرائد الضرائر**، تأليف: محمد سليم بن حسين بن عبدالحليم، تحقيق ودراسة: د. حازم سعيد يونس، دار عمار، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- **النشر في القراءات العشر**، تأليف: الحافظ أبي الخير محمد بن محمد بن علي بن الجزري الدمشقي، أشرف على تصحيحه: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية ببيروت.
- **النكت الحسان في شرح غاية الإحسان**، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **النكت والعيون**، لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي، راجعه وعلق عليه: السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ببيروت، ومؤسسة الكتب الثقافية ببيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- كتاب **النوادر في اللغة**، لأبي زيد الأنصاري، تحقيق ودراسة: د. محمد عبدالقادر أحمد، دار الشروق، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية ببيروت.

* * *



من أسرار النظم في سورة القمر

د. فائزة بنت سالم صالح أحمد
معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

من أسرار النظم في سورة القمر

د. فائزة بنت سالم صالح أحمد
معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

ملخص البحث:

إن هذا البحث يتحدث عن أسرار النظم في سورة القمر، والبحث يقوم على التحليل البلاغي التذوقي لكل آيات السورة ، لبيان سمات السورة ، وهي سورة بنيت آياتها على روي واحد وهو حرف الراء، وتتميز آياتها بقصرها وسرعة إيقاعها . وقد بدأت البحث بمقدمة تبين أهمية النظر إلى السورة كوحدة متكاملة والكشف عما تميزت به السورة ، ثم تمهيد تحدثت فيه عن سبب نزول السورة ومناسبتها لما قبلها وما بعدها من سور القرآن وعدد آياتها ، ثم تناولت آياتها بالتحليل البلاغي على حسب موضوعاتها ناظرة إلى بناء الكلمة ، وفيوضات المعاني التي توحي بها وبناء الجملة وعلاقة آياتها بعضها ببعض ، وكشفت عن الخيط الذي يجمع بين كل آيات السورة ، وتناولت الصور البيانية وبينت سر جمالها وقابلتها بما يشبهها من القرآن الكريم ، ثم تحدثت عن النسق الصوتي وتميزه ، ثم ختمت البحث بخاتمة بينت فيها أهم سمات السورة ونتائج البحث .

المقدمة :

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على المبلغ عن ربه، نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

اللهم إنا نعوذ بك من الزلل ومن فضول القول، ومن التكلف في العمل، وبعد.

فإن القرآن الكريم كله معجز ، وكما يكون في الجملة القرآنية يكون في السورة كاملة، حيث يتحقق فيها التكامل من حيث الموضوع والهدف والسياق، فهي كالبناء المؤلف من عناصر يكمل بعضه بعضاً، وحين ينزع عنصر من عناصر البناء تذهب بلاغته، وقد تكررت في القرآن الكريم كثير من المعاني كذكر الآخرة وأحوال المؤمنين والكافرين وأحوال الأمم المكذبة إلا أن وجودها في كل سورة يجعل لها نظما خاصا يختص بالسورة ، فكل سورة من سور القرآن تدور حول معنى واحد ومحور يتغلغل في كل آيات السورة ويكون جامعا لآياتها ، ويكون كذلك في الشعر فموضوعات الشعر تتكرر لكن دراسة الموضوع في القصيدة الواحدة تبرز لنا خصائصها المتفردة التي تميزها عن غيرها

ونحن في هذه الدراسة سنقف أمام سورة القمر لنبين خصائصها البلاغية المتفردة،وقد كنت دائما منذ صغري أقف عند هذه السورة وأعجب بما فيها من إيقاع سريع وقصر في الآيات وكنت أشعر بقرع فواصلها يرن في أذني ، ولما استوى عودي في علم البلاغة وقفت ثانية أمام هذه السورة أقلب بصري وذهني في آياتها وأتأملها مرة بعد مرة فرأيت أن أكتب دراسة عنها.

وهناك دراسة موسعة عن سورة القمر للدكتور عوض الجميعي بعنوان " خصائص النظم في سورة القمر " وهي دراسة قامت على وضع كل آية من آيات السورة تحت بابها في علم البلاغة بعد تعريف المصطلح البلاغي ،مفرقا آيات السورة على تلك الأبواب ، ودراستي للسورة ستكون دراسة بلاغية تحليلية تذوقية للسورة كاملة حسب ترتيب آياتها ، هادفة إلى بيان كيفية توالي الموضوعات وترابطها ونسقها في السورة .

إن سورة القمر سورة مبنية على الإيجاز والإيقاع السريع وقصر الآيات، كما أنها من أطول السور التي التزمت بحرف روي واحد وهو حرف الراء، حيث تبلغ آياتها خمسا وخمسون آية، والفواصل في سور القرآن إما متماثلة أو متقاربة أو متفردة، والمتماثلة هي

التي تماثل حرف رويها، وقد استقلت هذه الفواصل بإحدى عشرة سورة في القرآن، كلها من سور المفصل، وهي:

١- أربع سور التزمت بروي الراء، وهي: القمر، القدر، العصر، الكوثر.

٢- سورتان التزمتا بروي الألف المقصورة، وهي: الأعلى والليل.

٣- سورة واحدة التزمت بالألف الممدودة بعدها الضمير، وهي الشمس، والدال في سورة الإخلاص، والسين في سورة الناس، والمنافقين حرف النون، والفيل حرف اللام.

* * *

التمهيد:

إن سورة القمر من أطول السور التي التزمت بحرف الراء، وترتيبها في النزول السابعة والثلاثون، وهي مكية باتفاق المفسرين، وكان نزولها في حدود سنة خمس قبل الهجرة[1].

وسبب نزولها أن المشركين قالوا للرسول ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين فنؤمن لك، فلما كانت ليلة بدر سأل الرسول ﷺ ربه، فانشق القمر نصف على الصفا، والآخر على قيقعان، فقال الكفار: آية سماوية لا يعمل فيها السحر، ولننظر أهل البوادي فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، فلما جاء أهل البوادي وأخبروا عن رؤيتهم القمر منشقاً، قالوا: سحر مستمر[2].

وقد اكتشف علماء الفضاء حديثاً أن في القمر علامات تدل على أنه انفلق في يوم من الأيام، ثم التحم ثانية. فسبحان الله رب العالمين.

صلة السورة بما قبلها وما بعدها:

جاءت سورة القمر في ترتيب المصحف بين سورة النجم وسورة الرحمن، وبيان العلاقات بين المعاني مما يعتبره بعض العلماء وجهاً من أوجه الإعجاز القرآني بجانب إعجازه بالنظم، يقول الفخر الرازي بعد أن انتهى من تفسير سورة البقرة التي كان حريصا عند تفسيرها على بيان أوجه المناسبات بين آياتها: (ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة اللفظ، وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته)[3]، وسمى الباقلاني العلاقات بين المعاني في القرآن (تأليف المختلف).

وسورة النجم تحدثت عن إثبات نبوته ﷺ، ثم ختمت بذكر أحوال يوم القيامة، واستهزاء الكفار بالقرآن ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾، و﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴾ هي نفسها﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ ومعنى أزفت أي دنت واقتربت القيامة، وأزف فيها معنى ضيق وقتها[4]، وهذا يناسب قول﴿ ٱقْتَرَبَتِ﴾ كما أن بين النجم والقمر تناسب فكلاهما في السماء من الأفلاك.

كذلك لما قال تعالى في أواخر سورة النجم:﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ

---

(1) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/١٦٦)، البحر المحيط (٨/١٧٢).

(2) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/١٦٦)، البحر المحيط (٨/١٧٢).

(3) التفسير الكبير (٧/١٣٩).

(4) انظر: المفردات في غريب القرآن ص(١٧).

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ فصّل إهلاك هذه الأمم في سورة القمر بنظم أبدع وأبلغ[1].

ثم يظهر التناسب أيضاً بين سورة القمر وسورة الرحمن، فقد ختمت سورة القمر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ ، ثم جاءت سورة الرحمن تفسير للمليك المقتدر، فهو ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

موضوعات السورة:

دارت السورة حول التكذيب، وتحدثت عنه من أربعة محاور:

- الأول: عرض الحدث بعظمته، وموقف المشركين فيه.
- الثاني: الرد عليهم، وذلك بتذكيرهم وتهديدهم بأحوال القيامة.
- الثالث: عرض قصص الأقوام المكذبة للرسل.
- الرابع: العودة لخطاب أهل مكة وتهديدهم.

وترتبط هذه الموضوعات ارتباطا يفضي كل مقصد إلى الآخر، وتقوم فيها علاقات معنوية، ووشائج لغوية .

النظم البلاغي لآيات السورة:

سميت السورة بسورة القمر، لأنها أخبرت عن معجزة انشقاق القمر في أول آية فيها، قال تعالى:﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [2]، وقد بُني المعنى على جملتين: اقتراب الساعة، وانشقاق القمر، ولم يقل: انشق القمر، واقتربت الساعة، إنما بدأ باقتراب الساعة، وربطها بانشقاق القمر، وذلك للتخويف بأمرها، وفي اقتراب غير ما في قرب، لأن الاقتراب على وزن افتعال يعني الاعتمال، وكأن الساعة تمشي قليلاً قليلاً حتى أوشكت أن تصل، وفيها مزيد تخويف، وإشعار برهبة حصولها. وفي سورة الأنبياء:﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [3]، وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [4]، وفي هذا التجسيد مزيد تخويف وإيقاظ للغافلين عنها، وسورة القمر نزلت قبل سورة الأنبياء.

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٧/ ٧٤)، البحر المحيط (٨/ ١٦٦).

(٢) القمر:آية (١).

(٣) الأنبياء: آية (١).

(٤) الأنبياء: آية (٩٧).

وعطف على اقتراب الساعة إنشقاق القمر، وهي معجزة حصلت حقيقة برواية الصحابة، وبعض المعجزات التي جرت على يد رسول الله ﷺ ذكرت في القرآن، والبعض الآخر ذكرت في السنة كنبع الماء بين يديه، وحنين الجذع، ولما كانت معجزة انشقاق القمر من المعجزات العظيمة ذكرت في القرآن، واقترنت بشيء عظيم وهو اقتراب الساعة.

وانشق على وزن انفعل أي حصل منه الانشقاق بقدرة الله، وفي إسناد الفعل للقمر تجسيد لهذا الحدث بعد وقوعه، وبيان أهميته وأنه قد وقع، فالسورة سجلت الحدث بعد وقوعه، وربط القمر بالقيامة؛ لأن في كليهما تحول لبعض آيات الكون العظيمة، فبينه وبين القيامة مناسبة التحول والتغيير، ثم بينت الآيات موقفهم من هذا الحدث العظيم:﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[1]، فالآية بينت موقفهم ووصفت حالهم بعد تلقي الآيات وصفاً دقيقاً بأسلوب الشرط الذي بين أن هذا هو ديدنهم، وما اعتادوا عليه، فهم يروا، يعرضوا، يقولوا، وجاء بالمضارع للدلالة على أن حالهم في الاستقبال كمثل حالهم في الماضي، كما أن المضارع يصور حالة تجديد التكذيب التي هم عليها، فما أن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر، وأن هذا ديدنهم ودأبهم، وفي ذلك اتهامهم في عقولهم التي لا تفكر.

وفي تنكير ﴿ ءَايَةً ﴾ دلالة على العموم؛ لمجيئها على الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فهم يعرضون عن كل آية جاء بها هذا النبي، ثم إنهم حين يعرضون يقولون ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ، فوصفوا الآية بأنها سحر، سحر بها محمد أعينهم، ووصفوا السحر بأنه ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ، ومستمر لها معنيان: إما أن تكون الكلمة مشتقة من الفعل (مرَّ) وهو مجاز في الزوال، والسين والتاء لتقوية الفعل، أي لا يبقى القمر منشقاً، أو تكون الكلمة مشتقة من (المِرة) بكسر الميم أي القوة والتمكن، والسين والتاء للطلب، والمعنى أنه سحر معروف منه متكرر قوي[2]، واتساع معنى الكلمة وتنوعها؛ دلالة على ثراء الكلمات القرآنية في معانيها.

ثم يعطف على هذه الآية ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ آية ﴿ وَكَذَّبُواْ

---

(١) القمر: آية (٢).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ١٧٢).

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [1] بالواو؛ للدلالة على أن الإعراض غير التكذيب، ولو لم تعطف لكان الإعراض هو التكذيب، وفي ذلك بيان لشناعة أمرهم فهم يعرضوا ويكذبوا بالقول، فالواو تفيد عطف جملة على جملة، أي أنهم جمعوا بين الإعراض والتكذيب، وآية ﴿وَكَذَّبُواْ ......﴾ تتكون من جملتين، جملة ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾، وجملة التذييل ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، وهذه الآية هي النسيج اللغوي التي قامت عليها السورة، فهي كقطب الرحى التي تدور حولها كل معاني السورة؛ حيث نجد في كل قصة بعد ذلك هذه الوشيجة: كذبوا، ثم كذبت.. كذبت..، وهذه الآية تصور موقف الكفار في الماضي، وأن التكذيب هذا كما أنه هو في الحال كذلك كان في الماضي، وكيف أنه متغلغل في نشاز البشر منذ أن خلق الله الأرض وأرسل الرسل، وعلة التكذيب هو اتباع الهوى؛ لذلك قال ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فهذه الواو من قبيل عطف العلة على المعلول.

وفي جمع الأهواء إشارة إلى أن أهواءهم متعددة من حيث حب الرئاسة، وحسد الأنبياء على ما آتاهم، والاستكبار، ومحبة الأصنام، وغيرها، فالتكذيب ناتج عن اتباع أهواء النفس التي لا حصر لها، وكم من هوى نفس يردي بصاحبها المهالك.

وتأتي جملة ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ تذييلاً للجملتين المتقابلتين اللتين ذكرتا تكذيبهم في الحال والماضي، وجملة ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ تعلن حكمة إلهية أجراها الله في هذا الكون، وهي تعادل ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [2] في سورة الأنعام، وآية القمر جاءت في سياق تهديد المكذبين، أما في الأنعام فقد جاءت بعد ذكر قدرته وتصرفه في خلقه؛ ولذلك ذكر (النبأ)، والنبأ هو الخبر ذو الفائدة العظيمة، أما (الأمر) فهو يعم الأمور ذوات التأثير، والتي يستجيب لها العقل كآية القمر[3]، ومثل هذه الجملة القصيرة تجري مجرى المثل، وهي كثيرة في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[4].

وقد جاءت جملة ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ على هذا النحو من الاختصار المبهر، وقيمتها في أن أسندت كل إلى أمر فأفاد العموم، ثم في إسناد الاستقرار لكل أمر؛ فقيمة اللفظ في صلته بما قبله، كما أن مزية هذه الجملة تعود إلى أنها صادرة من رب العالمين الذي يعلم ما

---

(١) القمر: آية (٣).

(٢) آية (٦٧).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٧٣/٢٧).

(٤) الإسراء: آية (٨١).

كان وما سيكون، ثم إن الكلام تمثيل حيث شبهت حالة ترد الأمر بين الظهور والخفاء إلى أن يتمكن بحال سير السائر إلى المكان المطلوب في مختلف الطرق بين بعد وقرب إلى أن يستقر في المكان المطلوب، كما أن فيها استعارة تمثيلية مكنية؛ لأن المشبه به محذوف، ورمز له بذكر شيء من روادف معناه وهو وصف مستقر[1]. فقد شبه الأمر في حالة ظهوره وخفائه بإنسان يتردد في أمرين حتى حصل له الاستقرار ثم حذف الإنسان وتركت صفته وهي مستقر ، وهذه هي قرينة المكنية

وفي هذه الجملة المختصرة فيوضات من المعاني، وقد أفاض المفسرون في تفسير هذا المستقر فقالوا: ما كان في الدنيا فسيظهر، وما كان في الآخرة فسيعرف، ومن معانيها: أن الخير يستقر بأهل الخير، والشر بأهل الشر، وأن الحق يستقر ظاهراً ثابتاً والباطل زاهقاً ذاهباً، وأن كل أمر يستقر على خذلان أو نصرة في الدنيا وسعادة أو شقاوة في الآخرة.

وفي هذه الآية تعريض بأن دعوته ﷺ سوف تظهر ويرسخ أمرها، كما أن فيها تأنيساً للرسول ﷺ، وتسلية له لما يجده من تكذيبهم. ومستقر اسم فاعل من (قَرَّ)، والسين والتاء للمبالغة، أي سيكون لهذا الأمر استقرار كامل تام.

ونلاحظ التناغم والتلاؤم الصوتي بين كل من سحر مستمر- أمر مستقر، فبين سحر وأمر تناسب، وبين مستمر ومستقر تناسب في الوزن الصوتي وتجانس في اللفظين ، وهذا يتناسب مع الأمر الذي عرضت له السورة من إعراض المشركين عن معجزة ليس فيها مجال للشك.

ثم يقيم الله عليهم الحجج في تكذيبهم، فقد جاءتهم أنباء السابقين لتذكيرهم لكنهم لم يستجيبوا قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [2]، فالإخبار بشأن الأمم المهلكة قد جاءتهم، وسماها القرآن (أنباء)، والنبأ هو الخبر المهم الذي له شأن عظيم، و(من) تفيد التبعيض، وفي القرآن أخبار كثيرة منها ما فيه عبرة وعظة.

وفي قوله تعالى: ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ جعل الازدجار مظروفاً فيه مجاز؛ للمبالغة في ملازمته له على طريقة التجريد، فكأن الأنباء ظرف في داخله الازدجار ، والتجريد هو أن ينتزع من أمر

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٧٣/٢٧).

(٢) القمر:آية (٤-٥). ٢ - انظر معجم البلاغة العربية ، د / بدوي طبانه ،ص ١٢٤

ذي صفة أمرا أخر مثله مبالغة في كماله (٢) فقد بلغت الأنباء حدا من الازدجار صح معها أن نستخلص منها ازدجارا أخر

(مزدجر) مصدر ميمي مصاغ بصيغة اسم المفعول من الفعل (زجر)، وازدجر على وزن افتعل، وفيه مبالغة فالقصص ليس زجراً وإنما ازدجار، فهي موعظة بلغت غايتها، فلابد أن يتعظوا ة ويؤمنوا بعد أن عاينوا تلك الأنباء ووقفوا عليها، وفي تقديم الجار والمجرور الخبر على المبتدأ مزيد عناية بما في الازدجار.

ثم وصفت هذه الأنباء بأنها﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ قطع الكلام ثم استؤنف، فوصفت الأنباء بأنها حكمة بالغة، وحكمة خبر مبتدأ محذوف أي هي حكمة بالغة[1]، والحذف يأتي في الكلام لإيجاز العبارة، وتصفيتها ثم بنائها على إثارة الحس والفكر. يقول عنه عبد القاهر الجرجاني: (هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر)[2]، وأجمله ما يقوم الحذف على القطع والاستئناف، أي يذكر الشيء ثم يقطع ثم يستأنف الحديث عنه.

والحذف في الآية فيه تفخيم لأمر هذه الأنباء التي أعرض عنها الناس ولم يستفيدوا منها، وهذا الحذف يناسب جريان السورة على الإيجاز والاختصار.

والحكمة: هي إصابة الحق بالعلم والعقل، والحكمة من الله معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام[3]، وهذه الأنباء التي أتى بها الله هي من الحق الذي يدرك بالعلم والعقل، ثم وصفت الحكمة بأنها بالغة، أي أن من طبعها أن تصل إلى كل قلب حتى تبلغ أقصاه، فهي تبلغ العقل، وتبلغ القلب، وتبلغ الفهم؛ ولذلك قال ابن عاشور: (بالغة أي واصلة إلى المقصود مفيدة لصاحبها)[4]، وهذا يدل على أن الحكمة في غاية الإحكام، وعلى ذلك فلم تغير هذه الحكمة موقفهم؛ لذلك ذيلت بقوله تعالى:﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ ، وعطفت بالفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة؛ لأنها مظنة الإغناء، و(ما) هنا قد تكون نافية أو استفهامية، فإذا كانت نافية فمعناها لا تغني عنهم النذر بعد هذه الحكمة البليغة التي لم يؤمنوا بها استكباراً وعناداً، ويحتمل أن تكون استفهامية للإنكار، أي فماذا تفيد النذر في

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٧/ ٧٩).

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص(١٤٦).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (١٢٧).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٧٩).

أمثالهم، وجاءت (تغني) دون أغنت بالمضارع لتصوير الحالة التي هم عليها من عدم الإقلاع عن ضلالهم وأنه مستمر مع كل موعظة يوعظون بها، والنذر جمع نذير، ويراد بها الأنبياء والرسل الذين يرسلهم الله إلى أقوامهم منذرين، أو قد يراد بالنذر كل ما أرسل إليهم من رسل ومواعظ وأنباء، واعتبار كلا المعنيين يعطي الآية ثراءً في المعنى وردع لكل معاند.

ونتأمل ما وراء ذلك من يأس في هدايتهم؛ ولذلك بنى على هذا الكلام أمر الرسول بالتولي عنهم قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾[1]، وجاء الأمر موصولاً بهذه الفاء السببية مبني على ما قبله ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ أي أعرض عنهم بسبب عدم تأثرهم بالنذر، والرسول ﷺ هو من تلك النذر، فما دام أن النذر لم تنفعهم وأنت نذير فاتركهم وأعرض عنهم، وهكذا تكون المناسبة قائمة بين الآيتين، وفي ذلك تبرئة للرسول ﷺ عن تقصيره في التبليغ وتسلية له مما كان يكابده من الإلحاح في هداية الناس، فبعد أن جاء نص إغناء النذر وأنه لا ينفع فيهم تذكير ولا تبليغ، وأنهم صموا عن سماع الحق جاء الأمر بالتولي بالفاء السببية.

ويكثر مثل هذا الأسلوب في القرآن الكريم قال الله تعالى:﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾[2]، ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾[3]، ولكن تأمل مجيئه في هذه السورة الموجزة تجده كلمتين﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾.

وبعد هذا الأمر تستأنف جملة وعيد، ووجه الصلة أن الأمر بالتولي مؤذن بغضب ووعيد، فذكرت أحوال يوم القيامة قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[4]، ونتأمل كيف تداخل الأمر بالتولي مع أحوال يوم القيامة، فهل التولي يكون يوم يدع الداع، لقد قدر بعض المفسرين محذوفاً في الكلام تقديره فتول عنهم إلى يوم ...[5] والتولي معناه الإعراض عنهم وعن مجادلتهم بعد مجيء الآيات ، وجملة "يوم يدعو الداع" جملة استئنافية ، وفي هذا الأمر براءة الرسول صلى الله عليه وسلم من حق التقصير في أداء الرسالة ،وتطمينه بأنه أدى الأمانة وهذا ما نفهمه من معنى المعنى

---

(١) سورة القمر:آية (٦).

(٢) سورة الذاريات:آية(٥٤).

(٣) سورة النجم:آية (٢٩).

(٤) سورة القمر: آية (٦-٨).

(٥) انظر: روح المعاني للألوسي (٧٩/٢٧)، البحر المحيط لأبي حيان (١٧٤/٨)(١٨٥).

وجاء ذكر يوم القيامة؛ لتخويف المعاندين المكذبين، وذكرت الآيات مشهداً من مشاهد يوم القيامة يصور الخوف والهلع الذي عليه الناس في ذلك اليوم، وهذا المشهد يتكون من خمسة عناصر: الأول:﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ والداع هو إسرافيل، وهذه الجملة مبهمة فيها من الخوف والرعب ما فيها، فقد نُكر يوم، ثم وصف بأن داعياً يدعو فيه، ولم يذكر من هو الداع، ثم إنه يدعوا إلى شيء نكر، ولم يذكر ما هو الشيء فهو مبهم لا تعرفه النفوس، ثم وصف الشيء بأنه نكر فزادها إبهاماً، ونُكر أي تنكره النفوس وتكرهه، وكلمة ﴿ نُّكُرٍ ﴾ من الكلمات النادرة في اللغة فهي صفة بضمتين، وهذا الوزن قليل في الصفات، فمنه قولهم (روض أُنُف) أي لم ترعه الماشية[1]، وفي نكر معنى الشدة وصعوبة الموقف، وهي أكثر تعبيراً من قولهم: (شيء منكر)، فتأمل هذه الكلمة وكيف جاءت لتصف أحداثاً نادرة لا تحدث إلا في ذلك اليوم.

ثم وصفت الآيات أحوال الناس في ذلك اليوم، وهو العنصر الثاني في المشهد فوصفت أبصارهم؛ لأن آثار الشيء يظهر أولا على العين فقال تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ ﴾ ، وخشوع البصر خضوعه واستسلامه، وأنه لا يثبت على شيء، وهو كناية عن الذل والشدة.

ويكثر في القرآن ذكر أحوال البصر حين يبين مشاعر النفوس وأحوالها يوم القيامة قال تعالى: ﴿ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[2]، ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾[3]، ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾[4]، وقد جمعت خشعاً في هذه الآية دون غيرها؛ وذلك لبيان توالي الهول وكثرته، وأنه ليس خشوعاً واحداً بل خشوعاً بعد خشوع، وهول فوق هول.

وتكتمل الصورة في العنصر الثالث حين تصور كيفية خروجهم من القبور ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [5]، جاء التشبيه ليبين الهيئة التي يخرجون بها من الأجداث، فالمشبه خروجهم من القبور، والمشبه به الجراد المنتشر في الكثرة والسرعة، والتموج والحركة، والجراد من طبعه ألا يمشي إلا في جماعات، وكأنها من بعيد قطعة واحدة، وذكر ابن عاشور أن معنى المنتشر المنبث على وجه الأرض، والمراد

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي (٢٧/٧٩).

(٢) سورة الأنبياء: آية (٩٧).

(٣) سورة النازعات: آية (٨-٩).

(٤) سورة القلم: آية (٤٣).

(٥) سورة القمر: آية (٧).

بها فراخ الجراد التي تظهر أجنحتها فتخرج من ثقب في الأرض، يزحف بعضه فوق بعض، وهذا يناسب ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ [1] أي حال خروجهم بسرعة كهيئة الفراش متعاظلاً بعضه فوق بعض[2]، وهذا معنى جيد يصور الخوف والهلع الذي عليه الناس في ذلك اليوم يتدافعون ويتحركون ماضين إلى محشرهم من غير هدى.

وقد شبه الناس يوم القيامة في سورة القارعة بالفراش المبثوث قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [3]، وفرق بين هذه الصورة والصورة في سورة القمر، فالفراش المبثوث يضرب مثلاً للخفة والتهافت هنا وهناك، ووصف الفراش بالمبثوث؛ لأن البث معناه التفريق وإثارة الشيء كبث الريح والتراب، فهو المهيج بعد سكون[4]، وهذه حال الفراش يطيش هنا وهناك، أما الانتشار فيكون فيما له تماسك من نشر الثوب والصحيفة[5]، وأرى أن الصورتين تكملان بعضها بعضاً؛ حيث تشبهان الناس في حالتين الأولى هم كالفراش حين يخرجون من قبورهم فزعين لا يهتدون إلى أين يتجهون، ثم يكونون كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر.

أما العنصر الرابع في الصورة فهو حين يصفهم بأنهم ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾، والهطع في اللغة تصويب البصر والعنق نحو شيء ما[6]، وهي مشية المذعور الخائف، وناهيك عن خوف ذلك اليوم، ولنتأمل صورتهم وهم يمدون أعناقهم وأبصارهم في خوف وفزع جادين في السير إلى ما يدعو إليه الداع.

ويأتي العنصر الخامس ليكمل الصورة فيصف قولهم بعد أن ذكر هيئتهم ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾، وفي ذكر الفاعل دلالة على أن المؤمن يكون في أمن وسلام، أما الكافر فيقول هذا يوم عسر، وعبّر بعسر؛ لشدة الموقف حتى أنه لا يستطيع أن يتم الكلمة فيقول هذا يوم عسير، كما أن عسر فيها زيادة معنى العسر، وأسند العسر لليوم باعتبار كونه زمناً لأمور عسيرة شديدة.

---

(١) سورة المعارج: آية (٤٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٧٩/٢٧).

(٣) سورة القارعة: آية (٤).

(٤) المفردات في غريب القرآن ص(٣٧).

(٥) المصدر السابق ص(٥٠).

(٦) المفردات ص(٥٢).

ينقطع الكلام هنا ليستأنف موضوعاً آخر في السورة.

فبعد أن تفرعت الآيات من ﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ؛ لتذكيرهم وتهديدهم، عاد الحديث لبيان تكذيب الأمم السابقة، فعطفت على (كذبوا) عطف القصة على القصة، فبدئت بقصة نوح مع قومه.

القصة الأولى: قصة قوم نوح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1] .

أول قصة عرضتها السورة قصة نوح، وقد بدئت بـ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ عطفاً على كذبوا، فكلمة (كذب) هي الخيط الذي يربط بين جزئيات معاني السورة، وهي المعنى الذي تدور حوله كل موضوعات السورة –وكما قلنا سابقاً– فلكل سورة من القرآن معنى تقوم عليه، وتلتف المعاني حوله، وقصة نوح هنا جاءت مختصرة موجزة ويختلف ورودها في القرآن طولاً وقصراً، وقد وردت قصة نوح في القرآن في تسع سور، وذكرت مفصلة في سورة هود وسورة نوح، بينما جاءت مختصرة في كل من سورة يونس والأنبياء والمؤمنين، في آيات عدة، وأشير إليها إشارة موجزة في كل من سورة الفرقان والشعراء والصافات والعنكبوت.

بدأت القصة بالجملة الخبرية ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، ثم طوت القصة أحداثاً تبين كيفية دعوته التي ذكرت في بقية السورة، وفي قوله ﴿ قَبْلَهُمْ ﴾ إشارة إلى أن هذه الآيات هي عبرة لكفار قريش، وأنهم هم المخاطبون بها ليتعظوا، ثم قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ بهذه الفاء التي تفيد التعقيب، وهي تخفي وراءها أحداث تكذيبهم، ولو لم ترد الفاء لكانت (كذبوا) بياناً للتكذيب الأول، وذكر المفعول ﴿ عَبْدَنَا ﴾ دون الضمير أو دون ذكر اسمه صراحة؛ دلالة على كمال عبوديته لله وتشريف له بأنه عبد لله، ثم ذكرت الآيات تكذيب قومه له ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ كلمتان مختصرتان توافق نظم السورة الذي بني على السرعة والتركيز والإيجاز، وقد اتهموه بصفة يصف بها الكفار أنبياءهم عادة وهي الجنون.

---

(١) سورة القمر: آية (٩–١٧).

وإذا تأملنا أقوال قوم نوح في بقية السور نجدها تختلف وتتفاوت على حسب موضوع السورة، فمثلاً في سورة يونس ذكر تكذيبهم إجمالاً ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ ﴾[1]، وفي الشعراء ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [2]، ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾[3]، وفي سورة المؤمنين: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [4]، فسورة المؤمنين ذكرت اتهامهم له بالجنون، ثم طلبه للنصر من رب العالمين، وهي أقرب إلى آيات القمر، ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ في قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ، وكذلك ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ قريبة من ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ . وآيات القمر أكثر إيجازاً.

وفي قوله:﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ من الفعل زجر، وهي صيغة افتعال على وزن افتعل، وقد بني الفعل للمجهول، والمراد المنع من أداء الرسالة بقوة وقسوة وغلظة، والكلمة تحمل معنى الاتهام والزجر والمنع، وكل ما كانوا يفعلونه ذكره القرآن مفصلاً في سورة أخرى قال تعالى:﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [5]،﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ [6]، ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [7]، فهذه الأفعال مع نبيهم من التهديد والسخرية والاتهام قد اختصرت في كلمة ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ ، ونتأمل الكلمة بحروفها وجرسها وامتزاج حروفها تعبر عن المعنى الذي سيقت له؛ ولذلك جعل علماء الإعجاز الإيجاز وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، ثم تنطلق دعوة نوح عليه السلام بعد يأس من إيمانهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ هذه الآية تصور ضعف نوح ويأسه وإحساسه بالظلم بعد تجربة مريرة مع قومه بلغت ألف سنة إلا خمسين عاماً، ونكاد نرى ضعف نوح عليه السلام وتوسله وهو يطلق زفراته ويرفع يده داعياً ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ ، وما أجمل هذه الكلمات وما

---

(١) آية:(٧٣).

(٢) آية :(١١١).

(٣) آية : (١١٦).

(٤) آية: (٢٤-٢٦).

(٥) سورة الأعراف: آية (٦٠).

(٦) سورة هود: آية (٣٨).

(٧) سورة الشعراء: آية (١١٦).

أصدقها في وجازتها وقصرها، وامتلاء المعاني فيها. كلمتان أطلقها هزت عرش الرحمن بعد أن بذل كل وسائل الإقناع، لكن التكذيب والإعراض حال دون تحقيق ما يريد، فأطلق هذه الزفرة الأخيرة ودعوة الأنبياء مستجابة.

وجاء التوكيد في صدر الجملة الخبرية؛ للإشعار بأن أمراً أهمّ نفسه حتى يُعطى حقه من الإصغاء والحفاوة، ثم عطف عليه الأمر ﴿ فَٱنتَصِرۡ ﴾ ، وهو أمر يفيد الدعاء والسرعة والطلب بهذه الفاء الملحقة به، وقال ﴿ فَٱنتَصِرۡ ﴾ ولم يقل فانصرني، مراعاة لفاصلة الكلام وإيجازاً للكلام هذا أولاً، وثانياً أن ينتصر أبلغ من انصرني؛ لأن انصرني أي خذ بحقي فقط، أما انتصر أي خذ منهم بثأري وثأر غيري ممن نال الأذى منهم؛ لأن الكافر لا يؤذي من يدعوه إنما يؤذي كل من في الأرض بكفره وظلمه.

ثم كانت الإجابة السريعة من السماء، وكان المدد الإلهي، وعقاب الظالمين وانتصار للمظلوم ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴾ ، ولا نرى سورة فصلت كيفية حدوث الطوفان كما فصلته هذه السورة، وبدأت بالفاء التي تفيد التعقيب؛ لبيان سرعة نزول العذاب، فالفتح كان بعد انتهائه من الدعاء.

وهذه الآيات فيها من البلاغة والإعجاز ما فيها، فالسماء لها أبواب ينزل منها قدر الله كما يصعد إليها حاجات المخلوقين، فدعاء نوح عليه السلام صعد إلى السماء فكانت الإجابة، حيث فتحت أبوب السماء بماء منهمر، وهي هيئة تمثيلية لحالة دفق الأمطار من سحب السماء بهيئة خروج الجماعات من الأبواب، والهمر هو الصب الشديد، وقد أسند الفعل إلى الله بناءً على حال المتكلمين، وما أشده أن كان من الخالق ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، وفي أبواب معنى الكثرة، وفي إسنادها إلى السماء معنى العظمة، وللسماء أبواب ، ولأبواب السماء مفاتيح تفتح بها، ومفاتيحها الماء المنهمرة، وتأمل الفتح بالماء، وما في الباء من معنى التعدية، فالماء كالآلة يفتح به من شدة تدفقه، وقيل معنى (الباء) الحال أي ففتحناها متلبسة بهذا الماء[1].

ويعدّ الجار والمجرور ﴿ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴾ معقد المعنى ورأسه؛ لأننا لو قال: ففتحنا أبواب السماء لم يدل على شيء[2]، ففيها جمال المعنى ودلالته على الكثرة والشدة. وهذه حال

---

(1) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٧/ ١٧٧).

(2) انظر: كتابي عبد القاهر لمحمد أبو موسى ص(٢٤٠).

السماء، أما حال الأرض فكان أشد ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ فالعيون قد انتشرت في كل مكان من الأرض، فكأن الأرض كلها قد صارت عيوناً تتفجر، وهذا أبلغ من وفجرنا عيون الأرض.

وقد وقف إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني أمام هذه الآية وبيّن موضع العظمة والهيبة فيها فقال: (وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد صارت عيوناً كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان فيها، ولو أُجري اللفظ على ظاهره فقيل: (وفجرنا عيون الأرض، أو العيون في الأرض) لم يُفد ذلك ولم يدل عليه، ولكان المفهوم أن الماء قد كان فار من عيونٍ متفرقة في الأرض)[1].

ثم كان التناسق والتناغم العجيب بين ماء الأرض وماء السماء ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ التقى الماءان كما يلتقي الجيشان، والتعريف في الماء للجنس أي جنس الماء، ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ ﴾ والأمر هو الحال والشأن والأمر العظيم[2]، وهل هناك أمر أعظم من هذا، وهذا الأمر ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي قدرة الله عنده في اللوح المحفوظ منذ أن خلق السماء والأرض، وقد تفيد تحقيق وتوكيد الكلام الداخلة عليه، وفي بناء (قُدّر) للمجهول بضم القاف أي قدرة الله، وفي البناء للمجهول ومجيء الفعل دون فاعل أو مفعول دلالة العظمة والسيطرة والألوهية، وأن هناك مقدر لا يدرك كنهه أحد.

يقول ابن عاشور: (ووصف الأمر بأنه ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي أتقن وأحكم بمقدار قال تعالى:﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾)[3].

وتأتي آيات سورة هود: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ تكملة لهذا المشهد، وكان المشهدان في السورتين وجهان لحقيقة واحدة، وهي تصوير العذاب بصورة بليغة متفردة، ففي سورة القمر وصف لبداية نزول العذاب، وفي هود وصف لنهايته. فآية ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ تقابل﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ، و ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ تقابل ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ ، و﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ تقابل ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ ، وقد نزلت سورة هود بعد سورة القمر فكانت تكملة لها.

---

(١) دلائل الإعجاز ص(١٠٢).

(٢) المفردات ص(٢٤).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٨٤/٢٧).

ثم كانت نجاة نوح ﴿ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ، والألواح : الخشب جمع لوح، وهي القطعة المسواة من الخشب، والدسر: المسامير الواحد: دسار[1]. وتعبير ﴿ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ يكنى بها عن السفينة، وفي ذكرهما بيان بأن السفينة محكمة قوية بالدسر والألواح في هذا الموقف الشديد الذي أحاط خطره بكل شيء، فهي قد صنعت برعاية الله وعنايته ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[2]، والتنكير في﴿ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ يفيد التعظيم والنوعية، فهي من نوع عظيم من الألواح والدسر محاطة برعاية الله، فهي تجري بين أمواج كالجبال فلا تتأثر بها، ويمكن أن تكون الكناية عن السفينة بذات الواح ودسر تهويناً لها، وأنها صنعت من أشياء متواضعة لكنها تصارع الأمواج بأمر الله وقدرة الله وحفظ الله، وفي ذلك تكريم لهذه الفئة المؤمنة ، فقد نجاهم الله وهي على سطوح ألواح ودسر[3].

وذكر ﴿ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ﴾ التي للاستعلاء، والحمل كان في الداخل بدلالة قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾[4]، ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[5] وفي ذلك دلالة التمكين[6]، ولذلك قال بعدها ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ فكما صنعت السفينة بعينه سبحانه وتعالى فقد جرت بعينه﴿ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ ، والعين تطلق مجازاً على الاهتمام والعناية والرعاية، وبإثبات صفة العين تثبت الرؤية والحفظ والعناية.

والله سبحانه وتعالى منزه عن الأعضاء والجوارح، فمعنى أعيننا أي عظيم عنايتنا، وذلك أن من كان عظيم العناية بالشيء فإنه يضع عينه عليه، ووضع العين سبب للعناية فصارت العين كناية عن الحفظ والاحتياط، وفي جمع الأعين دلالة التعظيم وتقوية المعنى، وأنها حراسات وعنايات متنوعة الآثار، ثم كانت علة الحفظ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ ، و﴿ جَزَآءً ﴾ مفعول لأجله أي فعلنا ذلك جزاء لمن كفر به، وهي كناية عن نوحﷺ الذي كفر به قومه، وعبر ب(كان) التي للماضي للدلالة على طول مدة كفرهم، وكيف أنهم استحقوا العذاب لطول عنادهم، وفي مدها بيان لطول مدة تكذيبهم.

---

(١) المفردات ص(١٦٩).

(٢) سورة المؤمنين: آية (٢٧).

(٣) انظر: التصوير البياني لمحمد أبو موسى ص(٤١٨).

(٤) سورة الحاقة: آية (١١).

(٥) سورة هود: آية (٤٠).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (١٨٥/٢٧).

ولنتأمل هذه العبارة المتفردة في الكناية، فهي كناية عن موصوف وهو نوح ﷺ، الذي أخلص لربه وجدّ في دعوة قومه ليلاً ونهاراً فكان جزاؤه حفظ الله له من الطوفان الشديد الذي لم ينج منه أحد إلا بأمر الله، وفي ذلك إشارة إلى أن حفظ الله ورعايته يحيطان بعبده الذي يخلص في عبوديته، وما أدراك ما رعاية الله وما حفظه حين تحيطان بعبده.

وتأمل اسم الموصول (من) الذي يخفي وراءه ذلك النبي العظيم، ثم (كان) التي تدل على طول عهد التكذيب، و﴿ كُفِرَ﴾ التي بنيت للمجهول؛ لتفيد اختصار (كفر به المكذبون) وتخفي وراءها شدة الكفر التي كان عليها قومه.

ثم تختم القصة بهذا التوكيد ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ والترك إبقاء الشيء وعدم زواله[1]، وقد أبقى الله سفينة نوح شاهدة على انتقام الله ممن عصاه. وأكدت باللام وقد، ويقال: إن السفينة ظلت على جبل الجودي محفوظة من البلى تشهدها الأمم، كما جعل الله ديار عاد وثمود شاهدين على عذاب الله لمن كذب، والضمير في﴿ تَّرَكْنَـٰهَآ﴾ للتعظيم، وفي سورة العنكبوت ﴿ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2] ، وبين﴿ تَّرَكْنَـٰهَآ ﴾ و﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ ﴾ مناسبة للسياق الذي وردت فيه كل منهما، ففي العنكبوت جاءت ابتداءً، ولذلك قال﴿ وَجَعَلْنَـٰهَآ ﴾ ، وهنا جاءت في آيات الطوفان وحركتها بين الأمواج ثم حفظ الله لها[3].

وختمت الآية بقوله:﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ بالاستفهام الذي معناه الأمر، أي اذكروا واتعظوا مما حصل، وقد ذكرت هذه الآية بعد قصة الأنبياء في موضعين من السورة : الموضع الأول هنا؛ حيث ختمت بها قصة نوح ﷺ، والموضع الثاني: ختمت بها القصة الأخيرة في السورة، وهي قصة فرعون.

وبنظرة أخيرة على نظم الآية نجد أن الأحداث في القصة ترابطت بالحرفين الواو والفاء، جاءت الفاء لتشير إلى تتابع الأحداث؛ حيث بدأت تتوالى تباعاً ﴿ فَكَذَّبُوا ،.. فَدَعَا ،.. فَٱنتَصِرْ،.. فَفَتَحْنَآ ﴾، فهم لم يتركوا لأنفسهم مجالاً للتكفير، بل كان التكذيب يتوالى بعد الدعوة، فلما كان اليأس كانت دعوة النبي الذي انفتحت لها أبواب السماء مباشرة.

ثم نرى الواو تربط بين أجزاء القصة الداخلية ﴿ وَفَجَّرْنَا ..... وَحَمَلْنَـٰهُ ﴾، وهكذا تلاحمت

---

(١) المفردات ص(٧٤).

(٢) سورة العنكبوت: آية (١٥).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ١٩٨).

الجمل وترابطت.

وتنتهي قصة نوح عليه السلام مع قومه لتأتي آيات تحمل معنى الترهيب والترغيب، تتكرر في كل قصة من قصص الأمم المكذبة، قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ استفهام للتعظيم والتعجب، أي كان على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف، والنذر جمع نذير وهو من الفعل (أنذر)، والإنذار إخبار فيه تخويف[1]، وجمعت لتكرار الإنذار من الرسول لقومه طلباً لإيمانهم[2]، وقد ذكرت هذه الآية في أربعة مواضع من السورة.

وبعد آية الترهيب هذه جاء الترغيب ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، ووجه المناسبة بينهما أنه لما ذُكرت قصص الأقوام المكذبة نبه إلى أنها في القرآن الذي يسره الله لكل الناس ليقرؤوه ويفهموه.

ومجيء المعاني على هذا الوجه هو من باب دمج المعاني المتنوعة المختلفة وإفراغها إفراغاً واحداً، حتى يُرى الكلام الذي يتضمن المعاني المتنوعة المختلفة متلاحماً قد أفرغ إفراغاً واحداً يخلو من إعياء الخروج من معنى إلى معنى آخر، وهذا هو الباب الذي ذكره الباقلاني، واعتبره وجهاً من وجوه إعجاز القرآن[3].

وقد أكدت جملة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ باللام وقد؛ لمواجهة المشركين، والتيسير والسهولة وعدم التكلف في تحصيل المطلوب، وقيّد التيسير بأنه للذكر، وتيسير القرآن تيسيران: تيسير لفظ ، وتيسير معنى، فكلمات القرآن جاءت على أبلغ لفظ وأفصح تركيب، مبرأة من الغريب والوحشي، لها سلاسة وحلاوة؛ بحيث يسهل حفظها في الأذهان، وهذا التيسير كان من أجل الذكر والإفادة مما فيه، ولذلك جاء بعدها أسلوب الاستفهام ليفيد معنى الأمر في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي اذكروا واتعظوا.

وعلى ذلك فالإدكار إدكاران: إدكار جاء بعد قصة نوح عليه السلام، وإدكار بعد ذكر القرآن .

القصة الثانية: قصة قوم عاد:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ

---

(١) انظر: المفردات ص(٤٨٧).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٨٧/٢٧).

(٣) انظر: إعجاز القرآن ص(٣٨).و الإعجاز البلاغي ، د / محمد أبو موسى ص ٢٠٨

مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1].

شروع في قصة جديدة لم تعطف إشارة إلى أن كل قصة مستقلة في القصد والاتعاظ[2]. وهذا من باب القطع والاستئناف، ولم تعطف على ما قبلها لكمال الاتصال بينهما، فقصة عاد عطفت على قصة نوح وهما متفرعتان من جملة ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ التي هي رأس الفكرة، وهكذا تتعاطف الجمل بدون الواو، وقد تترابط القصص القرآنية في السورة بالواو كما في سورة النمل يبدأ بقوله تعالى:﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾[3] ويستمر بجملة حتى يبدأ مقطع آخر بالواو وهو ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾[4]، ثم تستمر القصة ويترادف الكلام موصولاً ومفصولاً حتى تبدأ قصة ثمود ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ، وهكذا تتعاطف هذه الجمل بتفريعاتها[5]، وهكذا في سورة القمر، ولكنها بدون الواو .ففي النمل جاءت الآيات لتبين نعمة الله على الأنبياء ، وفي القمر جاءت كل قصة موعظة بذاتها متكاملة في بيانها ، تنهض بالغرض وحدها .

وقصة عاد ذكرت في مواطن كثيرة من القرآن، واختصرت هنا بأن ذُكر جزاؤهم فقط، بينما نجد تفاصيلها في سور أخرى كالأعراف، فقد استوعبت القصة في سبع آيات من الآية الخامسة والستين إلى الآية الثانية والسبعين؛ حيث ذكرت حوار قوم عاد مع نبيهم، ثم اختصر العذاب في آية واحدة ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [6]، وفي سورة هود ذكر الحوار بين هود وقومه ثم أوجز العذاب في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [7]، أما في الذاريات فقد ذكر نوع العذاب المرسل إليهم ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [8].

(١) سورة القمر: آية (١٨-٢٢).
(٢) انظر: روح المعاني (٢٨/ ٨٤).
(٣) آية: (٧).
(٤) آية: (١٥).
(٥) انظر: دلالات التراكيب، لمحمد أبو موسى ص(٣٥٩).
(٦) سورة الأعراف:آية (٧٢).
(٧) سورة هود:آية (٥٨).
(٨) سورة الذاريات:آية (٤١-٤٢).

وفصل ذكر العذاب أيضاً في سورة الحاقة قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾[1]، وسورة الحاقة أقرب إلى سورة القمر في نظم آياتها.

وقد بدأت آيات القمر بقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾، ولما كان أكثر القوم قد كذبوه نسب التكذيب إليهم جميعاً، ثم فرع على الجملة آية ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ قبل أن يذكر تكذيبهم كما في قصة نوح، تشويقاً لما بعده من ذكر العذاب، وتهويلاً لأمر التكذيب، وأنه محق للعذاب، ولتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى ما يُلقى إليهم قبل ذكره[2].

ثم يأتي ذكر العذاب ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ ، وقد وصفت الريح بأنها ﴿ صَرْصَرًا ﴾ ، وفي الحاقة ﴿ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ ، وفي الذاريات ﴿ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ ، والصرصر: هي الريح الباردة، وأصل الصرّ: الشدّ، لما في البرودة من التَّعَقُّدِ[3]، وفي ذلك دلالة على أن الريح كانت شديدة جداً، ووصفت في الحاقة بأنها عاتية، والعتو: نبؤ عن الطاعة[4]، وكأن الريح قد خرجت عن طورها وصارت نافرة تضرب يمنة ويسرة.

ثم تأمل وصف اليوم في القمر بأنه﴿ يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ ، والنحس هو الشؤم، وأصل النحس أن يحمر الأفق فيصير كالنحاس، أي لهب بلا دخان، فصار ذلك مثلاً للشؤم[5]. وتأتي الفاصلة لتصف يوم النحس بأنه ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ دلالة على طوله ودوام ما فيه، وقيد في الحاقة زمن الاستمرار ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ .

ثم وصفت الآيات ما فعلته الريح بهم ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أي تنزع الناس وترميهم على الأرض خفافاً فارغين، والنزع: الإزالة بشدة حتى لا يبقى اتصال بين المزال والمزال عنه، وهذا يناسب ما عرفوا به من ضخامة الأجسام وعتو الرياح الشديدة .

ثم شبههم ب﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ ، والمنقعر: الذي أزيل من نهايته بعد أن كان ضارباً

(١) سورة الحاقة:آية (٦)(٨).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٨ / ١٧٠).

(٣) المفردات ص(٢٧٩).

(٤) المفردات ص(٣٢١).

(٥) المفردات ص(٥٢).

في أعماق الأرض، وهذا يناسب قوله في المشبه ﴿ تَنزِعُ ﴾ فالنزع والمنقعر يشتركان في أن كلاهما إخراج من الأصول. وهكذا تتقابل الكلمات وتتناغم في معانيها في سياق الآية الواحدة.

أما في الحاقة فقد جاء تشبيههم بأعجاز نخل خاوية ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ، فهنا تشبيه لنزعهم، وهناك تشبيه لهم وهم صرعى، هناك نخل نزع من أعماقه، وهنا نخل خاوية، والخاوي يشمل المنقعر وزيادة، فكل نخل منقعر هو نخل خاوي، وليس كل خاوٍ منقعر. وأنّث خاوية؛ لأنه أكثر من المنقعر، وأن دماره أبلغ فناسب أن تأتي في سياق التدمير، والتأنيث يأتي للكثرة والمبالغة[١]، وذكر المفسرون أن النخل ذُكّر في آية القمر للنظر إلى اللفظ، وأنّث في الحاقة للنظر إلى المعنى[٢]، والنخل في الحاقة أكثر من النخل في آية القمر؛ لأنه جاء في سياق فصِّل فيه العذاب، أما في القمر فقد بنيت القصة على الإيجاز والسرعة.

وتختم القصة بما ختمت به قصة نوح عليه السلام ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، والاستفهام في ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ للتهويل. ويعلل الكرماني تكرارها مرتين باعتبار أن الأولى في الدنيا والثانية في العقبى، وقيل: الأولى لتحذيرهم قبل إهلاكهم، والثانية: لتحذير غيرهم بهم بعد هلاكهم[٣].

وينفي أبو السعود أن تكون الآية تكراراً فيقول: (﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ تهويل لهما، وتعجب من أمرهما بعد بيانهما، فليس فيه شائبة تكرار، وما قيل من أن الأولى لما حاق بهم في الدنيا، والثانية لما يحيق بهم في الآخرة يرده ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي)[٤].

ومن وجه آخر يعلل التكرار بأن عاداً لما كذبوا هودا عليه السلام امتحنوا بالقحط الشديد، واشتد الأمر عليهم فخوفوا بـ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ الأولى، ثم لما لم يُجْد ذلك عليهم مع أليم امتحانهم به أهلكوا بالريح العقيم، فامتحنوا بعذابين)[٥].

وأرى أن هذه الآيات جاءت لتحقيق الإيجاز الذي بنيت عليه السورة ذلك أن آية ﴿ فَكَيْفَ

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٨/ ١٧١).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٩/ ١٧١)، تفسير الألوسي (٢٧/ ٨٧).

(٣) انظر: أسرار التكرار في القرآن، لمحمود بن حمزة الكرماني ص(١٩٧).

(٤) انظر: ملاك التأويل، لأحمد بن الزبير الغرناطي (٢/ ٨٧٨).

(٥) تفسير أبي السعود (٨/ ١٧١).

كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل لما فعلوه، وكأنها تخفي وراءها كثيراً من المعاني التي تنوء بها الكلمات في هذا الموقف، فألقى الاستفهام ليحمل في طياته كثيراً من المعاني الخفية وراء هذه القصة.

القصة الثالثة: قصة قوم صالح عليه السلام:

ذكرت قصة قوم صالح في عشر آيات، وهي أطول قصة في هذه السورة، وقد بدئت بما بدأت به قصة نوح وعاد (كَذَّبَتْ) وهي كما قلنا: الخيط الذي يجمع بين كل القصص في هذه السورة.

قال تعالى:﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [1]

أسند التكذيب إلى ثمود وهي قبيلة كانت تسكن مدائن صالح، ونبيهم صالح عليه السلام، وفرق بين (كذبت ثمود النذر) و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾، لأن المراد بالنذر صالح وما جاء به،وقد ذكرت الآيات تكذيبهم بالناقة ، بخلاف كذب النذر أي الرسل المرسلون إليهم، وقد تتبعت ذلك في القرآن فوجدت أن التعدي يأتي بالباء حين يراد التكذيب بما جاء به الرسول، ولا يعدى إذا كان المراد تكذيب النبي قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[2]، ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾[3]، وقال: ﴿كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾[4]، ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾[5].

وجمعت النذر والمراد بها بيان كثرة ما كان ينذرهم به نبيهم، ثم عطف عليها جملة تكذيبهم بصالح عليه السلام ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾، وقد عطفت بالفاء للدلالة على أن تكذيبهم للآيات أعقبه تكذيبهم لرسولهم، وكأنهما متلازمان متعاقبان، ودار تكذيبهم حول أمرين: الأول: نفي بشرية الرسول، والثاني: نفي

---

(١) سورة القمر:آية (٢٣ -٣٢).

(٢) سورة الأعراف:آية (٤٠).

(٣) سورة الأنعام:آية (٥٧).

(٤) سورة الفرقان:آية (٣٧).

(٥) سورة سبأ:آية (٤٥).

اتباع نبي ليس له أتباع ولا أعوان، فهم أنكروا بشريته ثم أنكروا وحدته، وفي إنكار أن يكون بشراً مرسلاً إليهم إنكار لنبوته على أبلغ وجه.

وقد دخلت الهمزة على ﴿ أَبَشَرًا ﴾ وهي مفعول به، فالهمزة تدخل على المسئول عنه، وفرق بين (أنتبع بشراً) وبين (أبشرا نتبعه) ففي الأول: إنكار أن يتبعوا، وفي الثاني: إنكار اتباع بشر، وأرادوا أن يكون الرسول من جنس غير جنس البشر.

وهذا ما أصّله عبد القاهر الجرجاني وهو يتحدث عن الاستفهام في الهمزة، وقد ذكر هذه الآية وهو يتحدث عن تقديم المفعول على المضارع يقول: (إن للتقديم من الحسن والمزية والفخامة لا يكون لو أخر؛ وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشراً لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع، وينتهي إلى ما يأمر، ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى، وأنهم مأمورون بطاعته)[1].

وفي تنكير البشر تحقيرً له، فهم لم يقولوا أصالحاً نتبعه، أو أرجلاً نتبعه، بل قالوا: ﴿ أَبَشَرًا ﴾ ، وقالوا:﴿ مِّنَّا ﴾ ؛ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة بينهم أقوى[2]. وإنكار بشرية الرسول كان ديدن كل المكذبين، ففي قصة نوح﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ﴾ [3]، وقال قوم شعيب لنبيهم﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [4].

ثم عطف على بشر قولهم: ﴿ وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ أي منفرداً لا تبع له، فأنكروا أيضاً أن يكون المتبع منفرداً لا تبع له، أو واحداً من آحادهم لا من أشرافهم، ففي مفهومهم أن كلاً من الجنسية والوحدة مما يمنع إتباعهم، وفائدة تقديم (واحداً) المفعول على (نتبعه) أنهم قدّموا في الكلام ما تعلقهم به أكثر، وهم يريدون أن يبينوا أنهم محقين في ترك الإتباع، فلو قالوا أنتبع بشراً يمكن أن يقال: نعم اتبعوه وماذا يمنعكم من إتباعه، فإذا قدموا حاله وقالوا: هو من نوعنا بشر ومن صنفنا، وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم، فكيف نتبعه؟ فيكونوا قد قدموا الموجب لجواز الامتناع من الإتباع[5]. وهذا رأي الفخر الرازي، وقد أثبته

---

(١) دلائل الإعجاز (١٢١-١٢٢).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط (٨/ ١٨٠).

(٣) سورة التغابن:آية (٦)..

(٤) سورة الشعراء:آية (١٨٥-١٨٦).

(٥) التفسير الكبير (٢٩/ ٥٠).

لأهميته.

نعود فنقول: إن كل هذه الأعذار التي قدموها لا تتفق مع العقل وهي مراوغة أهل الكفر والضلال، ثم ذكروا ما سيؤلون إليه إن اتبعوا صالحاً فقالوا: ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ ، والضلال: عدم الاهتداء إلى الطريق، والسعر: جمع سعير وهو العذاب، وقيل: معناه الجنون[1]. وروي أن نبيهم كان يقول لهم: إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر أي نيران، فعكسوا ذلك عليه[2]، وقد يكون المراد أنهم قالوا: لو اتبعناه فإنا إذاً في الحال في ضلال وسعر من الذل والعبودية؛ لأنهم لم يكونوا يعترفون بالسعير فاستخدموا الضلال والسعر مجازاً في الذل والعبودية، وهذا ما سمي عند البلاغيين بأسلوب الحكيم، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده، وعبد القاهر يسمي هذا الأسلوب المغالطة.[3]

وفي جمعهم سعير على سعر؛ للدلالة على شدة ما يصيبهم إن هم اتبعوا نبيهم، وكأنهم أحرص على أنفسهم منه، ثم عطفوا على إنكارهم الأول إنكاراً آخر فقالوا: ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ فهم ينكرون أن يكونوا قد أوحي إليه وفيهم من هو أحق منه، كما أنهم ينفون نزول الوحي عليه.

والنفي بطريقة الاستفهام أبلغ، يقول الفخر الرازي وكان ذا حسٍ بلاغي متميز في تفسير القرآن: (لأن من قال ما أنزل عليه الذكر ربما يعلم أو يظن أن السامع يكذبه، فإذا ذكر بطريقة الاستفهام يكون معناه أن السامع يجيبني بقوله: ما أنزل، فيجعل الأمر حينئذٍ منفياً ظاهراً لا يخفى على أحد، بل كل أحد يقول ما أنزل)[4].

وفي قولهم: ﴿ أَءُلْقِىَ ﴾ بدل أأنزل إنكار عن طريق المبالغة؛ لأن الإلقاء معناه الإنزال بسرعة، فهم يستبعدون أن يكون هناك إنزال من السماء البعيدة، ولو قالوا: (أأنزل) فيه إشارة إلى أنهم مؤمنون به، ثم أكدوا ذلك التكذيب بقوله: ﴿ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ أي أن فيهم من هو أحق منه، وهذا تفكير المعاندين والجهلة الذين يقيسون الأمور على وفق عاداتهم وأهوائهم، ثم اتهموه بالكذب فقالوا: ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ ، و(بل) حرف إضراب يأتي بعده

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٩٧/٢٧).
(٢) انظر: البحر المحيط (١٨٠/٨).
(٣) انظر: خصائص التراكيب، د. محمد أبو موسى ص(٢١١).
(٤) التفسير الكبير (٥١/٢٨).

جملة فيكون معنى الإضراب إما الإبطال أو الانتقال[1]. فهم أثبتوا أنه ليس نبيا، ثم نسبوه إلى الكذب، وهذا من أشد شناعات أفعال من كفر بالله، وفي ذلك تعريض لمكذبي قريش، وتشابه كلامهم لكلام هؤلاء القوم.

و(الكذاب) على وزن فعّال من فاعل للمبالغة، والمبالغة إما في الكثرة أو الشدة في أنه يقول مالا يقبله العقل. والأشر: هو الفرح البطر، والأشر أكثر من البطر، فاتهموه بأنه معجب بنفسه مدع ما ليس فيه[2]، وهذه جراءة وتعدي من القوم حين وصفوه بهاتين الصفتين الكاذبتين.

ثم يأتي الرد الإلهي متوعدًا ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ ، وليس المراد بالغد اليوم الثاني إنما يدل على قرب زمن الجزاء، وأن الرد والجزاء سيكون قريباً بدلالة ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ بالسين التي يراد بها المستقبل القريب، وهو رد غليظ على كلامهم.

ثم ينتقل الخطاب إلى نبي الله صالح﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ وفرق بين أن تحكي القصة على سبيل الماضي أحداثاً وقعت كأن يقول: فأرسل الله الناقة لهم وقال لصالح: أخبرهم أن الماء قسمة بينهم، وبين ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ ﴾ بطريق المستقبل؛ لأنها بمعنى إنا نرسل الناقة، ويدل عليه﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ ، وفي التعبير عن الأحداث الماضية بصيغة المضارع استحضار للحدث وكأنه يقع الآن . فيكون تأثيره أكثر.

ثم أمره بأمور أولا﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ ومعنى ارتقب: فعل أمر مزيد من (رقب) على وزن افتعل، أي تنظر وتبصر ما هم فاعلون[3]. ويترتب على هذا الترقب مزيداً من الصبر؛ فلذلك قال له:﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ ، واصطبر على وزن افتعل، وزيادة المبنى زيادة في المعنى، أي اصبر صبراً لا يخالطه ضجر على ما يفعلونه مما قد تنكره ويصعب عليك من القول والفعل، وفي هذا دلالة على أن وراء هذه المراقبة والصبر نزول النصر من الله، ثم عطف على هذا الترقب والاصطبار أمراً ثانياً وهو إخباره بحال هذه المعجزة ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ ، والنبأ غير الخبر، ولا يكون إلا فيما عظم من الأمور، وهذا النبأ هو أن هذه الناقة ستشاركهم

---

(١) انظر: مغني اللبيب لابن هشام (١/١١٢).

(٢) المفردات ص(١٨).

(٣) تفسير النهر الماد لأبي حيان في هامش تفسير البحر المحيط (٨/١٧٩).

في شرب الماء، وقد كانت ناقة عظيمة، فجعل الله الماء يوماً للناقة ويوماً للقوم، وهنا تكون الفتنة هل يقبلوا بما أمرهم الله به، أم يعصونه؟ وفي تعريف الماء بال العهدية دلالة على أنه الماء الذي يستقي منه أهل القرية، و﴿ قِسْمَةٌ ﴾ أي مقسوم، وعبر عن اسم المفعول بالمصدر للتأكيد والمبالغة، والشِرب بكسر الشين هو نوبة الاستسقاء من الماء[1]، وجملة ﴿ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ جملة مختصرة متفردة يؤكدها آية سورة الشعراء ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [2]، ومعنى﴿ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أي لا يحضر في هذا اليوم إلا من خُصص له الماء للشرب، وال﴿ مُّحْتَضَرٌ ﴾ بكسر الضاد اسم مفعول من الحضور، والمراد محتضر عنده.

ولنتأمل الإيجاز المبهر في هذه الآية ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ ، ومناط الفخامة في الحذف والإضمار، ففي﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ يعود الضمير على القوم، و﴿ قِسْمَةٌ ﴾ أي مقسوم، والإضمار في﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين القوم والناقة، و﴿ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أي محتضر عنده، وهذا الإيجاز يلائم هذه السورة التي بنيت على ذلك.

وبعد هذا كله ماذا فعل القوم ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ ، وفي العطف بالفاء دلالة أنهم كذبوا وسارعوا بالتدبير لهذه الناقة، والنداء هنا نداء المستغيث له؛ ليغروه بقتل الناقة، والمنادى هو رجل يسمى قُدار بن سالف أو أحمر ثمود، وكان من ساداتهم وكان أجرأهم، ولم يذكر اسمه بل سمي﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ ؛ لأنه كان مشاركاً لهم في التكذيب، وما كان منه إلا أن ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ ، ونتأمل هذه (الفاء) التي تدل على سرعة تجاوبه معهم، وعدم تفكيره في العاقبة. ومعنى (تعاطى) أي تناول على صيغة (تفاعل)، أي كل واحد كان متردداً في قتل الناقة تخوفاً حتى كأنه يعطي ما بيده لغيره حتى أخذها قدار فقتل الناقة[3]، و(الفاء) دلالة سرعة إتيانه لما دعوه من أجله.

وعبر بالعقر عن القتل؛ لأن العقر في اللغة هو قطع إحدى قوائم الدابة ثم نحرها، يفعل ذلك كي لا تشرد عند النحر[4]، ثم صار العقر يطلق على مجرد القتل بأي وسيلة، وقيل: إنهم ضربوها بالنبل فعبر عن ذلك بالعقر.وذلك في كل آيات القرآن قال تعالى في الشعراء:

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٠).

(٢) سورة الشعراء:آية (١٥٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (٨/ ١٨١).

(٤) انظر: لسان العرب (/ ٥٩٢).

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾[1]، وقال في هود: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [2]، وفي الشمس:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾[3].

ثم يقول تعالى بعده:﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[4] بالاستفهام؛ ليبين شدة غضبه سبحانه وتعالى، ويؤذن بإنزال العذاب به، ويختلف معنى الاستفهام هنا عن معناه قبل هذا، وذلك حسب السياق الذي وردت فيه، وبهذا وإن كررت الآية في الألفاظ فإنها تفيد في كل سياقٍ معنى يناسب القصة التي وردت فيه، وبهذا يظهر الإعجاز القرآني؛ ولذلك لما كان المراد بالآية هنا شدة غضبه تعالى جاء بعدها ذكر العذاب الذي نزل بقوم صالح قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾[5] جواباً للاستفهام بأسلوب تشبيه موجز.

وقد جرت طريقة سرد المعنى ونظمه على ما جرت عليه قصة عاد؛ حيث جاء ذكر العذاب بعد التهديد في قوله تعالى:﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ مع فارق وهو أن في قصة عاد لم يذكر ما فعلوه إنما اختصرت بذكر العذاب، أما هنا فقد فصل تكذيب قوم صالح ثم ذكر العذاب، ومن شأن أسلوب الاستفهام أنه لا يجهر بالحقيقة إنما يظل المعنى مسنداً إلى السامع يقلبه بين عينيه فيصل إلى المعنى، وفي هذه إثارة لحركة الفكر والحس؛ لتتهيأ نفسه لتلقي الخواطر والمعاني والصور التي يؤديها الاستفهام؛ ولذلك قال عبد القاهر في فائدة الاستفهام: (فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع)[6]. وهذا التنبيه الذي ذكره هو ما يثار حول الأسلوب من حقائق ومشاعر وخواطر لا تكون إلا به.

وجاء بيان العذاب هنا على طريقة التشبيه كما في قصة عاد، وأسلوب التشبيه يأتي ليوضح المعنى ويصوره واقعاً، فيكون أوقع في القلب وأبلغ في أداء المعنى.

وقد أرسل الله عليهم﴿ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ والصيحة هي الصاعقة في فصلت والذاريات، وهي الطاغية في الحاقة، والرجفة في الأعراف، ووصفت بأنها واحدة أي: هائلة شديدة كافية

---

(١) سورة الشعراء:آية (١٥٧).

(٢) سورة هود:آية (٦٥).

(٣) سورة الشمس:آية (١٤).

(٤) سورة القمر:آية (٣٠).

(٥) سورة القمر:آية (٣١).

(٦) سورة القمر:آية (٣١).

لإهلاكهم، وفيها دلالة القدرة الإلهية. ﴿ فَكَانُواْ ﴾ أي صاروا، و(الهشيم) هو ما يبس وجفّ وتكسر من العشب والشجر، ويروى أنهم من الصيحة تفتتوا وهمدوا وصاروا كهشيم المحتظر و﴿ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾ بكسر الفاء وهو الذي يعمل في الحظيرة، وذلك بأنه يجمع الهشيم من الشجر ويلقيه في الأرض، وهكذا صار الظالمون على هيئة مهينة فتتت أجسامهم ويبست وأُلقوا على الأرض، وفي إضافة ﴿ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾ للهشيم حيث تؤدي معنى الإهانة والازدراء لهؤلاء العصاة، فهم لا كرامة لهم إنهم كالهشيم التي تطأه الدواب[1].

هذا التشبيه شبيه بعرض أجساد أصحاب الفيل في قوله تعالى: ﴿ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴾ [2] والعصف المأكول: هو ورق الشجر بعد أن تأكله الدواب وتروثه، فأجسادهم تفتت وصارت إلى حالة أخرى، وفي :﴿ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾ بيان لتفتت أجسادهم ولكنها بقيت كما هي، ومعنى الاحتقار والازدراء وارد في التشبيهين بيّن واضح. ثم تختم القصة بما ختمت بها سابقتها ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ [3] تكرار للتذكر والاتعاظ بما أنزل الله.

وفي تفصيل قصة قوم ثمود دون غيرها من القصص في هذه السورة؛ لمشابهة حالهم بحال كفار قريش، ومعجزتهم بمعجزة صالح من حيث غرابتها. يقول الفخر الرازي: (واعلم أن الله ذكر في هذه السور خمس قصص، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه؛ لأن حال صالح كان أكثر مشابهة بحال محمد ﷺ؛ لأنه أتى بأمر أرضي كان أعجب مما جاء به الأنبياء)[4].

القصة الرابعة: قصة قوم لوط عليه السلام:

قال تعالى:﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ۝٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ [5].

---

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (١٧٩/٨).

(٢) سورة الفيل:آية (٤-٥).

(٣) سورة القمر:آية (٣٢).

(٤) التفسير الكبير (٥٣/٢٩).

(٥) سورة القمر:آية (٣٣-٤٠).

بدأت القصة بما بدئت به القصص السابقة ﴿كَذَّبَتْ﴾ والتكذيب هنا كان من قوم لوط، وأضيف القوم للوط؛ لأنه لم يكن لهم اسم يُعرفون به عند العرب كقوم عاد وقوم ثمود، وكانوا يسكنون (سدوم) و(عمورة) من أرض كنعان عند شاطئ البحر الميت المسمى (ببحيرة لوط)، وقد أحدثوا فاحشة استمتاع الرجال بالرجال، فأرسل الله لهم لوطا عليه السلام، فنهاهم عن ذلك لكنهم استكبروا واستمروا في غيهم، فأرسل الله عليهم العذاب، ولم تذكر القصة هنا كيفية تكذيبهم لوطا كما في قصة قوم ثمود، وكما في قصتهم في سورة الأعراف وهود والحجر؛ وذلك لأن سورة القمر بنيت على معنى تهديد المشركين لإعراضهم، وتذكيرهم بما حصل للأقوام المكذبين من عذاب، وأنهم سيجدون ما وجد العصاة السابقون إن استمروا على ذلك، فلما لم يكن هناك حاجة إلى تفصيل القصة ذكر منها ما هو وجه الشبه بينهم وبين مشركي قريش.

فالآيات ركزت على ذكر عذابهم قال تعالى:﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾، وهناك في عاد﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ، وفي ثمود﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ ، ولم يترتب على التكذيب عطف بالفاء كما في بقية القصص إنما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ فكأن هناك تقدير لجملة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ لأنها لم تذكر في هذه القصة، فحذفت للإيجاز؛ ولأن قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ قامت مقامها والله أعلم.

والحاصب: هي الحصباء بدلالة قوله تعالى:﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ في سورة الحجر[1]، ولم تذكر الآية مآلهم بعد العذاب كما في القصتين السابقتين، بل أردف بمن استثنوا من العذاب وهم أهله أي بناته وهو معهم، ولم تنج زوجته لأنها كانت مع قومه قال تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [2]، وكانت نجاتهم بسحر، والسحر هو آخر الليل، والباء هنا بمعنى (في)، وقد جاءت للملابسة والمصاحبة أي نجاتهم صاحبت وقت السحر؛ لأن العذاب سينزل بهم بعد السحر فكانت النجاة ملاصقة لهذا الوقت، وكانت هذه النجاة نعمة من الله على آل لوط ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾.

---

(١) آية:(٧٤).

(٢) سورة الحجر:آية (٥٩-٦٠).

ولنتأمل ﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ ﴾ اصطفاء وتكريم خصه الله به، وما أكملها من نعمة حين تكون من عند الله، لأن الله قد يهلك الصالح بعمل الفاسد قال تعالى:﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾[1]، ثم يبعث كل بعمله، ونجاة الصالحين نعمة من الله واصطفاء لهذا المنجي، والتقدير في الآية (نجيناهم نعمة منا) نصب على أنه مفعول له، وفي تنكيرها بيان لعظمتها، وفي قوله:﴿ مِّنۡ عِندِنَاۚ ﴾ بيان لفضل الله على نبيه وحبه له، وهي أبلغ من (نعمة منا، أو أنعمنا).

ثم ذيلت الآية بقوله تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾ أي أن هذه النعمة وهذا الاصطفاء بسبب الشكر، وفي هذا وعد من الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن ينجيهم من الهلاك إن آمنوا وشكروا؛ لأن (كذلك) تعني ننجي مثل هذه النجاة من شكر، وهي تقابل ﴿ جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ في قصة نوح عليه السلام.

ثم تأتي الآيات لتذكر أفعالهم التي استحقوا عليها العذاب معطوفة بالواو، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴾ بدئت بالتوكيد بلام القسم وقد، وانتهت بكلمه (نذر) لتأكيد شناعة أفعالهم، فأولاً: أنذرهم بالبطشة، والبطش: أخذ الشيء بقوة قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴾[2]، والبطشة المرة من البطش[3]، ثم هي مضافة إلى الله أي من عند الله، وقوله:﴿ بَطۡشَتَنَا ﴾ غير بطشنا؛ لأنها بيان لجنس البطشة دلالة على شدتها، وهي مثل قوله تعالى:﴿ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ ، وأن القليل منها كفيل بإهلاكهم؛ لأنها من عند الله قال تعالى:﴿ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[4].

ثم إنهم بعد هذا الإنذار شكُّوا وكذَّبوا وتماروا بالنذر، والتماري تفاعل من المراء وهو الشك، وصيغة المفاعلة هنا للمبالغة، وقد كان منهم الشك والتكذيب بعد إنذارهم مباشرة بدلالة الفاء في ﴿ فَتَمَارَوۡاْ ﴾ التي تفيد التعقيب، وعدم مبالاتهم بكلام نبيهم، ثم عطف على جملة إنذارهم وتكذيبهم لهذا الإنذار مراودتهم للملائكة﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ، والمراودة: أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد

---

(١) سورة الأنفال:آية (٢٥).

(٢) سورة الشعراء:آية (١٣٠).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٥).

(٤) سورة البروج:آية (١٢).

غير ما يريد، وهي على صيغة مفاعلة إذا ذهب ورجع في أمر، وقد مثلت هيئة من يكرر المحاولة والمراجعة بهيئة المنصرف ثم الراجع[1]، ولذلك عديت بـ (عن) التي تبين الكيفية التي كانوا عليها من المجادلة والمراجعة وذهابهم ومجيئهم ليقنعوه بفعل الفاحشة بالأضياف، وضيف لوط هم الملائكة الذين أرسلهم الله لإبراهيم ليبشروه بإسحاق، ثم أرسلهم إلى قوم لوط لإنذارهم بالعذاب، فراودوا الملائكة، ولكن الله طمس على أعينهم يقال: إن جبريل عليه السلام كان فيهم فضرب ببعض جناحه على وجوههم فأعماهم[2]، ولم يذكر طمس الأعين إلا في سورة القمر، وأسند الفعل لكل القوم وكان الفعل من بعضهم؛ لأن هذا الأمر كان مذهبهم جميعاً ، وهذا من باب التغليب .

ثم تذيل الآية بجملة أمر للتوبيخ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي كذبتم فذوقوا عذابي ونذر، وقد انتقل الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب لمواجهتهم بالعقاب، وفيه توبيخ وتقريع وغضب على فعلهم. واستعمل الذوق في الإحساس فشبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر البشع، ويأتي ذلك في قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[3]، ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾[4]، وقد شاع استخدام الذوق في البلايا والشدائد فيقولون: ذاق فلان البؤس، وذاق العذاب، فشبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر البشع حتى صار كأنها حقيقة فيها[5].

ثم كان العذاب بعد ذلك لكل القوم﴿ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴾ ، وصبحهم: أي نزل بهم في الصباح، وأكد ببكرة، والبكرة أول الصباح، وذلك أن مدة الصباح تمتد إلى ما بعد الإسفار، ولما قال:﴿ بُكۡرَةً ﴾ أفاد أن العذاب كان في أول جزء منه، وفي ذلك دلالة على تعجيل العذاب لهم.

ولنتأمل كيف حدد الله موعد النجاة وأنها ﴿ بِسَحَرٖ ﴾ ، ثم حدد موعد العذاب وأنه ﴿ بُكۡرَةً ﴾ ثم وصف العذاب بأنه ﴿ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ من الفعل استقر، وهو اسم مفعول أي العذاب لا يقدر أحد على دفعه وإزالته، وهو ثابت عليهم لا يقصد به أحد غيرهم.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٥).

(٢) انظر: التفسير الكبير (٢٩/٦١).

(٣) سورة الدخان:آية (٤٩).

(٤) سورة السجدة:آية (١٤).

(٥) انظر: التصوير البياني للدكتور / د. محمد أبو موسى ص(٣١٤)(٣١٥).

ثم ذيلت الآيات بما ذيلت بها سابقتها ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ خطاباً لكل من أصابه العذاب، والأولى جاءت خطاباً لمن طمس الله عينه، وتختم القصة بالتذكير بالقرآن كسابقتها من القصص ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

وفي هذا التكرار تربية معنى التأمل والتدبر للقرآن في القلوب، وبثه في ضمائر هذه الأمة المتلقية لهذا البيان، فالنجاة لا تكون إلا به وهو ميسر لكل من تدبره، ويعد التكرار في القرآن أحد عناصر بلاغته، وقد ذكر في هذه السورة معنيان مختلفان اتحدا فأحاطا بكل جوانب المعنى ، وهو معنى الترهيب الذي أردف بالترغيب، وهما الأمران اللذان دارا عليهما القرآن بل والدعوة عامة، والقرآن حريص على تكرار الأمور التي يحتاج فيها إلى أن تغرس في النفوس وتمتلئ بها القلوب؛ لأن المقام مقام تربية أمة، ومثل هذه الأمور مظنة الغفلة فكررت على وجه الإيجاز لتحفظ ويظل أثرها مغروساً في القلوب.

القصة الخامسة: قصة فرعون

ثم ختمت القصص بقصة فرعون قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [1]. لم تصدر القصة (بكذبت) بل صدرت بالعطف ثم (لقد) ثم (جاء)، لأن قصته تختلف عن قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، فقد كانت رسالة موسى موجهة إلى فرعون وملئه ممن كانوا معه في دولته؛ لذلك قال تعالى:﴿ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ والآل أخص من القوم، فالقوم كل من يقوم الرئيس بأمرهم، أما الآل فهم كل من آل إلى الرئيس من أهله وخاصته، وكان هامان وقارون من آل فرعون؛ لأنهم ساروا على طريقته في التكبر والتجبر لذلك قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ [2]، وقال:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [3]، وقال: ﴿ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴾ [4]، وقال في هذه السورة: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾ بطريق الإيجاز والاختصار، وقال هنا: ﴿ جَآءَ ﴾ ولم يقل في غيرهم من الأمم المذكورة في السورة؛ لأن موسى عليه السلام كان من أمة أخرى فأرسله الله لفرعون

(١) سورة القمر:آية (٤١-٤٢).

(٢) سورة الزخرف: آية (٤٦).

(٣) سورة غافر:آية (٢٣-٢٤).

(٤) سورة العنكبوت:آية (٣٩).

فجاءة فهو ليس من القوم ، والمقصود بالنذر موسى وما جاء به من معجزات ، وقد يكون الجمع لتكرار الإنذار.

ثم تأتي جملة: ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ فذكرت كلمة ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ وهي رأس الأمر في هذه السورة، ودارت عليه كل قصص الأنبياء مع أممهم، وجاءت الجملة مفصولة دون عطف؛ لأن المعنى في جملة ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾ يثير في النفس سؤالاً ماذا كان موقفهم؟ فجاءت جملة ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ فكأن هذه الجملة تولدت وانبثقت من الجملة الأولى، وكأنها أصل انبثق منها فرع، فالعلاقة هنا كالعلاقة التي بين السؤال والجواب ، وهذا ما يسمى بشبه كمال الاتصال عند البلاغيين

يقول الفخر الرازي: (إن الحكاية مسوقة على سياق ماتقدم، فكأنه قال: فكيف كان عذابي ونذر، وقد كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم)[1].

والمراد بآياتنا هي الآيات التي أرسلها الله على يد موسى، وهي تسع آيات في قول أكثر المفسرين منها: خمس آيات ذكرت في الأعراف: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [2]، والأربع الأخرى هي انقلاب العصا حية، وظهور يده بيضاء، وسنو القحط، وانفلاق البحر[3].

وأكدت الآيات بـ﴿ كُلِّهَا ﴾ دلالة على تكذيبهم وعنادهم رغم كثرتها، ثم كانت نتيجة التكذيب بأن أخذهم أخذ عزيز مقتدر، والأخذ هو حوز الشيء وتحصيله بالقهر والقوة[4]، وهي مستعارة للعذاب والانتقام، ولم يذكر نوع الأخذ كما في القصص السابقة؛ استناداً على ما عرف من قصة موسى وفرعون.

وقد كان الأخذ شديداً فعبر عنه بأنه ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ، وناهيك عن أخذ العزيز حين يغضب. والجملة بيان لنوع الأخذ، وكيف أنه كان شديداً قوياً، صادراً من عزيز مقتدر، والعزيز: هو الذي لا يغلب، والمقتدر هو الذي لا يعجز، وبهذه الجملة ختمت قصص الأنبياء ليتجه الخطاب بعده إلى كفار مكة.

ونلحظ أن القصص كلها وإن ذكرت العذاب فلكل قصة أصل وجه السياق إليه ، فقصة

---

(١) التفسير الكبير (٢٩/٦٥).

(٢) سورة الأعراف:آية (١٣٣).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٩).

(٤) المفردات ص(١٢).

نوح ركزت على وصف العذاب ، وقصة ثمود وصفت العذاب وحالهم بعده ، وقصة صالح تحدثت عن مجادلته وتكذيبهم وقتلهم للآية التي أنزلها الله ثم إجمال العذاب ، أما قصة قوم لوط فقد ذكرت معاصيهم والعذاب الذي نزل بهم ، وقصة فرعون ذكرت مقدار عذاب الله بهم ، وقصة قوم ثمود أطولها لمشابهتها لقصة محمد صلي الله عليه وسلم كما ذكرنا ، وكلها تدور حول إنزال العذاب بالمكذب .

خطاب أهل مكة وتهديدهم:

وبعد قصة فرعون انتقل الأسلوب من الغيبة إلى خطاب كفار مكة لمواجهتهم، قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾[1].

فالسورة كانت كلها خطاباً للرسول ﷺ، وكانت تعرّض بالمكذبين في آياتها، وفي ختام السورة انتقل الكلام من التعريض إلى التصريح، فوجه لهم الخطاب، وأقام عليهم الحجة، وجاءت الآيات كنتيجة لما ذكر من قصص الأمم السابقة المكذبة، وما لاقوه من جزاء وعقاب، وقد وُجه الخطاب لهم هنا بأسلوب الاستفهام، وذكر ثلاثة أمور كانت مستقرة في نفوسهم، وكانت سبباً في إعراضهم وهو أسلوب قوي يخاطب الغافل :

الأولى: إنكار ونفي أن يكونوا خيراً من كفار الأمم الماضية، وعبر عنهم ب﴿ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾ ؛ لبعدهم في الزمن وبعدهم عن الرشد، والضمير في ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ لأهل مكة، وهم أنفسهم الكفار، وسموا بهذه التسمية ليواجههم بما هم عليه من الكفر والخروج عن أمر الله؛ لأن معنى الكفر الستر، وهؤلاء قد ستروا عقولهم عن اتباع الهدى، وعن رؤية معجزة انشقاق القمر، وعن التأمل في حال الأمم السابقة. يقول الألوسي: (إن في ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ ضرب من التجريد الذي يفيد المبالغة، فكأنه جُرد منهم كفاراً، وأضيفوا إليهم، ولم يقل (أأنتم) لأن فيه نصاً على كفرهم[2]، وكأنهم ليسوا كفاراً وهذه طريقة جيدة في الدعوة، يسند الأمر إلى غيرهم وهو صفتهم.

الأمر الثاني الذي واجههم به الله وأنكره عليهم قوله:﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾، و(أم)

---

(١) سورة القمر:آية (٤٣-٤٨).

(٢) انظر: روح المعاني (٩٢/٢٧).

للإضراب الانتقالي وما يقدر بعدها من الاستفهام يأتي للإنكار[1]، فهو تبكيت لهم ولكن من وجه آخر، أي بل ألكم براءةٌ وأمنٌ مما تعملون من الكفر والمعاصي ﴿ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ ، أي في الكتب السماوية؛ بدلالة: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[2].

ثم جاء التبكيت الثالث: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ وها انتقل الأسلوب من الخطاب للغيبة إعراضاً عنهم، وإشارة إلى أن ذلك مما لا يتحقق أصلاً إلا باللفظ[3]، فهم يرون أنهم سينتصرون على المؤمنين، وفي قوله: ﴿جَمِيعٌ ﴾ أي كل واحد منا سينتصر، وهذه ثقة ما بعدها ثقة؛ ولذلك جاء بعدها: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ ، وفي ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ ﴾ وعد من الله بهزيمة قريش بالسين التي للمستقبل القريب، وفي ﴿ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ دلالة الهزيمة النكراء؛ لأن تولية الأدبار كناية عن الهروب فهم يهزمون ويهربون، وقال: (يولون الدبر) بالجمع دون (يولون الأدبار) دلالة على أنهم سيكونون في التولية كنفس واحدة فلا يتخلف منهم أحد، أما (يولون الأدبار) فمعناه أن كل واحد يولي دبره، وفي هذا الجمع إشارة إلى شدة ما سيجدونه من هول[4].

وقد تحقق وعد الله في غزوة بدر، فقد هرب من بقي من المشركين، وكان هذا إخبار للغيب؛ ولذلك روي عن عكرمة: أنه لما نزلت هذه الآية قال عمرﷺ: أي جمع سيهزم؟ فلما رأى رسول الله ﷺ يثبت في الدرع ويقول:﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ ﴾ عرف تأويلها[5].

ثم أردف ما سيصيبهم في الدنيا ما سيصيبهم في الآخرة فقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ ، فهددهم بما سيلاقون في الآخرة، و﴿ بَلِ ﴾ حرف للإضراب الانتقالي لما هو أشد مما قبله، و﴿ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي يوم القيامة، والموعد: اسم لوقت الوعد، والأسلوب جاء على طريق التهديد كما يقال للمجرم: غداً مصيرك؛ لتخويفه، ثم كررت ﴿ ٱلسَّاعَةُ ﴾ في الجملة المعطوفة عليها، وكأنه خبر مستقل يجري مجرى المثل ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾، كما في ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ في بداية السورة، ومعنى ﴿أَدْهَىٰ ﴾ اسم تفضيل

(١) مغني اللبيب (١/٤٤).

(٢) سورة النساء:آية (١٦٣)، الإسراء:آية (٥٥).

(٣) انظر: روح المعاني (٢٧/٩٢).

(٤) انظر: التفسير الكبير (٢٩/٦٩).

(٥) انظر: جامع البيان للطبري (٢٧/٦٣-٦٤).

من دهاه إذا أصابه بداهية[1]، وهي الأمر الشديد العظيم، وعطف عليها ﴿أَمَرُّ﴾ وهي أيضاً اسم تفضيل من مرّ مرارة، وقد استعيرت هنا للإحساس بالشدة والمكروه، فالإنسان عندما يجد ما يسوؤه كأنه يتذوق المرّ، ويكثر هذا في القرآن حين توصف الأمور المعنوية بصفات المحسوسات كما يوصف العذاب بكبير أو عظيم.

ثم بينت الآيات عذاب الكفار يوم القيامة، حيث بُنيت الآيات على الفصل للاستئناف، وبيان ما يحصل في ذلك اليوم ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أكد الخبر بـ(إن)، وسمى الكفار مجرمين بناءً على ما كانوا عليه في الدنيا، وهذا من المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما كانوا عليه، وأصل الجرم قطع الثمرة من الشجر[2]، ثم استعير لكل من اكتسب مكروهاً، ويسمي القرآن الكفار في اليوم الآخر مجرمين باعتبار ما كانوا عليه في الدنيا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ [3]، وقال:﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ [4]، وقال:﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [5]، وفي هذه الآية المجرمون في ضلال وسعر، والضلال: هو الخسران في الدنيا، والسعر جمع سعير وهي النار الشديدة في الآخرة، و(في) ظرفية، أي أنهم متلبسون بالنار والضياع في الآخرة، ومحاطة عليهم إحاطة الظرف بالمظروف، هذه الحالة الأولى، ثم الحالة الثانية: أنهم يعذبون ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ والسحب: هو الجر، وهو في النار أشد من ملازمة المكان، لأن به يتجدد العذاب، ثم جعل السحب على وجوههم إهانة لهم[6]، وخص الوجه دون سائر الأعضاء، لأنه أكثر أعضاء الإنسان إحساساً، كما أن في إيذائه إهانة لصاحبه، ويقال لهم: ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ وحذف الفعل وذكر مقول القول لدلالة السياق عليه، والذوق كما قلنا سابقاً مستعار للإحساس، وفي أسلوب الأمر معنى الإهانة والمجازاة، و﴿ سَقَرَ﴾ اسم من أسماء النار، وهي اسم علم لجهنم مشتقة من السّقْر بسكون القاف وهي التهاب النار[7]،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١٤).

(٢) المفردات ص(٩١).

(٣) سورة المطففين:آية (٢٩).

(٤) سورة المرسلات:آية (٤٦).

(٥) سورة الزخرف:آية (٧٤).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١٥).

(٧) انظر: روح المعاني للألوسي (٢٨/ ٩٣).

وذكرت لتبين شدة العذاب.

وقد كررت ﴿ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ مرتين في السورة، مرة على لسان قوم صالح حين أمرهم باتباعه، ومرة لبيان عذاب الكفار في الآخرة في هذه الآية، والمراد بالضلال هناك ضد الهدى، والسُّعر بمعنى الجنون من قول العرب: ناقة مسعورة، وهكذا نجد أن القرآن الكريم يعطي مجالات واسعة للألفاظ ؛ حيث تتعدد معانيها بحسب السياق الوارد فيه.

وبعد هذا الوعيد والإنذار يعلن سبحانه وتعالى سيطرته وهيمنته على الكون ومن فيه، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ وتأتي الجملة مستأنفة ومصدرة بالتوكيد، و﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مفعول به لخلقنا و ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ جار ومجرور في حكم المفعول به الثاني لخلقنا ، وجاء التقديم للاختصاص أي اختصاصه بخلق كل شيء، وليس المقصود الإخبار بالخلق بل الإخبار بقدرته وعلمه وحكمته في الخلق، فكما أنه تعالى قادر على هؤلاء المجرمين فإن له أكثر من ذلك، فقد خلق كل شيء بقدر، و﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ يشمل كل ما هو موجود من الجواهر والأعراض، وتقدير الله للأشياء على وجهين: أحدهما إعطاء القدرة، وثانيهما: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضته الحكمة[1]، ويؤكد الآية قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [2]، ووجه مناسبة الآية لسياقها أن الله هو المسيطر على ما يحدث في الأرض وفي السماء، وكل ما جرى للمكذبين كان بأمر الله، وكل ما سيجري للمكذبين الآن فهو بأمر الله وقدرته، وعلى ذلك فقد جاءت هذه الآية تذييلاً لآيات الإنذار والعقاب قبلها.

وبعد إثبات خلقه وعلمه جاءت آية إثبات قدرته فقال: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ فأعقب العلم بالقدرة وهذا يأتي كثيراً في القرآن الكريم، فقد جمع هذين الأمرين في قوله تعالى:﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [3]، وأمر الله واحدة أي كلمة واحدة وهي (كن)، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [4] أي أمره نافذ بيسر وسهولة، ذلك أن الأقوام السابقة التي كذبت لم يعرفوا وقت وقوع العذاب فلما جاءهم كان بغتة، وفي الآية تهديد وتحذير لكفار مكة من أن يأخذهم العذاب بغتة كلمح البصر، واللمح النظر

---

(١) المفردات ص(٣٩٥).

(٢) سورة الرعد:آية (٨).

٣) سورة الأعراف:آية (٥٤).

(٤) سورة يس:آية (٨٢).

السريع، وإخلاس النظر يقال: لمح البصر ولمح البرق[1].

ولما كان لمح البصر أسرع فقد شبه نفوذ أمره وتحققه بسرعة لمح البصر، كما شبهت سرعة حلول يوم القيامة بلمح البصر في قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[2]، وهذا التشبيه من أبلغ ما جاء به القرآن، فهل يتصور وجود مدة أقل من لمح البصر.

وتأمل كيف أكدت الآية الأولى (بإن) وكيف أكدت هنا بأسلوب القصر، وهو يفيد تأكيد الكلام، والمبالغة في توضيح الأحكام، لأن القصر إثبات شيء لشيء ونفيه عن غيره، والخبر بالنفي والاستثناء لا يكون إلا لأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، أو يكون في المعاني التي تحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد، ولا تأتي هذه الأداة إلا حيث التعبير الشديد والنبرة العالية، والكفار كانوا ينكرون معجزة انشقاق القمر وينكرون الساعة، فجاء التعبير عن قدرته بهذا الأسلوب الشديد.

ثم بين تعالى أن أمره النافذ قد أهلك السابقين فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ، فانتقل الكلام إلى خطاب المشركين تهديداً مؤكداً باللام وقد، و﴿ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أي أمثالكم في الكفر، ثم فرع عليها الاستفهام ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي اذكروا واتعظوا، وجاء الاستفهام ليتفكروا وليعودوا إلى أنفسهم وينظروا ماذا فُعل بالسابقين المكذبين ليتم اتعاظهم.

وجملة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ تكررت ست مرات في السورة، أربع مرات مع الاتعاظ بالقرآن، ومرتين في سياق آيات أخرى وفي نهاية قصة نوح ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ومدكر أصلها مذتكر أبدلت التاء دالاً مهملة، ثم أبدلت المعجمة مهملة لمقاربتها، وقُرئ (مدتكر) على الأصل[3]، ويختلف معنى الاستفهام حين تأتي وحدها، وحين ترتبط بتيسير القرآن، ذلك أنها حين ترتبط بتيسير القرآن فإنها تحث الهمم للاتعاظ والتذكر والتدبر والفهم للقرآن، وحين تنفك من تيسير القرآن يكون معناها الاتعاظ والاعتبار بما وقع للأمم السابقة الذين كذبوا الرسل.

---

(١) انظر: المفردات (ص٤٥٤).

(٢) سورة النحل:آية (٧٧).

(٣) البحر المحيط (١٧٨/٨).

ثم يدل سبحانه على قدرته في رصد أعمال على هؤلاء الكفار فقال: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ فكل شيء فعلوه مقيد في الزبر، و(الزبر) جمع زبور وهو الكتاب مشتق من الزبر وهي الكتابة، وعبر عن هذا الكتاب بهذا اللفظ هنا، وهو في مواضع أخرى كتاب:﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾[1]، ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾[2]، وجاءت (الزبر) دون الكتابة لرعاية فواصل السورة التي قامت على روي الراء في كل آياتها.

وتأتي الآية بعدها لتشرح مقدار هذه الكتابة وكيفيتها معطوفة بالواو، فكل ما صغر وكبر سطر في هذا الكتاب، والصغير مستعار للشيء الحقير الذي يستهان بفعله، والكبير ما كان عظيماً من الذنوب قال تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ ، وقد قدمت الصغيرة على الكبيرة؛ للدلالة على أن الكتبة لا يفوتها شيئاً مما يعمله الإنسان، فالصغيرة وإن كانت حقيرة تكتب ولها أهميتها؛ لأن عادة الإنسان ألا يهتم بالصغائر وقد ينساها، لكنها عند الله ذات مكانة وتكتب قبل الكبيرة، و﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أي مكتوب وهي اسم مفعول من الفعل استطر، وفيها معنى الدقة والعناية بأمر هذا المكتوب.

* ذكر أحوال المؤمنين:

جرياً على طريقة القرآن في تقابل المعاني فقد ذكر تعالى في هذه السورة أحوال المؤمنين بعد أن ذكر أحوال المجرمين وحالهم، وإن كانت السورة كلها في ذكر أحوال الكفار السابقين وكفار مكة، فقد ختمت السورة بذكر أحوال المؤمنين في آيتين موجزتين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[3].

ومن سمات القرآن الكريم أنه يعقب النذارة بالبشارة، وأحوال أهل الجنة بعد أحوال أهل النار أو العكس حسب سياق الآيات والسورة التي جاءت فيها هذه الآيات، وهذا هو التقابل أو المقابلة، وهو فن بلاغي يكثر في الكتاب والسنة، فترى الشيء وضده، وبه تتمايز الأشياء ، فلا نعرف حقيقة الإيمان إلا إذا أدركنا حقيقة الكفر، ونخوض في قلب الظلمة

---

(١) سورة الكهف:آية (٤٩).

(٢) سورة الإسراء:آية (١٣).

(٣) سورة القمر:آية (٥٤-٥٥).

لندرك قيمة النور. وهذا الفن لا يخص لغة دون لغة، إنما هو مغروس في النفس الإنسانية وفي الكون من حولنا، فالإنسان تتقلب حياته بين المتناقضات من فرح وحزن، وغنى وفقر، وحب وكره، وكذلك الكون من حولنا يعبق بالمتناقضات فهذا الليل أمامه نهار، وهذه شمس وراءها قمر وهكذا، وكل صورة تساعد على بيان الصورة الأخرى.

ونلاحظ التقابل بين ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ وما قبلها ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ ، فالبناء واحد بين الجملتين، فأكدت (بإن) وهنا ﴿ جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ ، وهناك ﴿ ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ ، و(في) الظرفية تعني إن المتقين متلبسين بالجنات تلبس الظرف بالمظروف؛ لتغمرهم النعمة من كل مكان، كما أن الكافرين واقعين متلبسين في الضلال والسعير.

كما تتفق الجملتان المتقابلتان في الوزن وفي عدد الحروف أيضاً، فهناك واحد وعشرون حرفاً وهنا إحدى وعشرون حرفاً، وجمعت ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ ؛ لدلالة كثرة النعيم، وأنها نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، ثم وحد ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ للإشارة إلى أن سعادة الإنسان أن يكون في الجنة عند نهر، ولا يكون منغمساً فيه، فنهر واحد يكفيه ليتنعم به وتستلذ عينه به، ونكر لعظمته، وقد يؤول بأن المراد: (في جنات وعند نهر) على سبيل المجاورة كقولنا: تقلدت سيفاً ورمحاً، علفتها تبناً وماءً بارداً، فجمع بين التبن والماء للمجاورة[1]، وجمع السعر للكفار لزيادة العذاب وأنه سعير فوق سعير.

ثم حدد مكان تلك الجنات فقال تعالى: ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ وهي بدل: فهم في جنات في مقعد صدق، موضع مختار لهم، والمقعد مكان القعود، ثم وصف بأنه صدق على سبيل المجاز العقلي، والعلاقة المكانية ، والمراد مقعد فيه أهل صدق، ونتأمل كيف يصير المقعد صدقاً حين يكون أهله كذلك، والصدق مطابقة الخبر للواقع، ثم استعملت صفة لبيان كمال حال الشيء، فنقول رجل صدق، ولسان صدق، ومبوأ صدق أي تمام الصدق، وفي ذلك دلالة على تمكن الصفة من الموصوف.

و﴿ مَقْعَدِ ﴾ تدل على اللبث الطويل، وهي غير المجلس أي أن المؤمنين مخلدين في الجنة، ثم إن هؤلاء المؤمنين ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ، والعندية تعني التفضيل والاصطفاء والقرب، وهاتان الكلمتان صيغتا مبالغة ملك وقادر، وفي تنكيرهما إشارة إلى أن ملكه وقدرته مما تدرك الأفهام كنهها وليس لها مدى[2]، وبهذا انتهت السورة بذكر اسمين من أسمائه

---

(١) التفسير الكبير (٧٩/٢٩).

(٢) انظر: روح المعاني (٩٦/٢٧).

سبحانه وتعالى التي تعني السيطرة والقدرة والسلطان على كل مافي الكون.

وكما أنه أنزل عذابه بالكفار ملكاً وقدرة، فهو ينزل رحمته وحبه للمؤمنين، ويقربهم منه أيضاً ملكاً وقدرة وحباً، وبذلك تظهر المناسبة بين الآيات في آخر السورة والموضوع الذي دارت عليه السورة.

النسق الصوتي في السورة:

يتحقق النسق الصوتي في القرآن حين تتحد أواخر الكلمات في الآية فتؤدي جرساً تميز به القرآن عن غيره، وهي ما تسمى بالفواصل، واهتم العلماء قديماً بفاصلة القرآن، فقد تناولها بالحديث علماء الإعجاز واللغة والمفسرون وعلماء علوم القرآن والبلاغيون وكلٌ أدلى فيها بدلوه.

وكان رسول الله ﷺ يقف عند نهاية الآية؛ ليعلم رؤوس الآي.

ويتجلى النغم الصوتي المتميز بأبهى صورة و مظاهره في هذه السورة؛ حيث تختم آياتها بالراء مردداً بين طرف اللسان وأول اللثة مما يلي الأسنان، ويتحقق فيها معنى القرع، واتحدت الفاصلة مع اسم السورة (القمر)، كما أن الآيات تتميز بالقصر والسرعة والتتابع في سرد الجمل، وهذا يتناسب مع قيام السورة على الإيجاز ، كما أن الفاصلة لا تنقطع عند معنى معين ، بل تستمر في كل آيات السورة على نمط واحد من الصوت .

ويتحقق هذا النغم في مجيء الكسرة قبل حرف الروي الموقوف عليه في أكثر آيات السورة مما يؤدي إلى ترقيق الراء الذي يعطي معنى النهاية والانقطاع

فالمكسور ما قبلها:﴿ مُّسْتَمِرٌّ، مُّسْتَقِرٌّ، مُّنتَشِرٌ، وَٱزْدُجِرَ، فَٱنتَصِرْ، مُّنْهَمِرٍ، قُدِرَ، كُفِرَ، مُّدَّكِرٍ، مُّنقَعِرٍ، أَشِرٌ، وَٱصْطَبِرْ، ٱلْمُحْتَظِرِ، مُّقْتَدِرٍ ﴾.

أو مجيء الكلمات على وزن واحد مثل :﴿ نُّكُرٍ، وَدُسُرٍ وَنُذُرِ، وَسُعُرٍ، ٱلزُّبُرِ﴾ . وأكثر الفواصل بنيت على الصفة، فجاءت صفة لموصوف، وهذا يقع في خمس عشرة آية:

﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ، أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ، شَيْءٍ نُّكُرٍ، جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ، يَوْمٌ عَسِرٌ، بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ، نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ، نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ، كَذَّابٌ أَشِرٌ ، ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ، شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ، عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ، عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ، جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ، مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

ويساويه بناء الفاصلة على العطف، وذلك في خمس عشرة آية أيضاً:﴿ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ، مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ، أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ، عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾، في ست آيات: ﴿ ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ ، في آيتين:

﴿ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ، فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ، أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ، جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾.

كما جاءت مجرورة في:﴿ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ في ست آيات. ﴿ بِٱلنُّذُرِ ﴾ في ثلاث آيات،﴿ بِسَحَرٍ، فِي ٱلزُّبُرِ (في آيتين)، بِقَدَرٍ، بِٱلۡبَصَرِ ﴾.

وهكذا تتنوع المظاهر الأسلوبية واللغوية؛ ليتم التناسق والتناسب الصوتي بين الآيات.

* * *

الخاتمة (نتائج الدراسة):

وبعد هذه الرحلة الماتعة مع سورة القمر نستطيع أن نقول إن للسورة سمات اختصت بها، وهي:

١- إن مقصد السورة هو الحديث عن تكذيب أهل مكة لمعجزة انشقاق القمر وتهديدهم، وذلك في أول السورة وآخرها، وبينهما ذكر لأحوال الأمم التي كذبت.

٢- ذكرت السورة قصص خمس من الأقوام المكذبة: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون .

٣- كانت كلمة (كذب) هي قطب الرحى التي قامت عليها السورة، ولذلك بدئت بها عند ذكر كل قصة إلا قصة فرعون.

٤- قامت السورة على روي واحد وهو حرف الراء من أولها إلى آخرها، وهي أطول السور في اتحاد الروي.

٥- قامت السورة على الإيجاز ، وقصر الآيات، والسرعة والتحدر والقرع، وذلك مناسب لموضوعها.

٦- تكررت بعض الظواهر الأسلوبية أربع مرات﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ، و ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ست مرات، أربع مع تيسير القرآن، واثنان مع سياق التكذيب، و ذكرت آية ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أربع مرات بعد كل قصة إلا قصة آل فرعون.

٧- تسود حركة الكسر في فواصلها مما أدى إلى إسقاط في الحركة التي أدت إلى التحدر والشدة.

٨- كثرة أسلوب الاستفهام في السورة، لأن فيه بعث للتفكر في هذا الأمر، وإحالته إلى النفس.

٩- في السورة أربع تشبيهات: الأول: تشبيه الكفار يوم القيامة بالجراد المنتشر، والثاني: تشبيه مصرع قوم عاد بأعجاز نخل خاوية، والثالث:تشبيه مصرع قوم صالح بهشيم المحتظر، وأخيراً: تشبيه وقوع أمر الله بلمح البصر،وهذه العناصر مما يقع تحت نظر الإنسان في الكون.

وفي الختام أسأل الله العون والسداد والإصابة.

والحمد لله الذي تتم بنعته الصالحات.

فهرس المراجع:

١- **إرشاد العقل السليم**: أبو السعود محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢- **أسرار التكرار في القرآن**: محمود بن حمزة الكرماني، طباعة دار إحياء التراث.

٣- **إعجاز القرآن**: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف.

٤- **البحر المحيط**: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، وبهامشه تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان، طباعة دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٥- **التحرير والتنوير**: الإمام محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.

٦- **التصوير البياني**: د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية.

٧- **التفسير الكبير**: فخر الدين بن حسين الرازي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٨- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

٩- **خصائص التراكيب**: د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ، القاهرة، الطبعة الثانية .

١٠- دلائل الإعجاز: الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة مكتبة الخانجي، القاهرة.

١١- دلالات التراكيب: د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.

١٢- روح **المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي.

١٣- لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت.

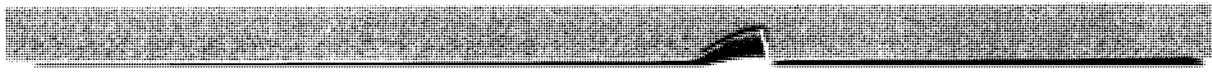
١٤- مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني: د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٥- **معجم البلاغة العربية** : د / بدوي طبانة - الطبعة الثالثة ، دار المنارة -جده - دار الرفاعي ـ الرياض

١٦- **مغني اللبيب**: الإمام أبي محمد عبد الله بن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة.

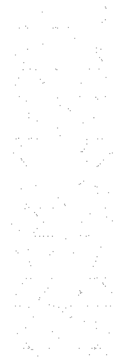
١٧- **ملاك التأويل**: أحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق: د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

* * *



المقامات العشر
لعبدالرحيم العباسي (٨٦٧-٩٦٣هـ)
دارسة وتحقيق

د. حسن بن أحمد النعمي
قسم الأدب ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

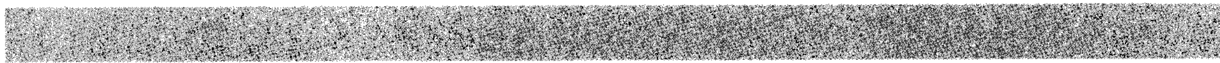



المقامات العشر : لعبدالرحيم العباسي (٨٦٧-٩٦٣هـ)
دراسة وتحقيق

د. حسن بن أحمد النعمي
قسم الأدب
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

هذا العمل جهد متواضع يقرب نتاج عبدالرحيم العباسي في هذا الفن النثري الهم، من خلال تحقيق مقاماته العشر وتقريبها للقراء والنقاد عن طريق تبيين الموضوعات التي طرقها، والأسلوب الذي انتهجه فيها، وإثبات أنّ الفترة التي أشار إليها كثير من مؤرخي الأدب بالانحطاط والعقم لم تكن كذلك، وإنما قدّمت كثيراً من النتاج الحريّ بالدرس والتحليل .وقد قسمت هذا البحث إلى قسمين الأول : " الدراسة " وفيه ثلاثة مباحث : أولها التعريف بالمؤلف، وثانيها : الدراسة الموضوعية، وثالثها : الأداء الفني . والقسم الثاني : التحقيق، وقدمت له بمقدمة تحدثت فيها عن اسم الكتاب ونسبته إلى مؤلفه، ووصف المخطوط، والمنهج الذي اتبعته في تحقيقه.ومقامات عبدالرحيم العباسي جدير أن يحتفل بها، وأن يلتفت إليها، وأن تنشر على المتأدبين ،وأن تتناولها أيدي الدارسين بالتحليل والنقد، ففيها كثير من مداخل السرد الأدبي، لا سيما الجانب اللغوي، حيث يمكن الوقوف على كثير من الظواهر اللغوية التي قد يتوصل الباحث من خلالها إلى بعض ملامح البناء اللغوي في القرن العاشر الهجري، ولا سيما إن سلطت عليها بعض الأدوات النقدية الحديثة التي يمكن الوقوف عليه في هذه الدراسة الموجزة المرافقة للنص المحقق، إنها تحتاج إلى وقفة متأنية أرجو أن تتاح لي قريباً بأذن الله .



المقدمة:

لقد ألصق كثير من النقاد والمؤرخين بالقرون المتأخرة بدءاً من السابع إِلَى الثالث عشر تهمة الانحطاط والتخلف، والإغراق في التقليد، وهي تهمة أسهمت في نفور كثير من الدارسين عن العناية بتراث تلك الفترة، وحالت دون الوقوف عَلَى كثير من النتاج الَّذي ظل حبيس الأرفف، وخزائن المكتبات ومحافظ المخطوطات.

وإذا كانت هذه التهمة تصدق عَلَى جانب من الأدب فإن تعميمها عَلَى جميعه لا يقبل من الناقد الذي يجب عليه أن يستقرئ الظواهر قبل إصدار أحكامه.

ومن هنا توجهت إلى محاولة القيام بإبراز عملٍ من الأعمال الأدبية التي حفل بها القرن العاشر الهجري، ولم تمتد إليها عناية المحققين من قبل، ذلك العمل هو "المقامات العشر" لعبدالرحيم العباسي أحد مشاهير الأدباء والبلاغيين في القرن العاشر الهجري.

وعَلَى الرغم من شهرة العباسي من خلال كتابه المتداول: "معاهد التنصيص..." فقد سكتت المصادر الأدبية القديمة عن قيمة مقاماته هذه، أو حتى الإشارة إليها عند ترجمته، فأكثر من ترجموا له أشاروا إِلَى أنه ألف شرحاً لمقامات الحريري[1].

وكذلك فجميع من كتب عن المقامة الأدبية في تأريخ الدراسات الأدبية المعاصرة لم يشر إِلَى مقامات عبدالرحيم العباسي العشر، والشخص الوحيد الذي استطاع الوصول إِلَى هذه المقامات وإدراجها ضمن دراسته لهذا الفن هو الدكتور خالد الجديع في كتابه: "المقامات المشرقية ٥٥٠-١٢٠٠هـ" فقد اطلع عَلَى النسخة المخطوطة وتحدث عنها ضمن ما درس من عشرات النصوص المقامية في القرون الستة التي درسها.

ولم يكن عبدالرحيم العباسي هو الوحيد من بين المقاميين الذين لم تشر إليهم الدراسات التي تناولت فن المقامة بل شاركه في هذا التجاهل كثيرون من كتاب المقامة. والسبب في ذلك هو أن كثيراً من تلك الدراسات اتجهت إِلَى النتاج المحقق والمطبوع ولم تذهب إِلَى خزائن المخطوطات لتنقب في نفائسها، وتستخرج مكنوناتها الثمينة. وأحسب هذا العمل جهداً متواضعاً يعرّف نتاج عبدالرحيم العباسي في هذا الفن النثري المهم، من

---

(١) انظر: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، لنجم الدين الغزي، تحقيق الدكتور جبرائيل سليمان جبور، مطبعة المرسلين، لبنان، ١٩٤٩م، ١٦٤/١، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ ٣٢٦/٨، وهدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا البغدادي، دار العلوم الحديثة، بيروت، د.ت، ٥٦٣/٥، وغيرها.

خلال تحقيق مقاماته العشر وتقريبها للقراء والنقاد عن طريق تبيين الموضوعات التي طرقها، والأسلوب الذي انتهجه فيها، وإثبات أنّ الفترة التي أشار إليها كثير من مؤرخي الأدب بالانحطاط والعقم لم تكن كذلك، وإنما قدّمت كثيراً من النتاج الحريّ بالدرس والتحليل.

وقد قسمت هذا البحث قسمين، الأول: "الدراسة" وفيه ثلاثة مباحث: أولها التعريف بالمؤلف، وثانيها: الدراسة الموضوعية، وثالثها: الأداء الفني.

والقسم الثاني: التحقيق، وقدمت له بمقدمة تحدثت فيها عن اسم الكتاب ونسبته إِلَى مؤلفه، ووصف المخطوط، والمنهج الذي اتبعته في تحقيقه.

القسم الأول: الدراسة:

أولاً: التعريف بالمؤلف:

هو أبو الفتح بدر الدين عبدالرحيم بن عبدالرحمن بن أحمد بن حسين بن داود بن سالم بن المعالي بن الموفق بن أبي ذرّ العبادي بن الشهاب العباسي الحموي. ينحدر من أسرة عريقة اشتهرت بالعلم والقضاء، فوالده عبدالرحمن (٨٣١- ٨٩٣هـ) تولى قضاء حماة، ونظارة الجيش بدمشق، وأخوه محمد (٨٣٣- ٨٨٨هـ) تولى القضاء بدمشق سنة ٨٧٨هـ.

ولد عبدالرحيم في مدينة القاهرة يوم السبت الرابع عشر من رمضان سنة ٨٦٧هـ[1]. ونشأ في كنف والده، الذي ربّاه ونشأة تنشئة حسنة، حيث عهد به إِلَى حلق العلم في صغره، فحفظ القرآن الكريم عَلَى يد الإمام شمس الدين النشّائي المالكي (ت ٩٣٧هـ) ، وتعلم النحو وعلوم اللغة عَلَى يد أبي عبدالله محيي الدين محمد بن سليمان الكافيجي (٧٨٨-٨٧٩هـ) حيث درس عَلَى يديه الكافية في النحو. ودرس الحديث عَلَى يد عدد كبير من العلماء في مصر من أمثال يحيى بن محمد الأقصرائي (٧٩٧-٨٨٠هـ) وعثمان بن محمد الديمي (٨٢١-٨٨٩هـ)، وشمس الدين محمد بن قاسم الغزي (٨٥٩-٩٠٨هـ) ومحمد بن عبدالرحمن الصديقي البكري الشافعي (٨٠٧-٨٩١هـ). وشمس الدين محمد بن قاسم الغزي (٨٥٩-٩١٨هـ) وغيرهم. وقرأ فنون الأدب والبلاغة وصناعة الشعر عَلَى يد محب الدين محمد بن الشحنة المصري (...-٩٥١هـ).

---

(١) أشار السخاوي إِلَى أنه ولد سنة ٨٦٦هـ (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ٤ / ١٧٨، وتابعه في هذا كل من عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ٥ / ٢٠٥، ويوسف سركيس في معجم المطبوعات العربية والمعربة ٢ / ١٢٦٧. وهذا ليس بصحيح، والمثبت في المتن أنه ولد سنة ٨٦٧ هـ من خط عبدالرحيم العباسي نفسه.

وبالوقوف عَلَى أسماء العلماء الذين تلمذ لهم والذين عددهم السخاوي وغيره[1] نلمح أنه قد حصل ثقافة واسعة، مما كان له أكبر الأثر في تكوين شخصيته العلمية، التي أهَّلَته للتصدي للتأليف فيما بعد في فنونٍ كثيرة.

سافر عبدالرحيم العباسي في عهد السلطان الغوري من مصر إِلَى القسطنطينية سنة ٩٠٦هـ وذلك مع رسول الغوري إِلَى السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦-٩١٨هـ)، وقد بقي في تلك الرحلة فترة من الزمن، وفيها التقى بالسلطان بايزيد وأهداه أحد مؤلفاته، وكافأه السلطان عَلَى ذلك، كما عرض عليه التدريس في القسطنطينية، ولكنه فضَّل الرجوع إِلَى القاهرة. ولما انقرضت دولة المماليك سنة ٩٢٣هـ عاد عبدالرحيم العباسي إِلَى القسطنطينية، فأقام بها إِلَى أن توفي فيها سنة ٩٦٣هـ عن عمر بلغ ستًّا وتسعين سنة[2].

أثنى عليه جلُّ من ترجموا له، وأشاروا إِلَى أنَّه كان ذا خلقٍ عظيم، ووجه بسّام، وكان لطيف المحاورة، متواضعاً، كريم النفس، وذا حافظة قوية، وخطٍّ حسنٍ وجميل، ويحفظ كثيراً من الشعر العربي، ومؤلفه القيّم معاهد التنصيص خير شاهد عَلَى تلك الإحاطة بشعر العرب[3].

ولعبد الرحيم العباسي مؤلفات كثيرة، أكثرها ما زال مخطوطاً، وسأشير إليها إشارات سريعة، وهي:

١- الإرشاد في فقه الشافعية، وهو في شرح أصول فقه الإمام الشافعي، نسبه إليه عدد من الذين ترجموا له، ومنهم نجم الدين الغزي[4]، وإسماعيل البغدادي[5].

٢- أنس الأرواح بعرس الأفراح، وهو عبارة عن رسالة في مديح السلطان سليمان خان بايزيد، وبعض أركان الدولة العثمانية. ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة الحرم المكي الشريف برقم ٤٧ أدب، في ٢٠ ورقة، ومنه صورة في معهد المخطوطات برقم ١٠١٩ أدب.

٣- أنفع الوسائل إِلَى أبدع الرسائل، وهو كتاب لطيف في كيفية تعليم إنشاء مقدمات

---

(١) انظر: الضوء اللامع، للسخاوي ٤/ ١٧٨، والكواكب السائرة، للغزي ٢/ ١٦١.

(٢) انظر: الشقائق النعمانية، لطاشكبري زادة: ٢٤٦، وكشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ٤٧٧.

(٣) انظر: الشقائق النعمانية لطاشكبري زادة: ٢٤٧، وريحانة الألبا، للخفاجي ٢/ ٦٠، وشذرات الذهب، لابن العماد ٤/ ٣٣٥، وغيرها.

(٤) انظر: الكواكب السائرة، ٢/ ١٦٤.

(٥) انظر: هدية العارفين، ٥/ ٥٦٣.

الرسائل الإخوانية، وهو مطبوع، وقد حققه الدكتور/ عبدالرازق حويزي، واعتمد في تحقيقه عَلَى نسخة فريدة بدار الكتب المصرية برقم ٣٩١٢ أدب، وطبع في مكتبة الآداب، بالقاهرة سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

٤- تاريخ قضاة دمشق، وقد ذكر السخاوي أنَّ العباسي لم يكمله[1].

٥- حاشية عَلَى الغيث المُسْجَم شرح لامية العجم، للصفدي، وقد نسبه إليه عدد كبير من المؤرخين منهم نجم الدين الغزي[2]، وحاجي خليفة[3]، وإسماعيل باشا البغدادي[4].

٦- شرح ألفية ابن مالك، وقد نسبه إليه السخاوي[5].

٧- شرح مقامات الحريري، وقد نسبه إليه كثير من المؤرخين[6].

٨- شعر عبدالرحيم العباسي (٨٦٧-٩٦٣هـ)، وقد قام بجمعه وتحقيقه ودراسته الدكتور/ عبدالرازق حويزي، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، وطبع في مكتبة الآداب، بالقاهرة. وجاء الديوان وما رافقه من دراسة في ١٣٤ صفحة، واشتمل عَلَى حصيلة شعرية جاءت في (٣٣٤) بيتاً، تضمها ثنتان وثمانون قصيدة ومقطعة ونتفة، وجمعها من مصادر كثيرة، ما بين مطبوع ومخطوط[7].

٩- فيض الباري بشرح صحيح البخاري، ألفه سنة ٩٠٦هـ وأهداه إِلَى السلطان بايزيد، ويقع في أربعة مجلدات، ومنه نسختان في دار الكتب المصرية، إحداهما برقم (م ١٠٦حديث)، والثانية برقم (٢٣٢٣ حديث)، وقد نسبه إليه كثير من المؤرخين[8].

١٠- معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص، وهو أهم كتاب أثر عنه، وطارت شهرته

---

(١) الضوء اللامع، ٤/ ١٧٨.

(٢) انظر: الكواكب السائرة، ٢/ ١٦٤.

(٣) انظر: كشف الظنون، ١٥٢٧.

(٤) انظر: هدية العارفين، ٥/ ٥٦٣.

(٥) الضوء اللامع، ٤/ ١٧٩.

(٦) انظر: الكواكب السائرة، للغزي ١/ ١٦٤، وشذرات الذهب، لابن العماد ٨/ ٣٢٦، وهدية العارفين، للبغدادي ٥/ ٥٦٣.

(٧) انظر أهم المصادر التي اعتمد عليها الدكتور/ عبدالرازق حويزي في جمعه لشعر عبدالرحيم العباسي في: شعر عبدالرحيم العباسي (٨٦٧-٩٦٣هـ): ٣١-٣٣.

(٨) انظر: الكواكب السائرة، للغزي ٢/ ١٦٤، وريحانة الألبا، للخفاجي ٢/ ٦١، وكشف الظنون، لحاجي خليفة ١/ ٥٥١ وفيه اسمه "شرح الجامع الصحيح"، وهدية العارفين، للبغدادي ٥/ ٥٦٣ وسماه "شرح الجامع الصحيح للبخاري"، وتابعه في ذلك الزركلي في الأعلام ٣/ ٣٤٥، وعمر كحاله في معجم المؤلفين ٥/ ٢٠٥.

به، وعرف به لدى الأدباء والبلاغيين، وقد حققه محمد محيي الدين عبدالحميد، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م، وطبع في المكتبة التجارية الكبرى، بالقاهرة، في أربعة أجزاء، في مجلدين. وقد تناول العباسي في كتابه هذا شواهد الخطيب القزويني في كتابه "تلخيص المفتاح" بالشرح المستفيض، وترجم لقائليها، ووضع في كل فنٍّ نظائره الأدبية، ومزج فيه الجد بالهزل[١].

١١- المقامات العشر، وهو موضوع هذا البحث.

١٢- منح ربّ البرية في فتح رودس الأبيّة، والكتاب يتحدث عن مرويات العباسي لذلك الفتح المبين عَلَى أيدي العثمانيين، حيث شارك فيه، ومدح القادة العثمانيين الذين فتحوا "رودس"، والكتاب منشور في حوليات كلية الآداب، بجامعة الكويت، الحولية الثامنة عشرة "الرسالة الثانية والعشرون بعد المائة، سنة ١٤١٧هـ/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧/ ١٩٩٨م، بتحقيق الدكتور/ فيصل بن عبدالله الكندري، وقد حقق الكتاب عَلَى نسخة واحدة فريدة، كتبت بخط العباسي نفسه، توجد في مكتبة قصر طوب قابي، برقم (١٥٩٩)، وتقع في ٦٩ ورقة[٢]. ولم يشر إِلَى هذا الكتاب أحد من المؤرخين سوى نجم الدين الغزي بإشارة غير صريحة[٣].

١٣- المواعد الوفية بشرح شواهد الخزرجية، والكتاب يتناول بالشرح شواهد الخزرجية في العروض، وضمن الكتاب مختارات شعرية كثيرة، والكتاب توجد منه نسخة فريدة في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم (١٧٠٧ أدب) في ٨٤ ورقة، وقد نسبه إليه بعض المؤرخين[٤].

١٤- نثر الدر الثمين في عرس مولانا جعفر الأمين، وقد نسبه إليه إسماعيل باشا البغدادي[٥].

١٥- نظم الوشاح عَلَى تلخيص المفتاح، وهو مختصر لكتابه معاهد التنصيص، وتوجد منه

---

(١) انظر: التصور الأدبي عند عبد الرحيم العباسي من خلال كتابه معاهد التنصيص، للدكتور محمد بركات حمدي، دار الفكر، عمان ١٩٨٤م: ٩، والإسعاف في شرح شواهد القاضي والكشاف لخضر الموصلي، تحقيقاً وموازنة مع كتاب معاهد التنصيص للعباسي، الدكتور/ عبدالرحمن الداغري ١/ ٣٥.

(٢) انظر: منح رب البرية في فتح رودس الأبية، للعباسي، تحقيق الدكتور/ فيصل الكندري: ٥٤-٥٥.

(٣) انظر: الكواكب السائرة، ٢/ ١٦٣.

(٤) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٦٤، وهدية العارفين، للبغدادي ٥/ ٥٦٣.

(٥) انظر: هدية العارفين، ٥/ ٥٦٣.

نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة برقم (١٦١ بلاغة، تيمور)[1].

هذه لمحات عن حياة عبدالرحيم العباسي وآثاره، وهي حياة حافلة بالعطاء والإنجاز[2].

ثانياً: الدراسة الموضوعية:

سار عبدالرحيم العباسي في اختيار العدد لمقاماته موافقاً نهج عدد من المقاميين أمثال الحسين بن سليمان بن ريان والقواس الحلبي إذ كتب كل واحد منهم عشر مقامات، وهو

---

(١) نسبه إليه حاجي خليفة في كشف الظنون ١٩٦٤، وإسماعيل البغدادي في هدية العارفين ٥ / ٥٦٣، والزركلي في الأعلام ٣ / ٣٤٥، وعمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ٥ / ٢٠٥.

(٢) للاطلاع علَى مزيد من التفاصل عن حياة عبدالرحيم العباسي وآثاره، ينظر:

أ- معاهد التنصيص، لعبدالرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار عالم الكتب، بيروت - لبنان، ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م، نسخة مصورة عن طبعة مصر: ٤/ ٢٧٤.

ب- الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، لنجم الدين الغزي، تحقيق: جبرائيل جبور، ١٩٤٩، ٢/١٦١-١٦٢.

ج- ريحانة الألبا، للشهاب الخفاجي، تحقيق عبدالفتاح الحلو، طبعة عيسى الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٧٦م، ١/ ١٤٠، ٢/ ٦٠-٦٦.

د- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، ٨/ ٣٢٥-٣٢٦.

هـ- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي، ٤/ ١٧٨.

و- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، لطاشكبري زادة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م: ١/ ٢٤٦-٢٤٧.

ز- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، طبعة دار الفكر، ١٩٤٨م: ٤٧٧، ٥٥١، ١٥٣٧، ١٩١٩، ١٩٦٤.

ح- هدية العارفين، لإسماعيل باشا البغدادي، ٥/ ٥٦٣.

ط- معجم المطبوعات العربية والمعربة، ليوسف سركس، مطبعة سركس، مصر، ١٩٢٨م: ٢/ ١٢٦٧.

ي- تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان (الترجمة العربية) ٨/ ٥٠-٥١.

ك- الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م، ٣/ ٣٤٥.

ل- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت ٥/ ٢٠٥-٢٠٦

م- التصور الأدبي عند عبدالرحيم العباسي من خلال كتابه معاهد التنصيص.

ن- شعر عبدالرحيم العباسي، دراسة وتحقيق الدكتور/ عبدالرازق حويزي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ: ٩-٢٨.

س- منح رب البرية في فتح رودس الأبية، لعبدالرحيم العباسي، تحقيق الدكتور فيصل الكندري حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ١٤١٧-١٤١٨هـ/ ١٩٩٧-١٩٩٨م: ٤٩-٥٢.

ع- الإسعاف في شرح شواهد القاضي والكشاف لخضر بن عطاء الله الموصلي، تحقيقاً وموازنة مع كتاب معاهد التنصيص، لعبدالرحيم العباسي، تحقيق ودراسة الدكتور عبدالرحمن الداغري، رسالة دكتوراه مقدمة إلَى قسم الأدب بكلية اللغة العربية بالرياض، عام ١٤٢٤هـ/ ١٤٢٥هـ (غير منشور)، ١/ ٢٨-٤٢.

عدد يعد قليلاً إذا قيس بصنيع كثير من المقاميين الذين تجاوزت مقامات بعضهم ستين مقامة كابن ماري النصراني وناصيف اليازجي[1]. أو من كتب نحو خمسين مقامة أمثال بديع الزمان الهمذاني والحريري.

والعباسي كان في الأصل قد عزم عَلَى صنع مقامة واحدة فقط يقدمها هدية لسعدي جلبي[2] (٠٠٠ – ٩٤٥هـ)[3]، حيث يقول: "أعملتُ الفكر في عمل مقامة، ولم أشعر بأنها ذات اعوجاج واستقامة، غير أني تجاسرت بعرضها، وما في سمائها وأرضها، عَلَى حضرة فرد الوقت، مُقْدِماً إما عَلَى الرضا أو المقت، أعني حضرة عين الأعيان... مولانا سعدي"، ولكن العباسي بعد أن رأى إعجاب سعدي جلبي بها أغراه هذا النجاح في صنع مقاماتٍ أخرى إِلَى أن أوصلها عشراً، فيقول: "فحين وقع نظره الكريم عليها، وصرف وجه تأمله إليها، أظهر بها إعجاباً، وجعل نداءها بستر حلمه مجاباً، فكان ذلك إما لإصابة السهم الغرض، أو جبراً لخاطر الفقير ونصراً له عَلَى من في قلبه مرض، وبرز أمر الله تعالى أن ينشأ لها أتراب، فحينئذٍ أمن القلب مما به استراب، وعمل عشراً كاملة..."[4].

ومقامات العباسي العشر لا تكاد تخرج عن موضوعين رئيسين من موضوعات المقامة التي اعتاد مؤلفوها الكتابة فيها، وهذان الموضوعان هما الكدية والقصّ، ولا يعني ذلك عدم دخول موضوعات أخرى ضمن سرد المقامة ولكنّ هذين الموضوعين هما اللذان غلبا عليها، فالحكم في التصنيف هنا يعود إِلَى العنصر البارز في المقامة بالدرجة الأولى.

وبتأمل مقامات العباسي نجد أنه لم يفرد من مقاماته العشر لموضوع الكدية سوى مقامته الأولى التي كتبها في الوهلة الأولى لتجريب حظه في هذا الفن النثري، وكأنه بهذا الصنيع يريد – حين جعلها في صدر مقاماته – أن يشير إِلَى أنّ لحمة المقامات وسداها هي الكدية، وأنه لا

---

(١) انظر: المقامات المشرقية (٥٥٠ – ١٢٠٠هـ) للدكتور / خالد الجديع، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م: ٥١.

(٢) هو سعد الدين عيسى بن أمير خان الحنفي، المعروف بسعدي جلبي، تولى القسطنطينية لمدة طويلة. له اهتمام بجمع الكتب واقتنائها، وله رسائل وتعليقات، كتب رسائل مفيدة عَلَى تفسير البيضاوي، وله شرح مختصر مفيد للهداية، وقد بنى داراً كبيرة للقراء في القسطنطينية قرب داره، وكان عبد الرحيم العباسي خليلاً له، ولكل منهما عناية بالآخر ومودة. انظر ترجمته في: الكواكب السائرة ٢/٢٣٦، وشذرات الذهب ٨/٢٦٢، والأعلام ٣/٨٨ – ٨٩.

(٣) المقامات العشر ٤/أ.

(٤) المصدر السابق: الورقة نفسها.

بد قبل أن ينطلق بتلك المقامات إِلَى آفاق أخرى من القصّ أن يجرب خوض غمارها[1].

وتلك المقامة تسير عَلَى نمط مقامات الكدية المعروفة لدى المقاميين المتقدمين، حيث يتحول الاستجداء عند بعض الشحاذين إِلَى كدية هي ألصق بالعجز والكسل منها بالحاجة والعوز، والكدية عند أهلها ليست مجرد سؤال واستجداء، بل تطورت وأخذت معنى الاحتيال للمال بأي وسيلة ممكنة.

وهو يبدأ مقامته الأولى متبعاً نهج المقاميين الذين طرقوا مقامة الكدية بالحديث عن تغرّب الراوي عن وطنه، وهذا التغرب ركن من أركان المقامة منذ بديع الزمان، فيقول: "ساقني القدر المحتوم، والغيب المكتوم من أرض الأراك والبشام، إِلَى أن حللت الشام، فأقمتُ بها مدة مديدة، وأنا كل يوم في نزهة جديدة..."[2].

ثم ينتقل الراوي إِلَى الحديث عن وصف النقلة التي تمهد للدخول في الحكاية، فيقول: "فأقمتُ بها آمن السرب، صافي الشرب، لا أخاف مغيراً، ولا أشكو مضيراً، إِلَى أن هجم الشتاء بيبس هوائه، وتراكم أنوائه، فكنت ألازم السكون، ولا أخرج من الوكون... إِلَى أن دعتني حاجة أكيدة، وضرورة شديدة إِلَى الخروج من الدور، وأن أسعى لتحصيلها وأدور..."[3].

ولما خرج من بيته رأى شحاذاً عَلَى قارعة الطريق، والعباسي هنا يدخل على الحدث عنصر المفاجأة كعادة المقاميين، حيث يقول: "أبصرتُ بإنسان، أحسبه من بني ساسان وهو ملقىً عَلَى قارعة الطريق..."[4].

وهو في ذكره لذلك الشحاذ أنه من بني ساسان تقليد لما رامه المقاميون في هذا الباب حيث نسبوا الكدية إليهم، وألصقوها بهم، ولنقاد المقامات تعليلات كثيرة، وتأويلات مختلفة في سر هذه النسبة، وجلها أساطير لا تثبت بدليل، فمن ذلك مثلاً: أنَّ ساسان المراد هنا هو ساسان بن أردشير، وأنه كان تطلّع للملك ، ولا يُشَكُ أنه هو الملك بعد أبيه، لكنَّ أباه فوض أمر الحكم إِلَى ابنته، فشق ذلك عَلَى ساسان فتزهّد وخرج عن طريقة الملوك، واتخذ غنماً يرعاها في البرية، فاستشنع الناس فعله، وعُيّر بذلك.

وقيل بل ساسان هنا هو رجل فقير بصير في استعطاء الناس والاحتيال عليهم، فنسب

(١) انظر: المقامات المشرقية، د. خالد الجديع: ١٠٠-١٠١.

(٢) المقامات العشر: ق ٤/أ.

(٣) المصدر السابق: الورقة نفسها.

(٤) المصدر السابق ق ٤/أ - ٤/ب.

المكدون والشحاذون إليه، وقد ذكر الدكتور مصطفى الشكعة روايات أخرى غير هاتين الروايتين تفسّر تلك النسبة[1].

ثم بعد ذلك يدخل الراوي عناصر التشويق والشفقة عَلَى ذلك الشحاذ واصفاً حاله بأنه "ملقىً عَلَى قارعة الطريق، مبعدٌ عن العشير والفريق، والرعدة تهزّه، وتُكثر اضطرابه وتؤزّه، وعليه أسمالٌ لا تواريه، ودموعه تسابق القطر وتجاريه، وقد ازرقّ من البرد جسمه"[2] ثم يشفق عليه الراوي فيعاتبه عَلَى خروجه في هذا اليوم الماطر، ويلومه عَلَى تعريض نفسه للمخاطر، فأجابه الشحاذ بأنه ما خرج إلا لضرورة شديدة، وحاجة ماسة قائلاً: "والله ما خرجتُ في هذا اليوم العصيب إلا لأحصل وأصيب... وخلفي صبية صغار في أسر الذل والصغار، قد وقذهم الجوع، ومنعهم الهجوع، وقد أرسلوا بي وانتظروا، وسواي ما لمحوا ولا نظروا، فكفّ عني غرب لسانك، وكفكف عليّ بإحسانك، وأوفِ من الخصاصة ولو بقصاصة..."[3].

فيندم الراوي عند ذلك عَلَى تعجله في اللوم، ويواسيه بما يتيسر معه من مال. وهنا تدخل اللازمة الحكائية في مقامات الكدية وهي شك الراوي في البطل وإحساسه بأنّ هناك شيئاً ما غير طبيعي، فيكمن الراوي لينظر ماذا يفعل ذلك الشحاذ، فيقول: "ثم ثنيت عنه عناني، وجعلته نصب عياني، وجلست بحيث أراه ولا يراني... والصدقات تردُ عليه تترى، وتفدُ شفعاً ووترا... وهو يزيد في رعدته، ويظهر أثر شدته..."[4].

ولما دنا وقت الأصيل رأى الراوي ذلك الشحاذ يستجمع قواه، ويلملم ما حصله، ويعدّل ما التوى منه، ثم يغتنم خلو الطريق فيقوم وكأن شيئاً لم يكن، فيزداد ارتياب الراوي فيه أكثر من ذي قبل، ويتبع خُطى الشحّاذ إلى أن دخل قصراً كبيراً، ويغلق الباب، فانتظر الراوي برهة أمامه، ثم دفعه الفضول إِلَى أن يطرق الباب ليسبر ما وراءه من خبر، فيخرج عليه شاب حسن الثياب، ويدخله إِلَى القصر، ويكرم وفادته، وبعد الإكرام يسأل الراوي عن ذلك الشحاذ، فيخبره ذلك الشاب حسن الثياب بأنه هو الشحاذ نفسه، وأن ما صنعه في ذلك الطريق هو عمله الذي يقوم به كل يوم.

(١) انظر: بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، للدكتور مصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م: ٣١٢.

(٢) المقامات العشر ٤ / ب.

(٣) المصدر السابق: الورقة نفسها.

(٤) المصدر السابق: الورقة نفسها.

ويتعجب الراوي، فيرد عليه ذلك الشحاذ بأن ما رآه ليس سوى شيء يسير من حرفته، ويطلب منه أن يذهب صباح الغد إِلَى المسجد الجامع ليرى ما هو أعظم من طرائق الحيلة وفنون الكدية والاستجداء.

ويدخل الراوي عَلَى حكايته الأولى حكاية جديدة، وكدية أخرى فريدة تدور أحداثها داخل المسجد أطرافها وشخوصها الخطيب والشحاذ وأمه وجماعة المسجد، فيقول الراوي: "فقُدِّر جلوسي عند المنبر، وقد حضر من عقّ ومن برّ، فعندما برز الخطيب، وصعد وصوب نظره في الناس إذا بشخص أكتع ذي عرج، يُخال إذا مشى أنه ينحطّ من درج محجوب العين اليمنى... وعليه أخلاق لا يلبسها من له خلاق، فوقف وقوف متهافت، وسلّم بصوتٍ خافت، وقال يا معشر هذا الجمع..."[1]. ثم راح يتحدث عن عثوره عَلَى لقطة ثمينة ساقها إليه الحظ، وطلب من الناس أنهم متى ما رأوا صاحب تلك اللقطة فليدلوه عليه، علّه يحصل عَلَى هدية جزاء الحفاظ عَلَى اللقطة الثمينة. وعند ذلك تحصل جلبة في المسجد، إذ تدخل عجوز تلطم خديها، وتزعم أن اللقطة سقطت منها، وتقوم بوصفٍ دقيق لها، وحينها يأمر الخطيب بإعطائها تلك الصّرة الثمينة، ويطلب منها أن تَهبَ لذلك الفقير الذي عثر عليها شيئًا منها، ولكنها تأبى وترفض أشد الرفض زاعمة أنها أمانة عندها.

ويكمل الراوي القصة ذاكراً أن الخطيب تأثر بذلك المشهد فخاطب الناس بقوله: "يا معشر الأنجاب، إن هذا لشيء عجاب، مبتلىً فقير، ليس له فتيل ولا نقير يظفر بمثل هذا الثمين، ويكون فيه بوصف القوي الأمين، ويرده بدون جزاء وهو معطل الأجزاء، إن هذا ليدل عَلَى كرم الأرومة، وطيب الجرثومة، وقد تعين إسعاده وإسعافه، ووجب إكرامه وإنصافه، فبدأ الخطيب وبدر، وانثالت عليه البِدَر، فلا يُدرى قدر ما حصل، ولا ما إليه وصل، وقام يخطر بعرجة، وقد تبدل كربة بفرجة، والناس يتعجبون من شرف قنسه، وكرم جنسه، وبالخير عليه يثنون..."[2].

وعندما تفرق الناس ذهب الراوي – بصفته أحد الشخوص في القصة – إلى قصر الشحاذ ليخبره بما رأى في الجامع من أمر عجيب، فإذا بالشحاذ يبادره بسرد تفاصيل القصة التي حدثت، فيتعجّب الراوي أشد العجب، وحينها يكشف له الشحاذ السر في أنّه هو ذلك

---

(١) المصدر السابق ق ٥ / أ.

(٢) المصدر السابق: ق ٥ / ب.

الرجل الذي وجد تلك اللقطة، فيقول: "أرأيت ذلك الفقير المبتلى، وما به من أنواع الابتلا، وشاهدت لعابه السائل، وشقه المائل، وعينه المطموسة، وصورته التي هي في غمرات الأوصاب مغموسة؟ فإنه لمحدثك وجليسك، ومحاضرك وأنيسك، وقد عافاه الله... وأما العجوز الواردة؛ فهي الوالدة، وأما الضالة المنشودة فهي هذه المشهودة، وأخرج تلك اللقطة بعينها، وجوهرها ولجينها، وعرض علي ما استجداه..."[1].

ثم يعرض ذلك الشحاذ المكدي شيئاً من المال عَلَى الراوي، فيعتذر الراوي عن أخذ شيء منه، ويعجب الراوي، فيطلب منه الشحاذ ألا يعجب، فهذا الفن فيه طرائق متشعبة، ومصائد وحبائل لا يخيب صيدها، ولا يضعف أيدها.

والجديد في هذه المقامة لدى عبدالرحيم العباسي بالإضافة إِلَى طولها وجودة حيلتها، هو اشتمالها عَلَى أكثر من حيلة، الحيلة الأولى خداع المارة في الطريق، والثانية الاحتيال عَلَى جماعة المسجد، وهذا ما لم نعهده فيما سبق من المقامات، وهو أمر يحسب للعباسي لا سيما أنَّه أراد التجريب في هذا الباب، ولم يكن هو السبيل الذي يريد الكتابة فيه، وإنما أراد إظهار أنَّه قادر عَلَى الكتابة في موضوع المقامات الأول والرئيس في ثقافة وذهن القارئ العربي.

أما نمط الخطاب في مقامات العباسي الرئيس فهو القصّ، إذ جاءت مقاماته التسع الأخرى تحمل طوابع قصصية، والمراد بالقص في فنِّ المقامات القصّ من حيث هو موضوع لا من حيث هو شكل. "فالقص من حيث هو موضوع مجال من مجالات المقامة استهوى كثيراً من المقاميين، مشكلاً ألواناً وخطوطاً مختلفة"[2].

ومقامات العباسي القصصية بدءاً من الثانية إِلَى العاشرة تختلف في مستواها من حيث البساطة والسذاجة والتعقيد والإجادة، والحبكة والصراع، وحسن إدارة الحوار داخل المقامة.

فالمقامة الثانية مثلاً نجد أنها حكاية نكاد نعرف نهايتها بمجرد سماع بدايتها، فالعباسي يبدأ مقامته متحدثاً عن رجل فقير معدم ليس له أي حرفة، وبينما هو يسير في أحد الأيام إذ رأى مجموعة من النساء، فأعجب بهن، ووقع نظره عَلَى واحدة منهن، فهام بها، فتبعها إِلَى

---

(١) المصدر السابق: ق ٥ / ب – ٦ / ب.

(٢) المقامات المشرقية، د. خالد الجديع: ١١٦.

أن عرف دارها، ثم عاد إِلَى منزله حزيناً، وفي الصباح قصد أحد أصدقائه، فلما جاءه قص عليه قصته، وما لقيه من عشق تلك الحسناء، ثم طلب من صاحبه مالاً وملابس ومركباً عَلَى سبيل الإعارة عَلَى أن يعيدها بعد شهر، فأعطاه صديقه ما طلب، فذهب وطرق باب تلك الفتاة الحسناء، قاصداً خطبتها، فوافق أهلها، وتم الزواج، وبعد فترة نفد المال الذي معه، فأخذ يفكر في طريقة لجلب ما يستر به فقره أمام زوجته وأهلها، وما يسد به الدين الذي عليه.

وتحدث الفرجة في الحدث فيلمح في البيت لوحاً أحمر مصنوعاً من المرمر، فقرر قلعه وبيعه، والعيش بثمنه، ولما نزعه وجد تحته سلماً، فأوقد المصباح ونزل من السلم، فكانت المفاجأة التي تحدث عنها قائلاً: "ونزل وقد أحسّ فوزاً ورباحاً، وإذا بسبعة أزيار من النحاس مغروسة في ذلك الأساس، مسدودة الأفواه بأسود الرصاص، ولم يظهر بها ثقب ولا خصاص، فاحتال في فتح أحدها وهو عَلَى غاية الرهب، فوجده مملوءاً بالذهب، فكاد يطير فرحاً، وازداد نشاطاً ومرحاً، وأخذ منه ما أراد، وقد أعشب من سعده المراد، وأعاد تلك البلاطة إِلَى مكانها، وبالغ في إحكامها..."[1]. وصار يتردد عَلَى ذلك المكان لسنوات، ثم لما هم بالسفر أخبر زوجته بكل ما حدث وأراها مكان المال، وتنتهي الحكاية بعد ذلك بأنهما عاشا في سعادة إِلَى أن فرق بينهما الموت.

والمتأمل للمقامات التالية يجد أنها تسير في اتجاه تصاعدي من ناحية الحبكة القصصية من حيث عمق الصراع، وجودة الحبكة، فالمقامة الرابعة تحكي قصة رجل من تجار البصرة، كان له ولد قد أحسن تربيته وتنشئته، وقُدِّر لهذا الولد أن يلتقي ببعض من قدم من الهند، فأعجب الابن بتلك البلاد وبصفاتها، فرغب في السفر إليها، فحاول أبوه أن يثني عزمه، ولكنه لم يستطع بعد كل المحاولات والإغراءات، ويسافر الولد إِلَى الهند، وفي الطريق يتعرض المركب إِلَى أهوال، يقول العباسي: "وكان من قدر الله المحتوم، وسرّ غيبه المكتوم أن هبت عليهم رياح عواصف، لا يقدر عَلَى وصفها واصف، فألجأتهم إِلَى جبل المغناطيس قهراً، وقد أوسعوا ذعراً وبهراً، فما كان إلا أن تفرقت ألواح المركب بجذب المغناطيس للحديد، وغرق ما فيها من أحرار وعبيد، وخرج هو عَلَى لوحٍ من تلك الألواح، فساقته إِلَى جانب الجبل

---

(١) المقامات العشر ق ٧ / أ.

تلك الأرياح..."[1]، وغرقت السفينة ومات أكثر من فيها، ونجّاه الله إِلَى مدينة قريبة، حيث ينقذه أهلها، فيكتشف الشاب أنه لا يعرف لغة أولئك الأقوام، ولكن الله يسّر له شيخاً مهيباً يجيد اللغة العربية أقبل عليه إقبال الشفيق، ومن عجيب الصدف أنّ ذلك الشيخ كان عَلَى معرفة وصلة بالتاجر البصري والد ذلك الشاب.

وفي تلك المدينة عاش، وتعرف عَلَى أهلها، وخطب بنت أحد أعيانها، وتم له الزواج منها، وبعد أن عاش مع زوجته مدة جاءها الأجل فماتت، وكان قانون تلك البلدة يقضي بدفن الرجل مع زوجته، والمرأة مع زوجها إذا توفي أحدهما، كما يقضي بدفن كل ما يمتلكانه من مال معهما علماً أنه لم يعلم بهذا القانون إلا بعد زواجه، وعن طريق الصدفة – أيضاً–[2].

وفعلاً تم ذلك، إذ سيق معها وهو حي، ووضع في أماكن الموتى مع زوجته، وأغلق عليه، فقعد بين الموتى، وكاد أن يموت جوعاً بعد نفاد ما معه من زادٍ قليل أُنزل معه، وفي تلك اللحظة أنزل أحد الأزواج مع زوجته الميتة، فلما رأى زاده وطعامه طمع به، فقتله، واستولى عَلَى طعامه، واستمر عَلَى تلك الحالة، يقتل الأحياء الذين ينزلون مع الأموات، ليستولي عَلَى زادهم وطعامهم. وتدخل الحكاية مفاجأة تزيدها إغراباً وعجباً وهي أنه "من قدر الله وقضائه، وحكمه في العالم وإمضائه، أن مات ملك ذلك الإقليم وحل بروحه العذاب الأليم، وأدلي في تابوت مصفح بالذهب مرصع بالجواهر، ذي منظر رائع، ورونق باهر، مغطى بمثقلات الديباج المذهبة... وأنزلت زوجته في نهاية التجمل والزينة والنفائس والأعلاق الثمينة، وأنزل معها من الأسباب العظيمة والنعم الجسيمة... ثم أطبقوا عليها فم الناووس، وأسلموها بعد النعيم إِلَى البوس، فجعلت تندب بديع شبابها..."[3].

فأبصرها ذلك الرجل، فهمَّ بقتلها، لما رأى معها طعاماً وفيراً، لكنه أشفق عليها بعد أن رأى حالها وجمالها، وبعد حوار طويل معها تمّ الاتفاق بينهما عَلَى التعاون وتحدّي الصعاب داخل تلك المقبرة إِلَى أن تحين فرصة للخروج، فكانا كلما دخل عليهما أحد قتلاه، وأخذا طعامه.

وتدور الأيام وبينا هما في تلك الحالة العصيبة، والعيشة الرتيبة "إذ رأيا في صدور الناووس

---

(١) المصدر السابق ق ١٠/ أ.

(٢) انظر المصدر السابق ق ١٠/ ب.

(٣) المصدر السابق: ق ١١/ ب.

سراجين يقدان... فعلما أنه وحش... فقاما يتبعانه، ويخوفانه ويروعانه إِلَى أن وصل إِلَى شق منه دخل، وخرج منه هارباً ولم يخل، فجاءا إليه فتأملاه..." [1]. وبعد خروجهما – وهما لا يكادان يصدقان ما حدث – ذهبا إِلَى الساحل بعد أن أخذا كثيراً من الأموال من المقبرة، والتقيا بأهل سفينة كانت متوجهة إِلَى ساحل عمان، ولما وصلا إِلَى عمان انتقلا منها إِلَى البصرة، ثم "قدم عَلَى أهله قدوم الغيث بعد الإمحال، وكانوا يعدّون سلامته من المحال، وتزايد شكرهم لله عز وجل وثناؤهم، وانقض عنهم كربهم وعناؤهم، ونقلوا تلك النفائس والأعلاق، وجعلوا دونها الأقفال والأغلاق، وعملوا له عرساً حافلاً..." [2].

فهذه المقامة أكثر قرباً من النهج القصصي والبناء الدرامي للأحداث من سابقتها، عَلَى الرغم من دوران كثير من أحداثها حول أمور غريبة وأساطير عجيبة تكررت بعد ذلك في المقامة السابعة. الفارق هو أن أحداث المقامة الرابعة حدثت في الهند والمقامة السابعة وقعت أحداثها في بلاد الروم، وتلك الأساطير تشير إِلَى أن الرجل يدفن مع زوجته إذا ماتت قبله وتدفن هي معه إذا مات قبلها. ولكن العباسي غير من طريقة عرض الحكاية في المقامتين، وغيّر كذلك من موقف البطل داخل المقامة، فالبطل في المقامة الرابعة عندما كان يقتل كلّ من يدخل إِلَى المقبرة يفعل ذلك تقرباً إِلَى الله، يقول العباسي: "فعاش عَلَى ذلك مدة وأشهراً عدة، لا يعوزه مأكل بها ولا مشرب، وهو بقتلهم إِلَى الله تعالى يتقرب." [3]. وفي المقامة السابعة كان البطل داخل المقبرة يقتل من يدخل عليه اضطراراً من أجل البقاء فقط، وهو يعلم أن فعله هذا غير مقبول، يقول العباسي: "فإن كان الحيّ رجلاً قمتُ إليه وقتلته وأعدمته من الحياة واغتلته، وإن كانت امرأة تولّت هي قتلها، واغتيالها وختلها، غيرةً مني ومنها أن يكون معنا من يوتر شفعنا وطمعاً فيما يكون معهما من القوت، وإن كان ذلك الفعل هو المبغوض الممقوت..." [4].

وبما أنّ الحديث قد أتى إِلَى المقامة السابعة فأود أن أشير إِلَى أمر مهم وهو أنّ الدكتور خالد الجديع عندما استعرض مقامات العباسي القصصية توقف في استعراضه عند المقامة السادسة ولم يعرّج عَلَى المقامات الأربع الأخيرة – وبحكم دراسته المسحية فهو غير

---

(1) المصدر السابق: ١٢/ أ.

(2) المصدر السابق: الورقة نفسها.

(3) المصدر السابق: ١١/ ب.

(4) المصدر السابق: ١٧/ أ.

ملزم باستعراضها جميعاً -، ولكنه حكم بعد المقامة السادسة عَلَى أن مقامات العباسي القصصية لا تحمل قيماً أخلاقية، إذ قال: "وهكذا تسير بقية مقامات العباسي عَلَى هذا النمط، تروي القصص الغريبة العجيبة، ولعلك لحظت أنَّ مقامات العباسي لا تحتفي بأية قيمة أخلاقية، ولا يهدف كاتبها إِلَى توصيل أي معنى إنساني نبيل، وإنما الهدف هو الإتيان بالغرائب"[1].

وهذا الحكم يمكن قبوله عَلَى بعض المقامات ومنها المقامة الرابعة، لكنّ المقامات الأربع الأخرى التي لم يعرض الدكتور خالد الجديع أحداثها ولا أفكارها حفلت بكثير من المعاني الأخلاقية، فالمقامة السابعة عَلَى سبيل المثال التي أشبهت المقامة الرابعة في بعض أحداثها، تحول الحدث الدرامي في نهاية الحكاية إِلَى خروج ذلك الرجل من المقبرة وانتقاله إِلَى بلاد الروم، وتدور الأحداث وتنعقد بينه وبين البطل في المقامة - وهو قباث بن رزين اللخمي - صحبة، ثم يعجب ذلك الرومي باللخمي فيدعوه لمناظرة بطارقة الروم؛ لما رأى أن الروم يحتقرون العرب، "قال، فلما دخلت عَلَى الملك استدناني وقرّبني ومنّاني، وقال ناظر هؤلاء البطارقة بما أوتيته من العلم، فإنا لا نعاملك إلا بالحلم. فقلت إني لا أرضى لنفسي إلا مناظرة البطرك الكبير صاحب الرأي والتدبير. فلما حضر التفتُّ إليه وسلّمت عليه، ثم قلت له: يا شيخ كيف أنت؟! فقال: في عافية ونعمة غير خافية. فقلت: كيف حال ولدك وحشاشة كبدك؟ فتضاحك البطارقة، وقالوا: زعم البطريق - يعنون صاحبي - أن هذا له عقل وفهم، وقد وفر له من الأدب السهم، وهو لا يعلم بجهله المركب، وعقله الذي عدل به عن الصواب ونكب، أنَّ الله قد صان البطرك عن الأولاد، ووفر سهمه من طارف العلم والتلاد. فقلت لهم: كأنكم ترفعون البطرك عن نسبة الولد إليه، وأن يكون ذلك وصمةً عليه. فقالوا: إنَّا لنرفعه عن ذلك إذ الله عنه رفعه، وأجلَّ قدره عنه وما وضعه. فقلت: واعجباً! أتجلون عبداً من عبيد اللّه عن الأولاد، ولا تجلّون الله الذي خلق العباد والبلاد؟

قال: فنخر البطرك نخرةً أزعجتني وأخافتني وروعتني، ثم قال: أيها الملك أخرج هذا الساعة عن بلدك لئلا يفسد عليك أهله، ولا تعط في ذلك تهاوناً ولا مهلة...."[2].

فالراوي هنا قدّم لنا في نهاية المقامة معنى نبيلاً، وقيمة مهمة في عناصر الإقناع، ومدخلاً

---

(١) المقامات المشرقية: ١٢٧.

(٢) المقامات العشر ١٨/أ.

مهماً من المداخل لإبراز المغالطات في الفكر النصراني، من خلال المقارنة بين زعم البطارقة الأنفة من اتخاذ الولد، بينما هم لا يستنكفون من إلصاق الولد بربهم، عن طريق الحوار والمفارقة وليس الوعظ والحديث المباشر.

وتحمل المقامة العاشرة أرقى القيم الأخلاقية من خلال تعزيز قيمة الوفاء حين يقوم البطل بمكافأة من أسدى له معروفاً يوما ما بطريقة خفية حتى لا يجرح مشاعره، ويحاول التخفي منه حتى يزول عنه أثر الوعثاء والسفر، لأنه لا يريد رؤيته عَلَى حالٍ من الضعف، وختم المقامة بقوله: "يا أخي إنّي لم أُعرض عنك حين رأيتك لجفوة فلا تُعدها عليَّ هفوةً، ولكنّي ما أحببتُ أن أراك إلا عَلَى حالتك المعهودة وهيئتك الحسنة المشهودة، فأرسلتُ وراك من عرف مثواك، والمكان الذي آواك ووجّهت إليك الوالدة ففعلت ما فعلت، وقد التهبت نارُ أشواقي إليك واشتعلتْ، وصبرت نفسي عن لقائك إِلَى أن عُدْتَ إِلَى سموك وارتقائك، وهذه الدار بما فيها من قوادمها وخوافيها وتلك الأموال والأعلاق التي وضعت عليها الأغلاق ملكٌ لك... ولا أقول إني وفيتُ بعض حقوقك ولا خرجت بهذا البرِّ من عقوقك لأنك ابتدأت بالجميل: وكنت الكفيل لدفع ضرّي والحميل، فأيُّ فعلٍ لفعلك يوازي؟ وأي جزاءٍ له يجازي؟ ولكني أكِلُ جزاءك إِلَى من يعلم السِّر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى...."[1].

فمعاني الوفاء وردّ الجميل التي ختمت بها المقامة العاشرة من خلال النص السابق غير خافية، ولا يمكن تجاهلها، وروعتها أنها تأتي موحىً بها من خلال الأثر ، ولا تعتمد عَلَى الوعظ والتذكير الخطابي، عَلَى أنه لم يفت الراوي أن يعلق في ختام المقامة وبعد انتهاء الحوار بين البطل والتاجر، حيث يقول: "فلم يُسمع بأعجب من خبرهما، ولا أغرب من سَمرِهما، ولعمري إنهما لأحقُّ بقولِ من أنشد وهدى إِلَى فعل المعروف وأرشد:

قل لبني الدنيا: ألا هكذا فليفعل الناسُ مع الناسِ"[2]

ثالثاً: الأداء الفني:

بتأمل الأداء الفني في المقامات العشر لعبدالرحيم العباسي نلمح عدداً من السِّمات في بناء المقامة لديه، ومن أبرز هذه السِّمات تداخل الأجناس الأدبية في مقاماته، فبناء المقامة عنده يستوعب كثيراً من الأجناس الأدبية، وبخاصة الشعر، إذ لا نكاد نقرأ مقامة من مقاماته

---

(١) المصدر السابق: ق ٢٣/ أ.

(٢) المصدر السابق: الورقة نفسها.

العشر دون أن نجد فيها شعراً، سواء أكان ذلك عَلَى شكل شذور متفرقة داخل المقامة أم خاتمة تعضد النتيجة التي أراد الوصول إليها.

ولا غرابة في ذلك، فالمقامة ذات صلة واضحة بسائر الأجناس الأخرى، فهي تنفتح عَلَى أجناس السرد الذاتي، وتحتضن مقاصد الخطابة والشعر، ولما كانت أجناس القول وفنون الكتابة في كل ثقافة تؤلف نظاماً أدبياً نسميه أدب تلك الثقافة، فإن دراسة أي جنس من الأجناس ليست في الحقيقة إلا دراسة عنصر من عناصر ذلك النظام، وهي تقتضي من الباحث أن ينظر في مختلف العلاقات التي تربطه بسائر العناصر، وتفسر نشأته، وتطوره، وخصائص مضمونه وشكله.

وقد استنتج دارسو المقامات أنَّ هذا الجنس الأدبي جاء تتويجاً لتفاعل بين أجناس عديدة، فالمقامات في رأيهم نقطة التقاء صناعتي النظم والنثر، ويُعد السجع، وهو عماد الكتابة في المقامة، حلقة وصل بينهما، فهو أحد أنواع الكتابة النثرية في الخطبة والرسالة والوصية، وفي غيرها من الأجناس النثرية، ولكنه قريب من الشعر، بموازناته الصوتية، كما أنَّ سائر المحسنات البديعية تقرّب المقامة من الشعر.

يقول الدكتور/ صالح بن رمضان: "ويعتبر النقاد أن التداخل بين بلاغة الشعر القائمة عَلَى الصورة وعَلَى موسيقى الوزن والقافية وبلاغة الكتابة القصصية في المقامة يعكس رغبة الكتاب في الجمع بين هاتين الصناعتين في جنس أدبي واحد"[1].

وقد برع عبدالرحيم العباسي في هذا من جانبين اثنين، ومن خلال مستويين مختلفين، أولهما كثرة إدراج الشعر ضمن سياق النص المقامي، وثانيهما الكتابة النثرية بلغة شاعرة من خلال الإفادة من الصوت الشعري المتمثل في أقرب أدوات النثر منه وهو السجع والتوازن في فواصل الكلام ومقاطعه، وسأعرض هنا لهذين الجانبين كتدليل عَلَى هذا التداخل في صناعة بناء المقامة، من خلال نص واحد ففي المقامة الثانية يرد السياق في حديث العباسي عن قيمة المال عند عامة الناس قائلاً: "ومن خلا إناؤه طال عناؤه، ومن جفّت أنداؤه قلَّ أودَّاؤُهُ، ومن فرغ وطابه لا يسمع خطابه، ومن ذهب ماله قبح جماله، ومن أقفر ناديه أعرض مناديه، فالدرهم والدينار بهما يُدفع الشّنار، ويرفع المنار، وتُقض الأوطار، وتمنع الأخطار:

---

(١) الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، مشروع قراءة شعرية، للدكتور/ صالح بن رمضان، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٧م: ٩٠.

لــيس ســوى الــدرهم مــن صــاحبِ / فكـم عليـه – الـدهرَ – مـن ناحـبِ
فالحــازمُ الــرأي الّــذِيْ لــم يــزلْ / لــهُ – مــدى الأيــام – بالــساحبِ
فهــوَبــه يــصبحُ رحْــب الفِنـــا / ومــنْ عليـــه اليــسرُ بالواجـــب
وهـــو لـــدى النـــاس رفيـــع الـــذُّرَا / بـــادي الــسنا، ذو الــسنن اللاحــبِ
ووجـــهُ مـــن يفقـــدهُ لا يُـــرى / إلاَّ بلـــون الأغبـــرِ الـــشاحبِ(١)

إنَّ هذين المساقين في خطاب المقامة لتأكيد معنى واحد جاء من خلال سياقين: الأول منهما في عرف النقاد ومحددي الأجناس الأدبية نثر، ولكن رأينا كيف أنه لم يكن مجرداً من موسيقية الشعر وبلاغته المتخيلة، فالموازنات الصوتية من خلال التوازن هنا ارتقى به ليكون قريباً من الشعر "ومن جفت أنداؤه قلَّ أودَّاؤُهُ، ومن فرغ وطابه لا يسمع خطابه...". النثر هنا يقتحم عَلَى الشعر أبوابه، فلو قارنّا بين بلاغة تلك الأسطر الثلاثة في التدليل المعنوي والأداء الفني التصويري والموسيقي لقيمة المال عند مالكيه، وتأثر من فقده وخلت منه يده، وبين ما ورد من المعاني نفسها في الأبيات الخمسة، في نظري أن قدرة عبدالرحيم العباسي عَلَى الوصول بالمعاني في الأسطر النثرية إِلَى مرحلة عليا من الإبداع والتخييل وتكامل الأدوات الفنية منها في الشعر الذي أكد به تلك المعاني، فهو وإن حاول عضد النثر بالشعر إلا أنَّ سطوة النثر وجماله قد فضحا مستوى تعبير الشعر عن تلك المعاني المقصودة.

إن العباسي في تلك الجمل المتوازنة في الأسطر الثلاثة النثرية يحاول – بعد كل جملة – أن ينتقل إِلَى الشعر ولكنه يتريث إذ فضاء النص لم يستكمل بعد، فيستهويه النثر، فلا يصل إِلَى الشعر إلا وقد استنفد قواه التصويرية واللغوية فكان الشعر أقل تمثيلاً للمعنى عما سبق من خلال النثر، فالعباسي أفرغ شاعريته في النثر قبل أن يصل إِلَى الشعر، فكان شعراً حقيقياً وإن كان نثراً في ظاهره، ولو خلا من القوافي المتصلة بتفاعيل الخليل الموزونة المعبّر عنها بنظام البيت. فهذا التداخل بين الأجناس من خلال نص المقامة لدى العباسي وغيره هو تمثيل لنظام ما يسمى بالحوار بين الأجناس داخل السياق، وأظنّ أن دارسي التوازن والسجع قد جنوا جناية كبرى عليهما عندما أوهمونا بأنهما قيدان ثقيلان عَلَى النص، ولو أنهم عدُّوهما مثلا مرحلة من مراحل تطور الأجناس الأدبية في اقتراب بعضها من بعض، وأن هناك أدباء استطاعوا تمثيل هذا التقارب في مرحلةٍ ما، لكان في ذلك خير كثير،

---

(١) المقامات العشر: ٦/أ.

وإنصاف لا ينكر.

ورغم أنّ هذه الأشعار – وهي كثيرة في مقامات العباسي – ظلت تعطي صورة كونها امتداداً للنثر: تفصيل الوصف / استكمال رسم الصورة / المساهمة في الإيقاع الموسيقي، فإن حرص المقطوعة على إيرادها متوازية مع النثر، وبطريقة تناوبية جعلها تخرج من إطار النموذج (المساعد) أو النموذج (الاستشهاد) إلى أن تشكل مع الكلمات النثرية المعبَّر بها خطاباً معرفيّاً، فتكون أداة بنائية في المقامة.

وضمّن العباسي مقاماته أجناساً أخرى مهمة كالمثل والحكمة، و هما الجنسان الأكثر وجازة بين أجناس الأدب، فكان حضورهما اللافت في المقامة عند العباسي وغيره مشهداً آخر مهماً عَلَى حاجة الأجناس بعضها إِلَى بعض في تمثيل نظام اللغة والتصور التعبيري الذي لا يضع حدوداً فاصلة بين الأجناس.

وهذا اللون من التداخل هو ما يعرف في المصطلح الأدبي القديم بـ"التضمين"، وفي المصطلح الأدبي المعاصر بـ"الشاهد الأدبي"، وهو: مقطع من نص يؤخذ من سياقه الأصلي ويدرج في سياقٍ آخر بطريقة ما، لتحقيق وظيفة ما، فهو نقطة تقاطع بين نصين مختلفين[1].

ففي المقدمة يقول: "ليقلَّ همّك، فربّ أخ لك لم تلده أمك..."[2]، ويقول: "وأنى لجهينة هذه الأخبار، وقريب العهد بهذا الاختبار... وهو يظهر رغبة في المودة وابتغاء، ويسرّ حسواً في ارتغاء، ويتلون تلوّن الغول..."[3].

وكانت القصة أكثر الأجناس الأدبية ظهوراً في بناء مقامات عبدالرحيم العباسي، وقد جعل بعض الباحثين العباسي أنموذجاً لطغيان هذا الجنس عَلَى نمط المقامة، يقول الدكتور خالد الجديع: "فإنَّ القصة المقامية لم تنحسر مقابل هذا المد المتنوع من الأجناس الأدبية، بل ظل كثير من المقامات يحمل الطابع القصصي، وربما حلق الخيال القصصي بعيداً نحو الأساطير والأعاجيب والغرائب، ولعل أبرز رواد هذا الاتجاه هم ابن ريان وعبدالرحيم العباسي والقواس الحلبي"[4].

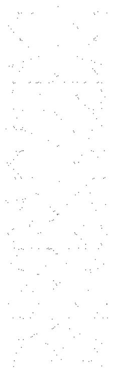
ولا يمكن أن أغفل هنا الخلاف الكبير بين النقاد حول قصصية المقامة بين منكرٍ أشد

(١) انظر: الشواهد في العربية، لمحمد اليعلاوي، منشورات كلية الآداب، منّوبة، تونس، ١٩٩٠م، ٣٦-٣٧.

(٢) المقامات العشر: ق ٢/أ.

(٣) المصدر السابق ق ٢/ب.

(٤) المقامات المشرقية: ٤٢٨.



الإنكار العلاقة بينهما، وبين من يرى أن المقامة قصة بكل ما تحمل من عناصر[1].

وإذا كان الإنكار ونفي العلاقة ربما يتوجه لكثير من المقاميين فإني أرى أنّ مقامات عبدالرحيم العباسي تحمل كثيراً من ملامح القص، وتشتمل عَلَى عناصر بناء القصة بأكملها المتمثلة في الراوي والزمان والمكان والحدث والشخصيات والحوار والسرد.

فالمتأمل للراوي في المقامات العشر يجد أنه غير محدد الاسم، متغيّر من مقامة لأخرى، ففي المقامة الأول يقول العباسي: "قال بعضهم: ساقني القدر المحتوم، والغيب المكتوم من أرض الأراك والبشام..."[2]، وفي الثانية يشير العباسي إِلَى الراوي بقوله: "حُكي أنّ بعض بني الآمال، أصبح صفر اليدين من المال، لا يملك بنت ليله..."[3]. وفي الثالثة يقول: "روي أنه كان بدار السلام بغداد تاجرٌ..."[4]، وفي الرابعة: "حكي"[5]، وفي الخامسة "روي"[6]، وفي السادسة: حدّث بعضهم قال..."[7] وهذه المقامة هي أول مقامة يتغير فيها نمط السرد ولو قليلاً ، ففي آخرها يقول: "وقال الراوي: فلما فرغ من قوله، وما قاساه من قسوة ذلك الظالم[8]. والمقامة السابعة يظهر لنا أول مرة اسم الراوي فيبدأ العباسي المقامة بقوله: "إنّ من عجيب الأسمار وغريب ما يتسامر به السُّمار ما حكاه قباث بن رزين اللّخمي عن نفسه، وما وقع له في أسره وحبسه..."[9].

ويعود في المقامة الثامنة إِلَى أسلوبه السابق من إغفال اسم الراوي فيقول: "ذُكر أنه كان..."[10]، وفي التاسعة يقرب الراوي قليلاً فيقول: "قال لي بعضهم..."[11] وقريب منه يأتي

---

(1) لاطلاع أوسع عَلَى هذا الخلاف انظر: فن المقامات في الأدب العربي، للدكتور عبدالملك مرتاض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٨م: ٤٧٣-٤٧٩. والمنامات الأيوبية: روافد التلقي - الرؤية الفكرية - البنية السردية، للدكتور خالد الجديع، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مجلة الحكمة - جامعة مؤتة، الأردن، المجلد ٣، العدد ٣، جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ تموز ٢٠٠٧م: ٤٦-٤٧.

(2) المقامات العشر ق ٤/ أ.

(3) المصدر السابق ٦/ أ.

(4) المصدر السابق ٧/ أ.

(5) المصدر السابق ق ٩/ب.

(6) المصدر السابق ١٢/ أ.

(7) المصدر السابق ق ١٤/ أ.

(8) المصدر السابق: ق ١٥/أ.

(9) المصدر السابق ق ١٥/ أ

(10) المصدر السابق ق ١٨/ أ.

(11) المصدر السابق ق ١٩/ ب.

السياق مبهماً الراوي في المقامة العاشرة حيث يقول: "حدّثني رجلٌ من أعيان البصرة، قد حباه الله توفيقه ونصره..."[1].

والراوي عنده يروي المقامة دون الظهور داخلها أو المشاركة في أحداثها في أكثر مقاماته، وأحياناً يذكّر به عبدالرحيم العباسي، لئلا يطول الفاصل عَلَى القارئ، فيشير إليه بدون أدنى محاولة لتقريبه كما ظهر قبل قليل عند الإشارة إِلَى ذلك في المقامة السادسة[2].

ومن المقامات القليلة التي شارك الراوي في بعض أحداثها المقامة الأولى، فالراوي يرى أحد الشحاذين، وعليه من دلائل الحرمان والفقر ما عليه، في ليلة شاتية، وجميع المعطيات والأدلة تشير إِلَى ضعفه، وذلته، وتوحي بصدقه، فتبرز لنا فراسة الراوي، فيشك في الشحاذ، وتنتهي المقامة بتصديق حدسه وفراسته، بعد متابعته والدخول إِلَى داره، وسماع قصته وأخباره، يقول العباسي مصوراً بعض ما قام به الراوي: "فأكلتُ معه أكل من أرهقه الحياء، وأوثقه الاستحياء، لعلمي بوخامة تلك المرابع، ولم يكن معنا ثالث ولا رابع، وحين استوفينا ما قُدّر وقُضي، وأُعجب بموافقتي ورضي، سألتُه أن يُريني من حيله، وعجائب عمله، ما أوثره عنه وأنقله، وأتعقله منه وأعقله، فقال: صلِّ غداً في المسجد الجامع، وتأمل ما يقع من المعامع، فإنك تشهد من العجب ما لم يأتِ مثله في رجب، فبكرتُ بكور الغراب..."[3]. ونلحظ هنا محاولة الراوي وصمه لما فعله البطل بـ"وخامة" وهو هنا يحاول أن يقف موقفاً أخلاقياً من تلك الحيل والطريقة التي احتال بها ذلك المكدي. وتكرر هذا الموقف من الراوي في هذه المقامة، وذلك في آخرها، حيث حاول أن يكون بعيداً عن مشاركة البطل في ما جناه من أموال عن طريق الخداع بعد أن انثالت عَلَى المكدي الأموال والنفائس من جماعة المسجد، فقال: "وأخرج تلك اللَّقطة بعينها، وجوهرها ولُجينها، وعَرَض عليّ ما استجداه، وما ظفرتْ به يداه، فإذا هو يفوق الحصر والإحصاء، ويعجز العد والاستقصاء، وعرض لي منه بنصيب، فآليت ألا أنال منه ولا أصيب، وعجبت من هذا التغريب والترتيب الغريب، فقال لي: لا تعجب لما رأيت..."[4].

والزمان والمكان بكونهما ركنين في بناء القصة قد أولاهما عبدالرحيم العباسي داخل مقاماته عناية لا بأس بها، ولاسيما الزمان الخارجي، فهناك مقامات ربط العباسي أحداثها

---

(١) المصدر السابق ق ٢٠/ ب.

(٢) المصدر السابق ق ١٥/ أ.

(٣) المصدر السابق ق ٥/ أ.

(٤) المصدر السابق ق ٥/ ب – ٦/أ.



بوقائع زمانية، فالمقامة الخامسة أوحى وصف الراوي ما مر به البطل من نقلاتٍ مفاجئة من حياته، بأن أشار إلَى أنه وصل إلَى بغداد والحاكم آنذاك أبو جعفر المنصور، فيقول: "ثم إنه أفاق بعض الإفاقة وهو علَى غاية من الفاقة، فأشير إليه بقصد بغداد دار السلام، فرآه من سديد الكلام، فوجّه إليها مسراه، وواصل نحوها سُراه، وكان إذ ذاك في ريعان الشباب... وجباه الملوك في إثرها تعفّر، بدولةٍ بانيها الخليفة المنصور أبي جعفر..."[1].

والمقامة السابعة صرّح البطل – حينما روى بنفسه للراوي – بزمن وقوع الأحداث التي كوّنت سرد المقامة قائلاً: "ما حاكاه قباث بن رزين اللخمي عن نفسه، وما وقع له في أسره وحبسه، قال: أُسرتُ في خلافة معاوية عند كلاب الروم العاوية..."[2].

وأكثر مقاماته وقعت في زمن محايد لا يمكن تلمس معالمه أو الإفادة منه في لملمة شيء من الأحداث أو الاحتفاظ ببعض المؤثرات التاريخية التي يحملها الحدّ الزمني المهم لفهم أي حدث، بل إنّ هناك أحداثاً في بعض مقامات عبدالرحيم العباسي حدثت في زمن خرافي مرافق لحدث خرافي، لا يمكن أن يكون محدوداً في الزمن العادي، ولكنه لا يسيطر علَى كل أجزاء المقامة وإنما تحمله بعض مواقفها الزمنية، وأحداثها الجزئية، ومن ذلك مثلاً المقامتان الرابعة والسابعة اللتان تتحدثان عن أحداث خرافية تحدث داخل المقبرة، ويحكي فيها البطل ما حصل له من وقائع تروي خرافة متخيلة، لا يمكن أن تقع زمانياً، وإنما هي متخيّل ذهني من قبل الراوي، وقبل ذلك في ذهن عبدالرحيم العباسي، والزمن لا يمكن له أن يستوعبها أو يؤطرها.

أما المكان فقد كان أكثر بروزاً في سائر مقامات عبدالرحيم العباسي، وبروز المكان في مقاماته أخذ أشكالاً عدة، وليس بالضرورة أن يكون عنوان المقامة محدداً المكان حتى يقال إن المقامات قد تحدد المكان فيها، فقد أشار أحد الباحثين إلَى أن العباسي لم يضع أسماء ألبتة لمقاماته[3]، وإن كان هذا صحيحاً في ظاهر الأمر، لكنّ العباسي قد أشار في كل مقامة إلَى مكان حدوثها، فالمقامة الأولى دارت أحداثها في بلاد الشام، وهذا يظهر من أول سطر في المقامة، يقول العباسي: "قال بعضهم: ساقني القدر المحتوم، والغيب المكتوم، من

(١) المصدر السابق ق ١٣/ ب.

(٢) المصدر السابق ق ١٥/ أ.

(٣) انظر: المقامات المشرقية، للدكتور/ خالد الجديع: ٤٥٣.

أرض الأراك والبشام إِلَى أن حللتُ بالشام، فأقمتُ بها مدة مديدة..."[1]. ويرافق هذا الشكل سائر المقامات، فالثالثة جاء فيها: "روي أنه كان بدار السلام بغداد تاجر..."[2]، وفي المقامة الرابعة يقول: "حكي أنه كان رجل من تجار البصرة، قد وضع الزمان عنه إصره..."[3]. والخامسة يبدأها بقوله: "روي أنه كان بحمص الشام شابٌ كثير الوقار والاحتشام... "[4].

وبعد المقامة الخامسة نلمح ظاهرة جديدة تمثلت في تهميشات المؤلف بجوار أول سطر من كل مقامة بذكر المكان الذي حدثت فيه، فالمقامة السادسة التي بدأها العباسي بقوله: "حدّث بعضهم قال: كان في جواري بواسط شابٌ حسنٌ ذو بلاغةٍ ولسن..."[5]، كان التهميش بـ "الواسطية"، فهل هذا هو عنوانها عند كتابتها، أو أنه استدراك من المؤلف بعد ذلك احتفاءً بالعنوان المكاني، ومسايرة لكثير من المقاميين الذين احتفوا بعنونة مقاماتهم سواء مكانياً أو زمانياً أو بوصلها بحدث من أحداثها عن طريق العنونة به[6].

وقد حاول العباسي في كثير من مقاماته وصف المكان بتفصيلاته، محاولاً إعطاء المكان حضوره الفاعل في تقريب المشهد، ودعم متابعة الأحداث، فمن ذلك وصف العباسي لرحلة البطل في المقامة العاشرة قائلاً: "وكان من قضاء الله المحتوم، وسرِّ غيبه المكتوم أن قوى في عقله الرصين السفر إِلَى الهند أو الصين لنفوذ الأقدار وما يجري به الفلك المدار، فشحن الفُلك بأنواع التجارة، وفارق وطنه ووجاره، وركب ثبج البحر الزخّار بعد أن استجار واستخار، واستمر به السير والريحُ رُخاء، والوقت رَخاء، والأمواج تحمل الفلك وتضعه، والهواء يخفضه ويرفعه إِلَى أن قربوا من برِّ مدنِ الهند المعهودة، وأجلِّ أقاليمه المشهودة..." [7]، وعندما دخل البطل المدينة الهندية المقصودة كان للمكان حضوره، فأخذ الراوي يصفه بكل تفصيلاته، مصوراً أثره عَلَى نفسية البطل، فقال: "فأخذ يتخلل سكك المدينة، ويتعجب من محاسنها المستبينة، ووضوح قدمها، ورسوخ قدمها، وبهجتها وانفراجها، وسموّ قللها

---

(١) المقامات العشر: ق ٤ / أ.

(٢) المصدر السابق ق ٧ / أ.

(٣) المصدر السابق ق ٩ / ب.

(٤) المصدر السابق ق ١٢/ ب.

(٥) المصدر السابق ق ١٤/ أ.

(٦) وكذلك فعل العباسي في المقامات التالية: فالمقامة الثامنة سمّاها "البغدادية"، المقامات العشر، ق ١٨/ أ، والمقامة التاسعة (المصدر السابق ق ١٩/ ب)، سمّاها "القسطنطينية".

(٧) المصدر السابق ق ٢١ / أ.

وأبراجها، ورونق رياضها، وتذلل الهموم لفرجها وارتياضها، واتساع جنباتها وأفنائها... وإيناع حدائقها المجددات، وإحرام حجيج الأنس من ذلك الميقات..."[1].

ولا أريد الاسترسال كثيراً في بيان ما قام به تنوع المكان من وظائف مهمة في مقامات العباسي من قيادتها إِلَى النجاح، وتغيير المشاهد الذي يضفي حيوية عَلَى المقامة، ويشي بحركية واضحة، فمقامته الأولى –مثلاً– تعددت فيها اللقطات المتصلة بالمكان من منزل الراوي إِلَى الشارع الذي قض فيه الشحاذ سحابة يومه، إِلَى قصره ثم بعد ذلك المسجد، ثم العودة إِلَى قصر الشحاذ المحتال مرة أخرى[2].

والحدث في مقامات العباسي كثيراً ما كان منبع الإثارة فيها، والمسيطر عَلَى روحها، ولم تكن مقاماته سائرة عَلَى نهج واحدٍ في أحداثها، وطريقة عرضها، وتفاعل الشخوص فيها، فالحدث وإن جاء في أكثر المقامات ممكن الوقوع كما هو الحال في المقامتين الأولى والعاشرة مثلاً، فإنه قد جاء – أي الحدث – في بعضها محض خيال، أراد العباسي إقناعنا به من خلال حشد الدلائل عليه كما هو الحال في بعض أحداث المقامتين الرابعة والسابعة، حيث يذكر أنّ البطل يعيش داخل مقبرة فترة طويلة من الزمن – غير واضحة المعالم – تنفيذاً لاعتقاد أهل البلاد التي حلّ بها – في الرابعة " الهند" وفي السابعة "بلاد الروم" – وهو أن يدفن الحيّ مع قرينه وشريكه في عش الزوجية بعد وفاته، وتتوالى الأحداث الصغيرة داخل الحدث الكبير إِلَى أن يجد البطل مخرجاً من تلك المقبرة، وإن كانت طريقة الخروج من المقبرة في المقامة السابعة يمكن وقوعها عقلاً بخلاف المقامة الرابعة، التي يقول فيها: "فبينا هم كذلك إذ رأيا في صدور الناووس سراجين يقِدَان، فجلسا من الخوف يرعدان ثم سمعا صوت عظام تقضم، وتفض عرى التئامها وتفصم، فعلما أنه وحش توصل إِلَى هذا السرداب، وأيقنا من الفرج بالاقتراب، فقاما يتبعانه ويخوفانه ويروعانه إِلَى أن وصل إِلَى شقٍ منه دخل، وخرج منه هارباً ولم يخل، فجاءا إليه فتأملاه، وتحقق ما ترجّياه من الخلاص وأملاه..."[3]، فالعباسي أراد إنهاء الحدث هنا بطريقة غير مقنعة، أهم شيء لديه هو إخراج البطل وزوجة الملك من القبر بأي طريقة.

---

(١) المصدر السابق: الورقة نفسها.

(٢) انظر: المصدر السابق ق ٤/أ – ٦/أ.

(٣) انظر المقامات العشر "المقامة الرابعة" ق ١٢/أ.

وهناك مقامات بُني الحدث فيها عَلَى محض الصدفة كما هو الحال في المقامة السادسة التي يخرج فيها البطل من منزله ليلة ولادة زوجته ويغادر المدينة هارباً بعد أن لم يستطع أن يقدم لزوجته طعاماً يخفف عنها ألم الولادة والبرد والجوع، حيث مال به السير إِلَى زقاق طويل في صدره باب مفتوح، فلما دخله وجد رجلاً يصنع طعاماً، تعرف عليه ثم توالت الأحداث بشكل مفاجئ إِلَى أن جاء رجل يحمل كيساً فيه أموال، وحدث نزاع بين الرجلين (الطباخ وحامل الكيس) أدى إِلَى قتل أحدهما، ثم اغتنم البطل الفرصة وسرق الكيس، وجاءه السعد، وحل بساحته الغنى[1].

وأحياناً لا يستطيع العباسي متابعة الحدث في المقامة، أو إتمام روح الإثارة المتوقعة، فيأتي الحدث بارداً، ولا سيما في إنهاء الحكاية بطريقة غير متوقعة، بل وعفوية كما هو الحال في المقامة الثانية، حيث كان المتوقع أن يثير عثور الرجل عَلَى المال في قصر والد زوجته شكوكها، ويدعوها للوقوف منه موقفاً عدائياً بعد أن خدعها لسنواتٍ طويلة، يأتي الحدث وإتمام المقامة بشكل غير متوقع، إذ ترضى الزوجة، وتوافق عَلَى ما حدث – وهذه طريقة العباسي إذ يحاول دائماً أن يختم مقامته بانتصار الخير، وحدوث ما يقود إِلَى الرضا والنجاح –، فيقول في ختام تلك المقامة: "وفتحا ما كان هناك من الأزيار، فإذا هي مملوءة من الذهب الوافي العيار، ووجد في بعضها رقعة مختومة، تدل عَلَى حكمة مكتومة، ففتحاها، فإذا هي محتوية عَلَى عدة تلك النقود، وفيها اسم أبيها المفقود، فتزايد الفرح، وتزايل الترح، وزادا ارتياحاً وانتعاشاً، وارتفقا بذلك مدة ما عاشا، إِلَى أن فرّق بينهما الموت، وعمهما الفقد والفوت"[2].

وإن كان العباسي هنا قد أخفق – في نظري – في إتمام الإثارة، فإنه قد نجح في المقامة العاشرة عَلَى الرغم من استدعائه للحدث الرئيس فيها من حكاية مشهورة أوردها الجاحظ في "البخلاء"، ولكن العباسي نجح هنا في تغيير بنية الحدث من خلال التغيير غير المتوقع للنهاية والخاتمة.

فقد أورد الجاحظ في البخلاء قصة التاجر المروزي الذي كان يحج كل عام، ويمر في طريقه بالعراق عَلَى تاجرٍ عراقي، فكان هذا العراقي يكرمه ويستضيفه في طريقي الذهاب

---

(١) انظر: المصدر السابق ق ١٤/ ب – ١٥/ أ.

(٢) المصدر السابق ق ٧/ أ.

والعودة، وكان المروزي كثيرا ما يقول له إنه يتمنى منه أن يزور خراسان ولو مرة واحدة ليرد له الجميل، ويشكره عَلَى معروفه المتكرر، وتدور الأحداث فيسافر العراقي يوماً إلَى مرو، وكان مما هون عليه الذهاب مكان صديقه التاجر هناك، ولكن لما دخل العراقي مرو وبعد وصوله إلَى صديقه أنكر هذا الأخير معرفته، وحاول العراقي بشتى الوسائل التعريف بنفسه، فنزع العمامة والقلنسوة والجبة ظناً منه أن هذه الملابس قد غيّرت شكله، ولكن تبين له أن هذا المروزي لا يريد أصلاً – لبخله – أن يعرفه، يقول الجاحظ: "وعلم المروزي أنه لم يبقَ شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل. قال: لو خرجت من جلدك لم أعرفك"[1].

هذا الحدث استغله عبدالرحيم العباسي في بناء الحكاية، التي تدور أحداثها حول تاجر من أعيان البصرة حسن الأخلاق عزم عَلَى السفر إلَى الهند، فشحن سفينته بأنواع التجارة، وركب البحر، ولما كان في منتصف الطريق هاجت عليهم الريح فأغرقت سفينتهم، وتعلق هو بلوح خشبي من ألواح السفينة قاده إلَى الشاطئ فقيراً لا يملك فتيلاً ولا نقيراً فدخل إلَى المدينة الواقعة عَلَى ذلك الشاطئ، وهو يفكر في حاله وما إليه استحال، فإذا به أمام دار جميلة، وعَلَى بابها رجل نبيل تدل ملامحه عَلَى علو همته وكريم طبعه فتعرف عليه، وسأله عن حاله فقص عليه التاجر البصري القصة، فتألم الرجل الهندي لحاله، وواساه بما حضر لديه من المال، وأفرد له داراً متصلة بداره، وعاش في كنفه مدة طويلة، ثم إنه تشوق للعودة إلَى وطنه ففجأه التاجر الهندي بالسماح له بالعودة وإكرامه بأن أعطاه سفينة كاملة محملة بالبضائع والعبيد هدية له، فعاد البصري إلَى البصرة والتقى بأهله بعد أن أيسوا من عودته.

ودارت الأيام عَلَى التاجر الهندي حيث غضب عليه ملك قطره، وسلب منه كل أملاكه وأمواله، فعاد فقيراً بعد غنى، فخرج من المدينة خائفاً يترقب، وما زال يتنقل من مكان إلَى مكان إلَى أن دخل البصرة، فلما دخلها أيقن بالفرج لمكان صديقه التاجر البصري، وتدور الأحداث التي تصف مشهد اللقاء بين الرجلين، "فأوقع الله بصره عليه وهو جالس في حانوتٍ رحْب الفناء، عالي البناء، مملوءٍ من الأمتعة الثمينة... وفي خدمته غلمان... فتراءى له فلم يعره طرفاً وأراه نكراً لا عرفاً، فقال: لعله ما حقق معرفتي ولا أثبت صفتي، فتراءى له من غير ذلك الجانب وهو يحيد عنه ويجانب، فقال: لعل بعد العهد بالائتلاف أوجب هذا الصد والإخلاف،

---

(١) البخلاء، للجاحظ، ضبطه وشرحه وصححه أحمد العوامري وعلي الجارم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م: ٥٣ – ٤٥.

فوقف أمامه راجياً ذمامه، فتشاغل عنه بغيره، وأيأسهُ من بِرّه وخيره، فولى عنه ورجع بعد أن حوقل واسترجع نادماً عَلَى وضع الجميل في غير محلّه..."[1].

إن هذا الموضع من المقامة هو الذي تتقاطع فيه مع قصة الجاحظ في بخلائه، والجاحظ أنهى قصته بلوم التاجر العراقي نفسه عَلَى وضعه الجميل في غير موضعه مع التاجر المروزي. ولكن هل تنتهي الحكاية هنا عند عبد الرحيم العباسي؟ لقد استطاع العباسي أن يغير من نمط الحدث هنا في مقاماته، وينجح في توظيف الحوار بين النصوص ، حيث أخذ التاجر الهندي يتحدث مع نفسه عن سبب صنيع هذا التاجر البصري معه، وقاده الطريق وهو يفكر إِلَى مسجد، فدخله، وبينما هو غارق في تفكيره دخلت عليه المسجد امرأة، طالبة منه – إن كان يحسن القراءة – أن يأتي إِلَى منزلها ليقرأ القرآن في دارهم ليفوز بأجري الدنيا والآخرة. فلما قرأ في منزلهم أكرموه غاية الإكرام، وقدموا له لذيذ الشراب والطعام، وأعطته المرأة داراً يسكنها حتى يفرج الله حاله، ثم عرضت عليه في اليوم التالي الزواج بابنتها، لما رأت عليه من الخير والصلاح، فأخبرها أنه لا يملك مالاً يقدمه مهراً لابنتها، فقالت له: المال موجود، ودفعت ألف دينار وثياباً فاخرة، ثم تم الزواج، وأعطته المرأة بعد ذلك بضائع كثيرة يتاجر بها، فشكر هذا الصنيع منها، قال العباسي واصفاً ما آل إليه من بضائع وأموال حصلها من تلك المرأة وابنتها: "وعينوا له حواصل نقلت تلك الأموال إليها، ثم وضعوا وثيق الأقفال عليها، وسلموه مفاتيح تلك الأقفال، فكانت له كالغنائم والأنفال، وعمل دفتراً لذلك المال وحسبه بالتفصيل والإجمال، فإذا هو يزيد عَلَى ما ذهب إليه من أمواله المنهوبة، فرأى ذلك نعماً من الله موهوبة، ودخل إلى داره فرحاً.... وعندما فرغ من العشاء، وصلى فرض العشاء إذا هو بباب صغير فتح من جانب الدار، ودخل منه رجل جليل المقدار، فقام إليه حرمه متعجلين وهرولوا نحوه معظمين ومبجلين، فحقق النظر فيه، وإذا به ضيفه الذي أظهر له تجافيه، فقام إليه مقبلاً، وعانقه مقبّلاً..."[2].

إن ذلك المشهد تغيير لسياق حكاية الجاحظ في بخلائه، فهنا العباسي جعل التاجر البصري يجازي التاجر الهندي بإكرامٍ أكثر من إكرامه، ويرد له جميل فعله بوفاء عجيب، حتى وإن أظهر له عدم معرفته به لمّا جاءه في السوق أول وهلة، وقد علل له التاجر البصري

(١) المقامات العشر: ق ٢٢/ب.

(٢) المصدر السابق ٢٣/أ.

السبب الذي دعاه لإنكار معرفته لما دخل عليه السوق بتعليل عجيب، حيث قال: "يا أخي، إني لم أعرض عنك حين رأيتك لجفوة، فلا تعدّها علي هفوة، ولكني ما أحببت أن أراك إلاّ عَلَى حالتك المعهودة، وهيئتك الحسنة المشهودة، فأرسلت وراكَ من عرف مثواك والمكان الذي آواك، ووجهت إليك الوالدة ففعلت ما فعلت، وقد التهبت نار أشواقي إليك واشتعلت، وصبرت نفسي عن لقائك إِلَى أن عُدْتَ إِلَى سُمُوّك وارتقائك، وهذه الدارُ بما فيها من قوادمها إِلَى خوافيها وتلك الأموالُ والأعلاقُ التي وُضِعَتْ عليها الأغلاقُ ملكٌ لك... ولا أقولُ إنّي وفيتُ بعض حقوقك ولا خرجت بهذا البِرّ من عقوقك لأنّكَ ابتدأت بالجميل... فأيّ فعلٍ لفعلك يوازي؟ وأيّ جزاءٍ لهُ يجازي؟"[1].

فالعباسي هنا عزز من قيمة الوفاء ورد الجميل، منطلقاً من حكاية وضعت أصلاً في رسم قيمة تتضمن معاني تخالف المعاني التي طرقها،حيث حول العباسي المشهد من بخل إِلَى كرم، ومن نكران للجميل إِلَى وفاءٍ، وقدم نصاً جديداً أفاد فيه من الحوار مع نص الجاحظ .

وقد نجح العباسي في المقامة العاشرة في رسم شخصية البطل، وحاول فيها كذلك أن يقوم بتوزيع البطولة عل أكثر من شخصية، حيث ظهرت شخصية التاجر الهندي بكل معالمها، سواء الشكلية أو من خلال تحريك الأحداث، وإبراز انفعالاته النفسية وحديثه الداخلي المتمثل في الحوار الذاتي، حيث اتضح ذلك مثلاً حينما وصل التاجر الهندي إِلَى البصرة ولم يلق الحفاوة والاستقبال اللذين كان يتوقعهما من صديقه البصري، حدث نفسه بأحاديث وصفها العباسي قائلاً: "حوقل واسترجع نادماً عَلَى وضع الجميل في غير محلِّهِ، سادماً عَلَى إخصابه ربع سعادته بعد محْله، ثم يقول في نفسه: لعلّهُ اشتبه عليَّ وخيّلَهُ الفكر الفاسد إليّ. ثم يرجع إِلَى حِسِّهِ ويقول: إنّهُ هو وإعراضه بعكس الطالع إِلَى خوافيه"[2].

ويأتي الحوار في مقامات عبد الرحيم العباسي ضمن دائرة السرد، وليس مفصولاً عنها، فيكون الحوار – كما هو الحال في مقامته الأولى – بحضور الراوي، فيظهر كثيراً: فقال، وقلت، أو حكى، وما شابه ذلك، وأغلب الحوارات في مقاماته قصيرة، تظهر في فقرات يسيرة ثم يتوقف الحوار لتعود القيادة للراوي أو السارد، مثلما جاء في المقامة السابعة التي دارت أحداثها في بلاد الروم بين الرجل المسلم وبطارقة النصارى[3]. فالحوار في تلك

---

(١) المصدر السابق: الورقة نفسها.

(٢) المصدر السابق ٢٢/ب.

(٣) النظر: المصدر السابق ق ١٧/أ – ١٨/أ.

المقامة وفي غيرها من المقامات ارتقى بالأحداث، وصعد من العمل الدرامي في كثير منها، كما أنه كشف عن بعض مغاليق الشخصية فيها، وكان ذا أثر في فك بعض الطلاسم التي لم يستطع الراوي معرفتها أو الإحاطة بها، ومن ذلك قول الراوي في المقامة الأولى مخاطباً البطل: "يُريني من حيله، وعجائب عمله، ما أوثرهُ عنه وأنقله، وأتعقله منه وأعقله"[1]. فكان الرد من المكدي (البطل) عَلَى الراوي: "فقال: صلِّ غداً في المسجد الجامع، وتأمل ما يقع من المعامع"[2].

وبعد فالعباسي قدم مقاماته في أسلوب قصصي جذاب قائم عَلَى أدوات القص من حبكة وأحداث وشخصيات وحسن عرض وجمال تناول، ومفاجآت جاءت في أثناء عرضها، وقد نهج في مقاماته أسلوب السجع وبعض المحسنات، كما هو الشأن في سائر المقامات، ولكنه استطاع ببراعته وتمكنه من فنه النفاذ مما وقع فيه كثيرون من تكلف وصنعة لا يقبلها الذوق الرفيع، واستطاع – كذلك – السيطرة عَلَى توزيع ألوان البديع في ثنايا النص ببراعة واقتدار.

وقيمة مقامات العباسي تبدو أيضاً في تجديده في البناء الدرامي للمقامة، وعدم وقوعه في أسر الصنعة التي سار عليها كثير من المقاميين المتقدمين، وخروجه من نطاق الكدية التي أراد إظهار قدرته عليها، فبدأ بها مقاماته، ثم تركها في المقامات التسع التالية.

وتمكن العباسي من الولوج إِلَى مجتمع المقامة التي يتناولها، فاستطاعت المقامة أن تلج بنا مجتمع الناس، وجعلتنا نشاهد حركتهم وتفاعل بعضهم مع بعض في الشارع والمسجد والأسواق والأندية، والشخوص المختلفة من شحاذين وخطباء وتجار وملوك وعمال مقابر وملاحين وطهاة وغيرهم.

وصورت مقاماته كذلك حواراتهم ومجادلاتهم ودواخل ذواتهم وما يعتلج فيها من آمالٍ وأمانٍ وصراعات نفسية، وما يتردد فيها من طموح ووجل وخوف وإقدام، وإحساس بفقر أو بطَر، وحقدٍ أو حسد، وانتقام ومكافأة ووفاء.

وبهذا فمقامات عبد الرحيم العباسي جدير أن يحتفل بها، وأن يلتفت إليها، وأن تنشر عَلَى المتأدبين، وأن تتناولها أيدي الدارسين بالتحليل والنقد، ففيها كثير من مداخل السرد الأدبي، لا سيما الجانب اللغوي، حيث يمكن الوقوف على كثير من الظواهر اللغوية التي قد يتوصل

---

(١) المصدر السابق ق ٥ /أ.

(٢) المصدر السابق: الورقة نفسها.

الباحث من خلالها إلى بعض ملامح البناء اللغوي في القرن العاشر الهجري، ولا سيما إن سلّطت عليها بعض الأدوات النقدية الحديثة التي يمكن أن تضع بين أيدينا معجم تلك الفترة وما وصلت إليه المفردة من تطور دلالي وبناءٍ تداولي. وهو ما لا يمكن الوقوف عليه في هذه الدراسة الموجزة المرافقة للنص المحقق، إنها تحتاج إلى وقفة متأنية أرجو أن تتاح لي قريباً بإذن الله.

* * *

القسم الثاني: التحقيق.

مقدمة التحقيق:

أ- اسم الكتاب:

ورد في آخر المخطوط قول عبد الرحيم العباسي: "وليكن هذا آخر المقامات العشر لا برحتْ بثناء من أُنْشِئَتْ باسْمِهِ الشريفِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ".[1] وقد وردت تسمية أخرى للكتاب في ورقة خارجية كتبت بخط مغاير للمخطوطة جاء فيها: "هذه العشر مقامات تأليف الشيخ عبد الرحيم العباسي غفر الله له..."[2]، وكذلك جاءت صيغة ثالثة مقاربة للصيغة السابقة – العشر مقامات – في مقدمة المقامات، إذ قال العباسي: " وبعدُ، فهذه عشرُ مقاماتٍ أنشأها الفقير عبدالرحيم العباسي، برسم سيدنا ومولانا شيخ الإسلام..."[3].

وقد مِلت إِلَى الأخذ بتسمية الكتاب "المقامات العشر" دون أن أنظر إِلَى الصيغة الأخرى "العشر مقامات"، لأن هذه الأخيرة كتبت في الورقة الأولى بخطٍّ غير خط المؤلف، وأما صيغة المقدمة "فهذه عشرُ مقاماتٍ" فقد أراد العباسي بها – في نظري – أن ينصّ عَلَى العدد فقدّمه.

وقد وافقت فيما ارتضيته من هذه التسمية فهرسَ مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس، حيث رُقمت فيه المخطوطة بهذه التسمية: "المقامات العشر"، وكذلك صنع الدكتور خالد الجديع – وهو الوحيد الذي درس هذه المقامات ضمن ما درس من مقامات مشرقية – إذ ارتضى التسمية نفسها "المقامات العشر"، وأخذ بما ذهب إليه العباسي ونص عليه في خاتمة مقاماته، حيث قال عند أول ورود لاسم الكتاب في دراسته: "أما الشيخ عبدالرحيم العباسي فلا يفرد لموضوع الكدية من مقاماته العشر سوى مقامة واحدة..."[4].

وعند أول إحالة في دراسته أشار بقوله في الهامش: "المقامات العشر – مخطوطة – الورقة ٤"[5]، ولما أراد توثيق الكتاب في ثبت المصادر والمراجع أثبته بقوله: "١٥- المقامات

---

(١) المقامات العشر ق ٢٣/أ.

(٢) المصدر السابق ق ١/أ.

(٣) المصدر السابق ق ٣/ب.

(٤) المقامات المشرقية، د. خالد الجديع: ١٠٠.

(٥) المصدر السابق: ١٠١.

العشر، عبد الرحيم العباسي، المكتبة الوطنية بباريس"[1].

ب- نسبته إلى مؤلفه:

لم يشر أحد ممن ترجم لعبد الرحيم العباسي إِلَى أن له كتاباً مؤلفاً باسم "المقامات العشر"، عَلَى حين أن بعض من ترجموا له أشاروا إِلَى أن له شرحاً عَلَى مقامات الحريري[2]، ولكن بالتمعن في المخطوط الموجود بين أيدينا، الموسوم بـ "المقامات العشر"، نجد بوناً شاسعاً بينه وبين مقامات الحريري سواء من حيث العدد أو المضمون، فمقامات الحريري خمسون وهذه عشر، ومضمون مقامات الحريري يختلف اختلافاً بيّناً عن هذه المقامات العشر، ولم يأت في أثناء مقامات العباسي أي إشارة إِلَى الحريري ومقاماته من قريب أو من بعيد.

وبتأمل المخطوط الموجود بين أيدينا نجد أن هناك عدداً من الأدلة تثبت صحة نسبة هذه المقامات إلى عبد الرحيم العباسي، أبرزها إشارته في مقدمة المخطوط – الذي كتبه بخط يده – إِلَى أن هذا الكتاب من تأليفه، حيث قال: "فهذه عشرُ مقاماتٍ أنشأها الفقير عبدالرحيم العباسي، برسم سيدنا ومولانا شيخ الإسلام، مفتي الأنام، نخبة الدهر، مجتهد العصر، سعدي جلبي، أمتع الله الوجود بوجوده"[3].

وهناك أدلة عَلَى أن هذا المخطوط قد كتبه عبد الرحيم العباسي بخطه، أهمها أنه كتب بخطه عدداً من مؤلفاته، وأشار إِلَى ذلك في خواتيمها، ومنها كتابه "أنفع الوسائل إِلَى أبدع الرسائل"، الذي حققه الدكتور عبد الرازق حويزي.

وتوجد منه نسخ كثيرة مخطوطة، إحداها نسخة محفوظة في دار الكتب المصرية برقم (٣٩١٢ أدب)[4]، كتبت بخط العباسي كما ورد في آخرها، وهو الخط نفسه الذي كتبت به مخطوطة "المقامات العشر" الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس. وفي كتاب "الأعلام" للزركلي أنموذج من خط عبد الرحيم العباسي الذي كتبت به مخطوطة "أنفع الوسائل"

---

(١) المصدر السابق: ٦٩٦.

(٢) انظر: هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل البغدادي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، مصورة من طبعة وكالة المعارف الحلبية، باسطنبول، تركيا، ١٩٥١م، ١/٥٦٣، ومعجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ببيروت، د.ت، ٥/٥٠٢.

(٣) المقامات العشر، لعبد الرحيم العباسي ق ٣/ب.

(٤) وانظر: فهرس دار الكتب ٣/٢٨ "أنفع الوسائل".

المحفوظة بدار الكتب المصرية[1]. لمن أراد الاطلاع والمقارنة.

وإذا كان دارسو العربية، ومؤلفو كتب التراجم قد اتفقوا عَلَى صحة نسبة كتاب "معاهد التنصيص عَلَى شواهد التلخيص" إلى عبد الرحيم العباسي، فإن هذا الكتاب يحمل من الدلائل ما يؤكد صحة نسبة "المقامات العشر" إليه، ولعل أبرزها تلك المقدمة التي قدم بها كتاب "معاهد التنصيص" فهي تسير عَلَى الأسلوب نفسه الذي قدم به "المقامات العشر"، ولم يكن إهداء الكتاب بعيداً عن ذلك التوافق، حيث أهدى الكتابين لشخص واحد – كان له فضل كبير عليه – هو سعدي جلبي.

ففي مقدمة كتاب معاهد التنصيص يقول متحدثاً عن أثر سعدي جلبي عَلَى الحياة الثقافية في القسطنطينية: "وكان من أعظم خبايا السعد، وعطايا الجد، أن شملته العناية، وحفته الرعاية،بنظر فرد الدهر، وواحد العصر،وبكر عطارد... العالم العلامة، والحبر الفهامة، سيدنا ومولانا سعدي قاضي القضاة بتخت الملك قسطنطينية العظمى، فهو مولى تنخفض همم الأقوال عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه، ويقصر جهد الوصف عن أيسر فواضله ومساعيه... مجمع الأدباء وحلبة الشعراء، ذو همة مقصورة عَلَى مجدٍ يشيّده، وإنعامٍ يجدده..."[2].

وفي مقدمة كتاب "المقامات العشر" يقول: "وبعد، فهذه عشر مقامات أنشأها الفقير عبد الرحيم العباسي، برسم سيدنا ومولانا شيخ الإسلام، مفتي الأنام، نخبة الدهر، مجتهد العصر، سعدي جلبي، أمتع الله الوجود بوجوده، وأفاض عَلَى العالمين بركة فضله وجوده"[3].

وقال في مقدمة كتاب "معاهد التنصيص" موضحاً احتفاء سعدي جلبي بالكتاب: "وكان من جملة دواعي السعد، وبواعث الجد، أن شمل هذا التأليف نظره الشريف، حين وصل إِلَى حضرة مجده المنيف، فأظهر به إعجاباً رفع من مقامه، ونصب فوق متن المجرة خوافق أعلامه، جرياً عَلَى عادته النفيسة في جبر القلوب، وستر العيوب، فحين طرق السمع، خبر استحسانه لذلك الجمع، أحبَّ الفقير أن يخدم حضرته العلية، وسدّته السنية بنسخة منه..."[4].

ولما قدم كتابه "المقامات العشر" أعاد المعاني نفسها التي تشير إِلَى احتفاء سعدي جلبي

---

(1) انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٣٤٥.

(2) معاهد التنصيص عَلَى شواهد التلخيص، لعبد الرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ١/ ٤.

(3) المقامات العشر: ق ٣/ب.

(4) معاهد التنصيص ١/ ٦.

مرة أخرى بكتابٍ آخر من تأليفه، فقال عنه: "... أعملتُ الفكر في عمل مقامة، ولم أشعر بأنها ذاتُ اعوجاجٍ واستقامة، غير أني تجاسرتُ بعرضها، وما في سمائها وأرضها، عَلَى حضرة فرد الوقت، مُقْدماً إمّا عَلَى الرضا أو المقت، أعني حضرة عين الأعيان، مالكِ أزمّة المعاني والبديع والبيان، ذي المفاخر والمناقب والفكر الصائب، والذهن الثاقب... مولانا سعدي، لابرحت آيات فضله بألسن الأكوان متلوّة... فحين وقع نظره الكريم عليها، وصرف وجه تأمله إليها، أظهر بها إعجاباً، وجعلَ نداءها بستر حلمه مجاباً، فكان ذلك إما لإصابة السهم الغرض، أو جبراً لخاطر الفقير ونصراً له عَلَى من في قلبه مرض، وبرز أمر الله تعالى أن ينشأ لها أتراب، فحينئذٍ أمن القلبُ مما به استراب، وعمل عشراً كاملة"[1].

إن علاقة التوافق والمشابهة بين هذه النصوص لا تحتاج إِلَى تحليل، فأدنى نظر سيرى أنها تخرج من مشكاة واحدة، وتحمل طوابع وخصائص أسلوبية وتاريخية مشتركة تدل عَلَى أنّ ثبوتية "معاهد التنصيص" لعبد الرحيم العباسي دليل قاطع – في نظري – عَلَى نسبة "المقامات العشر" إليه.

ج- وصف النسخة المخطوطة:

بعد محاولات مضنية لم أستطع الوصول إلا إِلَى نسخة واحدة من هذا الكتاب، فقد فتشت كثيراً من فهارس المخطوطات المصورة من مكتبات العالم، وسألت عدداً كبيراً من المهتمين بالمخطوطات، وبفن المقامات، وبتراث عبد الرحيم العباسي، ولكن لم أعثر سوى عَلَى نسخة واحدة موجودة في المكتبة الوطنية بباريس برقم (٥٠٤٥). وقد وجدت عدداً لا بأس به من الإشارات إِلَى نسخ من مقامات فتحت لي باب الأمل بوجود الكتاب هنا أو هناك ولكن بعد المراسلة والتدقيق والتأمل والتفحص تبين لي أن الكتاب المشار إليه إما أنه دخل خطأً في تصنيف المقامات، ولكن موضوعه لا يمت لفن المقامة الأدبي بصلة، أو أنه لمؤلف آخر غير عبد الرحيم العباسي، وهناك أكثر من مؤلف باسم "المقامات العشر"، ولا يعرف مؤلفه، وهناك مؤلفات أخرى باسم "المقامات" تبين لي بعد طول ترقب وبعد التدقيق أنها لا علاقة لها بمقامات العباسي[2].

---

(١) المقامات العشر، ق ٤/أ.

(٢) فمن ذلك مثلاً النسخة الموجودة في مكتبة رئيس الكتاب في تركيا تحت رقم ٦٣٤، أو المقامات الموجودة بمكتبة فينا الملكية تحت رقم (N.F.٦٦) باسم مقامات العباس، وغير ذلك مما أطلق عليه المتصوفة اسم "مقامات" وهو يحكي أخبار المتصوفة وأحوالهم.

أما النسخة الفريدة التي بين يدي، فهي محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس – كما أشرت سابقاً – برقم (٥٠٤٥)[1]، ومنها مصور بالميكروفيلم في المكتبة نفسها برقم (R.C.٨٤٦٣). وعدد أوراقها (٢٣) ثلاث وعشرون ورقة، في كل ورقة ثلاثة وثلاثون سطراً، وكتبت بخط النسخ، والغلاف الخارجي كتب بخط آخر يخلط بين النسخ والفارسي، وجاء في طرة الغلاف: "هذه العشر مقامات تأليف الشيخ عبد الرحيم العباسي غفر الله له... آمين". وأول المخطوطة: " بسم الله الرحمن الرحيم مما يعمي ويصم بالله، أما بعد حمد الله تعالى ذي الكبرياء والجلال..."[2].

وآخر المخطوطة: "وليكن هذا آخر المقامات العشر لا برحتْ بثناء من أُنْشِئَتْ باسْمِهِ الشريفِ طيبة النشر...

آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ　　　حتى أُضِيفَ إليها ألفَ آمينا

والحمد لله وحده وصلى الله عَلَى من لا نبي بعده وعَلَى آله وصحبه وسلّم"[3].

وهي نسخة كاملة وواضحة، وسليمة من العيوب، وفي الورقة الأولى والأخيرة من المخطوطة ختم المكتبة الوطنية في باريس باللغة الفرنسية، وفي الورقة الأولى كتب تملك المكتبة للمخطوطة، بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٨٩١م، ونصه: "بمنة من الله دخل بملك أفقر العباد وأضعفهم نقولا يوسف سيوفي[4]، نيسان ٦٨"[5].

د– منهج التحقيق:

أوجز منهجي في تحقيق نص هذا الكتاب في الآتي:

---

(١) ذكرها الدكتور خالد الجديع أكثر من مرة في كتابه "المقامات المشرقية" برقم (٤٠٤٥)، وهو خطأ طباعي فيما أظن. انظر: المقامات المشرقية، للدكتور خالد الجديع: ٣٩، ٦٩٦.

(٢) المقامات العشر: ق ٢ / أ.

(٣) المصدر السابق ق ٢٣/أ.

(٤) آلت هذه المخطوطة إلى المكتبة الوطنية في باريس في ١٨٩١/١٠/١٤م، إهداءً أو شراءً من نقولا يوسف السيوفي، وهو مترجم يجيد الفرنسية، من دمشق، عمل مترجماً في القنصلية الفرنسية في دمشق، وصحب الأمير عبد القادر الجزائري في رحلة له إلى باريس وإستانبول، ثم استوطن بيروت عام ١٨٦٠م، وعين قنصلاً لفرنسا في حلب والموصل وبغداد، ولما تقاعد عاد إلى لبنان وأقام في بعبدا إلى أن توفي عام ١٣١٩هـ الموافق عام ١٩٠١م، وكانت ولادته عام ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م. وله مقالات بالفرنسية نشرت في المجلة الأسيوية في باريس. (الاعلام: ٨ /٤٦). ولمزيد من المعلومات عنه ينظر معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف إليان سركيس: ص ١٠٨٧، ومعجم المؤلفين: ١٣/١١٦.

(٥) المقامات العشر ١/ب.

١- حاولت إخراج نص المقامات العشر كما أراده عبد الرحيم العباسي، وبذلت الوسع في ذلك.

٢- كتبت النص وفاق قواعد الإملاء، ولم أساير المؤلف في طريقته الكتابية التي هي طريقة العصر الذي كان فيه، ومن ذلك مثلاً:

لجوؤه إِلَى حذف الهمزة إذا جاءت في آخر الكلام مثل: الوزرا، والثلاثا، وهو يثبتها إذا جاء بعدها إضافة مثل: أعداء الدين، واعتداء الأمين وأحياناً لا يثبتها.... وقد أصلحت ذلك، أما إذا كان تسهيل الهمزة يهدف إِلَى تحقيق منهجه في التزام السجع، ومراعاة تناسب رؤوس الجمل والعبارات، وإضفاء الجمال عَلَى مقاطع الكلام فقد تركته دون تعديل.

وكذلك قلبه الهمزة ياء إذا جاءت في وسط الكلمة مثل: أعدايهم، طاير، وعايب. ومثله وضع نقطتين تحت الألف المقصورة مثل:

القي بدلاً من ألقى، اعتدي بدلاً من اعتدى. وجري بدلاً من جرى. وكذلك كتابته الهاء بتاء مربوطة، والعكس كتابته لكلمات تنتهي بتاء مربوطة بالهاء، وغير ذلك مما هو شائع في كتابة القرن العاشر الهجري الذي عاش فيه العباسي. ولم أشأ أن أشير إِلَى تلك الكلمات المعدّلة في الهوامش، لكثرتها، وخوفاً من إثقال الهوامش بها.

٣- أدخلت في النص بعض التهميشات التي وردت مرافقة للمقامات الأربع الأخيرة، وتدل عَلَى المكان الذي حدثت فيه.

٤- استعنت ببعض الرموز والإشارات المتعارف عليها بين المحققين، لا سيما القوسين المعكوفين لإضافة كلمة من المحقق داخل النص الأصلي لا يستقيم السياق أو يكتمل المعنى إلا بها.

وكذلك أثبتُّ أرقام أوراق المخطوط في الهامش الأيسر من النص المحقق لأنه يدل عَلَى مواضع بداية الورقات ونهاياتها، وهو ترقيم يصاحب النص المحقق سواء أطبع الكتاب مستقلاً أو ضمن أبحاث أخرى في مجلة علمية محكمة. مما يسهل الإحالة إِلَى الورقة الأصلية في هذه الحالة.

٥- عزوت النصوص الشعرية الواردة في المخطوط إِلَى أصحابها، علماً أنّ أكثر الشعر الوارد في المقامات من نظم المؤلف نفسه، وكتبت أبيات الشعر عَلَى هيئاتها المألوفة في الكتابة من حيث الفصل بين الشطرين، وقد كتب المؤلف كثيراً من الأبيات بطريقة توحي

أنها نثر، إذ كان يورد الشعر ضمن سياق الحديث دون فصله عن النثر. عَلَى أنه كثيراً ما يشير إليه مقدماً بقوله: "شعر"، وما كتبه العباسي من شعر بطريقة كتابة الشعر المعهودة في أول السطر، فإنه لا يشير إليه بقوله: "شعر".

٦- شرحت عدداً من الكلمات الغامضة، محاولاً تقريب النص إِلَى القارئ، عَلَى أنّ هناك عدداً من الكلمات كانت غامضة في ذاتها، ولكن السياق يشرحها ويقربها -فيما أظن- فتركتها دون شرح.

٧- قمت بتخريج الأمثال الواردة، وعرفت بالأعلام غير المشهورين وهم قلة.

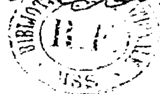
* * *

صورة صفحة غلاف المخطوط

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

٦/ ٤٤

لطفه اذ ذهب عنه بلاؤه واعتقاله وغدا في اليوم الموعود لانجاز تلك الوعود واذا بصناديق
عديدة عتيقة وجديدة قد وضعت في سوق المدينة وهي مملوة بالبضائع الثمينة فاجتمع الناس
عليها وازدلفوا من كل فج اليها ففتحت تلك الاغلاق عن نفايس الاعلاق وترامى التجار في اثمانها
الى انتهاء الغاية وانقضاء الطلبات فاشتراها هو بازيد من زياداتهم وابطل جميع مراداتهم فانفضوا مستحيين
وبما صدر منه متعجبين وعين له حواصل فنقلت تلك الاموال اليها ثم وضعوا ثبوت الانتقال عليها وكان
نتايج تلك الانتقال فكانت له كالغنايم والانفال وعاد في ذلك المال وحسبه بالتفصيل والاجمال
فاذا هو يزيد على ما ذهب له من اموال المنهوبة فرأى ذلك نعما من الله موهوبة ودخل الديوان فرحا
مسرورا [illegible] فرغ من العشاء وصلى فرض العشاء دق الباب صغير فتح من
جانب الدار ودخل منه رجل جليل المقدار فقام اليه حرمه مستعجلين وهرولوا نحوه معظمين
ومبجلين فخرج الظريف واذا به ضيفه الذي ظهر له تجاهه فقام اليه مقبلا وعانقه مقبلا ثم قال
له يا اخي اني لم اعرض عنك حين رايتك لجفوة فلا تعدها علي هفوة ولكني ما احببت ان اراك
الا على حالك المعهودة وهيئتك الحسنة المشهودة فارسلت وراءك من عرفني مثواك والمكان الذي اواك
ووجهت اليك الوالي فنفعلت ما فعلت وقد التهبت نار اشواقي اليك واشتغلت وصرت مستعجلا
عن لقائك الى ان عدت الى سموك وارتقائك وهذه الدار بما فيها من قواد نهبا للاخوان وتلك الامتعة
والاعلاق التي وضعت عليها الاغلاق ملك لك دون مشارك ولا منازع ولا معارك ولا
اقول اني وفيت بعض حقوقك ولا خرجت بهذا البر عن عقوقك لانك ابتدأت بالجميل وكشف الكمد
لدى فتح صدري وللجميل فاني لعاملك بما لا يجازى واوجه الى اله مجازي ولكني اكل جزائك الى من يعلم
السر والنجوى يكشف الهم والبلوى ثم سأله عن الحال وكيف تغير واستحال فاخبره بانبائه
وما حل به من حوبائه فتوجع وتألم والى الله سلم فاقاما يرتعان في تلك النعم الجسيمة والخيرات
الوسيمة الى ان اتاهما هادم اللذات ومفرق بين الروح والذات فلم يسمع عجيب خبرها ولا غريب
من سيرهما لعمرا انما لاحق بقول من انشد وهدى الى فعل الخير وارشد قل للبني الدنيا الا هكذا
فليفعل الناس مع الناس ولكن هذا اخر المقامات العشر لا برحت تنسا من انتسبت باسمه الشريف طيبة
النشر وصبح سعدها بسعده دايم الحشر وقد قدمتها الى الحضرة الكريمة راجيا لها حسن القبول
تحليتي سدة العظيمة من جنس الكلام المقبول اذ هو جهد الاقوال ونقادها [illegible] ابيهاب اولى
و[illegible] سيدنا وسيد ولد عدنان رسوله عليه افضل الصلوة والسلام ونصبه لتبليغ
[illegible] كالعلم الشاهق بين الاعلام وارغم [illegible] صار [illegible] الحسد عند وملاه
من عمهم باعالية قلوبا كانت رؤسها من اللاهي مفرغة وفوقوا اليه سهام [illegible] الله سعاة
[illegible] وسوف يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره
لا برحت سعادته [illegible] وسيادته ابدية [illegible] و له لطف الله سبحانه وعنا الاعوان
والانصار ما تعاقبت الدهور والاعصار بكرمه ومنه ولطفه وعنه امين
امين لا ارضى بواحدة حتى اضيف اليها الف امينا
والحمد لله وحده وصلى الله على [illegible] وعلى اله وصحبه وسلم



صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

النَّصُّ المُحَقَّقُ:

[١/ب]

هَذِهِ العَشْرُ مَقَامَاتٍ

تَأْلِيفُ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحِيمِ العَبَّاسِيِّ غَفَرَ اللهُ لَهُ... آمين.

[٢/أ]

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ مِمَّا يُعْمِي ويُصِمُّ باللهِ

أمَّا بَعْدُ حَمْدِ اللهِ تَعالَى ذِي الكِبْرِيَاءِ والجَلالِ، والصَّلاةِ والسَّلامِ عَلَى النَّبِيِّ والصَّحْبِ والآلِ، فَإِنَّ شُؤونَ الاغْتِرَابِ[١] لمَّا حَالَتْ بيني وبينَ الأتْرَابِ، ولِقاءِ الأحبابِ والمبارِّ والمحابِّ، وطَّنْتُ نفْسِي عَلَى مَكارِهِهَا، ورُضْتُها بالقَضاءِ والقَدَرِ، واعتضْتُ عَمَّن نَأى بمُشْبِهِهِ ولم أدعْ مُمكِناً ولم أذرْ، غيرَ أنَّ الطَّبْعَ البَشَرِيَّ مَجْبُولٌ عَلَى مَحَبَّةِ الوَطَنِ، مَطْبُوعٌ عَلَى أُلْفَةِ العَطَنِ[٢]، فَلا يَزَالُ القَلْبُ بِهِ مَشْغُوفاً، والفِكْرُ إِلَى تَصَوُّرِهِ مَصْرُوفاً، وَعِندَمَا تَعْتَلِجُ وَسَاوِسُ الصُّدُورِ، وَلا يَنْبَلِجُ لكَرْبِ ذلكَ دَيْجُورٌ، أَفْزَعُ إِلَى القَوْدِ[٣] المَهَارِي[٤]، وَأَجُوبُ بِها الصَّحَارِي، لَعلّي أَرَى عَجِيبَةً، أَوْ أَسْمَعُ غَرِيبَةً، تَجْلُو صَدَى هَمِّي وَتُزَحْزِحُ غَيْمَ غَمِّي، فَبَيْنَما أنا أَسِيرُ في لَفْحِ هَجِيرٍ إِذْ وَقَعَ بَصَرِي عَلَى خِيامٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَعلامٍ مَنْصُوبَةٍ، وإِشارَةٍ رائِقَةٍ، وَحِشْمَةٍ فَائِقَةٍ، وَخَدَمٍ وغِلْمَانٍ، وَأَتْباعٍ وَأَعْوَانٍ، فَتَشَوَّقْتُ لِمَعْرِفَةِ رَئِيسِ تِلْكَ الزُّمْرَةِ، وأَنْ أَعلَمَ خَبَرَهُ وَخُبرَهُ، فَقَصَدتُ أَعْظَمَ تِلكَ الأَخْبِيَةِ، وَأَرْفَعَ تلكَ الأَبْنِيَةِ، فإذا بِهِ مُتَرَبِّعٌ في دَسْتِهِ[٥]، مُرَوَّعٌ بِسَمْتِهِ، فَأَوْمَأْتُ إليهِ بالسَّلامِ، وحَيَّيْتُهُ بتحيَّةِ الإِسْلامِ، قُلْتُ لهُ نَعِمَ صَبَاحُكَ، وَدَرَّتْ لَقَاحُكَ، وَطابَ غَبُوقُكَ واصْطِبَاحُكَ، ولا عَرَاكَ ذَمٌّ، وَلا اعْتَرَاكَ هَمٌّ، وَنَجَوتَ من الغَمِّ كَما نَجَا مُوسَى وَقَوْمُهُ من اليمِّ، فهزَّتْهُ أَرْيَحِيَّةٌ لِمَا أَبْدَيْتُهُ مِن التَّحِيَّةِ، وَبَشَّ بَشَاشَةَ الصَّدِيقِ، وهَشَّ هَشَاشَةَ الرَّفِيْقِ الرَّقِيقِ، وقالَ: مَرْحَباً مَرْحَباً، وَأَذِنَ لِي في وُلُوجِ الخِبَاْ، فَحِينَ آنَسْتُ نَارَ أُنْسِهِ، وَذَكَيْتُ شَرَفَ نَفْسِهِ، وَانْتَشَقْتُ طِيبَ قَنْسِهِ[٦]، أَمَطْتُ عنِّي لِثَامَ الاحْتِشَامِ، وَأَخَذْتُ في أَفَانِينِ الكَلامِ، وَهُوَ مَطْرِقٌ إِطْرَاقَ مَنْ غَشِيَهُ كَرْبٌ أَوْ فَجَأَهُ خَطْبٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ بَوَاعِثِ إِطْرَاقِهِ، وحَوادِثِ تَلَهُّبِهِ وَاحْتِراقِه، فَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاْ، وَأَبْدَى تَحَسُّراً وَكَمَدَا، وَقَالَ: الْعَقِ العَسَلَ وَلا تَسَلْ، فرُبَّ أمرٍ لازَمَ الرَّمْسَ[٧]، وَأَوْجَبَ

---

(١) في الأصل: الاغتراب الأغتر، وهو سهو.

(٢) العطن: مَبرَك الإبل حول الحوض. لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف، مصر، د.ت: (عطن).

(٣) القود: الإبل، وكذلك يطلق عَلَى الخيل التي تقاد. اللسان (قود).

(٤) المهاريّ: الإبل، نسبة إِلَى مَهْرة بن حيدان، قبيلة كبيرة اشتهرت بالعناية بالإبل. لسان العرب (مهر).

(٥) الدست: المجلس. اللسان (دَسْت).

(٦) قنسه: القَنْس والقِنس: الأصل. اللسان (قنس).

(٧) الرَّمس: الطمس، ويطلق أيضاً على القبر. اللسان (رَمَس).

المَحْوَ والطَّمْسَ، لا يَجُوزُ في مُضْمَرِهِ الإظْهَارُ، وَلا أنْ يَبْرُزَ هِلالُهُ في السِّرَارُ[1]، فَكَمْ مِن سِرٍّ عابَ ظُهُوْرُهُ، وَغَابَ سُرُوْرُهُ، وكانَ يَتَمنّى أنْ لَوْ وَسِعَتْهُ صُدُوْرُهُ، وَلَزِمَ الطَّيَّ مَنْشُوْرُهُ، فَزَادَنِي تَكْثِيْفُ حِجَابِهِ، وَتَثْقِيفُ بابِهِ حِرْصاً عَلَى اسْتِطْلاعِ مُصَابِهِ، واسْتِكْشَافِ أصْلِ أوْصَابِهِ، فَقُلْتُ لهُ: لِيَقِلَّ هَمُّكَ، فَرُبَّ أخٍ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ[2]، وَلَعَلَّ نَبَهَ يُذْهِبُ عنكَ نَبَه[3]، فَلِلأْوَاءِ مَظَاهِرُ وَمَجَالي، فِيْمَا تُحْدِثُهُ الأيَّامُ واللَّيالي، وَلَنْ تُعْدَمَ مِنِّي رَأْيَ مُجَرِّبٍ مُرْتاضٍ، وَرامِياً يُقَرْطِسُ سَهْمَهُ الأغْرَاضِ[4]، فَارْتَاحَ للأنْباءِ، وانْزَاحَ عنْ رُتْبَةِ التَّمنُّعِ والإباءِ، وقَالَ: أعِرْنِيْ سَمْعَكَ، واجْمَعْ لي جَمْعَكَ لِتَفْهَمَ عنِّي حَدِيْثَ الغَاشِيَةِ، وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَاعِيَة. فقُلْتُ لهُ: أسْمِعْ فَإنَّكَ بِمَرْأىً وَمَسْمَعٍ، فَقَالَ: إنِّي لمْ أزَلْ مُنْذُ أُمِيطَتْ عَنِّيْ التَّمائِمِ، وَأُنِيْطَتْ بِي الكَمَائِمِ[5]، مُوْلَعاً بِمُعَاشَرَةِ الأصْحَابِ، ومُحَاضَرَةِ الأتْرَابِ، لا يُقْفِرُ لي مِن ذلكَ نَادٍ، وَلا يَصْفَرُ[6] مِنهُ وَادٍ، وَلا يَمَلُّنِي الطَّلَبُ لذلكَ وَالارْتِيَاد، لَعَلِّي أنْ أظْفَرَ بِصَدِيقٍ صَادِقٍ، أوْ أحْصُلَ عَلَى رَفِيقٍ مُوَافِقٍ، إنْ عَثَرْتُ أقَالَ، وَإنْ قُلْتُ صَدَّقَ المَقَالَ، يَحْفَظُنِي في الغَيْبَةِ، وَيُؤَمِّنُنِي بَوَائِقَ العَيْبَةِ[7]، ويُرْضِعُنِي أفَاوِيْقَ[8] الوِفَاقِ، وَلا يُكَلِّفُنِيْ شُقَّةَ شِقَاقٍ أوْ نِفَاقٍ، وَيَكُوْنُ لِيْ أسْبَغَ مِنَ الظِّلِّ، وَيَحْتَرِمُنِي في الحَرَمِ والحِلِّ، وَيَسُدُّ بُثُوقَ الخَلَّةِ[9]، وَيَشُدُّ وَثْقَ الخُلَّةِ[10]، وَمَتَى خَشُنْتُ لانَ، وَإذا صَعُبْتُ اسْتَكَانَ، يَتَصَدَّى لِمُوَاسَاتِي، وَلاَ يَتَعَدّى لِمَسَاتي، وَيَتَحَمَّلُ أثْقَالي،

وَلا يُرِيْنِي صُوْرَةَ القَالِيْ، وَيُجَامِلُ وَيُصَافِي، وَلا يَدَعُ إنْصَافِي، وَيُرَاعِيْ وَيُمَالِيْ، وَلا / يُخَيِّبُ آمَالِي. [٢/ب]

شعر:

---

(١) السرار: سرار الشهر: آخر ليلة منه، واستسرّ القمر إذا خفي. اللسان (سرر).

(٢) هذا مثلٌ يُعنى بالصديق. انظر: مجمع الأمثال، للميداني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م: ٣١/٢ و٥٠/٢.

(٣) نبه: النَّبه الضالة لا يدرى متى ضلت، ونبه الثانية: من النباهة ضد الخمول. وقد جاء في اللسان: "نبه ينبه إذ صار نبيهاً، والنباهة ضد الخمول، وهو نَبَهٌ". اللسان (نبه).

(٤) الأغراض: جمع غرض، وهو الهدف الَّذِيْ ينصب فيرمى فيه. اللسان (غرض).

(٥) الكمائم: القلانس التي تغطي الرأس، والمفرد كُمّة، وكُمّا اليدين: ما يغطيانهما. اللسان (كمم).

(٦) يَصفَرُ: يَخلُوْ. اللسان (صفر).

(٧) العَيْبَة: العَيبُ. اللسان (عيب).

(٨) أفاويق: الأفاويق هو ما اجتمع من الماء في السحاب، فهو يمطر ساعة بعد ساعة. اللسان (فَوَقَ).

(٩) البثوق: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه. اللسان (بثق).

(١٠) الخَلّة: الفرجة بين الشيئين، والثقبة الصغيرة، وكل ثلمة فيه خَلّة. الخُلّة: الصداقة. اللسان (خلل).

وَإِذَا نَادَيْتُ لَبَّى مُسْرِعاً   وَإِذا قُلْتُ: اسْتَوى، قالَ: اسْتَوَى[١]

فَلَمْ أَزَلْ أَبْذُلُ في الارْتِيَادِ جُهْدِي، وَأَسْتَنْفِدُ فِيهِ سَعْيِي وَكَدِّي، وَأَتَعَلَّلُ بِعَسَى وَلَعَلْ، وَأَمْتَطِي مِنْهُمَا مَطَايَا الأَمَلْ، وَبُرْدُ الشَّبَابِ بُرْدٌ[٢] قَشِيبٌ، وَرَبْعُ الصِّبَا خَصِيبٌ، أَجُوبُ بِهِ المَغَارِبَ وَالمَشَارِق، وَأَرْقُبُ بِهِ كُلَّ غارِبٍ وَشَارِق، إِلَى أَنْ ابْيَضَّتِ المَفَارِق، وَلَمْ أَظْفَرْ مِنْهُ بِنَسْمَةٍ، وَلَم أَعثُرْ مِنْهُ عَلَى سَمَّةٍ[٣]، وَكُلَّمَا اشْتَدَّ مِنِّي الطَّلَب، جَدَّ في الهَرَب، فَهَا أَنَا مُزَلْزَلُ الأَرْجَاءِ، مُذَبْذَبٌ بَيْنَ اليأسِ وَالرَّجَاءِ.

شِعْرٌ:

كَأَنَّمَا أَنَا مِنْ حِلٍّ وَمُرْتَحَلٍ   مُوَكَّلٌ بِفَضَاءِ الأَرْضِ أَذْرَعُهُ[٤]

فَقُلْتُ: لَعَمْرِي لَقَدْ تَطَلَّبْتُ الأَبْلَقَ العَقُوق، وَمَا هُوَ أَعَزُّ مِن بَيْضِ الأَنُوق[٥]، وَلَقَدْ فَنِيَ العُمُرُ مِنِّي فِي التَّجَارِبِ، وَالابْتِلاءِ بِالمُسَالِمِ وَالمُحَارِبِ، وَلَمْ أَظْفَرْ بِمُرَادٍ، وَلا أَخْصَبَ لِي مِن ذلِكَ وَادٍ[٦]، فكم من صاحب ظننتُ أنه خِلٌّ وَدُودٌ[٧]، فإذا هو خَلٌّ وَدُود، واعتقدتُ أنَّهُ صَدِيقٌ حَمِيمٌ، فَإِذَا هُوَ صَدِيدٌ حَمِيمٌ، وَخِلْتُ أَنَّهُ مُعِينٌ رَحِيمٌ، فَإِذا هُوَلَعِينٌ رَجِيمٌ، وَحَسِبْتُ أَنَّ لَفْظَهُ شَهْدٌ يَنْفَع، فَإِذا هُوَ سُمٌّ مُنْقَع[٨]، وَأَنَّ خُلُقَهُ عَذْبٌ مُجَاجٌ، فَإِذا هُوَ مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَكَمْ مِن جارٍ مُكاشِرٍ يَثِبُ

---

(١) من البحر الرمَل.

(٢) في الأصل: وبرد.

(٣) سَمّة: مطلب، ومنه قيل: أصابَ سَمّ حاجته أي مطلبه، وقد يراد به: السُّمة: واحدة الودع الَّذِي يخرج من البحر. اللسان (سمم).

(٤) البيت من البحر البسيط:

أخذه الشاعر من قول ابن زريق البغدادي:

كأنَّما هوَفي حِلٍّ ومُرتحلٍ   مُوَكَّل بِفَضاءِ اللهِ يَذرَعُهُ

انظر: مصارع العشاق، لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي، عناية كرم البستاني، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ٨٤/٢، و الوافي بالوفيات، لصلاح الدين لصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠م، ١١١/٢١ – ١١٧، والأنساب، للسمعاني، تحقيق عبد الله البارودي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ١٥٠/٣.

(٥) إشارة إِلَى مثل مشهور، إذ يقال: طلب الأبلق العقوق، وقد تمثل معاوية بيتاً غدا مثلاً حيث قال:

طلبَ الأبلقَ العقوق فلمّا   لم يجدْهُ أرادَ بيضَ الأنوقِ

انظر مجمع الأمثال ٢٨٤/٢، وانظر المثل: أعزّ من بيض الأنوق، في المصدر السابق ٣٩٠/٢.

(٦) في الأصل: مراد، والصواب ما أثبتُّه.

(٧) في الجملة الأولى: خِلّ: صاحب، وفي الثانية: خَلّ، وفي الأولى: وَدود، من المودّة، وفي الثانية: وُدود" وهو الحشرة المعروفة.

(٨) منقع: أي قاتل. اللسان (نقع).

كَعُقَابٍ مُكَابِرٍ، وَكَمْ مِن حَبِيْبٍ مُؤَانِسٍ يُرَى كَحُبَابٍ[1] مُوالِسٍ[2]، وَلَعَمْرِي لَقَدْ قَلَّ الإِنْصَافُ، وَكَثُرَ بِفَقْدِهِ الإِرْجَافُ، وَكَمْ مِمَّنْ اغْتَرَّ فِي المُعَاشَرَةِ بِالمُكَاشَرَةِ، وَضَلَّ فِي التَّوَسُّمِ بِكَثْرَةِ التَّبَسُّمِ، وإذا حَقَّقَ المَنَاطَ بِكَثْرَةِ الاخْتِلاطِ، فَمَا ثمَّ إلاَّ كَنِيفٌ مُبَيَّضٌ، أَوْ رَوْثٌ مُفَضَّضٌ[3]، أَوْ دِفْلَى[4] يَرُوْقُ مَنْظَرُ وَرْدِها، وَيَسُوْءُ مَخْبَرُ وِرْدِها، وَأَنَّى لِجُهَيْنَةَ هذِهِ الأَخبَارُ[5] وَقَرِيْبُ العَهْدِ بِهذا الاخْتِبَارِ، فَخُذْ مِنِّي، وَارْوِ عَنِّي، مَا يُسَرِّي عَنْكَ بَعْضَ هذَا الضَّنْكِ، وَتَرَى أَنَّكَ مُشَارِكٌ فِي هذَا الابْتِلا، وَأَنَّ ذلِكَ شَائِعٌ بَيْنَ المَلا، فَإِنِّي صَاحَبْتُ مَنْ لَمْ أَخْتَبِرْ أَخْلاقَهُ، وَمَحَضْتُ لَهُ صِدْقَ الصَّدَاقَةِ، وَكُنْتُ لَهُ رِدْءاً فِي المُهِمَّاتِ، وَوِزْراً في المُلِمَّاتِ، لا أَغِبُّ[6] لَهُ زِيارَةً، وَلا أُوْجِبُ ازْوِرَارَه، وَلا أُظْهِرُ عَارَه، ولا أَشِنُّ عَلَى سَرْحِهِ[7] غَارَةً، وَأُقِيلُ عِثَارَه، وأُقِيمُ بالظَّنِّ الجَمِيْلِ أَعْذَارَه، وَهُوَ يُظْهِرُ رَغْبَةً فِي المَوَدَّةِ وَابْتِغَاءَ، وَيُسِرُّ حَسْواً فِي ارْتِغَاءٍ[8]، وَيَتَلَوَّنُ تَلَوُّنَ الغُوْلِ[9]، وَيَكْفُرُ النِّعْمَةَ وَلا كُفْرَ المَغُوْلِ، لا يَسْتَمِرُّ عَلَى حَالَةٍ، ولا يَخْلُوْ عَن تَغَيُّرٍ واسْتِحالَةٍ، إنْ حَمَدْتُ صَبَاحَهُ، ذَمَمْتُ مَسَاءَهُ، أَوْ أَبْدَى لِي حُسْنَى أَعْقَبَهَا بِمَسَاءَةٍ.

وأَقَمْتُ عَلَى ذلِكَ مُدَّةً، وَسِنِيْنَ عِدَّةً، لا أُطِيْعُ فِيهِ النَّصِيْحَ، وَلا أُصْغِي إِلَى مُلِحٍّ وَلا مَلِيْحٍ، وَأُحِيْلُ مَا عَنْهُ يُشَاعُ مِن مَشْنُوِّ الطِّبَاعِ، عَلَى نَوْعِ الحَسَدِ والبَغْضَاءِ، وَعَدَمِ المُسَامَحَةِ والإِغْضَاءِ، وَكَانَ يُظْهِرُ خَلافَ مَا يُبْطِنُ، وَيُسِرُّ غَيْرَ ما يُعْلِنُ، وَيَتَبَيَّنُ ذلِكَ عِنْدَ غَفْلَتِهِ عَنِ التَّحَفُّظِ وَنِسْيانِهِ، وَيَظْهَرُ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَكَانَ يَتَسَتَّرُ بِمَفْخَرِ العِظَامِيِّ[10]، وَلا

---

(١) حُبَاب: حباب الماء ما فوقه من فقاقيع، ويطلق أيضاً عَلَى الطلِّ الَّذِيْ يصبح عَلَى أوراق الشجر. اللسان (حبب).

(٢) مُوالس: متفلت، والرجل الموالس: الَّذِيْ لا يوثق به. اللسان (ملس).

(٣) مفضض: المفضض، ومنه الفضيض وهو ماء الكرش بعد عصره. اللسان (فضض).

(٤) دفلى: الدفلى شجر مُر أخضر حسَن المنظر يكون في الأودية. اللسان (دفل).

(٥) هنا استدعاء للمثل المشهور "عند جهينة الخبر اليقين" مع تعديل له وخروج به عن مقصوده، انظر المثل وقصته في مجمع الأمثال للميداني ٢/٣١٩ – ٣٢٠.

(٦) غَبَّ الرجُل في الزيارة: زار في الحين بعد الحين، ومنه قولهم: (زُر غباً تزدد حباً). اللسان (غبب).

(٧) سَرْحِه: السرح الماشية (تسمية بالمصدر) ولا يسمى سرحاً إلا ما يغدى به ويراح. اللسان (سرح).

(٨) الارتغاء: شرب الرغوة من اللبن، وهنا إشارة إِلَى المثل المشهور: "يُسرّ حسواً في ارتغاء". وهو يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره. انظر مجمع الأمثال للميداني ٣/٥٢٥.

(٩) الغول: بالضم هي السعلاة، والعرب تقول: تغوّلت الغول: تخيلت وتلونت، وللعرب فيها مزاعم. اللسان (غَوَل).

(١٠) العظامي: الذي يعتمد عَلَى الآخرين. اللسان (عَظَمَ).

يَسْتَطِيْعُ ادِّعَاءَ العِصَامِيِّ[1]، لأنَّ الحِسَّ يَأْبَاهُ، وَقَلِيلٌ مَن يُشابِهُ أَبَاهُ[2]، وَلَئِنْ كانَ الفَرْعُ يَنْزِعُ إِلَى الأَصْلِ، فَكَثِيْراً مَا يَقَعُ بَيْنَهُمَا الفَرْقُ والفَصْلُ، فالنَّارُ مَعَ اضْطِرامِهَا تُخَلِّفُ الرَّمَاد، وَصَافِي الشَّرابِ يُنْبِئُ عَنْ عَكَرٍ بَاد، والظَّوَاهِرُ لَهَا أَحْكام، تَفْعَلُ فِي العُقُوْلِ مَا تَشَاءُ مِنْ نَقْضٍ وَإِبْرامٍ، فإذَا انْكَشَفَتِ السَّرَائِرُ، وَظَهَرَتِ الضَّمَائِرُ، تَبَيَّنَ خَطَأُ ذَلِكَ الفَهْم، وَوَهَنَ ذَلِكَ الوَهْمُ، وَيَرْجِعُ العَقْلُ إِلَى مُقْتَضَاهُ، وَيَرَى الحَقَائِقَ بِنُورِ اللهِ، وَسَلامَةُ الباطِنِ تَسْتُرُ خَلَلَ المَبَاطِنِ، وَلَمْ أَكُنْ أَخَلْ أَنَّ صُحْبَتَهُ عَلَى دَخَلٍ، وأَنَّهُ مِمَّنْ يَجِبُ هَجْرُهُ، وَلا يُسْمَعُ هُجْرُهُ[3]، وأَنَّ الفِرَارَ مِنْهُ إِلَى نَائِي البِلادِ مِمَّا يُسْتَصْوَبُ وَيُسْتَجَاد، وَلَقَدْ كُنْتُ أُعَرِّضُ لَهُ بِتَرْكِ هذهِ الأَخْلاقِ، وَأَنَّها مِن أَوْصافِ مَن لا لَهُ خَلاقٌ، فَيَنْبُو سَمْعُهُ عَنِ النَّصِيْحَةِ، وَلا يَخْشَى عاراً وَلا فَضِيْحَة، وَيَصِيْرُ كَالمُتَشَاغِلِ عَنْهُ وَاللاَّهِ، وَيَقُوْلُ: لا تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ الله، فَيَنْقَطِعُ عَنْهُ الجَدَلُ، وَيُؤْيِسُ مِن العَطْفِ والبَدَلِ، / [1/3] وَتَمَادَتْ[4] بِي فِي صُحْبَتِهِ الأَيَّامُ، وأَنا أَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاءَ في ذَلِكَ الظَّلامِ، إِلَى أَنْ عَثَرَ بي الدَّهْرُ العَثُورُ، وَكِدتُ أَنْ لا أَنْهَضَ وَلا أَثُوْرَ، مِن دُيُونٍ تَرَاكَمَ سَحَابُهَا، وَتَوَاتَرَ سَحُّها وَرَبَابُها[5]، وَتَزايَدَ اضْطِرَامُ شُجُونِها والتِهابُهَا، وَكَفَالاتٌ تَكَفَّلَتْ بانْتِقاصِ الأَحْوَالِ، وَضِيقِ المَجَالِ، واتِّسَاعِ دَائِرَةِ الأَهْوَالِ، وَغَالِبُهَا هُوَ مُوَطَّدٌ أَوَاخِيهِ[6]، وَمُشَيَّدٌ مَبَانِيهِ، والسَّاهِي بِرأْيِهِ القائِلِ فِيهِ، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلاَّ صَدُّهُ وإِعْراضُهُ، وانْحِلالُ مُبْرَمِ ما كانَ يُبْدِيهِ وانْتِقاضُهُ، وعَقَارِبُ إِيذائهِ تَدِبُّ إِليَّ دَبِيبَ النَّمْلِ، وَمُتَفَرِّقُ مُوبِقاتِهِ عِنْدِي يَجْتَمِعُ مِنها الشَّمْلُ، يُشَمِّرُ في مَسَاءَتي الذَّيْلَ، وَيَقُولُ لِجَوَادِ

---

(1) العصامي: الذي يعتمد عَلَى نفسه، وهو إشارة إِلَى المثل: كن عصامياً ولا تكن عظامياً، وعصام المنسوب إليه هنا هو عصام بن شهير الجرمي، حاجب النعمان بن المنذر، وفيه قيل:

نفسُ عصامٍ سوّدتْ عصامًا ....

انظر: اللسان (عصم).

(2) إشارة إِلَى قول رؤبة:

بِأبهِ اقتدى عديٌّ في الكرَمْ
ومَنْ يشابهْ أبَهُ فما ظلَمْ

انظر: ديوان رؤبة بن العجاج (ضمن مجموع أشعار العرب)، تحقيق وليم بن الورد، منشورات دار الآفاق الحديثة، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ، 1980م، ملحق الديوان 182.

(3) هُجْره: فُحشه. اللسان (هَجَر).

(4) في الأصل: وتماديت، والصواب ما أثبتُّه.

(5) الرَّبابُ: السحاب الأبيض. اللسان (ربَب).

(6) الأواخي والآخِيَّةُ: الآخية والحرمة والذمة، ويقال له عنده آخيّة ترعى، والأخية: الطُّنُب. اللسان (أخا).

مَكْرِه: أَهْلَكَ واللَّيْل[1]، وَيُمَزِّقُ بأَنْيابِ نَوائِبِهِ أَدِيْمي، وَلا يَرْعَى حُقُوقَ حَدِيْثِي وَلاَ قَدِيْمِي، يَخْتَلِقُ الكَذِبَ ويُفَوِّفُهُ[2]، وَيَبْتَدِعُ الزُّوْرَ وَيُزَخْرِفُهُ، وإذا لِيْمَ عَلَى ذلِكَ يَحْلِفُ بالأَيْمانِ المُحْرِجَةِ عَلَيهِ، وَيُقَرِّرُ بِزَخارِفِ أَقْوالِهِ كَذِبَ ما نُسِبَ إِلَيهِ، وَكُنْتُ حِينَ فُوِّقَتْ[3] إليَّ سِهَامُهُ، وسَحَّ عليَّ وَبْلُ مَكْرِهِ وَرِهَامُهُ، أَعْتَقِدُ أَنَّ ذلِكَ مِنْهُ يَخُصُّنِي عَلَى الانفِرَادِ، وَيَعْلَقُ بِي كمَا يَعْلَقُ الشَّرَرُ بثَوبِ الحدَّادِ، إمَّا لجُرْمٍ اجْتَرَمْتُهُ وَلا أَدْرِيهِ، أَوْ لِقَوْلٍ بَلَغَهُ بالتَّزْوِيرِ وَالتَّمْوِيهِ، أَوْ هُوَ طالِعُ الحَظِّ المَعْكُوسِ، والجَدِّ المَنْكُوسِ. وَلَمْ أَزَلْ في ذلِكَ التَّقْرِيبِ وَالإِبْعَادِ، والفِكْرُ يَذْهَبُ بِي فِي كُلِّ وادٍ، إِلَى أَنْ تَبَيَّنَ أَنَّ ذلِكَ مِنْهُ بِطَرِيْقِ العُمُومِ، وَأَنَّ ظِلَّ الخُصُوصِيَّةِ مَوْهُومٌ، وأَنَّهُ كالعَقْرَبِ يُؤْذِي بالطَّبْعِ، وَيَعُمُّ باللَّذْعِ[4]، مِن غَيرِ تَمْيِيزٍ بَيْنَ العَدُوِّ والصَّدِيقِ، وَتَفْرِيقٍ بَينَ المُشَاقِقِ والشَّقِيقِ، شيءٌ جُبِلَ عَلَيهِ سِنْخُهُ[5]، وَطَبْعٌ يأبَى عَلَيهِ نَسْخُهُ، وَعَقْدُ لآمَةٍ أَعْجَزَهُ فَسْخُهُ، وَنَسِيَ ما سَبَقَ من الوُدِّ أَوْ تَناسَاهُ، وَرَفَضَ جانِبَ المُرَاعاةِ والمُوَاساةِ. شِعر: [6]

كَأَنْ لمْ يَكُنْ وُدٌّ وَلمْ تَكُ صُحْبَةٌ وَلَمْ يَكُ يَوماً لِلوفَاءِ عُهُودُ

[فلمَّا][7] رَأَيْتُهُ انتهَى إِلَى هذَا الوَصْفِ، وَبَلَغَ في اللآمَةِ حَدَّ الإحْكَامِ وَالرَّصْفِ، طلَّقْتُ صُحْبَتَهُ ثلاثاً[8]، وَصِرْتُ إذا رَأَيْتُه أَقْرَأُ لَهُ أَشْتَاتاً أَشتاتاً، وَأَشْدُو وأُنشِدُ، وَأَهْدِي إِلَى عدَمِ صُحبتِهِ وأُرشِد[9]:

الحَمْــــدُ للهِ الَّـــــذِي نَجَّــــانِي مِن صُحْبَةِ النَّذْلِ اللَّئِيمِ الجَانِي
أَهْــونْ بِـــهِ مِـــن صــاحِبٍ مُفَــارِقِ قَــدْ شَــيَّبَتْ أفعالُــهُ مَفَــارِقِي
لَــمْ يبْــقِ سَــوْءاً دُونَ مَــا أَسْــدَاهُ إلـــيَّ مِمَّـــا عمِلَـــتْ يَـــدَاهُ
مَـــاذا أَقُـــولُ وَالمَقَـــالُ جَـــمُّ فِـيمَنْ بِـهِ أَصْلُ الوفـاءِ جَـمُّ؟

---

(١) إشارة إلى المثل المشهور: "أهلك والليل". وهو مثل يضرب في التحذير والأمر بالحزم. انظر: مجمع الأمثال للميداني ٨٦/١.

(٢) يفوفه: يزينه ويوشيه ويزخرفه. اللسان (فوف).

(٣) فوّقت: فوّق السهم: وضعه في الوتر ليرمي به. اللسان (فَوَقَ).

(٤) لذعَ فلاناً بلسانه وقوله: أوجعه وآذاه. والسياق يحتمل أن تكون الكلمة (اللدغ)، ولكنها في المخطوط كتبت بشكل واضح (اللذع)، والسياق يحتمل كلتا الصيغتين، فالأولى (اللذع) يعود إلى الصديق، والثانية (اللدغ) يعود الضمير إلى العقرب.

(٥) سِنخه: السِّنخ من كل شيء الأصل. اللسان (سنخ).

(٦) من البحر الطويل.

(٧) زيادة يستقيم بها الكلام.

(٨) كُتب بجوار ثلاثاً: تاء، ولا معنى لها.

(٩) من البحر الرجز.

لَـوْ أنَّـهُ يكُـونُ مِـن جِـنْسِ البَـشَرْ	مـا كـانَ مِنْـهُ مَـن يُدانِيـه بَـشَرْ
فَـالجُرْحُ مِـن إيذائِـهِ جُبَـارُ[1]	واللّهُ مِـن ورائِـهِ جبَّـارُ

وكانَ قدْ يتَخَيَّلُ لي انْعِكاسُ الجَدِّ، وَانْدِراسُ السَّعْدِ، وخُمُولُ الذِّكْرِ وَالمَجْدِ، ولَمْ يَدْرِ أنَّ اللّهَ يَلْطُفُ بِعَبْدِهِ الضَّعِيفِ، وَلا يُضْحِيْهِ مِن ظِلِّهِ الوَرِيْفِ، وَيُقَيِّضُ لَهُ مَن يُسْعِدُهُ بِسَعْدِهِ، وَيَرْدُفُهُ بِرِفْدِهِ، وَيُعِينُهُ بِآرائِهِ، وَيُغْنِيهِ بِآلائِهِ، وَيُقِيمُ مِنهُ مَا قَعَدَ، وَيُصْلِحُ مِن حالِهِ مَا فَسَدَ، وَيُعِيْدُ رَوْنَقَ آمالِهِ، بِتَدْبِيْرِهِ وَمَآلِهِ.

شِعر[2]:

وهُـوَ الَّـذِي أَصْـبَحَ فَـرْدَ الـدَّهْرِ	وَغُـرَّةً فِـي جَبَهَـاتِ العَـصْرِ
ذُو المَجْـدِ وَالـسُّؤْدَدِ وَالكَمَـالِ	وَالـسَّعْدِ والدَّوْلَـةِ والإقْبَـالِ
حَـاوِي العُلُـومِ مَجْمَـعُ البَحْـرَيْنِ	خُلاصَـةُ الـدَّهْرِ وَفَخْـرُ الكَـوْنِ
هِدايَـةُ الـسَّارِي إِلَـى الـصَّلاحِ	بِنُـورِهِ المُبَـارَكِ الوَضَّـاحِ
كَنْـزُ الحَقَـائقِ بِـدُونِ مَـانِعِ	رَبُّ الفُنُـونِ مُبْـدِعُ البَـدَائِعِ
سَـعْدِي[3] الَّـذِي يَقُـولُ عَـالِي المَجْـدِ	في العَصْرِ لَيسَ غَيْرُ سَعْدِي سَعْدِي
إنْ قُلْـتُ وَصْـفاً وَالَّـذِي سَـوَّاهُ	لا يَـسْبِقُ الفَهْـمُ إِلَـى سِـوَاهُ
لَـيْسَ سِـوَاهُ فِـي ذُرَا العَلْيَـاءِ	مِـنْ دُونِـهِ كَوَاكِـبُ الجَـوْزَاءِ
إنْ أَمَّـهُ مَـن خَـافَ ضُـرَّ الـذُّلِّ	عَـادَ بِكُـلِّ عِـزَّةٍ وفَـضْلِ
نِيَّـةُ قَلْبِـهِ الـسَّلِيْمِ المُـشْرِقِ	مَـا مِثْلَهَـا فِـي مَغْـرِبٍ وَمَـشْرِقِ
/ لِخَيْـرِهِ وَبِـرِّهِ فِـي البَـرِّ	مَوَاهِبٌ تَفُوقُ مَدَّ البَحْرِ [٣/ب]
يَـأْوِي إِلَيْهَـا مِـنْ ذُرَا الآفَـاقِ	أَهْـلُ الـوَجَى والجُـوْعِ وَالإِمْـلاقِ
ضَـرَائِبٌ لَـيسَ لَهَـا ضَـرِيْبُ	يَـدْرِي بِـذَاكَ الفَطِـنُ اللَّبِيْـبُ
لازالَ مَجْـدُهُ العَظِـيمُ البَـاذِخُ	وَهْـوَ عَلَـى مَـتْنِ الـسِّمَاكِ شَـامِخُ
يَزْهُـو بِـهِ الـسُّؤْدَدُ وَالمَعَـالِي	إِذْ هُـوَ فِيْهَـا زُبْـدَةُ اللَّيَـالِي
وَسَـعْدُهُ لا تَنْتَهِـي أَدْوَارُهُ	مَـا لاحَ فِـي إِثْـرِ دُجًـى نَهَـارُهُ

سَيِّدٌ أَخَذَ بِيَدِ عَبْدِهِ لَمَّا عَثَرَ، وَجَدَّدَ مِن سَعْدِهِ ما دَثَرَ، وَسَلَّطَ عَزَائِمَهُ عَلَى كُرُوبِهِ فَأَجْلَتْها، وَأَنْهَضَ هِمَمَهُ لأُهدية[4] خُطُوبِهِ فَجَلَتْها، وَحِيْنَ ضَاقَ وُسْعُهُ جَدَاهُ، وَعِندَمَا خَصَّهُ الدَّهْرُ بِالخَصَاصَةِ عَمَّهُ نَدَاهُ، وَكَتَبَتْ لَهُ أَمَاناً مِنَ الفَقْرِ يَدَاهُ، فَهَا أَنَا رَاتِعٌ فِي مَرَابِعِ فَضْلِهِ، مَمْطُورٌ مِن

(١) الجبار: الهدر. اللسان (جَبَر).

(٢) من البحر الرجز.

(٣) هو سعدي جلبي (سبقت ترجمته في الدراسة).

(٤) كذا في الأصل، ولعل الصواب: لِهِديَةِ خُطوبه، وهِدية الأمر: قصده وجهته. وحينئذ يستقيم الكلام.

غَمَامِ جُوْدِهِ بِوَبْلِهِ، مُتَقَمِّصٌ مِن نوائبِ الأيَّامِ بِسَاطِعِ ظِلِّهِ، وَذلِكَ المائقُ[١] قَدْ أخْفَقَ اللهُ آمَالَهُ، وَغيَّرَ أحْوَالَهُ، وَعَكَسَ أقْوالَهُ، وَعَدَلَ بِهِ عَنِ الاسْتِقَامَةِ وَأمَالَهُ، فَلا يُقَرْطَسُ[٢] لَهُ في غَرَضِ السَّعادَةِ سَهْمٌ، وَلا يَنْسَاقُ إِلَى إِسْعَافِهِ فِكْرٌ وَلا هَمٌّ، غارِقٌ في لُجَجِ الفَلاكَةِ[٣]، وَقَدْ أدَارَ العَكْسُ بِالنُّحُوْسِ أفْلاكَهُ، وَشَدَّ بَهْرَامُ[٤] النَّكْدَةِ نِطَاقَهُ، وَضَرَبَ كِيْوَانُ[٥] عليهِ مِن بُؤْسِهِ أوْطَاقَهُ، فَهُوَ في ذُلِّ الحِرْمانِ يَتَقلَّبُ، وَبِنِيْرانِ القَهْرِ والغَلَبَةِ يَتَلَهَّبُ، وَعْدٌ مِن اللهِ سَبَقَ لأمْثَالِهِ، وَمَنْ نَسجَ عَلَى مِنوالِهِ، وَالمَرءُ مَجْزِيٌّ بِأعْمَالِهِ. فَقَصِّرْ مِن عَنَاكَ، وَاتْرُكْ طَلَبَ ما هُنَاكَ، فَارْتِيَادُ المُحَالِ يُوْرِثُ الإمْحالَ وَيَجْلُبُ الأهْوالَ، ويُغَيِّرُ الأحْوَالَ وَيَصْرِمُ الآجَالَ، وَيُضَيِّقُ المَجَالَ، ويُذْهِبُ المَالَ، وَتَنْقَطِعُ دُوْنَهُ الأطْماعُ والآمَالُ. فَعِندَمَا سَمِعَ مَا بِهِ أخْبَرْتُ، وتَأمّلَ ما وَشَّيْتُ وَحَبَّرْتُ، قالَ: لَعَمْري لقَدْ نَصَحْتَ بِمَا بِهِ أفْصَحْتَ، وَوَعَظْتَ بِما بِهِ لَفَظْتَ، وَلَوْ لَم يُضِئْ لِي زَنْدُكَ، وَيَنْفَحْني عَرارُكَ وَرَنْدُكَ[٦]، لَظَلِلْتُ في تِيْهِ الضَّلالَةِ وَعَمَهِ[٧] الجَهَالَةِ أخْبِطُ الأرْضَ[٨] وَأجُوْبُ الطُّوْلَ مِنْهَا وَالعَرْضَ، وَلكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَيَّضَكَ لِإرْشَادِي، وَأنْهَضَكَ لِسَدَادِي، فَقَوَّضَ[٩] خِيامَهُ وَنَقَضَ إِبْرَامَهُ، وَرَجَعَ مَغْبُوطاً مَحْبُوراً، وَانْقَلَبَ إِلَى أهْلِهِ مَسْرُوْراً، وَافْتَرَقْنَا عَلَى الدُّعَاءِ لِمَنْ جَبَرَ الكَسْرَ، وَخَلَّصَ مِن الأسْرِ، وَأغاثَ في القَهْرِ وَالقَسْرِ، لابَرِحَ سَعْدُهُ مَدَداً لِلسُّعُودِ إِلَى يَوْمِ الوُعُودِ. آمِيْن، آمِيْن.

وَبَعْدُ، فَهذِهِ عَشْرُ مَقَامَاتٍ أنْشَأهَا الفَقِيرُ عَبْدُالرَّحِيمِ العَبَّاسِيُّ[١٠]، بِرَسْمِ سَيِّدِنا وَمَوْلانَا شَيْخِ الإسْلامِ، مُفْتِي الأنَامِ، نُخْبَةِ الدَّهْرِ، مُجْتَهِدِ العَصْرِ، سَعْدِيْ جَلَبِي[١١]، أمْتَعَ اللهُ الوُجُودَ بِوُجُوْدِهِ، وأفَاضَ عَلَى العَالَمِينَ بَرَكَةَ فَضْلِهِ وَجُوْدِهِ، آمِيْن، آمِيْن.

---

(١) المائق: الأحمق.

(٢) يقرطس: كل أديم ينصب للنضال فاسمه قرطاس، فإذا أصابه الرامي قيل: قَرْطسَ. اللسان (قرطس).

(٣) الفلاكة: الفقر، وهو مفلوك: أي فقير. اللسان (فلك).

(٤) بهرام: اسم المريخ. اللسان (بهرم).

(٥) كيوان: اسم زُحل. اللسان (كون).

(٦) عرارك ورندك: العرار: نبتٌ برّي طيب الرائحة، والرَّند: شجر من أشجار البادية طيب الرائحة.

(٧) عمَهَ: العمَه: التحير والتردد، والعَمَه في البصيرة كالعمى في البصر. اللسان (عمه).

(٨) في الأصل: الأراضي، والصواب المثبت الملائم للسجعة.

(٩) في الأصل: قوض، والمثبت هو الصواب الملائم لما بعده.

(١٠) سبقت ترجمته.

(١١) سبقت ترجمته.

الحَمْدُ للهِ الَّذِيْ جَعَلَ مَقَامَاتِ الأَبْرارِ في عِلِّيِّيْنَ، وَصَيَّرَهُمْ في الدَّارَيْنِ مِن العَلِيِّيْنَ، وَهَذَّبَهُمْ وَأَدَّبَهُمْ فَأَحْسَنَ التَّهْذِيْبَ وَالتَّأْدِيْبَ، فَلا يُرَى مِنْهُم إلاّ كُلُّ مُهَذَّبٍ أَدِيْبٍ. أَحْمَدُهُ حَمْدَ مَن أَلْزَمَ نَفْسَهُ بالجُهْدِ، وفِي القِيَامِ بالحَمْدِ، وَوَفَّى بِما له التَزَمَ، وَنَصَّبَ نَفْسَهُ لِلتَّعَبُّدِ وَرَفَعَها عَن خَفْضِ الفُتُوْرِ وَبِتِلْكَ النِّيَّةِ جَزَمَ.

وَأَشْهَدُ أَلاَّ إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، شَهَادَةً تَرْفَعُ قائلَهَا إِلَى أَعْلَى المَقَامَاتِ وتَسِمُهُ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ بِأَحْسَنِ السِّمَاتِ وَأَزْهَى العَلامَاتِ.

وَأَشْهَدُ أَنّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ الَّذِيْ دَفَعَ بِهَدْيِهِ الكُرُوْبَ وَالأَخْطابَ[1]، وَآتاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِهِ وَأَصْحابِهِ، مَا فَوَّقَتِ الطُّرُوْسُ[2] اليَرَاعَ[3] بِبَدِيْعِ البَيَانِ وَلَطِيفِ الاخْتِراعِ.

أَقُوْلُ: فإنَّ الفَقِيْرَ وَإنْ كَانَتْ بَضَاعَتُهُ في كُلِّ فَنٍّ مُزْجَاةً[4]، وَعِبَارَتُهُ القَاصِرَةُ عَنْ طُوْلِ البَلاغَةِ مُرْجَاةً، فَنَفْسُهُ إِلَى المُشَارَكَةِ في النَّفَائِسِ تَسْتَشْرِفُ، وَتَطُولُ مَعَ قِصَرِ باعِهَا لِلتَّطَلُّعِ عَلَى مُخْتَرَعَاتِ المَعَانِي وَتَشْرُفُ، وتَهْوَى أَنْ تَضْرِبَ في كُلِّ فَنٍّ بِسَهْمٍ وَنَصِيْبٍ، وَلا عَلَيْهَا أَنْ تُخْطِئَ الغَرَضَ أَوْ تُصِيْبَ، وَلَمَّا كانَ نَوْعُ التِزامِ / مَا لا يَلْزَمُ، التَّنَكُّبُ عَن جادَّتِهِ أَحْوَطُ لِلأَدِيْبِ وَأَحْزَمُ، لِوُعُوْرِ مَسْلَكِهِ نَظْماً وَنَثْراً، وَقَلَّ مَن ظَفِرَ مِن طالِبِيْهِ بِبُغْيَتِهِ أَوْ أَثْرَى، فَكَانَتِ النَّفْسُ تَنْزِعُ إِلَى سُلُوكِ جَادَّتِهِ، وَالتَّشَبُّهِ بِمَنْ اجتَهَدَ في تَحْسِيْنِهِ وَإِجادَتِهِ، وَتَحُثُّ عَزَائِمَ الفِكْرِ فَتَأْبَى إلاّ الفُتُوْرَ، وَتَسْتَنْهِضُ جَوائِمَ الذِّهْنِ فَلا تَنْهَضُ وَلا تَثُوْرُ، خَوَرٌ في الطَّبِيْعَةِ يَعْتَرِي، وَجُبْنٌ مَعَهُ لا تَجْسُرُ ولا تَجْتَرِي، وَالنَّفْسُ مَعَ ذلكَ لا تَمَلُّ مِنَ الإلحَاحِ، وَقَدْحِ زَنْدِ الشَّحَاحِ[5]، وَلَمّا كَثُرَ إِبْرَامُها، وَقَوِيَ تَلَهُّبُها واضطِرَامُهَا، أَعْمَلْتُ الفِكْرَ في عَمَلِ مَقَامَةٍ، وَلَمْ أَشْعُرْ بِأَنَّها ذَاتُ اعْوِجاجٍ وَاسْتِقَامَةٍ، غَيْرَ أَنِّي تَجَاسَرْتُ بِعَرْضِها، وَمَا في سَمَائِها وَأَرْضِها، عَلَى حَضْرَةِ فَرْدِ الوَقْتِ، مُقْدِماً إمّا عَلَى الرِّضَا أَوِ المَقْتِ[6]، أَعْنِي حَضْرَةَ عَيْنِ الأَعْيَانِ، مالِكِ أَزِمَّةِ المَعَانِيْ والبَدِيعِ والبَيَانِ، ذِيْ المَفَاخِرِ وَالمَنَاقِبِ والفِكْرِ الصَّائِبِ، وَالذِّهْنِ الثَّاقِبِ، زِيْنَةِ المَمَالِكِ والأَمْصَارِ، وَنُخْبَةِ

[٤/أ]

(١) الأخطاب: جمع خطب، وهو الشأن والأمر صغر أو عظمَ. اللسان (خطب).

(٢) الطروس: جمع طِرس، وهو الصحيفة، ويقال: هي التي مُحيتْ ثم كُتبت. اللسان (طرس).

(٣) اليراع: هو القلم إذا كان من قصب. اللسان (يرع).

(٤) مُزجاة: المزْجَى: القليل، وبضاعة مزجاة: قليلة. اللسان (زجى).

(٥) زند: الزَّند: العود الأعلَى الَّذِيْ تقدح به النار، والزَّند الشحاح: الَّذِيْ لا يوري كأنه يشحّ بالنار. اللسان (زند).

(٦) في الأصل: والمقت، والمثبت هو الصواب.

الدُّهُوْرِ وَالأَعْصَارِ، علاَّمَةِ الزَّمَانِ، المَلِيءِ بِوَفَاءِ العَهْدِ والأَمَانِ، رأسِ الحُكَّامِ، وَصَاحِبِ الإِتْقَانِ والإِحْكَامِ، الَّذِي يُجِيْرُ مِن جَوْرِ الزَّمانِ وبُعْدِي، ويَأْخُذُ بِيَدِ المُسْتَعْدِي[1]، مَوْلانَا سَعْدِي، لابَرِحَتْ آياتُ فَضْلِهِ بِأَلْسُنِ الأَكْوانِ مَتْلُوَّةً، وَعَرائِسُ مَجْدِهِ وَنُبْلِهِ عَلَى أَعْيُنِ أُوْلِي الأَبْصَارِ مَجْلُوَّةً، وَظِلالُ عِزِّ سُعُودِهِ سَابِغَةً ضَافِيَةً، وَمَوارِدُ سُرُوْرِهِ عَذْبَةً صافِيَةً، وَالأَفْلاكُ تَدُوْرُ بِسَعْدِهِ، وَيَهَبُهُ اللهُ مَجْداً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِن بَعْدِهِ، فَحِيْنَ وَقَعَ نَظَرُهُ الكَرِيمُ عَلَيْها، وَصَرَفَ وَجْهَ تَأَمُّلِهِ إِلَيْها، أَظْهَرَ بِهَا إِعْجاباً، وَجَعَلَ نِداءَها بِسِتْرِ حِلْمِهِ مُجاباً، فَكانَ ذلِكَ إِمَّا لإِصابَةِ السَّهْمِ الغَرَضَ، أَوْ جَبْراً لِخَاطِرِ الفَقِيرِ وَنَصْراً لَهُ عَلَى مَنْ في قَلْبِهِ مَرَضٌ، وَبَرَزَ أَمْرُ اللهِ تعالَى أَنْ يَنْشَأَ لَها أَتْرابٌ، فَحِيْنَئِذٍ أَمِنَ القَلْبُ مِمّا بِهِ اسْتَرَابَ، وَعَمِلَ عَشْراً[2] كامِلَةً، راجِياً بِسَعْدِهِ أَنْ تَكُونَ نابِهةً لا خَامِلَةً، وَهَا هُوَ قدْ قَدَّمَها عِرَائِسَ تُجْلا[3]، مُؤَمِّلاً أَنْ تَسْتَوْطِنَ مَحَلَّ مَجْدِهِ وَلا تُجْلَى[4]، وأَنْ تُكْسَى مِن مَلابِسِ حِلْمِهِ نَفِيْسَ الحُلَلِ، وأَنْ يَنْظُرَ بِعَيْنِ الرِّضَا إِلَى مَا فِيْهَا مِن الخَطأِ وَالخَلَلِ، لابَرِحَتِ الآمَالُ مُسْتَمْطِرةً مِنْ سَحَائِبِ كَرَمِهِ، وَنُفُوْسُ الآمَالِ عاكِفَةً بِرِحَابِ حَرَمِهِ، مَا رَقَمَتِ الأَقْلامُ بَدِيْعَ الكَلَامِ.

المقامة الأولى:

قالَ بَعْضُهُمْ: ساقَنِي القَدَرُ المَحْتُوْمُ، وَالغَيْبُ المَكْتُوْمُ، مِن أَرْضِ الأَراكِ وَالبَشَامِ، إِلَى أَنْ حَلَلْتُ بالشَّامِ، فَأَقَمْتُ بِها مُدَّةً مَدِيْدَةً، وَأَنا كُلَّ يومٍ في نُزْهَةٍ جَدِيْدَةٍ، ما بَيْنَ رياضٍ وَأَزْهارٍ، وَحِياضٍ وَأَنْهارٍ، وَجَداوِلَ تَنْسابُ انْسِيابَ الحُبَابِ، وَظِلٍّ وَرِيْفٍ، وَخِصْبٍ وَرِيفٍ، وَجِنَانٍ تَخْلُبُ الجَنَانَ، وَطُيُورٍ تَتَجَاوَبُ وَتَتَعاقَبُ، وَتَتَناوَبُ، تَتَبَرَّجُ رُبَاهَا في مَلَابِسَ عَبْقَرِيَّةٍ، وَتَتَأَرَّجُ بِأَنْفاسٍ عَنْبَرِيَّةٍ، ذاتِ قَرَارٍ ومَعِيْنٍ، وَظِباءٍ عِيْنٍ، وَقُصُورٍ رَفِيْعَةِ الذُّرَى[5]، وَسِيْعَةِ الذَّرَى[6]، مُفَوَّفاتِ الشُّرُفَاتِ، مُزَخْرَفَةِ الغُرُفَاتِ، فَأَقَمْتُ بِها آمِنَ السِّرْبِ[7]، صافِيَ الشُّرْبِ، لا أَخَافُ مُغِيراً، وَلا أَشْكُوْ مُضِيراً، إِلَى أَنْ هَجَمَ الشِّتاءُ بِيَبَسِ هَوَائِهِ، وَتَراكُمِ أَنْوائِهِ، فَكُنْتُ أُلازِمُ السُّكُوْنَ، ولا

---

(١) هنا خطأ وتجاوز من المؤلف بجعله الممدوح سعدي جلبي يجير من جور الزمان ويعدي، حيث أعطاه ما ليس له، وإنما هو من صفات مالك الملك الَّذِيْ يجير وحده ولا يجار عليه سبحانه.

(٢) في الأصل: عشرةً، والصواب المثبت في المتن.

(٣) تجلا: يقال: جلا العروس، واجتلاها زوجها: نظر إليها، وتجلا أيضاً: تُهدى. اللسان (جلا).

(٤) تجلى. هنا من الجلاء والإبعاد. اللسان (جلى).

(٥) الذُّرى: بالضمّ، جمع ذِروة. ذروة كل شيء أعلاه. اللسان (ذرا).

(٦) الذَّرى: بالفتح، الكِنّ، وما ستر من الريح الباردة من حائط أو شجر، وفلانٌ في ذَرى فلان: أي ظلّه. اللسان (ذرا).

(٧) السِّرب: النفس والأهل والمال، ومنه الحديث: "من باتَ آمناً في سِربه...". اللسان (سرب).

أَخْرُجُ مِن الوُكُونِ[1]، مُستَبْدِلاً تِلْكَ النُّزَهِ في الغِيطَانِ[2]، بالسِّتْرِ بالحِيطَانِ، وَمُتَعَوِّضاً مِن تلكَ المَنَازِهِ[3] والمنَاظِرِ بِحُصُرِ البُيُوتِ الّتي هِيَ قَيْدُ النَّواظِرِ، إلَى أنْ دَعَتْنِي حَاجَةٌ أَكِيْدَةٌ، وَضَرُوْرَةٌ شَدِيدَةٌ، إلَى الخُرُوْجِ مِنَ الدُّوْرِ، وَأَنْ أَسْعَى لِتَحْصِيلِها وَأَدُوْرَ، فَخَرَجْتُ في يومٍ غَامَتْ سَمَاؤُهُ، وَتَغَيَّرَتْ سيماؤُهُ[4]، فَهَواؤُهُ مَقْرُورٌ[5]، وَجَيْبُ[6] جَوِّهِ مَزْرُورٌ[7]، والسَّحَابُ قدْ تَوَاتَرَتْ أَنْداؤُهُ، وَالبَرْدُ اشْتَدَّ تَحَكُّمُهُ واعْتِداؤُهُ، وَالأَقْدَامُ لا تَثْبُتُ مِنَ الوَحْلِ، وَالسَّمَاءُ تَكَفَّلَتْ بِدَفْعِ المَحْلِ[8]، فَبَيْنَما أنا أَجُوْلُ في بَعْضِ المَحَالِّ، مُسْتَمِدّاً لِضَعْفِي مِن شَدِيْدِ المِحَالِ، إذْ أَبْصَرْتُ بإنْسَانٍ أَحْسَبُهُ مِن بَنِي سَاسَانَ، وَهُوَ مُلْقًى عَلَى قارِعَةِ / الطَّرِيْقِ، مُبْعَدٌ عَنِ العَشِيْرِ وَالفَرِيْقِ، والرِّعْدَةُ تَهزُّهُ، وَتُكثِرُ اضْطِرابَهُ وَتَؤُزُّهُ، وَعَلَيْهِ أَسْمَالٌ لا تُوَارِيه، وَدُمُوْعُهُ تُسَابِقُ القَطْرَ وتُجَارِيْهِ، وَقَدْ ازْرَقَّ مِنَ البَرْدِ جِسْمُهُ، وَكَادَ أنْ يَعفَى أَثَرُهُ وَرَسْمُهُ، فَبَدأْتُهُ بالسَّلامِ، وَقَدَعْتُهُ[9] بالمَلامِ، وَقُلْتُ لَهُ: أَفِيْ مِثْلِ هذا اليَوْمِ تَخْرُجُ مِن الوِجَارِ، وَلَوْ تَعَدَّى الجَارُ عَلَيْكَ وَجَارَ، أَو تَبْرُزُ مِنَ الدَّارِ في هذا المَطَرِ الهدَّارِ؟ أَوَ تَتَعَرَّضُ لِهذَا الغَيْثِ وَمَا بِهِ مِنَ الفَسَادِ والعَيْثِ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ ما يَمْنَعُ عَدْوَاهُ، وَلا قُوَّةَ لَكَ بِدَفْعِ قُوَاهُ، فَقَدْ عَرَّضْتَ نَفْسَكَ لِلمَهَالِكِ، وَأَلْقَيْتَ بِيَدِكَ فِيْمَا هُنَالِكَ؟! فَهَلاَّ تَدَبَّرْتَ ما بِهِ أَدبَرْتَ؟ وَتَأَمَّلْتَ مَا لَهُ تَحَمَّلْتَ؟ وَتَوَقَّعْتَ ما فِيْهِ قدْ وَقَعْتَ؟ فالسَّعِيْدُ مَنْ نَظَرَ في العَوَاقِبِ، وَأَبْعَدَ عَنِ المَسَاوِرِ[10] والمَعَاقِبِ، وَلَطالَما أَوْقَعَ البَطَرُ في أَشَدَّ مِن هذا الخَطَرِ، وَلَوْ اسْتَعْمَلْتَ الحَزْمَ، لَنَهَاكَ عَن هذا العَزْمِ، وَلكِنَّكَ أَعْمَلْتَ الرَّأْيَ الفَاتِلَ[11] وَاسْتَنْتَجْتَ العَقِيْمَ الحائلَ[12]، فَأَوْقَعَكَ في هذِهِ الرَّذائِلِ، فَلَمَّا لَسَعَتْهُ حُمَةُ المَلامِ، تَصَدَّى لِلْكَلامِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ، وَنَفَسٍ مُتَهَافِتٍ: واللهِ مَا خَرَجْتُ في هذا اليَوْمِ العَصِيْبِ إلاَّ لأُحَصِّلَ وَأُصِيْبَ، وَلا تَلَقَّيْتُ

[٤/ب]

---

(١) الوكون: جمع وَكْن، بالفتح، وهو عشُّ الطائر، مثل: وكر. اللسان (وكن).

(٢) الغيطان: الشجر الكثيف الملتفّ، وكذلك العشب، يقال: غيطة وغيطلة. اللسان (غيط).

(٣) المنازه: جمع متنزَّه. اللسان (نزه).

(٤) السِّيماء: العلامة.

(٥) مقرور: بارد. اللسان (قرَّ).

(٦) جيبُ القميص ونحوه ما يدخل منه الرأس عند لبسه، وجيب الثوب ما توضع فيه الدراهم ونحوها. اللسان (جيب).

(٧) مزرور: ذو أزرار، أو مجموع جمعاً شديداً. اللسان (زرر).

(٨) المَحْل: انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ. اللسان (محل).

(٩) قدعه عن الشيء: كفّه ومنعه، وكذا "قذعه".

(١٠) المساور: جمع سَوْرَة، وهي النزق والحِدّة. اللسان (سور).

(١١) الفاتل: الصارف، يقال: فتله عن رأيه: صرفه ولواه.

(١٢) الحائل: كل أنثى لا تحبل، يقال: امرأة حائل، وناقة حائل.

هذا البَرْدَ، إلاّ لأظفرَ من مَعَادِنِ الخَيْرِ بالبُخْتِ وَالبُرْدِ[١]، وَلا فَارَقْتُ الكِنَّ، إلاّ لأستَرِيْحَ وأكِنَّ[٢]، وَلا بَايَنْتُ الأَوْطانَ، إلاَّ وَقَدْ عَلِقَتْ بِي مِنَ البَلايا الأَشْطانُ، وَخَلْفِي صِبْيَةٌ صِغارٌ، في آسْرِ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ، قَدْ وَقَذَهُمُ[٣] الجُوْعُ، وَمَنَعَهُمُ الهُجُوْعُ، وَقَدْ أَرْسَلُوا بِي وَانْتَظَرُوا، وَسِوَايَ مَا لَمَحُوا وَلا نَظَرُوا، فَكُفَّ عَنّي غَرْبَ[٤] لِسانِكَ، وَكَفْكِفْ عَلَيَّ بإحْسانِكَ، وَأَوْفِ مِن الخَصَاصَةِ وَلَوْ بِقُصَاصَةٍ، وَجَازِ مِن المَعْرُوْفِ وَلَوْ بِجِزَّةٍ مِن صُوْفٍ خَرُوْفٍ، وَوَاسِ مِنَ الفَقْدِ، وَلَوْ بِأَقَلِّ النَّقْدِ، وَأَسْعِفْ مِنَ الفَقرِ وَلَو بِقَدْرِ مَا يَتَحَصَّلُ[٥] العُصْفُورُ مِنَ النَّقْرِ، وَخَلِّصْ مِنَ العُدْمِ، وَلَوْ بِنَزْرٍ مِنَ الغَذْمِ[٦]، وَأَنْقِذْ مِنَ الفَاقَةِ وَلَوْ بِرُقَاقَةٍ، وَأَعْطِ مِنَ الإِحْسَانِ وَلَوْ بِحَلاوَةِ اللِّسَانِ، فَتَحْصِيلُكَ الأَجْرَ خَيْرٌ مِن هذا الزَّجْرِ، وَبَذْلُكَ القَدْرَ اللَّطِيْفَ أَصْلَحُ مِنْ هذا التَّعْنِيْفِ، وَحَيْثُ لا إِحْسَانَ، يا إِنْسَانُ، فاتْرُكْنِي كَفَافاً، وَاذْهَبْ عَنّي مُعافًى، وَاسْتَعِذْ باللهِ، وَلا تَكُنْ عَنْ ذلِكَ بِالغَافِلِ وَلا اللاَّهِ، فَحَرَكَاتُ الأَفْلاكِ، لا تُبْقِي مَعَهَا سَعَادَةً ولا إِفْلاكَ. فَخَرَجَ قلْبِي بِعَضْبِ كَلامِهِ، وَنَدِمْتُ عَلَى ما نَدَّ مِنّي مِن مَلامِهِ، وَأَبْدَيْتُ لَهُ اعْتِذاراً، وَأَقَمْتُ لَهُ أَعْذاراً، وَوَاسَيْتُهُ بِما حَضَرَ، وَلَمْ أَدْرِ مِن بَدْوٍ هُوَ أَوْ حَضَرٍ، ثُمَّ ثَنَيْتُ عَنْهُ عِنَانِي، وَجَعَلْتُهُ نَصْبَ عِيَانِي، وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَراهُ وَلا يَرَانِي؛ لأَسْبُرَ قَدْرَ حَدْسِي وَفَهْمِي، وَأَدْفَعَ ظَنَّ خَطَأي وَوَهْمِي، هذا، وَالصَّدَقَاتُ تَرِدُ عَلَيْهِ تَتْرَى، وَتَفِدُ شَفعاً وَوَتْرا، وَلا يَجِدُ وَنْياً وَلا فَتْرا[٧]، وَهُوَ يَزِيْدُ في رِعْدَتِهِ، وَيُظْهِرُ أَثَرَ شِدَّتِهِ، إِلَى أَنْ دَنا وَقْتُ الأَصِيْلِ، وَهُوَ لا يَمَلُّ مِن التَّحْصِيلِ، وَقَدْ مَلأَ العِيَابَ[٨]، مِنَ الدَّراهِمِ وَالثِّيابِ، ثُمَّ لمَّا جَفَّتِ اليَنَابِيعُ، وَانْصَرَفَ المَتْبُوْعُ والتَّبِيْعُ، نَظرَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَجَمَعَ قُوَاهُ وَشَدَّ أَسْرَهُ، وَجَلَسَ مُسْتَوِياً، وَاعْتَدَلَ مِنْهُ ما كانَ مُلْتَوِياً، وَاغْتَنَمَ خُلُوَّ الطَّرِيْقِ، وَأَمِنَ مِن دَوَاعِي التَّطْرِيقِ، وَقامَ يَشْتَدُّ، وَيَقْصُرُ وَيَمْتَدُّ، فَلَمّا لَمَحَ مِنّي أَنّي لَهُ مُتَرَقِّبٌ، وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ، فَقُمْتُ في أَثَرِهِ سَرِيعاً، وَسِرْتُ سَيْراً ذَرِيعاً، أَقَعُ وَأَقُوْمُ، وَأَخُوْضُ في ذلِكَ اللَّثَقِ[٩] وَأَعُومُ، وَأَلْحَظُهُ بالعَيْنِ وَلا أَسأَلُ كَيْفَ ذَهَبَ وَلا أَيْنَ؟ إِلَى أَنْ أَفْضَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى دَرْبٍ مِنَ الدُّرُوبِ، فيهِ أَنْواعٌ مِنَ الحُسْنِ

---

(١) البخت: الإبل الخراسانية، والبُرْد:) كساء مخطط يلتحف به. اللسان (بخت) و (برد).

(٢) أكِنُّ: أستتِرُ. اللسان (كنن).

(٣) وقذهم: صرعهم، وغلبهم، وتركهم عليلين.

(٤) الغَرْب: مِن معانيه: أوّل كلِّ شيءٍ وحدُّه، يقال: غرب السيف والسكين والفأس. اللسان (غرب).

(٥) يتحصّل: يستخلص.

(٦) الغذم: الأكل.

(٧) في الأصل: ولا وقترا، والصواب ما أثبته. ونْياً: فتوراً وضعفاً. فتراً: ضعفاً. اللسان (ونى) و (فتر).

(٨) العياب: الخرق التي يوضع فيها المتاع وتصر فيها الدراهم. اللسان (عيب).

(٩) اللثق: الندى، والماء والطين المختلطان، يقال: مشينا في لثق: وحل. اللسان (لثق).

وَضُرُوبٌ، فَقَصَدَ باباً عَالِيَ البِناءِ، رَحِيبَ الفِناءِ، قدْ صُنِعَ مِن السَّيَاجِ، وَطُعِّمَ بالأبَنُوسِ والعَاجِ، فَاسْتَفْتَحَ اسْتِفْتَاحَ مَالكٍ، وَدَخلَ دُخُوْلَ المَلِكِ إلَى بعْضِ المَمَالِكِ، وَقَفَلَ ما فَتَحَ، وَغابَ الفَاتِحُ وَالمُسْتَفْتَحُ، فَرَأَيْتُها عَضِلَةً[1] تَلْعَبُ بالعُقُوْلِ، وَتَدْعُوْ إلَى اسْتِعْمَالِ الفُضُوْلِ، فَمَكَثْتُ رَيْثَمَا اسْتَرَاحَ مِن ذلِكَ المَرَاحِ، / وَتَقَدَّمْتُ إلَى البَابِ طارِقاً، وَمِنَ الرَّدِّ فَارِقاً[2]، فَفَتَحَ البَابَ شَابٌّ حَسَنُ الثِّيَابِ، وَعَلَيْهِ مِنَ الفِراءِ المُغَشَّاةِ، وَالجُبَبِ المُوَشَّاةِ، ما يَسْتَوْقِفُ النَّاظِرَ، وَيُعْجِزُ المُضَاهِيَ وَالمُنَاظِرَ، فَحَيَّا وَتَكَرَّمَ، وَلا تَضَجَّرَ وَلا تَبَرَّمَ، وَلا سَأَلَ فِيْما أَتَيْتُ، وَلا فَحَصَ عَمَّا لَهُ تَغَيَّبْتُ، وَأَقْسَمَ[3] أنْ أَكُوْنَ لَهُ ضَيْفاً، وَلَوْ أَقَمْتُ شِتاءً وَصَيفاً، فَحَمِدتُّ مَلْقَاهُ، وَأَمِنْتُ مِمَّا كُنْتُ أَتَوَقَّاهُ، وَدَخَلَ بي إلَى الدَّارِ الرَّفِيْعَةِ الأبْنِيَةِ، وَسِيْعَةِ الأفْنِيَةِ، مَفْرُوْشَةِ الأرْضِ بِالرُّخَامِ المُلَوَّنِ، وَقَدْ تَصَوَّرَ في أَبْدَعِ صُوْرَةٍ وَتَكَوَّنَ، وَبِها مِنَ البُسُطِ الرَّفِيْعَةِ، وَالفُرُشِ البَدِيْعَةِ، وَالسُّرُرِ المَرْفُوْعَةِ، وَالأكْوَابِ المَوْضُوْعَةِ، مَا يُبْهِرُ الجَنَانَ، وَيُذَكِّرُ بالجِنَانِ، وَقدْ حَوَتْ مِنَ الجَوَارِيْ وَالوِلْدَانِ، مَا يُفْتَخَرُ بِهِ وَيُزْدانُ، وَرَحَّبَ وَأَهَّلَ، وَمَا أَحْزَنَ بلْ أَسْهَلَ، وَاسْتَدْعَى بِمائدَةٍ، مِنَ الحُسْنِ مائدَةٍ، وَعَلَيْها نَقِيُّ الكمَاجِ[4]، وَمُكَرْدَنُ[5] الدَّجَاجِ، وَلَطِيْفِ الزِّيرِبَاجِ[6]، وَبَدِيْعِ النِّيرِبَاجِ[7]، وَأَنْوَاعٌ مِنَ المَآكِلِ الشَّهِيَّةِ، وَأَجْناسٌ مِنَ الحَلْوَى الزَّهِيَّةِ، بِما لا يُعَدُّ مِثْلُهُ إلَّا لِضَيْفٍ[8] كَرِيمٍ، أَوْ مَحْبُوبٍ نَدِيمٍ. هذا، وَالفِكْرُ مَشْغُوْلٌ بذلِكَ الفَقِيْرِ الدَّاخِلِ، وَسَبْرِ خَبَرِهِ المُتَداخِلِ، فَلَمْ أُعِرْ ذلكَ طَرْفاً، وإنْ كانَ قدْ تَسامَى حُسْناً وَظَرْفاً، وَلَمْ أَمُدَّ إلَيهِ يَداً، وَحِدْتُ عَنْهُ حَيْداً، فَأَنْكَرَ فَعْلَتِي، واسْتَنْكَرَ خَلَّتِي، وَأَخَذَ يلِجُّ[9] وَيُبْرِمُ، وَأَنا بِصُوْرَةِ الضَّجِرِ المُتَبَرِّمِ، لا أُصْغِي إلَى إبْرامِهِ، وَلا أَلْتَفِتُ إلَى تَحَرُّقِهِ وَاضطِّرامِهِ، فَحِيْنَ أَيِسَ مِنَ الإجابَةِ، وَعَلِمَ أنَّ دَعْوَتَهُ غَيْرُ مُسْتَجابَةٍ، سَأَلَ عَنِ السَّبَبِ المَانِعِ، فَقُلْتُ: ذلِكَ المُعْتَرُّ القانِعُ، الَّذِيْ دَخَلَ هذِهِ الدَّارَ بَعْدَما طَوَّفَ وَدارَ، دُخُوْلَ مَنْ أَمِنَ الرَّدَّ، وَلَمْ يَخْشَ الطَّرْدَ، وَلَئِنْ لَمْ أَعْرِفْ خَبَرَهُ، وَأَبْلُ مَخْبَرَهُ، لا أَقْضِمُ فِيْما حَضَرَ قَضْمَةً، وَلا أَسِيْغُ مِنْهُ لُقْمَةً، فَعِنْدَها تَهَلَّلَ وَجْهُهُ وَتَبَسَّمَ، وَقالَ: لَمْ يَبْقَ مَنْ يَتَوَسَّمُ،

[٥/أ]

---

(١) عضِلة: مستغلقة. اللسان (عضل).

(٢) فارقاً: جزعاً خائفاً. اللسان (فرق).

(٣) في الأصل: ولا أقسم، وما أثبتّه هو الملائم للمعنى والمقام.

(٤) الكماج: قيل: الكَمَجُ طَرَفُ مَوْصِلِ الفَخِذِ في العَجُزِ. اللسان (كمج).

(٥) مكردن: لم أجد لها معنًى

(٦) الزيرباج: فارسية معرّبة، من أنواع الطبيخ والحلوى التي تذكر في كتب التراث.

(٧) النيرباج: طعام فارسي.

(٨) في الأصل: لضعيف.

(٩) يلجّ: يتمادى في الخصومة.

فَلَمْ أَفْهَمْ كُنْهَ فَحْوَاهُ، وَلا عَلِمْتُ سِرَّ نَجواهُ، إِلَى أَنْ قالَ: أَنَا هُوَ ذلِكَ الفَقِيْرُ، الَّذِي أَعْجَزَهُ الفَتِيْلُ وَالنَّقِيْرُ، فَعِنْدَمَا تَحَقَّقْتُ مَعْرِفَتَهُ، أَكْبَرْتُ فُرْقَتَهُ، وَعِفْتُ حِرْفَتَهُ، وَأَخَذْتُ أُنْكِرُ عَلَيهِ تِلْكَ الفِعَالَ، مَعَ ما أَنْعَمَ عَلَيهِ الكَبِيْرُ المُتَعَالُ، فَقالَ: اعْلَمْ أَنَّ الحِرْفَةَ السَّاسانِيَّةَ[1] خَارِجَةٌ عَنِ الأَخْلاقِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَأَنا مِنْ ذلِكَ القَبِيْلِ، لا أَعْرِفُ الدَّبِيْرَ مِنَ القَبِيْلِ[2]، ولا المُخْصِبَ مِنَ المحِيْلِ[3]، وَلا المُبْرَمَ مِنَ السَّحِيْلِ[4]، أَرِدُ المَهَالِكَ وَالمَهَاوِي[5]، وَأَتْبَعُ الصَّاعِدَ وَالهاوِي[6]، لا أَتحامَى البَرْدَ وَالحَرَّ، وَلا أَدَعُ العَبْدَ وَالحُرَّ، وَلا يَجْبَهُنِي الرَّدُّ، وَلا يَمْنَعُنِي الصَّدُّ وَالطَّرْدُ، وَلا أَمَلُّ مِنَ الإِلْحَاحِ، وَأَسْتَخْرِجُ النَّارَ مِنَ الزَّنْدِ الشَّحَاحِ، وَلا أَدَعُ الإِبْرامَ دُوْنَ بُلُوغِ المَرَامِ، وَلا أَخْشَى حُمَّةَ[7] لاسِعٍ، وَلا أَدِيْنُ لِدانٍ وَلا شَاسِعٍ، وَلا أَرْهَبُ مِمَّنْ بَرِقَ وَرَعَدَ، وَلا أَحْفِلُ بِمَنْ قَامَ وَقَعَدَ، أَيْنَمَا سَقَطْتُ لَقَطتُ، وَحَيْثُمَا انْخَرَطْتُ قَرَطْتُ، وَأَحُوْزُ الحَقِيرَ والجَلِيْلَ، وَالكَثِيْرَ وَالقَلِيْلَ، بِحِيَلٍ مُخْتَلِفَةِ الأَجْناسِ وَالأَنْواعِ، مُتَبَايِنَةِ الأَشْبَارِ وَالأَبْوَاعِ، لا أُحْصِيْهَا عَدَداً، وَأَعُدُّها لِلْغِنَى عُدَداً، وَجَمِيْعُ ما تَرَاهُ مِمَّا أَثَّلَهُ[8] ذلِكَ وَأَثْرَاهُ، فَكُلْ هَنِيئاً مَرِيئاً، وَكُنْ مِمَّا اقْتَرَفْتُهُ بَرِيئاً، فَأَكَلْتُ مَعَهُ أَكْلَ مَنْ أَرْهَقَهُ الحَيَاءُ، وَأَوْثَقَهُ الاسْتِحْيَاءُ، لِعِلْمِي بِوَخَامَةِ تِلْكَ المَرَابِعِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَنا ثَالِثٌ وَلا رَابِعٌ، وَحِيْنَ اسْتَوْفَيْنا ما قُدِّرَ وَقُضِيَ، وَأُعْجِبَ بِمُوَافَقَتِي وَرَضِيَ، سَأَلْتُهُ أَنْ يُرِيَنِي مِن حِيَلِهِ، وَعَجَائِبِ عَمَلِهِ، مَا أُوثِرُهُ عَنْهُ وَأَنْقُلُهُ، وَأَتَمَقَّلُهُ[9] مِنهُ وَأَعْقِلُهُ، فَقَالَ: صَلِّ غَداً في المَسْجِدِ الجَامِعِ، وتأمّل ما يَقَعُ مِنَ المَعَامِعِ، فَإِنَّكَ تَشْهَدُ مِنَ العَجَبِ ما لَمْ يَأْتِ مثله في رَجَبَ، فَبَكَّرْتُ بُكُوْرَ الغُرَابِ، لأُشَاهِدَ غَرَائِبَ أَعْمَالِ الأَعْرَابِ، فقُدِّرَ جُلُوْسِي عِنْدَ المِنْبَرِ، وَقَدْ حَضَرَ مَنْ عَقَّ وَمَنْ بَرَّ، فَعِنْدَمَا بَرَزَ الخَطِيْبُ وَصَعَدَ وَصَوَّبَ نَظَرَهُ في النَّاسِ، إذا بِشَخْصٍ أَكْتَعَ ذِي عَرَجٍ، يُخَالُ إِذا مَشَى أَنَّهُ يَنْحطُّ مِنْ دَرَجٍ، مَحْجُوبِ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّهُ بِكُلِّ سُوْءٍ يُمْنَى، وَعَلَيْهِ أَخْلاقٌ، لا

---

(١) الحرفة الساسانية: سبقت الإشارة إليها في الدراسة ص ٨، وانظر لمزيد التفصيل: بديع الزمان الهمذاني، للدكتور مصطفى الشكعة: ٣١٢.

(٢) يقال: لا يعرف قَبيلاً من دَبير: لا يدري شيئاً. اللسان (دبر).

(٣) المُحيل: المُجدب. اللسان (محل).

(٤) السَّحيل: الثوب لا يُبرم غَزْله، والحبل يفتل على قوة واحدة.

(٥) في الأصل: المهادي: والصواب ما أثبته.

(٦) في الأصل: الهادي. والصواب ما أثبته.

(٧) حُمَّة: الحُمَّة والحُمَّى: عِلَّة يستحرُّ بها الجسم. اللسان (حمم).

(٨) أثّله: أصَّله وكان أساساً له، يقال: مالٌ مؤثل، أي مجموع ذوع أصل، وكل شيء له أصلٌ قديم أو جُمع حتى يصير له أصل فهو مؤثَّل. اللسان (أثل).

(٩) أتمقله: أنظر إليه بمقلتي، وهي العين كلها.

يَلْبَسُها مَن لَهُ خَلاقٌ، فَوَقَفَ وُقُوفَ مُتَهَافِتٍ، وَسَلَّمَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ، وَقَالَ: يا مَعْشَرَ هذَا الجَمْعِ، / وَمَنْ عُوفِيَ في البَصَرِ وَالسَّمْعِ، إنَّ هِمَّتِيْ وَافِيَةٌ، وَحَالَتِي لَيْسَتْ خَافِيَةٌ، وَقَدْ مُنِيْتُ في [٥/ب] هذَا الوَقْتِ – وَأَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ المَقْتِ – بِلُقَطَةِ ثَمِيْنَةٍ في سُوْقِ المَدِيْنَةِ، ساقَهَا إليَّ الحَظُّ المَعْكُوْسُ، وَالجَدُّ المَنْكُوْسُ، لِتَكُوْنَ لِي كَالْكَيِّ فَوْقَ الجُرْحِ، وَالقَرْحِ إثْرَ القَرْحِ، وَلَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى التَّعْرِيْفِ لِحَالِي الضَّعِيْفِ، وَدَمْعِي الذَّرِيْفِ، وَهَا أنا جَالِسٌ في هذَا المَقَامِ، لِيَعْرِفَنِي مَنْ قَعَدَ وَقَامَ، فَمَتَى رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ ذاهِباً، وَيَكُوْنُ لأَجْلِهِ جائِياً وَذَاهِباً، فدُلُّوهُ عَلَيَّ وَأَرْسِلُوْهُ إلَيَّ، فَيَعْرِفُ وِكاءَهُ وَعِفَاصَهُ[١]، وَيَأْخُذُ مَشُوْبَهُ وَخُلاصَهُ، وَإِنْ سَمَحَتْ مِنْهُ القَرُوْنَةُ[٢] لِفَقْرِي بِمَعُوْنَةٍ، فَهُوَ الَّذِي بَرَّ وَرَبِّ، وَإلاَّ فَالأَجْرُ عَلَى الرَّبِّ، ثُمَّ أَمْسَكَ لِسَانَهُ وَحَبَسَ، وَجَلَسَ وَمَا نَبَسَ، فَلَمْ يَكُنْ إلاَّ كَلَمْحِ طَرْفٍ، أَوْ خَطِّ حَرْفٍ، وَإذا بِضَجَّةٍ إثْرَ ضَجَّةٍ، وَعَجَّةٍ إثْرَ عَجَّةٍ، والنَّاسُ يُهْرَعُوْنَ إلَى الصَّوْتِ أَفْوَاجاً، وَفُرادَى وَأَزْوَاجاً، فَسَأَلَ الخَطِيْبُ عَنِ الصَّائِحِ، وما الَّذِي عَرَاهُ مِنَ الفَضَائِحِ؟ فَقَالُوا: عَجُوْزٌ تَلْطِمُ خَدَّيْها، وَتَكْدُمُ ثَدْيَيْها، وَتَزْعُمُ أَنَّها سَقَطَ مِنْها وَدِيْعَةٌ ثَمِيْنَةٌ بَدِيْعَةٌ، ما بَيْنَ دَنَانِيْرَ وَجَوَاهِرَ، كالنُّجُوْمِ الزَّوَاهِرِ، فَأَمَرَ الخَطِيْبُ بِحُضُوْرِها وَالنَّظَرِ في أُمُوْرِها، فَحَضَرَتْ ثَكْلَى وَلْهَانَةً، ذَلِيْلَةً مُهانَةً، تُسابِقُ دُمُوْعُها قَطْرَ السَّمَاءِ، وَتَلِيْنُ لِمُصابِها الصَّخْرَةُ الصَّمَّاءُ، فَقَالَ الخَطِيْبُ: خَفِّضِي عَلَيْكِ، فَقَدْ رَدَّ اللهُ ضَالَّتَكِ إلَيْكِ، وَلَيْسَ بَيْنَكِ وَبَيْنَها سِوَى الصِّدْقِ في التَّعْرِيْفِ، وَعَدَمِ الخَطَأ وَالتَّحْرِيْفِ، فَسَكَنَ رُوْعُها قَلِيْلاً، وَعَلَّلَتْ نَفْسَها بِالأَمَانِيِّ تَعْلِيْلاً، ثُمَّ إنَّها عَرَّفَتْها بِشِيَاتِها[٣]، وَوَصَفَتْها بِهَيْئَاتِها، وَبَيَّنَتِ المَظْرُوْفَ والظَّرْفَ، وَلَمْ تُخْطِ بِحَرْفٍ، فَقَالَ الخَطِيْبُ: قَدْ غَلِقَ[٤] الرَّهْنُ، وَقَوِيَ الوَهْنُ، فَمَا الَّذِي يُجْزَى بِهِ اللاَّقِطُ في رَدِّ هذَا السَّاقِطِ، فَقَالَتْ: إنِّي لأَفْلَسُ مِن طُنْبُوْرٍ، وَأَفْقَرُ مِنْ زُنْبُوْرٍ، وَهِيَ فِي يَدِيْ أَمَانَةٌ، وَتَصَرُّفِي فِيْها خِيَانَةٌ، وَلَيْسَ مَعِيْ مَا أَغْرَمُ، وَلَوْ أُحرَقُ عَلَى الإرَمِ[٥]، فَإنْ رَدَّهَا قَانِعاً بِالأَجْرِ، فَذلِكَ نِعْمَ النَّجْرِ[٦]، وَإلاَّ فَقَدْ تَعَيَّنَ الغَرِيْمُ، وَتَبَيَّنَ السَّحِيْلُ مِنَ البَرِيْمِ[٧]، فَقَالَ الفَقِيْرُ: إنَّا للهِ، ولا قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ، لَوْ كانَ لِي

---

(١) في الأصل: وكاؤه. والوكاء: الخيط الَّذِيْ تشد به الصرة أو الكيس وغيرهما. والعفاص: غلاف يغطى به رأس القارورة، والوعاء من جلد أو خرقة أو غير ذلك يكون فيه زاد الراعي. اللسان (وكى) و (عفص).

(٢) القَرونة: النفس، يقال: أسمحت قرونته: ذلت نفسه وتابعته عَلَى الأمر. اللسان (قرن).

(٣) الشِّيَة: العلامة .

(٤) غَلِق الرهن: لم يوجد له تخلص.

(٥) الإرَم: حجارة أو نحوها تنصب في المفازة ليهتدى بها. اللسان (أرم).

(٦) النَّجْر: الأصل.

(٧) البَرِيم: كل شيء من خيط وغيره فيه لونان مختلطان، والحبل الَّذِيْ جعل بين حبلين مفتولين ثم فتل الثلاثة حبلاً واحداً. اللسان (برم).

بالطَّمَعِ اهْتِمَامٌ، مَا عَرَّفْتُها بَيْنَ يَدَي الإمَامِ، وَلَوْ لَمْ أخْشَ القَصَاصَ لَرَغِبْتُ في الاخْتِصَاصِ، وَحَيْثُ نَضَبَ ماؤُكِ، وَأَقْشَعَتْ سَمَاؤُكِ، فَلا أتَحَمَّلُ بِوَدِيْعَتِكِ ضَيْراً، واللهُ يُعَوِّضُنِي مِنْها خَيْراً، ثُمَّ رَمَى بِهَا في حِجْرِهَا، وَرَضِيَ بِثَوَابِهَا وَأجْرِها، فَقَالَ الخَطِيْبُ: يَا مَعْشَرَ الأنْجَابِ، إنَّ هذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ! مُبْتَلىً فَقِيْرٌ، لَيس لَهُ فَتِيْلٌ وَلا نَقِيْرٌ، يَظْفَرُ بِمِثْلِ هذا الثَّمِيْنِ، وَيَكُوْنُ فِيْهِ بِوَصْفِ القَوِيِّ الأمِيْنِ[1]، وَيَرُدُّهُ بِدُوْنِ [جَزَاءٍ][2] وَهُوَ مُعَطَّلُ الأجْزاءِ! إنَّ هذا لَيَدُلُّ عَلَى كَرَمِ الأرُوْمَةِ[3]، وَطِيْبِ الجُرْثُوْمَةِ. وَقَدْ تَعَيَّنَ إِسْعَادُهُ وَإِسْعَافُهُ، وَوَجَبَ إِكْرامُهُ وَإِنْصَافُهُ، فَبَدَأ الخَطِيْبُ وَبَدَرَ، وَانْثالَتْ عَلَيْهِ البِدَرُ، فَلا يُدْرَى قَدْرُ ما حَصَلَ، وَلا ما إِلَيْهِ وَصَلَ، وَقَامَ يَخْطِرُ بِعُرْجَةٍ، وَقَدْ تَبَدَّلَ كَرْبُهُ بِفُرْجَةٍ، وَالنَّاسُ يَتَعَجَّبُوْنَ مِن شَرَفِ قَنْسِهِ، وَكَرَمِ جِنْسِهِ، وَبالخَيْرِ عَلَيْهِ يُثْنُوْنَ، وَيُفْرِدُوْنَهُ بِكَرَمِ الطِّبَاعِ وَلا يَسْتَثْنُوْنَ. فَمَكَثْتُ رَيْثَما قَضَيْتُ الفَرْضَ، وَانْتَشَرَ النَّاسُ في الأرْضِ، ثُمَّ أجْفَلْتُ إِجْفالَ النَّعَامِ، إلَى بَيْتِ صاحِبِ الطَّعَامِ، لأُخْبِرَهُ بِمَا اتَّفَقَ، وَمَا كَسَدَ وَمَا نَفَقَ، فَإذا هُوَ بِوَصِيْدِ البَابِ جَالِسٌ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مُجالِسٌ، فَحَيَّا وَسَلَّمَ، وَأخْبَرَنِي بالوَاقِعَةِ قَبْلَ أنْ أتَكَلَّمَ، فَعَجِبْتُ لِمُبَادَرَتِهِ بالإخْبَارِ عَنْ تِلْكَ الأخْبَارِ! وَقُلْتُ: أنَّى، وَكَيْفَ؟ وَمَتَى عَلِمْتَ نَبَأَ الكَمِّ وَالكَيْفِ؟ فَقَالَ: إِنِّي لأبُوْ عُذْرَتِها، وَحَالِبُ دَرَّتِها، فَقُلْتُ: زِدْنِي بَيَاناً، فَإِنِّي شَاهَدْتُ عِيَاناً، فَقَالَ: أرَأيْتَ ذلِكَ الفَقِيْرَ المُبْتَلَى وَمَا بِهِ مِنْ أنْواعِ الابْتِلاَ، وَشَاهَدتَ لُعَابَهُ السَّائِلَ، وَشِقَّهُ المَائِلَ، وَعَيْنَهُ المَطْمُوْسَةَ، وَصُوْرَتَهُ الَّتي هِيَ[4] في غَمَرَاتِ الأوْصَابِ مَغْمُوْسَةً؟ فَإِنَّهُ لَمُحَدِّثُكَ وَجَلِيْسُكَ وَمُحَاضِرُكَ وَأنِيْسُكَ، وَقَدْ عافَاهُ اللهُ وَشَفَاهُ، وَوَقَاهُ مَحْذُوْرَهُ وَكَفَاهُ، وَأمَّا العَجُوْزُ الوَارِدَةُ، فَهِيَ الوَالِدَةُ، وَأمَّا الضَّالَّةُ المَنْشُوْدَةُ، فَهِيَ هذهِ المَشْهُوْدَةُ، وَأخْرَجَ تِلْكَ / اللُّقَطَةَ بِعَيْنِها، [٦/أ] وَجَوْهَرِها وَلُجَيْنِها، وَعَرَضَ عَلَيَّ مَا اسْتَجْدَاهُ، وَمَا ظَفِرَتْ بِهِ يَدَاهُ، فَإذا هُوَ يَفُوْقُ الحَصْرَ وَالإحْصَاءَ، وَيُعْجِزُ العَدَّ وَالاسْتِقْصَاءَ، وَعَرَضَ لِي مِنْهُ بِنَصِيْبٍ، فَآلَيْتُ ألاَّ أنَالَ مِنْهُ وَلاَ أُصِيْبَ، وَعَجِبْتُ مِن هذا التَّغْرِيْبِ وَالتَّرْتِيْبِ الغَرِيْبِ، فَقَالَ لي: لا تَعْجَبْ لِمَا رَأيْتَ، وَمَا دَنَوْتَ مِنْهُ وَنَأيْتَ، فَهذِهِ طُرُقٌ مُتَشَعِّبَةٌ وَمَحَجَّاتٌ مُتْعِبَةٌ، وَلكِنَّهَا سَهْلَةٌ عَلَى مَنْ عاناها وَمَارَسَهَا وَدَانَاهَا، وَكَمْ لِيَ فِيْهَا مِن مَوَارِدَ يَعْرِفُهَا الصَّادِرُ وَالوَارِدُ، وَمَنَاهِلَ يَشْهَدُهَا العَالُّ وَالنَّاهِلُ، وَمَصَائِدَ وَأشْرَاكٍ، وَحَبَائِلَ وَشِبَاكٍ، لا يَخِيْبُ صَيْدُها، وَلا يَضْعُفُ أيْدُهَا، وَلَئِنْ طابَتْ بِنَا صُحْبَةٌ، وَتَأكَّدَتْ مَوَدَّةٌ وَمَحَبَّةٌ، لأُرِيَنَّكَ مِنْهَا عُجَاباً، وَلأَزِيْدَنَّكَ بِها إِعْجاباً. فَأظْهَرْتُ لَهُ الانْقِيادَ وَالمُلاَءَمَةَ وَالصُّحْبَةَ

---

(١) هنا كلمة ناقصة، لعلها (قمين) أو (جدير) أو نحوها.

(٢) زيادة يستقيم بها الكلام.

(٣) في الأصل: كروم، والصواب المثبت.

(٤) في الأصل: التي هي هي. تكررت (هي) سهواً.

الدَّائِمَةَ، وَهِمَّتِي مَصْرُوفَةٌ إِلَى الفِرَارِ وَعَدَمِ السُّكُونِ إِلَيْهِ وَالقَرَارِ، وَوَدَّعْتُهُ[1] وَدَاعَ مَنْ لا يَعُودُ إِلَيْهِ، وَلاَ يَأْسَفُ عَلَيْهِ.

المَقَامَةُ الثَّانِيَةُ:

حُكِيَ أَنَّ بَعْضَ بَنِي الآمَالِ، أَصْبَحَ صِفْرَ اليَدَيْنِ مِنَ المالِ، لا يَمْلِكُ بِنْتَ لَيْله، وَلاَ يَجِدُ مَن يُذْهِبُ عَنْهُ حُزْنَهُ وَوَيْلَه، وَلَيْسَ لَهُ حِرْفَةٌ، بَلْ هوَ مَشْمُولٌ بِالخُرْفَةِ[2]، يُمْسِي في هَوَسِ الأَمَانِيِّ وَيُصْبِحُ، وَلا يَلْقَى ما بِهِ يَسْتَصْبِحُ. تَعِدُهُ الأَيَّامُ وَتُخْلِفُهُ، وتُبايِنُهُ السَّعادَةُ وَلا تَأْلَفُهُ. لَوْ قَصَدَ البَحْرَ لَجَفَّ مَاؤُهُ، أَوْ اسْتَمْطَرَ الغَمَامَ لأَقْشَعَتْ سَمَاؤُهُ، يَدْأَبُ لِلثَّرْوَةِ وَيَجْهَدُ، وَلا يَخْرُجُ عَمَّا يَعْهَدُ، وَلا مِن إِغْمَاءِ فَقْرِهِ إِفَاقَةٌ، وَلا يَبْرَحُ عَنِ مُلابَسَةِ الإِعْدَامِ وَالفَاقَةِ، كَأَنَّمَا يَسْتَمْطِرُ جَهَاماً[3]، أَوْ يَسْتَقْرِي كَهَاماً[4]، مُعَذَّبُ البَالِ، خَلِقُ السِّرْبَالِ، يَغْدُوْ وَيَرُوحُ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى النَّاسِ، مُصاحِبٌ لِلإِخْفَاقِ وَاليَأْسِ، قَدْ جَفَاهُ الرُّفَعَاءُ، وَاجْتَوَاهُ[5] الشُّفَعَاءُ، وَمَنْ خَلا إِنَاؤُهُ طالَ عَنَاؤُهُ، وَمَنْ جَفَّتْ أَنْدَاؤُهُ قَلَّ أَوِدَّاؤُهُ، وَمَنْ فَرَغَ وِطَابُهُ لا يُسْمَعُ خِطَابُهُ، وَمَن ذَهَبَ مَالُهُ قَبُحَ جَمَالُهُ، وَمَنْ أَقْفَرَ نادِيهِ أَعْرَضَ مُنَادِيهِ، فالدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ بِهِمَا يَدْفَعُ الشَّنَارَ وَيَرْفَعُ المَنَارَ، وَتُقْضَى الأَوْطارُ، وَتُمْنَعُ الأَخْطارُ[6]:

لَيْسَ سِوَى الدِّرْهَمِ مِنْ صَاحِبِ	فَكَمْ عَلَيْهِ - الدَّهْرَ - مِن نَاحِبِ
فَالحَازِمُ الرَّأْيِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ	لَهُ - مَدَى الأَيَّامِ - بِالسَّاحِبِ
فَهْوَ بِهِ يُصْبِحُ رَحْبَ الفِنَا	وَمَنْ عَلَيْهِ اليُسْرُ بِالواجِبِ
وَهْوَ لَدَى النَّاسِ رَفِيعُ الذُّرَا	بَادِيْ السَّنَا، ذُوْ السَّنَنِ اللاَّحِبِ[7]
وَوَجْهُ مَنْ يَفْقِدُهُ لا يُرَى	إِلاَّ بِلَوْنِ الأَغْبَرِ الشَّاحِبِ

وَالدَّهْرُ لَهُ تَقَلُّباتٌ وَتَحَكُّمَاتٌ وَتَغَلُّبَاتٌ، وَالأَفْلاكُ الدَّابِرَةُ، قَدْ رَسَمَتْ عَلَى الأَنَامِ دَابِرَةً[8]، فَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ بَيْنَ نَعِيمٍ وبُوسٍ، وَبِشْرٍ وَعُبُوسٍ، وَعَلٍّ وَنَهْلٍ، وحَزْنٍ وَسَهْلٍ، وَضِيقٍ وَرَحْبٍ، وَضَحِكٍ وَنَحْبٍ، وَمَنْ وُعِدَ بالغِنَى مِنَ القِدَمِ خَلَصَ مِن العَدَمِ، وَثَبَتَ لَهُ في السَّعَادَةِ قَدَمٌ. بَيْنَمَا

---

(١) في الأصل: وأودعته.

(٢) الخُرفة: ما يجتنى من الفواكه في الخريف. اللسان (خَرفَ).

(٣) الجَهام: السحاب لا ماء فيه، ويقال: جاءني من هذا الأمر بجهام: بما لا خير فيه. اللسان (جَهَمَ).

(٤) كهَمَ الرجل كهامة: بطؤ عن النصرة والحرب، فهو كَهَام، وكهم السيف: كلّ فهو كهام وكهيم.

(٥) اجتواه: كرهه، ويقال اجتوى القومَ أبغضهم. اللسان (جوى).

(٦) من البحر السريع.

(٧) السَّنَن اللاَّحِب: الطريق الواضح. اللسان (لَحبَ).

(٨) الدابرة الأولى : الذاهبة ، ودابرة الثانية: الهزيمة .

هذا المُفْلِسُ يَسِيْرُ، في يَومٍ عَسِيْرٍ، وَهُوَ بِحَالَةِ المُقَيَّدِ الأسِيْرِ، إذْ رَأَى سِرْبَ نِساءٍ، كَظِبَاءِ الوَعْسَاءِ[1]، يَتَمَايَلْنَ تَمَايُلَ القُضْبَانِ مِنْ غُصُونِ البَانِ، وَيَتَهَادَيْنَ[2] تَهَادِيَ الآرَامِ في رِمَالِ الأَهْرَامِ، وَبَيْنَهُنَّ خَوْدٌ رَدَاحٌ، وَافِرَةُ السِّهَامِ مِنَ الحُسْنِ فائزَةُ القِدَاحِ، ذاتُ قَدٍّ كامِلٍ، وَحُسْنٍ شامِلٍ، يُشَارُ إِلَيْهَا بِالأَنَامِلِ، فَعِنْدَما حَقَّقَ النَّظَرَ، صارَ كَمَنْ دَهَمَهُ الحَقُّ المُنْتَظَرُ، وَسَلَبَتْ قَلْبَهُ وَخَلَبَتْ لُبَّهُ، وَأَخَذَ يَتْبَعُ الآثارَ، وَلا يَخْشَى العِثَارَ، إِلَى أنْ أَوْصَلَهُنَّ الدَّارَ، وَعَادَ وَقَدْ أَحاطَتْ بِهِ الأَكْدَارُ، وَكانَ قَدْ أُخْبِرَ أَنَّها أَيِّمٌ، وَلَيْسَ عَلَيْها قَيِّمٌ، فَبَاتَ بأَحْزانٍ يَعْقُوبِيَّةٍ، وَأَدْواءٍ / أَيُّوبِيَّةٍ، لا تَتَصَافَحُ مِنْهُ الأَجْفَانُ، وَالهُمُومُ قَدْ سَلَّتْ عَلَيْهِ سُيُوفَهَا مِنَ الأَجْفَانِ. [٦/ب]

شِعْرٌ[3]:

كَـأَنَّ رُقَـادَهُ سُـحِرَا	وَلَـمْ يَـرَ لَيْلَـهُ سَـحَرا
وَأَعْيُنُـهُ تَفِـيْضُ دَمـاً	كـأَنَّ بِهَـا الكَرَى نُحِـرا
وَغَـيْمُ الغَـمِّ لابِـسُهُ	وَعَنْهُ البِشْرُ قَدْ دُحِرا
وَجَمْـعُ العِـشْقِ والإِفْـلاَ	سِ أَثْقَلُ مِن وِزَانِ حِرا

ثُمَّ لَمَّا انْجَلَتْ غُرَّةُ الصَّبَاحِ، وانْقَضَتْ دَوْلَةُ المِصْباحِ، نَسِيَ همَّ الإفْلاسِ، وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الإبْلاسِ[4]، وَجَمَعَ حَزْمَهُ، وَأَيْقَظَ عَزْمَهُ، لِيَنْظُرَ كيفَ التَّدْبِيْرُ، في الخَلاصِ من هذا الخَطَرِ الكَبِيرِ، وَإذا ساعَدَتِ الأَقْدارُ جَرَى الفَلَكُ بالسَّعْدِ وَدَارَ، فَأَحْدَثَ لَهُ الفِكْرُ المُصِيْبُ، أنْ يَقْصِدَ شَخْصاً مِن بَنِي الخَصِيْبِ[5]، وكانَ بَيْنَهُما صَدَاقَةٌ مُؤَكَّدَةٌ، وَمَحَبَّةٌ مُوَطَّدَةٌ، فَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ، وَما تَجَرَّعَهُ مِن الغُصَصِ، فقالَ: لا تَخَفْ واطْلُبْ ما ثَقُلَ وَخَفَّ، فَهُوَ يُسْرِعُ إِلَى مُنْتَدَاكَ قَبْلَ إجابَةِ صَدَاكَ، فَقَالَ: أُرِيْدُ مِائةً مِنَ النُّضَارِ[6]، وَمَرْكَباً سَرِيْعَ الإحْضَارِ، وَمَلابِسَ يُفْتَخَرُ بِها وَيُزْدَانُ، وَاثْنَينِ مِن الوِلْدَانِ، وَالصَّبْرَ ما بَيْنَ الهِلالِ والهِلالِ، مِن غَيْرِ عَطَلٍ وَلا اعْتِلالٍ، ثُمَّ يَعُوْدُ الحقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَرْجِعُ إِلَى مَحَلِّهِ، فَأَعَارَهُ أُذُناً واعِيَةً، وأَجابَ داعِيَهُ، فَسَكَنَ رَوْعُهُ

---

(١) الوعْساء: الأرض اللينة ذات الرمل. اللسان (وعس).

(٢) تهادت المرأةُ: تمايلتْ في مشيتها من غير أن يماشيها أحد. والآرام: الظباء.

(٣) من مجزوء البحر الوافر.

(٤) الإبلاس: القنوط وقطع الرجاء. اللسان (بلس).

(٥) بنو الخصيب: ورد في الأنساب – في ثنايا الحديث عن الأشراف –: ومنهم عامر بن عمرو الخصيب، وإنما سمي الخصيب لسماحته. ومن بني الخصيب هانئ بن مسعود صاحب ذي قار، وأخوه قيس بن مسعود، وهانئ بن مسعود بن عامر بن الخصيب بن عمر بن أبي ربيعة ابن ذهل بن شيبان. انظر: الأنساب، للسمعاني ١٦٤/٢.

(٦) النُّضار: الخالص من كل شيء، والذهب. اللسان (نَضَر).

وَخَزْعَهُ[1]، وانْجلَى خَوْفُهُ وَفَزَعُهُ، وكانَ حَسَنَ الشَّبابِ، كَثِيْرَ المِزَاحِ والسِّبَابِ، فَتَجَمَّلَ وَتَزَيَّنَ، وامْتَطَى المَرْكَبَ المُزَيَّنَ، وَجَرَى حَوْلَهُ الوِلْدَانُ فَكَأَنَّهُ كانَ مِن بَنِي عَبْدِشَمْسٍ أَوْ بَنِي عَبْدِالمُدَانِ، وَقَصَدَ ذلكَ البَيْتَ، وَهُوَ في لَعَلَّ وَلَيْتَ، تَحْمِلُهُ الأَمَانِيُّ، وَيَسُوْقُهُ القَدَرُ الرَّبَّانِيُّ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ، فَقَالَ مَن فَتَحَ: مَنِ الطَّارِقُ، فَقَدْ أَمِنَ الطَّوارِقَ؟ وَمَا المُرادُ، فَقَدْ أَخْصَبَ المَرَادُ؟ فَقالَ: خَاطِبُ نَيْلٍ لا حاطِبُ لَيْلٍ، وَطالِبُ أَلْبَابٍ لا طارِقُ البَابِ. فقالُوا: بَيِّنِ الفَحْوَى، فَلَمْ تُفْهَمِ النَّجْوَى، وَأَوْضِحِ المَرَامَ يا ابْنَ الكِرامِ. فقَالَ: قدْ سَمِعْتُ بِأَصالَةِ هذَا البَيْتِ وَعَرَاقَتِهِ، وَتَأَطُّدِ عُرَى مَجْدِهِ وَوَثَاقَتِهِ، فَأَرَدتُ أَنْ أَجْعَلَ لي مِنهُ ظَهْراً، وَنَسباً وَصِهْراً، وَأنا – بِحَمْدِ اللهِ – عَرِيْقُ المَجْدِ، مُفَاخِرٌ بالأَبِ والجَدِّ، صَاحِبُ عَوَارِفَ وَمَعَارِفَ، وَتَالِدٍ مِنَ السَّعَادَةِ وَطارِفٍ، أُسْعِفُ وَأُسْعِدُ، وَأُدْنِي وَأُبْعِدُ، وَأَصِلُ وَأَقْطَعُ، وَأُعطِي وَأَمْنَعُ، فَأَصْبحُ فَخْرِي الأَنْوَرُ الأَسْطَعُ، وَلِي في المَعَالِي الشَّرَفُ العَالي وَفي المَفَاخِرِ النَّسَبُ الفَاخِر، وَلَسْتُ مِمَّنْ يُزَكِّي نَفْسَهُ، وَلا يَعْرِفُ نَوْعَهُ وَجِنْسَهُ، وَأنا وَالسُّؤْدَدُ صِنْوَانِ، وَمَا في الصَّحِيْفَةِ يُعْرَفُ مِنَ العُنْوَانِ، فَعِنْدَها فَهِمُوا الفَحْوَى، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى، وَقَالُوا: صِهرٌ كَرِيْمٌ، وَلَهُ التَّبجِيْلُ وَالتَّكْرِيْمُ، وَرَحَّبُوا وَأَهَّلُوا، وَمَا أَحْزَنُوا بَلْ أَسْهَلُوا، وَأَحْضَرُوا الشُّهُودَ، وَأُنجِزَتِ الوُعُودُ، وبُذِلَ النَّقْدُ، وَتَمَّ العَقْدُ، وانْصَرَفُوا فَرِحِيْنَ، وَقَالُوا: بِالرِّفَاءِ وَالبَنِيْنَ، وَأَبَى هُوَ أَنْ يَنْصَرِفَ، أَوْ يَمِيْلَ عَن قَصْدِهِ أَوْ يَنْحَرِفَ، وَآلَى أَلاَّ يَرِيْمَ، أَوْ يَظْفِرَ بِذلِكَ الرِّيْمِ، فَسَأَلُوهُ المُهْلَةَ، لِتَبْدُرَ الأَهِلَّةُ[2]، وَيَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ، فَصَمَّمَ عَلَى الامْتِنَاعِ، وَكَشَفَ عن شَدِيْدِ الرَّغْبَةِ القِناعَ، وَأمرَ بِنَصْبِ مَوائِدِ الوَلِيْمَةِ، وَبَذَلَ في ذلِكَ نَفَقَةً عَظِيْمَةً، وَحَضَرَ مِن السَّادَةِ الأَنْجَابِ مَن دُعِيَ فَأَجَابَ، وَنُصِرَ الأَمْرُ، وَاخْتَلَطَ اللِّبَأُ بالتَّمرِ[3]، وَأَصْبَحَ مَغْبُوطاً مَحْبُوراً، مَسْرُوراً مَجْبُوراً، يَحْمَدُ اللهَ عَلَى بُلُوْغِ الأُمْنِيَّةِ قَبْلَ هُجُومِ المَنِيَّةِ، وَأَخَذَ يُبْدِي مِن مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ وَحُسْنِ الخَلاقِ مَا يَفُوْتُ الأَوْصافَ، وَيُعْجِزُ الوَصَّافَ، وَصارَ أَهْلُ بيْتِهِ بِهِ يُغْبَطُوْنَ، وَبِإحْسانِهِ يَتَقَيَّدُوْنَ وَيَرْتَبِطُونَ، وَلَمْ يُتْرَكْ – وَهُوَ في تِلكَ المَسَالِكِ – سائِرٌ[4] وَسَالِكٌ، حتَّى قَارَبَ نَفَادُ النَّقْدِ وَاعْتِيَادُ الفَقْدِ، وَهُوَ لا يُشْعِرُ أَحَداً بِحالِهِ، ولا يُظْهِرُ عَلَى مُحالِهِ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ في المَعَاشِ، وَما يَكُوْنُ بِهِ الانْتِعَاشُ، سِيَّمَا وَقَدْ حَلَّ الأَجَلُ، فاسْتَغَاثَ باللهِ عزَّ

---

(1) خزَعَ عن أصحابه خزْعاً: كان معهم في مسير فتأخر عنهم، وخزع من فلان نال منه ووضع، وخزع الشيء قطعه، وخزع منه شيئاً: أخذه. وأراد هنا ما ناله وقطع منه الهم. اللسان (خزع).

(2) لتبدر: أي يصير الهلال بدراً عند منتصف الشهر. اللسان (بدر).

(3) اللِّبَأ: أول اللبن عند الولادة قبل أن يرقّ. اللسان (لبأ).

(4) في الأصل: سابر، ولا معنى له هنا، والصواب ما أثبته.

وَجلٌ، وَأَخَذَ / في التَّفْكِيْرِ وَالتَّدْبِيْرِ، فَلَمْ يَظْهَرْ لهُ قَبِيْلٌ وَلا دَبِيْرٌ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمَحَ في أسْفَلِ البَيتِ [٧/أ] لَوْحاً أحْمَرَ، مِن فائِقِ المَرْمَرِ، ولَهُ صُوْرَةٌ أَثِيْرَةٌ، يُساوي دَنَانِيْرَ كَثِيْرَةً، فَقَدَّرَ في نَفْسِهِ نَزْعَهُ مِن مَكَانِهِ، وَالمَعِيْشَةَ بِثَمَنِهِ بُرْهَةً مِن زَمَانِهِ، فَصَبَرَ إِلَى أنْ ذَهَبَ أَهْلُ البَيْتِ لِلحَمَّامِ، ولَمْ يَبْقَ وَاشٍ وَلا نَمَّامٌ، فَتَحَزَّمَ وَتَشَمَّرَ، وَاقْتَلَعَ ذلِكَ المَرْمَرَ، فَظَهَرَ تَحتَهُ بَلاطَةٌ فِيْهَا حَلَقَةٌ مِنَ الحَدِيْدِ، فَأَخَذَهُ التَّعَجُّبُ الشَّدِيْدُ، ثُمَّ احْتالَ في قَلْعِها، وَنَزْعِها وَخَلْعِها، فَظَهَرَ تَحْتَهَا سُلَّمٌ مِنَ الحَجَرِ، فَمَا تَقَنَّعَ بالكَسَلِ وَلا اعْتَجَرَ[١]، وَلا انْقَبَضَ وَلا انْحَجَرَ، بلْ أَوْقَدَ مِصبَاحاً، وَنَزَلَ وَقَدْ أَحَسَّ فَوزاً وَرَباحاً، وَإذا بِسَبْعَةِ أَزْيارٍ مِنَ النُّحَاسِ مَغْرُوْسَةٍ في ذلِكَ الأَسَاسِ، مَسْدُوْدَةِ الأَفْواهِ بِأسْوَدِ الرَّصاصِ، وَلَمْ يَظْهَرْ بِها ثُقْبٌ وَلا خَصَاصٌ[٢]، فَاحْتَالَ في فَتْحِ أَحدِهَا وَهُوَ عَلَى غايَةِ الرَّهَبِ، فَوَجَدَهُ مَمْلُوءاً بالذَّهَبِ، فَكادَ يَطِيْرُ فَرَحاً، وَازْدادَ نَشَاطاً وَمَرَحاً، وَأَخَذَ مِنْهُ ما أَرادَ، وَقَدْ أَعْشَبَ مِن سَعْدِهِ المَرَادُ، وَأَعادَ تِلكَ البَلاطَةَ إِلَى مَكَانِها وَبَالَغَ في إِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِها، وَسَوَّى عَلَيْها ذلِكَ المَرْمَرَ وَكَأَنَّ الإِفْلاسَ مَا خَطَرَ بِهِ وَلا مَرَّ، وَأَرْسَلَ إِلَى الحَمَّامِ فَوْقَ مَا جَرَتْ بِهِ العَوَائِدُ، مِنْ مُنَوَّعاتِ المَوَائِدِ، فَأَكَلُوا وَأَطعَمُوا، وَتَفَضَّلُوا وَأَنْعَمُوا، وَعَادُوا بِالبَسْطِ وَالانْشِراحِ، وَمَزِيدِ الأَفْراحِ، وَمِنَ الغَدِ اشْتَرَى لَهُ مَا يُلْبَسُ وَما يُرْكَبُ، وَلا عَدَلَ عَنْ عادَتِهِ في الكَرَمِ وَلا نَكِبَ، وَأَعَادَ مَا اسْتَعَارَ، وَغَسَلَ عَنْهُ دَرَنَ ذَلكَ العَارَ، وَصَارَ كُلَّ قَلِيْلٍ يَتَعَهَّدُ ذلِكَ المَعْهَدَ، وَيَتَسَلَّمُ ذلِكَ السُّلَّمَ، فَكَثُرَ مالُهُ، وَتَأَثَّلَ حَالُهُ، فَكَانَ لا يَصْفَرُ لَهُ وَطْبٌ[٣]، وَلا يَدْخُنُ عَلَى نارِهِ حَطَبٌ رَطْبٌ. شِعْرٌ[٤]:

إنَّ المَقَادِيْرَ إِذَا سَاعَدَتْ   أَلْحَقَتِ العَاجِزَ بِالحَازِمِ

وَدَامَ عَلَى ذلِكَ مُدَّةً مَدِيْدَةً، وَسِنِيْنَ عَدِيْدَةً، وَهُوَ يَتَأَمَّلُ وَيَتموَّلُ، وَيَنْتَقِلُ في الأَطْوَارِ النَّاجِحَةِ وَيَتَحَوَّلُ، وَاسْتَوْلَدَهَا عِدَّةً مِنَ الأَوْلادِ، وَأَوْسَعَهَا مِن الخَيْرَاتِ بالطَّارِفِ وَالتِّلادِ[٥]، ثُمَّ عَنَّ لَهُ

---

(١) اعتجر فلانٌ بالعمامة لفها عَلَى رأسه وردّ طرفها عَلَى وجهه. اللسان (عجر).

(٢) خَصاص: الخصاصة: الفرجة أو الخلل أو الخرق في باب أو غيره، والجمع خَصاص وخصائص. اللسان (خصص).

(٣) الوَطب: سقاء اللبن، وهو جلد الجذع فما فوقه، ويقال صفرتْ وطابه: مات أو قتل. اللسان (وطب).

(٤) من البحر السريع، وقد ورد البيت بلا نسبة في كتاب العباسي (معاهد التنصيص عَلَى شواهد التلخيص): ٥٣/١، وورد منسوباً إِلَى قابوس بن وشمكير في مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي. لأحمد قبش، دار الرشيد، دمشق، ط٣، ١٩٨٥م، ص ٣٧٦.

(٥) الطارف: الحديث المستفاد من المال ونحوه وهو خلاف التالد. والتلاد: المال الأصلي القديم. اللسان (طرف) و (تلد).

السَّفَرُ إِلَى الحِجَازِ، وَاستِعْمَالِ حَقِيْقَةِ العَزْمِ إِلَى ذلِكَ المَجَازِ، فَكَشَفَ لَها مَسْتُوْرَ أَمْرِه، وَقصَّ عَلَيْها خَبَرَ زَيْدٍ وَعَمْرِه، وَمَا حَصَلَ وَاتَّفقَ، وَكَيْفَ بَعْدَ الكَسادِ نَفَقَ[1]:

وَإذا السَّعْدُ لاحَظَ المَرْءَ يَوْماً فَلْيَنَمْ وَادِعاً وَلا يَخْشَ كَيْدَا
وَبِمَرِّ الدُّهُوْرِ يَزْدَادُ عِزّاً وَبِكَرِّ العُصُوْرِ يَكْسِبُ أَيْدَا

فَتَعَجَّبَتْ مِن هذَا الأَمْرِ العَجِيْبِ، وَأَخَذَتْ في التَّعْظِيْمِ لَهُ وَالتَّرْحِيْبِ، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ أَبِي أَسَّسَ هذِهِ الأَبْنِيَةَ، وَرَتَّبَ هذهِ الأَفْنِيَةَ، فَقُمْ بِنا إِلَى هُناكَ، لِنَرَى ما مَتَّعَكَ اللهُ بِهِ وَهَنَّاكَ، فَنَزَلَا إِلَى تِلْكَ الذَّخِيْرَةِ، وَقَدْ سَأَلا مِنَ اللهِ - عزَّ وَجَلَّ - صَلاحَ السَّرِيْرَةِ، وَفَتَحا مَا كانَ هُنَاكَ مِن الأَزْيَارِ، فإِذَا هِيَ مَمْلُوْءَةٌ مِنَ الذَّهَبِ الوَافِيْ العِيَارِ، وَوَجَدَ في بَعْضِهَا رُقْعَةً مَخْتُوْمَةً، تَدُلُّ عَلَى حِكْمَةٍ مَكْتُوْمَةٍ، فَفَتَحاهَا، فَإِذا هِيَ مُحْتَوِيَةٌ عَلَى عِدَّةِ تِلْكَ النُّقُوْدِ، وَفِيْها اسْمُ أَبِيْها المَفْقُوْدِ، فَتَزايَدَ الفَرَحُ، وَتَزَايَلَ التَّرَحُ، وَزَادَا ارْتِياحاً وَانْتِعاشاً، وَارْتَفَقَا بذلِكَ مُدَّةَ مَا عَاشَا، إِلَى أَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُما المَوْتُ، وَعَمَّهُمَا الفَقْدُ وَالفَوْتُ.

المَقامَةُ الثَّالِثَةُ:

رُوِيَ أَنَّهُ كانَ بِدَارِ السَّلامِ بَغْدَادَ، تَاجِرٌ لا يُحْصَرُ مالُهُ بِوَزْنٍ وَلاَ تَعْدَادٍ، وَكَانَ وَافِرَ النُّبْلِ، صائِبَ النَّبْلِ، سَدِيْدَ الحزْمِ، شَدِيْدَ العَزْمِ، صَادِقَ الوَعْدِ، قَوِيَّ السَّعْدِ، لَهُ حُرْمَةٌ وَوَجاهَةٌ، وَفِطْنَةٍ وَنَبَاهَةٍ، وَكَرَمٍ وَسَمَاحَةٍ، وَرَصَانَةٍ وَرَجَاحَةٍ، مَقْصُوْداً في المُهِمَّاتِ، مَرْجُوًّا في المُلِمَّاتِ، يَغْشَاهُ أُوْلُوْ الحَوائِجِ، فَيَرْجِعُوْنَ بِأَكْرَمِ النَّتائِجِ، كَأَنَّمَا أُفْرِغَ في قَالَبِ الكَمَالِ، وَكُسِيَتْ خِلالُهُ حُلَلَ الجَمَالِ، غَيْرَ أَنَّهُ / مُعَذَّبُ البالِ، زَائِدُ البَلْبَالِ، لِعَدَمِ الأَوْلادِ، مَعَ وُفُورِ الطَّارِفِ مِنَ المالِ وَالتِّلادِ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَتَخَيَّرُ المَغَارِسَ مِن بَنَاتِ الرُّوْمِ وَفارِس، وَيَتَوَصَّلُ إِلَى الأَصَائِلَ، بِمَحْمُوْدِ الخِلاَلِ وَالخَصائِلِ، إِلَى أَنْ عَلِقَتْ يَدُهُ بِعَظِيْمَةِ حَسَبٍ، وَكَرِيْمَةِ نَسَبٍ، فَقَدَّرَ عُلُوقَها، وَتَعاظَمَتْ لَدَيْهِ حُقُوقُها، فَنَذَرَ النُّذُوْرَ، إِلَى أَنْ مَضَتِ الأَيَّامُ وَالشُّهُوْرُ، فَأَتَتْ بِوَلَدٍ ذَكَرٍ، تَحِيْرُ في حُسْنِهِ الفِكَرُ، فَوَفَّى بِما نَذَرَ، وَلا تَعَلَّلَ وَلا اعْتَذَرَ، وَأَعْطَى وَوَهَبَ، وَجَمَعَ لِتَرْبِيَتِهِ الأُهَبَ، فَنَشَأَ الوَلَدُ نَشْأَةَ الدَّلالِ، مُتَفَيِّئاً مِن ظِلالِ أَبَوَيْهِ بِأَضْفَى الظِّلاَلِ، ثُمَّ لَمَّا تَرَشَّحَ لِلتَّعليمِ اخْتِيْرَ لَهُ خَبِيْرٌ عَلِيمٌ، لَبِيْبٌ عارِفٌ بِفُنُونِ المَعَارِفِ، قَيِّمٌ بِسَائِرِ العُلُومِ، مَلِيءٌ بِدَقَائِقِ المَنْطُوْقِ وَالمَفْهُوْمِ، فَسَلَّمَهُ إِلَيْهِ، وَعوَّلَ في تَخْرِيْجِهِ عَلَيْهِ، وَكانَ قَدْ نَشَأَ مَعَهُ جَارِيَةٌ في سِنِّهِ، مُشَارِكَةٌ لَهُ في فَنِّهِ، فَكَانَتْ فِيْمَا تُحَصِّلُهُ تُبَارِيْهِ، وَفِيْمَا تَسْبِقُ إِلَيْهِ تُجَارِيْهِ، فَنَشَأَتْ بَيْنَهُمَا مَحَبَّةٌ شَدِيْدَةٌ، وَمَوَدَّةٌ أَكِيْدَةٌ، وَكانَتْ قَدْ أَتْقَنَتْ آلاتِ السَّمَاعِ، وَمَلَكَتْ بذلِكَ القُلُوْبَ وَالأَسْمَاعَ، وَكانَ هُوَ يَتَلَقَّنُ مِنها، وَيَأْخُذُ الفُنُونَ

[٧/ب]

---

(١) من البحر الخفيف.

عَنْهَا، ثُمَّ لمْ يَلْبَثِ الأَبَوَانِ أنْ أجَابا الدَّاعِيَ، وَنَعَاهُمَا النَّاعِي، فَكَانَ ذلِكَ مِن مَبَادِيْ عَكْسِهِ، وَعَوَادِي نَكْسِهِ، فَأَخَذَ في سُوْءِ التَّدْبِيْرِ، وَلَمْ يَعْرِفِ القَبِيْلَ مِنَ الدَّبِيْرِ، وَصَرَفَ تلكَ النِّعَمَ في المَفَاسِدِ وَالنِّعَمِ، وَفَرَّقَ ذلكَ المالَ في مَفَاسِدِ الأَعْمَالِ، كمَا قالَ مَن قالَ[1]:

إنَّ الشَّبَابَ وَالفَرَاغَ وَالجِدَهْ

مَفْسَدَةٌ لِلمَرْءِ، أيُّ مَفْسَدَهْ!

فَما أَفَاقَ إلاَّ وَقَدْ نَفِدَ ما مَعَهُ في الإنْفَاقِ، وَما ارْعَوَى إلاَّ وَقَدْ ضَلَّ وَغَوَى، فَلَبِثَا مُدَّةً مَدِيْدَةً، وَسِنِيْنَ عَدِيْدَةً، يُكَابِدَانِ الفَقْرَ وَالفَاقَةَ، وَلا يَجِدَانِ مِن إغْمَائِهما إفَاقَةً، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمَا سَبَدٌ وَلا لَبَدٌ[2]، وَأَخْنَى عَلَى ذلك الَّذِيْ أَخْنَى عَلَى لُبَدٍ[3]. فَشَكَتِ الجَارِيَةُ إلَيْهِ سُوْءَ الحَالِ، وَكَيْفَ تَغَيَّرَ مَا كانَ فِيْهِ وَاستَحَالَ، وَقَالَتْ: أَرَى مِنَ الرَّأْيِ – وَإنْ شَقَّ، وَفي الضَّرُوْرَاتِ يُرْتَكَبُ الأَشَقُّ – أَنْ نَرْتَزِقَ بِالأَلْحانِ، وَنَخْدُمَ المُعْرِبَ واللَّحَّانَ، فَالثَّوْبُ يُلْبَسُ وَقَدْ رُقِعَ، وَكُلَّ الحِذَاءِ يَحْتَذِيْ الحَافِيْ الوَقِعُ[4]، وَلاَ بِدْعَ لِمَنْ نَأَى عَنْهُ سَعْدُهُ، وَتَسَاوَى قُرْبُهُ وَبُعْدُهُ، وَصَفِرَتْ وِطَابُهُ، وَعَسَتْ[5] رِطَابُهُ،

---

(١) لأبي العتاهية، من الرجز:

علمت يا مجَاشعَ بنَ مسعدَهْ

أنَّ الشَّبَابَ وَالفَرَاغَ وَالجِدَهْ

مَفْسَدَةٌ للمَرْءِ، أيُّ مَفْسَدَهْ

انظر: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق د. شكري فيصل، د.ط، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، ص ٤٤٨.

(٢) السَّبَد: ما يطلع من رؤوس النبات قبل أن ينتشر، والبقية من النبت والقليل من الشعر، ويقال: ما له سَبَد و لا لَبَد: ما له قليلٌ ولا كثير، أو ما له ذو وبر ولا صوف متلبد، يكنى بهما عن الإبل والغنم، والجمع أسْبَادٌ. انظر: مجمع الأمثال، للميداني ٣/٢٥٥.

(٣) لُبَدٌ: اسم آخر نسور لقمان بن عاد، سماه بذلك لأنه لَبِدَ فبقي لا يذهب ولا يموت كاللَّبِدِ من الرجال اللازم لرحله لا يفارقه، ولُبَدٌ ينصرف لأنه ليس بمعدول، وتزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها، فلما أُهلكوا خُيِّر لقمان بين بقاء سبع بَعْرات سُمْر من أظْبٍ عُفْر في جبل وَعْر لا يَمَسُّها القَطْرُ، أو بقاء سبعة أنْسُر كلما أُهلِكَ نَسرٌ خلَف بعده نسر، فاختار النُّسُور فكان آخر نسوره يسمى لُبَداً وقد ذكرته الشعراء، قال النابغة:

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا   أخنى عليها الَّذِيْ أخنى عَلَى لُبَدِ

انظر: اللسان (لبد).

(٤) كل الحذاء يحتذي الحافي الوقع: يقال وقع الرجل يوقع وقعاً إذا حفي منمره على الحجارة، قال الراجز:

يا ليت لي نعلين من جلد الضبعْ

وشركاً من ثفرٍ لا تنقطع

كل الحذاء يحتذي الحافي الوقع

نصب كل بيحتذي، يضرب عند الحاجة تحمل على التعلق بما يقدر عليه. انظر: مجمع الأمثال: ٢/١٣٦ – ١٣٧.

(٥) عَسَا النبات وغيره عَسَاءً وعُسُوّاً: غَلُظَ وَيبِس. اللسان (عسا).

أنْ يَحْتَرِفَ وَلَوْ في أدْنَى حِرْفَةٍ، ويستكين لصيال[١] الخُرْفَةِ، فَكَثيراً مَا سَفُلَ العَلِيُّ، وَأَفْلَسَ المَلِيُّ[٢]، وَلِلدَّهْرِ إدْبَارٌ وإقْبَالٌ، وللزُّهْرِ مُرُوجٌ وَآجْبَالٌ، والفَلَكُ يَدُورُ بالنُّحُوسِ وَالسُّعُودِ، وَالزُّهْرُ[٣] تَفْسُدُ بالهُبُوطِ وَالصُّعُودِ، وَلِكُلِّ فَتًى مِن زَمَانِهِ نَبْوَةٌ، وَلِكُلِّ جَوَادٍ في مَيْدَانِهِ كَبْوَةٌ[٤]، فَتَأَسَّ بِمَن خَانَهُ دَهْرُهُ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ قَهْرُهُ، وَلا تَكُنْ عَنِ الرَّجَاءِ بِاللأْهِ، وَلا تَيْأَسْ مِن رَوْحِ اللهِ، فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ، ثُمَّ أَخَذَ في الحَوْقَلَةِ وَالاسْتِرجَاعِ، وَقَالَ لَهَا: يا هذهِ، إنَّ المَوْتَ دُونَ هذا الرَّأْيِ القائِلِ، وَالفِكْرِ الجائِلِ، وَمُلاقَاةُ المَنَايَا خَيْرٌ مِن مُدَاناةِ الدَّنَايَا، وَمَتَى حُمِدَ لامْرَأَةٍ شَوْرٌ؟ أَوْ عُهِدَ لِسِباخٍ نَوْرٌ[٥]؟ فَكُفِّي غَرْبَ لِسانِكِ، وَانْسَخِي إِسَاءَتَكِ بِإِحْسَانِكِ، وَالْزَمِي السُّكُوتَ وَالسُّكُونَ، واللهُ أعْلَمُ بِما يَكُونُ، وَلاَ مَفَرَّ مِن قَدَرٍ، سَوَاءٌ كَثُرَ أَوْ نَزُرَ، وَالمَرْءُ مَا دامَ عَلَى ظَهْرِ البَسِيطَةِ، فَدَائرَةُ الأَقْدَارِ بهِ مُحِيطَةٌ، وَقَدْ تَعْمَلُ الخَرْقَاءُ بِيَدَيْها، وَتَجُوعُ الحُرَّةُ وَلاَ تَأْكُلُ ثَدْيَيْهَا[٦]، فَأَحْفَظَهَا مَقَالُهُ، وَأَغْضَبها وَخْدُهُ[٧] في المَلامِ وَإِرْقَالُهُ[٨]. وَقالَتْ: أَمَّا إذْ عَدَوْتَ عَنْ رَأْيِي وَحَدْسِي، وَمَا حَدَّثَتْنِي بِهِ نَفْسِي، فَخُذْ مَا هُوَ أعلى مِنْهُ وَأَسْنَى، وَإِنْ كانَ أَشَقَّ وَأَشْنَا[٩]. قَالَ: وَمَا هُوَ - فَدَتْكِ النَّفْسُ، وَكانَ يَوْمُكِ خَيْراً مِنَ الأَمْسِ؟ - فَقَالَتْ: تَبِيعُنِي بِأَغْلَى الأَثْمَانِ، وَتَرْتَفِقُ بذلِكَ مَدَى الأَزْمَانِ، وَأَكُونُ فِداكَ مِن الإِمْلاقْ، واللهُ يُقَدِّرُ التَّلاقْ، فَكَمْ مِن حَبِيبَيْنِ فَرَّقَ بَيْنَهُما البَيْنُ، وَأَلِيفَيْنِ أَصبحَا لِلْفِراقِ حَلِيفَيْنِ، وَهِيَ الأَيَّامُ لا يَبْقَى مَعَهَا اجْتِماعٌ، وَلا يَدُومُ فِيها لِنُورٍ الْتِماعٌ، وَلَسْنا بِأَوَّلِ مَن / مَزَّقَ شَمْلَهُ الفِرَاقُ، وَأَعْيَا طِبَّهُ أَلْفُ رَاقٍ، وَمَنْ عَرَفَ أَخْبَارَ بَنِي عُذْرَةَ[١٠]، أقامَ لِلْفِراقِ عُذْرَهُ، ثمَّ بَكَيَا وَأَبْكَيَا، وَآلَما القُلُوبَ بِما شَكَيَا. ثم قالَ لها سَيِّدُها: حَيْثُ اخْتَرْتِ النَّوَى، وَعَاصَيْتِ الهَوَى، وَوَطَّنْتِ النَّفْسَ عَلَى تَحَمُّلِ أَعْبَاءِ البَيْنِ، وَتَبَاعُدِ ما بَيْنَ القَلْبَيْنِ، فَإِنِّي مُبَادِرٌ إِلَى مَا اخْتَرْتِ، وَمُسَارِعٌ إِلَى مَا إِلَيْهِ أَشَرْتِ، وإنْ كانِ قَلْبِي يَقُولُ - وَهُوَ

[٨/أ]

---

(١) الصِّيال: المغالبة. والخرفة من الخَرَف وهو: فساد العقل من الكِبَر.

(٢) المليُّ: كثير المال.

(٣) الزُّهر: ثلاث ليالٍ من أول الشهر. وقد يراد بها: النجوم. اللسان (زهر).

(٤) لكل جوادٍ كبوة: مثل مشهور، ورد في جمهرة الأمثال في أكثر من موضع. وانظر: مجمع الأمثال ١٠٣/٣.

(٥) السِّباخ: جمع سَبْخة، وهي أرضٌ ذات ملحٍ ونزٍّ لا تكاد تنبت. والنَّور: الزهر الأبيض.

(٦) تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها: مَثَل، أي لا تكون ظئراً وإن آذاها الجوع. ويروى: ولا تأكل ثدييها. مجمع الأمثال ١٢٢/١.

(٧) وخْده: وخدَ البعير: أسرع ووسع الخطو ورمى بقوائمه كمشي النعام. اللسان (وخد).

(٨) إرقاله: أرقل في سيره: أسرع، وأرقل إِلَى كذا وأرقل فيه: جدّ وأسرع. اللسان (أرقل).

(٩) أشنا: شنأه شنئاً وشنآنا: أبغضه و تجنبه. اللسان (شنأ).

(١٠) يقال: هوًى عُذري: عفيف، نسبة إِلَى (بني عُذْرة) لاشتهارهم به. انظر شيئاً من أخبارهم في: العاشق العفيف، للدكتور / مسعد العطوي، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ٩-٤٩.

كالمَعْقُول –[1]:

فِـــرَاقُ الحَبِيْـــبِ أَشَـــدُّ الفِــــرَاقِ وَفِـي الطِّبِّ يَبْعُدُ عَنِ أَلْفِ رَاقِ
وَمَا حَـالُ مَنْ حَـلَّ أَرْضَ الحِجَـازِ وَمَحْبُوبُــهُ حَــلَّ أَرْضَ العِــرَاقِ
لَحَـــا اللهُ دَهْـــراً قَـــضَى بِـــالنَّوَى وَغَادَرَ قَلْبَ الشَّجِيْ فِي احْتِرَاقِ
فَمِـــن شَــوْقِهِ يَتَمَنَّـــى المُحَـــالَ وَقَـــدْ وَصَـلَتْ رُوْحُــهُ لِلتَّرَاقِــيْ
يَــــوَدُّ البُـــــرُوقَ تُجَارِيْــــهِ أَوْ يُـسَنَّى لَـــهُ مَرْكَــبٌ كَــالبُرَاقِ
وَمَهْمَـــا يُـــسَدِّدُهُ سَـــهْمَهُ فَسَهْمُ الفِرَاقِ لَهُ فِـي انْخِـرَاقِ

وَكانَ بَيْنَهُما قَمِيصٌ وَكِساءٌ، يَتَعَاوَرَانِهِ في الصَّبَاحِ وَالمَسَاءِ، فَأَلْبَسَها القَمِيْصَ، وَاسْتَعَارَ لَها رِداءً مِنَ الجَارِ، وَتَلَفَّعَ بِكِسائِهِ وَخَرَجَا مِنَ الوِجَارِ، فَلَمَّا بَلَغَ بِها سُوْقَ الرَّقِيْقِ، وَهُوَ وَهِيَ في بُكَاءٍ وَشَهِيْقٍ، صادَفَ رَجُلاً مِن أَشْرافِ البَصْرَةِ، قَدْ زَيَّنَ بِكَمَالِهِ عَصْرَهُ، وَجَمَّلَ بِخِلالِهِ مِصْرَهُ، وَقَدْ دَخَلَ إِلَى السُّوقِ مَعَ لُمَّةٍ مِن الأَعْيَانِ، لِمَشْرَى[2] مَا يَخْتارُهُ مِن القِيانِ، فَعِنْدَمَا شاهَدَ بَدِيْعَ مَعَانِيْها، وَأَعْرَبَ نُطْقُها عَنْ بَيانِ مَبَانِيْها، سَلَبَتْ لُبَّهُ، وَخَلَبَتْ قَلْبَهُ، وَهانَ عَلَيْهِ فِيها بَذْلُ الكَثِيْرِ، وَنَقْدُ الخطِيْرِ وَالأَثِيْرِ، فابْتَاعَهَا بِأَلْفَي دِيْنارٍ مِنَ الذَّهَبِ، غَيْرَ مَا مَنَحَ السَّمَاسِرَةَ وَوَهَبَ، فَعِنْدَمَا تَسَلَّمَ النَّقْدَ، وَتَحَقَّقَ الفَقْدَ، عَلِمَ مَنْ خَسِرَ وَمَن رَبِحَ، وَقَدْ مَاتَ مَا ذُبِحَ، فَخَرَجَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ، وَالأَسَفُ مُسْتَوْلٍ عَلَيْهِ، إِلَى أَنْ مَرَّ بِمَسْجِدٍ بِحافَّةِ دِجْلَةَ، وقَدْ أَجْلَبَ عَلَيْهِ الغَمُّ خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ، فدَخَلَ إِلَيْهِ مُسْتَرْوِحاً مِنَ الكَرْبِ، وهُوَ لا يَعْرِفُ[3] وَنَشَبَ فِيهِ العَكْسُ بِأَشْطَانِهِ، فَتَوَسَّدَ المالَ، وذلِكَ مِن جُمْلَةِ الإِهْمَالِ، فَعِنْدَمَا أَخَذَتْهُ السِّنَةُ، واسْتَحْلَى وَسَنَهُ، أَحَسَّ بِمَنْ يَسْحَبُ الكِيْسَ، فقَامَ وهوَ في غَمَرَاتِ التَّعْكِيْسِ، لِيَلْحَقَ السَّارِقَ، وهُوَ أَسْرَعُ مِنَ السَّهْمِ المَارِقِ، وَإِذَا بِرِجْلِهِ إِلَى وَتَدٍ هُناكَ مَرْبُوطَةٌ، رَبْطاً مُحْكَماً لا أُنْشُوْطَةً، فإِلَى أَنْ يَحُلَّ ذلكَ الرِّبَاطَ، ذَهَبَ السَّارِقُ وَلَمْ يَتَبَاطَ، فدَخَلَ علَيْهِ مَا لا يَحْمِلُهُ قَلْبٌ، وَلا يَقُوْمُ لَهُ لُبٌّ، وَهُوَ ذهَابُ النَّقْدِ، وَالحُصُوْلُ عَلَى الفُرْقَةِ وَالفَقْدِ، فاسْتَحْلَى المَوْتَ، واسْتَطْيَبَ الفَوْتَ، وَأَلْقَى نَفْسَهُ في ذلِكَ التَّيَّارِ، مِن جَوْرِ اللَّئِيمِ العَيَّارِ، وكانَ بِجَانِبِ الدِّجْلَةِ ناسٌ وُقُوْفٌ، فَأَلْقَوا أَنْفُسَهُمْ وَرَاءَهُ وَخَلَّصُوهُ مِنَ الحُتُوفِ، فَخَرَجَ في حَالَةِ الإِغْمَاءِ، وقَدْ امْتَلأَ جَوْفُهُ مِنَ المَاءِ، وَالنَّاسُ بَيْنَ ضَاحِكٍ مِنْهُ وَمُتَوَجِّعٍ، وَساخِرٍ وَمُسْتَرْجِعٍ، وَكانَ في ذلِكَ الجَمْعِ صَدِيْقٌ لأَبِيْهِ، يُشْفِقُ عَلَيْهِ وبِرَأْيِهِ

(1) كالمعقول: عقلَ الرجلَ: لوى رجلَه عَلَى رجله وأوقعه عَلَى الأرض، وعقل فلاناً عن حاجته: حبسه عنها، اللسان (عقل). والأبيات من البحر المتقارب.

(2) في الأصل: لمشتري.

(3) من خلال السياق الّذِيْ التزم المؤلف السير عليه وهو لزوم ما لا يلزم أظن أن هنا نقصاً.

يُرَبِّيْهِ، فَسَأَلَهُ عَنِ الحَالِ فَقَصَّ عَلَيْهِ ما إِلَيْهِ اسْتَحَالَ، فَتَأَلَّمَ لِبَلائِهِ، وَتَذَمَّمَ لِسُقُوطِهِ بَعْدَ اعْتِلائِهِ، وَوَاسَاهُ بِمَا حَضَرَ مِنَ النَّقْدِ، لِيَرُمَّ بِهِ بَعْضَ خَلَلِ ذلِكَ الفَقْدِ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالسَّفَرِ مِن ذلِكَ الإِقْلِيْمِ، لِئَلاَّ يُرَى بِصُوْرَةِ المَلِيْمِ، وَمُعَانَاةُ الأَسْفَارِ يُرْجَى مِنْها لِدُجَى الكَرْبِ الإِسْفَارُ[1]، وَلَعَلَّهُ يَرَى مَا يُسَلِّيْهِ مُصَابَهُ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ أَوْصَابَهُ، فَامْتَثَلَ أَمْرَهُ، وَخَالَفَ زَيْدَ رَأْيِهِ وَعَمْرَهُ، وَبَاعَ ذلِكَ الكِسَاءْ، وَاشْتَرَى له مِن الثِّيَابِ مَا سَتَرَ بَدَنَهُ وَكَسَا، وَقَوَّى عَزْمَهُ عَلَى السَّفَرِ إِلَى البَصْرَةِ، عَسَى أَنْ يَضَعَ بِها غِلَّ كَرْبِهِ وَإِصْرَهُ، فَتَوَجَّهَ إِلَى السِّيْفِ[2]، وَهُوَ فِي حَالَةِ العَسِيْفِ وَالأَسِيْفِ، وَقَدِ اسْتَسْلَمَ لِمَا تَقْضِيْ بِهِ الأَقْدَارُ، فَوَجَدَ مَرْكَباً كَبِيراً قَدْ تَهَيَّأَ للانْحِدارِ، فَسَأَلَ / مَن فِيهِ [٨/ب] الاسْتِرْفَاقَ، وأَنْ يَكُوْنَ فِيهِ مِن جُمْلَةِ الرِّفَاقِ، فقَالُوا: هُوَ لِرَجُلٍ مِن الكُبَرَاءِ، وَلَيْسَ لَنا فيهِ نَوْلٌ وَلا كِرَاءٌ، اللّهُمَّ إلاّ أَنْ تَبِيْعَ هذِهِ الثِّيَابَ المِلاحَ، وَتَلْبَسَ جُبَّةَ مَلاَّحٍ، لِتَكُوْنَ بَيْنَنا مُدْغَماً، فَفَعَلَ ذلِكَ مُرْغَماً، وَجَلَسَ بَيْنَهُمْ إِلَى أَنِ انْهَارَ عُمْرُ ذلِكَ النَّهارِ، وَإِذَا بِسِرْبٍ مِن الجَوَارِي، كَالْكَوَاكِبِ الدَّرَارِي، يَتَهَادَيْنَ فِي المُرُوْطِ والكِسَاءِ، تَهَادِيَ ظِبَاءِ الوَعْسَاءِ، فَطَلَعْنَ إِلَى السَّفِيْنَةِ بِوَقارٍ وَسَكِيْنَةٍ، وَمَعَهُنَّ جُمْلَةٌ مِن الخَدَمِ، فَمَا اسْتَقَرَّ بهِم القَدَمُ إلاّ وَقَدْ أَقْبَلَ ذلِكَ العَظِيْمُ، فِيْمَنْ هُو مُنْتَظِمٌ في سِلْكِهِ كالدُّرِّ النَّظِيمِ، فَأَخَذُوا مَقَاعِدَهُمْ، وَقَدْ أَسْعَفَهُمُ السَّعْدُ وَسَاعَدَهُمْ، فَتَأَمَّلَهُ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَهُوَ فِي التَّلَفُّفِ بِثِيابِ المِلاحِ وَالتَّزَمُّلِ، فَإِذَا هُوَ مُشْتَرِي المَحْبُوبَةِ، وَمُؤَجِّجُ النَّارِ المَشْبُوْبَةِ، فَخَفَقَ فُؤَادُهُ، وَتَزَايَدَ ارْتِعَاشُهُ وَارْتِعَادُهُ، فَسَأَلَهُ المَلاَّحُوْنَ عَمَّا عَرَاهُ، فَزَخْرَفَ لَهُم بِما مَوَّهَهُ وَوَرَّاهُ، وَتَماسَكَ وَتَحَمَّلَ، وَتَرَزَّنَ وَتَجَمَّلَ، ثُمَّ لَمَّا أَبْعَدَتِ السَّفِيْنَةُ عَنْ جُدُرِ المَدِيْنَةِ، أَمَرَ بِنَصْبِ سِتَارَةِ اللَّهْوِ وَالطَّرَبِ، وَامْتِحانِ الجَوَارِي، لِيَتَبَيَّنَ النَّبْعَ[3] مِنَ الغَرْبِ[4]، فَشَرَعْنَ في إِعْمَالِ الآلاتِ، وَهُنَّ كَالبَدْرِ في الهَالاَتِ، فَأَتَيْنَ بِكُلِّ غَرِيْبَةٍ وَغَرِيْبٍ، وَتَرَكْنَ القُلُوْبَ في حَالَةِ الأَسِيْرِ وَالجَرِيبِ، إِلَى أَنْ أَفْضَتِ النَّوْبَةُ إِلَى تِلْكَ المُنْتَظِمَةِ مَعَهُنَّ في السِّلْكِ، فَأَقْبَلَتْ وَدُمُوْعُها تَتَحَادَرُ، وَشُجُونُها تَكَادُ أَنْ تَبْرُزَ وَتَتَبادَرَ، لَوْلا الحَيَاءُ وَالجَزَعْ، وَالحَذَرُ مِمَّا يَقدعُ ويزَعْ، وَعِنْدَما شَدَتْ، وَأَعْمَلَتِ الآلَةَ وَأَنْشَدَتْ، لَمْ يَتَمالَكْ أَنْ صَرَخَ صَرْخَةً مُنْكَرَةً، وَأَتْبَعَها بِأُخْرَى مُذْعِرَةٍ، وَخَرَّ بِحالَةِ الإِغْمَاءِ، لا يَعْرِفُ الأَرْضَ مِنَ السَّماءِ، فَسَأَلَ أَكْبَرُ القَوْمِ

---

(١) في الأصل: والإسفار، ولا مكان لواوا العطف هنا.

(٢) السِّيف: الساحل.

(٣) في الأصل: ليتمين، وهو خطأ. والنبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسيّ، وهو قصير لا يطول. اللسان (نبع).

(٤) الغرْب: بتسكين الراء وفتحها الشجرة العظيمة تصنع منها الأقداح. اللسان (غرب).

عنْ ذلكَ، وقدِ ارْتَاعَ مَن هُنالكَ، فَورَّوْا عَنْهُ بِأنَّهُ مَصْرُوعٌ، يَعْتَادُهُ الصَّرَعُ كُلَّ أُسْبُوعٍ، ثُمَّ قَالُوا لَهُ: يا هذا، مَتَى أَبْدَيْتَ مِثْلَهُ، لَمْ تَأْمَنْ أنْ يُصَيِّرَكَ هذا الرَّئِيسُ مُثْلَةً، فَاعْتَذَرَ بِأنَّهُ اسْتَخَفَّهُ الطَّرَبُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ في ذلِكَ قَصْدٌ وَلا أَرَبٌ، ثُمَّ إنَّهمْ وَصَلُوا أطْرافَ جَزِيرَةٍ، وَاسِعَةٍ كَبِيرَةٍ، فَنَزَلُوا فِيها لِلاسْتِراحَةِ، وَطَلَبِ الرَّاحَةِ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ بِالمَرْكَبِ سِواهُ، لِغَرَضِ اسْتَخَفَّهُ وَاسْتَهْوَاهُ، وَإنَّهُ أَخَذَ عُوْدَ مَحْبُوبَتِهِ وَسَازَهُ[١]، وَغَيَّرَ صُدُوْرَهُ وَأعْجَازَهُ، بِلَحْنٍ انْفَرَدَ بِإحْكَامِهِ وَمَعْرِفَةِ أحْكَامِهِ، قَصَدَ بِذلِكَ إعْلامَهَا بِأنَّهُ مَعَها في المَرْكَبِ، وَلا نَكَبَ، وَعِنْدَما عَادُوا إلَى المَجَالِسِ، وَقَدْ أَمِنُوا عَادِيَةَ المُخَاتِلِ وَالمُوالِسِ[٢]، أَمَرَها السَّيِّدُ أنْ تَعُوْدَ إلَى الإنْشَادِ، وَتَكُوْنَ مِمَّنْ عَمَّرَ بُيُوْتَ الطَّرَبِ وَشَادَ، فَعِنْدَما جَسَّتِ العُوْدَ، أخَذَهَا مَا يَأْخُذُ المُرْتَعِشَ المَرْعُوْدَ، فَتَغَيَّرَ مِنْها الحَالُ، وَتَبَدَّلَ وَاسْتَحالَ، فَأنْكَرَ السَّيِّدُ مِنْهَا تِلْكَ الحَالَةَ، وَسَأَلَها: مَا الَّذِي أذْعَرَ قَلْبَها وَهَالَهُ؟ فَأخْبَرَتْهُ أنَّ سَيِّدَها في هؤلاءِ الجَمَاعَةِ، وَأنَّهُ غَيَّرَ سَازَ عُوْدِهَا في هذِهِ السَّاعَةِ، فَقَالَ السَّيِّدُ: يا هؤلاءِ، إنْ كانَ سَيِّدُ هذِهِ الجارِيَةِ مَعَنَا فَلْيُجِبِ المُنَادِيَ، وَيَحْضُرْ هذا النَّادِيْ، فَلَمْ يَنْطِقْ بِبِنْتِ شَفَةٍ، وَلا أَقَرَّ لَهُ أَحَدٌ بِمَعْرِفَةٍ، فَنَادَى الثَّانِيَةَ، وَنَفْسُهُ بالجَوَابِ عَانِيَةٌ، فَلَمَّا لمْ يَسْمَعْ جَوَاباً، وَلا خَطأً وَلا صَواباً، قالَ: أُقْسِمُ باللهِ لَئِنْ لَمْ يُجِبْنِي هذِهِ المَرَّةَ، لأُذِيقَنَّهُ حَيَاةً مُرَّةً، فَقَامَ بِكَلامِ بائِسٍ وَقَالَ: مَا الَّذِيْ دَعَاكَ مَعَنَا إلَى الرُّكُوبِ، وَلَيْسَ لَكَ حَلُوبَةٌ وَلا رَكُوبٌ؟ وَمَن أَحَلَّ لكَ هذا الحَرَمَ، وَأَوْقَفَكَ في هذا الضَّرَمِ[٣]؟ لَقَدْ أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ في بَلِيَّةٍ، إنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنها بِحُجَّةٍ جَلِيَّةٍ، فَبَادَرَهُ بِلَيِّنِ الكَلامِ، عسَى يُطْفِئُ عَنْهُ نارَ المَلامِ، وَقالَ لَهُ: لمَّا آنَسْتُ نارَ قُدْسِكَ، وَعَلِمْتُ بِحَدْسِي شَرَفَ نَوْعِكَ وَجِنْسِكَ، بِبُلُوغِ المُرَادِ، وَخِصْبِ المَرَادِ، وَلِمَ لا، وقدْ سَمَا جَدُّكَ، وَنَمَا مَجْدُكَ، وَكَرُمَ أَبُوكَ وَجَدُّكَ، فَلَكَ السَّهْمُ المُصِيبُ، ووُفُورُ النَّصِيبِ، وَالأمَلُ الفَائِزُ، وَالعَمَلُ الحَائِزُ، وَوَافِرُ الجَوَائِزِ، وَالقِدْحُ المُعَلَّى، وَالقَدَمُ الأعْلَى، حَيْثُمَا حَلَلْتَ فَالسَّعْدُ يَخْدُمُكَ، وَأَيْنَمَا نَزَلْتَ فَالنُّجْحُ يَقْدُمُكَ، لا زَالَتِ الأيَّامُ تُسَالِمُكَ، وَالشُّهُورُ وَالأعْوَامُ تُلائِمُكَ، وَالدُّهُورُ لا تَرَى مُضِرّاً وَلا مُضِيْراً، وَلا تَخْشَى مَغْزًى وَلا / مُغِيْراً، وَجَعَلَ اللهُ القَضَاءَ عَلَى أَعْدائِكَ حَبْساً حَصِيراً، وَكَانَ اللهُ لَكَ وَلِيّاً وَنَصِيراً، [٩/أ] فَعِنْدَها أَخَذَتْهُ هِزَّةٌ هَاشِمِيَّةٌ، وَأَرْيَحِيَّةٌ حَاتِمِيَّةٌ، وَتَهَلَّلَ مِنْهُ المُحَيَّا، وَرَحَّبَ وَحَيَّا: هَيَّا بِخَبَرِكَ هَيَّا[٤]. فَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ، وَما تَجَرَّعَهُ مِنَ الغُصَصِ، فَحَوْقَلَ وَاسْتَرْجَعَ، وَتَألَّمَ وَتَوَجَّعَ، وَقالَ

---

(١) السازُ: آلة موسيقية.

(٢) الموالس: المخادع والخائن.

(٣) الضرم: النار المشتعلة.

(٤) في الأصل: هما. وهو خطأ.

لِمَنْ حَضَرَ ذلِكَ الجَمْعَ: أُقْسِمُ بِمَنْ شَقَّ البَصَرَ وَالسَّمْعَ، إنَّ هذا لَمِنْ أعْجَبِ العَجَبِ، وَمِثْلُه لَمْ يَأْتِ في رَجَبِ![1] أُشْهِدُكُمْ عَلَى أنَّ هذِهِ الجَارِيَةَ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ تَعالَى، وَقَدْ جَعَلْتُهَا بِعَقْدِ الزَّوْجِيَّةِ لِسَيِّدِها حَلالاً. فَكُلٌّ شَكَرَ حَمِيدَ فِعَالِهِ وَأَثْنَى، وَأَقَرَّ أنَّهُ مُنْفَرِدٌ بِخِلالِ الكَرَمِ وَلا اسْتَثْنَى، وَقالَ: قَدْ رَضِيتُ مِنْكُمَا بِالسَّمَاعِ وَالجُلُوسِ مَعَنَا وَالاجْتِمَاعِ. فَاطْمَأَنَّتْ مِنْهُمَا النُّفُوسُ، وَأَقْبَلَ البِشْرُ وَأَدْبَرَ العُبُوسُ، وَجَلَسا بَيْنَ يَدَيْهِ يُسْمِعانِهِ مَا يَقْتَرِحُهُ مِنَ الأنْغَامِ، وَيَعْتَرِفانِ لَهُ بِجَزِيلِ الإنْعَامِ. هذا، وَاللَّيْلُ زِنْجِيُّ الإهَابِ[2]، يَغْرُبُ فيهِ شِهابٌ وَيُشْرِقُ شِهابٌ، فَوَصَلُوا إِلَى جَزِيْرَةٍ أكْبَرَ مِنَ الأولَى، فَنَزَلُوا فِيْها وَنَزَلَ مَعَهُمْ وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ سُلْطَانُ السُّكْرِ وَاسْتَوْلى، وَلمَّا عادُوْا إِلَى المَرْكَبِ عَرَّجَ عَنْ طَرِيْقِهِمْ بِسُكْرِهِ وَنَكَبَ، وَفي الصَّباحِ تَفَقَّدُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَعَظُمَ عَلَيْهِمُ المُصابُ، وَعَدُّوهُ مِن جَلِيلِ الأوْصابِ، وَأَمَّا الجارِيَةُ، فَلا زالَتْ دُمُوْعُها جارِيَةً، وقدْ لَبِسَتِ الأحْزَانَ ثَوْباً، وَآبَتْ إِلَى الأشْجَانِ أوْباً، وَأمَّا هُوَ فَمَا أفَاقَ مِن سُكْرِهِ إلاَّ بِحَرِّ الظَّهِيْرَةِ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ مُلْقًى في الجَزِيْرَةِ، فَازْدَادَ غَمُّهُ وَحُزْنُهُ، وَتَقَلَّعَ عَنْهُ غَيْمُ السُّرُورِ وَمُزْنُهُ، وَرَجَعَ إِلَى فَقْدِ الإلْفِ وَالرَّفِيقِ، وقَدْ حُرِمَ التَّوْفِيْقَ، وَالمِحنَةُ ما دامَتْ فَجَّةً، لا يُوْجَدُ مِنْها فُرْجَةٌ، فَعَقَدَ مَعَ اللهِ التَّوْبَةَ، وَسَأَلَهُ في حُسْنِ الأوْبَةِ، فَبَيْنَما هُوَ مُسْتَسْلِمٌ لِلأقْدارِ، وَإذا بِمَرْكَبٍ أقْبَلَ بالانْحِدارِ، فَأَوْمَأَ إِلَى مَنْ فيهِ فَأَقْبَلُوا، وَسَأَلَهُمُ الرُّكُوْبَ مَعَهُمْ فَقَبِلُوا، وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى البَصْرَةِ، لمْ يَجِدْ بِها مَن يَضَعُ عَنْهُ إصْرَهُ، وَهُوَ عَلَى غَايَةٍ مِن الفَاقَةِ، لا يَجِدُ مِنَ الكَرْبِ إفَاقَةً، فَأَخَذَ يَتَخَلَّلُ مَحَالَّها وَدُوْرَها، وَيَتَأَمَّلُ بُيُوتَهَا وَقُصُوْرَها، وَإِذا بِرَجُلٍ وَسِيمٍ، ذِي قَدْرٍ نَبِيلٍ وَفَضْلٍ جَسِيْمٍ، وَهُوَ جالِسٌ عَلَى بابِ دَارِهِ، وَوَجَاهَتُهُ تَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنِهِ واقْتِدارِهِ، فاستَحْيَا أنْ يَتَلَطَّفَ لَهُ بِطَلَبِ جَدَا[3]، وَيُشَافِهَهُ بِاسْتِجْدا، وَرَامَ وُجُوْدَ دَوَاةٍ وَقَلَمٍ، لِيَكْتُبَ شَكْوَى مَا بِهِ أَلَمَّ، فَبَيْنَما هُوَ في ارْتِيادِ ذلِكَ، إذْ بَصُرَ بِحَانُوتِ بَقَّالٍ هُنالِكَ، وَصَاحِبُهُ شَيْخٌ ضَخْمُ العَبَلاتِ[4]، رَائِعُ السَّبَلاتِ[5]، فَأَقْبَلَ نَحْوَهُ وَسَلَّمَ، وَبِحاجَتِهِ إِلَى دَوَاةٍ تَكَلَّمَ، فقالَ: أَوَ تُحْسِنُ الكِتابَةَ؟ قالَ: نَعَمْ - وَمَنْ يَقْبَلُ المَثَابَةَ -، قالَ: فَإِنِّي أكْفِيْكَ إرَاقَةَ مَاءِ المُحَيَّا، بِما يَتَحَصَّلُ لكَ مِنِّي وَيَتَهَيَّأُ،

---

(١) هذا مثل، يقال: العجب كل العجب بين جمادى ورجب. انظر قصته في مجمع الأمثال ٢/٣٥٤.

(٢) الإهابُ: الجِلْد من البَقَر والغنم والوحش ما لم يُدْبَغ. (اللسان: أهب).

(٣) جَدا: عطاء.

(٤) العبلات: عَبُلَ، بالضم: غَلُظَ وابيضّ، وأصله في الذراعين، والجمع عبلات. اللسان (عبل).

(٥) السَّبلات: قيل: السبلة ما على الشارب من الشعر، وقيل: مجمع الشاربين، وقيل: هو ما على الذقن من طرف اللحية، وقيل: السبلة ما على الشفة العليا من الشعر. فيقال: هذا ذو سبلات. اللسان (سبل).

بِأَنْ تَكْتُبَ لِيْ مُشْتَرَى هذَا الحَانُوْتِ وَمَبِيْعَهُ، وَتَضْبِطَهُ جَمِيْعَهُ، وَلَكَ كُلَّ يوْمٍ مِنَ الدَّرَاهِمِ خَمْسَةٌ، وَلا تَشْكُوْتَعَبَ الإِنْفَاقِ وَلا مَسَّهُ، وَإِذَا رَأَيْتُ مِنْكَ حُنُوّاً وَعَطْفاً، ازْدَدتَ مِنِّي بِرّاً وَلُطْفاً. فَقَبِلَ مِنْهُ ما قَالَ، وَشَكَرَ مِنْهُ المقَالَ، ثُمَّ إِنَّهُ رَفَعَ لَهُ حِسَابَ شَهْرٍ، فَأَخَذَهُ العَجَبُ وَالبُهْرُ، وَشَكَرَ أَمَانَتَهُ، وَمَدحَ حِفْظَهُ مَالَهُ وَصِيانَتَهُ، وَقَالَ: عِنْدِي بِنْتٌ هِيَ رَيْحَانَةُ أُنسِي، وَجَمالُ قَنْسِي، وَهِي لَدَيَّ عَزِيْزَةٌ كَرِيْمَةٌ، وَأَنَا أُقَدِّمُها لَكَ خَدِيْمَةً. فَعَقَدَ لَهُ عَلَيهَا العَقْدَ، وَأَدَّى عَنْهُ النَّقْدَ، وَعَمِلَ الوَلائِمَ، وَلَمْ يَقْبَلْ فيهِ لَوْمَ لائِمٍ، ثُمَّ لمَّا انْقَضَى الزِّفَافُ، وَتَمَّ الإِعْفَافُ، سَلَّمَهُ مَا لَدَيْهِ مِنَ التُّرَاثِ، وَمَا تَأَثَّلَهُ بِالكَسْبِ والاحْتِرافِ، وَصَارَ هُوَ المتَصَرِّفَ في الأَهْلِ وَالأَوْلادِ، وَالمُتَحَكِّمَ في الطَّارِفِ والتِّلادِ، هذَا، وَهوَ مَشْغُولُ البَالِ، زَائِدُ البَلْبَالِ، لا يَهْنَاهُ عَيْشٌ، وَلا يَسْكُنُ لهُ طَيْشٌ، باكِيْ العَيْنِ، شَاكِيْ البَيْنِ، لا يَعْرِفُ خَبَراً لِمَحبُوْبَتِهِ، وَلا أثراً لِمَرغُوْبَتِهِ، والمِصْرُ واسِعُ الأَرْجَاءِ، وَاللِّقَاءُ بَعِيْدُ الرَّجَاءِ، فَهُوَ مُسْبَلُ العَبَرَاتِ، دَائِمُ الحَسَرَاتِ، [وَإِنْ] سُئِلَ عَن ذلِكَ يَنْسُبُهُ إِلَى مَحَبَّةِ الوَطَنِ وَالتَّشَوُّفِ لِلْعَطَنْ، وَلَيْسَ لَهُ دَلِيْلٌ عَلَى الحِبِّ وَلا مُرْشِدٌ، / فَهُوَ لا يَزَالُ يَنْشُدُ، وَيُنْشِدُ هذِهِ [٩/ب] المَقَالَةَ في هذِهِ الحَالَةِ[1]:

هَلْ لِيْ إِلَى المُلْتَقَى طَرِيقُ	فَالقَلْبُ أُودَى بِهِ الحَرِيْقُ
يَشْكُوْ أُوَاماً وَحَرَّ شَوْقٍ	وَهْوَ بِبَحْرِ الهَوَى غَرِيْقُ
أَفْرَدَهُ الدَّهرُ عَن هَوَاهُ	فَلا رَفِيْقٌ وَلا فَرِيْقُ
وَاهاً لِعَصْرٍ لَهُ تَقَضَّى	لِنَجْمِ إِسْعَادِهِ بَرِيْقُ
وَشَمْلُهُ رَوْضُهُ نَضِيْرٌ	وَغُصْنُ أَفْرَاحِهِ وَرِيْقُ
وَالوَصْلُ دَوْماً لَهُ غَدَاءٌ	وَنُقْلُهُ قُبْلَةٌ وَرِيْقُ
وَاليَوْمَ أَضْحَى حَلِيْفَ حُزْنٍ	وَبِالَّذِيْ نَابَهُ شَرِيْقُ
وَالدَّهْرُ فِي جَوْرِهِ أَصِيلٌ	وَفِي اجْتِلابِ الأَسَى عَرِيْقُ

وَلَمْ يَزَلْ يُكَابِدُ الغَرَامَ، وَيُقَاسِي لَوْعَةَ الاضْطِرامِ، لا يَرَى مُخْبِراً، وَلا يَسْمَعُ خَبَراً، إِلَى أَنْ خَرَجَ في بَعْضِ الأَيَّامِ، فَرَأَى النَّاسَ يَمُوْجُوْنَ، وَإِلَى جانِبِ البَحْرِ يَعُوجُونَ، فَسَأَلَ عَنِ الدَّاعِي إِلَى تلكَ المَسَاعِي، فَأُخْبِرَ أَنَّ هذا يَوْمُ عِيدِ النَّصارَى، يُسَمَّى الشَّعَانِيْنَ، يَبْرُزُوْنَ فِيْهِ بِضُرُوبٍ مِنَ اللَّهْوِ وَأَفَانِيْنَ، والنَّاسُ يَخْرُجُونَ لِلْفُرْجَةِ عَلَيْهِمْ، وَيَبْتَهِجُونَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِمْ، وَيَرْكَبُوْنَ ثَبَجَ البَحْرِ، وَيَجْتَمِعُونَ لَهُ وَلا الاجْتِمَاعِ في عِيدِ النَّحْرِ، فَدَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى المُرَافَقَةِ، والمُعَاشَرَةِ وَالموافَقَةِ، فَخَرَجَ في لُمَّةٍ مِنَ الشَّبابِ، وَرَكِبُوا في زَوْرَقٍ يَشُقُّ ذلِكَ العُبَابَ، فَبَيْنَما هُوَ في المُسَايَرَةِ، وَفِكْرَتُهُ بِما هِيَ مَشْغُولَةٌ بِهِ حائِرَةٌ، إِذْ نَظَرَ إِلَى ذلِكَ المَرْكَبِ، الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ وَضَلَّ عَنْهُ، فَكَادَ

(١) من مخلع البحر البسيط.

يَطِيْرُ قَلْبُهُ فَرَحاً، وَيَطِيْشُ لُبُّهُ مَرَحاً، وَأَمَرَ المَلَّاحَ بالإسْرَاعِ إِلَى اللُّحُوقِ بِصَاحِبَةِ ذلِكَ الشِّرَاعِ، فَعِنْدَمَا تَعَارَفَتِ الوُجُوهُ، أَيْقَنَ بِحُصُوْلِ مَا يَرْجُوْهُ، وَأَسْرَعَ أولئكَ إِلَى مُلَاقَاتِهِ فَرِحِيْنَ، وَأَوْصَلُوهُ إِلَى سَيِّدِهِمْ في الحِيْنِ، فَسُرَّ بِسَلَامَتِهِ، وَأَخَذَ في تَقْرِيْعِهِ وَمَلَامَتِهِ، واعْتَذَرَ وَتَنَصَّلَ، وَلا شَرَحَ حَالَهُ وَلا فَصَّلَ، وَأُخْبِرَ أَنَّ مَحْبُوْبَتَهُ مُنذُ دَخَلَتِ المَدِيْنَةَ، باكِيَةٌ حَزِيْنَةٌ، وقدْ بَنَتْ قَبْراً في جَانِبِ البَيْتِ، لِتَتَخَيَّلَ أَنَّ بِهِ ذلِكَ المَيْتَ، وَاتَّخَذَتْ لِبْسَ السَّوَادِ شِعَاراً، وَلَمْ يَلُحْ في خَاطِرِهَا لِسَلَامَتِهِ استِشْعَاراً، [فَـ][1]أَعْرَضَ عنْ تلكَ النُّزْهَةِ، وَوَجَّهَ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى البَيْتِ الوُجْهَةَ، وقالَ: إِدْخَالِي عَلَيْهَا هذِهِ البُشْرَى أَوْلَى مِنَ التَّفَرُّجِ وَأَحْرَى، ثمَّ لمَّا وَرَدَ عَلَيْهَا البَشِيْرُ بِتِلْكَ التَّبَاشِيْرِ، غَشِيَهَا مِنَ الإغْمَاءِ مَا ظَنَّ أَنَّهُ المَوْتُ، وَخَشِيَ عَلَيْهَا الفَوْتَ، إِلَى أنْ مَنَّ اللهُ بالتَّلاقِي، وَكَادَتْ تَبْلُغُ الرُّوحُ التَّرَاقِي، وَخَرِبَ ذلِكَ القَبْرُ وَطُمِسَ، حِيْنَ وافى مَن ظُنَّ أَنَّهُ رُمِسَ[2]، ثُمَّ وَفَى لَهُمَا السَّيِّدُ بِمَا وَعَدَ، وَلَمْ يُؤَخِّرْ عَنْهُمَا خَيْراً اقْتَرَبَ أَوِ ابْتَعَدَ، وَعَمِلَ لَهُمَا عُرْساً عَظِيْمَ الوَلَائِمِ، بِكُلِّ مَا يُنَاسِبُ وَيُلَائِمُ، وَقَرَّتِ العَيْنُ بانْقِضَاءِ أَيَّامِ البَيْنِ، وَصَارَ يَتَرَدَّدُ إِلَى تِلْكَ الجِهَةِ الأُخْرَى بِمَا هُوَ الأَلْيَقُ وَالأَحْرَى، إِلَى أنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الحِمَامُ، وَبَلَغَ الأَجَلُ المَحْتُومُ التَّمَامَ.

المَقَامَةُ الرَّابِعَةُ:

حُكِيَ أَنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِن تُجَّارِ البَصْرَةِ، قدْ وَضَعَ الزَّمَانُ عَنْهُ إِصْرَه، وَسَاعَدَتْهُ الأَقْدَارُ، وَصَفَا لَهُ الوَقْتُ مِنَ الأَكْدَارِ، وإِذَا دَارَ الفَلَكُ بِالسُّعُودِ يَخْضَرُّ يَابِسُ العُوْدِ، وَيُنْتِجُ العَقِيْمُ، وَيَعْتَدِلُ المُعْوَجُّ وَيَسْتَقِيْمُ، وَيَعْذُبُ الأُجَاجُ، وَيَنْقَلِبُ المُرُّ إِلَى المُجَاجِ[3]، وَتَعُوْدُ الصَّرْصَرُ رُخَاءً، وَتَرْجِعُ العَدَاوَةُ مَوَدَّةً وَإِخَاءً. وَكَانَ لهُ وَلَدٌ لا كَالأَوْلادِ، يُفْدَى بِكُلِّ طارِفٍ وَتِلادٍ، نَشَأَ نشأَةً حَسَنَةً، وَمَنْ يَراهُ يَقُوْلُ: ما أَحْسَنَهُ! لا يُخَالِطُ وَلا يُعَاشِرُ، وَلا يُمازِحُ وَلا يُكَاشِرُ، بلْ هُوَ في حِجْرِ أَبِيْهِ، يُحْسِنُ أَخْلاقَهُ وَيُرَبِّيْهِ، / فَقُدِّرَ أَنْ وَرَدَ مَرْكَبٌ مِنَ الهِنْدِ مَشْحُوْنٌ بِالبَضَائِعِ المَطْلُوْبَةِ، وَالنَّفَائِسِ المَجْلُوْبَةِ، وَاجتَمَعَ الوَلَدُ بِبَعْضِ مَنْ قَدِمَ مِن ذلِكَ الإِقْلِيْمِ وَكَانَ بِأَخْبَارِهِ أَيَّ عَلِيْمٍ، فَحَكَى لَهُ مِن عَجَائِبِهِ، وَنَوَادِرِهِ وَغَرَائِبِهِ، مَا أَحْدَثَ عِنْدَهُ شَوْقاً إِلَى العِيَانِ، وَالازْدِيَادِ مِنَ التِّبْيَانِ، فَأَتَى الدَّارَ وَهُوَ مُشَوَّشُ البَالِ، زائِدُ البَلْبَالِ، لا يَأْخُذُهُ هُدُوءٌ وَلا قَرَارٌ، بلْ هُوَ في غَايَةِ الاضْطِرابِ والاضْطِرَارِ، فَسُئِلَ عمَّا أَحْرَجَهُ، وَعَنْ اعْتِدالِ مِزَاجِهِ أَخْرَجَهُ، فَأَخْبَرَهُمْ بِصُوْرَةِ الحالِ، وَمَا مَالَ إِلَيْهِ خَاطِرُهُ [١٠/أ]

---

(١) زيادة الفاء هنا يقتضيها السياق.

(٢) رُمِس: رَمسَ الميت رمساً: دفنه وسوّى عليه الأرض، ورمس الشيء: طمس أثره.

(٣) المُجاج: العسل. اللسان (مجج).

واستَحَالَ، وَأَنّهُ يُحِبُّ السَّفَرَ إِلَى تِلْكَ البَنَادِرِ، لِيُشَاهِدَ ما فِيْهَا مِنَ النَّوَادِرِ، فَقَالَ لهُ أَبُوْهُ: يا بُنَيَّ، إنَّ السَّفَرَ إِلَى الأَقْطارِ مَظِنَّةُ الأَخْطَارِ، وَمُفَارَقَةُ الأَوْكَارِ مُشَوِّشَةُ الأَفْكَارِ، وَمُبَايَنَةُ الأَوْطَانِ تَجُذُّ مِنَ الرَّفَاهِيَةِ الأَشْطَانَ، وَمَا يَتَكَلَّفُ الأَسْفَارَ إِلاَّ مَن آبَى صُبْحُ سَعَادَتِهِ الإِسْفَارَ، وَلا يَتَحَمَّلُ المَشَاقَّ إِلاَّ مَن تَحْصِيْلُ المالِ عَلَيْهِ شَاقٌّ، وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللهِ – تَعالَى – وَافِرُ المَالِ، زائِدُ الجَمَالِ، لا يُعْوِزُكَ نَقْدٌ، وَلا يُلِمُّ بِكَ مِنْهُ فَقْدٌ، فعلامَ إِتْعَابُ نَفْسِكَ، وَمُفَارَقَةُ أُنْسِكَ وَقَنَسِكَ؟ أَلاَ تُدْرِكُكَ عَلَى أَبَوَيْكَ رَأْفَةٌ؟ أَلاَ تَعْطِفُكَ عَلَى مُفَارَقَتِهِما رَحْمَةٌ وَعَطْفَةٌ؟ وَالدَّهْرُ خَوَّانٌ، وَلا يُسَافِرُ مَعَكَ أَخْدَانٌ وَلا إِخْوَانٌ، فَمَا تَدْرِي مَا تُحْدِثُهُ الأَقْدَارُ، وَلا مَا تَسُوْقُهُ الأَكْدَارُ، وَالاجْتِمَاعُ بِالأَهْلِ غَنِيْمَةٌ بَارِدَةٌ، وَنِعْمَةٌ شَارِدَةٌ، مَا لَم تُقَيَّدْ بِالسُّكُونِ، وَالعُدُولِ إِلَى الإِقَامَةِ وَالرُّكُونِ، فَأَعْرِضْ عَمَّا أَهَمَّكَ، وَارْحَمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، فَلَقَدْ وَعَظْتُ وَنَصَحْتُ، وَبَيَّنْتُ وَأَوْضَحْتُ، وَاللهُ يُوَفِّقُكَ لِلرَّشَادِ، وَيَجْعَلُكَ مِمَّنْ عَمَّرَ رَبْعَ البِرِّ وَشَادَ. فَكَأَنَّ هذِهِ الكلِمَاتِ لمْ تَنْقُرْ صِمَاخَهُ نَقْراً، وَكَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً، فَعِنْدَمَا أَيِسَ مِن إِصْغَائِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لا يَحُوْلُ عَنِ ابْتِغَائِهِ، أَوْجَبَ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ الإِجَابَةَ، وجَعَلَ غَمَائِمَ التَّعْوِيْقِ عَنْهُ مُنْجَابَةً، وَفَلَذَ لَهُ فِلْذَةً مِنَ المَالِ، وَلا عَدَلَ عَنْ غَرَضِهِ وَلا مَالَ، وَأَوْسَقَ[1] لهُ مَرْكَباً بِنَفِيْسِ مَا يُجلَبُ، وَيُرْغَبُ فيهِ وَيُطلَبُ، وَجَهَّزَ مَعَهُ مِنَ الخَدَمِ وَالغِلْمَانِ، مَن هُوَ مِنْ خِيَانَتِهِ فِي أَمَانٍ، وَشَيَّعَاهُ وَوَدَّعَاهُ[2]، وَلَمَوْلاهُمَا أَوْدَعَاهُ، وَرَجَعَا بَاكِيَيْنِ، وَمِن أَلَمِ الفِرَاقِ شَاكِيَيْنِ، يَسْأَلانِ اللهَ لَهُ تَعْجِيْلَ الإِيَابِ، خَلِيًّا مِنَ العُيُوْبِ، مَمْلُوْءَ العِيَابِ، وَسَافَرَ هُوَ وَلَمْ يَتَمَهَّلْ، وَلا رَحَّبَ بِنَصِيْحَةِ أَبِيْهِ وَلا أَهَّلَ، وَكَانَ مِنْ قَدَرِ اللهِ المَحْتُوْمِ، وَسِرِّ غَيْبِهِ المَكْتُوْمِ، أَنْ هَبَّتْ عَلَيْهِمْ رِيَاحٌ عَوَاصِفُ، لاَ يَقْدِرُ عَلَى وَصْفِهَا وَاصِفٌ، فَأَلْجَأَتْهُمْ إِلَى جَبَلِ المغْنَاطِيْسِ قَهْراً، وَقَدْ أُوْسِعُوا ذُعْراً وَبَهَراً، فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ تَفَرَّقَتْ أَلْوَاحُ المَرْكَبِ بِجَذْبِ المغْنَاطِيْسِ لِلْحَدِيْدِ، وَغَرِقَ مَا فِيهَا مِن أَحْرَارٍ وَعَبِيْدٍ، وَخَرَجَ هوَ عَلَى لَوْحٍ مِن تِلْكَ الأَلْوَاحِ، فَسَاقَتْهُ إِلَى جَانِبِ الجَبَلِ تِلْكَ الأَرْيَاحُ، [و][3] بِأَعْلَى الجَبَلَ جَمَاعَةٌ يَنْظُرُونَ مَا اتَّفَقَ، وَكُلُّهُمْ رَأَفَ عَلَيْهِ وَأَشْفَقَ، فَأَرْخَوا إِلَيْهِ زَنْبِيلاً كَبِيراً فِي حِبَالٍ عَدِيْدَةٍ، وَأَشَارُوا إِلَيْهِ بِالجُلُوْسِ فِيهِ لِلْخَلاصِ مِن هذِهِ الشِّدَّةِ الشَّدِيْدَةِ، فَعِنْدَمَا جَلَسَ فِيْهِ رَفَعُوْهُ إِلَى أَعْلَى الجَبَلِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الذُّهْلِ مَا يُقَارِبُ الهَبَلَ، فَتَلَطَّفُوا بِهِ إِلَى أَنْ سَكَنَ رَوْعُهُ وَاطْمَأَنَّ به رُوْعُهُ[4]، وَهُوَ لا يَعْرِفُ

---

(١) أوسَقَت النخلة: كثر حملُها، وأوسق البعيرَ: حمّله حملَه.

(٢) في الأصل: ووعاه. وهو خطأ.

(٣) في الأصل: فساقته بأعلى الجبل، تكررت "فساقته" سهواً، وزيادة الواو يقتضيها السياق.

(٤) الرُّوع: القلب والذهن والعقل.

لِسَانَهُمْ، وَإِنَّمَا يَفْهَمُ إِحْسَانَهُمْ، وَكَانَ مِن جُمْلَةِ اللُّطْفِ بِهِ أَنْ لَحِقَهُمْ شَيْخٌ مَلِيْحُ الشَّيْبَةِ، وَافِرُ الهَيْبَةِ، فَكَلَّمَهُ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ، وَسَأَلَهُ عَن هذَا الخَطْبِ الوَبِيِّ، فَرَكَنَ إِلَيْهِ لِمَا رَأَى مِن رَأْفَتِهِ عَلَيْهِ، وَأَخْبَرَهُ بِبَلَدِهِ وَنَسَبِهِ وَأَصْلِهِ وَحَسَبِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ إِقْبَالَ الشَّفِيْقِ، وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةَ الأَبِ الرَّفِيْقِ، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيْهِ صُحْبَةٌ، وَمَوَدَّةٌ وَمَحَبَّةٌ، وَأَخَذَهُ إِلَى دَارِهِ، وَأَرَاهُ كَمالَ[1] تَمَكُّنِهِ مِن الغِنَى وَاقْتِدَارِهِ، وَأَحَلَّهُ مِنْهُ مَحَلَّ الوَلَدِ، وَأَرَاهُ مَحَاسِنَ [البَلَدِ] [2]، وَإِذَا هِيَ مَدِيْنَةٌ عَظِيْمَةٌ، ذَاتُ خَيْرَاتٍ جَسِيْمَةٍ، وَقُصُوْرٍ رَفِيْعَةٍ، وَجِنَانٍ بَدِيْعَةٍ، وَأَسْوَاقٍ حَافِلَةٍ، / وَهِيَ لِكُلِّ مَا [١٠/ب] يُطْلَبُ كَافِلَةٌ، وَلَهَا مَلِكٌ صَاحِبُ جُيُوْشٍ وَعَسَاكِرَ، وَمَغَانِمَ وَدَسَاكِرَ، وَأَفْيَالٍ عَدِيْدَةٍ، وَقُوَّةٍ شَدِيْدَةٍ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كُفَّارٌ، يَعْبُدُوْنَ النَّارَ، وَلَا يَرْتَفِعُ لَهُمْ فِي الإِسْلَامِ مَنَارٌ، وَكَانَ لِلشَّيْخِ حَانُوتٌ لِلْعِطَارَةِ، يَقْتَضِي بِهَا فِي التَّكَسُّبِ أَوْطَارَهُ، فَكَانَ يَجْلِسُ مَعَهُ فِيهِ مِن ابْتِدَاءِ النَّهَارِ، ثُمَّ يَرْجِعَانِ إِذَا وَلَّى عُمْرُهُ وَانْهَارَ، وَإِلَيْهِ الضَّبْطُ وَالحِسَابُ، وَبِيَدِهِ التَّحْصِيْلُ وَالاكْتِسَابُ، ثُمَّ لَمَّا طَالَتِ المُدَدُ، وَتَزَايَدَ مِنَ الشُّهُورِ العَدَدُ، زَوَّجَهُ بِكْراً مِن تِلْكَ الطَّائِفَةِ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ بِرَّهُ وَلَطَائِفَهُ، وَعَمِلَ له عُرْساً عَظِيْمَ الوَلَائِمِ، وَلَمْ يُسْمَعْ فِيْهِ عَذْلُ عَاذِلٍ وَلَا لَوْمُ لَائِمٍ، فَأَقَامَ مَعَ تِلْكَ الزَّوْجَةِ فِي عَافِيَةٍ غَيرِ خَافِيَةٍ، وَرَفَاهِيَةٍ غَيْرِ وَاهِيَةٍ، لا يُكَدَّرُ لَهُ شِرْبٌ وَلا يُرَوَّعُ لَهُ سِرْبٌ، يَرْتَعُ مِنَ النَّعِيْمِ فِي كُلِّ رَوْضٍ، وَيَكْرَعُ مِنَ النَّسِيْمِ فِي كُلِّ حَوْضٍ غَيْرَ أَنَّهُ مُشَوَّشُ الخَاطِرِ، ذُوْ دَمْعٍ مُتَقَاطِرٍ، وَقَلْبٍ مَأْلُومٍ، وَحَشاً مَكْلُومٍ، يَتَذَكَّرُ الوَالِدَيْنِ وَمَا لَهُمَا عَلَيْهِ مِن حُقُوقِ البِرِّ الَّتِي هِيَ أَثْقَلُ مِنَ الدَّيْنِ، وَيَتَأَمَّلُ تَبَاعُدَ الأَقْطَارِ، وَتَزَايُدَ الأَخْطَارِ، وَمَا آلَ إِلَيْهِ حَالُهُ، وَأَدَّاهُ إِلَى الوُقُوعِ فِيْهِ مِحَالُهُ، وَأَنَّ ذلِكَ عَاقِبَةُ مُخَالَفَةِ النَّصِيْحَةِ، وَمُتَابَعَةِ هَوَى النَّفْسِ الحَرِيْصَةِ الشَّحِيْحَةِ، فَيَزْدَادُ كَرْباً، وَحُزْناً وَحَرَباً[3]، ثُمَّ يَرْتَاحُ إِلَى الأَمَانِيِّ بِالرُّكُوْنِ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ الهُدُوءُ وَالسُّكُوْنُ، فَبَيْنَا هُوَ يَوْماً يَمُرُّ فِي بَعْضِ سِكَكِ البَلَدِ، وَقَدْ أَعْيَاهُ الصَّبْرُ وَالجَلَدُ، وَاشْتَاقَ إِلَى الوَطَنِ، وَحَنَّ إِلَى العَطَنِ، إِذْ رَأَى جِنَازَةً يَتْبَعُهَا جَمْعٌ كَبِيْرٌ، وَقَدْ أَكْثَرُوا حَوْلَها مِنَ البَخُوْرِ وَالعَبِيْرِ، وَرَاءَهَا امْرَأَةٌ مُزَيَّنَةٌ بِأَنْوَاعِ الزِّيْنَةِ، وَعَلَيْهَا حُلَلٌ ثَمِينَةٌ، وَحَوْلَهَا جُمْلَةٌ مِن النِّسَاءِ يَتَشَاكَيْنَ وَصْمَةَ الأَسَى، وَيُرَقِّقْنَ بِكَلِمَاتِهِنَّ[4] مَا غَلُظَ مِن القُلُوْبِ وَقَسَا، فَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِاتِّبَاعِهِمْ – وَلَوْ أَنَّهُ [لا] [5]

---

(١) في الأصل: كماله.

(٢) زيادة يستقيم بها الكلام، وتتم بها السجعة.

(٣) الحَرَب: الويل والهلاك.

(٤) في الأصل: كلماتهن. والمثبت هو الصواب.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

يُحْسَبُ مِن أَتْبَاعِهِمْ – لِيَرَى صُنْعَهُمْ بِالجَنَائِزِ، وَمَا الَّذِيْ هُوَ مَشْرُوْعٌ عِنْدَهُمْ وَجَائِزٌ، فَخَرَجُوا إِلَى نَاوُوْسٍ[1] كَبِيْرٍ بِوَسَطِ الصَّحْرَا، وَعَلَى قِمَّةِ صَخْرَةٍ لا تُقِلُّهَا المِئِيْنُ مِنَ الرِّجَالِ فدحروها دَحْراً[2]، وَأَدْلَوا مَعَ المَيْتِ فِيْهِ جَمَاعَةً مِنَ الرِّجَالِ، كَمَا تُدلَى فِي البِئْرِ السِّجَالُ[3]، فَخَرَجُوا [لَمَّا] [4] فَرَغُوا مِنْ وَضْعِهِ فِي مَقَرِّهِ، وَقَرَّبُوْهُ مِن بُقْعَةِ العَذَابِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِمُسْتَقَرِّهِ، أَدْلَوُا المَرْأَةَ خَلْفَهُ بِما عَلَيْهَا مِنَ الزِّيْنَةِ وَالمُخَلَّفَاتِ الثَّمِيْنَةِ، وَأَتْبَعُوْهَا بِجُمْلَةٍ مِنَ المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ، وَمَا تَسْتَضِيْءُ بِهِ فِي ظُلُمَاتِ تِلْكَ المَسَارِبِ، ثُمَّ جَرُّوْا[5] الأَحْيَا، وَأَطْبَقُوا الصَّخْرَةَ كَمَا كَانَتْ وَقَدْ أُعْيُوا بِها غَايَةَ الإِعْيَا، فَانْصَرَفَ ذلِكَ الشَّابُّ مَذْهُولاً، وَقَدْ رَأَى أَمْراً مَهُوْلاً، وَجَاءَ إِلَى الشَّيْخِ وَهُوَ فِي تِلْكَ الدَّهْشَةِ، وَقَدِ اسْتَوْحَشَ غَايَةَ الوَحْشَةِ، فَسَأَلَهُ عَمَّا عِنْدَهُ مِنَ الجَزَعِ، وَمَا الَّذِيْ أَحْدَثَ لَهُ هذَا الفَزَعَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا رَأَى مِنَ الأَحْوَالِ، وَشَاهَدَ مِن الأَهْوَالِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ مِن سُنَنِ هؤلاءِ المَرَدَةِ – جَعَلَ اللهُ مِنْهُمُ الخَنَازِيْرَ والقِرَدَةَ[6] – أَنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ يُدْفَنُ الآخَرُ مَعَهُ حَيّاً، وَيُنْزِلُوْنَ مَعَهُ أَسْبَابَهُ وَمَا يَمْلِكُهُ، وَلا يَتْرُكُونَ مِنْهُ شَيّاً، سَوَاءٌ فِي ذلِكَ المَالِكُ وَالمَمْلُوكُ، وَالغَنِيُّ وَالصُّعْلُوْكُ، وَيَهَبُوْنَ لَهُ مَا يَحْتَاجُ إِليه مِن طَعَامٍ وَشَرَابٍ، مُدَّةَ ما يُقَدِّرُونَ أَنَّهُ يَعِيْشُ فِي ذلِكَ السَّرَابِ، وَهُوَ لا يَعِيْشُ إِلاَّ قَلِيْلاً، وَيَبْقَى بِمَا يَجِدُهُ مِنَ الوَحْشَةِ وَخَبِيْثِ الرَّائِحَةِ عَلِيْلاً، ثُمَّ يُدْرِكُهُ المَوتُ، وَلا يَفُوْتُهُ الفَوْتُ، فَعِنْدَهَا لَطَمَ الشَّابُّ وَجْهَهُ وَبَكَى، وَتَأَلَّمَ وَشَكَا، فَقَالَ لِلشَّيْخِ: لِمَ لا أَخْبَرْتَنِي بِهذَا الحَدِيْثِ قَبْلَ أَنْ أُوْقَعَ فِي هذَا المَوْقِعِ الخَبِيْثِ؟ وَهَلاَّ نَصَحْتَ وَعَنْ هذَا الخَبَرِ أَفْصَحْتَ. بَلْ أَوْقَعْتَنِي فِي أَخْبَثِ الأَشْرَاكِ، مَعَ أَهْلِ الكُفْرِ وَالإِشْرَاكِ، وَكَيْفَ المَفَرُّ مِن هؤلاءِ النَّفَرِ؟ وَمَا الاحْتِيَالُ فِي النَّجَاةِ مِن هذَا الاغْتِيَالِ؟ وَمَنْ يَأْخُذُهُ سُكُوْنٌ وَهذَا أَمَامَهُ؟ وَمَن يَقِرُّ لَهُ قَرَارٌ / وَبِهذِهِ الصُّوْرَةِ يَكُوْنُ حِمَامُهُ، ثُمَّ نَاحَ وَعَدَّدَ، وَأَنْشَأَ وَأَنْشَدَ[7]: [١١/أ]

وَيْلاهُ وَيْلاهُ مِنْ حِمَامِ ... بِغَيْرِ عَهْدٍ وَلا ذِمَامِ
أُقَادُ فِيْهِ كَمَا يُقَادُ الْـ ... ـبَعِيْرُ لِلنَّحْرِ بِالزِّمَامِ

---

(١) الناووس: صندوق من خشب أو نحوه يضع النصارى فيه جثة الميت، ومقبرة النصارى، والجمع: نواويس.

(٢) دحروها دحراً: دفعوها دفعاً.

(٣) السَّجْل: الدّلو العظيمة، مملوءة أو فيها ماء قل أو كثر، وهو مذكّر، والجمع سُجُول وسِجَال.

(٤) زيادة يستقيم بها الكلام.

(٥) في الأصل: جدوا. ولعل الصواب ما أثبته.

(٦) في الأصل: القردة والخنازير، وأخرتُ القردةَ سيرا على نهج المؤلف في التزام السجع .

(٧) من مخلع البحر البسيط.

أقْـبِحْ بِهَـا سُـنَّةٌ قَـضَتْ لِلْـ ـحَيِّ بِـدَفْنٍ مَـعَ الرِّمَـامِ
هَلْ مِن خَلاصٍ لِمَنْ غَدَا في حَفَـائِرِ المَـوْتِ ذَا انْـضِمَامِ
يَـوَدُّ لَـوْ كَـانَ ذَا جَنَـاحٍ يَطِيـرُ فـي الجَـوِّ كَالحَمَـامِ
أوْ كَـانَ كَـالبَرْقِ فـي الْتِمـاعٍ يَمُـرُّ مـعْ مُـسْرِعِ الغَمَـامِ
لَـوْ كَـانَ لـيْ فـي الـوَرَى نَـصُوحٌ ما كُنْتُ وَالكَرْبُ في انْتِظامِ

ثُمَّ أَخَذَتْهُ عَبْرَةٌ بعْدَ عَبْرَةٍ، وَبَقِيَ لِمَنْ يَرَاهُ عِبْرةٌ، فَقَالَ لهُ الشَّيْخُ: واللهِ – يَا بُنَيَّ – ما قَصَدْتُ لَكَ إلاَّ الرَّاحَةَ، وَالسُّكُوْنَ وَالاسْتِرَاحَةَ، فَإِنَّ القَرِيْنَةَ المُوَافِقَةَ تُهْدِي إِلَى المَرْءِ مَصَالِحَهُ وَمَرَافِقَهُ، وَتُزِيْحُ عَن قَلْبِهِ صَدَى الكُرْبَةِ وَتَدْرَأُ عَنْ لُبِّهِ أَسَى الغُرْبَةِ، وَلا اعْتَدَيْتُ، وَلا مَرَدْتُ، فقالَ لَهُ: كَيْفَ يَكُوْنُ في هذا الشَّيْءِ صَلاحٌ، وَمَا لِفَسَادِهِ إصْلاحٌ؟ أمْ كَيْفَ[1] يُرْجَى فيهِ فَلاَحٌ، وَالمَوْتُ قَدْ أَشْرَفَ مِنْهُ وَلاحَ؟ أمْ كَيْفَ تَقْصِدُ لِرَوْعِي الهُدُوءَ وَالسُّكُوْنَ، وَأَنْتَ لِقَتْلِي تَشْحَذُ السِّكِّيْنَ؟ هذَا واللهِ هُوَ الغِشُّ الصَّرِيْحُ المُوْدِي إِلَى الضَّرِيْحِ، وَكَمْ مِن بِرٍّ أَفْضَى إِلَى العُقُوْقِ، وَجَذَّ المُوَاصَلَةَ بِالحُقُوْقِ، فَلَيْتَكَ لا وَاسَيْتَ وَلا بَرَرْتَ وَلا أَسَأْتَ وَلا اعْتَذَرْتَ، فَلَيْسَ لِهذَا الإِحْسَانِ وِزَانٌ وَلا مِثْلَ هذِهِ الأَحْزَانِ أَحْزَانٌ. فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، ثِقْ بِاللهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَاعْتَمِدْ عَلَى لُطْفِهِ وَاسْتَنِدْ إِلَيْهِ، فَكِلاكُمَا في عُنْفُوانِ الشِّبابِ[2]، وَشِرَّةِ الشَّبَابِ[3]، وَاللهُ يُمتِّعُكُما بِالحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ دَهْراً طَوِيْلاً، وَيُحَوِّلُ عَنْكُمَا الرَّدَى تَحْوِيلاً، وَلَسْتَ تَدْرِي مَن يُعاجِلُهُ الحِمَامُ، أَوْ يُبادِرُهُ بِالإلْمَامِ، وَلِهذِهِ الزَّوْجَةِ في صُحْبَتِي أَرْبَعُوْنَ[4] سَنَةً، مَرَّتْ كَأَنَّهَا سِنَةٌ، وَلا يَخْطُرُ لَنا مَا خَطَرَ لَكَ عَلَى بَالٍ، وَلا يَرُوْعُنَا مِنْهُ كَرْبٌ وَلا بَلْبَالٌ، وَالمَقَادِيرُ لَها أَحْكَامٌ وَإِتْقَانٌ وَإِحْكَامٌ، وَلا يَنْفَعُ مِنْ قَدَرٍ حَذَرٌ[5]، وَالرَّزَايَا لا تُبْقِي ولاَ تَذَرُ، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ غَيرُ التَّسْلِيْمِ وَالرِّضَا بِتَقْدِيرِ العَزِيْزِ العَلِيْمِ، فَسَكَنَ قَلِيْلاً جَأْشُهُ، وَتَقَلَّلَ عَنْهُ اسْتِيْحَاشُهُ، وَقَوِيَ عِنْدَهُ جَانِبُ الأَمَلِ، وَرَجِعَ إِلَى ما كانَ يَعْتَادُهُ مِن عَمَلٍ، وَمَضَى عَلَى ذلِكَ شُهُورٌ قَلِيلَةٌ، وَمُدَدٌ غَيرُ مُسْتَطِيلَةٍ، وَإِذَا بِزَوْجَتِهِ قدِ ابْتَدَا بِها المَرَضُ، وَغَلَبَ عَلَى جَوْهَرِ صِحَّتِهَا العَرَضُ، فَحَارَ قَلْبُهُ وَخَارَ لُبُّهُ، وَشَدَهَ وَبَدِهَ، وَسُقِطَ في يَدِهِ، وَخَرَجَ مِن الدَّارِ لِلْهَرَبِ مِمَّا بِهِ اسْتَدَارَ، وَإِذَا بِأَهَالِي الزَّوْجَةِ وَقَدْ عَلِقَتْ عَلَيْهِ أَشْطانُهُمْ، وَغَلَبَ عَلَى ضَعْفِهِ سُلْطانُهُمْ، وَأَحاطُوا بِهِ إِحَاطَةَ الدَّائرَةِ بِالنُّقْطَةِ، وَقَالُوا: لا خَلاصَ لكَ مِن هذِهِ الوَرْطَةِ، إلاَّ أَنْ يَحْصُلَ لَها الشِّفَا، أوْ تَكُوْنَ مِنَ المَوتِ عَلَى شَفَا، فَأَقَامَ مَعَهُمْ مُرْغَماً وَصَارَ في إِحَاطَتِهِمْ

---

(١) تكررت "كيف" في الأصل سهواً.

(٢) الشِّباب: ما يوقد به.

(٣) الشِّرَّة: الحِدّة والنشاط، يقال: للشباب شِرة.

(٤) في الأصل: أربعينَ.

(٥) لا ينفع حذر من قدر: هذا مثل، ورد في مجمع الأمثال ٢ / ٢٣٧.

مُدْغَماً، فَمَا كانَ إلاَّ أنْ حَلَّ بِهَا المَوْتُ، وَأَصَابَهَا الفَوْتُ، فَخَرَجُوا بِهَا مِنَ المَدِينَةِ في أَكْمَلِ زِينَةٍ وَهُوَ مَعَهَا يُقَادُ كالبَعِيرِ المُنْقَادِ، وَلا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلا نَفْعاً، وَلاَ يَسْتَطِيعُ لِمَا حَلَّ بِهِ رَدّاً وَلاَ دَفْعاً، وَالشَّيْخُ يُشَيِّعُهُ مُرْغَماً بِالبُكَاءِ وَالانْتِحَابِ، وَقَدْ ضَاقَتْ بِهِ فَسِيحَاتُ الرِّحَابِ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ الزَّادِ، وَهَلْ يَنْفَعُ المُحْتَضِرَ بُكاءُ العُوَّادِ؟ ثُمَّ أدلَوْهُ مَعَهَا في ذلِكَ الرَّمْسِ، / [١١/ب] وَانْسَحَبَ عَلَيْهِ حُكْمُ الطَّمْرِ وَالطَّمْسِ، وَمَضَى كمَا مَضَى الأمْسُ، وَجَاوَرَ مَنْ مَاتَ، وَعايَنَ تِلْكَ العِظَامَ الرُّفَاتَ، فَأَخَذَهُ الذُّهُولُ مِن ذلِكَ الأمْرِ المَهُولِ، وَعَرَتْهُ غَشْيَةٌ، مِن تِلْكَ الخَشْيَةِ، ثُمَّ أَلْهَمَهُ اللهُ – سُبحانَهُ – بِأنْ أَيْقَظَ عَزْمَهُ، وَاسْتَعْمَلَ حَزْمَهُ، وَأكْثَرَ مِنْ وَقِيدِ تِلْكَ الشُّمُوعِ، وَنَظَرَ إِلَى تِلْكَ الجُمُوعِ، وَتَأَمَّلَ ذلكَ المالَ المَجْمُوعَ، وَقالَتْ لَهُ نَفْسُهُ: لا تَيْأَسْ مِنَ الفَرَجِ، فَالوَسْعُ يَتْبَعُ الحَرَجَ، وَكَم مِمَّنْ أَعْيَتْهُ الحِيَلُ، وَاسْتَسْلَمَ لأنْ تَغْتَالَهُ الغِيَلُ، وَأَيِسَ مِنَ الحياةِ، وَأَعْجَزَهُ المَخْرَجُ وَأَعْيَاهُ، ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ في أَسْرَعَ مِن لَمْحَةِ طَرْفٍ، أَوْ خَطِّ حَرْفٍ، وَلِلدَّهْرِ إدْبَارٌ وإقْبَالٌ[١]، وَلِلْقَطْرِ إِمْسَاكٌ وَإِسْبَالٌ، فَتَقَوَّى أَمَلُهُ وَرَجَاؤُهُ، وَاتَّسَعَ لَهُ مَعَ المَضِيقِ أَنْحَاؤُهُ وَأَرْجَاؤُهُ، وَتَتَبَّعَ تِلْكَ الأقْوَاتَ الّتي مَاتَ عَنْهَا أَصْحَابُها، وَحَسُنَ عِنْدَهُ جَمْعُهَا وَاسْتِصْحَابُها، فَأَضافَهَا إِلَى مَا نَزَلَ مَعَهُ، وَخَزَنَ كُلَّ ذلِكَ وَجَمَعَهُ، ثُمَّ أَخَذَ يَقْتَاتُ بِهِ قَلِيلاً قَلِيلاً، وَيَتَعَلَّلُ بِالأمَانِيِّ تَعْلِيلاً، وَكَانَ إذَا أَحَسَّ بِحَرَكَةٍ مِن أَعْلَى المَكَانِ، دَخَلَ إِلَى جانِبٍ مِنَ الجَوَانِبِ وَاسْتَكَانَ، وَأَطْفَأَ الشَّمْعَ، وَغَابَ عَنِ البَصَرِ وَالسَّمْعِ، فَلا يُسْمَعُ لَهُ حَفِيفٌ، وَلا يُحَسُّ لَهُ هَفِيفٌ[٢]، حَتَّى إِذَا نَزَلُوا وَصَعَدُوا، وَعَنْ فَمِ النَّاوُوسِ أَبْعَدُوا، قَامَ يَتَجَسَّسُ، وَعَنْ خَبَرِ الحيِّ يَتَحَسَّسُ، فَيَرَاهُ بِالضَّوءِ المَوْقُودِ، وَهُوَ يَئِنُّ كَأَنَّهُ المَفْقُودُ، يَرَى المَوْتَ عِيَاناً، وَلا يَتَّخِذُ أَنْصَاراً وَلا أَعْوَاناً، فَيَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ، وَيَصْرُخُ في وَجْهِهِ فَيَخِرُّ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ بَرِيدُ المَوْتِ، وَرَائِدُ الفَوْتِ، فَيَضْرِبُهُ بِعَظْمٍ مِن تِلكَ العِظَامِ، فَيَنْثُرُ مِن حَيَاتِهِ النِّظَامَ، وَيَسْتَوْلِي عَلَى مَأْكَلِهِ وَمَشْرَبِهِ، وَيَتَقَوَّى بِهِ عَلَى مَطْلَبِهِ مِنَ الحَيَاةِ وَمَأْرَبِهِ، وَيَعِيْشُ بِهِ دَهْراً، إنْ عَاماً وَإِنْ شَهْراً، حتَّى إذَا نَزَلَ غَيْرُهُ أَحَاطَ بِهِ شَرُّهُ وَضَيْرُهُ، وَفَعَلَ بِهِ مِثْلَ الأوَّلِ، وَلَمْ يَأْلُ وَلَمْ يَتَأَوَّلْ، فَعَاشَ عَلَى ذلِكَ مُدَّةً، وَأَشْهُراً عِدَّةً، لا يُعْوِزُهُ مَأْكَلٌ بِها وَلا مَشْرَبٌ، وَهُوَ بِقَتْلِهِمْ إِلَى اللهِ تعالَى يَتَقَرَّبُ، فَبَيْنَا هُوَ في بَعضِ الأيَّامِ، وَقَدِ اشْتَدَّ بِهِ إِلَى الخَلاصِ الهُيَامُ، وَأَعْيَا صَبْرُهُ وَجَلَدُهُ، وَطاشَ لُبُّهُ وَخَلَدُهُ، إذْ سَمِعَ بِأَعْلَى النَّاوُوسِ مِنَ الصِّيَاحِ وَالضَّجِيجِ، مَا لا يُسْمَعُ مِثْلُهُ مِنَ الحَجِيجِ، وَكَانَ مِن قَدَرِ اللهِ وَقَضَائِهِ، وَحُكْمِهِ في العَالَمِ وَإِمْضَائِهِ، أنْ مَاتَ مَلِكُ ذلِكَ الإقْلِيمِ، وَحَلَّ بِرُوحِهِ العَذَابُ الأَلِيمُ، وَأُدْلِيَ في تَابُوتٍ مُصَفَّحٍ بِالذَّهَبِ مُرَصَّعٍ بالجَوَاهِرِ، ذِي مَنْظَرٍ رَائِعٍ وَرَوْنَقٍ باهِرٍ، مَغَطًّى بِمُثْقَلاتِ الدِّيْبَاجِ

(١) في الأصل: وللدهر إقبال وإدبار وإقبال.

(٢) هفّت الرِّيح هفّاً وهَفيفا: هبّت فسُمع صوتُ هُبوبِها.

المُذَهَّبَة، مُعَطَّرٍ مِنَ المِسْكِ وَالعَنْبَرِ بِما غَطَّى نَتَنَ تِلْكَ الجِيفَةِ وَأَذْهَبَهُ، وَأَنْزَلَ مَعَهُ جَمِيْعَ ذَخَائِرِهِ وَمَصُوْنَاتِهِ، وَمُخَبَّآتِهِ وَمَكْنُونَاتِهِ، وَأُنْزِلَتْ زَوْجَتُهُ في نِهايَةِ التَّجَمُّلِ وَالزِّينَةِ وَالنَّفائسِ وَالأَعْلاقِ الثَّمِيْنَةِ، وَأُنْزِلَ مَعَهَا مِنَ الأَسْبَابِ العَظِيْمَةِ وَالنِّعَمِ الجَسِيْمَةِ، مَا لا يَسَعُ شَرْحَهُ كِتابٌ وَلا تُحْصِيهِ أَقْلامُ الكُتَّابِ، وَأَرْدَفُوا ذلِكَ بِمَا بِهِ يُعَاشُ، وَيَحْصُلُ الانْتِعاشُ، مِمَّا يُنَافَسُ بِهِ وَيُفْتَخَرُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُؤَخَّرَ دَهْراً وَيُدَّخَرَ، وَجَعَلُوا ذلِكَ كُلَّهُ في مَوْضِعٍ خالٍ عَنِ النَّاسِ، غَيْرِ مُخَالِطٍ لِتِلْكَ الأَخْبَاثِ وَالأَدْنَاسِ، وَأَوْقَدُوا لَهَا شُمُوْعاً كَثِيْرَةً، وَفَرَشُوا لَهَا فُرُشاً وَثِيْرَةً، ثُمَّ أَطْبَقُوا عَلَيْها فَمَ النَّاوُوْسِ، وَأَسْلَمُوها بَعْدَ النَّعِيْمِ إِلَى البُوْسِ، فَجَعَلَتْ تَنْدُبُ بَدِيْعَ شَبَابِهَا وَتَبْكِي عَلَى فُرْقَةِ أَحْبَابِها، هذَا، وَالشَّابُّ قد قَرُبَ مِنْهَا قَلِيلاً، فَرَأَى مَرْأَىً جَمِيلاً، وَحُسْناً فَائِقاً، وَرَوْنَقاً رَائِقاً، وَجَمَالاً بَدِيْعاً، وَكَمَالاً مَرِيْعاً[1]، غَرِيْبَةُ التَّكْوِيْنِ وَالرَّصْفِ، لا يُوْفِي حَقَّهَا نَعْتٌ وَلا وَصْفٌ، فَهَامَ بِهَا قَلْبُهُ، وَطَاشَ عَلَى مُلاقَاتِها لُبُّهُ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِاتِّخَاذِهَا قَرِيْنَةً، وَأَنْ تَكُوْنَ لَهُ عَلَى هذِهِ الوَرْطَةِ مُعِيْنَةً، فَتَكَلَّمَ – وَهُوَ في الظَّلامِ – بِمُزْعِجٍ مِن الكَلامِ، فَرَعَبَتْ وَارْتَاعَتْ، وَرُعِدَتْ وَالْتَاعَتْ، وَظَنَّتْ أَنَّهُ الفِرَاقُ الَّذِيْ لا تُغْنِي مِنْهُ عُوْذَةٌ[2] أَلْفِ رَاقٍ، وَشَخَصَ مِنْهَا البَصَرُ، وَأَرْهَقَهَا العِيُّ والحَصَرُ، فَلَمَّا رَأَى مِنْها تِلْكَ الحَالَةَ وَأَنَّهَا / تَمُوْتُ فَزَعاً لا مَحَالَةَ، تَلافَاهَا بِلِيْنِ [١٢/أ] المَقَالِ، فَنَشِطَتْ مِنْ ذلِكَ العِقَالِ، وَسَأَلَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَنَوْعِهِ وَجِنْسِهِ، فقَالَ لَها بَعْدَما ظَهَرَ، وَرَأَتْ مِن حُسْنِهِ مَا بَهَرَ: مَا لَكِ وَالسُّؤَالُ عَنِ القَنْسِ وَالآلِ، وَمَا هُنَا غَيْرُ المُوَافَقَةِ وَالإِلْمَامِ أَوِ المُشَاقَقَةِ وَالحِمَامِ؟ فَتَخَيَّرِي وَلا تَتَحَيَّرِي، وَتَبَصَّرِي وَلا تُقَصِّرِي،

فَإِنَّ الوَقْتَ ضَيِّقٌ، وَالزَّمانَ غَيْرُ رَيِّقٍ[3]، وَالسِّرْبُ لَيْسَ بِآمِنٍ، وَالمَوْتُ في جَنَبَاتِ هذا السَّرَبِ[4] كَامِنٌ، فَقَالَت: وَهَلْ في المَوْتِ مَا يُخْتَارُ أَوْ يُشْتَرَى أَوْ يُشْتَارُ؟ وَإِنِّي لكَ أَطْوَعُ مِن نَعْلِكَ، وَأَتْبَعُ مِن ظِلِّكَ، لا تَرى مِنِّي خِلافاً وَلا تَجِدُ لِوَعْدِي إِخْلافاً، فَتَقَارَبا وَازْدَلَفَا، وَتَجَاذَبَا وَائْتَلَفَا، وَكَانَ مَا كانَ، وَهَدَأَ الرَّوْعُ وَاسْتَكانَ، وَاتَّفَقَا عَلَى قَتْلِ النَّازِلِيْنَ إِلَيهِمَا، وَتَحْتِيمِ الحَتْفِ عَلَى الدَّاخِلِيْنَ عَلَيْهِما، فَإِنْ كانَ النَّازِلُ ذَكَراً قامَ إِلَيْهِ وَقَضَى عَلَيْهِ، أَوْ أُنْثَى فقدْ أَفْضَتْ نَوْبَتُهَا إِلَيْهَا فَتُجْرِيْ حُكْمَ الحِمَامِ عَلَيْها، وَيَعِيْشَانِ مِمَّا يُصَبِّحُهُمْ مِنَ الأَقْوَاتِ بالعَشِيَّاتِ وَالغَدَوَاتِ، فَبَقِيَا عَلَى ذلِكَ بُرْهَةً مِن الدَّهْرِ، يُزْجِيَانِ اليَومَ بَعْدَ اليَومِ وَالشَّهْرَ بَعدَ الشَّهْرِ، فَبَيْنَا هُمْ كذلِكَ إِذْ رَأَيَا في صُدُوْرِ النَّاوُوْسِ سِرَاجَيْنِ يَقِدَانِ، فَجَلَسَا مِنَ الخَوْفِ يَرْعُدَانِ، ثُمَّ سَمِعَا صَوْتَ

---

(١) المَرِيع: الخصب، ويقال غيث مريع: تمرع عنه الأرض.
(٢) العُوْذَة: التميمة، والرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون، والجمع عُوَذ.
(٣) الرَّيِّقُ من كل شيء: أفضله.
(٤) السرَب: المسلك في خُفية، أو حفير تحت الأرض لا منفذ له.

عِظَامٍ تُقْضَمُ، وَتُفَضُّ عُرَى التِئَامِهَا وَتُفْصَمُ، فَعَلِمَا أَنَّهُ وَحْشٌ تَوَصَّلَ إِلَى هذَا السِّرْدابِ وَأَيْقَنَا مِنَ الفَرَجِ بِالاقْتِرَابِ، فَقَامَا يَتْبَعَانِهِ وَيُخَوِّفَانِهِ وَيُرَوِّعَانِهِ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى شِقٍّ مِنْهُ دَخَلَ، وخَرَجَ مِنْهُ هَارِباً وَلَمْ يَخِلْ، فَجَاءَا إِلَيْهِ فَتأمَّلاه[1]، وَتَحقَّقَ مَا تَرَجَّيَاهُ مِنَ الخَلاصِ وَأمَّلاهُ، وَأَخَذَا يُوَسِّعَانِهِ بِتِلْكَ العِظَامِ، ويَكْسِرانِ مَا كانَ فِيْهِ مِنَ الأَشْظَامِ[2]، إِلَى أَنْ خَرَجَا مِنْهُ إِلَى فَضَاءٍ مِنَ الأَرْضِ ذِيْ طُولٍ وَعَرْضٍ، فَنَظَرَا فَإِذَا هُمَا بِالسَّاحِلِ وَلَمْ يَبْقَ مِن دُوْنِ السَّلامَةِ مُمَاطِلٌ وَلا مُمَاحِلٌ، فَعَادا وَقَدِ اطْمَأَنَّتْ مِنْهُمَا النُّفُوسُ وَذَهَبَ عَنْهُمَا الغَمُّ وَالبُوْسُ، وَأَخَذَا يَتَخَيَّرَانِ مِمَّا هُنَالِكَ مِن نَفَائسِ الأَعْلاقِ مَا كَانَ مُصَاناً بِالأَقْفَالِ وَالأَغْلاقِ، وَمَلأا مِنْهُمَا صَنَادِيقَ عِدَّةً وَنَقَلاهَا إِلَى ذلِكَ السَّاحِلِ بِهِمَمٍ مُجِدَّةٍ، وَرَأَيَا أَنَّهَا حَيَاةٌ مُسْتَجِدَّةٌ وَاسْتَصْحَبَا مَا هُنَالِكَ مِنَ المَعَاشِ وَمَا يَحْصُلُ بِهِ الانْتِعَاشُ، وَلَمْ يُقِيمَا إِلاَّ بَعْضَ يَومٍ وَقَدْ مَرَّ بِهِمَا مَرْكَبٌ مَخَّارٌ في ذلِكَ البَحْرِ الزَّخَّارِ، فَأَشَارَا[3] إِلَى مَنْ فِيهِ بِالاسْتِصْحَابِ، وأَنْ يَكُوْنَا مِن جُمْلَةِ الصِّحَابِ، فَقَدَّمُوا إِلَيْهِمَا مَرْكَباً صَغِيْراً وَسَأَلُوْهُمَا عَنِ الحَالِ، فَلَفَّقَاهُمَا[4] زَخَارِفَ المُحَالِ، فَحَمَلُوْهُمَا وَمَا مَعَهُمَا مِنَ الأَثْقَالِ، وَنَجَّاهُمَا اللهُ – سُبْحَانَهُ – مِن ذلِكَ الاعْتِقَالِ، وَاسْتَمَرَّ بِهِمُ السَّيْرُ إِلَى سَاحِلِ عُمَانَ، وَقَدْ أَيْقَنَا بِالسَّلامَةِ وَالأَمَانِ، فَبَاعَ الشَّابُّ مِن بَعْضِ تِلْكَ الأَسْبَابِ ما بِهِ ارْتَفَقَ، وَصَرَفَ مِنْهُ أُجْرَةَ ذلِكَ المَرْكَبِ وَأَنْعَمَ عَلَى مَنْ رأف وَرَفقَ، ثُمَّ حَوَّلَ أَمْتِعَتَهُ إِلَى مَرْكَبٍ تَسِيرُ إِلَى البَصْرَةِ، وَقَدْ وَضَعَ الزَّمَانُ عَنْهُ غِلَّهُ وَإِصْرَهُ، وَأَذْهَبَ ضِيْقَهُ وَحَصْرَهُ، فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ أَرْسَوْا بِسَاحِلِ المَدِيْنَةِ، وَحَلُّوْا بِالمَحَالِّ الأَمِيْنَةِ، فَبَادَرَ إِلَى الدَّارِ، وَالفَلَكُ بِسَعَادَتِهِ قدْ دَارَ، لِيَسْبُرَ الحَالَ وَمَا تَغَيَّرَ وَمَا اسْتَحَالَ، فَقَدِمَ عَلَى أَهْلِهِ قُدُومَ الغَيْثِ بَعْدَ الإِمْحَالِ، وَكَانُوا يَعُدُّوْنَ سَلامَتَهُ مِنَ المُحَالِ، وَتَزَايَدَ شُكْرُهُمْ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَثَنَاؤهُمْ، وَانْقَضَى عَنْهُمْ كَرْبُهُمْ وَعَنَاؤهُمْ، وَنَقَلُوا تِلْكَ النَّفَائِسَ وَالأَعْلاقَ، وَجَعَلُوا دُوْنَهَا الأَقْفَالَ وَالأَغْلاقَ، وَعَمِلُوا لَهُ عُرْساً حَافِلاً، وَرَجَعَ كَوْكَبُ السَّعْدِ طَالِعاً بَعْدَ أَنْ كانَ آفِلاً، وَأَجْزَلُوا الصَّدَقاتِ وَالمَبَارَّ، وَتَسَاوَى فِي ذلِكَ العَاقُّ وَالبَارُّ، وَعَاشُوا بِنِعْمَةٍ رَاضِيَةٍ إِلَى أَنْ أَتَتْهُمُ القَاضِيَةُ فَكَانَ خَبَرُهُمْ مِن غَرَائبِ الأَسْمَارِ وَأَعْجَبِ مَا يَتَسامَرُ بِهِ السُّمَّارُ.

المَقَامَةُ الخَامِسَةُ:

رُوِيَ أَنَّهُ كانَ بِحِمْصِ الشَّامِ شَابٌّ كَثِيْرُ الوَقَارِ وَالاحْتِشَامِ، قدْ كَسَاهُ / الزَّمَانُ مِن مَلابِسِ [١٢/ب]

---

(١) في الأصل: فتلاماه، والصواب هو المثبت.

(٢) لم أعثر لهذا الجمع على معنى، وقد ورد في اللسان: الشيظم: المسنّ من القنافذ. اللسان (شظم).

(٣) في الأصل: أشار، والصواب المثبت.

(٤) هكذا في الأصل، ولعلها: لفقاهم.

جَمَالِهِ، وَوَهَبَهُ الأَوَانُ مِن مَحَاسِنِ كَمَالِهِ، فَلا مَجْدَ إلاَّ وَلَهُ فِيهِ غَوْرٌ وَنَجْدٌ[1]، وَلا مَعَالِيَ إلاَّ وَلَهُ فِيْهَا الشَّرَفُ العَالِيْ، وَلا فَخَارَ إلاَّ وَلَهُ فِيْهِ كَنْزٌ وَادِّخَارٌ، يُسَابِقُ الفَضْلَ سَبْقَ الجِيَادِ، وَيَجْعَلُ مِنْهُ قَلائِدَ الأَجْيَادِ، مَعَ أَدَبٍ بَارِعٍ وَحَسَبٍ فارِعٍ، وَطِيْبِ أَرُوْمَةٍ، وَزَكَاءِ جُرْثُوْمَةٍ، وَطَبْعٍ يَفُوْقُ لُطْفَ النَّسِيْمِ، وَخُلُقٍ لَيْسَ لَهُ مِن مُعَاصِرِيْهِ فِيهِ قَسِيْمٌ، وَنثْرٍ وَنَظْمٍ، وَحِلْمٍ وَكَظْمٍ، وَحُسْنِ مُعَاشَرَةٍ، وَلُطْفِ مُكَاشَرَةٍ، وَجُوْدٍ يُنْسِي حَاتِماً، وَلا يَرْضَى بِهِ لِخِنْصِرِهِ خَاتَماً، وَذَكَاءٍ يُزْرِي بِإِيَاسٍ، وَيَرْمِي مَن يُمَاثِلُهُ بِاليَأْسِ، ضَاقَ بِهِ فَسِيْحُ بِلادِهِ فَارْتَحَلَ مِنْهُ بِطَارِفِهِ وَتِلادِهِ، وَاخْتَارَ البَيْنَ وَالفِرَاقَ، وَيَمَّمَ العِرَاقَ، فَأَلْقَى بِالبَصْرَةِ جِرَانَهُ[2]، وَجَعَلَ أَهْلَهَا جِيْرَانَهُ، وَأَقَامَ بِهَا قَرِيْرَ العَيْنِ وَافِرَ الدَّثْرِ[3] وَالعَيْنِ، لاَ يَرُوْعُ الزَّمَانُ سِرْبَهُ وَلاَ يُكَدِّرُ شُرْبَهُ، يَسْتَمْطِرُ مِنَ السُّرُوْرِ طَلَّهُ وَوَبْلَهُ، وَيَتَنَعَّمُ بالرِّيَاضِ نَهْرَ الأُبُلَّةِ[4]، وَيَتَمَقَّلُ مَا فِيْهَا مِنَ المَحَاسِنِ وَيَرِدُ مِنْ حِيَاضِهَا مَاءً غَيْرَ آسِنٍ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذلِكَ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ آمِناً مِنَ القَسْرِ وَالقَهْرِ وَادِعَ البَالِ سَابِغَ السِّرْبَالِ، يَصْحَبُ فِي مَوَاطِنِ الخَلاعَةِ أَرْدَانَهُ، وَيَرُومُ فِي مَعَاطِنِ البَطَالَةِ أَحْبَابَهُ وأَخدانَهُ، لا يَأْتِي لَهُ يَوْمٌ إلاَّ وَهُوَ أَحْسَنُ مِن أَمْسِهِ، وَلا يَنْفَكُّ فِيهِ عَنِ اسْتِجْلاءِ بَدْرِهِ وَشَمْسِهِ، يَأْلَفُ مُعاقَرَةَ الشَّرَابِ وَمُعَاشَرَةَ الشُّرَّابِ، فَلا يَزَالُ نَدِيْماً لِلشهواتِ، مديماً[5] للنشوَاتِ، وَشِرَّةُ الشَّبابِ مُضِرَّةٌ بِالأَلْبَابِ، لا يُسْمَعُ مَعَهَا عَذْلٌ، وَلا يُمْنَعُ فِي شَأْوِهَا بَذْلٌ.وَقَدْ قالَ القَائِلُ[6]:

تَجْعَلُ الحِلْمَ مِن وَرَاءِ حِجَابِ	وَتُصِيرُ السَّفَاهَ لِلأَنْجَابِ
وَتَرُدُّ العَقْلَ الرَّصِيْنَ غَوِيّاً	وَتُزَيْنُ الضَّلالَ بِالإِعْجَابِ
وَتُعِيْدُ الفَتَى الوَقُوْرَ خَلِيْعاً	يَتَحلَّى مِنْهَا بِشَيءٍ عُجَابِ
وَتُفِيْدُ الكَسْلانَ عَزْماً فَلا يَخْـ	ـشَى صِيَالَ الوُشَاةِ وَالحُجَّابِ
إنَّ مَنْ يُكْفَ شَرَّ شِرَّةِ مَصْبَا	هُ جَدِيْرٌ مِنَ الدُّعَا بِالمُجَابِ

وَكَانَ بِالبَصْرَةِ نَخَّاسٌ يَتَغَالَى فِي مُشْتَرَى القِيَانِ، وَتَذْخُرهِنَّ لِمَن يَرْغَبُ فِيْهِنَّ مِنَ الأَعْيَانِ، دَارُهُ لِلأَقْمَارِ دَارَةٌ، وَقَدْ جَعَلَ قُطْبَ الأُنْسِ عَلَيْهَا مَدَارَهُ، فَلا تَخْلُو مِنَ السَّمِيْرِ وَالنَّدِيْمِ وَالوَاجِدِ

---

(١) الغور: ما انخفض من الأرض، وضده النجد. اللسان (غور).

(٢) الجرانُ: باطن العُنُق، أو مُقدَّم العنق من مذبح البعير إلى منحره، فإذا برَكَ البعيرُ ومدّ عنُقَه على الأرض قيل: ألقى جِرانَه بالأرض، والبعير إذا بَرَكَ واستراح مدّ جِرانَه على الأرض أي عُنُقَه. اللسان (جرن).

(٣) الدَّثْر: المال الكثير. اللسان (دثر).

(٤) والأُبُلَّة: مكان بالبصرة، وهي البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحري. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، ٧٧/١.

(٥) في الأصل: نديماً، ولعل الصواب المثبت، منعاً للتكرار.

(٦) من البحر الخفيف، ولم أعثر على القائل.

وَالعَدِيْمِ، وَيُنْفِقُونَ النَّفَقَاتِ الكَثِيْرَةَ، وَيَصْرِفُوْنَ النَّفَائِسَ الأَثِيْرَةَ، وَهُوَ يُبْرِزُ لَهُمْ تِلْكَ القَيْنَاتِ مُتَبَرِّجَاتٍ مُتَزَيِّنَاتٍ، فَيَظَلُّوْنَ سَحَابَةَ يَوْمِهِمْ فِي المُحَاضَرَةِ وَالمُنَادَمَةِ، وَكَمْ مِنْهُم مَن سَفَكَ بِالمُنَى دَمَهُ! ثُمَّ إذا انْهَارَ بُنْيَانُ ذلكَ النَّهَارِ، رَجَعَ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى وَكْرِهِ وَقَدِ احْتَوَى مَا هُنَاكَ عَلَى عَقْلِهِ وَفِكْرِهِ، فَلَا يُصَدِّقُ بإسْفَارِ الصَّبَاحِ حَتَّى يَأْتِيَ إِلَى تِلْكَ الوُجُوْهِ الصِّبَاحِ، وَيَسْتَأْنِفَ تِلْكَ الأَعْمَالَ، وَيُنفِقَ ذلكَ المَالَ، فَإِذَا غَلِقَ الرَّهْنُ[1] بِوَاحِدَةٍ مِن تِلْكَ الغَادَاتِ، فُتِحَتْ فِيْهَا أَبْوَابُ الزِّيَادَاتِ، وَبُذِلَتْ فِيْها الرَّغَائِبُ المَحْبُوبَةُ وَالنَّفَائِسُ المَطْلُوْبَةُ، فَإِذَا أُحْكِمَتِ العُقْدَةُ بَيْنَ البَيِّعَيْنِ قَرَّتِ العَيْنُ، وَبُذِلَ العَرَضُ والعَيْنُ، وَحَازَ مَا مَلَكَ، وَقَالَ لِلْعَاذِلِ لا أَمْرَ لَكَ، فَبَلَغَ ذلِكَ الشَّابَّ خَبَرُ تِلْكَ القِيَانِ، فَأَرَادَ تَحْقِيْقَهُ بِالعِيَانِ، فَتَوَجَّهَ مَعَ لُمَّةٍ مِنَ الصِّحَابِ إِلَى تِلْكَ الرِّحَابِ، فَتُلُقِّيَ بِالتَّأَهُّلِ وَالتَّرْحَابِ، وَسَأَلُوا النَّخَّاسَ أَنْ يُبْرِزَ لَهُمْ أَنْفَسَ مَا اقْتَنَى، وأَنْ يَكُوْنَ مِمَّنْ بِهِمْ همّ وَاعْتَنَى، بَعْدَ أَنْ قَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاهُمْ صَدَقَةً وَأَمَامَ فَحْوَاهُمْ ما يُوَافِقُ وَيُلائِمُ، وَلا يَلْحَقُهُ لَوْمُ لائِمٍ، وَعِنْدَمَا اطْمَأَنَّتْ بِهِمُ المَجَالِسُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاّ قائِمٌ أَوْ جَالِسٌ، بَرَزَتْ جَارِيَةٌ عُشَارِيَّةُ[2] القَدِّ، كَالشِّهَابِ فِي الوَقْدِ، تَحْمِلُ كُرْسِيًّا مُجَلَّلاً بِغِشَاءٍ مُذَهَّبٍ، لِيْسَ لِلْبَصَرِ عَنْهُ مَذْهَبٌ، فَوَصَلَتْ بِهِ إِلَى نَادِيْهِمْ، وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ أَيَادِيْهِمْ، ثُمَّ غَابَتْ وَحَضَرَتْ، وَعَوْداً لَطِيفاً أَحْضَرَتْ، وَتَلاهَا فِي المَجِيْءِ جَارِيَةٌ بَدِيْعَةُ / الجَمَالِ، تَرْفُلُ فِي بُرُوْدِ الكَمَالِ، فَبَدَأَتْ بِالسَّلامِ بِرَخِيْمِ الكَلامِ، وَجَلَسَتْ عَلَى ذلِكَ الكُرْسِيِّ المُخْضَرِّ، وَقَدْ أَذْهَلَتْ بِحُسْنِها مَن فِي ذلِكَ المَحْضَرِ، وَتَنَاوَلَتِ العُودَ وَأَنْشَدَتْ، فَكَانَ مِمَّا بِهِ شَدَتْ[3]: [١٣/أ]

يَـــا مَــــنْ يُنَادِيْنَــــا خَطَــــرْ	أَوْقَعْــتَ نَفْــسَكَ فِــي الخَطَــرْ
كَيْــفَ الخَــلاصُ لِمَــنْ غَـــدَا	يُغْرِيــــهِ بِــــالنَّظَرِ البَطَــــرْ
أَشْـــغَلْتَ قَلْبَـــكَ بِالَّـــذِي	فَطَــرَ القُلُــوبَ وَمَــا انفَطَــرْ
وَطَفِقْــتَ تَسْتَــسْقِي الجهــا	مَ، وَلَـيس يـسْحَقُ[1] بِـالمَطَرْ
وَإِذا تُــــلامُ عَلَــــى الغَــــرَا	مِ وَدَمْــعُ عَيْنِــكَ قَــدْ قَطَــرْ
كَــــانَ الجَــــوَابُ بِــــأَنَّ ذَا	شَــيءٌ قَــدِيْماً مُــستَطَرْ
أَوَّاهُ مِمَّــــا خَطَّــــهُ الْــــ	ـقَلَمُ القَــدِيْمُ وَمَــا سَــطَرْ

(١) غَلِقَ الرهنُ: إذا لم يوجد له تخلص وبقي في يد المرتهن لا يقدر راهنه على تخليصه، والمعنى أنه لا يستحقه المرتهن إذا لم يَستَفِكَّه صاحبُه. وكان هذا من فعل الجاهلية أن الراهن إذا لم يُؤَدِّ ما عليه في الوقت المعين مَلَكَ المرتهنُ الرَّهْنَ، فأبطله الإسلام. اللسان (غلق).

(٢) عشارية القد: تامة القد، طويلته، وقد يراد بها ذات عُكنٍ عشر من جانبي البطن، خمس من كل جانب. اللسان (عشر)، و (خمس)

(٣) من مجزوء البحر الكامل.

وَعِنْدَمَا فَرَغَتْ مِمَّا أَنْشَدَتْ، وَأَتَمَّتْ مَا بِهِ شَدَتْ، اسْتَغْرَبَ ذَلِكَ الجَمْعُ مَا حَازَهُ مِنهَا السَّمْعُ، وَحَيَّاهَا[٢] كُلٌّ مِنْهُمْ وَفَدَاهَا، وَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ بَيْنَ لُحْمَتِهَا وَسَدَاهَا[٣]. هذا، وَنَظَرُهَا كُلُّهُ مَقْصُورٌ عَلَى ذَلِكَ الشَّابِّ، وَقَدْ مَحَضَتْهُ صَفْوَ وُدٍّ غَيْرِ مُشَابٍ، وَعَلِمَ مِنْهَا ذَلِكَ فَوَافَاهَا، وَصَرَفَ وُجْهَةَ قَلْبِهِ إِلَيْهَا وَكَافَاهَا، وَلَمْ يَزَالاَ يَتَنَاشَدَانِ الأَشْعَارَ، وَقَدِ اشْتَدَّتْ نَارُ المَحَبَّةِ بَيْنَهُمَا بِالاسْتِعَارِ، إِلَى أَنْ طَوَى النَّهَارُ أَعْلامَهُ، وَنَشَرَ اللَّيْلُ ظَلامَهُ، فَتَفَرَّقُوْا إِلَى الأَوْكَارِ، وتجمعتْ منهم الأفكار، وأما ذلك الشابُّ فباتَ بليل هَمٍّ ناصبٍ وعذابِ هيامٍ واصب، يُسامِرُ الدراري ويُسايِرُ بأجفانه الخُنَّسَ الجواري، وقدِ اشْتَدَّتْ أَوَاخِي هُمُوْمِهِ، وَتَراكَمَتْ غُيُوْمُ غُمُوْمِهِ، فَهُوَ لا يَجِدُ هُدُوْءاً وَلا قَرَاراً، وَلا يَذُوْقُ النَّوْمَ إِلاَّ غِرَاراً[٤]، وَلَمْ يَزَلْ يُرَاقِبُ الصَّبَاحَ إِلَى أَنِ انْقَضَّتْ دَوْلَةُ المِصْبَاحِ، فَأَيْقَظَ إِخْوَانَهُ، وَاسْتَنْهَضَ أَنْصَارَهُ وَأَعْوَانَهُ، وَمَضَوا لِتَجْدِيدِ تِلْكَ الصُّحْبَةِ، وَتَأْكِيْدِ عَهْدِ المَحَبَّةِ، وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى دَارِ النَّخَّاسِ لَقِيَهُمْ طَلْقَ المُحَيَّا، وَرَحَّبَ وَحَيَّا، وَجَدَّدَ ما[٥] دَرَسَ مِن تلكَ الرُّسُوْمِ المَاضِيَةِ، وَأَعَادَ لَهُمْ مَا كَانُوا فِيْهِ مِنَ العِيْشَةِ الرَّاضِيَةِ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ مُسامِرَتَهُمْ بِالأَمْسِ وَهِيَ أَبْهَى مِنَ الشَّمْسِ، ففدَّتْ وَحَيَّتْ، وَلا أَحْجَمَتْ ولاَ اسْتَحْيَتْ، وَلِهذَا قَالَ[٦]:

فَعَادَ لَهُمْ حُلْوُ المَعَاشِ الَّذِيْ سَرَّا ... كَأَنْ لَمْ يَكُنْ يَوْماً تَنَغَّصَ أَوْ مَرَّا
وَأَضْحَوا يُدِيرُونَ الخَلاعَةَ بَيْنَهُمْ ... وَلَمْ يَرْقُبُوا فِي ذَاكَ زَيْداً وَلا عَمْرَا
وَدَارَتْ عَلَيْهِمْ قَهْوَةٌ بَابِلِيَّةٌ[٧] ... يُسَمُّونَهَا مُذْ خَامَرَتْ عَقْلَهُمْ خَمْرَا
وَأَرْدَفَهَا سِحْرُ اللِّحَاظِ بِمِثْلِهَا ... مِنَ الحُبِّ لَمْ نَعْرِفْ زَبِيْباً وَلا تَمْرَا

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها من (السحق) وهو: السحاب الرقيق. أو من (السحيقة) وهي المطْرة العظيمة تجرف ما مرت به.

(٢) في الأصل: وحياهم. والصواب ما أثبته.

(٣) اللُّحْمةُ من الثوب، بالفتح والضم: ما سُدِّي بين السَّدَيَيْن، قال الأزهري: "ولُحْمةُ الثوب الأَعْلى". أي الأعلى من الثوب. وفي المثل: أَلْحِمْ ما أَسْدَيْتَ، أي: تَمِّمْ ما ابْتَدَأْتَه من الإحسان. اللسان (لحم). والسُّدى: خلاف لُحْمة الثوب، وقيل: أسفله. وقيل: ما مُدَّ منه، واحدته سَداةٌ. اللسان (سدا).

(٤) غِراراً: غِرارُ النومِ: قِلَّتُه. اللسان (غرر).

(٥) في الأصل: وجددها. وهو خطأ.

(٦) من البحر الطويل.

(٧) بابلية: نسبة إلى (بابل) موضع في العراق، وهي مدينة قديمة يُنْسب إليها السِّحرُ والخمر، وورد ذكرها في القرآن الكريم. انظر: معجم البلدان ٣٠٩/١، وهي اليوم محافظة عراقية كبيرة، من مدنها الكوفة والحلة.

فَأَمْسَوا نَشَاوَى قَهْوَةٍ وَصَبَابَةٍ وَمَا بَيْنَ ذا السُّكْرَينِ قدْ أنْفَقُوا[1] العُمْرَا

وَكَانَ حِيْنَ تَمَلَّى مِنْ غَرَامِهَا شِبَعاً وَرِيَّا، أَخْبَرَتْهُ أَنَّ اسْمَهَا الثُّرَيَّا، وَمَضَى لَهُمْ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ مِنَ البَسْطِ مَا أَرْبَى عَلَى الأَمْسِ، إِلَى أَنْ غَرُبَتِ الشَّمْسُ، فَفَرَّقَهُمْ هُجُومُ اللَّيْلِ، وَشَمَّرَ مِن أَنْسِهِمُ الذَّيْلَ، فَتَفَرَّقُوا عازِمِينَ عَلَى الاصْطِبَاحِ عِنْدَ إِسْفَارِ الصَّبَاحِ، ثُمَّ لَمَّا سَلَّ الفَجْرُ حُسَامَهُ المُشْرِقَ مِنْ جَفْنِ المَشْرِقِ تَراكَضُوا إِلَى تِلْكَ الدِّيَارِ تَسُوقُهُمُ الأَقْدَارُ، فَعِنْدَمَا دَخَلُوهَا فَدَاهُمُ[2] النَّخَّاسُ وَحَيَّاهُمْ، وَكَأَنَّمَا أَنْعَشَهُمْ وَأَحْيَاهُمْ، وَبَسَطَ لَهُمْ بُسُطَ الانْشِرَاحِ المُؤْذِنَةِ بِزَوَالِ الأَتْرَاحِ، فَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ، وَحَيَّوا مُجَالِسَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ خَرَجَ لَهُمْ غَيْرُ صَاحِبَتِهِمُ المَعْهُودَةِ، وَطِلْبَتِهِمُ[3] المَشْهُودَةِ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ بِبَيْعِهَا لِرَاغِبٍ وَرَدَ عَلَيْهَا لَيْلاً، وَأَوْسَعَهُ عَطَاءً وَنَيلاً، فَانْصَرَفُوا خَائِبِيْنَ، وَلِفَعْلَتِهِ عَائِبِيْنَ، وَأَمَّا ذَلِكَ الشَّابُّ فَذَهَبَتْ أَفْرَاحُهُ، وَتَزَايَدَتْ أَتْرَاحُهُ، وَقَامَ يَجُرُّ بِرِجْلَيْهِ وَهُوَ كَالمُغْمَى عَلَيْهِ، وَلَزِمَ الوِسَادَ مَرِيْضاً، وَأَوْرَثَهُ الحُزْنُ دَاءً طَوِيلاً عَرِيْضاً، وَتَرَدَّدَ إِلَيْهِ إِخْوَانُهُ، وَأَنْصَارُهُ وَأَعْوَانُهُ، يُورِدُونَهُ مَوَارِدَ الصَّبْرِ وَالسُّلُوِّ، وَيَسْلُكُونَ فِيهِ طُرُقَ المُبَالَغَةِ وَالغُلُوِّ، وَهُوَ لا يَزْدَادُ إِلاَّ وَجْداً وَكَلَفاً، وَغَرَاماً وَصَلَفاً، إِلَى أَنْ نَحَلَ جِسْمُهُ، / وَكَادَ يَعْفِي[4] أَثَرُهُ وَرَسْمُهُ، وَلَهُ فِي المَعْنَى[5]:

[١٣/ب]

وَصَارَ كَالشَّنِّ[6] العَتِيْقِ البَالِيْ مِن وَصْمَةِ الغَرَامِ وَالبَلْبَالِ

وَلَهُ فِي المَعْنَى:

وَصَدْمَةِ الغَرَامِ وَالبَلْبَالِ لَوْ حُطَّ مَا فِيْهِ عَلَى الجِبَالِ
لَمْ تَخْطُرِ البُقْيَا لَهُ بِبَالِ مَا حَالُ مَنْ يُخْنَقُ بِالحِبَالِ
أَوْ يُلْقَ فِي يَدَيْ أَبِيْ الأَشْبَالِ أَوْ يُرْمَ بِالمَسْمُومِ مِنْ نِبَالِ
كَعَسِرٍ فاقِدِ الإِقْبَالِ فَهْوَ بِفَقْدِ الرُّوْحِ لا يُبَالِيْ

ثُمَّ إِنَّهُ أَفَاقَ بَعْضَ الإِفَاقَةِ – وَهُوَ عَلَى غَايَةٍ مِنَ الفَاقَةِ – فَأُشِيرَ عَلَيْهِ بِقَصْدِ بَغْدَادَ دارِ السَّلامِ، فَرَآهُ مِنْ سَدِيْدِ الكَلامِ، فَوَجَّهَ إِلَيْهَا مَسْرَاهُ، وَوَاصَلَ نَحْوَهَا سُرَاهُ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ فِي رَيْعَانِ الشَّبَابِ، وَرَيْحَانِ الشِّبَابِ[7]، وَجِبَاهُ المُلُوكِ فِي أَثَرِهَا تُعَفَّرُ، بِدَوْلَةِ بَانِيْهَا الخَلِيْفَةِ

---

(١) في الأصل: أنفق. والمثبت هو الصواب.

(٢) في الأصل: فداتهم. والصواب المثبت.

(٣) الطِّلْبة: المطلوب.

(٤) هكذا في الأصل، وصوابه: يعفُو، وعَفَا الأثَرُ بمعنى دَرَس وامَّحَى. اللسان (عفا).

(٥) من البحر الرجز.

(٦) الشَّنُّ: الخَلَقُ من كل آنية صُنِعَتْ من جلد، وجمعها شِنَانٌ. اللسان (شنن).

(٧) الشِّبَاب: ما أُوقد به.

المَنْصُورِ أَبِيْ جَعْفَرٍ، فَحِيْنَ حَلَّ بِوَادِيْهَا أَمِنَ مِنَ النَّوائِبِ وَعَوَادِيْهَا، وَأَيْقَنَ أَنَّ صُبْحَ سَعَادَتِهِ قَدْ سَفَرَ، فَأَزَالَ عَنْهُ وَعْثَاءَ السَّفَرِ، وَقَصَدَ دَارَ الوَزِيْرِ مُدِلاً بِفَضْلِهِ الغَزِيْرِ، وَعِنْدَمَا وَاجَهَهُ وَحَيَّاه، أَرَاهُ طَلاَقَةَ مُحَيَّاه، وَأَهَّلَ وَرَحَّبَ، وَأَوْسَعَ صَدْرَهُ وَأَرْحَبَ، وَسَأَلَ عَنِ الأَصْلِ وَالأُرُومَةِ، وَالمَحْتِدِ وَالجُرْثُومَةِ، فَتَسَمَّى لَهُ وَانْتَسَبَ، وَعَرَّفَهُ بِالمَجْدِ وَالحَسَبِ، وَأَعْرَبَ عَنْ بَلاغَةٍ وَفَصَاحَةٍ وَسَلامَةٍ وَنَصَاحَةٍ، فَسُرَّ بِوُرُوْدِهِ سُرُوْرَ الأَحْبَابِ بِلِقَاءِ الأَحْبَابِ، وَمَدَّ لَهُ مِن أَنْوَاعِ المَعِيْشَةِ الأَسْبَابَ، وَاتَّخَذَهُ صَدِيقاً، وَتَصَوَّرَ لَهُ صِدِّيْقاً، وَاسْتَعْمَلَهُ فِي أَكْبَرِ سلارْ عن[1] الدِّيْوَانِ العَزِيْزِ، فَأَبْرَزَهَا كَالدِّيْوَانِ الإِبْرِيْزِ، بِالمَعْنَى البَسِيْطِ وَاللَّفْظِ الوَجِيْزِ، هذا، وَهُوَ مَشْغُوْلُ البَالِ، زَائِدُ البَلْبَالِ، لا يَرُوْقُهُ جَمْعٌ، وَلا يُصْغِي مِنْهُ إِلَى عَذُوْلٍ سَمْعٌ، وَلا تَنْقَضِي لَهُ مِن أَهْلِ اللِّقَاءِ المَطَامِعُ، وَيَجْمَعُهُ وَالهَمَّ وَاللَّيْلَ جَامِعٌ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَتَرَ بِالتَّجَلُّدِ حَالَهُ، وَغَشَّى بِالتَّصَبُّرِ مَا غَيَّرَهُ اللَّيْلُ وَأَحَالَهُ، وَكَانَ مِمَّا قَدَّرَهُ اللهُ مِن سَعْدِهِ، وَأَنْجَزَ لَهُ مِن وَعْدِهِ، أَنْ طَلَبَ الخَلِيْفَةُ مِن وَزِيْرِهِ كَاتِباً ذَا بَلاغَةٍ وَفَصَاحَةٍ، وَرَصَانَةٍ وَرَجَاحَةٍ، يُلازِمُ بَابَ قَصْرِهِ لِكِتَابَةِ مَا يعْرِضُ عَن مَدِّهِ وَقَصْرِهِ، بَرِيئاً مِنَ المَعَارِّ وَالتُّهمَاتِ، يُعْتَمَدُ عَلَى مِثْلِهِ فِي المُهِمَّاتِ، فَأَنْطَقَهُ اللهُ بِوَصْفِ ذلِكَ الرَّجُلِ الغَرِيْبِ، الأَدِيْبِ الأَرِيْبِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ المُرَادِ، وَمِنَ الفَضَائِلِ مُخْتَصِبُ المَرَادِ، فَأَمَرَ بِوَصْفِهِ إِلَيْهِ، وَعَرْضِهِ عَلَيْهِ، فَعِنْدَمَا رَآهُ[2] أَعْجَبَهُ مَرْآهُ وَاسْتَنْطَقَهُ فَأَعْرَبَ عَنْ فَحْوَاهُ، وَأَفْصَحَ عَنْ سِرِّ عِلْمِهِ وَنَجْوَاهُ، فَاتَّخَذَهُ سَمِيراً وَنَدِيماً، وَرَفَعَهُ عَن أَنْ يَكُوْنَ خَدِيماً، وَاتَّخَذَهُ عيبَةً لأَسْرَارِهِ وَاعْتَمَدَهُ لإِضْمَارِهِ وَإِظْهَارِهِ، وَنَوَّلَهُ مِنَ السَّعَادَةِ سِهَامَهُ، وَأَغْدَقَ لَهُ مِن غَمَامِ الفَضْلِ وَبْلَهُ وَرِهَامَهُ، وَأَدَرَّ لهُ أَخْلافَ السَّعْدِ، وَأَنْجَزَ لَهُ الدَّهْرُ مَا سَبَقَ مِنَ الوَعْدِ، فَأَصْبَحَ وَالنَّجْمُ دُوْنَ مَحَلِّهِ، وَقَدْ هَزَمَ صُبْحُ الخِصْبِ لَيْلَ مَحْلِهِ، وَنَاجَتْهُ النِّعَمُ بِبُشْرَاهَا، فَحَمِدَ عِنْدَ صَبَاحِ الإِقْبَالِ مَسْرَاهَا. وفِي المَعْنَى[3]:

وَإِذَا مَـا الحَـظُّ وَافَــى مُحْرَمَــاً[4]	عَـادَ مَثْـوَى الخَـوْفِ مِنْـهُ حَرَمَـا
وَأَتَــى الــدَّهْرُ لَــهُ مُعْتَــذِراً	بَــاذِلاً بِالْبُخْــلِ مِنْــهُ كَرَمَــا
وَإِلَيْــهِ الــسَّعْدُ وَافَــى خَادِمــاً	بَعْـدَمَا كَـانَ حَفِيًـا مُـصْرِمَا[5]
وَاسْــتَرَاحَ البَــالُ مِــنْ بَلْبَالِــهِ	وَلَقَــدْ كَــانَ شَــقِيًا مُغْرَمَــا
وَلَعَمْــرِي مَــنْ بِـهِ الحَـظُّ اعْتَنَــى	زِيْـدَ مَـا قَـدْ كَـانَ مِنْـهُ مُحْرَمَـا

(١) كذا في الأصل، ولو جعل "في" بدل "عن" لكان أولى. و"سلار" و"سالار" لقب يطلق على الآمر الأعلى أو الرئيس في العصر المملوكي. (انظر معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، لمحمد دهمان: ص٩١، ٨٨).

(٢) في الأصل: أراه. والمثبت هو الصواب.

(٣) من البحر الرمل.

(٤) مُحْرَما: يقصد: مَحروما، وهو الشقي الَّذِيْ لا يصيب خيراً من وجه يتوجه إليه. اللسان (حرم).

(٥) مصرماً: يقال: رجل مُصْرِمٌ: قليل المال من ذلك. اللسان (صرم).

وَلَمْ يَزَلْ رَاتِعاً في مَرَاتِعِ الفَضْلِ وَالكَرَمِ، آمِنَ السِّرْبِ مِنْ ذلِكَ الحرَمِ، لا يُقَعْقَعُ لَهُ بِشِنَانٍ[1]، وَلا يُقْدَرُ لَهُ عَلَى شَنَآنٍ، إِلَى أَنْ دَعَاهُ الخَلِيفَةُ في بَعْضِ الأَيَّامِ وَقَدْ قُوِّضَتْ مِنَ النَّهَارِ الخِيَامُ، / [١٤/أ] وَأَخَذَ يُعَدِّدُ لَهُ صَنَائِعَهُ الحَسَنَةَ، وَبَدَائِعَهُ المُسْتَحْسَنَةَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنِّي اخْتَرْتُكَ لِمُهِمٍّ أَهَمَّنِي، وَمُلِمٍّ أَكْرَبَنِي وَغَمَّنِي، وَهُوَ عَدُوٌّ لي مُخْتَفٍ بِالبَصْرَةِ وَضَوَاحِيهَا مُسْتَتِرٌ في جَوَانِبِهَا وَنَوَاحِيهَا، وَكُلٌّ مَن نَدَبْتُهُ لِكِفَايَةِ أَمْرِهِ، وَعَدَمَ مُرَاعَاةِ زَيْدِهِ وَعَمْرِهِ، لا أَرَى مِنْهُ إِلاَّ غِشّاً، وَكَانَ مِمَّنْ مَوَّهَ في كَلامِهِ وَوَشَّى، وَقَدْ أَعْدَدْتُكَ لِكِفَايَتِهِ ذُخْراً، وجَعَلْتُ لَكَ مِن الوِلايَةِ مَا تَزْدَادُ بِهِ فَخْراً، وَقَدْ فَوَّضْتُ إِلَيْكَ وِلايَةَ البَصْرَةِ وَأَعْمَالِها، وَالنَّظَرَ في تَفْصِيلِهَا وَإِجْمَالِها، وَوَثِقْتُ مِنْكَ بِنَصَاحَةِ الجَيْبِ، وَالبَرَاءَةِ مِنَ العَيْبِ، فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ، وَأُعِيذُكَ بِاللهِ أَنْ تَعْتَدِيَ بِمَكْرِ المَاكِرِيْنَ، وَمَتَى حَصَلَتِ الضَّالَّةُ المَنْشُوْدَةُ، والبُغْيَةُ المَقْصُوْدَةُ، ازددتَ مِنِّي تَقَرُّباً، وَنَوَّهْتُ بِاسْمِكَ شَرْقاً وَغرباً[2]، ثُمَّ نَاوَلَهُ عَهْدَ الوِلايَةِ وَعَقَدَ لَهُ بِالإِمَارَةِ رَايَةً، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى دَارِهِ وَمَحَلِّ قَرَارِهِ، فَأَتْبَعَهُ بِمَا تَقَرُّ بِهِ العَيْنُ، مِنَ الخُلَعِ وَالعِيْنِ، ثُمَّ لَمَّا احْلَوْلَكَ مِنَ اللَّيْلِ الإِهَابُ[3]، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ ضَوْءُ الشِّهَابِ، دَخَلَ إِلَيْهِ بَعْضُ خَدَمِهِ المُعَدِّيْنَ لِحَوَائِجِهِ وَخِدَمِهِ، وَأَخْبَرَهُ بِوُصُوْلِ أَبِي المِسْكِ كافُوْرٍ[4] خادِمِ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ، وَمَعَهُ عِدَّةُ خَدَمٍ مِنَ البَنَاتِ وَالبَنِيْنَ، وَأَسْبَابٌ كَثِيْرَةٌ وَفُرُشٌ وَثِيْرَةٌ، وَأَنْوَاعٌ مِنْ فَاخِرِ الأَطْعِمَةِ، وَدَسَاتِجُ[5] بِلَذِيْذِ الأَشْرِبَةِ مُفْعَمَةٌ، فَخَرَجَ إِلَى[6] لِقَائِهِ، وَتَزَايَدَ مِنْهُ الدُّعَاءُ بِطُوْلِ سَلامَتِهِ وَبَقَائِهِ، وَتَسَلَّمَ مَا أَتَى عَلَى يَدِهِ مِنَ النِّعَمِ، وَدَخَلَ إِلَى دَارِهِ وَقَدْ شَمَلَهُ السُّرُوْرُ وَعَمَّ، وَدَخَلَتْ تِلْكَ الجَوَارِيْ كالنُّجُوْمِ الدَّرَارِي، وَبَيْنَهُنَّ وَاحِدَةٌ كَأَنَّها لَهُنَّ رَئِيسَةٌ، وَقَدْ أَثْقَلَهَا المَلابِسُ الفَاخِرَةُ النَّفِيْسَةُ، وَفَرَشُوا الدَّارَ بِتِلْكَ الفُرُشِ الرَّفِيْعَةِ ذَوَاتِ النُّقُوْشِ البَدِيْعَةِ، وَنَصَبُوا مَوَائِدَ الطَّعَامِ، وَنَضَّدُوا عَلَيْهَا مَا أَتَوْا بِهِ مِنَ الأَنْعَامِ، هذا، وَرئيستُهُنَّ قدْ وَصْوَصَتِ[7] النِّقَابَ وَوَالَتِ الارْتِقَابَ، وَهِيَ تَنْهَى وَتَأْمُرُ، وَتُخَرِّبُ مَا لا يُعْجِبُها مِنْ وَضْعِهِنَّ

---

(١) الشِّنان: جمع شَنٍ والشَّنّ: القربة البالية، يحركونها إذا أرادوا حث السير لتفزع الدابة فتسرع، قال النابغة:

كأنك من جمال بني أقيش يقعقع خلف رجليه بشن

وفي المثل: ما يقعقع له بالشِّنان، يضرب لمن لا يتضع لما ينزل بـه من حوادث الدهر. انظر: مجمع الأمثال، للميداني ٣/٢٣٨.

(٢) كان الأولى أن يقول: "ومغرباً"، لتتفق السجعة مع "تقرباً، أو أن يقول في الأولى: "قرباً"، لتتفق مع "غرباً".

(٣) في الأصل: الإرهاب. وهو خطأ.

(٤) كافور: لم أعثر له على ترجمة، وهو ليس كافوراً الإخشيدي صاحب المتنبي، إذ المقصود في المتن شخص آخر خدم في بلاط أبي جعفر المنصور، وأظنه شخصية رمزية غير حقيقية.

(٥) الدَّساتج: جمع دَسْتَجَة، كلمة معرّبة ،معناها الإناء الكبير.

(٦) تكررت "إلى" في الأصل سهواً.

(٧) وَصْوَصَت الجاريةُ إذا لم يُرَ مِنْ قِناعها إلا عيناها. اللسان (وصص).

وَتُعمِّرُ، وَهُوَ يَتَعجَّبُ مِمَّا تُبْدِيْه، وَتَلْحُمُهُ وَتُسْدِيْهِ، مِنْ نَقْضٍ وَإبْرَامٍ، وَتَحَكُّمٍ فِي مُرَادٍ وَمَرَامٍ، فِعْلَ مَن سَبَقَتْ لَهُ مُعَاشَرَةٌ، أَوْ تَقَدَّمَتْ لَهُ مُصَاحَبَةٌ وَمُكَاشَرَةٌ، ثُمَّ وَاجَهَتْهُ بِالعَزِيْمَةِ إِلَى تِلْكَ الوَلِيْمَةِ، وَهِيَ مَعَ تَرْكِ الاسْتِحْيَا، لا تُسفِرُ عَنِ المُحَيَّا، وَعِنْدَمَا جَلَسَا لِلتَّنَاوُلِ مِن ذلِكَ الطَّعَامِ، وَالتَّنَبُّطِ[1] فِي نَعِيْمِ ذلِكَ الإنْعَامِ أَمَاطَتْ عَنْ وَجْهِهَا الحِجَابَ، وَقَالَتْ بِلِسَانِ الإعْجَابِ[2]:

يَا مَنْ تَبَدَّى سَرِيًّا أَهَلْ نَسِيْتَ الثُّرَيَّا؟!

فَعِنْدَمَا حَقَّقَ رُؤْيَاهَا، وَاسْتَنْشَقَ رَيَّاهَا، أَخَذَتْهُ غَشْيَةٌ أَحْدَثَتْ مِن فَوْتِهِ خَشْيَةً، وَبَعْدَ لأيٍ أَفَاقَ وَتَعجَّبَ مِن غَرِيْبِ هذا الاتِّفَاقِ، وَبَاتَا بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ قَدْ كُفِيَا حَرْبَ الزَّمَانِ وَوَيْلَهُ، ثُمَّ لَمْ يرث[3] أَنْ تَوَجَّهَ إِلَى عَمَلِهِ مُبَلَّغاً غَايَةَ أَمَلِهِ، وَبَذَلَ الجُهْدَ فِيمَا نُدِبَ إِلَيْهِ، وَعُوِّلَ فِيْهِ عَلَيْهِ، إِلَى أَنْ تَيَسَّرَ وَتَسَهَّلَ، بَعْدَ أَنْ أَحْزَنَ فِي طَلَبِهِ وَأَسْهَلَ، وَازْدَادَ حُظْوَةً عِنْدَ الخَلِيْفَةِ، وَجَعَلَهُ سَمِيْرَهُ وَحَلِيْفَهُ، إِلَى أَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا المَوْتُ وَغَالَهُمَا الفَوْتُ. فَمَا سُمِعَ بِمِثْلِ هذا السَّمَرِ فِي الأَسْمَارِ، وَلا تَسَامَرَ بِنَظِيْرِهِ السُّمَّارُ.

المَقَامَةُ السَّادِسَةُ (الوَاسِطِيَّةُ):

حَدَّثَ بَعْضُهُمْ قَالَ: كَانَ فِي جِوَارِيْ بِوَاسِطَ شَابٌّ حَسَنٌ، ذُوْ بَلاَغَةٍ وَلَسْنٍ، غَيْرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ اسْتَهْوَاهُ وَامْتَحَنَهُ بِمُعَاقَرَةِ الشَّرَابِ وَأَغْوَاهُ، فَكَانَ لا يَصْحُو مِنْ خُمَارٍ، وَلا يُفَارِقُ حَانَةَ خَمَّارٍ، يَقْطَعُ المَسَاءَ وَالصَّبَاحَ فِي الاغْتِبَاقِ وَالاصْطِبَاحِ، وَيَصِلُ النَّهَارَ بِاللَّيْلِ وَهُوَ فِي ذلِكَ مُشَمِّرُ الذَّيْلِ لا يُصْغِي لِلَوْمِ لائِمٍ، وَلا يَنْفَكُّ عَنْ عَمَلِ الوَلائِمِ، وَلَمْ يَزَلْ مُسْتَصْحِباً لِهذَا الحَالِ فِي الخِصْبِ وَالإمْحَالِ إِلَى أَنْ أَتْلَفَ مَالَهُ فِي المَالِ وَالكَبَابِ[4]، وَالشَّرَابِ وَمُعَاشَرَةِ الأَتْرَابِ، وَأَصْبَحَ فَقِيْراً لا يَمْلِكُ فَتِيْلاً وَلا نَقِيْراً يَرْثِي لَهُ الشَّامِتُ وَالحَسُودُ، وَيَرِقُّ لَهُ السَّيِّدُ وَالمَسُودُ، يَتَلَهَّبُ فِي جَمَرَاتِ فَقْرٍ مُدْقِعٍ، وَيَتَقَلَّبُ فِي غَمَرَاتِ بُؤْسٍ فِي كُلِّ بَلاءٍ يُوْقِعُ، فَلَبِثَ عَلَى ذلِكَ حِيناً / مِنَ الدَّهْرِ يَتَجَرَّعُ غُصَصَ القَسْرِ وَالقَهْرِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ بَعْدَ مُدَّةٍ، وَالسَّعْدُ قَدْ أَمَدَّهُ، وَتَرَاجَعَتْ حَالُهُ وَأَخْصَبَ إِمْحَالُهُ، وَأَقْلَعَ وَتَابَ وَلاذَ بِالمَتَابِ، وَأَصْبَحَ مَلِيًّا غَنِيًّا مُكَرَّماً سَرِيًّا، فَسَأَلْتُهُ عَن سَبَبِ الغِنَى وَمَا الَّذِي أَرَاحَهُ مِن ذلِكَ، فَدَافَعَنِي عَنِ الجَوَابِ فَمَا انْدَفَعَتْ، وَسَأَلَنِي أَنْ أَرْفَعَ عَنْهُ سُؤَالِي فَمَا رَفَعْتُ، وَبَالَغْتُ وَأَبْرَمْتُ، وَأَجَّجْتُ نَارَ المَسْأَلَةِ وَأَضْرَمْتُ، فَلَمَّا رَأَى مِنِّيْ الجِدَّ وَحَالَةَ [١٤/ب]

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: التبسّط، أي التنزه.

(٢) من البحر المجتث.

(٣) يرث: يبطئ.

(٤) الكباب: هو الطَّباهجة، وجاء في اللسان: الطَّباهِجَةُ: فارسيٌّ معرَّب، ضربٌ من قليّ اللحم. اللسان (كبب) و (طبهج).

المُجْتَهِدِ المُجِدِّ. [قالَ:] [١] أُخْبِرُكَ بِشَرْطِ الكِتْمَانِ، وَأَنْ تُعْطِيَنِي مِنَ الإذَاعَةِ الأَمَانَ، فَعَاهَدتُهُ عَلَى ذلِكَ وَسَتْرِ مَا هُنَالِكَ، فقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ مِنَ الفَاقَةِ، وَالحالَةِ الّتي لَمْ أَجِدْ مِنْ أَلَمِهَا إِفَاقةً، وَقُدِّرَ أَنْ وَلَدَتِ الزَّوْجَةُ بَعْدَ العِشَاءِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا شَيءٌ مِنَ العَشَاءِ، فَقَالَتْ: انْظُرْ لي طَعَاماً أَحْسُوْ مِنْهُ مَا يُمْسِكُ رَمَقِي، وَيُسْعِفُ مِن قُوَّتِي مَا بَقِيَ، وَكَانَ الوَقْتُ[٢] بارِداً وَسَهْمُ الزَّمْهَرِيْرِ صَارِداً[٣]، فَخَرَجْتُ عَلَى وَجْهِي أَطْلُبُ مَن يَتَصَدَّقُ عَلَيَّ أَوْ يَنْظُرُ بِعَينِ الرَّحْمَةِ إِلَيَّ، وَمَالَ بِيَ السَّيْرُ إِلَى زُقَاقٍ طَوِيلٍ غَيْرِ نَافِذٍ، لا تَسلُكُهُ مِن ظُلْمَتِهِ القَنَافِذُ، وَفِي صَدْرِهِ بَابٌ مَفْتُوحٌ، وَضِمْنَهُ سِرَاجٌ يَلُوحُ، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: البِدَارَ البِدَارَ، وَتَقَحَّمْتُ الدَّارَ، وَإِذَا في صَدْرِهَا رَجُلٌ يُوْقِدُ ضِرَاماً وَقَدْ وَضَعَ عَلَيْهِ قِدْراً بِراماً[٤]، فَعِنْدَمَا رَآنِيْ صَاحَ صَيْحَةً مُنْكَرةً، وَقَالَ: أَتظُنُّ هذِهِ الدَّارَ الدَّسْكَرَةَ[٥]، فَتَدْخُلَ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، وَتَتَعَرَّضَ لِعَرْكِ الآذَانِ؟! فَقَصَّيْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِي، وَمَا تَجَرَّعْتُ مِن غُصَّتِي، فَأَدْرَكَتْهُ رَأْفَةٌ عَلَيَّ، وَنَظَرَ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ إِلَيَّ، وَقَالَ: امْضِ إِلَى ذلِكَ البَيْتِ وَاسْتَرِحْ فِيهِ قَلِيْلاً، وَعَلِّلْ نَفْسَكَ بِالمُنَى تَعْلِيلاً، إِلَى أَنْ يَسْتَوِيَ هذا الطَّعَامُ، وَأُعْطِيكَ مِنْهُ ما يَكْفِيكَ الاسْتِطْعَامَ، وَأَهَبُكَ نَفَقَةً تَكْفِيكَ أَيَّاماً، وَتَبَرُّ بِهَا يَتَامى وَأَيَامى، وَدَفَعَ إِلَيَّ كِسَاً، وَقَالَ: تَغَطَّ بِهِ مِنْ هذا البَرْدِ الَّذِيْ عَسَا[٦]، وَكُنْتُ بِقَمِيْصٍ، وَالجَوْفُ خَمِيْصٌ، فَلَمْ يَطْرُقْنِي النَّوْمُ جَزَعاً وَخَوْفاً وَفَزَعاً، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ جَاءَ رَجُلٌ عَارِيْ الجِسْمِ، مُوفِرٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ القِسْمَ، يَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهِ شَيْئاً ثَقِيْلاً، وَجَعَلَ سَبَبَ قُوَاهُ كَلِيْلاً، فَقَامَ إِلَيْهِ الذِي كانَ يَطْبُخُ وَأَنْزَلَهُ عَنْ رَأْسِهِ، وَاسْتَوْثَقَ مِنَ البَابِ بِأَغْلاقِهِ وَأَمْرَاسِهِ[٧]، وَأَخَذَ يَسْأَلُهُ عَنْ إِبْطائِه، وَأَنَّهُ كانَ قَدْ يَئِسَ مِن لِقَائِه، فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ يَوْمِي وَلَيْلَتِي خَلْفَ حَطَبٍ لَهُمْ مُخْتَفِياً، وَكَانَ الأَمْنُ عَنْ نَفْسِي مُنْتَفِياً، إِلَى أَنْ تَمَكَّنْتُ مِنْ أَخْذِ هذِهِ البَدْرَةِ، وَلَمْ أَدْرِ هَلْ حَوَتْ شَمْسَ النَّقْدِ أَمْ بَدْرَهُ، وَقَدْ مِتُّ جُوْعاً، وَفَقَدتُّ قَراراً وَهُجُوْعاً، فَانْظُرْ إِلَى مَا يَسُدُّ جُوْعِي، وَيُسَبِّبُ هُجُوْعِي، وَمَضَى فَلَبِسَ عَلَيْهِ شَيّاً، وَقَامَ ذاكَ فَغَرَفَ مِنَ الطَّعَامِ مَا تَهَيَّأَ، وَجَلَسَا يَأْكُلانِ وَيَتَحَادَثَانِ، وَيَتَحَاسَبَانِ كَأَنَّهُمَا مُتَوَارِثَانِ، وَقَدْ جَزِعَتْ نَفْسِي جَزَعاً، وَصَارَ عَقْلِي فَزِعاً، وَصِرْتُ مُتَحَيِّراً لا أَدْرِيْ مَا أَصْنَعُ، وَلا

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) في الأصل: "الوقت الوقت" وهو سهو.

(٣) الصارد: البارد. اللسان (صرد).

(٤) بِرام: البُرْمَةُ: قِدْرٌ من حجارة، والجمع بُرَمٌ وبِرامٌ وبُرْمٌ. اللسان (برم).

(٥) الدَّسْكَرَةُ: بناءٌ كالقَصْرِ حولَه بيوت للأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي. اللسان (دسكر).

(٦) عَسا: اشتدّ. اللسان (عسا).

(٧) المَرَسة: الحبل، والجمع مَرَسٌ وأَمْراس. اللسان (مرس).

كَيفَ أدرَأُ عَن نَفسِي وَأمنَعُ[1]، وَلَمْ أرَ غَيرَ التَّنَاوُمِ حِيلَةً، إذْ كُلُّ صُورَةٍ صَوَّرْتُها أرَاهَا مُستَحِيلَةً، وَسَلَّمْتُ نَفْسِيَ لِلأقْدَارِ وَمَا يَجْرِي بِهِ الفَلَكُ الدَّوَّارُ، وَأخَذَا يَتَنَادمان عَلَى شَرَابٍ أخْرَجَاهُ بَعْدَمَا مَزَجَاهُ، وَأقبَلَ الَّذِي كانَ عُرْيَاناً مِنهُ يَستَكثِرُ، وَلا يَدَعُ لِصَاحِبِهِ وَلا يُؤْثِرُ، وَصَاحِبُهُ يُحَسِّنُ لَهُ ذلِكَ وَيَقُولُ: عَسَاهُ يَدْفَعُ عَنْكَ سَوْرَةَ البَرْدِ، فَإنَّهُ يَدفَعُ مَا لا تَدْفَعُهُ مُقَدِّرَاتُ السَّرْدِ[2]، إلَى أنْ سَكِرَ وَنَام، وَسَقَطَ إلَى الأرْضِ مِنهُ السَّنَامُ، وَقَامَ الأوَّلُ في الدَّارِ يَطُوفُ كالبَاشِقِ الخَطُوفِ، ثُمَّ جَاءَنِي وَكَلَّمَنِي فَمَا نَبَسْتُ، وَمَسَكْتُ نَفْسِي وَحَبَسْتُ، فَرَقاً مِن أنْ يَعلَمَ اطِّلاَعِي عَلَى المَسلُوبِ وَالمالِ المَجلُوبِ، فَيُلْحِقَنِي بِمَنْ فاتَ مِن آفَاتِ العِظَامِ الرُّفَاتِ، فَتَحَقَّقَ نَوْمِي، وَأمِنَ لَوْمِي، وَذَهَبَ إلَى ذلِكَ النَّائِمِ وَقَدْ فَغَرَ فاهُ، فَذَبَحَهُ مِن قَفَاهُ، وَلَفَّهُ في كِسَاءٍ وَاحْتَمَلَهُ، وَتَرَكَ البابَ مَفْتُوحاً وَأهْمَلَهُ. فَقُلْتُ في نَفْسِي: مَا ذَا القُعُودُ وَقَدْ أسفَرَتِ السُّعُودُ؟ فَقُمْتُ إلَى تِلْكَ البِدْرَةِ وَلَفَفْتُها في الكِسَا، وَتَرَكْتُ قَوْلَ لَعَلَّ وَعَسَى، وَخَرَجْتُ أسعَى أشَدَّ السَّعْيِ، وَلَمْ يَبْقَ مَعِي شَيءٌ مِنَ الوَعْيِ، فَلَمْ أُطِلْ حَتَّى رَأيْتُ / إنْسَاناً خَرَجَ مِنْ بابِ مَسْجِدٍ لِلحَاجَةِ، فَخَالَفْتُهُ [١٥/أ] إلَيْهِ قَبْلَ أنْ يَأتِيَ وَيُحْكِمَ رِتَاجَهُ، وَوَضَعْتُ مَا حَمَلْتُ، وَتَصَبَّرْتُ وَاحْتَمَلْتُ، وَجَاءَ الَّذِي خَرَجَ مِن المَسْجِدِ وَأغْلَقَ بَابَهُ وَتَفَقَّدَ أسْبَابَهُ، وَعِندَمَا رَآنِي أنْكَرَ دُخُولِي وَسَألَنِي عَن سَبَبِ حُلُولِي، فَقُلْتُ: رَجُلٌ غَرِيبٌ جِئْتُ مِن السَّوَادِ[3] السَّاعَةَ، وَمَعِي بَعْضُ بِضَاعَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ في الإمْكَانِ أنْ أتَجاوَزَ هذَا المَكَانَ، فأجِرْنِي يا إنْسَانُ، وَتَمِّمِ الإحْسَانَ. فَقَالَ: نَمْ مَكانَكَ فَقَدْ بَلَغْتَ أمَانَكَ. فَلَمْ أُطِلْ حَتَّى سَمِعتُ في الطَّرِيقِ حَرَكَةَ سَعْيٍ شَدِيدٍ وَصَوْتَ رَجُلٍ حَدِيدٍ، وَإذَا هُوَ صَوْتُ صَاحِبِي بِعَيْنِهِ أدَامَ اللهُ مُدَّةَ بَيْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: فَعَلَهَا ابْنُ الزَّانِيَةِ! مَنْ لِي بِأنْ ألْقَاهُ ثَانِيَةً؟ وَيْلِي عَلَى دَمِهِ، وَلا أمُوتُ بِنَدَمِهِ. فَأبْصَرْتُ مِن شُبَاكِي المَسْجِدِ، وَإذَا في يَدِهِ خِنْجَرٌ مُجَرَّدٌ، وَهُوَ بِصُورَةِ المُطَرَّدِ المُشَرَّدِ، يَتَرَدَّدُ جائِياً وَذَاهِباً، لا وَجِلاً وَلا رَاهِباً، وَيُعْمِيْ اللهُ عَن بابِ المَسْجِدِ بَصَرَهُ، وَيُرِيْنِي مِن لُطفِهِ آيةً مُبْصِرَةً، إلَى أنْ أيِسَ وَمَضَى، وَقَدْ قَضَى اللهُ عَلَيهِ ما قَضَى، وَلَمْ أزَلْ طُولَ لَيْلَتِي سَاهِرَ الأجْفَانِ، مُلازِمَ الرَّجَفَانِ، إشْفَاقاً مِن غِيلَةِ ذلكَ المُعْتَدِي، وَخَوْفاً عَلَى ما دَخَلَ في يَدِيْ، إلَى أنْ أضَاءَ الصَّبَاحُ، وَانْقَضَتْ دَوْلَةُ المِصْبَاحِ، وَأُذِّنَ في المَسْجِدِ فَخَرَجْتُ كَأنِّي أتَوَضَّأُ لِلصَّلاةِ، وَحَمَلْتُ ما قُدِّرَ لِي مِنَ الصِّلاتِ، وَمَشَيْتُ في الطَّرِيقِ وَقَدْ كَثُرَ مَشْيُ النَّاسِ، وَتَبَدَّلَتِ الوَحْشَةُ بِالاستِئْنَاسِ، حتَّى انْتَهَيْتُ إلَى البَيْتِ، وَقَدْ حَصَلْتُ عَلَى ما سَبَيْتُ، فَأخْفَيْتُهُ عَنِ العُيُونِ، فِعْلَ المُفلِسِ المَدْيُونِ، وَأصْلَحْتُ بِقَلِيلٍ مِنهُ حالَ الزَّوْجَةِ وَحَالِي، وَأزَلْتُ بِالخِصْبِ

(١) في الأصل: وأصنع. والمثبت هو الصواب.

(٢) السَّرد: اسم جامع للدروع وسائر الحلق. اللسان (سرد).

(٣) السَّواد: ما حول المدن من قرى ورساتيق. اللسان (سود).

مِنْهُ دَرَنَ إِمْحَالِي، وَكَانَ لأَبِي ضَيْعَةٌ قَدْ خَرِبَتْ، وَتَلاشَتْ أَحْوَالُها وَاضْطَرَبَتْ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهَا، وَصَرَفْتُ[١] – غَالِبَ أَوْقَاتِي – المالِ عَلَيْها، إِلَى أَنْ أَصْلَحَتْ حالُهَا وَعَمَرَتْ، وَازْدَهَرَتْ أَدْوَاحُها وَأَثْمَرَتْ، وَتَرَاجَعَ ضِيْقُ الحالِ إِلَى السَّعَةِ، وَبَقِيْنَا مَعَهُ في خَفْضٍ وَدَعَةٍ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لا يَقَعُ إِليَّ أَبَداً[٢] مِثْلُ هذا الاتِّفَاقِ، فَتَرَكْتُ الإسْرَافَ في الإنْفَاقِ، وَلَزِمْتُ التَّقْوَى، فَمَا[٣] أَقْفَرَ لي مَنْزِلٌ مِنَ الخَيْرِ وَلا أَقْوَى.

وَقالَ الرَّاوِيْ: فَلَمَّا فَرَغَ مِن قَوْلِهِ، وَمَا قَاسَاهُ مِن قَسْوَةِ ذلِكَ الظَّالِمِ وَهَوْلِهِ، وَمَا سَاقَتْهُ إِلَيْهِ الأَقْدَارُ، حتَّى خَلَصَ مِن تِلْكَ الأَكْدارِ، وَوَفَيْتُ لَهُ بِعَهْدِ الكِتْمَانِ، وَلَمْ أُحَدِّثْ بهِ إلاَّ بَعْدَ أَنْ غَدَرَ[٤] بهِ الزَّمَانُ، وَطَوَيْتُ اسْمَهُ طَيَّ السِّجِلِّ للكِتَابِ. وَاللهُ يُوَفِّقُنَا للمَتَابِ.

المَقَامَةُ السَّابِعَةُ:

إِنَّ مِنْ عَجِيْبِ الأَسْمَارِ، وَغَرِيبِ ما يَتَسَامَرُ بِهِ السُّمَّارِ، ما حَكَاهُ قباث بنُ رزينٍ اللَّخميُّ[٥] عَنْ نَفْسِهِ، وَمَا وَقَعَ لَهُ في أَسْرِهِ وَحَبْسِهِ، قالَ: أُسِرْتُ في خِلاَفَةِ مُعَاوِيَةَ، عِنْدَ كِلابِ الرُّوْمِ العَاوِيَةِ، وَكانَ طاغِيَتُهُمْ إِذْ ذاكَ أَشَدَّ الكُفَّارِ عَدَاوَةً للإِسْلامِ وَأَهْلِهِ، إِلاَّ أَنَّهُ كانَ حَلِيْماً في حَزْنِهِ وَسَهْلِهِ، وَكانَ أَسْرَى المُسْلِمِيْنَ في أَيَّامِهِ أَحْسَنَ حَالاً، وَأَقلَّ جَدْباً وَإِمْحَالاً، ثُمَّ لَمَّا هَلَكَ، وَتَغَلَّبَ ابنُهُ وَمَلَكَ، قالَ: إِنَّ الأَسْرَى إذا طَالَ مُكْثُهُمْ بِبَلَدٍ – وَلَوْ كانَ رَدِيًّا – صَارَ لَهُمْ كالوَطَنِ، وَأَلِفُوْهُ كَمَا يُؤْلَفُ العَطَنُ، وَلا شَيْءَ أَنْكَى لِقُلُوْبِهِمْ مِن نَقْلِهِمْ مِن بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَأَنَّهُمْ لا يُمَكَّنُوْنَ[٦] مِنِ اتِّخَاذِ زَوْجَةٍ وَلا وَلَدٍ. وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ اثْنَيْ عَشَرَ قِدْحاً[٧] بِعَدَدِ بَطارِقَتِهِ الكِبَارِ، وَكَتَبَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا اسْمَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِمَا يَرُوْمُهُ مِنَ الاعْتِبَارِ، وَيَضْرِبُ بِتِلْكَ القِدَاحِ في كُلِّ سَنَةٍ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَيَنْظُرُ مَا يَخْرُجُ في تِلْكَ الكَرَّاتِ، فَمَنْ خَرَجَ بِاسْمِهِ القِدْحُ الأَوَّلُ حَوَّلَ المُسْلِمُوْنَ إِلَيْهِ، وَعَوَّلَ في حِفْظِهِمْ عَلَيْهِ، فَاحْتَبَسَهُمْ عِنْدَهُ شَهْراً، وَأَذَاقَهُمْ نَكَالاً وَقَهْراً،

---

(١) في الأصل: أصرفت. والصواب المثبت.

(٢) في الأصل: أبد. وهو خطأ.

(٣) في الأصل: فلما.

(٤) في الأصل: بعد أن عن غدر. وعن هنا زائدة.

(٥) في الأصل: قباب. قال في القاموس المحيط، للفيروزآبادي، تحقيق محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤٢٤هـ، ٢٢٢/١: "قبث به يقبث قبض، وقباث –كسَحاب– ابن رزين اللخمي: محدِّث". وفي كتاب المعرفة والتاريخ للفسوي: "وقال ابن بكير: توفي قباث بن رزين اللخمي سنة سبع أو ثمان وخمسين ومائة، ثم بلغني أنه عرض كتابي علَى ابن بكير فقال: سنة ست أو سبع". ٨/١.

(٦) في الأصل: يمكنوا.

(٧) في الأصل: قدح. وهو خطأ.

وَمَن خَرَجَ بِاسْمِهِ القِدْحُ الثَّانِي ذَهَبُوا بِهِمْ إِلَيْهِ وَقَدْ تَعَوَّذُوا مِن شَرِّهِ بِالسَّبْعِ المَثَانِي، وهكَذَا يَفْعَلُوْنَ فِي الثَّالِثِ وَهُمْ يَتَلاهَوْنَ بِالمَثَانِي وَالمَثَالِثِ. ثُمَّ تُعَادُ القِدَاحُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيَسْلُكُوْنَ بِهَا تِلْكَ المَسَالِكَ. قَالَ: فَكُنَّا لا نَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِن أُولئِكَ المَلاحِدِ إِلاَّ قَالَ: احْمَدُوا اللهَ خَالِقَ الإِنْسِ والجَانِّ حِيْنَ لَمْ يَبْتَلِكُمْ بِبِطْرِيْقِ ثَغْرِ البرجان. قال: فَكُنَّا نَرْتَاعُ لذكرِهِ، ونُداوِمُ عَلَى حَمْدِ اللهِ وشُكْرِهِ، إذْ لم يُرَوِّعنا / بِرُؤْيَتِه، ولم يُبلِّغْهُ مِنَ التَّحَكُّمِ فِيْنَا مَدارِكَ أُمْنِيَّتِهِ، فَمَكَثْنَا [١٥/ب] عَلَى ذلِكَ سِنِيْنَ وَنَحْنُ فِي حُكْمِ الآمِنِيْنَ، ثُمَّ لَمَّا ضَرَبَ بالقِدَاحِ فَخَرَجَ الأَوَّلُ وَالثَّانِي لاثْنَيْنِ مِنَ البَطَارِقَةِ، وَخَرَجَ الثَّالِثُ لِبِطْرِيْقِ ثَغْرِ البرجانِ الَّذِيْ كُنَّا نَخْشَى طَوَارِقَهُ، فَمَرَّ بِنَا فِي الشَّهْرَيْنِ غَمٌّ كَثِيْرٌ، وَهَمٌّ وَثِيْرٌ، إِلَى أَنْ مَضَيَا، وَفَرَغَا وَانْقَضَيَا، فَحُمِلْنَا إِلَيْهِ، وَعُوِّلَ فِي إِيذَائِنَا عَلَيْهِ، فَرَأَيْنَا عَلَى بابِهِ مِنَ الجَمْعِ فَوْقَ ما كانَ يَطْرُقُ السَّمْعَ، وَعَانينا مِن زَبَانِيَتِهِ مِنَ الفَظَاظَةِ، وَالقَسْوَةِ وَالغَلاظَةِ، مَا لَمْ نَرَهُ قَبْلُ مِمَّنْ كُنَّا نَغْشَاهُ، وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى ما كُنَّا نَحْذَرُهُ وَنَخْشَاهُ، وَعِنْدَمَا وَصَلْنا إِلَيهِ، وَوَقعَ بَصَرُنا عَلَيه، شَاهَدْنا مِن فَظَاظَتِهِ وَقَسْوَتِهِ وَغَلاظَتِهِ، مَا أَيْقَنَّا مَعَهُ بالتَّبَارِ، وعَدَمِ الاصْطِبَارِ، دَعَا بِصَانعِ الحَدِيْدِ، وَأَمَرَهُ فِي المُسْلِمِيْنَ بِأَضْعَافِ التَّقْيِيْدِ وَالتَّشْدِيْدِ، فَلَمْ يَزَلِ الحَدِيْدُ يُوضَعُ فِي رِجْلِ وَاحِدٍ واحِدٍ، بِأَمْرِ ذلِكَ الكَافِرِ الجَاحِدِ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَيَّ، وَرَامَ طَرْحَ الحَدِيْدِ عَلَيَّ، فَنَظَرْتُ فِي وَجْهِ البِطرِيقِ فَرَأَيْتُهُ قدْ نَظَرَ إِلَيَّ بِعَينِ رِفْقٍ ولُطفٍ، وَحُنُوٌّ وَعَطْفٍ، وَسَأَلَنِي بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ عَنِ اسْمِيْ وَنَسَبِيْ، وَوَطَنِي وَحَسَبِيْ، فَصَدَقْتُهُ عَنْ سُؤَالِهِ بِاخْتِصَارِ القَوْلِ وَإِجْمَالِهِ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ تَحْفَظُ القُرْآنَ فَاقْرَأْ لِيْ مِن سُوْرَةِ آلِ عِمْرَانَ، فَقَرَأْتُ مِنْهَا نَحْوَ خَمْسِيْنَ آيَةً، إِلَى أَنْ بَلَغْتُ تِلْكَ الغَايَةَ، فقالَ: إِنَّكَ لَفَصِيحٌ بِتِلاوَةِ التَّنْزِيْلِ، حَرِيٌّ بِالتَّكْرِيْمِ وَالتَّبْجِيْلِ. وَاسْتَنْشَدَنِيْ شَيْئاً مِنَ الشِّعْرِ فَأَنْشَدتُهُ، وَاسْتَزَادَنِي فَزِدتُّهُ، فَاسْتَحْسَنَ ذلِكَ مِنِّي وَأَعْجَبَهُ، وَمَدَحَهُ وَرَحَّبَهُ، ثُمَّ قالَ لِخَلِيفَتِهِ: قَدْ وَثِقتُ بِهذَا الرَّجُلِ فَلا تُقَيِّدْهُ بِالحَدِيْدِ، وَأَمِدَّهُ مِنِّي بِالخَيْرِ المَدِيْدِ. ثُمَّ قَالَ: وَلَيْسَ مِنَ الإِنْصَافِ أَنْ أَسُوْءَهُ فِي أَصْحَابِهِ وَخُلاَّنِهِ، وَأَخْدَانِهِ وَإِخْوَانِهِ. فَأَمرَ بِفَكِّ الحَدِيْدِ عَنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ، وَمَتَّعَهُمْ بِالعَيْشِ الرَّغِيْدِ وَالمَاءِ المَعِيْنِ، ثُمَّ دَعَا صَاحِبَ مَطْبَخِهِ فقالَ لَهُ: لَسْتُ أَطْعَمُ طَعَاماً مَا دَامَ هذا العَرَبِيُّ عِنْدَ الإِمَّعَةِ[1]، وَأُشْرِكُهُ مَعِي فِي العَيْشِ الرَّخِيِّ وَالدَّعَةِ، وَاحْذَرْ أَنْ تُدْخِلَ لِلْمَطْبَخِ ما لا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِيْنَ أَكْلُهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَ الخَمْرَ فِي شَيءٍ مِنَ الطَّعَامِ فَإِنَّ المُسْلِمَ لا يَسْتَحِلُّهُ. وَاسْتَدْنانِي وَأَجْلَسَنِي عَلَى مَرْتَبَتِهِ، وَسَاوَانِي مَعَهُ فِي رُتْبَتِهِ، فَعِنْدَمَا رَأَيْتُ إِكْرَامَهُ، وَتَوْقِيْرَهُ وَاحْتِرَامَهُ، وَآنَسْتُ نارَ أُنْسِهِ، وَدَلَّنِي

(١) هكذا في الأصل، والمعنى غير واضح.

فِعْلُهُ عَلَى كَرَمِ قنسِهِ. قُلْتُ[1] لَهُ: فَدَتْكَ نَفْسِي أيُّ العَرَبِ لَكَ أَرُومَةٌ، فَإِنَّكَ لَمِنْ أَكْرَمِ جُرْثُومَةٍ؟ فَضَحِكَ وَقَالَ: لَسْتُ أَعْرِفُ لِمَسْأَلَتِكَ جَوَاباً، إذْ لَسْتُ عَرَبِيًّا لِلْقِفَارِ جَوَّاباً. فَقُلْتُ: مَعَ هذهِ الفَصَاحَةِ بِالعَرَبِيَّةِ، وَالنَّفْسِ الكَرِيْمَةِ الأَبِيَّةِ؟! فَقَالَ: إن كَانَ العِلْمُ بِاللِّسَانِ مِن جِنْسٍ إِلَى جِنْسٍ يَنْقُلُ الإِنْسَانَ، فَأَنْتَ إِذاً رُومِيٌّ الجِنْسِ، لَسْتَ بِعَرَبِيِّ القَنْسِ، إذْ فَصَاحَتُكَ بِلِسانِ الرُّوْمِ لَيْسَتْ بدون فَصَاحَتِي بِلِسَانِ العَرَبِ، فَعَلَى قِيَاسِ قَوْلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ رُوْمِيًّا وَأَكُونَ عَرَبِيًّا، وَيَتَبَدَّلُ النَّبْعُ بِالغَرْبِ. فَقُلْتُ: صَدَقْتَ فِيمَا بِهِ نَطَقْتَ. وَأَقَمْتُ عِنْدَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً لَمْ أَكُنْ مُنْذُ خُلِقْتُ في نِعْمَةٍ أَكْثَرَ مِنها وَلا أَرْغَدَ، وَلا يَمْضِي يَوْمٌ إلاَّ وَيَأْتِي أَحْسَنَ مِنْهُ الغَدُ، وَفِي اللَّيْلَةِ السَّادِسَةَ عَشرَةَ[2] فَكَّرْتُ في مُضِيِّ نِصفِ الشَّهْرِ، وَأَنَّ الأَيَّامَ تُقَرِّبُنِي مِنَ الانْتِقَالِ إِلَى غَيْرِهِ وَأَعُودُ إِلَى الغَمِّ وَالقَهْرِ، فَبِتُّ بِلَيْلَةٍ كَلَيْلَةِ زِيَادٍ[3]، وَالوَسْوَاسُ يُتْحِفُنِي مِنَ الكَرْبِ بِالازْدِيَادِ، فَلَمَّا طُفِئَ المِصْبَاحُ وَأَسْفَرَ الصَّبَاحُ، دَعَانِي رَسُوْلُهُ لِحُضُوْرِ طَعَامِهِ وَمَوَائِدِ إِنْعَامِهِ، وَعِنْدَمَا وُضِعَ الخِوَانَ، وَجَلَسَ الإِخْوَانُ، رَأَى يَدِي قَصَرَتْ عَن طُوْلِهَا المَعْهُوْدِ، وَانْقَبَضَتْ عَن تبسّطِهَا المَشْهُوْدِ، فَضَحِكَ وَأَخْبَرَنِي عَمَّا في ضَمِيْرِي، كَأَنَّهُ كانَ مُجَالِسِي وَسَمِيْرِي، فَقُلْتُ له: لَقَدْ صَدَقَتْ فِرَاسَتُكَ – دَامَتْ حِرَاسَتُكَ –. فقالَ: ما أَنَا بِخَبِيْرٍ إنْ لَمْ أُحْسِنِ الاخْتِبَارَ لِلْخَلِيْلِ، وَأَنْظُرْ في حَالِهِ الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْلِ، فَطِبْ نَفْساً وَقَرَّ عَيْناً، فَلَسْتَ تَرَى أَسًى وَلاَ بَيْناً، فَإِنِّي لَمْ أَبِتْ في اليَومِ الَّذِيْ رَمَقْتُكَ فِيهِ إلاَّ وَتَلافَيْتُ أَمْرَكَ بِأَحْسَنِ تَلافِيْهِ. وَسَأَلْتُ المَلِكَ قَصْرَكَ عِنْدِي مَا لَبِثْتَ في أَرْضِ / الرُّوْمِ، فَلَسْتَ تَرَى إلاَّ مَا تُحِبُّ وَتَرُوْمُ، وَلاَ تَخْرُجُ مِن يَدِي إلاَّ إِلَى وَطَنِكَ وَمَحَلِّ عَطَنِكَ. فَطابَتْ نَفْسِي وَفَرِحَتْ، وَاطْمَأَنَّتْ وَانْشَرَحَتْ، ثُمَّ لَمَّا قَوَّضَ الشَّهْرُ خِيَامَهُ، وَقَضَى أَيَّامَهُ، ضَرَبَ بالقِدَاحِ عَلَى العَادَةِ، وَنَقَلَ أَصْحَابِي إِلَى بِطَرِيقٍ آخَرَ وَقَدْ زَالَتْ عَنهُمُ [١٦/أ]

---

(١) في الأصل: فقلت. والمثبت هو الصواب.

(٢) في الأصل: السادسة عشر.

(٣) زياد: هو النابغة الذبياني، يقال: (ليلة النابغة)، وقد حدث أبو العيناء عن الأصمعي أنه قال: انصرفت ليلة من دار الرشيد وأنا أشكو علة، ثم غدوت إليه فقال لي يا أصمعي، كيف بتّ؟ فقلت: بليلة النابغة يا أمير المؤمنين. فقال: إنا لله، هو قوله:

فبتّ كأني ساورتني ضئيلةٌ من الرقش في أنيابها السمُّ ناقعُ

فقلت: والله يا أمير المؤمنين ما أخبرت خبره، وإنما أردتُ قوله:

كِليني لهمٍّ -يا أميمة- ناصبِ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١/٦٣٤-٦٣٥.

السَّعَادَةُ، وَتَغَدَّيتُ ذلِكَ اليَوْمَ معَ البِطرِيْقِ، وَصِرْتُ وَحِيْداً مِنَ الرَّفِيقِ وَالفَرِيْقِ، وَكانَ مِن عادَتِي المَألُوفَةِ، وَحالَتِي المَعْرُوفَةِ، أنْ أنْصَرِفَ بَعْدَ الغَدَاءِ إِلَى مَحَلِّ أخْدَانِي وَأَصحَابِي وَخُلَّانِي، فَنَتَعَلَّلُ بِالحَدِيثِ، وَنَتَفَكَّرُ حالَنا القَدِيْمَ وَالحديْثَ، وَنَتَذاكَرُ الفَرَائِضَ وَنَجْمَعُ الصَّلَوات، وَيَسْمَعُ بَعْضُنا مِن بَعضٍ ما حَفِظَ مِنَ العِلمِ في تِلكَ الخَلَوات، فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى ذلِكَ المكانِ المَعْهُودِ، والمَحلِّ الَّذِي كُنَّا نَتَذَكَّرُ فيهِ تِلْكَ العُهُودَ، رَأَيْتُهُ قدْ صَفِرَ مِنَ الرِّفَاقِ وأَهْلِ الوِفَاقِ، وَلَمْ أرَ إلاَّ أهْلَ الخِلافِ مِن أولئِكَ الأغْلافِ[1]. فَضَاقَ بي فَسِيحُ الأرْضِ ذاتِ الطُّوْلِ وَالعَرْضِ، وَتَمَنَّيتُ لَوْ كُنتُ رَفِيْقَهُمْ، وَسَاهَمْتُهُمْ كَرْبَهُمْ وَضِيْقَهُمْ، وَبِتُّ بِلَيْلَةِ أنقَدَ[2]، أُسَامِرُ الفَرْقَدَ، وَأَصْبَحْتُ أكْسَفَ خَلْقِ اللهِ بالاً، وَأشَدَّهُمْ خَبَالاً، وصارَ إِلَيَّ رَسُولُ البِطرِيقِ وَقْتَ الغَدا، وَبَسَطَ عَيْشاً رَغداً، فَتَبَيَّنَ في وَجهِي مَا أجَنَّهُ الضَّمِيرُ مِنَ الكُروبِ، وَأَسَرَّهُ مِن مُسامَرَةِ الخُطُوبِ، وَرَأَى يَدِي لَمْ تَنْبَسِطْ إِلَى الطَّعَامِ، ولا تَمْتَدُّ إِلَى وافِرِ ذلِكَ الإنْعَامِ، فَضَحِكَ ثُمَّ قالَ: أحْسَبُكَ اغْتَممْتَ لِفِراقِ رِفاقِكَ، وَما فَقَدُوْهُ مِن إرْفَاقِكَ، [فَشَكَوْتُ][3] لَهُ ما اعْتَرَانِي مِنَ الهُمُومِ وَسَاوَرَنِي مِنَ الغُمُومِ، وَسَأَلتُهُ: هلْ مِن حِيلَةٍ في رَدِّهِمْ إِلَيْهِ وَالتَّعْوِيلِ في حِرَاسَتِهِمْ عَلَيهِ؟ فقالَ: إنَّ المَلِكَ لَمْ يُرِدْ بِنَقْلِهِمْ مِن مَكانٍ إِلَى مَكانٍ إلاَّ لِيغمَّهُمْ[4] وَيُضَيِّقَ عَلَيهِمْ حَسَبَ الإمْكَانِ، وَمِنَ المُحالِ أنْ يَدَعَ تَدْبِيرَهُ في الإضْرارِ بِهِمْ لأجْلِي وَلَو جَلَبْتُ في الشَّفاعَةِ عِندَهُ بِخَيلِي وَرَجْلِي. فَسَأَلتُهُ أنْ يَسْأَلَ المَلِكَ في ضَمِّي إِلَى أصْحَابِي لأكُونَ مَعَهُمْ حَيْثُ كانُوا، وَأشْرَكَهُمْ فِيما عَزُّوا بِهِ وَهَانُوا. فقالَ: إنِّي لا أسْتَجِيزُ[5] أنْ أنْقُلَكَ إِلَى الضِّيْقِ مِنَ السَّعَةِ، وإِلَى الهَوَانِ مِنَ الكَرامَةِ وَالدَّعَةِ. فَلمَّا قالَ ذلِكَ تَبيَّنَ فيَّ الانكِسَارُ، وَذُلُّ الحُكْمِ والانبِتارُ، فقالَ: بَيِّنْ لي قَدْرَ ما بَلَغَ بِكَ الألَمُ مِن هذا الخَطْبِ الَّذِيْ ألَمَّ. فقُلتُ: بَلَغَ بِي ما حَبَّبَ إليَّ المَوْتَ وَرَغَّبَنِي في الفَوتِ؛ لِعِلْمِي أنْ لا رَاحَةَ لي في غَيْرِهِ مِن ألَمِهِ وَضَيْرِهِ. فقَالَ: إنْ كُنْتَ صادِقاً فقدْ دَنا فَرَجُكَ وَفَرَحُكَ، وَانْقَضَى كَرْبُكَ وتَرَحُكَ، وَإِنِّي لا أُقِيْمُ لكَ الحُجَّةَ عَلَى وُضُوحِ هذِهِ المَحَجَّةِ، بِمَا وَقَعَ لي قَدِيْماً، وَعَرَكَ مِنِّي أدِيْماً، اعلَمْ أنَّ بَطْرَقَةَ هذا المَوْضِعِ لَمْ تزَلْ مُنْذُ مائتَيْنِ مِن السِّنِيْنِ، يُوَرِّثُها آباؤنَا لِمَنْ

(١) الأغلاف: هم من لم يُختنوا، يقال: غَلِف الصبيّ. اللسان (غلف).

(٢) الأنقَد: القنفذ، ومنه في المثل: أسرى من أنقد، لأن القنفذ لا ينام الليل كله، ومنه أيضاً قولهم: بات بليل أنقَدَ: لم ينم. المعجم الوسيط – أصدره مجمع اللغة العربية –: نقد، الأنقد).

(٣) زيادة يستقيم بها الكلام.

(٤) في الأصل: لعهم. وأثبتّ ما رأيته صواباً. ومعنى يغمّهم: يحزنهم.

(٥) في الأصل: فقال: إني لا أستخبر. وهو خطأ. والمثبت أقرب إلى الصواب.

يَخلُفُونَهُ مِنَ البَنِيْنَ، وَكَانُوا كَثِيْري العَدَدِ، غَزِيْرِيْ المَدَدِ، فَتَفَانَوا ولَمْ يَبْقَ مِنهُم سِوَى الأبِ والعَمِّ، وكانَ هُوَ الأكبَرَ، فَاستَولَى عَلَى ما خَصَّ وَعَمَّ، وَأَبْطأ عَلَيْهِما الوَلَدُ وقَدْ أعْيَاهُما عَلَى ذلِكَ الصَّبْرُ والجَلَدُ، فَرَقًا مِنَ الهُلْكِ وَزَوَالِ المُلْكِ، فَبَذَلا للأَطِبَّاءِ أمْوَالاً جَمَّةً، لِيُعِيدُوا لَهُمَا ما حَصَدَهُ الكِبَرُ وَجَمَّهُ، فَأَمَّا العَمُّ فَلَمْ يَنْجَعْ فيهِ دَوَاءٌ، وَغَلَبَتْ عليهِ مِنَ الكِبَرِ الأدْوَاءُ، فَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى مُعَالَجَةِ أَبِي، فَعَلِقَتْ أُمِّي بِي، فَجَمَعَ العَمُّ عِدَّةً[١] مِنَ النِّسَاءِ الحَبَالَى مُخْتَلِفاتِ الألْسُنِ، وَرَتَّبَ لَهُنَّ في دارِهِ مَا يَجْمُلُ بِهِ حالُهُنَّ وَيَحْسُنُ، فكانَ فِيهِنَّ عَرَبِيَّاتٌ وَرُومِيَّاتٌ وَفِرَنْجِيَّاتٌ وَصِقِلِّيَّاتٌ وَخَزَرِيَّاتٌ، ثُمَّ لَمَّا وَضَعَتْنِي أُمِّي أَمَرَ بِتَيْسِيرِ تِلْكَ النِّسْوَةِ كُلِّهِنَّ لإرْضَاعِي، وَمُراعَاةِ أوْضَاعِي، وَأمرَ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ ألاَّ تُكَلِّمَني إلاَّ بِلِسَانِها، لأُحْسِنَهُ كإحْسَانِها، فَلَمْ[٢] تَسْتَتِمَّ لي أَرْبَعُ سِنِيْنَ، حتَّى تَكلَّمْتُ بأَلْسِنَةِ مُرْضِعاتِي أجْمَعِينَ، ثُمَّ سَيَّرَ إِلَيَّ المُؤَدِّبِينَ والمُلاعِبِينَ مِن تلكَ الأجْنَاسِ، مِمَّنْ لهُ اعْتِبارٌ في صِنَاعَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ، فَكَانُوا يُعلِّمُونَني أنواعَ الكِتابَةِ وَقِراءَةَ كُتُبِ الأديانِ، وَيُبَيِّنُونَ لي مَا يَجِبُ مِن البيَانِ، فلَمْ تَمْضِ لي تِسْعُ سِنِينَ حتَّى جَمِيعَ ذلِكَ تعلَّمْتُ وَأيْقَنْتُ وَأحْكَمْتُ، ثُمَّ أمرَ عَمِّي أنْ أُضافَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أرْبَابِ الفُرُوسِيَّةِ والشَّجاعَةِ، فأتْقَنْتُ مِنهُم صِناعَةَ الحَرْبِ، والطَّعنِ والضَّربِ، وتَقَدَّمَ بِمَنْعِي مِن سُكُونِ غَيْرِ المَضَارِبِ وَالخِيَامِ مُدَّةَ ما عاشَ مِنَ الأيَّامِ، وألاَّ آكُلَ مِنَ اللُّحُومِ إلاَّ مَا أَصِيدُهُ بِيَدِي / وَأنا سائِرٌ، [١٦/ب] مِن وَحْشٍ وطَائِرٍ، فَبَقِيْتُ عَلَى تِلْكَ الحالَةِ حتَّى كَمُلَتْ لي عَشْرُ سِنينَ عِدَّةً، ومَاتَ العَمُّ وَفَرَغَتْ أيَّامُ أَجَلِهِ المُعَدَّةُ، وَوَلِيَ البَطْرَقَةَ أَبِي بَعْدَهُ فَأَمَرَني بالقُدُومِ إِلَى بابِهِ، والتَّقَرُّبِ مِن جَنابِهِ، فَعِندَما رأى ما أُوْتِيتُهُ مِنَ الآدابِ والعُلُومِ، وَحُسْنِ الأخْلاقِ وَالحُلُومِ، ازْدَادَ بِي إعْجَاباً، وَغَدَا سَحَابُ الغَمِّ عَنْهُ مُنْجاباً، وتَسمَّحَ لي بِغَيْرِ المَعْهُودِ، مِمَّا لَمْ تَكُنْ مُلُوكُ الرُّومِ تَسمَحُ بِهِ لِوُلاةِ العُهُودِ، مِن خِيامِ دِيْباجٍ وَمَضَارِبَ، وَآوانٍ[٣] مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ لِلمَآكِلِ والمَشَارِبِ، وَزِيادَةٍ مِنَ الخدَمِ والعَبِيْدِ، وَأمَرَني بِالابْتِعادِ عَن مَنَازِلِهِ في البِيْدِ.

قالَ: فَلَمَّا تَمَّتْ لِي خَمْسَ[٤] عَشْرةَ سَنَةً كَأَنَّها سِنَةٌ، رَكِبْتُ يَوْماً لارْتِيَادِ مَنْزِلٍ، وَأبْعَدتُ لأكُونَ عَنِ النَّاسِ بِمَعْزِلٍ، فَبَصُرْتُ بِغَدِيرِ مَاءٍ طُولُهُ ألْفُ ذِراعٍ تَقْدِيراً، وَعَرْضُهُ مِنَ الثَّلاثِمائةِ ذِراعٍ إِلَى الأَرْبَعِمائةِ تَخمِيْناً لا تَحْرِيراً، فَأَمَرْتُ بِضَرْبِ مَضَارِبِي عَلَى ذلِكَ الغَدِيْرِ، لِتَنْفُذَ فِيَّ سِهَامُ

(١) في الأصل: عدة عدة من النساء، وهو سهو.

(٢) في الأصل: فلمَّا.

(٣) في الأصل: وأواني.

(٤) من الأخطاء النحوية في الأصل: خمسة عشر سنة، والصواب ما ذكر.

التَّقْدِيرِ، وَتَوَجَّهْتُ لِطَلَبِ الصَّيْدِ، وَأَعْمَلْتُ فيهِ الحِيلَةَ والكَيْدَ، فَرُزِقتُ مِنهُ ما لم أَطْمَعْ في مِثْلِهِ كَثْرَةً، ولَمْ أَلْقَ في ذلكَ كَبْوَةً ولا عَثْرَةً، وَنَزَلْتُ وقدْ تَمَّ ضَرْبُ المَضَارِبِ، وأُمِنَتْ غِيْلَةُ المُخَاتِلِ والمُحَارِبِ، وَأَمَرْتُ الطبَّاخِينَ فطَبَخُوا لي ما اشْتَهَيْتُ مِنَ الطَّعامِ، ونَصَبُوا بَينَ يدَيَّ مَوائِدَ ذلكَ الإنْعامِ، وَإذَا بِصَيْحَةٍ قدْ عَلَتْ، وَأَزْعَجَتِ القُلُوبَ وَأَوْجَلَتْ، فَنَظَرْتُ وإذا بِرُؤوسِ أَصْحابِي تَساقَطَتْ عَنِ الجُسُومِ، وقَدْ أَحاطَ بِهِمُ القَدَرُ المَحْتُومُ، فَتَنَحَّيتُ عَن مَكَانِي، وَلَبِستُ ثِيابَ بعضِ غِلْمَانِي، وَنَظَرْتُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً فَرَأَيْتُ أَمراً مَهُولاً، وَلَمْ أَرَ حَوْلِي إلاَّ مَقْتُولاً، وإذا فاعِلُ ذَلِكَ مِنْسَرٌ[1] من مَنَاسِرِ البرجانِ، كأنَّهمُ الجَانُّ، وَأُسِرْتُ كَأَسْرِ العَبِيدِ، وَحُمِلْتُ مُقيَّداً من تلكَ البِيْدِ، واستُولِيَ عَلَى جَمِيْعِ ما كانَ مَعِي مِن خيامٍ ومالٍ وخَيْلٍ وَبِغالٍ وجِمالٍ، وَصَارُوا بي إِلَى مَلِكِ البرجانِ أسِيراً أسِيفاً حَسِيراً، وَلَمْ يَكُنْ لهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ، فَحِيْنَ نظرَ إليَّ أمَرَ بالتَّوْسِعَةِ عَلَيَّ، ووَعَدَنِي وَمَنَّانِي، وبِابنِهِ سَمَّانِي، وَكانَ لهُ ابْنَةٌ كانَ بِها مُغْرَماً، ولَها مُعْظِماً ومُكْرِماً، وَكَانَ قدْ علَّمَها الفُرُوسِيَّةَ والشَّجاعَةَ، فَبَرَعَتْ في ذلكَ غايَةَ البَراعَةِ، فقالَ يَوْماً – وأَنا حَاضِرٌ – لِجَمْعٍ من بَطارِقَتِهِ المُقَرَّبِينَ: مَن مِنكُمْ يَتَوَجَّهُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ فَيَأتِيْنِي بكاتِبٍ مِنَ الكاتِبينَ، فَيُعَلِّمَ ابْنَتِي صَنْعَةَ الكِتابَةِ، وَيُعَجِّلَ إِلَى مَلِيكِهِ مُكْرماً إيَابَهُ؟ فَأَعْلَمْتُهُ بأنَّ رَسُولَهُ لا يأتِيهِ بأَحْسَنَ مِنِّي خَطًّا، سَواءٌ عَجَّلَ أوْ أبْطَأَ. فَاستَكْتَبَنِي فكَتَبْتُ ما أَعْجَبَهُ، وقابَلَهُ بِما كانَ يأتِي إِلَيْهِ مِنَ الرِّقِّ بِخَطِّ الكَتَبَةِ، فاستَحْسَنَ خَطِّي وَاستَجادَهُ، وشَهِدَ لي كُلُّ مَن رآهُ بالإجادَةِ، فَسلَّمَ ابْنَتَهُ إلَيَّ، وعَوَّلَ في تَعْلِيمِها الكِتابَةَ عَلَيَّ، فَهَوَيْتُها وَهَوِيَتْنِي، واستَغْوَيتُها واستَغْوَتْنِي، وَمَكَثْتُ عَلَى ذلكَ إِلَى أنْ بَلَغْتُ سِتَّ عشرةَ سَنةً[2] وأنا مَعَها عَلَى عِشْرَةٍ حَسَنَةٍ، تَقْنَعُ بالنَّظَرِ، وَترجِي الأمَلَ المُنْتَظَرَ، فَجَاءَتْنِي يَوْماً وَهِيَ باكِيَةٌ، ومِمَّا وَرَدَ عَلَيْهَا شاكِيَةٌ، فَسَأَلْتُها عَمَّا أثارَ هذهِ الآثَارَ، فقالَتْ: إنِّي كُنْتُ اللَّيْلَةَ جالِسَةً بَيْنَ أبي وَأُمِّي – وأَنا في كَرْبِي مِن هَوَاكَ وَغَمِّي – فَغَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمتُ نَوْماً خَفِيفاً، وأَنا أَسْمَعُ لصَوْتِهِما حَفِيفاً، وإذا بِأَبِي يَقُولُ: إنَّ ابْنَتَكِ قدْ قارَبَتِ البُلُوْغَ، واجْتِماعُها بهذا الرُّومِيِّ لا يَجُوزُ ولا يَسُوغُ، وهو أَيْضاً قَدْ غَلُظَ صوتُهُ كَصَوتِ الرِّجالِ، وَلَمْ يَبْقَ لاجتِماعِهِما مَجالٌ، فإذا جَلَسا غداً مَعاً، فَابْعَثِي مَن يَمْنَعُهُما بَعْدَها أنْ يَجْتَمِعا.

قالَ: ومِنْ سُنَّةِ البرجانِ أنَّ الأبَ يَخطُبُ الزَّوْجَ لابنتِهِ، وَيَتَخَيَّرُ لَها طِيبَ أَصْلِهِ وَمَنْبَتِهِ، وَلَيْسَ

---

(١) والمِنْسَر: قطعة من الجيش تمرُّ قدام الجيش الكبير. اللسان (نسر).

(٢) في الأصل: ستة عشر، والصواب ما ذكر.

يُزوِّجُها إلاَّ بِمَنْ يَقَعُ اختيارُهَا عَلَيْهِ وَيَنْصَرِفُ نَظَرُها إلَيْهِ، فَقُلْتُ لَها: إذا قالَ لكَ أَبُوكِ: مَن تَخْتَارِينَ مِنَ الأَزْوَاجِ وتَرُوْمِينَ؟[1] فَقُولِي: لَسْتُ أَرُوْمُ إلاَّ هذا الرُّوْمِيَّ، فَانْحَرَجَتْ وَغَضِبَتْ، وَعَبَسَتْ وقَطَّبَتْ، وقالَتْ: كَيْفَ يَجُوزُ أنْ أسْأَلَهُ خِطْبَتَكَ لِي وأنْتَ عَبْدٌ مِنَ العَبِيدِ، أُتِيَ بِكَ إلَيْهِ أَسِيراً مِنَ البِيْدِ، أَتُرِيدُ أنْ تَقْتُلَنِي وَيَقْتُلَكَ، وَيَخْتِلَنِي[2] وَيَخْتِلَكَ؟ فقُلْتُ: لَمْ يَجْعَلْنِي اللهُ عَبْداً لأَحَدٍ، ولا أُنْكِرَ أَصْلِي أَحَدٌ وَلا جَحَدَ، فَلا تَنْقُضِي هذَا الأَمْرَ المَبْرُوْمَ، فإنَّ أَبِي مَلِكُ الرُّوْمِ. قالَ: ومِن عادَةِ أَهْلِ البرجانِ أنْ يُسَمُّوا البِطْرِيْقَ / الَّذِي يَلِي تَغْرَهُمْ بِهذا الاسْمِ، وَيَسِمُونَهُ بِهذا الوَسْمِ. فقالَتْ[3]: أَحَقاً ما تَقُولُ؟ قُلْتُ: بَلَى – وَمَنْ خَلَقَ العُقُولَ –. فَمَا انْقَضَى ذلِكَ اليَوْمُ حتَّى أَتَى مَن فرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَها، وَأَذَاقَنِي نَأْيَها وبَيْنَها، ولَمْ يَمْضِ عَلَى ذلِكَ إلاَّ ثلاثةُ أيَّامٍ، وَأنا في غَايَةِ الوَجْدِ والهُيَامِ، حتَّى دَعَانِي المَلِكُ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إلَيْهِ، وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، رأَيْتُ أَمَاراتِ الشَّرِّ في وَجْهِهِ مُسْتَحْكِمَةً، وقَدْ أَبرَمَ لي أمْراً مِنَ السُّوءِ وَأحْكَمَهُ، فقَالَ لِي: يا شَقِيُّ، مَا حَمَلَكَ عَلَى الكَذِبِ في الأَنْسَابِ، وأنا أَحْكُمُ بالقَتْلِ عَلَى مَنْ كذَبَ في الانْتِسَابِ؟ فَقُلْتُ لهُ: ما قُلْتُ إلاَّ حَقاً، وَفَتِّشْ عَلَى ذلِكَ تَرَنِي مُحِقّاً. فقالَ: إنِّي لا أَسْتَكْشِفُ خبَرَكَ إلاَّ بالامْتِحانِ، فَإنْ ظَهَرَ صِدْقُكَ وَإلاَّ فالأَجَلُ قَرُبَ وحَانَ. فَقُلْتُ: افْعَلْ ما تُرِيْدُ، فَلَسْتُ بِعَاصٍ وَلاَ مَرِيدٍ. فَأَمَرَ بإحْضَارِ فَرَسٍ وَسَرْجٍ وَلِجامٍ، وَأَمَرَنِي بالإسْرَاجِ وَالإلْجَامِ، فَقَابَلْتُ أَمْرَهُ بِالامْتِثالِ، ومَا عَلَّمَنِيهِ أَبِي عَمِلْتُهُ عَلَى ذلكَ المِثالِ، ثُمَّ أَمَرَنِي بالرُّكُوبِ وَالمَسِيْرِ، فَفَعَلْتُ وَلَمْ يَكُنْ ذلِكَ عَلَيَّ بِعَسِيرٍ، فقالَ عِندَ ذلكَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ ابْنُ مَالِكِ الرُّومِ، وَقَدْ بَلَّغَهُ اللهُ مِنِّي ما يَرُومُ، فإنَّ الَّذِي فَعَلَهُ فِعلُ المُلُوكِ، لا فِعْلُ المَرْقُوقِ وَالمَمْلُوكِ، وَقَدْ خَرَجَ مِن عُهْدَةِ الامْتِحانِ، وَجاءَ وَقْتُ مُصَاهَرته وَحانَ. ثُمَّ قالَ: أَلا تَشْهَدُوا، ومَا أَقُوْلُ ذلكَ رَغْبَةً عَنهُ وَلا فِراراً مِنْهُ، وَإنَّما لِتَزْوِيْجِنَا شُرُوطٌ لا بُدَّ مِن ذِكْرِها، وَإحَاطَتِهِ بِخَبَرِها وخُبْرِها، وَهِيَ أَنَّ مِن سُنَنِنا الَّتِي سَنَنَّاهَا، وَبِدْعَتِنا الَّتي ابْتَدَعْنَاها، أنَّ مَن ماتَ مِنَ الزَّوْجَيْنِ يُدْفَنُ الآخَرُ معَهُ حيّاً ولا يُتْرَكُ في الأحْيَا، ولَنا بِئرٌ كَبِيْرَةٌ، نُدَلِّيهِمَا فِيها بالحِبَالِ، وَنُسلِمُهما إلَى الوَبَالِ، وَنُنْزِلُ للحَيِّ قُوتَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، وَبَعدَها يَنامُ معَ النِّيَامِ، فإنْ قَبِلَ على ذلِكَ فَمَرْحَباً وَأَهلاً، وَقَدْ سلَكَ إلَى مُرادِهِ طَرِيقاً سَهلاً، وإنْ لَم يَرْضَ بذلِكَ فَهِيَ أَيْضاً لا تَرْضَى بِه، ولا نَتْرُكُ نَحْنُ سُنَّتَنا بِسَبَبِهِ. فَأَلْجَأَتْنِي الصَّبابَةُ بِها إلَى الرِّضا، والانْقِيادِ إلَى ما لا يُحَبُّ وَلا يُرْضَى،

[17/أ]

(1) في الأصل: وترومي. والمثبت هو الصواب.

(2) يختله: خَتَله: خَدَعه عن غَفْلة. اللسان (ختل).

(3) في الأصل: فقلت. وهو خطأ، والصواب المثبت.

فأمَرَ عِندَ ذلِكَ بِعَمَلِ الوَلائِمِ، ولَمْ يَلتَفِتْ لِلَوْمِ لائمٍ، وَدَخَلْتُ بها فكأنَّما دَخَلْتُ الجَنَّةَ، وَنَسِيتُ عَواقِبَ تِلكَ السُنَّةِ، وأقَمْتُ مَعَها أرْبَعِينَ مِنَ الأيَّامِ، وأنا وَإيَّاها في غَمَراتِ الوَجْدِ والهُيَامِ، يَرى كُلُّ واحِدٍ مِنَّا أنَّهُ مَلَكَ المُلْكَ، وأمِنَ البَوارَ والهُلْكَ، ثُمَّ إنَّها اعْتلَّتْ عِلَّةً كانَتْ مَعَها غَشْيَةٌ، فجاءَ ما كانَ يُحْذَرُ مِنَ الخَشْيَةِ، ولَمْ يَشُكَّ جَمِيعُ مَن رآهَا أنَّهُ المَوْتُ، والعَدَمُ والفَوْتُ، فَجُهِّزَتْ بِمَفاخِرِ ثِيابِهَا وجُهِّزْتُ كَذلِكَ، وحُمِلْتُ مَعَها في نَعْشٍ واحِدٍ إلَى تِلْكَ المَهالِكِ، وَرَكِبَ المَلِكُ وأهْلُ المَمْلَكَةِ وَشَيَّعُوها إلَى تِلكَ البِئْرِ المَعْهُودَةِ، ومَوَاطِنِ المَنايَا المَشْهُودَةِ، ثُمَّ شَدُّوا أسَافِلَ السَّرِيرِ بالحِبالِ المُعَدَّةِ للوُصُولِ إلَى الوَبَالِ، وَجَعَلُوا مَعَنا في النَّعْشِ الطَّعامَ والشَّرابَ، وَأدلَوْنا إلَى أنْ وَصلْنا إلَى قَرارِ ذلِكَ السَّرَابِ، ثُمَّ ألْقَوُا الحِبالَ فَسقَطَ مِنْهَا حَبْلٌ عَلَى وَجْهِ الجارِيَةِ، فكَانَ سَبَباً لإفاقَتِها من تِلكَ الغَشْيَةِ الغاشِيَةِ، فلَمَّا شَاهَدتُ حيَاتها، وأمِنْتُ فَوَاتَها، رَأيْتُ أنَّ الدُّنْيا كُلَّها إليَّ اجْتَمَعَتْ، وانْجَابَتْ عَنِّي سَحَائِبُ تِلْكَ الغُمُومِ وأقْلَعَتْ، وألِفَتْ عَيْنِي تِلْكَ الظُّلْمَةَ، وتَبيَّنْتُ خَبَرَ ما هُناكَ وَعِلْمَهُ، ورَأيتُ حَوْلِي مِنَ الخُبْزِ اليابِسِ والخمْرِ ما تَرَكَهُ مَن تَمَّ عليه الأمْرُ، فاتَّخَذْناهُ قُوْتاً، وَأمِنَّا مِنهُ فَوْتاً، وَكُنَّا لا نَعْدَمُ في يَوْمٍ سَرِيْراً يُدْلِي بِمَيْتٍ وَحَيٍّ، وَمَعهُما مِن الطَّعامِ وَالشَّرَابِ شَيٌ، فَإنْ كانَ الحَيُّ رَجُلاً قُمتُ إلَيْهِ وَقَتَلْتُهُ وَأعدَمْتُهُ مِنَ الحَيَاةِ وَاغْتَلْتُهُ، وإنْ كانَتِ امْرَأةً تَولَّتْ هِيَ قَتْلَهَا وَاغْتِيَالَها وَخَتْلَها، غَيْرَةً مِنِّي وَمِنها أنْ يَكُوْنَ مَعَنا مَن يُوْتِرُ شَفْعَنا وَطَمَعاً فِيْما يَكُوْنُ مَعَهُمَا مِنَ القُوْتِ، وَإنْ كانَ ذلِكَ الفِعلُ هُوَ المَبْغُوْضَ المَمْقُوتَ، فَمَكَثنا وَهذِهِ حالُنَا أكْثَرَ مِن سَنَةٍ وأنا أسْتَحْسِنُ حَيَاتِي مَعَها وَلَو كانَتْ غَيْرَ حَسَنَةٍ، فَبَيْنا نَحْنُ ذاتَ يَوْمٍ وقَدْ أيِسنَا أنْ نَعِيْشَ مَعَ القَوْمِ، أوْ نَرَى الدُّنْيا ولَوْ في النَّومِ، إذْ أُدْلِيَ في البِئرِ دَلْوٌ كَبِيْرٌ فَقُلتُ: إنَّ مُدْلِيَهُ لا يَكُونُ مِن غَيْرِ الرُّوْمِ، وَإنَّهُ أخْذَ الماءِ يَرُومُ، فَوقَعَ لِي أنْ أُقدِّمَ الجَارِيَةَ قَبْلِي لِلطُّلُوعِ، وَهِيَ تُخْبِرُهُمْ بِخَبَرِنا / المَرُوعِ، فَيُدلُوا الدَّلْوَ مَرَّةً ثانِيَةً [١٧/ب] فَنَخْلُصَ جَمِيعاً، وَلَعَلَّ مَن فِيْهِمْ يَكُونُ مُجِيْباً وَسَمِيعاً، قَالَ: فَحَمَلْتُ ابْنَةَ المَلِكِ وَوَضَعْتُها في الدَّلْوِ بِكُسْوَتِها وَحِلْيَتِها، وَجَوهَرِهَا وَزِيْنَتِها، وَاجْتَذَبَ القَوْمُ الدَّلْوَ فَخَرَجَتْ إلَيْهِمُ الجارِيَةُ وَدُموعُهَا جَارِيَةٌ، وَإذا القَوْمُ مَمَالِيكٌ لأبِي، فَمُذْ رَأوْها وَجَدُوْهَا غَنِيمَةً باردَةً، وَضَالَّةً شارِدَةً، وَكَانُوا قدْ رَأوا أبِي وأُمِّي وَمَا هُمَا[1] فيهِ مِن غَلَبَةِ الحُزْنِ والالْتِياعِ، وشِدَّةِ الإشفَاقِ وَالارْتِياعِ، فَتدَبَّرُوا بِالمَصِيْرِ بِها إلَيْهِما لِيَتَّخِذُوا بِها عِندَهُما يَداً، وَيَتَّخِذاهَا وَلَداً، وَكانَتِ ابْنَةُ المَلِكِ عِندَ

---

(١) في الأصل: وما هم. والمثبت هو الصواب.

طُلُوعِها خَافَتْ مِنْهُم وَوَجِلَتْ، وَعَنْ إخْبارِهِمْ بِحَالِي ذُهِلَتْ، فما كانَ أَسْرَعَ[1] مِن وُصُولِهِمْ بِها إِلَيهِمَا فَسُرُّا بِقُدُومِها، وَهِيَ في كُرَبِها وَغُمُومِها، تَهَابُ أنْ تَتَكَلَّمَ أوْ تُخْبِرَ بِما تَعلَمُ، وقَدْ كانَ لأَبِي صديقٌ صَاحِبُ حِكَمٍ ومَعَارِفٍ، وَهُوَ بِفَنِّ التَّصْوِيرِ عَارِفٌ، فَصَوَّرَ صُوْرَتِي في لَوْحٍ مِنَ السَّاجِ[2] وَأَتْقَنَها، وَوَشَّاها وَزَيَّنَها، وَجَعَلَها لَهُما في بَيْتٍ فَكانَا إذَا تَزَايَدَ بِهِما أَلَمُ البَيْنِ، دَخَلا إِلَى تِلكَ الصُّورَةِ مُتَباكِيَينِ، فَيَخِفُّ عَنْهُما بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا بَعْضُ الحالِ، وَيَتَعلَّلانِ مِنهَا بِالمُحَالِ، فَرَأَتْهُما ابنَةُ المَلَكِ يَدخُلانِ إِلَى ذلِكَ البَيْتِ[3] وَيَنُوحانِ وَيَنْعَيانَ، فَدَخلَتْ في أَثَرِ دُخُولِهِما فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَى تِلْكَ الصُّوْرَةِ لَطَمَتْ وَجْهَها وصَاحَتْ، وَنَتَفَتْ شَعرَها ونَاحَتْ، وَمَزَّقَتْ ما عَلَيْها مِن الثِّيَابِ، وَسَقطَتْ مَغْشِيَّةً عِندَ البابِ، فَأَخَذَهُما العَجَبُ، وَسأَلاهَا عَمَّا بِهِ ذلِكَ وَجَبَ، فَقالَتْ: هذِهِ صُورةُ زَوْجِي. وَأَخبَرَتْهُما بِاسْمِهِ واسْمِ أَبِيه وَأُمِّهِ، فَسأَلاها أَيْنَ تَرَكْتِهِ؟ وفي أيِّ مَحَلٍّ غَادَرْتِهِ؟ فَأَخْبَرَتْهُما بِأَنَّهُ في البِئْرِ، وأَنَّهُ هو الَّذِيْ دبَّرَ في خُرُوجِها ذلِكَ التَّدْبِيْرَ، فَرَكِبَ أَبِي وأُمِّي وغَالِبُ أَهْلِ البَلَدِ إِلَى أنْ وَافَوْا ذلِكَ المَحَلَّ، وَقَدْ آنَ أَوانُ الفَرَجِ وَحَلَّ، وَأَدلَوُا الدَّلْوَ لِلإخْراجِ، وقَدْ دَنا وَقْتُ الانفِرَاجِ، قالَ: وقَدْ كُنْتُ في تِلكَ السَّاعَةِ قدْ تَوَارَدَتْ عَلَيَّ الهُمُومُ، وَتَواتَرَتْ نَوائبُ الغُمُومِ، حتَّى شَرَعْتُ في أسبَابِ المَوْتِ، ومَا يُحْدِثُ الفَوْتَ، وسَلَلْتُ سَيْفِي الَّذِيْ أُنْزِلَ مَعِي مِن غِمْدِهِ، وَوَضعْتُ ذُبَابَتَهُ بَيْنَ ثَدْيَيَّ لأَتَحامَلَ عَلَى حَدِّهِ فَيَخْرُجَ مِن ظَهرِي، وَأَخْلُصَ مِن غَمِّي وَقَهْرِي، وَإذا بِالدَّلْوِ[4] وصَلَ، فَانْزاحَ الغَمُّ وَانفَصَلَ، وَوَثَبْتُ فَقَعَدتُ فِيهِ وَقُلتُ: آتِي المَقْدُومَ وَأَستَوفِيهِ، فمَا كانَ بِأَسْرَعَ مِن أنْ ظَهَرْتُ مِنَ البِئْرِ، وإذَا بأَبِي وَأُمِّي وَزَوْجَتِي عَلَى ذلِكَ الشَّفِيرِ، فلا تَسأَلْ عَن ساعَةِ لِقاءِ الأحْبَابِ، وَكَيْفَ سَبَّبَتِ المقادِيرُ لَها الأسبَابَ، ثُمَّ قُلْتُ لأَبِي: لا أَبْرَحُ مِن هذا المَكانِ، أوْ تُرْسِلُ لأَبِ الزَّوجَةِ لِيَحْضُرَ ويُشاهِدَ ما كانَ، وتَقَرَّ بِابْنَتِه مِنْهُ العَيْنُ، وَيَنْفُضَ عن قَلْبِهِ غُبارَ البَيْنِ، فمَا كانَ بِأَسْرَعَ مِن حُضُورِهِ، مُبْدِياً تَباشِيْرَ سُرُورِهِ، وأَقَامَ لابنَتِهِ عُرْساً حَافِلاً ثُمَّ انْثَنى إِلَى مَمْلَكَتِهِ قافِلاً بَعْدَ أنْ حَصَلَتِ المُهادَنَةُ بَيْنَ المَمْلَكَتَيْنِ ثلاثِيْنَ سَنَةً، وَعُدْنا إِلَى مَمْلَكَتِنا بِتِلْكَ الصُّوْرَةِ الحَسَنَةِ، ثُمَّ ماتَ أَبِي وَوَرِثْتُ مِنهُ هذه البِلادَ، وَرُزِقْتُ مِن

---

(١) في الأصل: أسرع أسرع، وهو سهو.

(٢) السَّاجُ: خَشَبٌ يجلب من الهند، واحدته ساجَةٌ. والسَّاجُ: شجر يعْظم جداً، ويذهبُ طولاً وعرضاً، وله ورق أمثال التِّراسِ الدَّيْلَمِيَّةِ، يتغطى الرجل بورقةٍ منه فتَكِنهُ من المطر، وله رائحة طيبة تُشابهُ رائحة ورق الجَوْزِ مع رقة ونَعْمَةٍ. اللسان (سوج).

(٣) في الأصل: يدخلان إلَى ذلك البيت ويدخلان.

(٤) في الأصل: بالولد. والصواب ما أثبتّه.

بِنْتِ مَلِكِ البرجان الأَوْلادَ، وَهذِهِ عَادَةُ اللهِ في الشَّدَائدِ، أنْ يَعْقُبَها الفَرَجُ المُتَزايِدِ، وأنْتَ – يا عَرَبِيُّ – إنْ كانَ تَنَاهَى عَنْكَ الضِّيْقُ وَالحَرَجُ، فهوَ أَمَارَةُ قُرْبِ الفَرَجِ، فمَاانقضى كَلامُهُ حتَّى جاءَهُ رَسُولُ المَلِكِ بِدَعْوَةٍ لَهُم تجدَّدُ، وَضَمَّ ما تَفَرَّقَ مِنْهُ وَتَبَدَّدَ، فَتَوَجَّهَ إليهِ ثُمَّ عادَ وقالَ: يا عَرَبِيُّ، أَبْشِرِ بالإسعاف والإسْعَادِ، إنِّي كُنْتُ بَيْنَ يَدَيِ المَلِكِ وَجَرَى ذِكرُ العَرَبِ، فأَخَذَ البَطارِقَةُ في ذَمِّهِمْ بِمَا تَباعَدَ وَاقْتَرَبَ، وَنَفَوْهُم مِنَ الآدابِ والعُلُومِ، والعُقُولِ وَالحُلُومِ، وَأَنَّهمْ لا يَعْرِفونَ القَبِيْلَ مِن الدَّبِيرِ، وَإِنَّما غَلَبَتُهمْ بِحُسْنِ الطَّالعِ لا بِجَودَةِ الرَّأيِ والتَّدبِيرِ، فقلت له: إنَّ الأَمْرَ بِخِلافِ مَا زَعَمُوا، وإنَّ هؤلاءِ ما خَبَرُوا عُقُولَهُم ولا عَلِمُوا، وَأَنَّ لَهُم عقُولاً وَأذهاناً يَتَلاشَى عِنْدَها عَقْلُ أَعلَمِنا وأَدْهَانا، فقالَ المَلِكُ: أنْتَ لِمَحَبَّتِكَ لِضَيفِكَ العَرَبِيِّ تُرِيدُ أنْ تَمْدَحَ العَرَبَ وتُفضِّلها، وَتُعْطِيَها ما لَيْسَ لَها، فقُلتُ لهُ: إنْ رأى المَلِكُ أنْ يَأذَنَ في إحْضَارِ العَرَبِيِّ بَيْنَ يَدَيهِ لِلْمُكالَمَةِ معَ هؤلاءِ والمُنَاظَرَةِ، لِيَعْلَمَ الفَرْقَ بَيْنَهُ وَبينَ مَنْ ناظَرَهُ. فَأَمَرَني بِحَمْلِكَ إلَيْهِ، وَإِدْخالِكَ عليهِ، فقُلتُ لَهُ: لَم تُحْسِنْ ليَ الصَّنِيعَ، وَأَخرَجتَني إلَى الهَوَانِ بَعْدَ جَنَابِكَ المَنِيعِ، فَإنِّي أخَافُ – إنْ غُلِبْتُ – مِنَ الازْدِراءِ والاحتِقَارِ، / وَزَوَالِ الحُرْمَةِ وَالوَقارِ، وإنْ غَلَبْتُ فَلَسْتُ [١٨/أ] مِن غَضَبِهِ في أمانٍ، ولا مِن بَطْشِهِ في ضَمَانٍ، فقالَ: ما ذَكَرْتَهُ صِفَةُ العَامَّةِ لا المُلُوكِ، وَهُم يَسلُكُونَ بإنْصَافِهِمْ غَيْرَ هذا السُّلُوكِ، إنَّكَ إنْ غَلَبْتَ عَظُمْتَ في عَيْنِهِ وَلَزِمَهُ قَضاءُ حُقُوقِكَ، وَمنَعَتْهُ الأخلاقُ المُلُوكِيَّةُ عنْ قَطْعِكَ وعُقُوقِكَ، وإنْ غُلِبْتَ سَرَّهُ غَلَبَةُ أهْلِ دِينِهِ، وازْدَادَ قُوَّةً في اعتِقادِهِ وَيَقِيْنِهِ، وَأَوْجَبَ لكَ ذلِكَ علَيْهِ ذِمَاماً يَقْضِي لكَ بهِ حاجَةً، وتَنْقَطِعُ الخُصُومَةُ واللَّجَاجَةُ، وعَلَى كِلا الحَالَيْنِ فَسَلْهُ إخْراجَكَ مِن مُلْكِهِ إلَى وطَنِكَ، وَرَدَّكَ إلَى مَأْلَفِكَ وعَطَنِكَ، فإنَّهُ سَيَفْعَلُ ذلكَ، وَتَسْهُلُ لكَ المَسَالِكُ. قالَ: فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَى المَلِكِ استَدْناني وَقَرَّبَني ومَنَّاني، وقالَ: ناظِرْ هؤلاءِ البَطارِقَةَ بِما أُوتِيتَهُ مِن العِلمِ، فإنَّا لا نُعامِلُكَ إلاَّ بِالحِلْمِ. فقُلتُ: إنِّي لا أرضَى لِنَفْسي إلاَّ مُناظَرَةَ البَطْرَكِ الكَبِيرِ، صاحِبِ الرَّأيِ وَالتَّدْبِيرِ. فَلَمَّا حَضَرَ الْتَفَتُّ إلَيْهِ، وَسَلَّمتُ علَيْهِ، ثُمَّ قُلتُ لهُ: يا شَيْخُ كيفَ أنْتَ؟ فقالَ: في عافيةٍ وَنِعمةٍ غَيْرِ خَافِيَةٍ. فقُلتُ: كَيفَ حالُ وَلَدِكَ وحُشَاشَةِ كَبِدِكَ؟ فتضاحَكَ البَطَارِقَةُ وقالُوا: زَعَمَ البِطرِيْقُ – يعْنُونَ صاحِبِي – أنَّ هذا لهُ عَقْلٌ وفَهْمٌ، وقدْ وَفَرَ لهُ مِنَ الأدَبِ السَّهْمُ، وهوَ لا يَعلَمُ بِجَهْلِهِ المُرَكَّبِ، وعَقْلِهِ الَّذِي عَدَلَ بِهِ عنِ الصَّوابِ وَنَكَبَ، أنَّ اللهَ قدْ صانَ البَطْرَكَ عنِ الأولادِ، ووَفَّرَ سَهْمَهُ مِن طارِفِ العِلْمِ والتِّلادِ. فَقُلْتُ لَهُم: كأنَّكُم تَرْفَعُون البَطْرَكَ عن نِسبَةِ الوَلَدِ إلَيْهِ، وأنْ يكُونَ ذلِكَ وَصْمَةً علَيْهِ. فقالُوا: إنَّا لَنَرْفَعُهُ عنْ ذلِكَ إذِ اللهُ عنْهُ رَفَعَهُ، وأجَلَّ قَدْرَهُ عَنْهُ ومَا وضعه.

فَقُلتُ: وا عَجَباً! أتُجِلُّونَ عَبْداً مِن عَبِيدِ اللهِ عنِ الأَوْلادِ، ولا تُجِلُّونَ اللهَ الَّذِي خَلَقَ العِبادَ والبِلادَ[١]؟! قالَ: فَنَخَرَ البَطْرَكُ نَخْرَةً أزعَجَتنِي، وَأخافَتْنِي ورَوَّعَتْنِي، ثُمَّ قالَ: أيُّها المَلِكُ، أَخْرِجْ هذا السَّاعَةَ عنْ بَلَدِكَ، لِئَلاَّ يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَهْلَهُ، وَلا تُعْطِ في ذلكَ تَهاوُناً وَلا مُهلَةً. فَدَعا المَلِكُ بفُرْسانٍ ضَمَّنِي إِلَيْهِم، وَعَوَّلَ في حِفْظِي عَلَيهِمْ، وأمَرَ بِحَمْلِي عَلَى دَوَابِّ البَرِيدِ، وأنْ يُنْفَقَ عليَّ ما أشْتَهِي وأُرِيدُ، إِلَى أنْ أُسلَّمَ[٢] إِلَى أهْلِ الإسْلامِ، وأُدْخَلَ بِلادَهُم بسلامٍ، فأُوْصِلتُ إِلَى ثَغْرٍ مِن ثُغُورِ المُسلِمِينَ، فتَلقَّوْني مُهنِّئِينَ ومُسَلِّمِينَ، فَتأمَّلْ عُذُوبةَ هذا السَّمَرِ، وما حَلا فيْهِ ومَا مَرَّ[٣].

---

(١) أسلوب جميل في المناظرة مع النصارى واستدلال مفحم.

(٢) في الأصل: أن سلم. والصواب المثبت.

(٣) أصل هذه القصة في كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي، ١/١١٦–١٢٠:
"أسره الروم في أيام معاوية وأطلقوه في أيام عبد الملك: روى حميد، كاتب إبراهيم بن المهدي، أن إبراهيم حدثه، أن مخلداً الطبري، كاتب المهدي على ديوان السر، حدثه، أن سالماً مولى هشام بن عبد الملك، وكاتبه على ديوان الرسائل، أخبره، أنه كان في ديوان عبد الملك يتعلم كما يتعلم الأحداث في الدواوين، إذ ورد كتاب صاحب بريد الثغور الشامية، على عبد الملك، يخبره فيه أن خيلاً من الروم تراءت للمسلمين، فنفروا إليها، ثم عادوا ومعهم رجل كان قد أسر في أيام معاوية بن أبي سفيان، فذكر أن الروم لما توافقوا مع المسلمين، أخبروهم أنهم لم يأتوا لحرب، وإنما جاؤوا بهذا المسلم ليسلموه إلى المسلمين، لأن عظيم الروم أمرهم بذلك. وذكر صاحب البريد، أن النافرين ذكروا، أنهم سألوا المسلم عما قال الروم، فوافق قوله قولهم، وذكر أن الروم قد أحسنوا إليه، فانصرفوا عنهم، وإني سألته عن سبب مخرجه، فذكر أنه لا يخبر بذلك أحدًا دون أمير المؤمنين. فأمر عبد الملك بإشخاص المسلم إليه، فأشخص إلى دمشق. فلما دخل على عبد الملك، قال له: من أنت؟ قال: قتات بن رزين اللخمي. قال مؤلف هذا الكتاب، كذا كان في الأصل الذي نقلت منه: قتات، وأظنه خطأ، لأن المشهور قباث بن رزين اللخمي، وقد روى الحديث عن علي بن رباح اللخمي، عن عقبة بن عامر الجهني، أو لعله غيره والله أعلم. أسرت في زمن معاوية، وطاغية الروم – إذ ذاك – توما بن مرزوق. فقال له عبد الملك: فكيف كان فعله بكم؟ قال: لم أجد أحدا أشد عداوة للإسلام وأهله منه، إلا أنه كان حليما، فكان المسلمون في أيامه أحسن أحوالاً منهم في أيام غيره، إلى أن أفضى الأمر إلى ابنه ليون، فقال – في أول ما ملك – إن الأسرى إذا طال أسرهم في بلد، أنسوا به، ولو كان على غاية الرداءة، وليس شيء أنكأ لقلوبهم من نقلهم من بلد إلى بلد، فأمر باثني عشر قدحاً، فكتب على رأس كل قدح اسم بطريق من بطارقة البلدان، ويضرب بالقداح في كل سنة أربع مرات، فمن خرج اسمه في القدح الأول، حول إليه المسلمون، فاحتبسهم عنده شهراً، ثم إلى الثاني، ثم إلى الثالث، ثم تعاد القداح بعد ذلك. فكنا لا نصير عند أحد من البطارقة، إلا قال لنا: احمدوا الله حيث لم يبتلكم ببطريق البرجان، فنرتاع لذكره، ونحمد ربنا إذ لم يبتلنا به، فمكثنا على ذلك سنين، ثم ضربت القداح...". ثم ساق القصة كاملة بحذافيرها كما وردت في مقامات العباسي بكل تفاصيلها.

المقامة الثامنة (البغدادية):

ذُكِرَ أنَّهُ كانَ بِمَدينَةِ بَغْدَادَ دَارِ السَّلامِ وَمَوطِنِ المَجْدِ وَالشَّرَفِ وَقُبَّةِ الإسْلامِ، صَيْرَفِيٌّ نَقَّادٌ مَشْهُورٌ بِالمَعْرِفَةِ كالكَوْكَبِ الوَقَّادِ، وكانَ لَهُ سُمْعَةٌ وَوجاهَةٌ، وَخِبْرَةٌ وَنَباهَةٌ، وسَعَةٌ وثُراثٌ وَكَسْبٌ واحْتِرَاثٌ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذلِكَ الحالِ لا يُدَانِي خِصبَهُ إِمْحَالٌ، ولا يُكَدِّرُ صَفوَهُ بِحالٍ، قَدْ نامَتْ عَنْهُ عُيُونُ الدَّهْرِ وَتَحامَتْهُ عُيُونُ القَهْرِ، وسَالَمَتْهُ اللَّيالي فاغْتَرَّ، وَكَشَّرَ لهُ الدَّهرُ عَن نابِهِ وافْتَرَّ، يُمْسِي ويُصْبِحُ في أَمْنٍ وأمَانٍ، وَكَفالَةٍ مِنَ الأَيَّامِ وَضَمَانٍ، إِلَى أنِ انعَكَسَتْ سُعُودُهُ وانْتَكَسَتْ مِنَ السَّعادَةِ عُهُودُهُ، وَانْحَلَّ أَمْرُهُ المُبْرَمُ وَأَلَحَّ العَكْسُ في فَلَاكتِهِ وَأَبْرَمَ، فانْقَلَبَ رِبْحُهُ خَساراً وَيَسارُهُ إِعْسَاراً، وَعادَ نَمِيْرُهُ وَشَلاً[1] وارتَدَّ إِقْدامُهُ فَشَلاً، فَأَصْبَحَ بَعْدَ الغِنَى فقيراً لا يَمْلِكُ فَتِيلاً وَلا نَقِيراً، تَتَقَاذَفُهُ الأَبْوَابُ، ولا يَلُمُّ شَعَثَهُ أَوَّاهٌ وَلا أَوَّابٌ، قَدْ زَلَّتْ بِهِ القَدَمُ، وَفَقَدَ الأَهْلَ والخَدَمَ، ما عَدَا جَارِيَةٍ دُمُوعُها عَلَى الخُدُودِ جَارِيَةٌ، فَصَبَرَتْ مَعَهُ عَلَى بُؤْسِهِ، وَتَجرَّعَتْ مَرَارَةَ إِعْرَاضِ الدَّهْرِ وعُبُوسِهِ، وقَاسَمَتْهُ ذلِكَ المُصَابَ، وَسَاهَمَتْهُ فِيما اعْتَراهُ مِنَ الأَوْصَابِ، وَقَليلاً ما يَصْبِرُ عَلَى اللَّأوَاءِ صاحِبٌ، أَوْ يَبْقَى عَلَى البَأساءِ مُصَاحِبٌ، فالنَّاسُ إِخْوَانُ الرَّخَاءِ والنِّعَمِ، وَهُم لَهُ الإخْوَانُ ما الوَطْبُ انفَعَمَ[2]، أمَّا إذا أَظَلَّ إِقْلالٌ وعَمَّ، تَشَرَّدُوا عَنْهُ كَسُرَّاقِ النَّعَمِ، وكانَ مِن سِرِّ اللهِ المَكْتُومِ، وقَدَرِهِ المَحْتُومِ، أنِ اشْتَمَلَتْ تِلكَ الجارِيَةُ مِنْهُ عَلَى حَمْلٍ، وَصارَتْ مِن ثِقْلِهِ تَمشِي مِشْيَةَ النَّمْلِ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَها المَخَاضُ – وقَدْ عامَ / سيِّدُها في بَحْرِ [١٨/ب] الكروبِ ومَا خاضَ – تَوارَدَتْ عَلَيْهِ الهمُومُ، وتَبادَرَتْ إِلَيْهِ مُؤْلِماتُ الغُمُومِ، وأَخَذَ يُفَكِّرُ في ذلِكَ الحَالِ، ومَا تَغَيَّرَ إِلَيْهِ واسْتَحالَ، وقَدْ سُدَّتْ دُونَهُ أَبْوَابُ الحِيَلِ، واغْتَالَتْهُ بِغُبُونِها الغِيَلُ، فطَلَبَتْ مِنْهُ عِنْدَ الوِلادَةِ ما جَرَتْ لِلنُّفَساءِ بِهِ العادَةُ، مِمَّا يَجْبُرُ ذلِكَ الصَّدْعَ، وَيَحْصُلُ بِهِ لِمولمِها الزَّجْرُ والرَّدْعُ، وكانَ اللَّيْلُ قدْ مَدَّ أَطنَابَهُ السُّودَ، واشْتَبَهَ فيهِ السَّيِّدُ بِالمَسُودِ، فَأَوْهَمَها أَنَّهُ يَخْرُجُ لِتَحصِيلِ الأَرَبِ، ولَمْ تَكُن لهُ هِمَّةٌ إلاَّ الهَرَبُ، فاتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلاً، وَخَيَّبَ مِنها رَجاءً وأَمَلاً، وصَادَفَ قافِلَةً تَخْرجُ إِلَى خُراسَانَ، فَاصْطَحَبَ مِنها مَعَ مَن تَوَهَّمَ فِيهِ الإحْسَانَ، وصَارَ يَطْوِي الفَيَافِيَ طَيًّا، ويَقولُ لِوارِدَاتِ كُروبِهِ: هيًّا، إِلَى أنْ وصَلَ إِلَى هَرَاةَ، وقَدْ لَغَبَ[3] مِمَّا انْتابَهُ وَعَرَاهُ،

---

(١) الوَشَل: الماءُ القليل يَتَحلَّب من جبل أو صخْرة يقطُر منه قليلاً قليلاً، لا يَتَّصِلُ قطْره، وكذلك المطر المتقطع والقليل. اللسان (وشل).

(٢) الوَطْب: سقاء اللبن، جمعه أوطاب ووطاب. وفعمَ الإناء: ملأه وبالغ في ملئه. اللسان (فعم).

(٣) لَغَبَ: أعيا أشدَّ الإعْياءِ. اللسان (لغب).

وَعَرَاهُ، فألْقَى بِها عَصَا التَّسْيَارِ، وخلَعَ عَنْهُ غَيْرَ تِلْكَ الأغْيَارِ[1]:

وَقَالَ لِلنَّفْسِ: القَرَارَ القَرَارْ	فَقَدْ تَجَاوَزْتِ المَدَى فِي الفِرَارْ
وَارْضَيْ مِنَ الحَظِّ بِإظْلامِهِ	فَبَدْرُهُ قَدْ ظَلَّ تَحْتَ السِّرَارْ
وَامْشِي مَعَ الدَّهْرِ وأبنائِهِ	وَاسْتَصْحِبِي الأخْيَارَ دُونَ الشِّرَارْ
وَاحْتَمِلِي الغُرْبَةَ لَوْ أنَّهَا	تَرْمِيكِ مِنْ نِيرَانِهَا بِالشَّرَارْ
وَصَاحِبِي فِيهَا فُنُونَ الأسَى	صُحْبَةَ مَنْ يُلْجِئُهُ الإضْطِرَارْ
وَاصْطَبِرِي إنْ بُدِّلَ المِسْكُ بِالْـ	ـمُسْكِ[2] وَعَاضُوا بِالثُّمَامِ العَرَارْ[3]
وَاقْتَنِعِي بِالطَّلِّ بَعْدَ الحَيَا	وَارْضَيْ مِنَ النَّوْمِ بِأدْنَى الغِرَارْ
وَانْتَظِرِي مِنْ فَرَجِ اللهِ مَا	يَأْتِي، وَلَوْ أوْرَثَكِ الإصْفِرارْ

ثُمَّ إنّهُ شَمَّرَ عنْ ساعِدِ الجِدِّ، وفَعَلَ فِعلَ الحَدِبِ المُجِدِّ، وَاحْتَرفَ واكْتَسَبَ، ولا فَاخَرَ وَلا انْتَسَبَ، وَالغُرْبَةُ معَ الحِرْفَةِ تُعَلِّمُ الحَرْفَةَ[4]، وَإذَا صَفِرَ الوِطابُ سَهُلَ ما كانَ شَقَّ وَطَابَ، فَحَصَّلَ وَأثْرَى، وَصَارَ قُلُّهُ[5] كُثْراً، وَتَراجَعَ إلَيْهِ حَالُهُ، وذَهَبَ بَالخِصْبِ إمْحَالُهُ، وَافْتَرَّ لهُ ثَغْرُ السَّعْدِ، وَوَفَّى لهُ الدَّهْرُ بِالوَعْدِ، وَاعْتَاضَ بِسُعْدَى عَنْ دَعْدَ، وَبَسَطَ الحِبَالَ عَنِ الجَعْدِ، واتَّفَقَ أنْ حَدَثَتْ فِتَنٌ بَيْنَ خُرَاسانَ وَالعِراقِ مَنَعَتْ مِن الاسْتِطْرَاقِ، فَطالَ بِهَا مَقَامُهُ، وَتَمادَتْ بِهَا أيَّامُهُ، إلَى أنِ انْجَلَتْ الفِتَنُ عنْ قِيامِ المَأمُونِ وَقَتْلِ الأمِينِ، وَتَحلَّتِ الأيَّامُ الأمْنَ الثَّمِينَ، فَحَثَّهُ الشَّوْقُ إلَى الوَطَنِ، والحَنِينُ إلَى العَطَنِ، عَلَى شَدِّ الرِّحَالِ وَالسَّفَرِ وَالارْتِحَالِ، وَحَمَلَ كُلَّ مُدَّخَرٍ وَمَخزُونٍ، ومَذْرُوعٍ وَمَوْزُونٍ، فَلَمَّا ضَمِنَ مَا اصْطَفَاهُ وَرَزَمَ، شَمَّرَ عن ذِرَاعِ الحَزْمِ وَعَزَمَ، وَصَحِبَ قَافِلةً تَسِيرُ إلَى العِراقِ، وَقَدْ سَئِمَ الغُرْبَةَ وَالافْتِرَاقَ، وَأرَاقَ كَأسَ الكَرَى، وَنَضَى الرِّكَابَ لِلسُّرَى، وَجَابَ في سَيْرِهِ وُعُوراً لَمْ تَدُسْهَا الخُطَى، ولا تَهْتَدِي إلَيْهَا القَطَا، إلَى أنْ قَارَبَ حِمَى الخِلافَةِ، وَشَارَفَ قُرْبَهُ وَازْدِلافَهُ، طلَعَ عَلَى القَافِلَةَ جَمْعٌ كَبِيرٌ مِن اللُّصُوصِ، كأنَّهمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ، فَاسْتَولَوا عَلَى القَافِلَةِ[6]، وَشفعُوا الفَرِيْضَةَ بِالنَّافِلَةِ، وَاسْتَحْوَذُوا عَلَى

---

(١) من البحر السريع.

(٢) المِسْك: ضرب من الطيب يتخذ من ضرب من الغزلان. والمُسْك: ما يمسك الأبدان من الطعام والشراب. اللسان (مسك).

(٣) الثُّمام: عشب من الفصيلة النجيلية يسمو إلَى مائة و خمسين سنتمتراً، فروعه مزدحمة متجمعة. والعَرار: نبات طيب الرائحة. اللسان (ثمم) و (عرر).

(٤) الحرفة (الأولى): الدّأب والجد فيه يقال: حرفته أن يفعل كذا): دأبه وديدنه. والحرفة (الثانية) الكسب من زراعة وصناعة وتجارة وغيرها.

(٥) القُلّ: القليل.

(٦) في الأصل: جمعٌ كبيرٌ من اللصوص كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ فاستَولَوا عَلَى القافلة جمع كبير من اللصوص، وهو تكرار سببه السهو.

ما فيْها مِنَ المَالِ، وحَازُوا الجِمَالَ بِمَا عَلَيْها مِنَ الحِمَالِ، وَسَلِمَ مِنَ القَتْلِ مَن سَلِمَ يَأْتِي القُرَى وَيَستَجْدِي مِن أَهْلِها القِرَى، إِلَى أَنْ وَصَلُوا إِلَى المَدِينَةِ بِالنُّفُوسِ البَاكِيَةِ الحَزِينَة، فَدَخَلَها ذلِكَ المِسْكِيْنُ كَمَا خَرَجَ، وَلَمْ يَخْرُجْ عنْ دائرَةِ الحَرَجِ، وَإِذا كانَتِ المِحَنُ فَجَّةً لَمْ يَهْتَدِ الوَاقِعُ فِيها إِلَى مَحَجَّةٍ، وَلَمْ يَكُنْ لهُ دَأْبٌ غَيْرُ البِدَارِ إِلَى جِهَةِ الدَّارِ، لِيَنْظُرَ ما دارَ بِهِ الفَلَكُ المُدَارُ، فَعِنْدَما وَصَلَ إِلَيْهَا وَوَقَعَ نظَرُهُ علَيْها، رأى دَاراً عَالِيَةَ البِنَاءِ، واسِعَةَ الفِناءِ، وبِبَابِها جُمُوعٌ مِنَ النَّاسِ مُخْتَلِفُو الأَجْنَاسِ، فَخَفَقَ قلبُهُ، وَطَاشَ لُبُّهُ، إذْ لَم يَعْرِفْ لأهْلِهِ خَبَراً، وَلَم يَجِدْ عَنهُمْ مُخْبِراً، غَيْرَ أَنَّهُ أَتَى حانُوتاً عَلَى بابِ مَحَلِّهِ، راجِياً أَنْ يَكُونَ عِنْدَ صاحِبِها فَكُّ ما اشْتَبَهَ عَلَيْهِ وأَنْ يُرِيَهُ حَلَّهُ، فسَأَلَهُ عنْ تِلكَ الدَّارِ، ومَا إِلَيْهِ حالُها / استَدَارَ فقَالَ: إنَّ لَها نَبأً مِن أَغْرَبِ الأَنْبَاءِ، [١٩/أ] يُحيِّرُ فِكْرَ الأَلِبَّاءِ، أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّ صَاحِبَ هذهِ الدَّارِ كانَ ذا غُنْيَةٍ واقتِدارٍ، فدَارَتْ بِفَلاكَتِهِ الأَفْلاَكُ، وانْقَطَعَ سِلْكُ سعَادَتِهِ مِن بَينِ الأَسْلاكِ، فصَارَ فَقِيراً، لا يَمْلِكُ فَتِيلاً وَلا نَقِيْراً، وكانَ لَهُ جَارِيَةٌ حامِلٌ فَوَضَعَتْ لَيْلاً، وطَلَبَتْ مِنْهُ مَا يُذْهِبُ حَرَباً وَوَيْلاً، فَنَزَلَ مِن عِندِها وَاللَّيْلُ مَسْبُولُ الذَّيلِ، فَلَمْ يُعْلَمْ لهُ خَبرٌ، وَلا يُدْرَى أَهُوَ في الأَحْيَاءِ أَمْ فِيمَنِ انْقبرَ، وَسَمِعَ أَبِي بِتِلْكَ القِصَّةِ ومَا تَجَرَّعَتْ مِن الغُصَّةِ، فأَرْسَلَ إِلَيْها ما رَمَّ حَالَها وأَخْصَبَ إِمْحَالَهَا، وكانَ مِن قَدَرِ اللهِ المَحْتُومِ وسِرِّ غَيْبِهِ المَكْتُومِ، أَنْ وُلِدَ تِلكَ اللَّيْلَةَ لِلخَلِيفَةِ وَلَدٌ ذَكَرٌ، وَحُرِّمَتْ عَلَيهِ المَرَاضِعُ فحَارَتْ في أَمْرِهِ الفِكَرُ، وَعَرَضُوا عليهِ عِدَّةً مِنْهُنَّ فلَمْ يَقْبَلْ مِن واحِدَةٍ ثَدْياً، ولَم يَجِدُوا إِلَى ما يُوَافِقُ مِزَاجَهُ هَدْياً، وكانَ مِن آخِرِ أَمْرِ ما عَرَضُوا عَلَيهِ ثَديَ تلكَ الجَارِيَةِ فتقبَّلَهُ، وقدْ أَرْخَى اللهُ عَلَيها وعَلَى ولَدِهَا سِتْرَ السَّعَادَةِ وأَسْبَلَهُ، فانْتَعَشَتْ أَتَمَّ انْتِعاشٍ، وعَاشَتْ أَكْرَمَ مَعَاشٍ، ونَشَأَ وَلَدُها في حِجْرِ الخِلافةِ، وقَدْ رزقَهُ اللهُ مِن ولَدِ الخَلِيفَةِ مَحبَّتَهُ وإيْلافَهُ، ولَمْ يَزَلْ يُعامِلُهُ مُعامَلَةَ الأخِ الشَّقِيقِ، وَيَنْظُرُ في الجَلِيلِ مِن أَحْوَالِهِ والدَّقِيْقِ، إِلَى أَنْ أَفضَتْ إِلَيهِ الخِلافَةُ، وأَمِنَ جَوْرَ الدَّهْرِ وإِخْلافَهُ، فَصَيَّرَهُ رَئِيسَ صَيَارِفَةِ بيتِ المالِ، وَفَوَّضَ إِلَيهِ النَّظَرَ في تلكَ الأعْمَالِ، وَبَنَى بِأَحْسَنِ البِناءِ دَارَهُ، وأَحَاطَ بِها مِن دَوائِرِ السَّعَادَةِ دَارَةً، فهُوَ في تَحصِيلِ الأَمْوَالِ السُّلطانِيَّةِ المُشَارُ إِلَيهِ والمُعَوَّلُ في ضَبْطِها ونَقْدِها علَيْهِ، فكادَ يَطِيرُ مِمَّا سَمِعَ فَرَحاً، وَيَستَطِيرُ[1] جَذَلاً وَمَرَحاً، وتوَجَّهَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ عَليهِ، وَشَاهَدَ ما وَصلَ مِنَ النِّعمَةِ إِلَيه، وَالأَمْوَالُ بَيْنَ يَدَيهِ مَنْثُورَةٌ، ودفَاتِرُ الكُتَّابِ بِأَيْدِيهِمِ مَطْوِيَّةٌ ومنشُورَةٌ، فوَقَفَ معَ جُمْلَةِ الواقِفِينَ وَدُمُوعُهُ تتحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، وهوَ يَتعجَّبُ مِن لُطفِ اللهِ تعالَى بهِ في مِحْنَتِهِ، إِلَى أَنْ تَقَوَّضَ ذلكَ الجَمْعُ الجَلِيلُ، وَلَم يَبْقَ مِنهُم إِلاَّ القَلِيلُ، فَلاحَتْ مِنهُ التِفَاتَةٌ إِلَيهِ، وعَطَفَتْهُ عاطِفَةٌ علَيهِ، فقالَ لهُ: أيُّها الشَّيْخُ،

---

(١) استطار: تفرّق وذهبَ. اللسان (طير).

هلْ لكَ مِن حاجَةٍ فتُقْضَى؟ أو مُهِمَّةٍ فتُمْضَى؟ فاذْكُر ما تُرِيدُ تَجِدْهُ أقربَ إليكَ مِن حَبْلِ الوَرِيدِ، فَإِنّي أجِدُ في قَلْبِي مَيْلاً إليكَ وشفَقَةً علَيْكَ. فقالَ: إنّي مِمَّنْ عَضَّهُ الدَّهْرُ، وخَبَرِي لا يَحْتَمِلُ الجَهْرَ، فقَلِّلْ بقيَّةَ هذا الجَمْعِ، وفرِّغْ مِن نفْسِكَ لِيَ القَلبَ والسَّمْعَ، لأقُصَّ علَيكَ ما عِنْدِي من القَصَصِ، وأبُثَّكَ [ما][1] تجرَّعْتُهُ مِنَ الغُصَصِ. فنظَرَ نَظْرَةً فإذا ذلِكَ الجَمْعُ قدْ تفرَّقَ، ولَمْ يَبْقَ منهُ[2] مفرِقٌ، فقَالَ: إنّي أنَا نَاجِلُكَ[3]، ومشاقكَ في النَّسَبِ ومُساجِلُكَ[4]. فَعِندَما سَمِعَ ما بَدَّ فاهُ، أوْلاهُ قَفَاهُ، ودخلَ مُسرِعاً إلَى أمِّهِ، وأخْبَرَهَا بِمُهِمِّهِ، فقالتْ: إنَّ لي فيهِ سِمَاتٍ لَيْسَتْ بِمُبْهَمَاتٍ، فَمُرِ الخَدَمَ بِتَقْرِيبِهِ لأَلْمَحَهُ مِن خصائصِ الباب، وأتبيَّنَ القِشْرَ مِن اللُّبابِ. فعِندَما لَمَحَتْهُ عَرفتْهُ معَ شُحوبِ حالِهِ، وتزايُدِ إمْحالِهِ، فلَمْ تَملِكْ نَفْسَها أنْ خَرَجَتْ إليْهِ، وألْقَتْ نَفْسَها علَيهِ، فتناحَبَا وتباكَيا، ومِن ألَمِ الفُرْقَةِ تشاكَيَا، وبلَغَ الوَلَدَ الخَبَرُ فأخذتْهُ عَبْرَةٌ وأمرَ الخدَمَ بإدْخَالِهِ حَمَّامَ الدَّارِ، وبِسعادَتِهِ فَلَكُ السَّعْدِ دارَ، وأفاضُوا علَيهِ مِنَ المَلابِسِ الجَليلَةِ ما عادَ بهِ إلَى هَيْئَتِهِ الجَميلَةِ، ثُمَّ ذَهبُوا به إلَى ابْنِهِ فتَلَقَّاهُ بالتَّرْحيبِ والإكْرامِ، والتَّوْقِيرِ والاحْتِرامِ، ورَكِبا مَعاً إلَى قَصْرِ الخَليفَةِ، وأوْصَلَهُ إلَى سُدَّتِهِ المُنِيفَةِ، وعَرَضَ عليهِ حَدِيثَهُ وقَصَّ علَيهِ قَديمَ حالِهِ وحَدِيثَهُ، فأخذَهُ مِن ذلكَ العَجَبُ وقالَ: قدْ تحَتَّمَ النَّظَرُ في حالِهِ ووَجَبَ. وخلَعَ علَيهِ خِلْعَةً سَنِيّةً، ورَسَمَ لَهُ مِن المالِ ما عادَتْ بهِ عِيْشَتُهُ هَنِيَّةً، وَفوَّضَ إلَيْهِ النَّظَرَ فيما كانَ ابْنُهُ يَنْظُرُ فِيهِ مِنَ الأعْمَالِ، فأصبَحَ وكأنَّ الدَّهرَ ما جَارَ عَلَيهِ ولا مَالَ، ورُقِّيَ الوَلَدُ إلَى رُتْبةٍ هِيَ أعلَى وأسنَى، وعامَلَ كُلاً منهُمَا بِالحُسنَى، واستَمرَّا عَلَى ذلكَ مُتَفَيِّئَيْنِ بسَابِغِ تلكَ الظِّلالِ، متعَامِلَيْنِ بالإكْرَامِ والإجْلالِ، إلَى أنْ بَلَغَ الأجَلُ التَّمَامَ، وَوافَاهُمَا بالوَفاةِ الحِمَامُ، فَيَا لَهُ مِن سَمَرٍ غَريْبٍ يَقْضِي فِيهِ بالعَجِيبِ الأرِيْبُ.

[١٩/ب]

المَقَامَةُ / التَّاسِعةُ (القُسْطَنطِينِيَّةُ):

قالَ لي بَعضُهُمْ لَمَّا ساقَتْنِي الأقْدارُ المَحْتُومَةُ وَأسْبابُ الغُيُوبِ المَكْتُومَةِ إلَى مَدِينَةِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ العظمى، ذاتِ المَحَلِّ الأعلَى والمقَامِ الأسْمَى، تخْتِ[5] المُلكِ المُعظَّمِ وَمَحَلِّ المَجْدِ الأعْظَمِ، ومَدِينَةِ العِلْمِ، وقَرارَةِ الحِلْمِ، وَمَحَطِّ الرِّحَالِ، ومُنْتَهى التَّرْحَالِ، وَأقْصَى

---

(١) زيادة يستقيم بها الكلام.

(٢) في الأصل: من منه. وهو سهو من الناسخ.

(٣) ناجلك: ناسلك، يقال (نجل الوالدَ): نسلَه.

(٤) مشاقك: مُغالبك. ومساجلك: مفاخرك.

(٥) التخت: المكان المرتفع يجلس عليه الملك، حتى لا يساوي غيره من جلسائه. (انظر معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، لمحمد دهمان: ص ٤٢).

المَطَالِبِ وَمُنْتَهى القَاصِدِ والطَّالِبِ، مَظْهَرِ شُمُوسِ السِّيَادَةِ، ومَقَرِّ نَفِيسِ السَّعادةِ، آياتُ مَحَاسِنِها لَمْ تَزَلْ بِألْسُنِ السُّمَّارِ مَتْلُوَّةً، وعَرائسُ بَدائعِهَا لَمْ تبرح عَلَى أعْيُنِ النُّظَّارِ مَجْلُوَّةً، أجَلُّ ما فُتِحَ مِن البِلادِ، وأعْظَمِ ما اقْتُنِيَ مِن طارِفِ الآثارِ وَالتِّلادِ، لا زالَتْ دارَ الإسْلَامِ وَالإِيْمَانِ، وَمَحَلَّ الأمْنِ والأمَانِ، بِدَولَةِ مَلِكِ العَصْرِ سُلَيْمَانِ[1] الزَّمَانِ، لا بَرِحَتْ دَولَتُهُ مُخلَّدةً خُلُودَ الأبْرارِ في دارِ القَرَارِ، مَا تَجَدَّدَ العَصْرُ وَالأوانُ، وَتعاقَبَ المَلَوانِ، قالَ: فَبَيْنَما أنا أمْشِي في مَحَالِّها الوَسِيعَةِ، وأُجِيلُ الطَّرْفَ في قُصُورِها الرَّفِيعَةِ، وَأتأمَّلُ تَشْيِيْدَ مَبانِيْها، وتَرْتِيبَ مَغانِيها، إذْ قَرَعَ سَمْعِي صَوتٌ مُطْرِبٌ مِن مُنْشِدٍ يَلْحَنُ وَيُعْرِبُ، فَوَجَّهتُ[2] نَحوَ الصَّوتِ، وأسْرَعتُ خَوْفَ الفَوْتِ، وإذا بِشَابٍّ حَسَنٍ ذِي بَلاغَةٍ وَلَسَنٍ، قدْ أبْرَزَ رأسَهُ مِن طاقٍ عَالِيَةٍ، وهوَ بِصُورَةٍ خَالِيَةٍ، فأصْغَيْتُ إلَيْهِ بِسَمْعِي، وجَمَعْتُ لهُ جَمْعِي، لأفهَمَ ما يَقُولُ مِن مَعْقُولٍ أوْ غَيرِ مَعْقُولٍ، فإذا هُوَ يَنْتَقِلُ مِن شُجُونٍ إلَى شُجونٍ، وَيَخْلِطُ الجِدَّ بِالمُجُونِ، وَيَشُوبُ العَقْلَ بالأفَنِ[3]، وَيَتَحَرَّكُ كحَرَكَاتِ الزَّفْنِ[4]، ويَقولُ[5]:

وَا عَجَبَـــاً وَا عَجَبَـــا	لِمَـــنْ يُحِـسُّ وَجَبَـا
وَحَـادَ عَـن نَهْـجِ الهُـدَى	ولا انْتَحَـى مَـا وَجَبَـا
وَلا دَرَى هَـــلْ جَـــارُهُ	شَـــعْبَانُ وَالأرَجَبَـــا
مَـــا ذَاكَ إلاّ أنَّـــهُ	عَـنِ الـصَّوابِ انْحَجَبَـا
لِحِكَمَــــةٍ بِالغَــــةٍ	تُـولِيْ اللَّبِيْـبَ العَجَبَـا
فَهْـــوَ بِمَـــا يَفْعَلُـــهُ	مِـنَ المَـلامِ أوْجَبَـا

ثُمَّ أمْسَكَ لِسانَهُ وَجلسَ، وَسَكَتَ وَمَا نَبَسَ، فَعَجِبتُ مِمَّا سَمِعتُ، ورَغِبتُ في الازْدِيَادِ مِنهُ وَطَمِعْتُ وَقُلْتُ لهُ: هَاتِ مِن هذهِ التُّرَّهَاتِ. فقالَ: ألَمْ يُنْبِئْكَ عَمَّا في الصَّحِيفَةِ العُنوَانُ؟ فَعِندِي مِنهُ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنوَانٍ، وَصُنوفٌ مُخْتَلِفةُ الألْوَانِ. فقُلتُ: وَاهاً لِجَمالِكَ مِنْ نَقْصِ كَمَالِكَ! كَيفَ تُبْدِيْ البَرَاعةَ وتَشْقُّ بِها بالرَّقاعَةِ؟ أمْ كيفَ تُبْدِي الحَذَاقَةَ وتَمْذُقُهَا[6] [بالحَمَاقَةِ؟][7] أمَا

---

(1) هو سليمان الأول (المعروف بالقانوني) بن سليم الأول بن بايزيد الثاني، من سلاطين الدولة العثمانية المشهورين، ولد سنة ٩٠٠هـ وولي الحكم من سنة ٩٢٦هـ إلى وفاته سنة ٩٧٤هـ. (راجع ترجمته في: تاريخ سلاطين آل عثمان، ليوسف آصاف، تحقيق بسام الجابي، ط٣/١٤٠٥هـ: ص ٧٢-٧٩).

(2) وجَّهت: توجهت. أو: وليت وجهي إليه.

(3) الأفن: ضعف العقل. اللسان (أفن).

(4) الزَّفْنُ: الرَّقْصُ. اللسان (زفن).

(5) من مجزوء الرجز.

(6) تمذقها: المَذْق: المزج والخلط. اللسان (مذق).

(7) في الأصل: بالجماعة، والصواب المعدل في المتن (بالحماقة)، بدليل ما سيأتي في السطر الَّذِيْ يليه، في قوله: واللهِ لستُ بأحمق، وأيضاً لموافقة منهج المؤلف في التزام ما لا يلزم.

إنَّ هذا لَلْعَجَبُ العُجابُ، والنِّداءُ الَّذِيْ هُوَ غيْرُ مُجابٍ[1]. فقالَ: وَاللهِ لَسْتُ بأحْمَقَ ولا أرْعَنَ، وقَدْ أقرَّ لي بالحِذْقِ مَن برَعَ في الأدَبِ وأذْعَنَ، الأحمقُ – وَاللهِ – مَنْ فضَّلَ العَجَمَ [على] العُرْبِ[2]، واعْتاضَ عَنِ النَّبْعِ بالغَرْبِ، وتَمادى في الإعْرَاضِ واللَّيِّ، وقَدْ تَبيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ، واتَّبَعَ هَوَاهُ، وأوْقَعَ نَفْسَهُ مِنَ الباطِلِ في مَهْوَاهُ، وبَاضَ الشَّيطانُ في قلبِهِ وفرَّخَ، واسْتعَانَ بِشيَاطِينِهِ في إغْوائِهِ واستَصْرَخَ، فانْقادَ لَهُ انْقِيادَ البَعِيرِ المَخْزُومِ[3] ولَم يَعْرِفْ بَنِي هاشِمٍ مِن بَنِي مَخْزُومٍ، وأظْهَرَ اللهُ ما كانَ يَحِيدُ عنْ إعْلانِهِ علَى صَفحَاتِ وَجهِهِ وفَلَتاتِ لِسانِهِ، فافْتُضِحَ بَيْنَ جَمٍّ غَفِيْرٍ وَجَمْعٍ لا يُجْمَعُ مِثْلُهُ بالنَّفيرِ[4]، فَعَجِبوا مِن حُمْقِهِ، وأعْرَضُوا عَن لَمْحِهِ ورَمْقِهِ، وصَارَ بينَ الناس مُثْلَةً، وأقْسَمُوا بأنَّهُمْ لَم يَرَوا في جهته [مِثْلَهُ] [5]. فَقُلْتُ له: مَن صاحِبُ هذا النَّعْتِ وَالوَصْفِ الَّذِيْ أسْمَعْتَ؟ فإنَّ النَّفسَ تَشَوَّقَتْ إلَى تَعْيِينِهِ، وتَلفَّتَتْ إلَى إيْضَاحِهِ وتَبْيينِهِ، فأفْصِحْ عَمَّنْ تَعْنِي، وَلا تُتْعِبِ الخاطِرَ بِحَدْسِهِ ولا تُعْنِيْ. فقالَ: وهَلْ يَخْفَى باطِلٌ عَلَى ناقِلٍ؟ وَحَقِّ مَن قدَّرَ الأوْقاتَ وَالمَواسِمَ، وزَيَّنَ الثُّغُوْرَ بِالمَبَاسِمِ، وخلَقَ ذَوَاتِ الحَوَافِرِ والمَنَاسِمِ، إنَّهُ لَلْمَدْعُوُّ شَاهَ قَاسِمْ[6]. فَقُلْتُ: إذَنْ لا بِدْعَ ولا عَجَبَ، إذا قَضَى لِسِنْخِهِ[7] ما عَلَيهِ وَجَبَ، وَمَن ذا الذي لا يَنْتَصِرُ لأرُومَتِهِ، أوْ يُدَافِعُ عَن جُرثُومَتِهِ، أوْ يُناضِلُ عَن نَسَبِهِ، أوْ يُقاتِلُ عَن حَسَبِهِ، وهذا – لَعَمْرِي – شائِعٌ بَيْنَ القَبائِلِ، كَما وقعَ لِتَغْلِبَ ووائِلَ، وَلَقَدْ شُنَّتْ عَلَى مِثلِ ذلكَ غَاراتٌ، وطُلِبَتْ به دُخُولٌ وثَاراتٌ، وقُطِّعَتْ رُؤوسٌ، وَفَنِيَتْ نُفوسٌ، وتَعاظَمَتْ خُطوبٌ، وتَفاقَمَتْ / كُرُوبٌ، [٢٠/أ] فقالَ: صَدَقْتَ فِيمَا بِهِ نَطَقْتَ، غَيْرَ أنَّ ذلكَ كانَ بينَ قَبائِلِ العَرَبِ وشُعُوبِها، عَلَى اخْتِلافِ أنْواعِها وَضُرُوبِها، وَأمَّا أنْ يُفَاضَلَ بَيْنَ العَجَمِ والعُرْبِ، أو يُقْرَعَ النَّبعُ بالغَرْبِ، فلا كَيْدَ ولا

---

(١) في الأصل: غير عجاب. والمثبت هو الصواب.

(٢) في الأصل: العجم والعرب. والمثبت هو الصواب.

(٣) خزمَ البعيرَ: ثقب أنفه وجعل في جانب منخره الخزامة، وهي حلقة من الشعر توضع في ثقب أنف البعير يشد بها الزمام. اللسان (خزم).

(٤) في الأصل: بالنقير. والمثبت هو الراجح عندي، لماءمته للفقرة السابقة. وإن صح المراد "النقير"، فمعناه من (نقرَ ونقَّر) أي: بحث وفتش.

(٥) زيادة يتم بها الكلام.

(٦) هو قاسم بن محمد، العالم الفاضل، المولى شاه قاسم، الشيخ شهاب الدين الحنفي، الشهير بمنلا زاده، أصله من هراة، وكان هو وأبوه واعظَين، وكان مستوطناً بتبريز، ولما دخلها السلطان سليم بن بايزيد أخذه معه إلى بلاد الرم، وعين له كل يوم خمسين درهماً، وكان عالماً فاضلاً، أديباً، بليغاً له حظٌّ من علم التصوف، وخط حسن، ومهارة بالإنشاء. أنشأ تواريخ آل عثمان، فمات قبل إكمالها سنة ثمان أو تسع وثلاثين وتسعمائة. الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، للنجم الغزي: ٣٣٧/١.

(٧) السِّنْخُ: الأصل من كل شيء. اللسان (سنخ).

كرَامَةَ، ولا بلَغَ رَائمُ ذلكَ مَرامَهُ، وأنّى وَكَيْفَ، ورأسُهُ بيْنَ النّطْعِ والسّيْفِ؟ وَمَن تُحدّثُهُ نفسُهُ بذلِكَ فَمَا هُوَ إلاّ هالِكٌ وابْنُ هالِكٍ، كَيْفَ وَقَدْ وردَ عَمّنِ الصّلاةُ عَليهِ مِن أفْضَلِ القُرَبِ: أنّ اللّهَ اخْتَارَ مِن خَلْقِهِ العَرَبَ[1]، وَكَفى العَرَبَ شَرَفاً وَمَلجاً وذُخْراً أنْ كانَ مِنْهُم خَاتَمُ الأنْبِيَاءِ وخُلاصَةُ الأصْفياءِ، وسيّدُ البَشَرِ الّذِيْ جاءَ بالنُّذُرِ والبِشرِ، صلّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ، ما عَانَدَ عَنِيْدٌ أوْ سلّمَ، فهَلْ بَعْدَ هذا مَقَالٍ، إلاّ مِمّنْ يَحتَاجُ إلَى الشّدِّ والاعْتِقالِ، وقَدْ قالَ الزّمَخْشَرِيُّ الإمَامُ، ونَاهِيكَ مِن حَبْرٍ هُمامٍ: فَضْلُ العَرَبِ عَلَى العَجَمِ كفَضْلِ الزّبِيبِ عَلَى العَجَمِ[2]، وقالَ الصّاحِبُ بنُ عَبّادٍ، وهُوَ رئيسُ المَشْرِقِ الّذِيْ لا يُفَضّلُ عَلَيْهِ: لا تَجِدُ رَجُلاً يُفَضّلُ العَجَمَ عَلَى العَرَبِ إلاّ وفِيْهِ عِرْقٌ مِنَ المَجُوْسِيّةِ يَرْجِعُ إلَيْهِ[3]. ولَيْتَ هذا الّذِيْ شَمَخَ بأنْفِهِ ولَمْ يَخْتَصِرْ مِن تكَبُّرِهِ وجَنَفِهِ[4] اقتَصَرَ عَلَى المُفاضَلَةِ ولَمْ يُبْرِزْ نفسَهُ لِلمُناضَلَةِ، بلْ عثرَ بِلِسانِهِ عَثْرَةً لا تُقالُ، ولا يُنْجِيْهِ مِنْها مَقَالٌ، أوْقَعَهُ فيهَا تَزَايُدُ تِيهِهِ وكِبْرِهِ، وما يُرِيدُهُ اللّهُ سُبحانَهُ مِن إظْهارِ خَبَايا خَبائثِ خُبْرِهِ. فقلتُ: وما الّذِيْ بِهِ تَفَوّهَ حتّى صرْتَ منهُ تَتَأوّهُ؟ قالَ: هيَ كلِمَةٌ لا تَخُصُّ أحَداً عَلَى الانْفِرادِ، ولا تَتَناوَلُ بَعْضَ الأفْرادِ، تَقْشَعِرُّ مِن سَمَاعِها الأبْدَانُ، وَيَنفِرُ مِنْها طَبْعُ كُلِّ قاصٍ وَدَانٍ، وَتَأبَاهَا نُفُوسُ العلَماءِ، وَتُنْكِرُها عُقُولُ الحُكَمَاءِ، وَلا تُصْغِي لَها الأسْمَاعُ، إذْ كانَتْ مِن خَرْقِ الإجْمَاعِ، وَمِمّا لا تَقْبَلُهُ الطّبَاعُ وَلا تتطَاوَلُ إليهِ الأطْمَاعُ، وتُوقِعُ قَائلَها في الكُفْرِ، ولا يُقْبَلُ منهُ في الافْتِداءِ بِيْضٌ ولا صُفْرٌ. فقلتُ: لِمَ لا تُصَرّحُ بِها ولا تُكْنِي، وتُرِيحُ القَلْبَ مِنَ التّعَنّي؟ فقَدْ تَشَوّقَتِ النّفْسُ لِمَعرِفَتِها وتَشَوّفَتْ، وتطاولَتْ لِلإحاطَةِ بِها واسْتَشْرَفَتْ، فَعَدِّ عَنِ الكِنايَةِ

---

(1) أخرج الحاكم في المستدرك عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم). المستدرك على الصحيحين للحالكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص: ٨٣/٤. قال الهيتمي في مبلغ الأرب: حديث سنده لا بأس به، وإن تكلم الجمهور في غير واحد من رواته. وقد أورد الألباني هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الضعيفة، حيث ضعف بعض صيغه، وقال: ومما ينبغي أن يعلم أن القطعة الأخيرة من الحديث المتضمنة فضل العرب وفضل الرسول صلى الله عليه وسلم ثابتة في أحاديث صحيحة، وانظر سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني: ٥١٢/١.

(2) قال الزمخشري: فرقك بين الرُّطب والعجم، فرق ما بين العرب والعجم. والعَجَم هنا هو العُجَام: نوَى كل شيء كالزبيب والرُّمّان والبلح. (المعجم الوسيط: عجم).

(3) ورد هذا القول في معاهد التنصيص علَى شواهد التلخيص ٤٠١/١، من قصة آخرُها: "... قال: فلما أجبته بهذه الأبيات نظر الصاحب بن عباد إلَى الرجل فقال: كيف ترى؟ فقال: لو سمعت به ما صدقت، قال: فإذا جائزتك إن وجدتك بعدها في مملكتي أمرت بضرب عنقك، ثم قال: لا ترون رجلاً يفضّل العجم علَى العرب إلاّ وفيه عرقٌ من المجوسية يرجع إليها". كما ورد في بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي: ١٤/١.

(4) الجَنَفُ: المَيْلُ والجَوْرُ. اللسان (جنف).

إلَى الصَّرِيحِ، واعْدِلْ بِي عنِ الرَّغوَةِ إلَى الصَّرِيحِ، واشْرَحْ ما وقعَ بِنَصِّهِ، وانقلِ الحَدِيثَ بِفَصِّهِ، فَرُبَّما تَستَعظِمُ قَليلاً، وتَستَسمِنُ هَزيلاً. فتأوَّهَ وتَوَجَّعَ، وحَوْقَلَ واستَرْجَعَ، وقال: أتظُنُّ أنِّي أنفُخُ في غَيْرِ ضَرَمٍ؟ أوْ أستَسمِنُ ذا وَرَمٍ[1]؟ كلاّ واللهِ، بلْ هِيَ كَلِمةٌ قائلُهَا بِها مَأخُوذٌ، وفي الجَحِيْمِ مَنْبُوذٌ، سأقُصُّ علَيْكَ القَصَصَ، ولا أدَعُكَ تَتجرَّعُ الغُصَصَ، وأسُوقُ لكَ الخبَرَ مِنِ ابتِدائِه؛ لتَعرِفَ كُنْهَ ظُلْمِهِ واعتِدائِهِ، وهُوَ أنَّهُ أتَى بيتاً مِن بُيوتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِسرعةٍ وعَجَلٍ وقَد غَصَّ بأهْلِهِ، وجَلسَ كُلُّ وَاحِدٍ في مَحَلِّهِ، فتَخطَّى رِقابَ الجَمْعِ، وقَدْ غطَّى كِبْرُهُ علَى البَصَرِ مِنهُ والسَّمْعِ، وأقْدَمَ بعَقْلِهِ السَّخِيفِ علَى رَجُلٍ شَرِيفٍ، وطلَبَ مِنْهُ أنْ يُجلِسَهُ مكانَهُ، قاصِداً انتِقاصَهُ وامْتِهانَهُ، فتَأبَّى علَيهِ، ولَم يَلْتَفِتْ إلَيهِ، وعَرَّفَهُ ما ورَدَ فِيهِ مِنَ النَّهْيِ وأنَّ عقْلَ مَن يَقْصِدُهُ في غاية الوَهَنِ وَالوَهْيِ، وأنَّ النَّهْيَ فيهِ للتَّحْرِيمِ لا للتَّنْزِيهِ، يَدرِي كُلُّ نَبِيلٍ نَبيهٍ، فلَمْ يُجِبْ إلاّ بِبَذاءةٍ وقَذَعٍ، ولسَعَ بِحُمَّةِ لِسانِهِ ولَذَعَ، وأرْخَى عِنانَ اللِّسانِ في حَقِّ ذلِكَ الإنْسَانِ، ثُمَّ انتقَلَ مِنهُ إلَى الدَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ، والمُصِيبَةِ العَمْيَاءِ، وفاقِرَةِ الظَّهْرِ، وجالِبَةِ الغَبْنِ والقَهرِ، والمُرْدِيَةِ في هَوِيَّةِ التَّبَابِ[2] لِمَا اشتَمَلَتْ علَيهِ مِن الفُحشِ والسِّبَابِ، بأنْ قالَ بألْفاظٍ شَنِيعَةٍ: إنَّ طائفَةَ العَرَبِ نَجِسةُ الطَّبِيعةِ، فَشَمَلَ هذا اللَّفظُ كُلَّ عَربيٍّ وكُلَّ وَلِيٍّ مِنْهُم ونَبِيٍّ، وقَدْ أفادَ العُلَماءُ بِمَواقِعِ الألْفَاظِ، والَّذينَ هُم لِوِراثَةِ العِلْمِ النَّبَوِيِّ حُرَّاسٌ وَحُفَّاظٌ، وأنَّ اللَّفظَ لِكُلِّ عَرَبِيٍّ شامِلٌ، وقَد صَرَّحَ بهِ مَن لا يُحَابي في الشَّرِيعَةِ وَلا يُجامِلُ، فمَا الظَّنُّ بِخاطِرٍ يَصْدُرُ عنهُ مِثلُ هذا الكلامِ وَلا يَحْجُبُهُ عَنه فِطْرَةُ الإسْلامِ؟ وهَل يَبْدُو ذلِكَ إلاَّ مِن قَلبٍ دَرِبٍ[3] عَلَى بُغْضِ العَرَبِ، وما كُنْتُ إخَالُ أنَّ الحُقُوقَ القَدِيمَةَ تُمْطِرُ لَها مِن القُلُوبِ السَّلِيمَةِ دِيمَةٌ. فقالَ: حيثُ وَصَفْتَ القُلُوبَ بِالسَّلامَةِ، ووَسَمْتَها بِهذِهِ العَلامَةِ؛ / فمَن صَدَرَ عنهُ هذا القَوْلُ عَدِمَ القُوَّةَ والحَوْلَ، [٢٠/ب] خارجٌ عنْ هذِهِ السِّمَةِ، غَيْرُ مُبَرَّأٍ مِن التُّهْمَةِ، غارِقٌ في بِحَارِ الوَبَالِ مَغْمُوسٌ في طِيْنَةِ الخَبَالِ[4]، وجُرْحُهُ جُبَارٌ[5]، واللهُ مِن ورائِهِ جَبَّارٌ، يُمْهِلُهُ ولا يُهمِلُهُ ويُقاصِصُهُ بِما يَقْتَرِفُهُ ويَعْمَلُهُ، والرأيُ أن نَكُفَّ غَرْبَ اللِّسانِ عنْ هذا الَّذِيْ هُوَ في صُورَةِ إنسَانٍ، وَنَكِلَهُ إلَى عَواثِرِ الجُدُودِ

---

(١) هذا من الأمثال السائرة كما جاء في خزانة الأدب وغاية الأرب، خزانة الأدب وغاية الأرب، لأبي بكر علي بن محمد بن حجة الحموي، دار مكتبة الهلال للنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م، ١/ ٢١٤.

(٢) الهوية: البئر البعيدة القعر. والتَّباب: الخُسْرانُ والهَلاكُ. اللسان (تبب).

(٣) دربَ: اعتاد الشيء وأولع به.

(٤) طينة الخَبَال عُصارة أهل النار. والخَبَال في الأصل: الفساد، ويكون في الأفعال والأبدان والعقول، وطينة الخَبَال: ما سالَ من جلود أهل النار. اللسان (خبل).

(٥) الجُبَار: الهدَر، وهو ما لا قصاص فيه ولا غرم، يقال: ذهب دمه جُباراً، وحربٌ جبار: لا دية فيها ولا قصاص. اللسان (جبر).

وبلوغِهِ الوَقتَ المَحْدُودَ، وَقد قُلتُ قَديْماً فِيْمَن لَم أقدِرْ أنْ أعْرُكَ لهُ أديماً[1]:

إذا مَا تَـصَدّى ظَـالِمٌ لِـلأذَى فَكُـنْ ... عَلَـى مـا تَبـدَّى مِنْـهُ أصْبَرَ صَـابِرِ

وَدَعْـهُ ومَـا يَلْقَـاهُ مِـن شُـؤْمِ بَغْيِـهِ ... وَكِلْهُ إلَى فِعْلِ الجُدُودِ العَـواثِرِ

وإلاَّ فإنَّ الإنصافَ مِن صاحِبِ هذِهِ الأوْصافِ عَزيزُ الوُجُودِ، وَلا تَجِدُ مَن بهِ يَجُودُ، فَرُضْ نَفْسَكَ عَلَى الصَّبرِ المُرِّ إلَى أنْ تَمْضِيَ أيَّامُ مُهْلَتِهِ وتَمُرَّ، فَحَرَكاتُ الأفلاكِ ما دامَتْ مُنْتَظِمَةَ الأسْلاكِ لا تَبْقى مَعَها الشُّؤونَ عَلَى حالٍ، ولا يَدُومُ بِها خِصْبٌ ولا إمْحالٌ، فالعَاقِلُ مَن يَكِلُ الأُمُورَ إلَى ما تَجْرِي بهِ الأَقْدَارُ وَيَدُورُ بوُقُوعِهِ الفَلَكُ المُدَارُ. فقالَ: إنَّ هذا الرَّأيَ حَسَنٌ، ولَيْسَ مِنْهُ لا أجْوَدُ ولا أحْسَنُ، غَيْرَ أنّي تَنَفَّسْتُ بأبياتٍ، حَالِيَةِ الشِّيَاتِ، أجْعَلُها لأوْصافِهِ خاتِمَةً، وأدَعُ أعْباءَهَا عَلَيهِ مَدَى الدَّهْرِ جاثِمَةً، فَاسْمَعْها مِنّي واروها عَنّي[2]. فقلتُ: هاتِ يا أخَا التُّرَّهاتِ[3]، فأنْشَدَ هذهِ الأبْياتَ[4]:

شَـابَ وَجَهْـلُ الـشَّبابِ فِيْـهِ ... يُعْـرِبُ عَـن ذاكَ لَفْـظُ فِيـهِ

شَـيـخٌ حَمَاقاتُـهُ تُنَـادِيْ ... بأنَّـهُ فَاقِـدُ الـشَّبِيهِ

وَا عَجَبـاً للزَّمَـانِ يُبْـدِي ... سَخَافَةَ العَقْـلِ مِـن بَنِيـهِ

أمَـا دَرى أنَّ الابْـنَ يُعْـزَى ... فـي كُـلِّ حـالٍ إلَـى أبِيْـهِ

صَـبْراً أخَـا النَّائِبَـاتِ صَـبْراً ... عَلَـى أذَى طَعْمِهَـا الكَرِيـهِ

وَكُـن حَلِيْمـاً إذا اللَّيـالِيْ ... جَهِلْـنَ قَـدْرَ الفَتَـى النَّبِيـهِ

واغْـضِ إذا مَـا بَـدَتْ سَـفَاهاً ... تَرْفَـعُ قَـدْرَ الغَبِيْ الـسَّفِيه

فَكُـلُّ أمْـرٍ لَـهُ انْقِـضَاءٌ ... بِمَـا المَقَـادِيرُ تَقْتَـضِيه

لَـم يَبْـقَ حَـالٌ عَلَـى شِـفَاءٍ ... وَلا نَعِـيمٌ يَـدُومُ فِيْـهِ

تَـدُورُ الأفْـلاكُ بِانْقِيَـادٍ ... لِقَـادِرٍ جَـلَّ عَـن شَـبِيهِ

فَـدَورُها كُـلَّ لَمْـحِ طَـرْفٍ ... يُبِيـدُ أمْـراً وَيَبْتَدِيـهِ

وَاهـاً لِمَـن غَـرَّهُ زَمَـانٌ ... بِزُخْـرُفٍ ظَـلَّ يَجْتَلِيـهِ

يَظُـنُّ مِـن نَفْـسِهِ كَمَـالاً ... وَالـنَّقْصُ مَـا زالَ يَعْتَرِيـهِ

فَآفَـةُ العُجْـبِ تَنْتَحِـي مَـن ... بِـهِ تَحَلَّـى، وَتَزْدَرِيـهِ

وَدَارَةُ القَولِ واسِعَةُ المَجَالِ، معَ التَّفَكُّرِ والارْتِجالِ، ومَاذَا عَسَى تُغْنِي نَفْثَةُ المَصْدُورِ إذا لَم يُسَاعِدْهَا المَقْدُورُ، عَلَى أنَّنِي أسْتَغفِرُ اللهَ سُبحانَهُ مِمَّا في ذلِكَ نَثَرْتُ وَنَظَمْتُ، وَوَشَّيْتُ بِهِ

---

(١) من البحر الطويل.

(٢) في الأصل: وأوردوها، وقد أثبت ما رأيته صواباً.

(٣) التُّرَّهات: الأباطيل، واحدتها: تُرَّهة. اللسان (تره).

(٤) من مخلع البسيط.

بَيَاضَ الطُّرُوسِ وَرَقَمْتُ، وَاللهُ يغفِرُ لِي ولَهُ، وَيَمْحُوْ زَلَلِي وَزَلَلَهُ بِكَرَمِهِ وَمَنِّهِ.

المَقَامَةُ العاشِرَةُ:

حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِن أَعْيانِ البَصْرَةِ قدْ حَبَاهُ اللهُ تَوْفِيقَهُ وَنَصْرَهُ، وَجَمَّلَ بِهِ وَقْتَهُ وعَصْرَهُ، وكانَ حَسَنَ الأَخْلَاقِ أَثِيرَ الخَلَاقِ[1]، مُطِيعاً لِلمَلِكِ الخَلَّاقِ، لا تُعْرَفُ لَهُ صَبْوَةٌ وَلا تُعَدُّ لهُ هَفْوَةٌ ولا يُؤْثَرُ عَلَيهِ كَبْوَةٌ، يأخُذُ بِيَدِ المَظْلُومِ ويَأْسُو بِمَرَاهِمِ جُودِهِ المَكْلُومَ، سَواءٌ في ذلِكَ المَجهُولُ عِندَهُ والمَعْلُومُ، فَهُوَ في أُفُقِ ذلِكَ القُطْرِ شَمْسُهُ وَبَدْرُهُ، وياقُوتُهُ النَّفِيسُ وَدُرُّهُ، وَكُلُّ مَن يَعْرِفُهُ يقولُ للهِ دَرُّهُ، وكانَ قَد دَارَتِ الأَفْلاكُ / بِسَعْدِهِ، وَأَنْجَزَ لَهُ الدَّهْرُ صادِقَ وَعْدِهِ، ورُزِقَ حُسنَ الثَّناءِ في قُرْبِهِ وَبُعدِهِ. [٢١/أ]

شِعرٌ[2]:

وَإذا الحَـــــظُّ تعـــــالَى وَسَـــــمَا	جَبْهَـةَ المَحظُـوظِ سَـعْداً وَسَـمَا
وَإذا قَطَّـــــبَ دَهْـــــرٌ لامْـــــرِئٍ	لا يُـــرَى المَحْظُـــوظُ إلاَّ بَـــسَمَا
قِـــسَمٌ بَـــيْنَ البَرَايَـــا بَـــرَزَتْ	وَلَهـــا اللهُ تعـــالَى قَـــسَمَا
لا تَـــرَى حَظَّـــا كحَـــظٍّ أَبَـــداً	وَلَـــئِنْ كـــانُوا تَـــسَاوَوْا نَـــسَمَا
وَاحِــدٌ يَــسأَمُ مِــن وَفْــرِ اللُّهَــى	وَفَقِيــرٌ يَتمنَّــى دَسَــمَا
وَعَلِيــلٌ ظَــلَّ فــي أَدْوائِــهِ	وَصَــحِيحٌ عِنْــدَ ذاكَ انْحَــسَمَا
حِكَـــمٌ أَحْكَمَهَـــا بَارِئُهَـــا	وَنُفُــوذُ الحُكْــمِ فِيهــا ارْتَــسَمَا

وكانَ مِن قَضاءِ اللهِ المَحْتُومِ، وسِرِّ غَيْبِهِ المَكْتُومِ، أَنْ قَوَّى في عَقْلِهِ الرَّصِينِ السَّفرَ إِلَى الهِندِ أو الصِّينِ، لِنُفُوذِ الأَقْدَارِ، وما يَجْرِي بِهِ الفَلَكُ المُدَارُ، فَشَحَنَ الفُلْكَ بِأَنْوَاعِ التِّجارَةِ، وفَارَقَ وَطَنَهُ وَجِارَهُ، وركِبَ ثَبَجَ البَحْرِ الزَّخَّارِ، بَعْدَ أَنِ اسْتَجازَ[3] واسْتَخَارَ، واسْتَمرَّ بِهِ السَّيْرُ والرِّيحُ رُخَاءٌ، والوَقْتُ رَخَاءٌ، والأَمْواجُ تَحْمِلُ الفُلْكَ وتَضَعُهُ، والهَوَاءُ يَخْفِضُهُ ويَرفَعُهُ، إِلَى أنْ قَرُبُوا مِن بَرِّ مُدُنِ الهِندِ المَعْهُودَةِ، وأَجلِّ أَقَالِيمِهِ المَشْهُودَةِ، فَهَاجَتْ رِيحٌ أَقْلَقَتْ[4] وَرَوَّعَتْ، وَاشْتَدَّتْ ودَامَتْ فَأَزْعَجَتْ وَأَفْزَعَتْ، وجَاءهمُ المَوجُ مِن كُلِّ مَكانٍ، وخَرَجَ الصَّبْرُ عن حَدِّ الإمْكَانِ، وهَمَى الغَمَامُ، واسْتَشْعَرَ الحِمامُ، فَلَمْ يَكُنْ إلاَّ كَغَمْضِ الأَجْفانِ، أَوْ سَلِّ السُّيُوفِ مِنَ الأَجْفانِ، حتَّى أَلْجَمَهُ الغَرَقُ، وَعمَّ الفَرَقُ تِلْكَ الفِرَقَ، فَرَكِبَ مَن نَجَا مِنْهُم أَلْوَاحَ السَّفِينَةِ،

---

(١) الخَلاق: الحظ والنصيب.

(٢) من البحر الرمَل.

(٣) استجاز: طلب الإذن. ويحتمل أن تكون الكلمة "استجار" أي: بالله.

(٤) في الأصل: أقلقلت. وهو خطأ.

وقَصدَ واجهَةَ المَدِينَةِ، وكَانُوا بِمقْرُبَةٍ مِنَ السَّاحِلِ فَطَلَعُوا إِلَيْهِ حُفَاةً عُرَاةً، وكُلٌّ مَشْغُولٌ بِما دَهَاهُ وعَراهْ. وَطَلَعَ صاحِبُ السَّفِينَةِ فَقِيراً، لا يَملِكُ فَتِيلاً ولا نَقِيراً، ومَعَهُ مِن خَدَمهِ مَن كُتِبَتْ لَهُ السَّلامَةُ، وقَدْ نَشَرَ الإِدْبَارُ عَلَيهِم أَعْلامَهُ، فَدخلَ المدِينَةَ مَدْهُوشاً مَذْهُولاً، وكانَ[1] قدْ عَايَنَ مَرْأَى فَظِيعاً وأَمْراً مَهُولاً، وقالَ في المَعْنَى[2]:

حَيْرانُ لا يَدْرِي لِفَرْطِ ذُهولِهِ ... أَلْمَغْرِبِ أَمْ مَشْرِقٍ يَتَوجَّهُ

فَأَخَذَ يَتَخَلَّلُ سِكَكَ المَدِينَةِ، وَيَتَعجَّبُ مِن مَحَاسِنِها المُسْتَبِينَةِ، وَوُضُوحِ قِدَمِها، ورُسُوخِ قَدَمِها، وَبَهْجَتِها وانفِراجِها، وَسُمُوِّ قُلَلِها وأَبْراجِها، وَرَوْنَقِ رِيَاضِها، وَتَذَلُّلِ الهُمُومِ لِفُرَجِها وارْتِيَاضِهَا، واتِّساعِ جَنَبَاتِها وأفنائِها، وكَمَالِها في البِلادِ البَحْرِيَّةِ وغَنَائها، وإِيْنَاعِ حَدائِقِهَا المُجدداتِ، وإِحْرَامِ حَجِيجِ الأُنْسِ مِن ذلِكَ المِيقَاتِ. فَبَيْنا هُوَ يَدُورُ في تِلْكَ المَحَالِّ، وَقَدِ استعَانَ بِشَدِيدِ المِحَالِ، وَيُفَكِّرُ في ذلِكَ الحالِ، وكيفَ تغيَّرَ واسْتَحَالَ، مَرَّ بِدارٍ وَاسِعَةِ الفِنَاءِ، عَالِيَةِ البِنَاءِ، وَعلَى بابِها رَجُلٌ نَبِيلٌ، كَبِيرٌ جَلِيلٌ، لَهُ خَدَمٌ وَأَتْبَاعٌ، تَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ الهِمَّةِ وَطُولِ البَاعِ، فَحِيْنَ وَقعَ عَليهِ بَصَرُهُ لاحَ لَهُ ضُرُّهُ وَحَصْرُهُ، وَعلِمَ مِن سِيماهُ أَنَّهُ مِن بَنِي النَّعِيمِ وإِنْ كان ما بِهِ مِنَ الخَصَاصَةِ قدْ غَمَّ وعَمَّ، والفِرَاسَةُ الصَّادِقَةُ تَرَى العَشِيْرَةَ والقَبِيلَةَ، وإِنِ اشْتَبَهَتْ شُعُوبُ طَرَائقِها، وَالهَيْئةُ النَّبِيلَةُ تُومِئُ إِلَى شرَفِ العَشِيرَةِ والقَبِيلَةِ، وَلا تُغَيِّرُها اسْتِحالَةُ حالٍ وَلا جَدْبٌ وَإِمْحَالٌ، فقامَ إِلَيْهِ مُستَقبِلاً، وَعانَقَهُ مُقْبِلاً، وَأَجلَسهُ مُكَرَّماً، ومُبَجَّلاً مُحْتَرماً، وَسأَلَهُ عَن هذهِ الحَالَةِ ومَا الَّذِيْ صَيَّرَها إِلَى الاستِحالَةِ، فَقَصَّ عَلَيهِ القَصَصَ ومَا تَجَرَّعَهُ مِن الغُصَصِ، فَتَألَّمَ لَهُ وتَوَجَّعَ، وحَوْقَلَ واستَرجَعَ، وأَخَذَ يُسَلِّيهِ في مُصابِهِ، ويُوَاسِيهِ بِمَن شارَكَهُ - قَبْلُ - فِي مِثْلِ أَوْصابِهِ، ولِسَانُ حالِهِ يُنْشِدُ فِي أَهْوالِهِ[3]:

قَالَ خَلِيٌّ لِشَجِيٍّ: اصْطَبِرْ
عَلَى شُجُونٍ مُرُّها فَوْقَ الصَّبِرْ
وَأْمَنْ بِمَنْ لاقَتْهُ قَبْلُ وَاعْتَبِرْ
وَاسْبُرْ بِها عَقْلَ الرِّجَالِ، واخْتَبِرْ
/ فَقَالَ فِي الجَوَابِ قَولَ مُعْتَبِرْ:
مَا حَالُ مَن عَاشَ كَحالِ مَنْ قُبِرْ؟
هَانَ عَلَى الأَمْلَسِ مَا لاقَى الدَّبِرْ[4]

[٢١/ب]

---

(١) في الأصل: وقال. وهو خطأ.

(٢) من البحر الكامل.

(٣) من مشطور الرجز.

(٤) هانَ على الأملسِ ما لاقى الدَّبِر: مثلٌ يضرب في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه. مجمع الأمثال: ٣/ ٤٧٩.

ثمّ قالَ لهُ: لقدْ ساقتْكَ الأقْدارُ إلى هذهِ الدّارِ لِحِكَمٍ لا يَظْهَرُ أثرُهَا إلاّ في أوانِهِ، ولا يُعلَمُ خَبَرُها إلاّ في مَجِيءِ زمَانِهِ، والطَّبِيبُ الحاذِقُ مِنَ النَّبْضِ يَعْرِفُ المرَضَ، ويفرِّقُ بَيْنَ الجَوْهَرِ والعَرَضِ، فَسلِّمِ الأُمُورَ إلَى مُقَدِّرِها، ومُحْكِمِها ومُدَبِّرِها، فلَسْتَ تَدْري مَا تدُورُ بهِ الأَفْلاكُ، مِن إقْبَالِ السَّعادَةِ وإدْبَارِ الإفلاكِ[1]، فاسْكُن إلَى أنْ يَتحرَّكَ السَّعْدُ ويُنْجِزَ لكَ اللهُ ما سبَقَ بهِ الوَعْدُ، وأنْتَ مُحَكَّمٌ في هذهِ الدّارِ بِما حاكَ في نَفْسِكَ ودَارَ، مِن دَقِيقِ الأُمُورِ وجَلِيلِها، وكَثِيرِها وقَلِيلِها، لا تَرَى لِعَيْشِكَ مُكَدِّراً، ولا لِمَا تَشْتَهِيهِ مُقَتِّراً ولاَ مُقَدِّراً، وقَدِّرْ أنَّكَ تَبَدَّلْتَ بِداركَ وأهلِكَ داراً وأهْلاً، واللهُ يَجْعَلُ ما أنتَ فيهِ منَ الحَزْنِ سَهْلاً، واعلَمْ أنَّ مِحْنتَكَ ما دَامَتْ فَجَّةً لا تَجِدُ مِن عِقالِها فُرْجَةً، وإذا حانَ نجزانها[2]، وانطَفَتْ نِيرانُها، آذَنَتِ الكُرُوبُ بالانفِرَاجِ، وتَفَتَّحَتِ السُّبُلُ والفِجَاجُ. وناوَلَه كِيْساً مُتْرَعاً بالنَّقْدِ، وقالَ لَهُ: قَدْ أمِنْتَ الفقرَ والفَقْدَ. وأفْرَدَ لهُ داراً مُتَّصِلَةً بِدارِهِ، وأرَاهُ صُورَةَ تمكُّنِهِ مِنْ فِعلِ الجَمِيلِ واقتِدَارِهِ، فَشَكَرَ لهُ ذلكَ الصَّنِيعَ، وأوَى إلَى جَنَابِهِ المَنِيعِ، وكانَ هذا الرَّجُلُ صَاحِبَ دَوْلَةٍ في ذلكَ القُطْرِ وسَعَادَةٍ، وقَدْ أمِنَ إبْراقَ الدَّهْرِ وإرعَادَهُ، فعاشَ في كَنَفِهِ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ لا يَجِدُ مسَّ كَرْبٍ ولا قهْرٍ، غَيْرَ أنَّ عِندَهُ تَشَوُّقاً إلَى الوَطَنِ، وتَشَوُّفاً إلَى العَطَنِ، ويَنْظُرُ أحوالَهُ إلَى ما وصَلَتْ، وكَيْفَ فارَقَتْهُ نِعْمَتُهُ وانفَصَلَتْ، فَتَردَّدُ زَفَراتٍ، ويَتَزايَدُ حَسَرَاتٍ، ويَئِنُّ أنِينَ الثَّكلَى، ولا يَسْتَطِيبُ شُرْباً ولا أكْلاً[3] وقَدْ وقَعَ فِيما يُذهِلُ العُقُولَ، ولِسانُ حالهِ يَقُولُ[4]:

طَالَ نَأْيِي عَنِ الدِّيَارِ وبُعْدِي	واشْتِياقِي إلَى سُعَادٍ وَدَعْدِ
لَسْتُ أدْرِي أحْوالَ أهلِي ومَا جَا	ءَتْ إلَيْهِمْ بهِ الحَوَادِثُ بَعْدِي
وبِقَلبِي تَوارَدَتْ[5] حَسَرَاتٌ	لَسْتُ أقْوَى لَهَا بِحَصْرٍ وَعَدِّ
واستَهَلَّتْ سَحَائبُ الكربِ نَحْوِي	بِهُمُومٍ تَهْمِي بِبَرْقٍ وَرَعْدِ
كِدْتُ أقْضِي لَوْلا تَدارَكَنِي اللهُ	م بِشَهْمٍ يَدْعُونَهُ مِن مَعَدِّ
مُفْرَدٍ بالكَمَالِ طَلْقِ المُحَيَّا	سَبِطِ الكَفِّ بالنَّدَى غَيْرِ جَعْدِ
راشَنِي بَعْدَما بَرَتْنِي اللَّيَالِي	وَحَمَانِي مِنَ النُّحُوسِ بِسَعْدِ
رَبِّ جَازِهْ عَنِّي بِخَيرٍ، وأنْجِزْ	بِرُجُوعِي إلَى الأحِبَّةِ وَعْدِي

(١) في الأصل: الفلك. وهو خطأ. أثبتُّ ما رأيته صواباً. وقد سبق شرح الفلاكة والإفلاك.

(٢) في الأصل: نجرانها. ولعل المثبت هو الصواب، من نجز الشيءُ نَجْزاً: تمّ وقضي.

(٣) في الأصل: "أكلاً ولا شرباً"، والمنهج الّذي سار عليه المؤلف يقتضي سياقُه: "ولا يستطيب شرباً ولا أكلاً" ليتوافق مع جرس جملة: ويئن أنين الثكلى.

(٤) من البحر الخفيف.

(٥) في الأصل: توارت. والصواب ما أثبته لموافقته للوزن.

وَبَيْنا هُوَ ذاتَ يومٍ وَقَدْ ضاقَتْ حَضِيْرَتُهُ مِنَ الألْبابِ، وتقَطَّعَتْ بِهِ الأسْبَابُ، وأيِسَ مِنِ انْفِرَاجَةِ الكُرِبَةِ والخُلُوصِ مِن شَرَكِ هذهِ الغُربَةِ، إذْ دَخَلَ علَيهِ صاحِبُ الدَّارِ، ورَآى ما في وَجْهِهِ مِن شُحُوبِ الأكْدَارِ، فقَالَ لهُ: وقَعَ في نَفْسِي أنْ نَسِيرَ جَمِيعاً إلَى السَّاحِلِ، ونَنْظُرَ إلَى صُنْعِ اللّهِ في المُخْصِبِ مِن رِياضِهِ والمَاحِلِ، فلَعَلَّ وعَسَى أنْ يَلِيْنَ مِن قَلْبِكَ ما عَسَا، وتَرَى ما يُوْجِبُ ارتِيَاحَكَ، وَيُوقِدُ مِصباحَكَ، ويُطْلِعُ مِن لَيلِ الكَرْبِ صبَاحَكَ، فَإنَّ رُؤيَةَ البَحْرِ وَالرِّيَاضِ، والأدْواحِ والغِيَاضِ، تُحْدِثُ الارتِيَاضَ، وَتُسَهِّلُ عَنِ الأوطَانِ الاعْتِيَاضَ. فقالَ: لَعَمْرِي لقَدْ صَدَقْتَ فِيما بِهِ نَطَقْتَ وأتَيْتَ بِمَحْضِ الحَقِّ، الّذِي هُوَ بالاتِّبَاعِ أوْلَى وأحَقُّ[1]. شِعر:

وَلَكِنْ بِلا قَلْبٍ إلَى أيْنَ أذْهَبُ[2]	ولَمْ يَبْقَ لِيَ في كُلِّ مَا رُمْتُ مَذْهَبُ
وَلِي أدْمُعٌ كالسُّحْبِ يَهْطِلُ وَبْلُهَا	وَفِي كَبِدِي نَارُ الهَوَى تَتلَهَّبُ
وقَدْ كُنتُ قَبْلَ اليَوْمِ لا أخْتَشِي الأسَى	ولاَ مِن أرَاجِيفِ الجَفَا كُنتُ أرْهَبُ/[٢٢/أ]
وَأصْبَحْتُ كالمَأسُورِ ثُقِّفَ قَيْدُهُ	وَمُهْجَتُهُ أيْدِي الحَوَادِثِ تَنْهَبُ
وأظْلَمَتِ الدُّنْيا علَيَّ بأسْرِهَا	بِحَيْثُ اسْتَوى في العَيْنِ صُبحٌ وغَيْهَبُ
وقَدْ كَانَ فَوْدِي أسْوَدَ اللَّونِ حالِكاً	فأمْسَى بأحْكَامِ النَّوَى وَهْوَ أشْهَبُ
عَسَى رَحْمَةُ الرَّحْمنِ تأتِي بِغَوْثِها	فأحْيَا بِمَا يَمْحُو الشَّقَاءَ وأُوْهَبُ

ثمَّ إنَّهُ أبْرَمَ عَلَيهِ في المُرافَقَةِ، فلَمْ يَسَعْهُ غَيْرُ المُوافَقَةِ، وعِندَما وصَلَ إلَى السِّيْفِ، وهوَ في حالَةِ الحَزِينِ الأسِيفِ، رأى سَفِينةً عَظِيمةً وهيَ مَشحُونَةٌ بنِعَمٍ جَسِيمَةٍ، وبِها عِدٌّ[3] عَدِيدٌ مِن المَمَالِيكِ والعَبِيدِ، وقَدْ رَفَعُوا للسَّفَرِ الشِّرَاعَ، وهُم عَلَى غايَةِ الإسْراعِ، فتَمَنَّى أنْ يكُونُوا لهُ قَبِيلاً، وأنْ يتَّخِذَ معَهُمْ إلَى الوَطَنِ سَبِيلاً، فَهُوَ في هذا الفِكْرِ الّذِي خَطَرَ، ودُمُوعُهُ تتساقَطُ كالمَطَرِ، إذ قال لهُ صاحِبُهُ: هلْ يَحْسُنُ ببالِكَ أنْ تكُونَ لِهؤلاءِ رَفِيقاً، وأنْ يُسَهِّلَ اللّهُ لكَ معَهُمْ طَرِيقاً؟ فقالَ: مَن لِي بِذاكَ - جُعِلْتُ فِدَاكَ -؟ فقالَ: إنَّ اللّه تعالَى قدْ أذِنَ وَسَهَّلَ، وما كانَ أحْزَنَه فقَدْ أسْهَلَ، فإنَّ هذهِ السَّفِينَةَ وما فِيهَا، مِن قَوَادِمِها إلَى خَوَافِيها جارِيَةٌ في مُلْكِكَ، مُنْتَظِمةٌ في سِلْكِكَ. وَنَاوَلَهُ دَفْتراً بِما حَوَتْهُ مِن أمْرِ التِّجارَةِ المُختَلِفَةِ الأنْوَاعِ والأجْنَاسِ، النافِقَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وكانَ قدْ سألَهُ عِنْدَ قُدُومِهِ إليهِ ووُفُودِهِ علَيهِ، عنْ أمْوالِهِ الّتي اسْتَولَى علَيْهَا الغَرَقُ فأوْرَثَهُ الحُرَقَ، فذَكَرَها لَهُ مُفصَّلَةً، فأضْعَفَها لهُ أضْعَافاً كثِيْرةً بِهذهِ

---

(١) من البحر الطويل.

(٢) هذا المطلع مضمن من بيت نسب لأكثر من شخص، ومنهم عمرو بن مسعدة الكاتب الرسائلي. انظر: معجم الشعراء ١١/١.

(٣) العِدّ: الكثرة في الشيء.

الصِّلَةِ، وحِيْنَ سَمِعَ مَقالَتَهُ ووَعَاها، وعَلِمَ ما أكْرَمَ بِهِ نَفْسَهُ ورَعَاها، رجَفَ جَنَانُهُ، وجَفَّ عنِ الشُّكْرِ لِسَانُهُ، وعَلِمَ أنَّهُ عاجِزٌ عنْ أدَاءِ شُكْرِ أدْنَاهَا، ولَوِ اجْتَهدَ واحْتَشدَ لَما قارَبَ مُجازاةَ أقلِّها ولا دَاناهَا، وقالَ: لا تُكَلِّفنِي شُكْرَ صَنِيعِكَ فإنِّي لا أسْتَطِيعُهُ، ولَو ذَهَبَ فيهِ عُمْرِي جَمِيعُهُ، غَيْرَ أنِّي أكِلُ شُكرَكَ إلَى مَنْ ألْهمَكَ فِعلَ الجَمِيلِ، وهُوَ الكَفِيلُ بذلِكَ والحَمِيلُ، وأوْدَعَهُ مغْبُوطاً مَحْبُوراً، وانقلَبَ إلَى أهْلِهِ مَسرُوراً، وكَتَبَ اللهُ لَهُ بالسَّلامَةِ، ولَمْ يرَ في طَرِيقِهِ مَلالَةً ولا مَلامَةً، ووَصَلَ إلَى البَلَدِ، واجْتَمعَ بالأهْلِ والوَلَدِ، وجعَلَ يَقُولُ[1]:

كَأنْ لَمْ يَكُنْ كَرْبٌ ولَمْ تَكُ غُربةٌ ... ولَمْ يَكُ فَقْدٌ قدْ عَراهُ ولا فَقْرُ
وعَادَ إلَى ما كانَ فِيهِ مِنَ الغِنَى ... وأوْفَرَ سَمْعَ الشامِتِينَ بِهِ الوَقْرُ
وَذَلُّوا بِعِزٍّ قَدْ أتَاهُ ودَولَةٍ ... فكَانُوا بُغاثاً وَهْوَ من فَوْقِهِمْ صَقْرُ
بِذَا قَضَتِ الأيَّامُ ما بَيْنَ أهْلِهَا[2] ... فَفَرْدٌ لَهُ نَسْلٌ وفَرْدٌ لَهُ عُقْرُ
ومَا عَظَّمَ الرَّحْمنُ جَلَّ جَلالُهُ ... فلَيسَ لِعَبدٍ فِيهِ هَضْمٌ ولا حَقْرُ

ثُمَّ إنَّهُ مَضَى لهُ عَدَدٌ مِنَ السِّنِيْنَ، وَهُوَ مِنَ الوادِعِينَ الآمِنِينَ، وكانَ مِنْ قَضائِهِ المَحْتُومِ وسِرِّ غَيْبِهِ المَكتُومِ، أنَّ صاحِبَ ذلِكَ الصَّنِيعِ كانَ مِن جَلالَتِهِ في حِصْنٍ مَنِيعٍ، وكانَ رَئِيسَ مِصْرِهِ، والمُشارَ إلَيهِ في عَصْرِهِ، فدَارَتِ الأفْلاكُ بِعَكْسِهِ، وجاءَ التَّقْدِيرُ بِخَفْضِهِ ونَكْسِهِ، فانْقلَبَتْ رُخاؤُهُ إعْصَاراً، وارْتَدَّ رَخاؤُهُ شِدَّةً وانْحِصاراً، ولَمْ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ أنْصَاراً، غَضِبَ علَيهِ مَلِكُ قُطْرِهِ، وضَنَّ علَيهِ غمَامُ العِنايَةِ بِسَحِّهِ وقَطْرِهِ، فَأُحِيطَ[3] بأمْوَالِهِ وذَخائِرِهِ، وأهْلِهِ وعَشَائِرِهِ، وسُلِبَتْ تلكَ النِّعَمُ الجَسِيمَةُ، وتَغيَّرَتْ تلكَ الهَيْئَاتُ الوَسِيمَةُ، ولِلدَّهرِ إقْبالٌ وإدْبَارٌ، ولِلنَّاسِ في ذلِكَ أمْثالٌ وأخْبارٌ، فلا يَدُومُ نَعِيمٌ ولا بُؤسٌ، ولا ضَحِكٌ ولا عُبُوسٌ، فخَرَجَ عن المدينَةِ خائفاً يَتَرقَّبُ، وَيظُنُّ أنَّ كُلَّ أحَدٍ لهُ بِمَرْقَبٍ، ولا زالَ يَتنقَّلُ مِن مَكانٍ إلَى مَكانٍ، وقَدْ خضَعَ لِلحَوادِثِ واسْتَكانَ، إلَى أنْ دَخلَ البَصْرَةَ، فَأيْقنَ أنَّ اللهَ تعالَى قَدْ وضَعَ عَنْهُ إصْرَهُ، اعتِماداً / [22/ب] مِنْهُ علَى ذلِكَ الصَّاحِبِ ومُكَافَأتِهِ، ومُجَازاتِهِ علَى حُسنِ صَنِيعِهِ ومُوَافاتِهِ، فَأخَذَ يَتَخلَّلُ

---

(1) من البحر الطويل.

(2) الشطر مضمّن من بيت المتنبي:

بِذا قضتِ الأيّامُ ما بيْنَ أهلِها ... مَصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

انظر: ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه وصنع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ٢٧٦/١.

(3) في الأصل: فاحتبط، أثبتّ ما رأيته أقرب إلى الصواب. ويمكن أن تُقرأ الكلمة "فاختُبِط" أي وقعت فيها الفتن ولحقت بها الغارات، وهو معنى بعيد.

الأسْوَاقَ وهوَ إلَى لِقائِهِ في غَايَةِ الأشْوَاقِ، فَأَوْقَعَ اللهُ بصَرَهُ علَيهِ وَهوَ جَالِسٌ في حَانُوتٍ رَحْبِ الفِنَاءِ، عَالِيْ البِناءِ، مَمْلُوءٍ مِنَ الأَمْتِعَةِ الثَّمِينَةِ الّتي هِيَ في الدُّنيَا فَخَارٌ وَزِينَةٌ، وفي خِدْمَتِهِ غِلْمانٌ ووِلْدانٌ، وحَوْلَهُ إخْوَانٌ وأَخْدَانٌ، فَتَرَاءَى لَهُ فلَمْ يُعِرْهُ طَرْفاً، وأَرَاهُ نُكْراً لا عُرْفاً، فقالَ: لَعَلَّهُ ما حَقَّقَ مَعْرِفَتِي، ولا أَثْبَتَ صِفَتِي. فتَراءَى لهُ مِن غَيْرِ ذلِكَ الجانِبِ، وهوَ يَحِيْدُ عَنْهُ وَيُجانِبُ، فقالَ: لَعَلَّ بُعْدَ العَهْدِ بِالائتِلافِ أَوْجَبَ هذا الصَّدَّ والإخْلافَ. فَوَقَفَ أَمَامَهُ راجِياً ذِمامَهُ، فتشَاغَلَ عَنْهُ بِغَيْرِهِ، وَآيَأَسَهُ مِن بِرِّهِ وخَيْرِهِ، فَوَلَّى عَنْهُ وَرَجَعَ بَعْدَ أنْ حَوقَلَ واستَرْجَعَ، نادِماً عَلَى وَضْعِ الجَمِيلِ في غَيْرِ مَحَلِّهِ، سادِماً[1] عَلَى إخْصابِهِ رَبْعَ سَعادَتِهِ بَعْدَ مَحْلِهِ، ثُمَّ يقُولُ في نَفْسِهِ: لَعلَّهُ اشْتَبَهَ عَلَيَّ، وخيَّلَهُ الفِكْرُ الفاسِدُ إلَيَّ. ثُمَّ يَرْجِعُ إلَى حِسِّهِ ويقُولُ: إنَّهُ هُوَ وَإعراضُهُ بعَكْسِ الطالِعِ إلَى خَوافِيْهِ. فَبَيْنَما هُوَ مُفَكِّرٌ فِيمَا وصَل إلَيْهِ الحَالُ، وَكَيْفَ تَغَيَّرَ حالُهُ واستَحالَ، وَدُمُوعُهُ تَساقَطُ تَساقُطَ المَطَرِ، وقَدْ أَيِسَ مِن إدراكِ ما أَمَّلَ مِن ذلِكَ الوَطَرِ، إذْ دخَلَ المَسْجِدَ امْرَأَةٌ ذاتُ هَيْئَةٍ وَسِيمَةٍ تَدُلُّ عَلَى أنَّ وَراءَهَا نِعَماً، فَبدأَتْهُ بالسَّلامِ، ثُمَّ قالتْ لهُ بلَطِيفِ الكَلامِ: هلْ تُحْسِنُ قِراءَةَ القُرآنِ؟ قالَ: نَعَمْ وأَفُوقُ فِيهَا الأَقْرانَ. فقالَتْ: قُمْ مَعِي إلَى البَيْتِ، ودَعْ قَوْلَ لوْ وَلَيْتَ، لِتَقْرَأَ لَنا ما تيسَّرَ عَسَى يَذْهَبُ عنَّا مِنَ الكَرْبِ ما تعسَّرَ، وأَنْتَ تَرْبَحُ الأُجْرَةَ والأَجْرَ، وتَفُوزُ بِنِعْمَ التَّجْرِ. وكانَ الرَّجُلُ قدْ جَوَّدَ القُرْآنَ الكَرِيْمَ، فَهوَ لا يَبْرَحُ عَن مُلازَمَةِ تِلاوَتِهِ ولا يَرِيْمُ، فقامَ مَعَهَا إلَى أنْ وَصَلَتْ إلَى دَارٍ عَالِيَةِ البِناءِ، واسِعَةِ الفِنَاءِ، تُؤْذِنُ شَوامِخُ مَبانِيْهَا بِعُلُوِّ قَدْرِ بَانِيها[2]، ثُمَّ إنَّها غَابَتْ عَنْهُ بِقَدْرِ ما استَأْذَنَتْ، ورَجَعَتْ إليَهِ وبِالدُّخُولِ أَذِنَتْ، فَحِينَ دخَلَ رأى داراً ذَاتَ فُرُشٍ وَثِيْرَةٍ ونِعَمٍ كَثِيرَةٍ، وخَدَمٍ وجَوَاري[3]، كالكُنَّسِ الجَوَاري، فَجَلَسَ عَلَى حَافَةِ الإيْوَانِ، وقرأَ الصَّحِيفَةَ مِنَ العُنْوانِ، واستَفْتَحَ، وقَرأَ ما سَنَحَ، وعَرَّفَهُمْ ما فَتَحَ اللهُ بِهِ علَيهِ وَمَنَحَ، فَترجَّبُوا[4] بِهِ وازْدَادُوا في إكْرَامِهِ، وأَفْرَطُوا في تَعْظِيمِهِ واحتِرامِهِ، وخَرَجُوا به إلَى دَارٍ لَطِيفَةٍ مِن جُمْلَةِ تلكَ الدَّارِ، وَهو لا يَشْعُرُ بِما تَأتِي بِهِ الأَقْدَارُ، وقَدَّمُوا لَهُ مِنَ المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ مَا تُقْضَى بِهِ وَبِمِثْلِهِ المَآرِبُ، ثُمَّ إنَّ المَرْأَةَ عادَتْ ومَعَها ثِيابٌ أَثِيْرَةٌ، وَدنَانِيْرُ كَثِيرَةٌ وقَالَتْ لَهُ: أَنْتَ غَرِيبٌ، وهذِهِ الدَّارُ تَكُونُ لكَ مَسْكَناً إلَى أن يُهيِّئَ اللهُ لكَ سَكَناً. فشكَرَ نِعْمتَها، وحَمِدَ رأفتَها وَرَحْمَتَهَا، وأخذَ يَعْجَبُ مِن لُطفِ اللهِ في الغُرْبَةِ، وكَيفَ فَرَّجَ

---

(١) سادماً: مهموماً حزيناً. اللسان (سدم).

(٢) في الأصل: مبانيها. أثبت ما رأيته صواباً.

(٣) هنا خطأ نحوي اضطره إليه السجع.

(٤) رجّبوه: عظموه وهابوه.

عنهُ ما كانَ فيهِ مِنَ الكُرْبَةِ، وسَخَّرَ لَهُ مَن جَبَرَ كَسْرَهُ وَفَكَّ مِن قَيدِ الفَلاكَةِ أَسْرَهُ، وَعَوَّضَهُ عَن ذلِكَ الصَّدِّ[1] بِما لَم يَكُنْ لهُ بِمَرْصَدٍ، ثُمَّ عادَتْ إِلَيْهِ في اليَومِ الثَّاني وقالَتْ لَهُ: إنَّ لِي بِنتاً ماتَ أَبُوها وأَكَابِرُ النَّاسِ قدْ خَطَبُوها، وقَدْ رَأَيْتُ إِيثارَكَ بِها قُرْبَةً أَتقَرَّبُ بِها إِلَى رَبِّ الأَرْبَابِ، وأَنْ تَكُونَ لِي في حُصولِ الرَّحْمَةِ مِن أَعْظَمِ الأَسْبابِ. فقالَ لَها: كيفَ تَرغَبِينَ في ضُلِّ بْنِ ضُلٍّ[2] وَمَنْ لَيسَ معهُ كُثْرٌ ولا قُلٌّ؟ فقالَتْ: لا علَيكَ، ولَيْسَ ذلِكَ إِلَيكَ، هذِهِ أَلْفُ دِينَارٍ ادْفَعْها إِلَيْنَا بِمَحْضَرٍ مِنَ الشُّهُودِ عَلَى الرَّسمِ المَعْهُودِ، وَيَعقِدُ لكَ عَلَيها العَقْدَ، وقَدْ بَرِئتَ مِن المُطالَبَةِ بالنَّقْدِ، ولا تُكَلَّفُ إنفاقاً، وَلا تَزْدَادُ عِندَنا إلاَّ رَغْبَةً وَنَفَاقًا، فَامْتَثَلَ ما بِهِ أُمِرَتْ، وَلاحَ لهُ أنَّ رِياضَ سَعْدِهِ قدْ أَزْهَرَتْ وَأَثمَرَتْ، ثُمَّ عَمِلُوا لهُ مِن مَفاخِرِ الثِّيَابِ ما مَلأَ العِيَابَ، واهتَمُّوا للعُرْسِ بعَمَلِ الوَلائِمِ، وأَتَوا فيهِ بِكُلِّ مُناسِبٍ وَمُلائِمٍ، إِلَى أنِ انْقَضَى أَمْرُ الزِّفَافِ، وحَصَلَ الإعفَافُ، ثُمَّ قالَتْ لهُ أُمُّ زَوْجَتِهِ أنَّ لابْنَتِها أَمْوالاً كثِيرةً، وبَضَائعَ أَثِيرَةً، وَهِيَ تُعرَضُ لِلبَيعِ فَلا تَدَعْ مِنْها شَيْئاً يَخرُجُ عَن مُلْكِكَ بَلِ انْتَظِمْهُ في سِلْكِكَ، وَلَنا الأَصْلُ المُبَاحُ، ولكَ المَكَاسِبُ والأَرْبَاحُ، والثَّمَنُ لا نَطْلُبُهُ إلاَّ بَعْدَ النَّفَاقِ، بِالتَّأَنِّي والارْتِفاقِ. فازْدَادَ تَعَجُّبُهُ مِن لَطِيفِ صُنْعِ اللهِ سُبْحانَهُ، وشَكَرَ / [٢٣/أ] لُطفَهُ إذْ ذَهَبَ عَنهُ بلاؤُهُ وامْتِحانُهُ، وغَدَا في اليَوْمِ المَوْعُودِ لإنجازِ تلكَ الوُعُودِ، وَإذا بِصَنَادِيقَ عَدِيدَةٍ، عَتِيقَةٍ وجَدِيدَةٍ، قدْ وُضِعَتْ في سُوْقِ المَدِينَةِ وهيَ مَملُوءةٌ بِالبَضَائِعِ الثَّمِينَةِ، فاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيهَا، وازْدَلَفُوا مِن كُلِّ فَجٍّ إِلَيْها فَفُتِحَتْ تِلكَ الأَغْلاقُ عَن نفَائسِ الأَعْلاقِ، وَتَزايَدَ التُّجَّارُ في أَثْمَانِها إِلَى انتِهاءِ الرَّغَبَاتِ وانْقِضاءِ الطَّلَبَاتِ، فاشتَرَاها هُوَ بِأَزْيَدَ مِن زِيادَاتِهِمْ، وأَبْطَلَ جَمِيعَ مُرَاداتِهِمْ، فانفَضُّوا مُتَعجِّبِين، وَبِما صَدَرَ مِنهُ مُعْجَبِينَ، وَعَيَّنُوا لهُ حَوَاصِلَ نُقِلَتْ تِلكَ الأَمْوالُ إِلَيهَا، ثُمَّ وَضَعُوا وَثِيقَ الأَقْفَالِ علَيْها، وسَلَّمُوهُ مَفاتِيحَ تِلكَ الأَقْفَالِ، فكانَتْ لَهُ كالغَنَائمِ والأَنفَالِ، وعَمِلَ دَفْتَراً لذلِكَ المَالِ، وحَسَبَهُ بالتَّفْصِيلِ والإجْمَالِ، فإذا هُوَ يَزِيدُ عَلَى ما ذَهَبَ لَهُ مِن أَمْوالِهِ المَنْهُوبَةِ، فَرَأى ذلِكَ نِعَماً مِنَ اللهِ مَوْهُوبَةً، ودَخَلَ إِلَى دارِهِ فَرِحاً مَحْبُوراً مَسْرُوراً مَجْبُوراً، وَعِنْدَما فَرَغَ مِنَ العَشَاءِ، وَصَلَّى فَرْضَ العِشاءِ، إِذَا هُوَ بِبَابٍ صَغِيرٍ فُتِحَ مِن جانِبِ الدَّارِ، ودَخَلَ مِنْهُ رَجُلٌ جَلِيلُ المِقْدارِ، فَقامَ إِلَيهِ حَرَمُهُ مُتَعَجِّلِينَ، وَهَرْوَلُوا نَحْوَهُ مُعظِّمِينَ وَمُبجِّلِينَ، فَحَقَّقَ النَّظرَ فيهِ، وَإذَا بِهِ ضَيْفُهُ الَّذِي أَظْهَرَ لَهُ تَجَافِيْهِ، فقَامَ إِلَيهِ مُقبِلاً، وعانَقَهُ مُقبِّلاً، فقَالَ لهُ: يا أَخِي إِنِّي لَمْ أُعرِضْ عَنْكَ حِينَ رَأَيْتُكَ لِجَفوَةٍ، فَلا تَعُدَّها عَلَيَّ هَفْوَةً،

(١) في الأصل: الضد. وهو محتمل، ولكن المثبت هو الأقرب إلى الصواب.

(٢) ضُلُّ بنُ ضُلٍّ: أي مُنْهَمِكٌ في الضَّلال، أو الذي لا يُعْرَف ولا يُعْرَف أبوه. اللسان (ضلل).

وَلكِنِّي ما أَحْبَبتُ أَنْ أَرَاكَ إلاَّ عَلَى حَالَتِكَ المَعْهُودَةِ، وَهَيْئَتِكَ الحَسَنَةِ المَشْهُودَةِ، فَأَرْسَلْتُ وَرَاْكَ مَن عرَفَ مَثْوَاكَ، والمَكانَ الَّذِي آوَاكَ، وَوجَّهْتُ إليكَ الوَالِدَةَ ففعَلَتْ مَا فَعَلَتْ، وقَدِ التَهَبَتْ نارُ أشْوَاقِي إلَيْكَ وَاشْتَعَلَتْ، وَصَبَّرتُ نَفْسِي عنْ لِقائكَ إلَى أَنْ عُدتَّ إلَى سُمُوّكَ وَارْتِقائِكَ، وَهذِهِ الدَّارُ بِمَا فِيهَا، مِن قَوادِمِها إلَى خَوَافِيْها، وَتِلكَ الأَمْوَالُ والأَعْلاقُ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيها الأَغْلاقُ مُلْكٌ لكَ دُوْنَ مُشارِكٍ، وَلا مُنازِعٍ ولا مُعَارِكٍ، وَلا أَقُولُ إنِّي وَفَّيْتُ بَعْضَ حُقُوقِكَ، وَلا خَرَجْتُ بِهذَا البِرِّ مِن عُقُوقِكَ، لأَنَّكَ ابْتَدأتَ بِالجَمِيلِ، وَكُنتَ الكَفِيلَ لِدَفْعِ ضُرِّي والحَمِيلَ، فأيُّ فِعلٍ لِفِعْلِكَ يُوَازِي؟ وأيُّ جَزَاءٍ لَهُ يُجَازِي؟ وَلكِنِّي أَكِلُ جَزَاءَكَ إلَى مَن يَعلَمُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى وَيَكْشِفُ الضُّرَّ والبَلْوَى. ثُمَّ سأَلَهُ عَنِ الحالِ، وكَيْفَ تَغَيَّرَ واسْتَحالَ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنْبائهِ وَمَا حَلَّ بهِ مِن حَوْبائِهِ، فَتَوَجَّعَ وتألَّمَ، وإلَى اللهِ سلَّمَ، ثُمَّ أَقَامَا راتِعَينِ في تِلْكَ النِّعَمِ الجَسِيْمَةِ والخَيْرَاتِ الوَسِيْمَةِ، إلَى أنْ أَتَاهُما هاذِمُ اللَّذَاتِ[1] والمُفَرِّقُ بَيْنَ الرُّوْحِ والذَّاتِ، فَلَمْ يُسْمَعْ بأعجبَ مِن خَبَرِهِما، وَلا أَغْرَبَ مِن سَمَرِهِما، وَلَعَمْرِي إنَّهُما لأَحَقُّ بِقَوْلِ مَن أنْشَدَ، وهَدَى إلَى فِعلِ المَعْرُوفِ وأَرْشَدَ[2]:

قُلْ لِبَنِيْ الدُّنْيا: أَلاَ هكَذَا فَلْيَفْعَلِ النَّاسُ مَعَ النَّاسِ[3]

وَلْيَكُنْ هذا آخِرَ المقَامَاتِ العَشْرِ، لا بَرِحَتْ بِثَنَاءِ مَن أُنْشِئَتْ بِاسْمِهِ الشَّرِيفِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ، وَصُبْحُ سَعْدِها بِسَعْدِهِ دَائِمُ الحَشْرِ، وقَدْ قَدَّمَها الفَقِيرُ إلَى حَضْرَتِهِ الكَرِيْمَةِ راجِياً لَهَا حُسْنَ القَبُولِ، وأَنْ تُعَدَّ لَدَى سُدَّتِهِ العَظِيْمَةِ مِن جِنسِ الكَلامِ المَقبُولِ، إذْ هُوَ جِهْبِذُ الأَقْوالِ ونَقَّادُهَا، وَإلَيْهِ يَرْجِعُ أَبِيُّهَا وَمُنْقَادُها، وَكَيْفَ لا يَكُونُ كذلِكَ مَنِ اخْتَارَهُ لِخِلافَةِ رَسُولِهِ علَيهِ أفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَنَصَّبَهُ لِتَبْلِيغِ أَوَامِرِهِ ونَوَاهِيهِ كالعَلَمِ الشَّاهِقِ بَينَ الأَعْلامِ، وَأَرْغَمَ بِسِيادَتِهِ

---

(١) هاذِم (بالذال): قاطع، وهاذم اللذات: الموت.

(٢) من البحر السريع، وقصة البيت أنّ ابن حيوس قد أثرى وحصلت له نعمة ضخمة من بني مرداس، فبنى داراً بمدينة حلب وكتب عَلَى بابها من شعره:

دارٌ بنيناهـــا وعــــشنا بهـــــا	فـــي نعمـــة مـــن آل مـــرداسِ
قـــوم نفـــوا بؤســـي ولـــم يتركـــوا	علـــيَّ للأيـــام مـــن بـــاسِ
قـــل لبنـــي الـــدنيا ألا هكـــذا	فليفعـــل النـــاس مـــع النـــاسِ

وقيل إن الأبيات لابن أبي حصينة الحلبي وهو الصحيح. معاهد التنصيص ٢/ ٢٨٠.

(٣) مقامة رائعة في الوفاء، تحمل خصائص تربوية وقيماً فاضلة تعزز مكارم الأخلاق وهي من أعجب ما مر علي من صور الوفاء.

أُنوفاً صارَتْ فِي رَغَامِ الحَسَدِ مُرْغَمَةً، وَمَلأَ مَن عَمَّهُمْ بِمَعَاليه[1] قُلُوباً كانَت... [2] مِنَ النُّهى مُفْرَغَةً، وَفَوَّقُوا إِلَيهِ سِهامَ بَغْيٍ جَعَلَ اللهُ تعالَى دُونَها حِصْنَ تَأْيِيدِهِ وَسُورَهُ، يُرِيدُونَ لِيُطفِئوا نُورَ اللهِ بأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُوْرَهُ[3]. لاَ بَرِحَتْ سَعَادَتُهُ دَوْرِيَّةً، وَسِيادَتُهُ أَبَدِيَّةً دهرِيَّةً، ولَهُ مِن لُطفِ اللهِ – سُبحَانَهُ – وعِنَايَتِهِ الأَعْوانُ والأَنْصَارُ، مَا تَعاقَبَتِ الدُّهُورُ والأَعْصَارُ، بِكَرَمِهِ وَمَنِّهِ، وَلُطْفِهِ وَيُمْنِهِ:

آمِيْنَ آمِيْنَ، لا أَرْضَى بِواحِدَةٍ   حتَّى أُضِيفَ إِلَيها أَلْفَ آمِيْنَا[4]

والحمدُ للهِ وَحْدَهُ، وصَلَّى اللهُ عَلَى مَن لا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

* * *

---

(١)في الأصل: بما عاليه. والمثبت هو الصواب.

(٢) في الأصل: روسها. ولا معنى للرؤوس هنا عند عود الضمير إلى القلوب.

(٣) اقتباس من قوله تعالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. سورة التوبة، الآية ٣٢.

(٤) ورد هذا البيت أكثر من مرة في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقَّري، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ بدون نسبته إلَى قائل. انظر: ١/١٧٥، ٢/٤٥٩، ٦/٤٠٥.

فهرس المصادر والمراجع:

١- **أبو العتاهية أشعاره وأخباره**، تحقيق د. شكري فيصل، د.ط، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م، ص ٤٤٨.

٢- **الأعلام**، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

٣- **الأنساب**، للسمعاني، تحقيق عبد الله البارودي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤- **البخلاء**، للجاحظ، ضبطه وشرحه وصححه أحمد العوامري وعلي الجارم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ.

٥- **بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية**، للدكتور مصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٦- **تاريخ سلاطين آل عثمان**، ليوسف آصاف، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي. دار البصائر، دمشق، ط٣ / ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٧- **التصور الأدبي عند عبدالرحيم العباسي من خلال كتابه معاهد التنصيص**، للدكتور محمد بركات حمدي، دار الفكر، عمان ١٩٨٤م.

٨- **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر.

٩- **خزانة الأدب وغاية الأرب**، لأبي بكر علي بن محمد بن حجة الحموي، دار مكتبة الهلال للنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م.

١٠- **ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري**، ضبطه وصححه وصنع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

١١- **ديوان رؤبة بن العجاج (ضمن مجموع أشعار العرب)**، تحقيق وليم بن الورد، منشورات دار الآفاق الحديثة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١٢- **الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم**، مشروع قراءة شعرية، للدكتور / صالح بن رمضان، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٧م.

١٣- **ريحانة الألبا**، للشهاب الخفاجي، تحقيق عبدالفتاح الحلو، طبعة عيسى الحلبي، الطبعة

الأولى ١٩٧٦م.

١٤- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ.

١٥- **شروح سقط الزند** ، لأبي العلاء المعري ، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين ، بإشراف طه حسين ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م.

١٦- **شعر عبدالرحيم العباسي**، دراسة وتحقيق الدكتور/ عبدالرازق حويزي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ: ٩–٢٨.

١٧- **الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية**، لطاشكبري زادة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٨- **الشواهد في العربية**، لمحمد اليعلاوي، منشورات كلية الآداب، منّوبة، تونس، ١٩٩٠م.

١٩- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، شمس الدين السخاوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

٢٠- **العاشق العفيف**، للدكتور/ مسعد العطوي، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٢١- **فن المقامات في الأدب العربي**، للدكتور عبدالملك مرتاض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٨م: ٤٧٣–٤٧٩.

٢٢- **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي، تحقيق محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ.

٢٣- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، لحاجي خليفة، طبعة دار الفكر، ١٩٤٨م.

٢٤- **الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة**، لنجم الدين الغزي، تحقيق: جبرائيل جبور، مطبعة المرسلين، لبنان، ١٩٤٩م

٢٥- **لسان العرب**، لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف، مصر، د.ت.

٢٦- **مجمع الأمثال**، للميداني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٧- **مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي**. لأحمد قبش، دار الرشيد، دمشق، ط٣، ١٩٨٥م

٢٨- **مصارع العشاق**، لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي، عناية كرم البستاني، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

٢٩- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، لعبدالرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار عالم الكتب، بيروت – لبنان، ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م.مصورة عن طبعة مصر.

٣٠- **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، لمحمد أحمد دهمان. دار الفكر، دمشق، ط١/ ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

٣١- **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.

٣٢- **معجم الشعراء**، محمد بن عمران المرزباني، تحقيق فريتس كرنكو، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ.

٣٣- **معجم المؤلفين**، تراجم مصنفي الكتب العربية ، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.

٣٤- **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، ليوسف سركيس، مطبعة سركيس، مصر، ١٩٢٨م.

٣٥- **المعجم الوسيط**، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية – الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، ط٢، تركيا – إستانبول، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٦- **المقامات المشرقية (٥٥٠ – ١٢٠٠هـ)**، للدكتور/ خالد الجديع، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٣٧- **المنامات الأيوبية: روافد التلقي – الرؤية الفكرية – البنية السردية**، للدكتور خالد الجديع، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مجلة الحكمة – جامعة مؤتة، الأردن، المجلد ٣، العدد ٣، جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ تموز ٢٠٠٧م.

٣٨- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، لأحمد بن محمد المقّري. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ.

٣٩- **هدية العارفين** أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل البغدادي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، مصورة من طبعة وكالة المعارف الحلبية، باسطنبول، تركيا، ١٩٥١م.

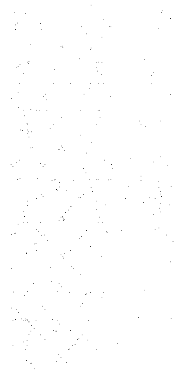
٤٠- **الوافي بالوفيات**، لصلاح الدين الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

- **رسائل جامعية، غير منشورة:**

١- **الإسعاف في شرح شواهد القاضي والكشاف لخضر بن عطاء الله الموصلي**، تحقيقاً وموازنة مع كتاب معاهد التنصيص، لعبدالرحيم العباسي، إعداد الدكتور عبدالرحمن الداغري، رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم الأدب بكلية اللغة العربية بالرياض، عام ١٤٢٤هـ/ ١٤٢٥هـ (غير منشور).

٢- **منح رب البرية في فتح رودس الأبية**، لعبدالرحيم العباسي، تحقيق الدكتور فيصل الكندري حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ١٤١٧-١٤١٨هـ/ ١٩٩٧-١٩٩٨م.

* * *



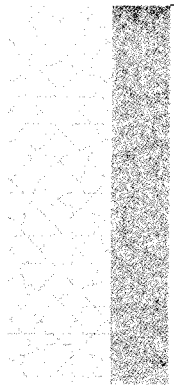
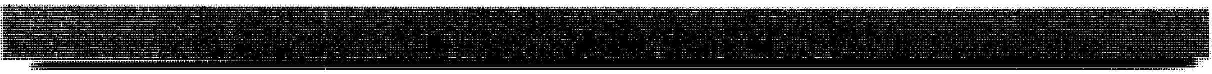

صورة المعوق في الشعر السعودي

دراسة في المضمون والشكل

د. عبدالله بن عبدالرحمن الحيدري

قسم الأدب ـ كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

صورة المعوق في الشعر السعودي
دراسة في المضمون والشكل

د. عبدالله بن عبدالرحمن الحيدري
قسم الأدب
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يتناول البحث صورة المعوق في الشعر السعودي في المضمون والشكل، ممهداً لذلك بوقفة لغوية عن كلمة (إعاقة) ومشتقاتها ودلالاتها المعاصرة وأثر وسائل الإعلام في إشاعتها، ثم حديث عن العلاقة بين الإعاقة والنبوغ بالاستناد إلى أقوال بعض علماء النفس، فإطلالة خاطفة حول الإعاقة في الأدب العربي بالإشارة إلى بعض الدراسات التي عُنيت بدراسة أدب المعوقين القدامى والمحدثين. ويتوقف البحث عند قلة إنتاج الشعراء في هذه القضية، وبخاصة لدى الشعراء الكبار من الرواد، في مقابل اهتمام الشعراء المعاصرين بهذه القضية، ويحاول أن يتلمس الأسباب للغياب والحضور معاً، مرجعاً الغياب إلى انشغال الرواد بقضايا اجتماعية ملحة مع انعدام الحديث عن هذه الفئات وإهمالها، ومفسّراً عناية الشعراء المعاصرين بهم إثر الوعي الجماعي لأثر هذه الفئات وأهميتها ودفعها للعطاء والإنتاج أسوة بالمعوقين السابقين من المشاهير في التراث العربي.
ويتكون البحث من مبحثين، وهما: المضمون، وفيه فقرتان، وهما: حديث المعوقين عن الإعاقة، وحديث الأسوياء عن المعوقين، والشكل، وفيه عُني البحث بتحليل جماليات النصوص وتلمس الظواهر اللغوية والأسلوبية لدى الشعراء المدروسين، وعددهم أحد عشر شاعراً وشاعرة.

مدخل :

الإعاقة ، والمعوَّق ، والمعُوق ، والمعاق ، والجمع : معوَّقون ومَعُوقون (بالتخفيف) ، ومُعاقون[1] كلمات جديدة أسهمت وسائل الإعلام المتعددة في انتشارها وتداولها .

وفي الآونة الأخيرة وجدنا بعض الوسائل الإعلامية وبعض الكتب تتجنب الكلمات المرتبطة بالإعاقة ، وتستخدم بدلاً عنها مصطلح " ذوي الاحتياجات الخاصة " [2] ، وهو مصطلح مركب يصعب استخدامه بشكل مستمر ، واللغة العربية لغة إيجاز ، وأرى أن كلمة " معوقين " أفضل وأيسر استخداماً [3].

وفي استقراء لعبدالرزاق حسين بحثاً عن الدلالات اللغوية المرتبطة بمادة (عَوْق) وتفاصيلها وجد أن المعاني في هذه المواد تكاد تتفق في مجملها على أنها " ذهاب الشيء ، أو صرفه ، أو قطعه ومنعه ، أو فساده وإبعاده ، أو ستره وإخفاؤه " ، بمعنى أنها لا تخرج عن معنى القطع والمنع [4].

وإذا كان الإسلام قد رخّص للأعمى والأعرج في مسألة الجهاد فقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ ﴾[5] ، فإنه في المقابل ساوى بين الأسوياء وغير الأسوياء في العبادات والطاعات ، ولم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم رخصة للكفيف أن يصلي في بيته ، " وهذا من مقاصد الشريعة اللطيفة حتى لا يحس من به نقص بهذا النقص ، وإنما يعامل على أنه عضو كامل العضوية " [6].

والإعاقة قضية المجتمع بأسره ، ووجود رأي عام واع بالتعامل مع المعوّقين " والإعاقة

---

(١) الصواب استخدام " معوّق " . لا " معاق " ؛ لأن الفعل ثلاثي (عاق)، وإلى ذلك أشار محمد العدناني في كتابه " معجم الأخطاء الشائعة " . الطبعة الثانية ، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٣م ، ص ١٨٠ . والمصدر الصحيح للفعل (عاق) هو(عَوْق) ، ينظر: (لسان العرب ، لابن منظور، الطبعة الثانية ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، مادة عوق) . وقد استخدمت المصدر (إعاقة) ؛ لشيوعه .

(٢) انظر . على سبيل المثال .: جريدة الرياض ، ع ١٤٢٥٥ ، (٢٠ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ)، ص٢ ؛ ومجلة الحرس الوطني ، ع٣١٠ (صفر ١٤٢٩هـ)، ص ٨٧ .

(٣) انظر : جمعية وطن ، الرياض : جمعية الأطفال المعوقين ، ١٤٢٩هـ ، ص٦١، إضافة إلى أن الأنظمة الخاصة بهذه الفئة صدرت باسم " النظام الوطني لرعاية المعوقين " .

(٤) انظر : الإعاقة في الأدب العربي ، عبدالرزاق حسين ، الطبعة الأولى ، الشارقة : مدينة الشارقة للخدمات الإنسانية ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، ص ٣٤.

(٥) سورة النور ، من الآية ٦١ .

(٦) الإعاقة في الأدب العربي ، ص١٤.

وقاية وعلاجاً هو أولوية يجب أن نسهم فيها جميعاً "[1].

ومعلوم أن الإسلام اهتم بفئات المعوّقين وقدّم لهم كل الاهتمام والرعاية ؛ لأنها فئات غير قادرة على مواجهة مصاعب الحياة كما يواجهها سائر أفراد المجتمع[2].

وفئات المعوّقين فئات مستضعفة لا تستطيع أن تواجه معترك الحياة وحدها وبقدراتها الذاتية إن لم يكن معين لهم[3].

والمعوَّق كان دائماً جزءاً من البناء الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الذي يعيش فيه ، ويمكن أن يكون عنصراً ذا تأثير إيجابي في هذا البناء إذا توافرت " البيئة الصالحة لتنمية شخصية سويّة له ، وإذا تعاون الجميع لمنحه فرصة لاكتشاف قدراته واستثمارها "[4].

وللمعوَّق حقوق مكفولة لا تمس ولا تنتقص ، ومن ذلك حقه في الحياة والتعليم وإشباع حاجاته ورغباته وتنمية شخصيته، ثم حقه في العمل وفي تولي الوظائف العامة[5].

ويقرر بعض الخبراء في مجال وسائل الإعلام والإعاقة في موسكو عام ٢٠٠٢م أهمية الإفادة من وسائل الإعلام في تقديم الإعاقة على أنها تنوع طبيعي ومقبول في المجتمع ، وضرورة العمل على زيادة تمثيل الإعاقة وتحسين "الرسائل التي تنقل وتعكس القبول المتنامي للإعاقة "[6].

وتشير بعض الدراسات إلى وجود صورة ذهنية سلبية عن المعوّقين في بعض الوسائل الإعلامية تتركز في تصويرهم على أنهم مرضى وعاجزون، ومن المؤسف وجود من يدعم النظرة السلبية لهم ويستمر في جعل المعوّقين يشعرون أنهم غير قادرين على التعبير عن أنفسهم[7].

---

(١) من تقديم الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز رئيس مجلس إدارة جمعية الأطفال المعوّقين لكتاب " الإعاقة في التراث العربي الإسلامي "، ص هـ .

(٢) انظر : الإعاقة في التراث العربي الإسلامي، مختار عجوبة وعبدالعزيز الغريب وإبراهيم الخرفي ، الرياض: جمعية الأطفال المعاقين، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، ص١١٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ز.

(٤) من تقديم الأمير سلطان بن سلمان لكتاب " الإعاقة في التراث العربي الإسلامي "، ص هـ .

(٥) انظر: الإعاقة في الأدب العربي، ص١٥.

(٦) الاحتياجات الإعلامية للمعاقين ومدى إشباع وسائل الإعلام لها : دراسة ميدانية على عينة من المعاقين في المملكة العربية السعودية، حمود بن أحمد الخميس وعبدالحافظ بن عواجي صلوي، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم الإنسانية والاجتماعية)، ع ٥، (شوال ١٤٢٨هـ)، ص ٢٤٨ .

(٧) انظر: الاحتياجات الإعلامية للمعاقين ومدى إشباع وسائل الإعلام لها (مرجع سابق)، ص ٢٥٠، ٢٥١ .

العلاقة بين الإبداع والإعاقة :

ربط عدد من الباحثين بين الإبداع والإعاقة الجسدية والنفسية من خلال نظريات عديدة ، فهذا لامبروزو (Lombroso) يصل في نتائج دراسته عن الرجل العبقري إلى أن النبوغ والعبقرية مرتبطان بالحالات المرضية ، وإدلر (Adler) يرى أن التفوق ناتج عن الشعور بالنقص ، فالإنسان المصاب بمرض نفسي أو جسدي يحس بهذا النقص ، ومن هنا تبدأ محاولاته سد الثغرات ، لذلك وجد في التعويض الجواب الشافي ، ثم جاء يونج (Young) ففسّر ذلك بما يقارب الإلهام وجعله استجابة غير شعورية عن طريق حس الشعور الجمعي [1].

ومن هنا فإن تفجّر الطاقات من خلال العزم والتصميم والتحدي لدى المعوّقين أقوى أسباباً ودوافع إذا توافرت " لهم الظروف التي ترعى نبوغهم وتحتضنه وتطوره " [2].

الإعاقة في الأدب العربي :

يعد الهيثم بن عدي (ت٢٠٧هـ) أول من ألّف في ذوي العاهات في القرن الثاني الهجري ، وجاء بعده الجاحظ (ت٢٥٥هـ) بأكثر من كتاب ، وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) ، ثم جاء أبو حيّان التوحيدي (ت٤٠٠هـ) فاهتم بمُلَح المعوّقين وطرائفهم [3].

وعُني عدد من العلماء الأجلاء في التراث العربي الإسلامي بدراسة الإعاقة وسبل علاجها ، وكان محور اهتمام الأوائل منهم بالعاهات الجسدية والحسية ، واهتم آخرون بأدبيّات ذوي العاهات ، سواء أكانت صادرة منهم ، أم موجهة إليهم على سبيل التسلية والإمتاع [4].

والمطلع على التراث يستجلي بوضوح مواقفَ رائدة لعلماء أفذاذ ، في مقدمتهم : الجاحظ ، والصفدي (ت٧٦٤هـ) " استطاعوا أن يجعلوا من الإعاقة وساماً على صدور أصحابها فهي دليل النبوغ والتميّز والتفرد ، وليس عيباً يُوصم به الفرد ، أو عاراً يفضحه!" [5].

وفي الأدب العربي الحديث ظهرت دراسات تعنى بأدب المعوّقين القدامى ، ومن ذلك :

---

(١) انظر: الإعاقة في الأدب العربي ، ص ٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٣ .

(٣) انظر: الإعاقة في التراث العربي الإسلامي ، ص ١٩-٢٢ .

(٤) انظر: الإعاقة في التراث العربي الإسلامي ، ص ٢٨ .

(٥) الإعاقة في الأدب العربي ، ص ١٦.

شعر المكفوفين في العصر العباسي لعدنان العلي، والخيال والتصوير في شعر المكفوفين من الجاهلية إلى نهاية العصر العباسي لمحمد بن أحمد الدوغان، والصورة البصرية في شعر العميان لعبدالله بن أحمد الفيفي.

ولم تقتصر الدراسات على التراث، إذْ أنجز بعض الباحثين أطروحات جامعية عن أدب المعوّقين المعاصرين، ومن ذلك: شعر ذوي العاهات في الأدب المصري الحديث، وهي رسالة ماجستير قدّمها الباحث علي عبدالوهاب مطاوع إلى جامعة الأزهر عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

الإعاقة في الأدب السعودي:

ليس ثمة دراسات عُنيت بأدب المعوّقين في المملكة العربية السعودية، أو بصورة المعوّق في الأدب السعودي. وقد استفسرت من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية فكتبوا إليّ: "نفيدكم أنه بالبحث في قاعدة معلومات الرسائل الجامعية المتاحة لدى المركز تبين عدم توافر معلومات عنه"[١].

وفي ظني أن أدب المعوّقين في المملكة يمكن أن تنهض به رسالة جامعية على مستوى الماجستير، ومن الأسماء التي تدخل في الدراسة: محمد عبدالقادر فقيه (ت١٤٣٠هـ)، ومحمد بن سعد بن حسين، وعبدالعزيز مشري (ت١٤٢١هـ)، وعبدالرحمن الملاّ، وعبدالرحمن الرفاعي، وعالية الشامان، وفاطمة العسيري، وغيرهم.

والموضوع الذي يتصدى له هذا البحث "صورة المعوّق في الشعر السعودي" جديد لم يُبحث من قبل، وتأكدت من ذلك بمطالعة كتاب عنوانه "الشعر الاجتماعي في المملكة العربية السعودية منذ نشأتها حتى عام ١٣٩٥هـ: دراسة تحليلية فنية" لمفرّح إدريس أحمد[٢] إذْ تناول المؤلف قضايا اجتماعية عديدة، ليس من بينها هموم المعوّقين، من نحو: النهوض بالمجتمع، وقضايا المرأة، والتكافل الاجتماعي، والآفات الاجتماعية، وسوى ذلك. وتُعدُّ الآن رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية بالرياض عنوانها "الاتجاه الاجتماعي في الشعر السعودي من عام ١٣٩٥إلى عام ١٤٢٥هـ" للباحث وليد بن عبدالله الزير، وليس في مخطط الرسالة شيء عن المعوّقين.

وفي كتاب مسعد بن عيد العطوي "المجتمع في الشعر السعودي" الصادر في عام

---

(١) الرسالة برقم ٢٦١٥٥. وتاريخ ٢٣رمضان ١٤٢٩هـ.

(٢) الكتاب في أصله أطروحة ماجستير. الطبعة الأولى، المدينة المنورة: النادي الأدبي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

١٤١٦هـ إشارة عجلى لقصيدة "كفيف" لعبدالله القرعاوي (ت١٤٢٧هـ)[١].

ولعلي ألتمس لهؤلاء الباحثين العذر؛ لكون الإنتاج في هذا الموضوع قليلاً، ويكاد يكون معدوماً لدى الشعراء الرواد الأوائل، ولم يعالج هذه القضية الاجتماعية إلا الشعراء المعاصرون، ومعظمهم من الشباب.

ومن اللافت للانتباه أن دواوين الشعراء السعوديين المطبوعة تزيد على خمسمئة ديوان تقريباً، ويخلو معظمها من قصائد عن المعوّقين، بل الأغرب أن تخلو دواوين غازي القصيبي من ذلك، وهو من أوائل من تحدث عن قضية الإعاقة في المملكة، وتبنّى إقامة جمعية الأطفال المعوّقين، ورأس مجلس إدارتها مرتين[٢].

وعلى أي حال يمكن حصر الشعراء الذين تناولوا هذه الظاهرة بأحد عشر شاعراً وشاعرة، وهم: محمد عبدالقادر فقيه (١٣٣٨-١٤٣٠هـ)، وعبدالله بن حمد القرعاوي (١٣٤٨-١٤٢٧هـ)، ومحمد بن سعد بن حسين (١٣٥٢هـ-....)، وحمزة بن أحمد الشريف (١٣٦٩هـ-....)، ومنصور محمد دمّاس (١٣٧٣هـ-....)، وعبدالرحمن بن عبدالله الواصل (١٣٧٣هـ-....)، وعبدالله بن سليم الرشيد (١٣٨٥هـ-....)، وسعد ابن سعيد الرفاعي (١٣٨٦هـ-....)، وأيمن عبدالحق (١٣٩١هـ-....)، ومحمد بن عبدالرحمن المقرن (١٣٩٨هـ-....)، وفاطمة العسيري (....-....).

ويلاحظ الغياب الكامل لكبار الشعراء من أمثال: حمزة شحاته (ت١٣٩٠هـ)، ومحمد حسن عوّاد (ت١٤٠٠هـ)، وأحمد الغزّاوي (ت١٤٠١هـ)، وطاهر زمخشري (ت١٤٠٧هـ)، ومحمد بن علي السنوسي (ت١٤٠٧هـ)، وحسين سرحان (ت١٤١٣هـ)، وحسن القرشي (ت١٤٢٥هـ)، وعبدالله بن خميس (١٣٣٩هـ-....)، وعبدالله بن إدريس (١٣٤٩هـ-....) وغيرهم. بل المستغرب حقاً ألا يتناول هذه القضية الشعراء الذين عُرفوا بالاتجاه الاجتماعي في شعرهم من أمثال: سعد البواردي (١٣٤٩هـ-....)، وأحمد سالم باعُطُب (١٣٥٥هـ-....)، وغيرهما.

ولذلك أسباب فيما يظهر لي، منها:

أن اهتمام الشعراء انصرف إلى ظواهر اجتماعية ملحّة مثل: الفقر، واليتم، والطلاق، والظلم، ونقد العادات والتقاليد، وهي ظواهر كانت أيضاً مما استأثر باهتمام كتّاب المقالة الاجتماعية[٣]، ولم تكن الظواهر الجديدة مثل: الإعاقة، أو البطالة مدار اهتمامهم.

---

(١) انظر ص ٢٦٨.

(٢) انظر: جمعية وطن، ص١٥.

(٣) انظر: المقالة في الأدب السعودي الحديث، محمد بن عبدالله العوين، الطبعة الأولى، الرياض: المؤلف، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م (الفصل الخامس).

وأن فئة المعوّقين في المراحل المبكرة من تأسيس المملكة مغيّبة إعلامياً ، ولم تطرح قضاياهم في الصحف والمجلات كما طرحت القضايا التقليدية ، ولم يصبح من ثمّ الاهتمام بهم رأياً عاماً يتبناه الأدباء والمفكرون ، إضافة إلى تأخر إنشاء المؤسسات التي تُعنى بتأهيلهم والعناية بهم إلى أواخر القرن الرابع عشر الهجري .

ومن الأسباب: النظرة الخاصة لفئات المعوّقين لدى شرائح عديدة في المجتمع ، ونقص الوعي عند أسرهم، وندرة المجالات التي يمكن أن ينخرطوا فيها ويسهموا بالعمل فيها ، نظراً لأن غالبيتهم لم يتعلموا ، ولا نستثني من ذلك إلا المعوّقين بصرياً الذين كانت هذه العاهة منقذة لكثير منهم من الجهل حيث أُضطر أهاليهم . نتيجة استحالة الإفادة منهم في الرعي أو الفلاحة ، أو أي حرفة أخرى . إلى توجيههم نحو دور العلم في أماكن متفرقة من المملكة ، وكان أن برز منهم كثيرون ، والأمثلة أكثر من أن تعد .

إضافة إلى الجهل الذي كان يعاني منه غالبية المعوّقين حركياً، وهو الذي أدى إلى أن يصبحوا عبئاً ثقيلاً على أسرهم ، وأدى إلى تعطيل طاقاتهم التي كان من المتوقع أن تؤتي أكلها لو تعلموا وتحولوا إلى منتجين في المجتمع وفاعلين ، ثمّ . وهذا هو المهم . مطالبين بحقوقهم مثبتين للمجتمع أنهم ليسوا عالة ، بل هم جزء فاعل فيه .

ومن هنا فإنني أُرجع الاهتمام المتأخر من الأدباء بفئة المعوّقين وطرح همومهم ومعاناتهم إلى أسباب أيضاً ، منها :

إيمان المجتمع نتيجة ارتفاع نسبة المتعلمين والمتعلمات بدور هذه الفئات وقدرتها على العطاء وحقها في الاندماج في المجتمع والحياة الكريمة . وشاهد ذلك صدور أمر سامٍ بتغيير كلمة (عاجز) التي كانت تطلق على المعوّق في نظام العمل القديم إلى (معوّق) [1].

وقيام وسائل الإعلام كافة بواجبها في تنوير المجتمع بحقوق هذه الفئات ومؤازرتها ودفعها إلى الإنتاج والتأثير . وقد كشفت دراسة عنوانها " قضايا الإعاقة في الصحافة السعودية " أعدّها عبدالعزيز بن علي المقوشي عن اهتمام الصحافة السعودية بالمعوّقين وتخصيص مساحات مناسبة لطرح قضايا الإعاقة والمعوّقين ، ولاحظ أن الاهتمام يتجه إلى الأخبار أكثر من المقالات [2].

---

(١) انظر : جمعية وطن ، ص ٢٤٩.

(٢) انظر : الاحتياجات الإعلامية للمعاقين ومدى إشباع وسائل الإعلام لها (مرجع سابق)، ص ٢٥٥ .

وامتلاك المعوّقين أنفسهم للجرأة والثقة بالنفس ؛ نتيجة تعليمهم وتأهيلهم وحصول بعضهم على أعلى الدرجات العلمية ، وحديثهم في وسائل الإعلام وفي المؤتمرات والملتقيات عن حقوقهم وأحلامهم وتطلعاتهم ، ومن ثمّ تبنّى أصواتهم ووجهات نظرهم عدد من الكتّاب والشعراء .

إضافة إلى الترخيص الرسمي لعدد من الجمعيات التي تُعنى بقضايا الإعاقة والمعوّقين مثل: الاتحاد السعودي لرياضة المعوّقين ، والجمعية الخيرية لرعاية المعوّقين بالمنطقة الشرقية ، وجمعية الرس الخيرية لرعاية المعوقين [1]، وجمعية الأطفال المعوّقين بالرياض التي تستحق وقفة خاصة عند منجزاتها لتأثيرها الكبير في بث الوعي في المجتمع وتبني قضايا المعوّقين ، ومن ثم التأثير في الأدباء للتعاطف مع هذه الفئات .

وقصة إنشاء هذه الجمعية بدأت في عام ١٣٩٨هـ عندما طرح غازي القصيبي حينما كان وزيراً للصناعة والكهرباء ومعه آخرون ممن شعروا بأهمية إسهام المجتمع في التفاعل مع قضية الإعاقة فكرة إنشاء دار لرعاية المعوّقين ، وبعد مداولات تبلورت الفكرة وتحددت الأهداف الرئيسة ، وصدرت الموافقة الرسمية على إنشاء الدار في عام ١٤٠٢هـ . وفي العام الذي يليه شُكل مجلس الإدارة الأول برئاسة غازي القصيبي ، وبدأت الدار تمارس أعمالها تدريجياً ، وبخاصة بعد الافتتاح الرسمي عام ١٤٠٧هـ ، وأصبحت كياناً بارزاً في المجتمع مع فروع في معظم مناطق المملكة [2].

ومن المنجزات المهمة للجمعية ، تأسيس مركز بحثي يحمل اسم " مركز الأمير سلمان لأبحاث الإعاقة " عام ١٤١٢هـ الذي استمر تابعاً للجمعية حتى عام ١٤٢٣هـ [3].

وقد تبنى مجلس إدارة الجمعية عقد مؤتمر عن الإعاقة بالتعاون مع عدد من الجهات الحكومية ، منها : وزارة الشؤون الاجتماعية التي نظمت يوماً للمعوقين ، ووزارة الشؤون الإسلامية التي حثت الخطباء على الحديث عن الإعاقة وكيفية التعامل مع المعوقين ، ووزارة المعارف (وزارة التربية والتعليم حالياً) التي تبنت مسابقات ثقافية حول الإعاقة [4].

---

(١) انظر : جمعية وطن ، ص ٢٢١-٢٢٣ . ولجمعية الشرقية نشاط ثقافي حيث أصدرت عام ١٤٢١هـ كتاباً عنوانه "الخيال والتصوير في شعر المكفوفين" من تأليف محمد بن أحمد الدوغان .

(٢) جمعية وطن ، ص ٢٢-٢٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥٣، ٥٤ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٥٦ .

وقد عُقد المؤتمر في عام ١٤١٣هـ بالرياض ، وكان من الأهداف التي تبناها : " ترسيخ أهداف الجمعية وطموحاتها عبر استراتيجيّة إعلامية محدّدة ومقننة تهدف إلى توعية جميع المستويات ، وإيجاد فهم جديد وسوي لقضايا المعوّقين ، ومحو الصورة السلبية وغير الواقعية لهم في مجتمعهم "(١).

ومن النتائج التي أسفر عنها المؤتمر ، تفعيل عدد من توصياته ، ومنها صدور النظام الوطني لرعاية المعوقين في المملكة (٢).

وفي عام ١٤٢١هـ عُقد المؤتمر الثاني ، ونتج عنه توصيات تُوّجت بموافقة مجلس الوزراء على إنشاء المجلس الأعلى لشؤون المعوّقين في عام ١٤٢٣هـ . وتحفيزاً للمشاركة المجتمعية في دعم رسالة الجمعية تبنت منح جوائز ؛ تقديراً للإنجازات العلمية والإبداعية في مجال رعاية المعوّقين ، ومن ذلك : جائزة الجمعية ، وجائزة الخدمة الإنسانية ، وجائزة البحث العلمي ، وجائزة التميّز للمعوّقين (٣).

وبين المؤتمرين كان للجمعية نشاط ثقافي عندما نظمت محاضرات عن الإعاقة والأدب شارك فيها : أحمد بن محمد الضبيب ، ومحمد بن سعد بن حسين ، وأبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري ، وغيرهم (٤) ، إضافة إلى إصدار بعض الكتب ، ومنها " الإعاقة في التراث العربي الإسلامي " عام ١٤١٧هـ ، وهو من مراجع هذا البحث .

وآخر نشاط علمي للجمعية انعقاد مؤتمرها الدولي الثالث للإعاقة والتأهيل في شهر ربيع الأول من عام ١٤٣٠هـ (٥).

هذه الجهود والمنجزات لا يمكن إغفالها عندما نتلمس أسباب الوعي بقضية الإعاقة لدى الشعراء المعاصرين ، في حين كانت غائبة - تقريباً - عمن سبقهم من الشعراء .

وبعد هذا الإسهاب الذي فرضته طبيعة البحث ؛ تفسيراً لبعض الأحكام والنتائج التي قدّمها لغياب قضية الإعاقة ثم حضورها لدى الشعراء السعوديين نبدأ في تناول مادة البحث من خلال مبحثين ، وهما : المضمون ، والشكل الفني .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦١.

(٣) جمعية وطن ، ص ٦١ ، ١٣٠-١٣٢.

(٤) انظر : مجلة الخطوة (تصدر عن جمعية الأطفال المعوقين) ، ع ١٧ ، (صفر ١٤١٩هـ) ، ص ٥٤ .

(٥) انظر : جريدة الرياض ، ع ١٤٨٥٤ ، (٢٨ صفر ١٤٣٠هـ) ، ص ١٠ .

المبحث الأول : المضمون:

يتضمن هذا المبحث محورين ، وهما : حديث المعوّقين عن الإعاقة ، وحديث الأسوياء عن المعوقين .

أولا: حديث المعوّقين عن الإعاقة :

وجدتُ خمسة نصوص تدخل في إطار هذا المحور، أربعة منها كتبها شاعر وشاعرة من المعوّقين بصرياً ، وهما : محمد بن سعد بن حسين[1]، وفاطمة بنت حسن العسيري[2] ، ونص كتبه شاعر أصمّ ، وهو محمد عبدالقادر فقيه عن مشلول [3] .

فأما ابن حسين فقد خلا ديوانه الأول " أصداء وأنداء " الصادر في عام ١٤٠٨هـ من أي نص يشير إلى إعاقته ، وكان هذا محل استغراب وتساؤل من بعض الباحثين ، ومنهم عبدالرزاق حسين [4] ، في حين وجدنا ديوانه الجديد " هوامش الذات " الصادر في عام ١٤٢٩هـ يضم نصين : الأول عنوانه " بين العُمي والمبصرين " ، والثاني " ماذا لو كنت مبصرا؟ " .

ففي النص الأول يقارن بين العميان والمبصرين منطلقاً من بيان إمكانات المكفوفين وقدراتهم ، ومناقشاً لأقوال بعض المبصرين التي قد تتضمن أحياناً تهويناً من شأنهم ، والمقارنة ذاتها إيمان بالاختلاف الشديد بين حال الفئتين ، ومن بدهيات القول بأن الأعمى ليس كالبصير، ولكن ليس معنى هذا أن أحدهما دون الآخر ، أو أفضل منه ، فليس المقام

---

(١) من مواليد عودة سدير عام ١٣٥٢هـ . حاصل على الدكتوراه في الأدب والنقد ، وله أكثر من ثلاثين كتاباً ، منها كتاب " أصحاب البصائر: وقفات في أحوال المكفوفين وآدابهم " . حصل على جائزة النقد من نادي أبها الأدبي عام ١٤٢١هـ ، وجائزة التميّز من جمعية الأطفال المعوقين بالرياض عام ١٤٢٧هـ . (تنظر : موسوعة الشخصيات السعودية ، الطبعة الأولى ، جدة : مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ، ص١٦٠).

(٢) من مواليد المنطقة الجنوبية . حاصلة على البكالوريوس في اللغة العربية عام ١٤٢٤هـ من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ولها إسهامات أدبية متنوعة ، ومجموعة نصوص منشورة ومخطوطة . (ينظر : شعر المرأة السعودية المعاصر : دراسة في الرؤية والبنية ، فواز بن عبدالعزيز اللعبون ، الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . كلية اللغة العربية . قسم الأدب ، ١٤٢٦هـ (رسالة دكتوراه غير منشورة) ، ص ٦٠٢) .

(٣) من مواليد مكة المكرمة عام ١٣٣٨هـ . أُصيب بمرض عارض وهو في الصف الرابع الابتدائي فقد على أثره سمعه . تلقى تعليمه بمدارس مكة ، وتقلب في وظائف عدة في وزارة الإعلام . له مشاركات ثقافية وشعرية وأدبية . صدر له عام ١٣٩٥هـ ديوان " أطياف من الماضي " ، وفي عام ١٤٢٤هـ صدرت الأعمال الشعرية الكاملة. توفي - رحمه الله - في عام ١٤٣٠هـ . (تنظر : موسوعة الشخصيات السعودية ، ص ٤٦٣) .

(٤) انظر : الإعاقة في الأدب العربي ، ص ٢٩٦.

مقام مفاضلة ، " ولكن نعني أنهما مختلفان في المزاج والتفكير والإحساس بالحياة والناس إلى حد كبير" [1].

وتقوم فكرة القصيدة في فلسفتها على نظرية التعويض التي تكررت عند عدد من الشعراء المكفوفين ، وخاصة عبدالله بن عباس رضي الله عنه (ت٦٨هـ) ، ومنصور الفقيه (ت٣٠٦هـ) ، بل إن بيتي ابن عباس اللذين عبَّر بهما عن إصابته في عينيه يعدان أساس نظرية التعويض [2]، ومن هنا نجد ابن حسين يرتكز على هذه النظرية مستلهماً أبيات المكفوفين السابقين ، رافداً قصيدته بتضمين من بيت للمتنبي (ت٣٥٤هـ) ، مستهلاً قصيدته قائلاً :

كـلُ أعمـى تـضيءُ فيـه البـصيرة	مـا تمنـاه مَـنْ بعـين بـصيرة
هكـذا اللّهُ إنْ يُـوارِ طريقـاً	يفـتح الطـرْقَ للعقـول المنيـرة
كـم هـدى العقـل للألى قـد تـساموا	لـم يلينـوا وقـد دهـتهم عـسيرة!
كـم تـوارتْ همـومُهم فـي يقـين	بالنجـاح ، فكـل كبـرى صـغيرة
حينمـا تـصبحُ النفـوسُ كبـاراً	مفعمـات بمـا تكـنّ الـسريرة [3]

وواضح أن الشاعر هنا وجد في الكتابة سلوى لظروفه القاسية ، ومعلوم " أن الشعر ينفس عن المرء بعض كربه ، ويعبّر بصدق عن بعض ما يصيبه من بؤس ومن يأس " [4]، ولكنه لم يجد بداً من الاعتراف بالمعاناة التي يلقاها المعوّق (دهتهم عسيرة ، همومهم) ؛ ذلك أن الإعاقة تجعل الحياة أكثر صعوبة ، وفي الغالب فإن العاهة الجسميّة تعقبها

---

(١) شعر المكفوفين في العصر العباسي : دراسة نفسية وفنية في أثر كف البصر ، عدنان عبيد العلي، عمّان : دار أسامة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩م ، ص ١٤.

(٢) انظر : الإعاقة في الأدب العربي ، ص ١٥٥، والبيتان هما :

إنْ يأخـذ اللّهُ مـن عينـيّ نورهمـا	ففـي لـساني وسـمعي منهمـا نـورُ
قلبـي ذكـيٌ وعقلـي غيـرُ ذي دخـل	وفـي فمـي صـارمٌ كالـسيف مـأثورُ

(ينظر : نكت الهميان في نكت العميان ، خليل بن أيبك الصفدي ، تحقيق طارق الطنطاوي ، القاهرة : دار الطلائع ، ١٩٩٧م ، ص٦١)

(٣) هوامش الذات ، محمد بن سعد بن حسين ، الطبعة الأولى ، الرياض : دار عبدالعزيز آل حسين للنشر والتوزيع ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م ، ١/٣٠١ .

(٤) شعر ذوي العاهات في الأدب المصري الحديث : دراسة تحليليّة نقدية ، علي عبدالوهاب مطاوع ، جامعة الأزهر ـ كلية اللغة العربية بالزقازيق ـ قسم الأدب والنقد ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، ص أ.

سلسلة من المشكلات والاستجابات الانفعالية ، نتيجة لاضطرابات صورة الجسم [1] ، لكن الشاعر هنا . انطلاقاً من تجربته الشخصية حيث صارع إعاقته وتجاوز آثارها . يبث في نفوس المعوّقين الأمل والطموح حين يكرر كلمات تحمل هذه الإيحاءات : (البصيرة ، المنيرة ، النجاح) ، وينتصر للعميان حين يقول في خاتمتها بكل ثقة :

هكذا العميُ معشرٌ قد تساموا	واستهانوا بكل دعوى خطيرة
جهل الناسُ أمرَهم فاستخفوا	إنهم لو علمتَ عميُ البصيرة! [2]

وأما النص الثاني فقصيدة تقع في ثلاثة عشر بيتاً ، وتحمل سؤالاً افتراضياً : ماذا لو كنت مبصراً ؟ . وقد نشرت في عام ١٤١٨هـ ضمن مقال يحمل العنوان نفسه ، ثم فصلها عن المقال ونشرها في ديوانه " هوامش الذات " . يقول في المقال : " لم يطرح هذا السؤال نفسه عليّ في يوم ما قبل فجر يوم الثلاثاء ٨ / ٥ /١٤١٨هـ ... فلماذا كان هذا ؟ وهل كانت له مثيرات ؟ لا أتذكر شيئاً من ذلك غير أني بعدما عدت من صلاة الفجر ..ابتدر ذهني هذا السؤال : ماذا لو كنت مبصرا ؟ ما الذي سيتغيّر من أسلوب حياتي ؟ " [3] .

وفي القصيدة تصوير طريف لارتباطه بهذه العاهة التي أصبحت مألوفة لديه ، بل إنه يصف العلاقة بأنها علاقة صديق بصديقه ، وأخ بشقيقه ؛ لعمق الارتباط معها مدة تزيد على نصف قرن فيقول :

صحبتُ العمى دهراً فكيف أمله	وكيف أريد اليومَ غيرَ رفيقي؟
سعينا معاً خمسين عاماً ونيّفاً	ونسعى مدى الآتي بكل طريقِ
ونبقى على طول المدى عبر صحبة	على خير ما يهوى أخٌ لشقيقِ
فلا هو مقلاء ، ولا أنا مبعد	كلانا صديق حافظ لصديقِ [4]

وهي الفكرة نفسها التي صرح بها في المقال حينما قال : " أنا اليوم لا أتمنى الإبصار فقد أقبلت على واقعي ورضيته ، وأحسنت التعامل معه فلم تعد لي من حاجة إلى سواه " [5] .

ولا يكتفي ابن حسين ببيان عمق الصداقة التي ربطته بالعمى ، بل يعدّد فوائد كف البصر من منطلق تحسين القبيح ، ويفتخر ببصيرته ، وهي فكرة سبق أن طرقها الشعراء

---

(١) انظر : شعر ذوي العاهات ، ص٣.

(٢) هوامش الذات ١/ ٣٠١.

(٣) المجلة العربية ، ع ٢٤٩ ، (شوال ١٤١٨هـ) ، ص ٥٦ .

(٤) هوامش الذات ١/ ٣١٩ .

(٥) المجلة العربية ، ع ٢٤٩ ، (شوال ١٤١٨هـ) ، ص ٥٧ .

المكفوفون من قبل كبشّار بن برد (ت١٦٧هـ)[١] وغيره، يقول ابن حسين:

كفاني الوجوه الكالحاتِ بظلمة ... كستْ كل أبصاري بكل شروقِ
لتبصر كلَّ الكائنات بصيرتي ... وتكسب أفعالي بكل وثوقِ
يقولون: أعمى!.والعمى ببصائر ... تظن العمى قيْداً وصك رقيقِ!
وما هو إلا شحذة لبصيرة ... تمد من المولى بكل عميقِ
من الفكر يكسوه البيان مروطه ... فيسحب أذيالاً لمرط أنيقِ
يتيه بها في عالم غير واهن ... تجاري به في السبق كل سبوقِ!
يخلّف من جاراه يفرك عينَه ... وقد ألهبت من غيرة بحريقِ!

هنا نلمح بوضوح صراعاً بين فئتين: أكثرية، وهم المبصرون، وأقلية، وهم العميان، والشاعر يتبنى بطبيعة الحال رأي الفئة التي ينتمي إليها وهم الأقلية، ليخلص في نهاية النص بهجاء مر لمن يهوّن من شأن العميان وقدراتهم، واصفاً أصواتهم بنقيق الضفادع فيقول:

يقول: أرى هذا الفتى غير مبدع ... ضفادعُ لم تصدع بغير نقيقِ![٢]

أما فاطمة العسيري فتخالف ابن حسين في جوانب وتتفق معه في أخرى، وهذا أمر طبيعي؛ لاختلاف الجنس والسن والتجربة في الحياة، ففي مقطوعة لها تقع في أربعة أبيات ترد على من يرى بأن العمى يمثل قيداً لها ومعاناة، وتكاد تفخر بهذه العاهة ضمنياً، والفخر بالعاهة شكل من أشكال التعويض، وأسلوب من أساليب الترضي للنفس، ونوع من أنواع التسويغ "والتخريج ورد الفعل؛ ولعله أيضاً حالة دفاعية محضة استوجبتها الإرادة والطموح والعزم القادح والتصميم الجاد، واستنفرها توقع الهجوم والشعور بالنقص "[٣]، فتقول:

من قال: إنّ العمى أقصى معاناتي ... وإنه السرُّ في حزني وآهاتي؟
من قال: إنّ العمى جرحٌ يؤرقني ... وإنه جمرة تقتاتُ من ذاتي؟
أما درى أنه ذاتٌ يؤدّبها ... الخيرُ فيما قضى ربُّ السماواتِ
أُسيء فهمي وتفسيري فوا أسفي ... ويالضيعة أنغامي وأبياتي![٤]

غير أننا نجد نصاً آخر لفاطمة العسيري تبدو فيه محبطة، مخالفة لرؤى ابن حسين

---

(١) من نحو قوله: عميتُ جنيناً والذكاءُ من العمى ... فجئتُ عجيب الظن للعلم مؤئلا
(ينظر ديوانه، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ٤/١٣٦)

(٢) هوامش الذات ١/٣١٩.

(٣) الإعاقة في الأدب العربي، ص ٩٥.

(٤) شعر المرأة السعودية المعاصر: دراسة في الرؤية والبنية (مرجع سابق)، ص ٣٢٠.

وصداقته مع العمى، تضيق بعاهتها، وتنفر من الحاجة الدائمة للمبصرين، وتصف العمى بأنه " ضعف وأسر"، فتقول:

أقائــدتي خــذي بيــدي وســيري	رضــيتُ بحكمـــة الله القـــدير
ولكنـــي أرى الطرقـــاتِ طالـــت	أحــق ذاك ؟ أم هــذا شــعوري؟
أغـــصُّ بـــذلتي ويـــضيق صـــدري	إذا مـا احتجـتُ للـشخص البـصير
ألا إنّ العمـــى ضـــعفٌ وأســـرٌ	ومـا يـدريك مـا حـالُ الأسـير؟؟[1]

وفي هذه المقطوعة - على قصرها- تبدو لنا حاجتان، وهما: الخضوع والاستقلال، وهما حاجتان متناقضتان يدعو ظهورهما إلى الغرابة عند الأفراد أنفسهم، ولا يمكن أن يكون هذا إلا تعبيراً عن التناقض الوجداني، أي ما يسمى بـ (ثنائية المشاعر) الذي يغلب على المكفوفين في نظرتهم للمبصرين، و"هذا الصراع هو أخطر الصراعات التي يعيشها الكفيف، فظروفه الواقعية تفرض عليه أن يحني هامته خضوعاً يطلب المعونة، في حين يتحرق رغبة في أن يتذوق طعم الاستقلالية في أكثر صورها تطرفاً!"[2].

وهذه النصوص التي أنتجها هذان المعوقان بصرياً وتحدثا فيها عن نفسيهما تمثل - تقريباً- رأياً عاماً لهذه الفئة من المجتمع، فهي نتاج تجربة ومعاناة وصراع مع الحياة.

أما محمد عبدالقادر فقيه فهو شاعر أُبتلي بفقد السمع، وهي إعاقة تفوق في نظر بعض المكفوفين الإعاقة البصرية؛ لكون الصمم والبكم " مما يعوق عن ممارسة كثير من الأعمال"[3]، ولكنه استطاع التغلب على معاناته و" ارتفع بها فوق الألم"[4].

القصيدة عنوانها " المشلول"، وعدد أبياتها ستة وعشرون بيتاً، وهي نتاج قصة حقيقية وليست متخيّلة حيث مهَّد لها الشاعر بكلمات قال فيها: " كان بناءً ماهراً ..أُصيب بالشلل النصفي مع فقد القدرة على النطق ..جمعتني به غرفة واحدة لمدة شهر، وكنت ألمس معاناته وحزنه ودموعه، وكان يغمغم بكلمات غير مفهومة ..."[5].

---

(١) شعر المرأة السعودية المعاصر: دراسة في الرؤية والبنية، ص ٣٢٠.

(٢) شعر المكفوفين في العصر العباسي (مرجع سابق)، ص ١٦-١٧.

(٣) أصحاب البصائر: وقفات في أحوال المكفوفين وآدابهم، محمد بن سعد بن حسين، الرياض: دار عبدالعزيز آل حسين للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ، ص ١١.

(٤) الأعمال الشعرية الكاملة، محمد عبدالقادر فقيه، الطبعة الثانية، بيروت: دار العودة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص ٧٠٠.

(٥) الأعمال الشعرية الكاملة لمحمد عبدالقادر فقيه، ص ٣٠٠.



وفقيه في هذا النص يرصد بألم التحول الذي أصاب الرجل من النشاط والعطاء والإبداع إلى ضد ذلك، مع ألم خاص يتمثل في عدم القدرة على الكلام والبوح والشكوى لمن حوله بمعاناته وآلامه:

شـجيٌّ.. ومحـزونٌ ولا يـتكلمُ	لك الله من باكٍ على الصمتِ يُرغمُ!
يحـاول أن يـشكو إلـى النـاس بثـه	فيخذلـه صـوتٌ مـن الـداءِ مُلجـمُ![1]

ومصيبة الشاعر في هذا النص صغرت عندما رأى مصيبة غيره، فلم نلحظ في النص إشارة إلى إعاقته، ثم صوّر بمهارة ما أصاب الرجل بأنه موت تدريجي جعل نصفه حياً، والنصف الآخر ميتاً، وهو إلى الموت يسعى ويقترب:

كـأن المنايـا حـين همّـتْ بأخـذه	بـدا لهـا أن تبطـي فـلا تتقـدمُ
طـوتْ نـصفَه الأدنـى فأصـبح هامـداً	وأبقـت لـه النـصفَ الـذي بـاتَ يـألمُ
فمـن عـالمِ الأحيـاء نـصفٌ معـذبٌ	ونـصفٌ بأظفـار المنيـة ملـزمُ
فـلا هـو مثـلُ الحـي يُرجـى ويتقـى	ولا هـو ميْـت يـستريح *ويُـردمُ*[2]

وفقيه في تصويره لمأساة هذا الرجل اقتصر على الوصف، وهو مؤثر على أي حال، ولم يحاول أن يستنطقه وأن يكتب على لسانه كلاماً يقوله إلى أسرته ومعارفه، كما لم تتضمن القصيدة رؤية الشاعر لدور المجتمع تجاه هذه الفئات المبتلاة.

ولعلنـا نتـساءل: كيـف نظـر الأسـوياء إلـى المعـوقين، وكيـف صـوّروا حيـاتهم ومـشكلاتهم وأحلامهـم وهمـومهم؟؟ هـذا مـا تكـشف عنـه الفقـرة القادمـة مـن البحـث بمشيئة الله.

ثانياً: حديث الأسوياء عن المعوقين:

وجدتُ ثماني قصائد كتبها شعراء أسوياء عن الإعاقة والمعوقين، والشعراء هم: عبدالله ابن حمد القرعاوي، وعبدالرحمن بن عبدالله الواصل، وعبدالله بن سليم الرشيد، وحمزة بن أحمد الشريف، ومنصور دمّاس، ومحمد بن عبدالرحمن المقرن، وسعد بن سعيد الرفاعي، وأيمن عبدالحق.

وأقدم نص وقعت عليه قصيدة "كفيف" لعبدالله القرعاوي[3]، ويعود نظمها إلى ما قبل

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٠٠.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة لمحمد عبدالقادر فقيه، ص ٣٠١. ويلاحظ أنه لايستقيم الوزن في البيت الأول إلا باختلاس الألف في (لها)، ونطقها هكذا: (لهَ).

(٣) من مواليد مدينة عنيزة عام ١٣٤٨هـ. درس الحقوق في القاهرة، وتدرج في أعمال مختلفة، منها: وكيل

عام ١٣٨٠هـ ، وهي من مختارات عبدالله بن إدريس في كتابه الشهير "شعراء نجد المعاصرون" ، وتقع في عشرة أبيات فقط [١] ، وأُعيد نشرها في ديوانه " صدى البوح " الصادر في عام ١٤٢٦هـ .

وهذه القصيدة لها أهميتها القصوى ، وتتزامن مع تبني الدولة رسمياً تعليم المكفوفين تعليماً نظامياً بإنشاء معاهد النور في المملكة [٢] ، وهي أول قصيدة - حسب علمي - يخصصها شاعر سعودي للحديث عن الإعاقة ، في حين كان الشعراء السابقون للقرعاوي ومجايلوه غافلين عن المشاركة في الكتابة عن الإعاقة وظواهرها ، وعن هموم المعوقين وتطلعاتهم ومتطلباتهم ، ومنشغلين بقضايا اجتماعية أخرى رصدها الباحث مفرّح إدريس أحمد في كتابه " الشعر الاجتماعي في المملكة " .

على أن القصيدة لقدمها لم تتضمن إشارة إلى كلمة " الإعاقة" وما يتفرع عنها ، لكون هذه الكلمات مما أشاعته وسائل الإعلام في السنوات الأخيرة .

وقد أخفق الشاعر في طرح قضية المعوقين طرحاً سليماً ، وهو معذور ، لأن النص كتب في مرحلة زمنية مبكرة لم تنشأ فيها المؤسسات الرسمية التي تُعنى بالإعاقة والمعوقين كمعاهد النور وجمعيات المعوقين الخيرية وغيرها ، وكان عدد منهم مهملاً يُعاني الفقر والجهل معاً ، وهو ما تضمنته القصيدة بوضوح .

والقصيدة في مقطعين ، فأما الأول فيظهر فيه الكفيف شخصاً متفائلاً يحاور رفاقاً له من المبصرين ، متطلعاً إلى التعرف على مظاهر الجمال في الحياة :

حـــدّثوني عـــن البهـــا والـــضياءِ	ياصـحابي ، وعــن جمـال الـسماءِ
وصـــفوا لـــي تنقـــلَ البـــدر فيهـــا	وبـــصيص النجـــوم ذات البهـــاءِ
واســـمعوني للـــشمس وصـــفاً جمـــيلاً	كـسناها الـدقيق يُحيـي رجـائي [٣]

وفي المقطع الثاني يتحول هذا الكفيف المتفائل الباحث عن الجمال في الكون إلى شخص متشائم محبط،زاد من حزنه وألمه فقدانه لثلاث صفات مهمة تجعل للحياة قيمة

وزارة الصناعة والكهرباء . صدر له عام ١٤٢٤هـ كتاب " ذكريات نصف قرن" . توفي عام ١٤٢٧هـ رحمه الله . (ينظر ديوانه صدى البوح ، صفحة الغلاف الأخيرة) .

(١) شعراء نجد المعاصرون ، عبدالله بن إدريس ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مطابع دار الكتاب العربي ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م ، ص ٢٦٥ .

(٢) أصحاب البصائر (مرجع سابق) ، ص ٦٥ .

(٣) صدى البوح ، عبدالله بن حمد القرعاوي ، الطبعة الأولى ، الرياض : مطابع الشرق الأوسط ، ١٤٢٦هـ ، ص ١٥٢.

ومعنى، وهي : العلم، والقوة، والمال، فتسودّ الدنيا في عينه وتظلم فيتمنى الموت العاجل، ويتوجه بالدعاء يائساً فيدعو على نفسه بالموت قبل الشفاء. يقول القرعاوي في تصويره لمأساة الكفيف :

ليس لي حيلة لبث شكاتي	غيرَ دمعي، وما يفيدُ بكائي؟
تركوني أسيرُ وحدي حزيناً	دونَ عونٍ ولا قليل عزاءِ
أيُ شيء يُهمّهم من كفيفٍ	أعلومي؟، أم قوّتي، أم ثرائي؟
كل هذي فقدتها مع عيني	وتمنيتُ أن يحلَ فنائي!
ياإلهي أدعوك من كل قلبي:	مُنَّ لي بالمنون، أو بالشفاءِ[1]

وهذه الأبيات تمثل مرحلة محزنة لواقع الكفيف في مجتمعنا السعودي سابقاً عندما كان يطلق عليه في نظام العمل (عاجز)، فمعظمهم غير متعلمين، ومن ثم لا يجدون وظائف يكسبون منها مالاً فيبقون عالة على أسرهم ومجتمعاتهم، ثم إن نظرة أفراد المجتمع للمعوق. كما تكشف القصيدة. نظرة غير سليمة تصوره عاجزاً غير قادر على الإنتاج والعطاء وخدمة المجتمع، وتسيطر عليه النظرة التشاؤمية للحياة، ويرغب في الموت أكثر من الرغبة في الحياة.

والشاعر هنا لم يستطع معالجة واقع المكفوفين بطريقة تضمن اندماجهم في المجتمع وانتشالهم من واقعهم، فلم يطالب بتعليمهم وإيجاد أعمال تناسبهم وتكفيهم ذل الحاجة إلى الآخرين، ولم يطالب أيضاً بتغيير النظرة السلبية تجاه المعوقين بأن ينظر إليهم على أنهم قادرون على العطاء وخدمة المجتمع متى ما أُتيحت لهم الفرص في التعليم والوظائف تماماً كالأسوياء.

وإذا ماانتقلنا إلى النصوص الأخرى استوقفتنا أمور مهمة، منها الانقطاع الطويل بين نص عبدالله القرعاوي المبكر والذي يليه، وهي مدة تزيد على ثلاثين سنة، وأقصد نصاً لعبدالرحمن بن عبدالله الواصل[2] مؤرخاً في عام ١٤١٠هـ من ديوانه " دموع الشعر"،

---

(١) صدى البوح، ص ١٥٣.

(٢) من مواليد مدينة عنيزة عام ١٣٧٣هـ. نال الدكتوراه في الجغرافيا من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٢٢هـ، ويعمل في إدارة التعليم بعنيزة. صدر له ثلاثة دواوين، وهي : دموع الشعر (١٤١٣هـ)، وحديث الغضا (١٤١٧هـ)، وتبتسم الصحارى (١٤٢٧هـ). وله مؤلفات أخرى في تخصصه.(ينظر : دليل الأدباء بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، الطبعة الأولى، الرياض : الأمانة العامة لمجلس التعاون، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٢٨٦).

والملحوظة الثانية ظهور كلمات تتحدث عن المعوقين بشكل عام ، فتكثر فيها ألفاظ مثل : الإعاقة ، والمعاقين ، والمعوقين ، والملحوظة الثالثة أن تواريخ نظمها أو نشرها تنحصر بين عامي ١٤١٠و١٤٢٤هـ ، وهذه التواريخ جاءت تالية للافتتاح الرسمي لجمعية الأطفال المعاقين أو المعوقين[1] في عام ١٤٠٧هـ ، مما يعزز الاستنتاج الذي سبق في مستهل البحث عن أهمية هذه الجمعية وأعمالها وقيامها بدور مؤثر في توعية المجتمع بقضايا الإعاقة والمعوقين ، وبخاصة أن الجمعية أشركت معها جهات حكومية مختلفة ، منها وزارة المعارف (التربية والتعليم حالياً) ، فلربما كانت مشاركة بعض الشعراء في نظم قصائد عن المعوقين . ومعظمهم من العاملين في حقل التربية والتعليم [2] . صدى لنشاط الجمعية وتحقيقاً لأهدافها،وخاصة مع قوة الحضور الإعلامي الذي انتهجته الجمعية [3].

وتجتمع في أربع منها خصيصة واحدة ، وهي أنها نُظمت على لسان معوق ، وهي قصائد الشعراء : حمزة الشريف ، ومحمد المقرن ، ومنصور دمّاس ، وسعد الرفاعي ، وتلتقي جميع القصائد في الحديث عن المعوقين الذكور ، في حين تنفرد قصيدة عبدالرحمن الواصل " المعوّقة" بكونها ترصد معاناة فتاة .

وسوف أقف عند هذه القصيدة التي بدأت بتعالق نصيّ مع بيت من معلقة امرئ القيس (ت ٨٠ق.هـ) مع أنها ليست معارضة لها ؛ لاختلاف الوزن . يقول الواصل :

إذا الليـــلُ طـــال ولـــم ينجـــلِ	بـــصبح فمـــا أنـــتَ بـــالأولِ!
فكـــم عاشـــق يـــشتكي ليلـــه	وقـــد يـــشتكي الليـــلَ قلـــبٌ خلـــي

ويبدو الرابط بعيداً بين امرئ القيس وقصة فتاة معوّقة ، غير أننا لا نلبث أن نجد بعض الروابط ، فامرؤ القيس أشهر من وصف الليل ، والإعاقة تشبه الليل الذي لا يبشر بصبح ، والفتاة لم تولد معوقة ، بل عاقها حادث سير ، وكأن الشاعر هنا يربط بين عز امرئ القيس

---

(١) كان اسم الجمعية في البداية " الجمعية السعودية الخيرية لرعاية الأطفال المعاقين " ، ثم عُدّل فيما بعد إلى " جمعية الأطفال المعوقين " . (ينظر : الإعاقة في التراث العربي الإسلامي ، وجمعية وطن ، وكلاهما من إصدارات الجمعية ، ومن مراجع هذا البحث) .

(٢) الشعراء المعلمون هم : الشريف ، ودمّاس ، والواصل ، والرشيد ، والرفاعي ، وأيمن عبدالحق .

(٣) حرصت الجمعية على أن يتولى العلاقات العامة والإعلام أساتذة حاصلون على الدكتوراه في الإعلام ومن أصحاب الخبرات الصحفية ، وممن عرفت شخصياً عبدالعزيز المقوشي عضو هيئة التدريس سابقاً بكلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية حيث عملت معه في المدة من ١٤١٧ـ١٤١٩هـ مسؤولاً عن النشاط الثقافي في الجمعية .

ثم زوال ملك أبيه، وحال هذه الفتاة من الشباب والصحة إلى الإعاقة والعجز:

معوّقـــــة تـــستحثُ الزمــــانَ زمـــانٌ مـــضى كزمـــانٍ يلـــي
معوّقـــة ضـــاق فيهـــا الزمـــانُ وضـاق المكـانُ عـن الأرجـلِ
بحادثـــة فـــي الطريـــق الـسريع بمركبـة قـد هـوتْ مـن عـلِ
فـــداهمها نـــصفُ مـــوت فأمـــست بنـصف حيـاة ولـم تـزلِ
فهـــل تعلمـــون بأيـــأسَ مـــن فتـاةٍ تعـاني مـن الـشللِ؟[1]

ويطرح الواصل في القصيدة أفكاراً تتفق والنظرة الواقعية للمعوقين، مما يؤكد أن الشعراء استوعبوا بشكل جيّد الرؤى التي ينادي بها علماء النفس والتربية للتعامل مع المعوق، بدليل الاختلاف الواضح في الرؤية بين القرعاوي والواصل، فالأخير يحذّر من الشفقة الزائدة على المعوق، لأنها قد تُكسبه حساسية زائدة تتحول به إلى العزلة عن مجتمعه فيقول:

يُعـــذبها فـــي عيـــون الجميـــع مـدى نظـرة المشفق الممحـلِ
تـوارتْ عـن النـاس عـن أهلهـا بـركن مـن الـدار فـي معـزلِ
تعـــيشُ كآنيـــــة أُهملـــــت ببيـت لـذي هجـرة مهمـلِ[2]

وهذه رؤى سليمة تتغيّا تبصير الأُسَر بكيفية التعامل مع المعوق، والحق أن ذوي العاهات لا بد أن يختلف سلوكهم عن غيرهم من الناس، والعاهة قد تدفع الأبوين إلى الرحمة والشفقة على ابنهم المصاب، فلا يزال بينهم يكلؤه العطف وتحنو عليه الأيدي والقلوب، ومن ثم " ينشأ نشأة المرهفين ذوي الأمزجة المتطرفة والحساسية المفرطة "[3]، ويشير علماء النفس إلى أن من أسباب عزلة المعوق سوء المعاملة العائلية، سواء بالشفقة الزائدة أو بالسخرية[4].

ويفارق الواصل القرعاوي في خاتمة القصيدة إذْ بدا الواصل متفائلاً بشفاء هذه الفتاة:

إذا يـئس الطـب عـن طبهـا فـإن لهـا المتعـالي ولـي

---

(1) دموع الشعر، عبدالرحمن بن عبدالله الواصل، الطبعة الأولى، عنيزة: المطابع الوطنية للأوفست، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٣٦.

(2) دموع الشعر، ص ٣٨.

(3) الخيال والتصوير في شعر المكفوفين من الجاهلية إلى العصر العباسي، محمد بن أحمد الدوغان، الدمام: جمعية المعاقين (السلسلة الثقافية، الإصدار الأول)، ١٤٢١هـ، ص ١٥.

(4) شعر المكفوفين في العصر العباسي (مرجع سابق)، ص ٧٣.

فــإن أعجــز الطــبَّ داءٌ عــضالٌ   فلــيس علــى الله بالمعــضلِ[1]

وننتقل إلى قصيدة " ما أنت أعمى!" لـ عبدالله بن سليم الرشيد[2] ، وفيها يستحضر أعلاماً كباراً من المكفوفين لم تكن إعاقتهم لتحول دون إبداعهم وعطائهم ، بل إن بصائرهم تتحول إلى نور يضيء الدرب للمبصرين :

وما أنتَ أعمى ...

ولكن عينيكَ سافرتا...

للزمان المضيءْ

وأقبلتا في احتفال وضيءْ

تزيلان أغشية الوهم...

تستشرفان انبثاقَ السنا...

في الزمان الرديءْ![3]

والأعمى هنا ليس شخصاً معيناً ، بل هو رمز لكل من فقد البصر ولكنه ظل ذا بصيرة يوقظ بها البصراء .

وتتضمن القصيدة وقوفاً إلى جانب المكفوفين وتحذيراً من تثبيط هممهم عندما يسمعون من أحد تهويناً لشأنهم أو عملهم وتقليلاً من قدراتهم ، وإشارة إلى أن ذا العاهة المقتدر المؤثر برأيه وفكره قد يجد أعداءً يتخذون عاهته وسيلة للنيل منه :

وما أنتَ أعمى

ولكن هم العُمي...

يحشون أفواههم بالظلام ...

تجوسُ عيونهم في الدياجي

وتبقى تضيءُ...

---

(١) دموع الشعر ، ص ٣٨ .

(٢) من مواليد مدينة الغاط عام ١٣٨٥هـ . حاصل على الدكتوراه في الأدب العربي . يعمل أستاذاً في كلية اللغة العربية بالرياض ، وعضواً في مجلس إدارة النادي الأدبي بالرياض . له مجموعة من الدواوين والكتب المطبوعة ، منها : خاتمة البروق ، ورجل الصناعتين ، والسيف والعصا : مذاكرات في مشكلة الفصحى والعامية .(ينظر : دليل الأدباء بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، ص١٨٥) .

(٣) حروف من لغة الشمس ، عبدالله بن سليم الرشيد ، الطبعة الأولى ، الرياض : دار المعراج الدولية للنشر ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م ، ص ٣٨.

...لأنكَ أنت الضياءُ الذي يمقتونْ![1]

وهي من جياد القصائد التي حاولت رفع معنويات المعوقين وتذكيرهم بقدراتهم بأسلوب غير مباشر ، ومثلها قصيدة " آمال معاق " للشاعر حمزة بن أحمد الشريف[2] من ديوانه " عطر تهامي " الصادر في عام ١٤١٩هـ ، وفيها يتحدث المعوق عن نفسه بثقة مطلقة وبتفاؤل مدهش وبنظرة تجعله لا يختلف كثيراً عن الأسوياء ، رافضاً أن يوصف بالعاجز ؛ لأنه العجز عنده هو الموت فقط . أما إذا كان حياً فنفسه ملأى بالطموح راغبة في الحياة مبتسمة للأحياء :

ما سئمتُ الحياة ولا اغتالني سقمها

مثل باقي الأنام أعيشُ وما ضارني عقمها

مثلَ باقي الأنام لحافي سماءٌ ونور

وعلى شرفتي وقف الفجرُ يروي الزهور

ما سئمتُ الحياة ولا انتابني همّها

قانعٌ بالحياة

عاملٌ في الحياة

لا أرى العجزَ إلاّ المماتْ

لا تقولوا بأني معاقْ

فأنا مثلُ باقي الرفاقْ

عالمي.. إنطلاقْ[3] .

وواضح هنا التحول الكبير في النظرة إلى المعوقين ، والرغبة في تغيير الصورة السلبية عنهم ، فالشاعر في هذا النص الذي يعد من أجود النصوص في هذا السياق يجعل المعوق إنساناً مختلفاً واثقاً من قدراته ، قادراً على العطاء ، في حين رأينا المعوق في نص القرعاوي

---

(١) حروف من لغة الشمس ،ص ٣٩ .

(٢) من مواليد القنفذة عام ١٣٦٩هـ . حاصل على الماجستير والدكتوراه في الحضارة الإسلامية . له مجموعة من الدواوين ، منها : ألهمني البحر ، وعطر تهامي ، وخمس قصص للأطفال . يعمل في إدارة التعليم بالقنفذة . (ينظر : ديوانه ألهمني البحر ، الطبعة الأولى ، جازان : النادي الأدبي، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، ص ٧) .

(٣) عطر تهامي ، حمزة بن أحمد الشريف ، الطبعة الأولى ، الباحة : النادي الأدبي ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ص١٢٣. ولا بدّ هنا من قطع همزة (انطلاق) ؛ لضرورة الإيقاع .

محبطاً يائساً يتمنى الموت العاجل!

ويحاول الشريف في هذا النص تحصين المعوق من أي إحباط قد يواجهه من المجتمع القريب أو البعيد فيقول على لسانه :

وأرى العمرَ إضمامة الورد نفح السنين

وقناتي وقد أينعتْ أقسمتْ لا تلين

ما تبرمتُ كلا ولا هزني هازئٌ بالكلام

خطوتي لو تعثرت ما ينتهي شوقها ..

لدروب الأمل[1].

وهذا ملمح وفق فيه الشاعر ؛ لأن كثيراً من المعوقين الفائقين والعباقرة سبق أن تعرضوا لكثير من الاضطهاد الاجتماعي المقصود أو العفوي ، وأقسى ما يواجهه المعوق " الاستخفاف والاستهانة "[2].

وننتقل إلى نص آخر لمحمد بن عبدالرحمن المقرن[3] ، وعنوانه "لستُ معاقاً "، وفيه يظهر المعوق متألماً ممن يصفه بالإعاقة بوصفها مرادفة للعجز . ويحاول أن يثبت له أنه قادر على الإنتاج والتأثير :

تبعثــــرتْ كلمـــــاتي	لمن سأفضي شكاتي؟
يــسيرُ بالحـــب قلبـــي	ولــم تــسرْ خطـواتي
يُقـــال عنـــي مُعـــاقٌ	ولــم تُعَــقْ عزمــاتي!
يــاقومُ لــستُ مُعاقــاً	مـا دمـتُ أسـمو بـذاتي[4]

ويشترك منصور محمد دمَّاس[5] مع المقرن في الفكرة ، محاولاً إنطاق المعوق في

---

(١) عطر تهامي ، ص ١٢٤.

(٢) شعر المكفوفين في العصر العباسي (مرجع سابق) ، ص ٢٤.

(٣) من مواليد عام ١٣٩٨هـ . حاصل على الدكتوراه من المعهد العالي للقضاء عام ١٤٢٧هـ ، ويعمل قاضياً بمدينة الرياض .له ديوانان ، وهما : مليكة الطهر ، وأنشودة الخريف (١٤٢٣هـ) . (معلومات شخصية عن الشاعر) .

(٤) مليكة الطهر ، محمد بن عبدالرحمن المقرن ، الطبعة الأولى ، الرياض : دار القاسم للنشر ، ١٤٢٠هـ ، ص ٢٢١، ٢٢٣.

(٥) من مواليد صامطة بجازان عام ١٣٧٣هـ . حصل على الشهادة الجامعية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٩٤هـ . يعمل حالياً في مجال التعليم . شاعر له مجموعة من الدواوين ، منها : جرأة قلب ، وشعور مغترب ، والأمل الهامس ، ورجع . (ينظر ديوانه رجع ، الطبعة الأولى ، جازان : النادي الأدبي ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) .



قصيدة له بعنوان " تحدي معاق على لسان معاق "، ليتحدث بثقة كبيرة فيقول :

هـا أنـا أتقـنُ البنـاءَ وأرسـي — مثل غيري من دون عجزٍ وتعسِ
هـا أنـا أتقـنُ البنـاءَ ومـا بـي — أيُّ عـوق ..أفـوقُ أبنـاءَ جنسي
أُحسنُ الحرفَ كاتباً ومجيداً — كل فـن وحرفـة كـلَّ درس
لـيس لليأس مـوطنٌ فـي كيـاني — لم يُصبْ دأبي السعيد ببخس[1]

وأما سعد بن سعيد الرفاعي[٢] فيتساءل بحيرة : مَنْ المعاق؟ في قصيدة له بهذا العنوان، ليخلص إلى أن المعوق الحقيقي ليس من أُصيب بعاهة ، وإنما المعوق بحق الخامل المنغمس في الجريمة والضلال ، في حين أن المعوق جسدياً يستطيع أن يعمل وينتج ، وهو أفضل لمجتمعه من المعوق في سلوكه وأخلاقه وفعاله . يقول الرفاعي :

أأنـا المعـاق؟ عجبتُ كيف يقولهـا! — مـن ذا يشاهد في الحياة نضالي
لستُ المعاق وقد سموت بخطوتي — فوق الصعاب وجزت كل محالِ
لستُ المعاق وسيل عزمي جارف — نحـو الصباح تزفني آمـالي
كم من صحيح الجسم مكتمل العضا — يشكو (الإعاقة) من قصور فعالِ
يبقى المعـوقُ مـن أضَـلَّ طريقـه — صـوبَ الحيـاة ومـا دنـا لكمـالِ
قف بالطريق ترى المعاقَ مجسَّداً — فـي تائـه يلهـو بـلا آمـالِ
فـي خـافق وأد الصباحَ بحقـده — إذ غـاص فـي مستنقع الأوحـالِ!
فـي خامـل تـرك الفعـالَ جليلهـا — ومـضى يحلِّـقُ واهمـاً بخيـالِ[٣]

وأما أيمن عبدالحق[٤] فيتحدث عن شخصية حقيقية تجاوزت الإعاقة بالصبر والتعليم والجد في البحث وإثبات الوجود ، وهي بعنوان " أمير البحث " ألقاها في حفل تكريم المؤرخ المعوق عبدالرحمن الرفاعي[٥]، وفيها يقول :

---

(١) رجع ، ص ٦٥ .

(٢) من مواليد محافظة ينبع عام ١٣٨٦هـ . حصل على الشهادة الجامعية في اللغة العربية عام ١٤١٨هـ ، وماجستير في الإدارة التربوية والتخطيط عام ١٤٢٤هـ . عمل معلماً ، ثم مديراً لمختلف المراحل ، ويعمل حالياً مديراً للتخطيط والتطوير التربوي بإدارة التربية والتعليم بينبع . صدر له ديوانان : نزيف الجرح ، والعشق ينبع ، وكتاب بعنوان إجراءات الإدارة المدرسية . (يُنظر ديوانه العشق ينبع ، الطبعة الأولى ، المدينة المنورة : النادي الأدبي ، ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م) .

(٣) العشق ينبع ، ص ٨١ ، ٨٢ . وكلمة (العضا) يريد بها (الأعضاء) ، وهذا لا يستقيم لغويا .

(٤) من مواليد مدينة جيزان عام ١٣٩١هـ . حصل على الشهادة الجامعية في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة الملك سعود . يعمل معلماً ، وعضواً بنادي جازان الأدبي . حصل على جائزتين عن شعره من نادي جازان والطائف الأدبيين . صدر له ديوانان ، وهما : حمَّى الأحلام ، وفواصل لذاكرة الغياب . (يُنظر ديوانه فواصل لذاكرة الغياب ، القاهرة : مطابع جاسراب للتوزيع والنشر ، ١٤٢٦هـ) .

(٥) من مواليد محافظة أبو عريش بجازان عام ١٣٧١هـ . حصل على الشهادة الجامعية في اللغة العربية وآدابها

بحثــتَ فكنــت أبهــى مــن تجلــى	وغــصتَ فكنــتَ للأنــواء مرمــقْ
وجـــاوزتَ الإعاقـــة فـــي صـــباها	بإيمـــانٍ وعـــزم لا يُـــصدَّقْ
وناغيـــتَ الـــسطورَ ففـــرَّ منهـــا	عبيـــرٌ ناشـــرٌ وشـــذى مُعتَّـــقْ
وراودتَ الليـــالي عـــن ســـناها	فغطَّتْ وجهها وسـناك أبـرقْ[1]

والحق أن عرض التجارب الحقيقية للمعوقين وانتصارهم على عاهاتهم من الأهمية بمكان، لرفع الروح المعنوية لدى من يشكون من إعاقة ، وحفزهم لاحتذاء الناجحين والسير وفق خطاهم حتى لا تصبح الإعاقة حاجزاً دون تحقيق الذات وإثبات الوجود والقيام بأعمال تخدم المعوق أولاً ومجتمعه ثانياً .

* * *

وآدابها من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٩٥هـ، ويعمل في الحقل التربوي. مؤرخ وباحث صدر له عدد من المؤلفات، منها: الحُميني، والتراث الإسلامي بين عظمة الإبداع ونهب الخصوم. (يُنظر: دليل الأدباء بدول مجلس التعاون، ص ١٨٧).

(١) فواصل لذاكرة الغياب، ص ٣٢.

المبحث الثاني : الشكل الفني:

عناوين القصائد : العنوان يُعد في نظر بعض النقاد " أهم مفاتيح النص " ، و" العنوان الذي ينبثق من النص ويدل عليه أو على بعض ما فيه دون إغماض أو تعمية مطبقة هو الأقدر على إحداث الأثر الفني ما توافرت فيه مظاهر الإبداع "[1] .

وبإلقاء نظرة على عناوين القصائد التي اعتمدت عليها هذه الدراسة نجد أنها عنوانات بسيطة في مجملها تتكون من كلمة واحدة أو اثنتين مثل : كفيف ، والمعوَّقة ، والمشلول ، وآمال معاق ، ومن المعاق؟ ، وتقل العنوانات المركبة التي تتكون من ثلاث كلمات فأكثر مثل : تحدي معاق على لسان معاق ، وبين العُمي والمبصرين .

ويلاحظ أنها قوية الدلالة على المضمون ، ومباشرة ليس فيها جهد فني في الاختيار . وقد نجد عنواناً يحمل شيئاً من التشويق ، وهو " ماذا لو كنت بصيرا؟ " لمحمد بن سعد بن حسين .

مقدّمات القصائد : جاءت المقدمات لصيقة بالموضوع تتضمن كشفاً مباشراً للفكرة تقريباً ، ومن ذلك المطالع التالية :

كـلُّ أعمـى تـضيءُ فيـه البـصيرة	مـا تمنـاه مَـنْ بعـين بـصيرة[2]
أأنـا المعـاق؟ عجبـت كيـف يقولهـا	مـن ذا يـشاهد فـي الحيـاة نـضالي[3]
مـن قـال : إن العمـى أقـصى معانـاتي	وإنـه الـسر فـي حزنـي وآهـاتي؟[4]

ونستثني من ذلك قصيدة عبدالرحمن الواصل "المعوّقة" حيث استهلها بمقدمة في تسعة أبيات لم يشر فيها إلى موضوع القصيدة ، وإن كان العنوان قد أبان عن الفكرة ، وفي ألفاظ القصيدة شبه بمعلقة امرئ القيس كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ويظهر أن الشاعر استلهم طول ليل امرئ القيس الذي يضرب به المثل ممتزجاً معه في شكواه من ليل المعوقين الطويل أيضاً ، ومن هنا جاءت فكرة التقاء النصين ، غير أنه أطال في المقدمة ، ولم يدخل في صلب الموضوع إلا في البيت العاشر .

ويشاركه في بعض الجوانب منصور دمّاس الذي جعل قصيدته معارضة ضمنية لسينيّة

---

(١) مدخل إلى دراسة العنوان في الشعر السعودي ، عبدالله بن سليم الرشيد ، الطبعة الأولى ، بريدة : نادي القصيم الأدبي ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م ، ص ١٢ ، ١٨ .

(٢) هوامش الذات ، محمد بن سعد بن حسين ٣٠١/١ .

(٣) العشق ينبع ، سعد الرفاعي ، ص٨١ .

(٤) البيت لفاطمة العسيري . انظر : شعر المرأة السعودية المعاصر ، ص ٣٢٠ .

البحتري (ت ٢٨٤هـ)[١]، غير أنه لم يُطل المقدمة كما فعل الواصل ، وابتدأ مباشرة في طرح الفكرة ، ومما يمكن أن يؤخذ على دمَّاس هنا أننا لا نجد رابطاً بين قضية الإعاقة وقصيدة البحتري ، ولو كانت القصيدة لشاعر معوق كبشّار أو أبي العلاء المعري ، لربما وجدنا صلة ضمنية قوية من باب أن الشاعر من خلال المعارضة أراد تذكير المعوقين بالنوابغ السابقين الذين لم تكن الإعاقة مانعة لهم من العطاء والإبداع .

خواتيم القصائد : تنوعت خواتيم القصائد ، ويغلب عليها أن تكون تكثيفاً للفكرة كما هو الحال عند محمد عبدالقادر فقيه ، ومحمد بن سعد بن حسين ، ومنصور دمَّاس ، وعبدالله بن سليم الرشيد ، وفاطمة العسيري ، ومن الأمثلة قول الرشيد مخاطباً المعوق :

فألهبْ عيونَ الخفافيش باللهب الحلو...

وانشر على هامة الكون عطر المجيءْ[٢]

واتجهت بعض القصائد إلى ختامها بالدعاء لله عزوجل أو شكره كما هو الحال عند الشعراء : عبدالله القرعاوي ، وعبدالرحمن الواصل ، ومحمد المقرن[٣]، في حين وجدنا فاطمة العسيري تختتم مقطوعتها بالحكمة [٤].

وثمة ظواهر تلفت الانتباه في القصائد المدروسة ، ومن ذلك الوحدة الموضوعية ، والتكرار ، وبروز ضمير المتكلم ، وكثرة أفعال الأمر ، والأفعال المضارعة ، وتميز المعجم الشعري بألفاظ وأدوات ، إضافة إلى بعض الصور الشعرية الجيّدة التي تضمنتها القصائد .

الوحدة الموضوعية : إذا استثنينا قصيدة عبدالرحمن الواصل " المعوَّقة" التي خصص تسعة أبيات منها للشكوى ، فإن بقية القصائد ذات وحدة موضوعية ظاهرة ألح خلالها الشعراء على الموضوع ، وهو قضية الإعاقة والمعوقين ولم يخرجوا باستطرادات إلى موضوعات أو قضايا أخرى . وهذا ما منح القصائد خصوصية بارزة .

---

(١) مطلع القصيدة :

ها أنا أُتقن البناءَ وأُرسي   مثل غيري من دون عجز وتعسِ

(تنظر في ديوانه رجع ، ص ٦٥) . وقد وصفتُ المعارضة بأنها ضمنية وليست صريحة ؛ لاتفاق القصيدتين في الوزن والقافية ، واختلافهما في الموضوع . (يُنظر كتاب : المعارضات الشعرية : دراسة تاريخية نقدية ، عبدالرحمن بن إسماعيل السماعيل ، الطبعة الأولى ، جدة : النادي الأدبي الثقافي ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ص١٩) .

(٢) حروف من لغة الشمس ، ص ٤٠ .

(٣) صدى البوح ، ص ١٥٣، ودموع الشعر ، ص ٣٨، ومليكة الطهر ، ص ٢٢٤ .

(٤) شعر المرأة السعودية المعاصر ، ص ٣٢٠ .

التكرار : جنح الشعراء إلى تأكيد أفكارهم ورؤاهم بالتكرار ، وهو عند الشعراء المعوقين أبرز، فنراهم يكررون ألفاظاً بمشتقاتها ، ومثال ذلك عند ابن حسين الكلمات التالية : طريق/ الطرق ، العقول/العقل ، كبرى ، كباراً ، صحبت/صحبة ، أعمى/العمى ، السبق / سبوق[1]، وتكرر فاطمة العسيري :" من قال ، وإن العمى " مرتين [2]، ورغبة في زرع التفاؤل في نفوس المعوقين نجد حمزة الشريف يكرر كلمة " الحياة " خمس مرات[3].

وقد أدى تكرار الألفاظ المرتبطة بالإعاقة وظيفة مهمة في النصوص ، وعلى الأخص الألفاظ التي تحمل دلالة التضاد مثل : البصر/العمى ، المبصرون /العميان أو العُمي ، الحياة/ الموت ، النهار/الليل ، وغلب على النصوص كثرة الألفاظ الدالة على العاهة مثل : الإعاقة ، والمعوق ، والمعاق ، والمعوقة ، وعوق ، ويعاق ، ولم يُعقْ ، والعجز ، والشلل ، وغيرها ، مما أعطى للنصوص خصوصية ظاهرة .

ولكن التكرار إذا لم يقم بوظيفة فنية كان إرهاقاً للنص ، فالشاعر عبدالرحمن الواصل أعاد الأبيات: الثاني عشر والثالث عشر والسابع عشر مرة أخرى في القصيدة بعد ستة عشر بيتاً دون أن يظهر مسوّغ مقنع لهذا التكرار[4].

وبرز في القصائد تكرار أدوات النفي مثل : ليس ، ولستُ ، وليست ، وما ، وغيرها ، وهي تمثل رغبة لدى الشعراء لتغيير الصورة النمطية السلبية عن المعوقين ، ومن ذلك : " ما أنت أعمى " التي كرّرها عبدالله الرشيد أربع مرات [5]، و" لست المعاق " التي كرّرها الشاعر سعد الرفاعي مرتين[6]، و"ليس لليأس ، وليس أعمى" عند منصور دمّاس[7]، و" ما سئمتُ الحياة " التي كرّرها حمزة الشريف مرتين [8].

ضمائر المتكلم : أدى إنطاق عدد من الشعراء للمعوقين ليتحدثوا عن همومهم وتطلعاتهم إلى بروز ضمائر المتكلم في القصائد بشكل لافت ، وهي أقوى الضمائر إيحاءً ،

---

(١) هوامش الذات ، ص ٣٠١، ٣١٩ .

(٢) شعر المرأة السعودية المعاصر ، ص ٣٢٠ .

(٣) ينظر ديوانه عطر تهامي ، ص ١٢٣، ١٢٥.

(٤) ينظر ديوانه دموع الشعر ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٥) حروف من لغة الشمس ،ص ٣٨، ٣٩ .

(٦) العشق ينبع ، ص ٨١ .

(٧) رجع ، ص ٦٥ .

(٨) عطر تهامي ، ص ١٢٣.

ومن ذلك : حدّثوني ، واسمعوني ، لا تقولوا بأني معاق فأنا مثل باقي الرفاق ، ما تبرمتُ كلا ، ياقومُ لستُ معاقا ، أأنا المعاق؟؟ ، لستُ المعاق ، ها أنا أُتقن البناء .

أفعال الأمر : المعوق يشعر دائماً بحاجته إلى الآخرين ، ومن هنا ظهرت بوضوح في النصوص أفعال الأمر، ومن ذلك : حدّثوني عن البها ..وصفوا لي تنقل البدر ..واسمعوني للشمس[1]، أقائدتي خذي بيدي وسيري[2].

الأفعال المضارعة : يميل المعوقون ، أو من يتحدث على لسانهم إلى استخدام الأفعال المضارعة ، وسيطرة الفعل المضارع له دلالة على رغبتهم الدفينة في الحركة والانطلاق من واقعهم المر ، ومن ذلك : كل أعمى تضيء فيه البصيرة ، إنْ يُوارِ طريقاً ، يفتح الطرق ، تصبح النفوس ، يتيه بها ، يخلِّف من جاراه ، وهذه الأمثلة لشاعر واحد فقط هو ابن حسين[3].

وفي مقطوعتي فاطمة العسيري نجد الأفعال التالية : يؤرقني ، تقتات ، يؤدبها ، أغص بذلتي ويضيق صدري[4].

الصور الشعرية : تضمنت القصائد المدروسة بعض الصور الجيّدة ، كتصوير ابن حسين المكفوف المكافح الصابر متقدّماً على المبصر الخامل الذي تأكله الحسرة من تغلب المعوق عليه فيفرك عينيه من الغيرة والحسد :

يخلِّف من جاراه يفرك عينَه   وقد ألهبت من غيرة بحريقِ!

ونفي فاطمة العسيري أن يكون العمى جمرة تقتات من ذاتها ، وتحفل قصيدة عبدالله الرشيد بصور جميلة ، فعينا الأعمى تسافر إلى الزمن الأجمل ، وتعود فيُحتفل بها ، لأنها تنير الدروب ، وعيناه تشبهان القنديل يهتدي بهما الناس ، ومن بين جفنيه يولد النهار رمزاً للعلم الذي يحمله ، وفي آخر القصيدة نعثر على صورة تتضمن مفارقة عندما يطلب الشاعر من الكفيف أن يلهب الحساد والشانئين لهباً حلواً ![5]، فكيف تجتمع الحرارة مع الحلاوة؟ . هنا يكمن الجمال في هذا التركيب ، لكون إفحامهم يحتاج إلى سخونة وقوة ، وردة الفعل تجاهه من المنصفين سيكون حلوا متقبلاً !

---

(1) صدى البوح للقرعاوي ، ص ١٥٢، ١٥٣.

(2) شعر المرأة السعودية المعاصر، ص ٣٢٠ ، والنص لفاطمة العسيري .

(3) من ديوانه هوامش الذات ، ص ٣٠١ ، ٣١٩.

(4) شعر المرأة السعودية المعاصر، ص ٣٢٠ .

(5) من ديوانه حروف من لغة الشمس ، ص ٣٨-٤٠ .

ومن الصور الجيّدة ما تضمنته قصيدة محمد عبدالقادر فقيه من تصوير الموت وهو يجيء للمشلول مجيئاً تدريجياً ، فنصفه ميت ، والنصف الأخير يموت ببطء مُحدثاً ألماً مضاعفاً لصاحبه :

كأن المنايا حين همَّت بأخذه   بدا لها أن تبطي فلا تتقدمُ[1]

الأوزان والقوافي : بالنظر إلى القصائد المدروسة في هذا البحث نجد أنها نُظمت على بحور مطروقة ، وهي : الخفيف (أربع قصائد) ، والطويل (قصيدتان) ، والوافر (قصيدتان) ، والمتقارب (قصيدتان) ، والبسيط (قصيدة) ، والكامل (قصيدة) ، والمجتث (قصيدة) ، ونجد منها إحدى عشرة قصيدة عمودية ، في حين جاءت قصيدتان من شعر التفعيلة ، وهما قصيدتا حمزة الشريف وعبدالله الرشيد ، وتفعيلاتهما ترتبطان ببحريْ : المتدارك والمتقارب .

وقد يجد الباحث صعوبة في الخروج بدلالات معينة يستنبطها من قصائد لشعراء مختلفين، ولكن يمكن التأمل في ميل الشعراء إلى نظم قصائدهم في هذا الموضوع حيث غلب عليها الشكل العمودي وقل شعر التفعيلة ، فهل في هذا إيحاء بأن المعوق أجدر بأن يُخاطب بالشعر المأثور الذي يعني الثبات والاستقرار ؟ ربما ، ثم إن لإيثار الشعراء للبحر الخفيف (أربع قصائد) دلالة مهمة في هذا السياق ، وقد نضم إليها القصيدة التي نُظمت على المجتث ؛ لأن ثمة علاقة قوية بين البحرين كما يقول العروضيون[2]، ويبدو أن اختيار معظم الشعراء للخفيف لم يكن عفواً ؛ لأن موسيقا هذا البحر تتناسب والموضوعات التي طرقها الشعراء في هذه القصائد ؛ نظراً لأن موسيقاه "تتسم بالخفة والسهولة "[3]، وهو صالح للحوار وللجدل والترديد[4]، وهو ما بدا واضحاً في القصائد المدروسة إذ اعتمدت على الحوار بين المعوقين والأسوياء ، وغلب على ألفاظها التكرار .

وأما القوافي فمالت في الجملة إلى القوافي المطلقة، وهي ما كان رويّها متحركاً، باستثناء قصيدة لابن حسين، وقصيدة أيمن عبدالحق ،وهو أمر منطقي ؛ لكون القوافي

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ، ص٣٠١ .

(٢) يعللون سبب تسميته بأن اُجتث من الخفيف . ينظر : موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور ، صابر عبدالدايم ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، ص ١٣٧ .

(٣) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور ، ص ١١٨ .

(٤) انظر : المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

المقيّدة قليلة الشيوع في الشعر العربي[1].ويظهر هنا شيء طريف فثمة علاقة قوية بين القافية المقيّدة والعَوْق ، ويبدو أن ابن حسين وهو شاعر معوق حين اختار القافية المقيّدة كان يستشعر في داخله هذه العلاقة .

* * *

(١) انظر : موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور ، ص ١٧٧ .

الخاتمة :

كشفت النصوص المدروسة عن رؤى مهمة باح بها الشعراء المعوقون ، مصورين بصدق تطلعاتهم للمجتمع ، وطريقتهم في التعامل مع عاهاتهم ، ممتزجين إلى حد كبير مع فلسفة الشعراء المعوقين القدامى إذ المعاناة واحدة وإن اختلف الزمن .

وفي جانب آخر رأينا إنتاجاً يختلف عن سابقه ، وفيه وقفنا على تفاعل شرائح الأكثرية من المجتمع ، وهم الأسوياء مع هموم الأقلية ، وهم المعوقون وآلامهم وأحلامهم ، ولاحظنا المدة الزمنية الطويلة التي رُصد فيها الإنتاج في هذا السياق في المدة من ١٣٨٠وحتى عام ١٤٢٤هـ ، مع غرابة غياب النصوص التي تتناول الإعاقة والمعوقين نحواً من ثلاثين عاماً . في حدود اطلاعي . . وهي المدة من ١٣٨١-١٤٠٩هـ ، ومن هنا كان هذا الأمر مثرياً للبحث ومسهماً في إثارة بعض التساؤلات المهمة مع محاولة الإجابة عنها .

ومن الأمور التي رصدها البحث بإعجاب التحول الإيجابي الواضح عند الشعراء وتفاعلهم الجميل مع قضايا المعوقين والكتابة عنها وفق غايات سليمة تتفق وأهداف المؤسسات التي تُعنى بشأنهم ؛ سعياً وراء تغيير النظرات النمطية السلبية عنهم ، وهو ما نجح فيه الشعراء نجاحاً كبيراً ، ودللوا على مسايرة الشعر لهموم المجتمع وقضاياه الجديدة والمتجددة ، امتداداً لجهود الشعراء السابقين من الرواد الذين شُغلوا بقضايا اجتماعية كانت ملحة في زمنهم فتفاعلوا معها وأسهموا في معالجتها .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لخدمة هذه الفئات وتخفيف معاناتها واكتشاف إبداعها وعطائها .

* * *

فهرس المصادر والمراجع:

أولاً : الكتب :

١. **أصحاب البصائر : وقفات في أحوال المكفوفين وآدابهم** ، محمد بن سعد بن حسين ، الرياض : دار عبدالعزيز آل حسين للنشر والتوزيع ، ١٤١٨هـ .

٢. **الإعاقة في الأدب العربي** ، عبدالرزاق حسين، الطبعة الأولى ، الشارقة : مدينة الشارقة للخدمات الإنسانية ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

٣. **الإعاقة في التراث العربي الإسلامي** ، مختار إبراهيم عجوبة وعبدالعزيز بن علي الغريب وإبراهيم بن محمد الخرفي ، الرياض : جمعية الأطفال المعاقين ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

٤. **الأعمال الشعرية الكاملة** ، محمد عبدالقادر فقيه ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار العودة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .

٥. **جمعية وطن**، الرياض : جمعية الأطفال المعوقين ، ١٤٢٩هـ .

٦. حروف من لغة الشمس ، عبدالله بن سليم الرشيد ، الطبعة الأولى ، الرياض : دار المعراج الدولية للنشر ، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

٧. **الخيال والتصوير في شعر المكفوفين من الجاهلية إلى نهاية العصر العباسي**، محمد بن أحمد الدوغان ، الدمام : جمعية المعاقين (السلسلة الثقافية ، الإصدار الأول) ، ١٤٢١هـ .

٨ . **دليل الأدباء بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية** ، الطبعة الأولى ، الرياض : الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .

٩. **دموع الشعر** ، عبدالرحمن بن عبدالله الواصل ، الطبعة الأولى ، عنيزة : المطابع الوطنية للأوفست ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

١٠. **ديوان بشّار بن برد (ت ١٦٧هـ)** ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ، الجزء الرابع .

١١. **رجع** ، منصور محمد دمّاس، الطبعة الأولى ، جازان : النادي الأدبي ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

١٢. **شعر المكفوفين في العصر العباسي : دراسة نفسية وفنية في أثر كف البصر** ، عدنان عبيد العلي ، عمّان : دار أسامة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩م .

١٣. **شعراء نجد المعاصرون** ، عبدالله بن إدريس ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مطابع دار الكتاب العربي ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

١٤. صدى البوح ، عبدالله بن حمد القرعاوي ، الطبعة الأولى ، الرياض : مطابع الشرق الأوسط ، ١٤٢٦هـ .
١٥. العشق ينبع ، سعد بن سعيد الرفاعي ، الطبعة الأولى ، المدينة المنورة : النادي الأدبي ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .
١٦. عطر تهامي ، حمزة بن أحمد الشريف ، الطبعة الأولى ، الباحة : النادي الأدبي ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .
١٧. فواصل لذاكرة الغياب ، أيمن عبدالحق ، القاهرة : مطابع جاسراب للتوزيع والنشر ، ١٤٢٦هـ .
١٨. لسان العرب ، ابن منظور (ت٧١١هـ) ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .
١٩. مدخل إلى دراسة العنوان في الشعر السعودي ، عبدالله بن سليم الرشيد ، الطبعة الأولى ، بريدة : نادي القصيم الأدبي ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م .
٢٠. المعارضات الشعرية : دراسة تاريخية نقدية ، عبدالرحمن بن إسماعيل السماعيل ، الطبعة الأولى ، جدة : النادي الأدبي الثقافي ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .
٢١. معجم الأخطاء الشائعة ، محمد العدناني ، الطبعة الثانية ، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٣م .
٢٢. مليكة الطهر ، محمد بن عبدالرحمن المقرن ، الطبعة الأولى ، الرياض : دار القاسم للنشر ، ١٤٢٠هـ .
٢٣. موسوعة الشخصيات السعودية ، الطبعة الأولى ، جدة : مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .
٢٤. موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور ، صابر عبدالدايم ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .
٢٥. نكت الهميان في نُكت العميان ، خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ) ، تحقيق طارق الطنطاوي ، القاهرة : دار الطلائع ، ١٩٩٧م .
٢٦. هوامش الذات ، محمد بن سعد بن حسين ، الرياض : دار عبدالعزيز آل حسين للنشر والتوزيع ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م .

ثانياً : الرسائل الجامعية :

١. **شعر ذوي العاهات في الأدب المصري الحديث : دراسة تحليلية نقدية** ، علي عبدالوهاب مطاوع ، جامعة الأزهر. كلية اللغة العربية بالزقازيق. قسم الأدب والنقد ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م (رسالة ماجستير) .

٢. **شعر المرأة السعودية المعاصر : دراسة في الرؤية والبنية** ، فواز بن عبدالعزيز اللعبون ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . كلية اللغة العربية بالرياض . قسم الأدب ، ١٤٢٦هـ (رسالة دكتوراه) .

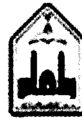
ثالثاً : الدوريات :

١. **الاحتياجات الإعلامية للمعاقين ومدى إشباع وسائل الإعلام لها : دراسة ميدانية على عينة من المعاقين في المملكة العربية السعودية** ، حمود بن أحمد الخميس وعبدالحافظ بن عواجي صلوي ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم الإنسانية والاجتماعية) ، العدد الخامس ، (شوال ١٤٢٨هـ) .

٢. **ماذا لو كنت مبصرا؟** ، محمد بن سعد بن حسين ، المجلة العربية ، العدد ٢٤٩ ، (شوال ١٤١٨هـ) .

٣. **مجلة الخطوة** (تصدر عن جمعية الأطفال المعوقين) ، العدد ١٧ ، (صفر ١٤١٩هـ) .

* * *



مطابع الجامعة

VOLUME 15 2010

JOURNAL OF ARABIC STUDIES

KINGDOM OF SAUDI ARABIA

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
AL-IMAM MUHAMMAD IBN SAUD
ISLAMIC UNIVERSITY



- **Muhammad bin Abdul Daem Al-Barmawi (763-831 A.H.): His Life and Linguistic Choices**
  Dr. Nasser bin Muhammad kariri
- **Verbal Similarities among Grammarians: "A Theoretical Applied Study"**
  Dr. Abdul Rahman bin Abdul Aziz Al-Mogbel
- **Of the Secrets of Organization in the Surah of Al-Qamar "Moon"**
  Dr. Faezah bint Salem Saleh Ahmed
- **The Ten Maqamat [Literary Prose Texts] of Abdul Rahim Al-Abbasi**
  Dr. Hassan Ahmed Al-Noami
- **Image of the Disabled in Saudi Poetry: A Study in Form and Content**
  Dr.Abdullah bin Abdul Rahman Al-Haydari

www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research